سليم مطر

الذات الجريحة

إشكالات الهويّة في العراق
والعالم العربيّ «الشرقانيّ»

سليم مطر

الذات الجريحة

إشكالات الهويّة في العراق والعالم العربيّ «الشرقاني»

DS
77
م٦
ن٢/

الذات الجريحة

إشكالات الهوية في العراق والعالم العربي «الشرقاني»

يعالج المؤلّف، في هذا الكتاب، إشكاليات الهوية في العالم العربي بكل أبعادها الفكريّة والتاريخيّة والسياسيّة، ويتخذ من حالة بلده العراق مثالاً على هذه الهوية التي مزقتها المفاهيم العرقيّة القوميّة والدينيّة والطائفيّة. والأهم من هذا أن الكاتب لا يحلل وينتقد وحسب، بل يطرح مقترحات عملية وجديدة لتجاوز (إشكاليّة الهويّة) المدمّرة للفرد والجماعة.

لقد سبق للكاتب أن طرح مسألة الهوية في روايته "امرأة القارورة" ولكن بأسلوب روائي فنتازي تاريخي.

إن معظم فصول هذا الكتاب، في الحقيقة، سبق أن نشرت على شكل مقالات ودراسات في الصحف والمجلات العربية خلال الأعوام ٩١-١٩٩٧: القدس، الحياة، الناقد، النهار، الكرمل. من خلال هذه التواريخ نفهم أن الكاتب قد أجل اهتمامه الأساسي بالرواية من أجل التفرغ لهذا المشروع التاريخيّ الفكريّ مدفوعاً بخيبة الأمل التي أصابت جميع المثقفين في العالم العربي، وخصوصاً العراقيين منهم، بعد كارثة حرب الخليج التي كشفت بقسوة عن أزمة كلّ أشكال الخطاب القوميّة والماركسيّة والليبراليّة والدينيّة التي عاشت عليها أجيالنا منذ مطلع هذا القرن. إنّ طروحات هذا الكتاب هي انطلاقة إصلاحيّة جديدة ربّما تسود العالم العربي في القرن الحادي والعشرين.

منشورات 97
عربية
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي
هاتفاكس: ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١

الذات الجريحة

إشكالات الهوية في العراق
والعالم العربي (الشرقاني)

الذات الجريحة / دراسة
سليم مطر / مؤلّف من العراق
الطبعة العربية الأولى ، ١٩٩٧
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ساقة الجنزير ، بناية برج الكارلتون ،
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيالي ،
هاتفاكس : ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٦٠٥٤٣٢ ، فاكس ٦٨٥٥٠١
تصميم الغلاف والإشراف الفني :
®
تخطيط العنوان :
عبد الرزاق حمودة / تونس
لوحة الغلاف :
" اللبوة الجريحة " جداريّة عراقيّة آشوريّة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced , stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر .

سليم مطر

الذات الجريحة

إشكالات الهويّة في العراق والعالم العربيّ «الشرقانيّ»

كتابخانه تخصصى
وزارت امور خارجه
114917

DS
77
۶م/
۲ذ
ن۱۰

... سیاسی و بین المللی
١١۴٩١٧
~~١٣٧٨٢~~
~~٧٨/٤/٢~~
٨٤/١١/٩

الى العـراق .. أرض الرافـدين

ما دامت النمور لا تمتلك مؤرخيها ..
فإن حكايات الصيد ستظل
تمجد الصيادين .

مثـل افـريقي

DS
٧٧
١٩٤
ن٢

محتويات الكتاب

الصفحة

المدخل : الانسان الممزق الهوية في العالم العربي ———— ٩

الفصل الأول : تجديد الهوية الفكرية ———— ٢٩

- من أجل فلسفة وسطية حديثة ———— ٣١

- الثقافة بين المجتمع والسياسة والدين ———— ٥٤

- حول المرأة والفلسفة الصينية «التاوية» ———— ٦٦

- نموذج للفهم العرقي والتغريبي ———— ٧٥

الفصل الثاني : تجديد الهوية التاريخية - الحالة العراقية ———— ٨٥

- العقدة الإيرانية والهوية العراقية الممزقة بين العروبة والتفريس ———— ٨٧

- التفريس باسم العروبة ———— ١٠٣

- تأثير العقدة الايرانية في الحاضر العراقي ———— ١١٧

- ملاحق معلوماتية عن تاريخ العلاقات بين العراق وايران ———— ١٣٧

الفصل الثالث : تجديد الهوية الشرقانية «العربية» ———— ١٧٩

- عالم عربي أم عالم شرقاني؟ ———— ١٨١

- مع الوحدة العربية وضد القومية العربية ———— ١٩٢

- بلدان الهلال الخصيب والهوية المشرقية المنسية ———— ٢٠١

- ملاحق معلوماتية عن تاريخ بلدان المشرق العراقي ـ الشامي ، ———— ٢١٥

وعن وحدة الهلال الخصيب والحزب القومي السوري .

الصفحة

الفصل الرابع : تجديد الهوية التاريخية «العربية» ـــــــــــ ٢٥٧
- التصالح مع الميراث القبلاسلامي ـــــــــــ ٢٥٩
- توحيد الميراث التاريخي ـــــــــــ ٢٦٩
- توحيد الميراث الديني ـــــــــــ ٢٧١
- متوحيد الميراث اللغوي ـــــــــــ ٢٧٤
- ملاحق معلوماتية عن علاقة اللغة العربية مع اللغات السامية ـــــــــــ ٢٧٩
- ترجمة التراث العربي الى العربية ـــــــــــ ٣٠٢
- المانوية حلقة مفقودة من تاريخنا ـــــــــــ ٣٠٧
- ملاحق معلوماتية عن أصول شعوب المنطقة وتاريخ التعريب ـــــــــــ ٣١٩

الفصل الخامس : تجديد الهوية الوطنية ـ الحالة العراقية ـــــــــــ ٣٤٦
- المعارضة وتجديد البنية الفكرية ـــــــــــ ٣٤٧
- الهوية العراقية الممزقة ـــــــــــ ٣٧٨
- الشيعة والمشكلة الطائفية ـــــــــــ ٣٩٤
- ملاحق معلوماتية عن إشكاليات الوضع العراقي وتنوع الفئات اللغوية والدينية والمذهبية ـــــــــــ ٤٠٩
- قضية كردستان الكبرى وحقوق السريان ـــــــــــ ٤٤٨
- ملاحق خاصة بقضية السريان ـــــــــــ ٤٧٨

خاتمة : اقتراحات تكميلية لبناء هوية وطنية ـ الحالة العراقية ـــــــــــ ٤٩٣

المدخـــــل

الانسان الممزق الهوية في هذا العالم العربي

أتذكر في أواخر الستينات وكنت في بدايات سن المراهقة والوعي السياسي، أني طرحت سوالاً على أحد أصدقاء أبي، وكان هذا الرجل فقيهاً ورعاً يتحدث دائماً عن الدين والسياسة : .

- يا عم، قل لي من فضلك، إذا كان الإسلام هو دين الله، والمسلمون هم الأولى برحمة الباري عز وجل، طيب لماذا هكذا نحن العرب متخلفون وضعفاء أمام اليهود والغرب؟

وكان جواب الرجل بسيطاً وصادقاً يعبر بجلاء عن بقايا العقلية «العثمانية» السائدة :

- اسمع يا بنيّ، إن الله سبحانه وتعالى، منح لكل ملّة موهبة : اليهود وهبهم المال، والنصارى العلم، أما نحن فقد وهبنا الإيمان. لهذا يا ابني هم لهم المال والدنيا، أما نحن فلنا الله والآخرة . . . الجنة بانتظارنا لو تمسكنا فعلاً بديننا ونبذنا الدنيا .

أما أنا، فلأني أعشق الدنيا، وقد أمضيت سنوات طفولتي بالحرمان والخوف والإذلال، فإني نبذت الدين بكل عنفوان الشباب واتجهت بكل روحي الى الدنيا، الى أوروبا والغرب حيث المال والعلم وملذات الحياة .

حصل هذا في أوائل السبعينات، وكانت بغداد ومدن العراق وجمييع المدن العربية تغلي بالتيارات الثورية والقومية والماركسية مع بقايا الليبرالية القديمة. الجميع، وحتى البسطاء من أبناء الشعب، كانوا يتشدقون بالتقدمية والاشتراكية والماركسية والوجودية والإلحاد، وكان الشعار المهيمن بين المثقفين : «أنظر الى ورائك بغضب» وهذا يعني بكل بساطة نبذ كل ما هو ماض والاتجاه نحو المستقبل كالحصان الجامح .

باسم الثورة والتقدم رحنا نسخر ونحتقر كل ما له علاقة بماضينا وعاداتنا وتراث شعبنا . صحيح أننا كنا نغطي كل هذا بمقولات قومانية وطبقية تفتخر بالأمة العربية، وتمجد الطبقات الكادحة، ولكن في تفاصيل الفكر والنظر كنا نعتبر رجعياً وظلامياً كل ما له علاقة بالدين والتقاليد الشعبية والتراث الوطني والقومي .

باسم الخوف من الطائفية والرجعية تجنبنا كل ما له علاقة بالممارسات والتقاليد الدينية . صار واحدنا لكي يبين تقدميته وتحضره يبدأ بالسخرية من الدين ، والرجعية طبعاً . نتشدق بمقولات لماركس وغوركي ولينين ، وإذا كان واحدنا متمرداً وجودياً يحتقر السياسة كما يدعي فعليه بكامو ونيتشه وسارتر . باسم الخوف من العشائرية شرعنا باحتقار كل تقاليد وتراث أهلنا وبصقنا على مفاهيمهم التي يؤمنون بها منذ آلاف الأعوام . صرنا نخجل حتى من أسمائنا من ثيابنا من لهجتنا من مأكلنا . حتى الخمور كنا نحتسيها ليس لأنها من تقاليد مجتمعنا ، بل لأنها رمز للتمرد على الدين وتقليد للتحضر الغربي . رحنا نفتخر باستماعنا لموزارت وبتهوفن ، وحفظ أكبر عدد من الأسماء الأجنبية ابتداء من بيكاسو ودالي وشولوخوف ، حتى كاسترو وغيفارا وماوتسي تونغ . نسخر من أمهاتنا عندما نراهن يلطمن أو يبكين على مقتل الحسين ، بل إننا كنا نأسف لوجود الجوامع والعتبات المقدسة ونتمنى لو يأتي اليوم الذي سنحولها الى جامعات ومنتديات للثقافة والشباب . وصل بنا الأمر أننا في العام ١٩٧٧ صفقنا للحكومة «التقدمية» وهي تضرب بطائراتها «الاشتراكية!» تجمعات «العشائر الرجعية!» في ذكرى عاشوراء .

تحت الأقـدام

رواية «المسخ» لكافكا تتحدث عن ذلك الإنسان البائس الذي يستيقظ يوماً ليجد نفسه قد تحول الى صرصار . وينتهي مصيره بسحقه تحت الأقدام . يمكننا دون مغالاة كثيرة ، مقاربة حال الإنسان العربي ، وعموم العالم الثالث ، مع حال ذلك المسخ .

معظم الطروحات التي تناقش أسباب بروز الحالة الدينية والتطرف السياسي تؤكد على العامل الاقتصادي وانتشارالفقر وغياب الديمقراطية ، وأن المسؤول عن هذه الحالة هو الحكومات وحدها . لا أحد يختلف على دور الحكومات الأساسي في انحطاطنا الى هذا الخراب ، لكن هذا لا يعفي أبداً جميع الأجيال المثقفة والمسيسة التي ساهمت في هذا البناء المشوه للعقل العربي منذ مطلع القرن وحتى الآن . بشكل أوضح نقول : أنه ليس الفقر وغياب الديمقراطية وحدهما السبب في حالتنا هذه ، إنما أيضاً عملية الانمساخ العقلي وتشويه الهوية الوطنية والإنسانية التي أخضعنا شعوبنا لها وساهمنا بحسن نية في قتل كرامة الإنسان وتغريبه وسحق شعوره بتفرده وخصوصيته .

منذ أجيال عديدة وجميع التيارات الحداثية والعلمانية ، حكومية ومعارضة ، ليبرالية وقومية وماركسية ، لا تكف عن إشعار المواطن بـ «تخلفه ورجعيته وغبائه وانغلاقه ووو . . . ما دام لم يتبن الحداثة» . نذكره بتخلفه في كل جوانب حياته وعقله : مأكله ، مشربه ، ثيابه ، مسكنه ، تقاليده ،حكاياته وأغانيه ، وسائل علاجه ومعيشته . الأكثر من هذا ، أشعرناه بتخلف معتقداته الدينية وطقوسه المقدسة .

مشكلتنا أننا منذ مطلع القرن اندفعنا بسذاجة المستعبدين للتخلص من ظلامية الحقبة العثمانية وميراثها الإسلامي المغلق . من سخرية القدر أن العثمانيين الذين ظلوا لقرون مغمضي الأعين تماماً عن الثورة التكنولوجية العلمية المتفجرة عند جارتهم أوروبا ؛ فجأة في مطلع القرن الحالي أعلنوا ثورتهم العلمانية الحضارية ، بمراهقة طائشة قرروا أن يلغوا بأعوام ميراث قرون بأكلمها . سيد أتاتورك اعتقد أن تطور الأتراك وتحضرهم يكمن بخلعهم الطربوش وارتداء القبعة الأوروبية المتحضرة ، التي كانت قبعة الفلاحين والعمال والفقراء . باعتراف الكثير من المثقفين الأتراك أن أكبر جريمة قام بها أتاتورك ضد ثقافة الشعب التركي ، أنه غيَّر بجرة قلم الكتابة العربية الى الكتابة اللاتينية مما خلق قطيعة وحشية بين التاريخ العقلي للشعب التركي وحاضره الجديد . لقد وصلت السذاجة العثمانية الى حد فرض قص الشارب ومنعه حتى الآن في الجيش التركي .

كان من المعقول أن تتجنب النخب العربية هذه العلمانية التركية المراهقة ، فتعترف أولاً بحقيقة وجود الإسلام واستحالة إلغائه بمجرد تبني الحضارة الغربيية . ثم العمل على تطوير الإسلام وضخ الحياة والحضارة اليه ودفعه ليستعيد عنفوان فترة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية بدينها المنفتح الواعي والمتنوع . ألم تكن دمشق وبغداد والقاهرة والأندلس عواصم للتعددية الحضارية والدينية والفكرية تضاهي ما هي عليه الحضارة الغربية الحالية من تنوع ثقافي وتعددية فكرية وسياسية؟

يبدو أن المحاولات الأولى في أواخر القرن الماضي ، مثل الأفغاني والطهطاوي والكواكبي ، كانت تصب في هذا المجال وتبحث عن الطريق الوسط للعودة للإسلام الحضاري وتجديده ، ليستوعب من ناحية متطلبات الحداثة والتقنيات الغربية وفي الوقت نفسه يحافظ على الشخصية الوطنية والخصوصية التاريخية الأصيلة . لكن هذه المحاولة قضي عليها في

مـهـدها مع مطلع القـرن أمـام الزخم الهـائل لتـجـربة أتاتورك وكـذلك الاجـتـيـاح الأوروبي للمنطقة ، عسكرياً وتكنولوجياً وعقلياً .

من أهم نتائج هذا الانكسار العربي كان ظهور الانشقاق التاريخي الذي لا زال سائداً حتى الآن : انفصال التيار الديني عن التيار المدني ، أي بقاء الدين محصوراً في التكيات والجوامع والمدارس الفقهية المتخصصة ، وبالتالي بقائه خاضعاً لكل إرث الحقبة العثمانية المغلق والمتعصب والساذج . أما التيار المدني فلقد لجأ لأسهل الحلول ، إذ تبنى العلمانية الغربية وحكم على الدين بالتخلف والرجعية وراح يشيع بصورة تلميذية ساذجة كل المظاهر والعادات والتقاليد والأفكار والمبادىء والأذواق والمشاعر الأوربية ، مع انسلاخ مفتعل عن الماضي الوطني باسم محاربة الإرث العثماني المتخلف .

ما زلت غير متدين ، أقولها ليس بفخر أبداً ، بل لأنها الحقيقة ، ولكي أدفع عني «تهمة» الميول الدينية السلفية التي سيقذفها بوجهي الكثير من العلمانيين . لكن تحرري، من الانبهار الساذج بالنموذج الغربي ، جعلني أتحرر من تبجحي المتصابي بإلحادي وحداثتي وتقدميتي وترفعي عن معتقدات شعبي أو معتقدات أي شعب على وجه الأرض . الآن فقط أدركت أن التعصب والظلامية يمكن أن تكون أيضاً صفة للعلمانيين والملحدين والعلميين . جرائم العصر الحديث وحروبه الاستعمارية والأهلية ومظالمه ودكتاتوريته معظمها مورست وتمارس من قبل أناس ليس لهم أي علاقة بالدين . الدكتاتورية التي تمارس في البلد العلماني الاشتراكي الفلاني ليست أرحم من دكتاتورية البلد الديني الفلاني .

حتى وصولي إلى أوروبا كنت أحمل صورة ساذجة ومضخمة عن المجتمعات الأوروبية وحضارتها الخارقة : الناس في أوروبا كلهم يلبسون نظارات طبية ، يأكلون العلم ويشربون الثقافة ويمضون لياليهم بأحلام ساخرة عن الله . تخلصوا من الدين ونسوا من هو المسيح . تراهم إما يساريون يتعبدون في محراب ماركس وسارتر وغيره ، أو يمينيون يتعبدون في محراب مونتسيكو وكانط وبرغسون وغيره . ليس لديهم عواطف ومشاعر شخصية ومحسوبيات جماعية ، بل هناك العقل والحسابات العلمية ، وروح التنظيم والانضباط الحضاري . نساؤهم ، يا صاحبي ، ملتهبات ومتفتحات بكل معاني الكلمة ، ورجالهم باردون ولا يعرفون الغيرة ، والأهل يطردون أبناءهم وبناتهم بعد سن الثامنة عشرة ! !

بعد اكتشاف أوربا بدأت أوهام الشرق تتبدد . أول ما لفت انتباهي أنه ليس كل رجال أوربا يشبهون «آلان ديلون» ولا كل نسائهم يشبهن «بريجيت باردو» . إنهم يختلفون عنا في الكثير من مظاهر الحياة التقنية والسياسية والثقافية ، لكنهم مع كل هذه الاختلافات لا زالوا بشراً مثلنا ، أو بالأحرى عرفت أننا بشراً مثلهم! هم مثلنا يلهثون وراء لقمة العيش ، ويحلمون بالغنى والمرتبة الاجتماعية . مثلنا يقعون في الحب ويتألمون وينتحرون من الخيبة ويقتلون بسبب الكرامة أو الجشع . ثم هم مثلنا ، لا زالوا يعيشون عذابات المرض وقلق الموت وفراق الأحباب ، ويعانون الحيرة أمام معضلة الله وسر الوجود .

في أوربا دُهشت عندما أدركت أن الخمرة ليست رمزاً للحداثة ، والأوربيون ليسوا جميعاً يقدسون الخمرة ، وثمة الكثيرون يحتسونها بصورة محدودة أو نادرة . بل هناك دول مثل السويد قد فرضت الحدود الصارمة على تناول الخمرة وقننتها مثل الدواء ، لأنها سبب للكثير من المشاكل الصحية والاجتماعية بالإضافة الى معظم حوادث الطرق .

الأهم من هذا ، في أوروبا اكتشفت أن هناك أيضاً شيئاً اسمه الدين . الكنائس موجودة في كل قرية ومدينة . يدرسون اللاهوت ويحضرون الشعائر ويحتفلون بالأعياد المقدسة . يرسمون الصليب على معظم أعلامهم ويمنحون أطفالهم أسماء القديسين ، بل إن الكثير من مدنهم وقراهم تحمل أسماء القديسين والأولياء . حتى الأميركان إياهم وضعوا على دولاراتهم عبارة : «نحن نؤمن بالله» .

الأوربيون مثلنا ، فيهم الطيبون وفيهم الأشرار ، وبعضهم يعاني أيضاً من العقد والانحرافات النفسية . ربما هم أسوأ منا في بعض النواحي ، يعيشون الانمساخ والتآكل بسبب هيمنة روح المنافسة وثقافة السوق والعزلة الفردية وتلوث الطبيعة والمخدرات والعنصرية وحوادث السير والانتحار والتسلح والخطر النووي .

قبل اكتشاف أوروبا كنت أرثي حال الشخص الذي يذهب للحج أو يؤدي فروض الصلاة والصوم . في أحسن الأحوال ، كنت أقول عنه : «مسكين ضيع شبابه» . الآن بدأت أدرك أن الصوم والصلاة والحج والبكاء في عاشوراء ممارسات إنسانية لخلق حالة من السلام الروحي في نفس الإنسان ، ومحاولة للحوار بين الإنسان والكيان المطلق ، ليكن الله أو بوذا أو براهما أو المجهول أو أي كان . حتى الإنسان العلمي الملحد يلبي من دون قصد حاجته

للاتصال بالقوة المطلقة : الاستماع الى الموسيقى والرقص والإبداع الفني والتمعن بالجمال والذوبان في خلجات العشق والحب بأنواعه ، كلها بالحقيقة طقوس لمناجاة الكائن المجهول الأعظم .

ترى الأوربيين لم يتركوا شيئاً من التراث والتقاليد إلا درسوه وسجلوه وعملوا على إحيائه وتطويره . وأن سر حضارة أوربا وعنفوانها يكمن في قوة شخصيتها التاريخية وحفاظها على أصالتها التراثية والدينية . الثورة العقلية الأوربية لم تبدأ ، كما نتصور ، برفض المسيحية ومعاداة الكنيسة ، بل قبل كل شيء كانت العودة الى التراث الأوربي الماقبل مسيحي ، الروماني واليوناني . بالتالي تطوير المسيحية وتطويعها لكي تتقبل التراث الأوزوبي القديم ومن ثم تتقبل العلم والحداثة الأوربية الأصيلة .

صحيح أنهم أخذوا الشيء الكثير منا حتى قبل الإسلام والأندلس . هل نسينا أن الديانة المسيحية قد ولدت ونشأت في منطقتنا وصنّاعها والمبشرين بها خلال قرون كانوا من أسلافنا! بل إن معظم الطقوس والتراتيل الكنسية مقتبسة نصاً من تراثنا ، حتى ثياب أسلافنا لا زال يرتديها كهنة أوربا : الجلباب والطاقية ، ثم الفوطة البيضاء على رؤوس الراهبات !

رغم ذلك فإن الأوربيين طوعوا المسيحية حسب واقعهم ومتغيرات عصرهم ، ابتداءً من الكاثوليكية ثم البروتستانتية وصولاً الى العلمانية التي لم تلغ المسيحية حسبما نتوهم ، بل طوعتها حسب حاجات المجتمع والدولة الجديدة . نهضة أوروبا ابتدأت بالكشوفات الجغرافية ثم الفتوحات الاستعمارية وحتى التصفيات العرقية . كل هذا والكنيسة كانت حاضرة والمبشرون المسيحيون كانوا في مقدمة الجيوش ، بل إن الكنائس الأوربية ، منذ الحروب الصليبية كانت تعتبر المسيحيين العرب ناقصي الإيمان ، ولهذا عملت منذ قرون وحتى الآن على إخضاع الكنائس العربية النسطورية واليعقوبية والمارونية والقبطية ، الى هيمنة الكنيسة الكاثوليكية ثم البروتستانتية .

ها هي أوروبا بعد قرون العلم والعلمانية ، لم تتخلص أبداً من المعتقدات الدينية ، بل هناك عودة كثيفة الى الدين مع نمو مستمر للطوائف الجديدة مسيحية وشرقية . ثم بروز التيارات السياسية والفكرية المطالبة بالتخفيف من هيمنة العلم والتقنيات واحترام البيئة والاعتراف بالطب الشعبي والعلاجات الروحانية وحتى السحرية .

مختصر الحديث ، أخيراً في أوربا سقطت تفاحة نيوتن على رأسي ، واكتشفت الحقيقة : إن الأوربيين لا تدور حولهم الشمس ، بل هم بشر مثلنا يدورون حول الشمس بكل طيبة وتواضع . لا هم ملائكة كما يصورهم علمانيونا ، ولا هم شياطين كما يتوهمهم متدينونا . الفرق الوحيد بيننا وبينهم يكمن في مشيئة التاريخ والجغرافية التي منحتهم منذ قرون فرصة بناء ذاتهم وخلق عناصر قوى مادية ومعنوية تضخ فيهم الاحساس بالتفوق والهيمنة على العالم «المتخلف» . هذا التفوق هو الذي يجعل الأوربيين يصمدون أكثر أمام أسباب الانمساخ والتمزق ويحافظون على نوع من الاستقرار الاجتماعي السياسي .

أما نحن فلأننا دائماً وراء أوربا ، فإننا بحاجة الى أجيال وحروب وخيبات لكي ندرك أن الغرب بدأ ينتبه لمغالاته في عبادة العلم والتقنيات واحتقار التقاليد الروحية والمواريث الإنسانية .

الدشداشة والسيارة

ذات يوم كنت أتمشى مع صديق بمحاذاة بحيرة جنيف ، فجأة سمعته يردد بسخرية :

- شوف شوف . . . يظل هؤلاء العرب متخلفين دائماً .

رأيت أمامنا مجموعة من الخليجيين بثيابهم التقليدية ، اصطفوا ليلتقط لهم أحدهم صورة وخلفهم البحيرة .

استمر صاحبي بتعليقه :

- شوف هؤلاء «المعگلين* - أي لابسي العقال» ، لم يتعلموا حتى الآن أنه ليس من الذوق أن تحشر نفسك في الصورة . شوف الأوربيين يا أخي ، لهم حس جمالي بالأشياء ، تلاحظهم لا يحشرون أنفسهم بالصورة إنما يصورون المشهد وحده ، أما نحن فنبقى متخلفين .

لم أجبه وبقينا نسير . بعد خطوات قليلة رأينا المشهد نفسه ، ولكن هذه المرة لم يكونوا عرباً ، بل كانوا يابانيين!

حينها التفتّ الى صاحبي وسألته :

- ما رأيك إذن بهؤلاء اليابانيين ، هل هم أيضاً متخلفون؟ تراهم أكثر من العرب يحشرون أنفسهم ليس فقط في الصور السياحية بل حتى في صور التجسس .

* اننا فضلنا كتابة (الجيم) المصرية بحرف (گـ) ، مثل « إنگليز » .

هذه الحكاية أثارت فيّ عدة معان ، أولها أننا دائما نقارن أنفسنا بأوربا ، وكل شيء لا يمارسه أو يتذوقه الأوربيون هو بالتأكيد متخلف غير حضاري . حتى أحاسيسنا الجمالية وأذواقنا مسخناها حسب مقاييس أوروبا . وقعنا دون وعي منّآ بـ «العنصرية الذاتية» ، السخرية والاحتقار لشعبنا وأحاسيسه وأذواقه .

الجانب الآخر من الحكاية ، أن صاحبي سخر من هؤلاء العرب لأنهم «معگلين» ، رغم أني أعرف جيداً أن أباه مثل أبي كان يرتدي العقال العربي والصاية العراقية . لكن «الحضارة» عودتنا السخرية من «أهل العُگَل» ، لأن الحداثة والتقدم ارتبطا لدينا دائماً بـ «الأفندية والخواجات» .

أتذكر أننا أبناء الحارات الشعبية كنا نعاني من الشعور بالنقص من لبس «الدشاديش» مقارنة بـ «المتمدنين» الذين يرتدون «البيجامات» . في أوربا اكتشفت أن البيجامة يرتدونها للنوم فقط . أما نحن فتعودنا أن نرتديها ونفتخر بها في الطرق والمقاهي . هناك طرفة في قرى أهوار العمارة تتحدث عن طفل ريفي أتى يوماً المدرسة مرتدياً البيجامة . وعندما سأله المعلم عن الأمر ، أجابه مفتخراً :

- يا أستاذ هذا قاط (أي بدلة) جابه أخوي من بغداد .

قضية الثياب هذه قد تبدو ثانوية في نظر الكثيرين ، ولكنها بالنسبة إليّ خلاصة التعبير عن الاحتقار الذاتي الذي عشناه ونعيشه . الآن فهمت ، لماذا أصر غاندي ، منذ إعلان تمرده وحتى موته ، على ارتداء الملابس التقليدية الهندية ، رغم أنه أمضى شبابه الأول كمحام عصري وأنيق على الطريقة الأوربية . موقف غاندي هذا لعب دوراً كبيراً في تقوية الإحساس بالأصالة والهوية الهندية . لا زالت حتى الآن الثياب التقليدية الهندية ، رجالية ونسائية ، سائدة لدى جميع الهنود بما فيهم النخب السياسية والمثقفة والغنية . هذا الموقف انعكس على جميع تفاصيل الهوية الهندية وخفف من حدة الانمساخ الحضاري والسياسي الذي عانوه خلال قرون الاحتلال البريطاني .

ليس صدفة أبداً أن جميع الحركات الإسلامية تصر على ارتداء الثياب التقليدية . إنها ردة فعل طبيعية على الاحتقار الذي مارسه «المتحضرون» ضد هذه الثياب (موضوع ثياب المرأة سنتطرق له لاحقاً) .

قبل فترة تذكرت أن الحكومة في العراق منذ سنوات منعت قيادة السيارة لمرتدي الدشداشة . سألت الأصحاب إن كان منع الدشداشة يعود الى إعاقتها لحركة القدمين أثناء القيادة؟

لكن الجميع استغربوا تساؤلي عن قضية واضحة كالشمس :

- أخي فكر شوية ، معقولة تسمح لواحد متخلف يلبس الدشداشة ثم يسوق السيارة . الله أكبر ، يعني الواحد يتحضر شوية . السيارة مع الدشداشة!!

هكذا مسختنا تربية عقود الحداثة!

لا أحد ينكر أن أجيال الحداثة والتغيير بجميع تياراتها الفكرية والسياسية كثيراً ما كانت صادقة في نواياها ، بل إن الكثير من الحداثيين ، قد كافحوا باخلاص وضحوا حتى بأرواحهم من أجل تطورنا الحضاري والإنساني . لكن مشكلة هذه التيارات أنها كانت مهووسة بالنموذج الغربي «اشتراكي أو رأسمالي» ، الى حد الاعتقاد بوضاعة وتخلف كل ما هو غير غربي .

منذ البداية فرضت حكوماتنا على الموظفين والعمال والطلاب خلع الثياب الوطنية وارتداء الثياب الأوربية . حتى بعض المتدينين «المتنورين» ساهموا بحسن نية في هذه الحملة . قرأت مرة انه في سنوات الأربعينات ، أعلن مفتي سورية عن أسفه لاستمرار الناس في ارتداء «الثياب الدينية» أي الثياب الوطنية . مفتينا الطيب هذا كان يعتقد ، أنه لأمر سيء أن يتشابه بالثياب الناس العاديون مع المتدينين ، وأن تنعدم الفروق الشكلية بينهما . أي بصراحة ، يا جماعة حلوا عنا ، كونوا أفندية واتركوا لنا الدين وثياب الدين .

هكذا إذن اكتملت المأساة ، وتم الفصل التام بين الدين والدنيا ، بين الماضي والحاضر ، حتى بالثياب خلقنا عالمين نقيضين : عالم أهل الحداثة الأفندية ذوي البنطال والقميص والكرافات والقبعة والرأس المكشوف ، وعالم أهل الدين والبساطة والتقليد و«التخلف» ذوي الشروال والجلابية والطاقية والعقال والعمامة!

أما بالنسبة الى ثياب المرأة فالمسألة أكثر تعقيداً وتحتاج الى قسم خاص بها .

أفخاذ تقدمية !

أتذكر في أواخر الستينات أنه انتشرت في بغداد بين النساء موضة الـ «ميني جوب» .

وهو الثوب القصير الى ما فوق الركبة . بالإضافة الى موضة البناطيل الضيقة التي تكشف عن ثنيات الجسد . حتى الشابات اللواتي حافظن على لبس العباءة السوداء ، اضطررن الى ارتداء هذه الثياب تحت العباءة . التعيس في الأمر ، أن المرأة التي غيرت مظهرها لم تغير سلوكها وعقليتها . ظلت كعادتها صعبة المنال متحفزة الى الرد بعنف على أي بادرة تحرش . تصوروا إذن حال الرجال في صيف بغداد حيث الحرارة عند الظهر تتجاوز الخمسين . الجميع يلهث من العطش والعرق النازف ، بينما الأفخاذ السمراء والبيضاء تتهادى تحت الشمس ، بشموخ وتوهج مثل حراب الجنود . بين حين وآخر يفاجئك مشهد اللحم البض يقدح من بين سواد العباءة كبرق في ليل دامس . لم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل تطورت الأزياء نحو ما يسمى بالـ «ميكروجوب» حيث يكشف الثوب عن الأفخاذ كلها . صدقوني ، إنه الجنون بعينه . لو تعرفون كيف كان حالنا نحن الشباب «التقدميون» . كنا نعاني الأمرين : من ناحية يتوجب علينا احترام حرية المرأة وتحضرها و «خلاعتها الثورية» ، ومن ناحية أخرى فإن أجسادنا وأرواحنا لا تكف عن العويل كلما واجهنا جبروت تلك الأفخاذ . كنا نخفف عن أنفسنا بالاعتقاد بأن الذنب ذنبنا نحن فحول الشرق ، المحرومين المكبوتين ، بحيث تثيرنا رؤى مثل تلك «الأفخاذ التقدمية» . ما علينا إلا تطوير أنفسنا وشعبنا «الطيب البسيط» لكي تصير مسألة الجنس ثانوية جداً ، مثل أوربا !

الكثيرون في بغداد يتذكرون حادثة غريبة وطريفة جرت في أواخر السبعينات . كان بطلها وضحيتها إسكافي له دكان يقع في شارع الرشيد . كان هذا المسكين يمضي وقته في ترقيع الأحذية وتلميعها ، بينما الأفخاذ الكريمة لا تكف عن المرور أمام دكانه ؛ بل ما فتئت أعدادها تتفاقم كجراد ينهش في روحه . كلما رفع رأسه شعر بسكين الشهوة تنغرز في أعماقه ، فيخفض عينيه على الحذاء لاعناً الزمان والقدر . ذات ظهيرة رمضاء تفجرت دماء الغضب في عروقه بعد أن فقد الأمل تماماً في الإبقاء على صبره ، وإذا بصاحبنا يمسك شاكوشه «مطرقته» ، ثم يخرج «عضوه» ويضعه على السندان صارخاً به : «كل مشكلتي بسببك ، لأقتلك قبل أن تقتلني» ، ثم عاجله بضربة عصماء جعلته يفقد وعيه تماماً ويشرف على الموت لولا سيارة الإسعاف .

موضوع ملابس النساء إذن ليس ثانوياً كما يدعي الكثيرون ، بل هو الآن بالذات يعتبر قضية أساسية في الصراع الدائر بين العلمانيين والمتدينين . منذ العشرينات تفجر الصراع

حول قضية ثياب المرأة مع انطلاقة الدعوة الى السفور ورفض الحجاب والمطالبة بالمساواة القانونية والاجتماعية . مسألة ثياب المرأة منذ البدء وحتى الآن ظلت نقطة انطلاق أساسية في الصراع الفكري السياسي والاجتماعي بين دعاة الحداثة ودعاة السلفية .

طبعاً يتوجب علينا بهذه المناسبة التأكيد قبل كل شيء على حقيقة الوضع اللاإنساني للمرأة في مجتمعاتنا . لكن موضوع الثياب أمر يناقض مسألة مساواة المرأة لأنه يحولها الى موضوع جنسي لا أكثر .

مشكلتنا في الحقيقة أننا ، على جري العادة ، اتخذنا من النموذج الغربي مثالاً مطلقاً للحلول الممكنة ، وانقسمنا حوله الى نقيضين : العلمانيون يدافعون عن وضع المرأة و«ثيابها» في المجتمع الغربي ، والمتدينون يدينونه ويعتبرونه نموذجاً للفساد والتفسخ والتعري . من الطبيعي أن نختلف مع المتدينين الذين اعتبروا أي زينة أنثوية هي رجس من عمل الشيطان ، حتى خلطوا بين الطهارة والقبح . المرأة الطاهرة لدى المتدينين ، بالضرورة أن تصير قبيحة المنظر ومحجورة في كيس فضفاض وغطاء رأس خانق ، في حمى عدائهم للنموذج الغربي تناسوا أن أمهاتنا خلال جميع قرون الإسلام وما قبل الإسلام وحتى الآن بقين يرتدين الثياب الوقورة والمقبولة دينياً دون التخلي عن التنويع والتزين بالألوان والحلي والوشم . لدينا ما لا يحصى من الأزياء الشعبية والتاريخية المتميزة بالأناقة والكفاية العملية والصحية ما يغنينا تماماً عن اللجوء لأكياس العفة هذه .

لكن رفضنا لهذا التحجر الديني لا يمنع من إدانتنا أيضاً للتحجر العلماني والغربي بتقديس عري المرأة! نختلف مع المتدينين في تقديسهم لحجاب المرأة وتقبيحها ، ثم نختلف كذلك مع العلمانيين بربط تحرر المرأة بمدى قدرتها على الإثارة وإظهار المفاتن . هناك فرق بين الجمال والإثارة ، الجمال يخاطب المشاعر والعقل والقلب ، أما الإثارة فتخاطب شيئاً آخر نعرفه جميعاً ونعاني من حرقته ليلاً ونهاراً .

مشكلة ثياب المرأة هذه ليست خاصة بمجتمعاتنا ، بل هي في صلب معاناة المجتمعات الغربية . يكفينا بعض التعمق وراء المظاهر السينمائية المفتعلة ، لنكتشف أن معاناة الرجل الغربي الجنسية والعاطفية لا تقل حدة عن معاناة الرجل في بلداننا . صحيح أن درجة الكبت أقل بكثير مما لدينا ، وفرص العلاقة والإشباع متوفرة أكثر مما في بلداننا ، إلا أن هذا لا يمنع من بقاء المشكلة رغم اختلافها الشكلي وتلونها .

عري لا يرحم

كم هي أسطورية تلك الفكرة السائدة لدينا عن الرجل الأوربي المترفع عن شهوات الجسد . الحقيقة أنه لا يختلف كثيراً عن أي رجل في العالم : يكره ويعشق ويغار ويخجل ، ويعيش مثل كل الرجال حيرة علاقته بالمرأة رغم كل مظاهر التحرر والإباحية والمساواة بين الرجال والنساء ، إلا أن علاقة الرجل بالمرأة أعمق وأعقد بكثير من أن تحلها مظاهر الإباحية والمساواة المزيفة السائدة في الغرب . من معالم هذه المعضلة مثلاً ، استفحال ظواهر اجتماعية مرضية مع استفحال جنون العري والإثارة الذي راح يسود عالم المرأة وأزياءها : مشاكل تعرض النساء لأنواع المضايقات والتحرشات والابتزازات الجنسية ، أي ما يسمى بـ «هوس الاستعراضية ـ l'Exhibitionisme » ويعني الممارسات الخليعة التي يقوم بها الرجال للتحرش بالنساء ، وهي تهمة يعاقب عليها القانون بالسجن لعدة أسابيع . ثم هناك أيضاً مشكلة «الابتزاز الجنسي ـ l'Harcelement Sexuel» أي استغلال الرجل لمنصبه الاداري لابتزاز المرأة الخاضعة لسلطته . هناك احصائيات نشرت في سويسرا تكشف عن نسبة ٤٠٪ من العاملات والموظفات اللواتي تعرضن لمثل هذا الابتزاز . أما مشكلة تكاثر حالات الاغتصاب ، فإنها تأتي في قمة معاناة المرأة . الرجل طبعاً دائماً هو المذنب في جميع هذه الحالات!

في الفترة الأخيرة ثمة أصوات حتى نسوية بدأت ترتفع متسائلة عن دور المرأة في تشجيع هذه المشاكل . إذا كان الرجل يمارس بعض الحركات ويظهر بعض المشاهد لكي يتحرش بالمرأة ويجرح مشاعرها ، فإن المرأة يكفيها ثيابها المصممة بأكثر الطرق دهاءً للتحرش بالرجل وإلهاب مشاعره!

إني طالما اندهشت من سر هذه الأسطورة السائدة بيننا عن الرجل الأوربي المكتفي والشبعان! لمن إذن هذه المباغي وهذه المؤسسات الجبارة المتخصصة بعوالم الجنس والعلاقات السرية . هل هي فقط لرجالنا القادمين من الشرق؟ في كل مدينة أوربية هناك المواخير وعلب الليل ومحلات الجنس وسينما الخلاعة وأفلام الفيديو والمجلات المتخصصة في مختلف عوالم الجنس والإثارة . بل في الأعوام الأخيرة بدأت تظهر الإبداعات العجيبة الغريبة من أجل تلبية حاجات الرجل المثارة والمعذبة : الهواتف الخلاعية بجميع أنواعها وألعاب

الكمبيوتر الجنسية والبرامج التلفزيونية الخاصة وما لا يحصى من المؤسسات السرية والعلنية المتخصصة بأنواع الشذوذ والبغاء، وإغراء النساء والشبان للدخول الى سوق الجنس.

مختصر الأمر، أن الرجل الأوربي مع كل اختلافاته عنا، فأنه من أجل إرضاء حاجته للمرأة يبقى خاضعاً للقانون الكوني الذي انوجد منذ انبثاق المجتمع البشري: إما عن طريق العلاقة الشرعية العلنية القائمة على الديمومة والعواطف الثنائية المتبادلة مثل الزواج أو الصداقة الثابتة، وهذا هو السائد في أوروبا؛ أو عن طريق العلاقات السرية العابرة باستخدام المال والمركز الاجتماعي، أي البغاء. في كل مكان وزمان ظل سائداً هذا القانون، لأن المرأة تظل محكومة بطبيعتها الفيزيولوجية التاريخية مهما اختلفت الظروف والحضارات: تعاني الحيض ومخاطر الحمل وتحذر من عضلات الرجل ونزواته الفحولية. منذ القدم تعودت المرأة أن لا تمنح نفسها إلا في حالتين: إما من أجل العواطف والحياة المشتركة وتحقيق حلم الأمومة، وفي حالات محدودة وحسب الظروف الاجتماعية تمنح نفسها من أجل المال والمصالح. وهناك نسبة ضئيلة من النساء الباحثات عن المتعة فقط، لكن معظمهن يمارسن التجربة من أجل العثور يوماً على رجل الأحلام «لتعيش معه بثبات ونبات وتخلف له صبيان وبنات»!

إذن، الرجل الأوربي مثل جميع رجال الأرض يعاني من الكبت والإثارة والرغبة الممنوعة بالمرأة الأخرى. وعري المرأة وحركاتها وثيابها المثيرة تلهبه وتعذبه وتدفعه للجوء الى شتى الوسائل العلنية والسرية لإخماد نيران الشهوة في جسده. ثم هل تعرفون أن «العادة السرية» منتشرة في فرنسا مثلاً بين أكثر من ٨٠٪ من الشباب و ٦٠٪ من الشابات، حسب جميع الاستكشافات والاحصاءات الصحافية!!

إن جزءاً كبيراً من إشكالية الرجل بالمرأة في المجتمعات الغربية يكمن في اعتبار درجة تحرر المرأة تابعة لدرجة ممارستها للإثارة والتعري. هناك الكثير من مثقفي الغرب بدأوا يدركون أن ثمة تقديس متفاقم للعري والإثارة. إذا كانت المرأة في بلداننا شبه محجوبة وغائبة عن الحياة العلنية، فإنها في أوربا حاضرة بعريها الذي لا يرحم. إينما تلتفت تأتيك صفعات الإثارة من كل صوب: أفخاذ وأرداف ونهود تتلوى مثل الأفاعي في كل مكان، في الشوارع والباصات والمحلات وبوسترات الحيطان والصحف والأفلام. هوس أحمق لا يدل أبداً على الإشباع بقدر ما يدل على جنون الكبت، وتفاقم اللعبة الأزلية بين الرجل والمرأة.

الأنكى من هذا أن ظاهرة الخلاعة والثياب المثيرة راحت تتفاقم من تفاقم الخوف من مرض الإيدز . يبدو أن الخوف المتعاظم من هذا المرض حد كثيراً من حرية العلاقات الجنسية ، ودفع بقوة ، الميل ، نحو العلاقات الدائمة والمستقرة وتكوين العائلة والإخلاص المتبادل . لكن الأمر يبدو وكأن هناك قوى خفية تدفع الى بروز نوع من الانتقام الذاتي والتعذيب المتبادل : كلما تعاظم الخوف من الحرية الجنسية وتنامت ميول العلاقة الجدية ، كلما تعاظم ميل المرأة الى الإثارة والتفنن بلبس الثياب الكفيلة بتسبب الأزمات القلبية وغير القلبية عند أطهر الرجال . الذي يستحق الملاحظة أن معظم مصممي أزياء النساء في أوربا هم من الرجال «المستأنثين أو المستخنثين» . يُعتقد أن إصرارهم على إبداع الموضات النسائية المثيرة وتفضيل العارضات الخارقات الجمال والرشاقة و الأنوثة ، هو نوع من الانتقام من أندادهم الرجال «الطبيعيين» .

يخطىء من يظن أن هذه الحالة هي من ضرورات الحداثة . ويخطىء من يعتقد أن هذا العري حالة طبيعية وأصيلة في أوربا . حتى أوائل هذا القرن كانت المرأة الأوروبية بصورة عامة ترتدي الثياب العريضة الطويلة التي لا تكشف إلا عن الأقدام والكفين والرأس . بل في القرى لا زالت المرأة مثل نظيرتها الشرقية تغطي شعرها . لا ندري كيف حصل الأمر وتحولت مسألة تحرر المرأة الى تحرر الجسد من وقار الثياب المريحة والجميلة . يمكننا الافتراض أن هذه الظاهرة نتاج عقلية نظام السوق والروح الاستهلاكية : كلنا يعرف قانون العرض والطلب في النظام الليبرالي . المسألة المهمة في هذا النظام هو مبدأ الدعاية وإثارة الرغبة بالطلب . إن الإشباع المعقول لا يجب أن يحدث أبداً ، وإلا تكدست البضائع وهبطت الأسعار وكسد السوق . الإثارة الدعائية هي الكفيلة بتجديد الحاجة وإبقاء الزبون دائم التوتر واللهاث وراء المنتجات . بنوع من التبسيطية ، يمكننا تفسير سبب ارتفاع هذه الحمى في الغرب لتقديس عري المرأة وإثارتها . إن عقلية السوق والعرض والطلب لم تترك شيئاً في أوربا إلا وأصابته بعدواها ، بما في ذلك علاقة المرأة بالرجل .

حداثتهم

ذات أمسية ، كنا مجموعة جالسين ندردش ، فتطرقنا الى تجربة بلد عربي «ثوري» . أراد أحدنا أن يذكر مثالاً على مدى تقدمية الحكومة ومدى تخلف الشعب :

- تصوروا أن هذه الحكومة شيدت العمارات ، لكن الناس لتخلفهم أسكنوا الخرفان ، والمواشي معهم في الشقق ، حتى لتشاهد رؤوس الخرفان متدلية من الشرفات!

طيب ، لنفترض أن هذه الحكاية صحيحة ، فهل تصلح مثالاً على تخلف الشعب أم الحكومة؟ علماً أن مساحة ذلك البلد قد تعادل نصف مساحة أوربا الغربية ، وسكانها أقل من سكان مدريد . طيب هل كان من الضروري تقليد الحضارة الغربية وبناء العمارات . أما كان من المعقول بناء البيوت التي تحترم خصوصيات الناس وظروفها المعيشية . هل تربية المواشي دليل التخلف ، وهل أوروبا بلا فلاحين ولا رعاة ؟ وصل بنا الأمر أن نحتقر جميع مظاهر الحياة التقليدية حتى الموجود منها في أوربا نفسها . وكأن الغرب لا يقطنه غير العلماء والمثقفين ونجوم السينما !

حتى الآن لازال الكثير منا يعتقد أن حليب نستله أفضل لأطفالنا من حليب الأمهات . وأن كثرة السيارات والآلات والعمارات دليل الحضارة والتقدم . تمشياً مع قطيعتنا التاريخية ، قمنا بعملية فصل قاسية بين الواقع والحاضر ، بين موروث الماضي ومشروع المستقبل . حجرنا معظم تقاليدنا ومعتقداتنا في تابوت مقدس اخترعه لنا الأوروبيون ، اسمه «الفولكلور - التراث الشعبي» ، ثم قولبنا إبداعاتنا الحديثة حسب الذوق الغربي : الموسيقى والشعر والفن والثقافة ، بل حتى أزياءنا الموروثة . باسم التطور والحداثة أهملنا كياننا الروحي والعقلي المجبول بخصوصيات آلاف الأعوام من التاريخ والجغرافيا والبيئة .

أما حداثة الأوروبيين فهي على عكس حداثتنا تماماً . كل شيء في حضارتهم الحديثة قد تأتى من تاريخهم وميراثهم : مأكلهم ومشربهم ، ثقافتهم وفنونهم ، أسماؤهم وألقابهم ، وحتى ثيابهم . الأوربيون لم يكتفوا بتبني تراثهم وإحيائه ، بل راحوا يدرسون تراث الشعوب الأخرى ويبدعون ويتخصصون فيه أكثر من أصحابه أنفسهم . حتى تاريخنا هم الذين كتبوه لنا . كشفوا لنا عن حضاراتنا القديمة وعلمونا لغاتها وبنوا لنا متاحفها وألفوا الكتب عنها وعلمونا دراستها في جامعاتهم . حتى تاريخنا الإسلامي تفننوا في كشفه لنا : الحلاج وثورة الزنج وابن خلدون ومواضيع لا تحصى قدمها لنا الأوربيون . لو أراد واحدنا معرفة تاريخ أي شيء عن بلداننا منذ فجر الخليقة وحتى الآن ، فإنه مضطر للاعتماد على المصادر المكتوبة بلغات أوروبية مثل الإنكليزية والفرنسية والألمانية! في أوربا أدركت قيمة حكايات ألف ليلة

وليلة التي كنت استنكف عن قراءتها بإعتبارها خزعبلات عتيقة . هنا عرفت أنها موجودة في كل مكتبة شخصية وعامة الى جانب الكتب المقدسة .

بسبب هذه الحداثة الي تحترم الأصالة الوطنية ، فإن المجتمعات الأوربية عموماً لا تعاني من التناقضات العقلية الاجتماعية بالحدة ذاتها التي لدينا . أول ما يجلب الانتباه في المجتمعات الغربية ، قلة التمايزات الشكلية والعقلية والحضارية بين الطبقات والأجيال المختلفة . صحيح أننا نجد جميع الانقسامات المعروفة : مؤمن وملحد ، ريفي ومديني ، تقدمي ومحافظ ، نساء ورجال ، جيل قديم وجيل جديد . لكن تبقى التمايزات العقلية والحياتية بين هؤلاء أخف بكثير من التمايزات في مجتمعاتنا . عندما ننظر مثلاً الى الفروق المظهرية والحضارية بين جيلي الآباء والأبناء في أوربا ، فإن الفروق بينهما عموماً لا تتعدى الفروق بين سنوات عمريهما واختلاف الظروف التقنية والثقافية التي مرت عليما . تراهم متقاربين في الملبس والمأكل والمشرب والثقافة وتجارب السفر وارتياد أماكن الرياضة والتعلم والمتعة . أما عندما ننظر الى تنوعات مجتمعاتنا فإن الفروق الحياتية والشكلية والعقلية بين الفئات المختلفة قد تتعدى القرون : في الملبس والمأكل والمشرب والسفر والمعتقدات الفكرية والدينية ونمط الحياة المعيشية . بكل بساطة ليس هناك ما يجمع بين فئات مجتمعنا : الأبناء يختلفون تماماً عن الآباء . المتمدنون يخلتفون تماماً عن الريفيين ، العلمانيون يختلفون تماماً عن المتدينين ، وهكذا دواليك .

لنتصفح مثلاً أي مجلة عربية اجتماعية فنية . قد نجد فيها مقالة تشتم الغرب ، وفيها صفحة تراث ودين . في الوقت نفسه نجد فيها كل ما هو نقيض تام لواقعنا . معظم الدعايات تظهر رجالاً ونساءً بسحنة وهيئة أوروبية تماماً ، حتى دعاية الصابون الوطني تحمل صورة رضيع أشقر بعيون خضراء وابتسامة غربية ساحرة . صفحات الأزياء عادة منقولة من صحف غربية ، ومعظمها أزياء تعجز عن ارتدائها حتى المرأة الغربية . صفحة أخبار السينما العالمية تحدثك عن آخر صرعات السينما مع صور نجوم ونجمات فوق البشر . صفحة الغرائب مليئة بأخبار العجب عن المجتمعات الغربية . حتى صفحات أخبار الفن والسينما العربية تظهر لك نجوم ونجمات العرب بآخر الصرعات الغربية بسذاجة تستحق الرثاء . لا أحد يدري كيف حصل أن معظم نجماتنا شقراوات بيضاوات أكثر من الأوروبيات! تأتيك أخيراً صفحات أخبار نخبة المجتمع . تشاهد صور حفلات الزواج والاستقبال تحمل من عجائب المظاهر ما

يثير سخرية حتى الإنسان الغربي : النساء في آخر الموضات تشع من عيونهن أنوار الحضارة كحوريات الجنة ، والكثيرات منهن بأسماء تقدمية جداً مثل : كارول وجوليا وزيزي وميمي . أما الرجال فتراهم يضحكون بخيلاء الديوك الرومية مخنوقين بالكرافات والجاكيتات الثقيلة وأحزمتهم تضغط بلا رحمة على كروشهم الفارهة . أما العرسان ، فترى واحدهم محجوراً ببدلته السموكن وبجواره عروسته ترتدي فستان عرسها الأوربي الذي تخلت عن لبسه الكثير من نساء الغرب* .

أي متفحص للحياة العقلية الغربية يكتشف أن معظم الإبداعات التي نعتبرها رمز الحداثة والتقدم ما هي في الحقيقة إلا تراث وتقاليد شعبية غربية . خذ مثلاً «الموسيقى الكلاسيكية» رمز النخب الغربية المتميزة ، ما هي إلا الموسيقى التراثية المثقفة ، مثلما هي عندنا الموشحات الأندلسية أو المقامات العراقية . موسيقى البيتلز (الخنافس) التي انتشرت على أنها رمز الحداثة والتمرد ما هي إلا تطوير للموسيقى الشعبية الإنكليزية . موسيقى الجاز الأميركية ما هي إلا تحديث لموسيقى الزنوج الموروثة عن أسلافهم الأفارقة . الثياب الحديثة من بنطال وقميص وسترة وقبعة ما هي إلا تطور طبيعي للثياب الأوربية المعروفة منذ قرون .

أتذكر مثالاً على مدى استخفاف نخبنا المتعلمة بتراثنا الوطني : تتحدث الباحثة الموسيقية العراقية شهرزاد حسن في كتابها «دور الآلات الموسيقية» ، أنها منذ أعوام تقدمت بطلب الى وزارة الثقافة العراقية ، من أجل القيام بكشف وإحصاء للآلات الموسيقية الموجودة في العراق . حينها أجابها المسؤول ساخراً : «لماذا تتعبين نفسك وتكلفينا المصاريف . آلاتنا معروفة ولا تتعدى أربعة أو خمسة ، مثل الطبل والناي والعود والربابة» . بعد إلحاح ومحاولات تمكنت هذه الباحثة من إقناع المسؤولين . أنجزت البحث بعد سنوات من التجوال في معظم قرى العراق ومدنه . . كانت النتيجة مدهشة : اكتشفت هذه الباحثة أن هناك أكثر من ستين آلة موسيقية بعضها موروث منذ زمن سومر وبابل وآشور ، ولا زال مستعملاً في طقوس الطوائف الدينية المتنوعة وكذلك في الحفلات الشعبية في المدن والقرى . اكتشفت كذلك مئات الألحان والأنغام الأصيلة والمجهولة تماماً من قبل أساتذة الموسيقى وفقائها !

---

* يلاحظ ان المجتمع المغربي هو الوحيد من بين كل المجتمعات العربية ، الذي لا زال العرسان حتى في العوائل « الراقية » يرتدون الثياب الوطنية ، وثياب العرائس خصوصاً هي من اجمل الثياب التي يمكن ان تشاهدها العين .

إننا في حمى لهاثنا وراء كنوز الغرب تناسينا كنوزنا الموروثة منذ فجر التاريخ . منذ العشرينات رحنا نلهث لنجعل موسيقانا تستوعب النغمات والآلات الموسيقية الغربية . أدخلنا الأكورديون والكمان والإيقاع والبيانو والغيتار والأرغن . والآن اجتاحنا الجهاز الالكتروني الجامع لكل الآلات والألحان !

نخبنا المتحضرة اعتقدت أن تطور موسيقانا سيحدث عندما نبني دور الأوبرا ونشكل «الأوركسترا السمفونية الأوربية» . ألم يكن من المعقول ، أولاً التفكير مثلاً بتكوين المراكز والفرق المتخصصة باستعادة الآلات والألحان التي كانت سائدة في حضاراتنا القديمة؟ أليس من المعقول أيضاً أن تشكل فرق تعزف لنا موسيقى جيراننا في الحضارة والجغرافية مثل إيران وتركيا وافريقيا ، ثم بعد هذا يمكننا أيضاً تشكيل الفرق السمفونية الغربية وحتى بناء الأوبرات ، لما لا ؟

فنانونا ظلوا بأغلبيتهم الساحقة مغمضي الأعين عن تراثنا الموسيقي الفائق التنوع والثراء ، وحصروا فنهم في ألحان مكررة وآلات محدودة معظمها غربية ، بل هي محدودة الاستعمال حتى في الغرب . الناظر الى الموسيقى الغربية ، يلاحظ أن لكل فرقة تخصصها الموسيقي ، ولها آلاتها التي تميزها عن الآخرين . لو نعد آلات الموسيقى المستخدمة في الفرق الغربية بكل أنواعها ، لأحصينا ربما الآلاف من مختلف الآلات ومعها الألحان المختلفة . لم يتركوا آلة أو لحناً على وجه الأرض إلا واستخدموه وجعلوه جزءاً من موسيقاهم . بفضل زنوج أميركا تمكنوا من تطويع الموسيقى الإفريقية وآلاتها لتكون جزءاً من تراث الغرب الموسيقي . بل إن بعضهم أدخل التراتيل الدينية في غنائه كما فعلت مادونا مع تراتيل فيروز ، وكما فعل المغنّي الإنكليزي «كوين» مع ألحان عاشوراء واللطم وترديد الجموع .

في حواري مع الغربيين ، تعلمت تذكيرهم بأن ليس كل تقاليدهم «تقدمية» وليس كل تقاليدنا «رجعية» . خذوا مثلاً عادة استخدام اسم العائلة في الغرب . الشخص يحمل دائماً اسم العائلة نفسه «أي العشيرة» ، الموروث منذ قرون الإقطاع . حتى الآن بصورة لا شعورية يصيبني الانزعاج عندما يناديني أحدهم باسم عائلتي كدليل على الاحترام : «مسيو ماتار ـ سيد مطرا» . لماذا هذا الاحتقار لاسمي الشخصي ، لماذا هذا الإصرار على تقديري من خلال اسم عائلتي؟ ثم الأنكى من هذا أنهم يجبرون الزوجة على إلغاء اسم عائلتها وحمل اسم عائلة زوجها . بل في سويسرا هناك ما هو أكثر غرابة وطرافة ، أنهم في الوثائق الرسمية

يفرضون على الزوجة أن تغير حتى مكان أصلها حسب مكان أصل الزوج . هذه هي التقدمية والحداثة !

* * *

أول شروط تحقيق العلاقة السوية مع الغرب ، أن نعترف بتمايزنا عنه . ليس من أجل العداء والخصام ، إنما بالعكس من أجل تجنب نظرتنا الأحادية إليه سلباً أو إيجاباً ، وبالتالي تشوه علاقتنا بذواتنا الفردية والجماعية . إن اعترافنا بشخصيتنا وخصوصيتنا يؤدي الى الاعتراف بخصوصية الغرب وشخصيته المتميزة ، وهذا وحده الكفيل بخلق علاقة مساواة وتبادل حضاري .

صحيح أن إشكالية علاقتنا بحضارة الغرب ، وحداثته أمر واقع فرضته سنة الحياة . أوروبا ومكتشفاتها التقنية والعقلية دخلت فينا منذ قرون وصار من المستحيل رفضها أو تناسيها . بل حتى لو أننا قررنا يوماً ، على طريقة ألبانيا مثلاً ، قفل حدودنا وقطع علاقتنا بالغرب حتى لو رجعنا الى العصر الحجري . لكن المشكلة أن هذا غير ممكن أبداً ، لأن أوربا لا تتركنا مهما فعلنا . هناك التاريخ والجوار والجغرافيا والاقتصاد ، والنفط خصوصاً .

كل هذا صحيح ، أوربا والغرب أمر محتم علينا مهما شئنا . ولكن ألا يحق لنا أن نحلم بتخطي هذه الإشكالية الثنائية التي وضعنا أنفسنا فيها منذ أجيال : إما اعتبار الغرب هو الجنة الموعودة والنموذج الأمثل للتقليد والمقارنة ، كما يتصور العلمانيون ، أو اعتبار هذا الغرب جهنم وبؤرة للفساد والتفسخ ، كما يتصور المتدينون .

إن تجاوز هذه الإشكالية يكمن في مدى قدرتنا على ابتداع تيار وسط يحترم الخصوصية الدينية والحضارية والشعبية ، وفي الوقت نفسه ينفتح على علوم الغرب وتقنياته ومعارفه مع الحفاظ على نظرة نقدية إنسانية تميز بين عيوب الغرب ومحاسنه . ألا يمكننا يوماً تجنب هوس علاقتنا بالغرب ، مقتاً أو عشقاً ، وإقامة علاقات طبيعية معه ، من دون خضوع وانمساخ وتمزقات فردية وجماعية . إن لم نستطع أن نصنع الديموقراطية بصورتها المثلى ، فعلى الأقل نحلم بخلق حالة من الاستقرار السياسي والسلام الاجتماعي والاعتدال الاقتصادي ، دون حروب أهلية ودولية وانمساخ علماني وديني وفقر مدقع وأزمات اقتصادية وحياتية مستمرة ■

الفصل الأول

تجديد الهوية الفكرية

* من أجل فلسفة وسطية حديثة
* الثقافة بين المجتمع والسياسة والدين
* ملحق : حول المرأة والفلسفة الصينية « التاويه »
* ملحق : نموذج للفهم العرقي والتغريبي

ثنائية التطرف والضياع...
وحتمية الفكر الوسطي الجديد

إن التطرف في الانقسام والتناحر بين تيارات الحداثة وتيارات المحافظة في العالم العربي ، يعود الى التطرف الحاصل في العقل العربي بأكمله . العنف السياسي والاجتماعي والتوترات والانقلابات والحروب الأهلية تعود أولاً الى التطرف العقلي الشامل لكل مفاهيم الحياة والمعتقد . وهذا التطرف يكمن أساساً في سوء الفهم الحاصل بتفسر «ثنائيات» الوجود وما تنتجه من تضاد متطرف في الرؤى الدينية والفكرية والاجتماعية .

إن إشكالية الثنائية هذه مسألة واقعية تواجه الانسان منذ لحظات الوعي الأولى ومنذ فجر التكوين العقلي للبشرية . جميع الأديان والفلسفات قد اعترفت بالثنائية لأنها أمر مكشوف وواقعي لا يمكن إنكاره . كل شيء في الكون له جانبان متعاكسان في المعنى والاتجاه : الليل والنهار ، الحر والبرد ، الأعلى والأسفل ، الأنثى والذكر ، النفس والجسد ، العلم واللاهوت ، وهكذا دواليك . واستناداً على هذه الثنائية شرع الإنسان بتكوين أسئلته الفكرية والدينية عن الكون والمجتمع . وتأخذ هذه الأسئلة أشكالاً مختلفة حسب الزمان والمكان رغم أن الجوهر يبقى متمحوراً حول المقارنة بين هذه الثنائيات . المعضلة الأساسية تكمن دوماً في كيفية التعامل مع ثنائيات الوجود هذه وعلاقاتها بـ «الثنائية التفاضلية الكبرى» عن الخير والشر ، الأحسن والأسوأ ، السعادة والتعاسة ، وصولاً الى ثنائية الخالق الأعظم ، المنقسم الى الله ، خالق الحق والنور والخلود ، ونقيضه الشيطان ، خالق الخطيئة والظلام والدمار .

المشكلة تكمن إذن ، ليس في الاعتراف بالثنائية ، بل في ميل الإنسان الى طرح هذه الثنائية بالمعنى التفاضلي . إذ يتم التطرف باعتبار الخير في طرف ، والشر في الطرف الآخر . وتجري المقارنة التفاضلية بين من هو الأحسن ومن هو الأسوأ : الليل أم النهار ، الحر أم البرد ، الأرض أم السماء ، الدنيا أم الآخرة ، الأنثى أم الذكر ، الماضي أم المستقبل ،المادة أم الروح ، الجسد أم النفس ، الدين أم العلم ، الريف أم المدينة ، . . . الخ .

الحقيقة أن هذه الإشكالية الثنائية التفاضلية تعود الى إشكالية الانقسام الثنائي في طبيعة الإدراك عند الإنسان، ثم في طبيعة علاقته مع الوجود، وهي تستند الى محورين متداخلين :.

أولاً : محور ثنائية الإدراك : من المعروف أن للإنسان خمسة حواس يدرك من خلالها الوجود ويشكل بواسطتها الوعي : النظر، الشم، السمع، اللمس، الذوق . . وعبر هذه القنوات يتحسس الانسان الكون ويبني علاقته مع ذاته ومع الآخر . جميع الموجودات التي يدركها الانسان بواسطة هذه الحواس، تسمى بالأشياء الواقعية المادية التي يثبت وجودها بصورة حسية واختبارية، ويمكنه كذلك أن يؤثر عليها عملياً من خلال الفعل اليدوي والتقني والعلمي . لكن المشكلة أن الانسان لا يدرك كل الوجود عبر هذه الحواس الخمسة، بل ثمة قسم آخر يدركه الانسان من خلال «حواس» غير واضحة المعالم، لا جسمانية ولا مادية : الحدس والمشاعر والتفكير والتخيل . الأحلام مثلاً، تلعب دوراً مهماً في تفكير الانسان والتأثير عليه، رغم أنها مستقلة عن حواسه . كذلك الذاكرة والخيال والمشاعر والعواطف والحدس والاتصالات الروحية بين البشر، جميعها تمارس تأثيرا . الحب والحقد والخوف والقلق والفرح والشهوة، أمور لا يمكن إدراكها حسياً . بالاضافة الى أن الكثير من ظواهر الطبيعة التي تتحكم بمصير البشر، من الصعب تحديدها ولمسها بواسطة الحواس، مثل الموت والروح والطاقة والوعي ودورة الأفلاك وتطور الحياة وحركة بواطن المادة . أمور لا تحصى تواجه الانسان منذ لحظات الوعي الأولى، من الصعب عليه وضع تفسير واقعي حسي لنشاطها وتأثيرها . جميع هذه الأمور والظواهر الغير مدركة بواسطة الحواس الخمسة، أطلق عليها الانسان : الجوانب الغيبية أو الروحية أو اللاهوتية .

الذي فاقم من حدة الإشكالات والتعقيد، أن هذه الجوانب «اللامادية» تتقاسم التأثير على الوجود بشكل متداخل تماماً مع الظواهر الحسية الواقعية : ظاهرة الجوع مثلاً، حالة مادية محسوسة سببها مادي مكشوف هو نقص الطعام، لكن هذا الجوع يسبب أيضاً مشاعر الحزن والقلق والغضب والإنهاك وحتى الموت . العكس يحدث كذلك، خيالات الخوف والقلق قد تؤثر على الجسد وتؤدي الى الإجهاد والمرض . بهذا المعنى، فإنه ثمة تداخل تناقضي ينشأ في رؤية الانسان لماهيات الوجود، وتنفصم رؤية الانسان للموجودات الى ميلين متعارضين :

الميل الذي يعطي الأهميـة الى الوجـود اللاحسي الغيـبي اللاهوتي . والميل الذي يعطي الأهميـة الى الوجود المحسوس الواقعي والمادي . المطر مثلاً : شيء واقعي محسوس ، لكن الانسان لم يدرك واقعياً كيف يأتي هذا المطر ولماذا يخضع لدورة المواسم ، ثم ما سر قدرته على منح الحياة والخصب . كل هذه الأمور ظلت تدفع الإنسان الى الإيمان بوجود قوى خفية مسؤولة عن هذه الأمور .

ثانياً : محور ثنائية العلاقة بيين الانسان والوجود : وهي ثنائية الخير والشر . الحقيقة أنه ليست ثمة خير ولا شر في الوجود لو لم يكن الانسان موجوداً . مفهوما الخير والشر خلقهما الانسان لتعريف علاقته هو بالموجودات ، الحسية والغيبية . الخير ما هو إلا تعبير عن الفائدة التي يجنيها الانسان من مظاهر الوجود : الصحة ، الفرح ، الشبع ، الأمان ، الولادة ، الدفء ، القوة ، . . . الخ . كذلك الشر ، ما هو إلا تعبير عن الأذى الذي يلحق بالانسان من مظاهر الوجود : المرض ، الحزن ، الجوع ، الطوفان ،الموت ، البرد ، التعب ، . . . الخ .

النار ، قد تكون خيراً ، ، لو استخدمها الانسان للدفء والطهي ، وقد تكون شراً لو تسببت في حرق الانسان وممتلكاته . كذلك هو الحال بالنسبة لجميع الموجودات من الحيوان والطبيعة والكون .

هذا التداخل بين الثنائيات ، بين الغيبي والمادي ، ثم بين الخير والشر ، كان الأساس لجميع الأسئلة الفكرية التي شرع البشر بتشكيلها منذ فجر الحضارة : في أي طرف من ثنائيات الوجود والإدراك يكمن الخير ، وفي أيهما يكمن الشر؟ أيهما يمثل الله والسعادة والخلود ، وأيهما يمثل الشيطان والتعاسة والفناء؟

على هذا الأساس تداخلت ثنائيات الرؤيا والمعتقد ، وتمحورت حول استفهامين متداخلين :

* لمن الأولوية . . ألعوامل المحسوسة القابلة للتعامل الجسدي المباشر من قبل الانسان؟ أم للعوامل الغيبية التي لا يستطيع ان يتعامل معها الانسان إلا من خلال الطقوس الروحية والدينية والرمزية؟

* ثم ، في أي من ثنائيات الوجود يكمن الخير ، وفي أيها يكمن الشر؟ أفي الجسد أم في

الروح؟ أفي الظلام أم في النور؟ أفي الذكورة أم في الأنوثة؟ أفي الدنيا أم في الآخرة؟

أخذت الأسئلة تتعمق وتتعقد كلما حصل الإنسان على أجوبة .

هكذا شرع الانسان يصوغ أسئلته ويعمل فكره ويبحث عن أفضل الحلول التي تعينه على الوصول الى الخير وتفادي الشر . منذ الانسان الأول ، تمحورت الانقسامات المعتقدية حول طرفيي الثنائية ، وانقسم الناس عموماً الى ميلين متناقضين :

* الميل الغيبي اللاهوتي ، الذي يعطي الأولوية للعوامل الغيبية والإلهية والقوى الخفية . أي الاعتقاد أن الخير والشر يكمنان في مظاهر الوجود المستقلة عن الادراك الحسي المباشر للانسان ، وبالتالي فإن التعامل الديني والايماني يتم مع هذه المظاهر من أجل الحصول على الخير وتفادي الشر . هكذا نشأت الأساطير والأديان وطقوس العبادة وجميع مظاهر الخضوع للقوى الغيبية المتحكمة بحياة الانسان والطبيعة .

* الميل الواقعي الحسي الذي يعطي الأولية للعوامل المحسوسة الأرضية والارادة البشرية والتقنية . أي أنه على الانسان الاعتماد أساساً على المظاهر الحسية العلمية والتقنية من أجل الحصول على الخير وتفادي الشر . وهكذا قام الانسان بصنع أدواته وتقنياته واكتشف الأسلحة والأعشاب الطبية وطور العلوم المختبرية والوسائل المادية للسيطرة على الطبيعة وخلق الخير وتفادي الشر .

تاريخ الانقسام الفكري

تاريخ التنافس والتعايش بين هذين الميلين ، هو تاريخ العقل البشري وتطور الحضارة ، منذ فجر التاريخ وحتى الآن . يبدو أن تاريخ البشرية قابل للتشبيه والمقارنة مع تاريخ الفرد الانساني . على هذا الأساس يمكن الافتراض أن الولادة «الحضارية والعقلية» للبشرية ، قد حدثت مع نشوء أول معالم التعقل : الاستقرار والتدجين والزراعة واللغة والكتابة والبناء وخلق الأساطير والأديان والأفكار والدول . إذا كان الفرد يمر في حياته بعدة مراحل ، فإن البشرية قد مرت بمرحلتين مختلفتين متكاملتين ، من الطفولة ثم المراهقة :

١ - مرحلة الطفولة الحضارية : حيث الانسان لم يزل حديث الخروج من رحم الطبيعة الأم وقريباً من عالمه الأولي «الحيواني» . علاقة الانسان مع البيئة لم تزل وطيدة ولم تؤثر

عليها بعد المكتشفات التقنية والحضارية . الايمان في هذا الطور ظلّ مركزاً على قوى الطبيعة الغيبية «الخيرة» و«الشريرة» ، من مطر وعواصف وحيوانات ونجوم ونباتات وتحولات المواسم .

مع نمو الحضارة وتقنياتها ومكتشفاتها يبدأ الانسان تدريجياً بالتحرر من مؤثرات الطبيعة . تركيز السلطة السياسية وتوسع الدولة وهيمنة الملوك يدفع بالانسان الى تركيز القوى الغيبية والبحث عن الرموز الكبرى التي تمثل بشكل غير مباشر مجاميع ظواهر الطبيعة بالتدريج يختصر الايمان الى بضعة آلهة كل منها يمثل مجموعة معينة من قوى الوجود : إله الخصب ، وإلهة الجمال ، وإلهة الموت ، وغيرها .

مع الاستمرار في هذا الطور بدأ ميل الانسان الى إيجاد إله واحد موحد لجميع الآلهة ؛ كما تجلى فيما بعد بظهور الأديان الشمولية والتوحيدية مثل اليهودية والزرادشتية والبوذية والهندوسية . في هذا الطور اختصرت الثنائية الى أبسط حالاتها : قوة الخير المتمثلة بالإله الجليل المتحكم الأكبر بالانسان والكون ، وقد يكون اسمه الله أو النيرفانا أو النور أوالمطلق . أما قوة الشر فتتمثل بالشيطان والظلام والفناء الأبدي ، تلك القوة الجبارة التي تنافس قوة الخير ، لتدفع بالانسان والكون الى الخطيئة والدمار .

لكن هيمنة هذا الميل الغيبي ، لم يمنع الانسان من النشاط في التعامل مع الموجودات الحسية . ان الطقوس والنذور والمعابد لم تكن قادرة وحدها على توفير الخير والأمان والراحة للإنسان ومكافحة الشر والقلق والمرض . متطلبات الحياة ظلت تفرض على الانسان التعامل أيضاً مع المحسوسات ، وبالتالي تطوير المعارف المتعلقة بالميل الواقعي المادي . لذلك قامت الحضارات أيضاً بتطوير التقنيات والأسلحة والمعارف العلمية والبحث الدائم للكشف عن أسرار الكون والطبيعة والسيطرة عليها لكسب الخير وتجنب الشر .

كلما تقدمت البشرية في معارفها واكتشافاتها وقدراتها على السيطرة ، كلما اشتد الميل الى الاعتراف بالعلوم والعوامل المختبرية المحسوسة والتقليل من أهمية الجوانب الروحية الغيبية . جميع الحضارات ساهمت بالتقدم أكثر في هذا الطريق ، من خلال تطوير العلوم الفلكية والتقنية والحربية والطبية والهندسية .

بما أن الفرد لا يترك فجأة مرحلة الطفولة قفزاً نحو مرحلة المراهقة ، بل يتدرج ببطء باكتشاف الحياة والنمو الجسدي والمعرفي ؛ كذلك البشرية ، قد احتاجت عدة آلاف من

السنين في مرحلة الانتقال والنمو المعرفي نحو الأمور الواقعية الحسية والعقلية . أبرز الخطوات «التنظيرية» الواضحة لهذا الميل العقلي تمثلت ببروز المنطق والفلسفة والبحث عن العوامل الواقعية والمحسوسة في تفسير وتحليل ظواهر الوجود الانساني والكوني . ابتداءً من الألف الأول قبل الميلاد ، شرعت البشرية بتطوير علوم المنطق والفلسفة ، وخصوصاً بين شعوب البحر المتوسط ، إغريق ورومان وشرقيين ، وبالاعتماد على ميراث جميع الحضارات البشرية رغم النمو المتتالي لهذا الميل «العلمي» فانه ظل خاضعاً للميل الروحي الديني ، حيث ظلت السيطرة الفعلية (السياسية والعقلية) للأديان والمعتقدات اللاهوتية .

٢ - مرحلة المراهقة العلمية : يمكن القول أنه منذ القرن الخامس عشر وبدأ عصر النهضة في أوربا الغربية ، شرعت البشرية ببلوغ المرحلة التي يمكن أن نطلق عليها «مرحلة المراهقة العلمية» . مع انطلاقة الثورة العلمية والصناعية فرض الميل الحسي المختبري هيمنته الكاسحة على أوربا أولاً ، ثم بالتدريج على باقي أجزاء العالم . مع تسارع وتيرة التقدم المادي طغت الرؤية العلمية المضادة للتيار المهيمن السابق الروحي اللاهوتي .

وكما في المرحلة السابقة حيث لم يستطع الميل الغيبي ، رغم سيطرته ، أن يلغي تماماً الميل المادي ؛ كذلك في هذه المرحلة ، فان سيطرة الميل المادي لم تستطع أن تلغي الميل الغيبي . في هذه المرحلة اشتد الصراع بين الميلين واتخذ طابعاً اجتماعياً وسياسياً متطرفاً ، حتى سيطر الميل العلمي تماماً ، سياسياً وعقلياً ، من خلال ما يسمى بالثورة العلمانية ، حيث تم عزل الدين والروحانيات من إدارة الدولة والمجتمع .

كما يحدث للانسان في مرحلة المراهقة من تمرد مطلق على الماضي العائلي والموروث الاجتماعي ، فان البشرية كذلك تمردت تماماً على ماضيها الروحي وهجمت بعنف ووحشية على انتمائها «الطبيعي» ، وراحت تعمل بلا هوادة على تدمير الحياة الحيوانية والبيئية وتقديس العلوم والتكنولوجيا ومنتجات الحياة المادية .

إن قرون الثورة الصناعية وعصر الأنوار واحتدام الصراعات السياسية الاجتماعية بين أنصار الحديث وأنصار القديم أضفت بعداً سياسياً للصراع بين هذين الميلين . وهذا الأمر دفع المفكرين لابتداع أساس فلسفي - ديني للصراع المحتدم بين المالكين الحكام من جهة ، والمنتجين المحكومين من جهة ثانية : الحكام مع الدين والكنيسة والروح والقوى الغيبية ، إذن فالمحكومين هم مع العلم والمادة والإلحاد وقوى الانسان المنتجة!

هذا يعني النفخ المفتعل في السؤال الفلسفي التالي: لمن الأسبقية .. للمادة أم للروح .. للدين أم للعلم .. الارادة البشرية أم المشيئة الإلهية؟

لقد ضخم الغربيون هذا السؤال وهولوه حتى جعلوا منه المدخل لكل سؤال فلسفي، بل صار الدليل للحكم على أي موقف اجتماعي وأخلاقي وسياسي: المثالي المتدين الروحي المؤمن بأسبقية الروح والله، هو اليميني الرجعي الإقطاعي والمالك المعادي للعلم والحداثة والتقدم .. المادي المعتقد بأسبقية المادة والطبيعة، هو العلماني اليساري الديمقراطي الملحد المكافح من أجل التقدم والحداثة والرخاء!

طبعاً إن سيطرة هذا الانقسام لم يمنع التداخل والتردد بين الميلين، ومحاولة بعض المفكرين الجمع بينهما. لكن تطور الثورة العلمية والتناحر السياسي برر أكثر فأكثر الاصرار على وجود تناحر بين ما يسمى بالمادي وما يسمى بالروحي. إذ تم فرض سؤال جديد في الفكر الانساني لم يسبق طرحه بمثل هذه التناحرية المتطرفة: «أيهما أسبق المادة أم الروح .. الظروف المادية هي التي تحكم التاريخ أم هي الروح المطلقة والمشيئة الإلهية من يقود التاريخ ...؟». راحوا يقسمون بعشوائية وتعسفية مسميات الوجود الى عوامل مادية وعوامل روحية. مثلما تفتش في الماء عما هو ثلج وعما هو بخار!

النظرية الماركسية والتجربة الشيوعية تعبير عن ذروة طيش الأحلام البشرية المراهقة للانسلاخ التام من الماضي الروحي والطبيعة الأم، من أجل إعادة إحياء الانسان لـ «جنته» الحنونة المفقودة، من خلال السيادة المطلقة للعلم والتكنولوجيا والقوى المادية المنتجة. ماركس، نموذج لمعظم المفكرين الثوريين في تلك الحقبة. خلط بين الدين كروح وأخلاق وحاجة طبيعية، والدين كاستخدام آيديولوجي من قبل الحكومات والقيادات الفقهية والاجتماعية. حدة الصراع الاجتماعي السياسي أدت بماركس، مثل معظم أبناء زمانه، الى التطرف في رؤية ثنائية الوجود. اعتبر كامل «الدين أفيون الشعوب». بدل من رفض لتشويه الحكام للدين، تم رفض الدين بأكلمه، ورفض كل ما هو روحي ومجهول وغير حسي في الانسان والكون. كان من المعقول القول بأن: «دين الحكام والمالكين هو أفيون الشعوب»، وعلى المضطهدين أن يحرروا دينهم ومعيشتهم وحياتهم بجميع تفاصيلها من استغلال وتشويه المالكين. الدين إحساس روحي شامل لجميع البشر، وحاجة فطرية للإيمان بقوة مطلقة تربط بين وجود الانسان كفرد مع باقي الأفراد والجماعات البشرية والكون بأجمعه.

إن رفض الدين يوازي رفض باقي مكونات الروح الانسانية . ماركس نفسه يعترف أن الطبقات المالكة لا تتحكم بالاقتصاد والحياة المادية فقط . بل هي تفرض سيطرتها المادية من خلال فرضها لأيديولوجيتها على عقلية المجتمع وتحكمها بالانتاج الروحي : الدين والفن والأخلاق والثقافة والتقاليد جميع هذه المكونات العقلية يمتلكها الأسياد ويتمتعون بها ويمارسون من خلالها سيطرتهم وتبرير وجودهم . . إذن في هذه الحالة يحق القول : «الدين . . . وجميع مكونات ا لروح الانسانية ، هي أفيون الشعوب . . .» . وهذا بالضبط الذي حدث فيما بعد عند محاولة تطبيق الماركسية بشكلها الستاليني التبسيطي ، ثم ساد هذا الفهم في العالم العربي والعالم الثالث .

العقل العربي والبحث عن الوسط

جميع شعوب الأرض قد شاركت في خطيئة التطرف الثنائي هذه ، لكنها جميعها كذلك ساهمت في البحث عن الدرب الانسجامي الوسط بين الثنائيات . ثمة شعوب كانت أنضج من غيرها في الاقتراب أكثر ناحية الرؤية الانسجامية هذه . ليس هناك أعراق أفضل من أعراق ، بل هناك أعراق هيئتها ظروف الطبيعة والتاريخ والجغرافيا لأن تكون في مقدمة المسيرة الحضارية . التاريخ يكشف أن شعوب المنطقة (العربية السامية الحامية) ، كانت أقرب الشعوب الى الميل الوسط ، شعوب الشرق الأوسط والضفة الشرقية للبحر المتوسط (العالم العربي) ، هي الرائدة دائما في صنع المشاريع الانسانية الكبرى . الجغرافية والطبيعة والتاريخ حتمت على هذه الشعوب أن تكون دائماً في مركز العالم ، روحياً ومادياً . ليس صدفة أبداً أن تنبثق في هذه الأوطان أولى الحضارات والثقافات والأديان الكبرى ، لأنها متوسطة في كل شيء : جغرافيا هي في وسط قارات العالم ، بين آسيا وافريقيا وأوربا . هي في الوسط تماماً بين الشرق والغرب . . هم شرقيون إزاء الغربيين ، لكنهم غربيون إزاء الشرقيين في آسيا ، حتى المناخ هو مناخ المنطقة المعتدلة . أما الطبيعة ، فهي نموذج لتكامل الثنائيات ، جفاف الصحارى الكبرى ، وسيولة الأنهار والينابيع والبحار والوديان الخصبة .

العلماء الغربيون الذين فرضوا منظورهم التاريخي الذاتي على العالم ، نجحوا بإقناع العرب بأن تاريخهم العقلي قائم على الأسطورة والدين والروحانيات . وأن حضاراتهم الفرعونية والرافدية والشامية وعموم الحضارة العربية الاسلامية ، لم تبدع إلا في هذ المجال . وأن المنطق والفلسفة والعقل العلمي والتجريبي هي خصال أوروبية أبدعها الإغريق والرومان

وطورها الغربيون . علماء الغرب هؤلاء لم يشاهدوا من الميراث العقلي للمنطقة العربية غير جوانبه الأسطورية الروحية ، أما الجوانب المنطقية والعلمية فإما لم يشاهدوها أو أنهم نسبوا إبداعها الى الإغريق والرومان وأوربا .

التاريخ يبرهن بشكل جلي على أن العقلية الشرقانية(السامية الحامية العربية) ، وجميع حضارات شرق البحر المتوسط ، أبدعت دائماً في المجالات العلمية والمنطقية ، مثلما أبدعت في المجالات الدينية والروحية . يكفي النظر الى الانجازات الكبرى في مجالات الفلك والحساب واللغات والهندسة وبناء الدول والجيوش ومشاريع الري وعلوم الفلك والجغرافية ووسائل النقل والإبحار . الناظر الى تاريخ اللغة والكتابة ، يكتشف أن هذه الحضارات هي أول من طور علم اللغات والأبجديات ، من المرحلة الصورية البسيطة المماثلة للطبيعة (الهيروغليفية في بلاد النيل والمسمارية في بلاد الرافدين في الألف الرابع قبل الميلاد) ، وصولاً الى المرحلة المنطقية الشاملة المتمثلة باختراع نظام الأبجدية (السينائية الفينقية) في الألف الأول قبل الميلاد . إن اختراع الأبجدية كان من أكبر الثورات (الفلسفية المنطقية) في العقل البشري . ويمكن الجزم أنه بدون هذه الثورة لا يمكن تصور إمكانية نشوء علوم المنطق والفلسفة لدى شعوب البحر المتوسط فيما بعد . في القرن الثالث قبل الميلاد برزت مساهمة العالم الشرقي بصورة مباشرة في تطوير الميل الفكري العقلي (الفلسفة والمنطق) ، إذ نافست مراكز الفلسفة الشرقية مثيلاتها في اليونان وإيطاليا : الاسكندرية في مصر وأنطاكيا وبيروت في الشام والرها ونصيبين في بلاد الرافدين .

أما الإسلام ، فهو بحقيقته نموذج مختصر للعقل الشرقاني (السامي الحامي العربي) . تاريخ الفكر العربي الاسلامي يمنح أمثلة كثيرة عن مدى تداخل الميول الفكرية المتناقضة ، في ظل حضارة تواقة الى التكامل بين الثنائيات . الاسلام بحد ذاته ، لم يشتمل على اللاهوت والروحانيات فقط ، بل اشتمل أيضاً على جوانب الحياة المادية الواقعية والمحسوسة . انه دين الروح : الله والجنة والنار والملائكة والأنبياء والأولياء والصلاة والصوم والحج ، لكنه أيضاً هو دين المادة والتجارة والجنس والمجتمع والدولة وتقسيم الثروات وتفاصيل الحياة اليومية .

ان سر عظمة الحضارة العربية الاسلامية يكمن في قدرتها على استيعاب جميع الإبداعات العلمية والمادية ، رغم هيمنة الميل الديني الروحي سياسياً واجتماعياً ، طبيعة

الاسلام هذه منحت المجال الكبير لتنوع الإبداعات العقلية الى حد يفوق التصور .كان يكفي للمبدع أن لا ينتقد الاسلام (والخليفة) مباشرة ، ويينتبه الى ذكر اسم الله في كتاباته ، حتى يمتلك الحرية المطلقة في ولوج مجالات التفكير والتعبير مهما كانت . مثال على هذا ، تلك الحرية التي كان يتمتع بها العلماء والفلاسفة العقلانيين من أمثال الكندي وابن رشد وابن خلدون ، رغم تناقضهم (الفكري) مع الاسلام السائد . لأنهم رغم عقلانيتهم وعلميتهم ، كانوا كذلك من المؤمنين بالله والمكررين لأسمه في تحليلاتهم وكتاباتهم . وبالعكس لدينا مثال (الحلاج) وبعض المتصوفة والثوار الذين صلبوا وأحرقوا رغم إيمانهم الحقيقي بالإسلام وتصوفهم وزهدهم وصلواتهم التي لا تنقطع ، كل هذا لم يشفع لهم لأنهم «لم يحسنوا» استخدام الكلمات في تعبيرهم عن روحانيتهم هذه ، إذ تطرقوا مباشرة الى التشكيك بالمعنى الرسمي لمفهوم (الله) وكذلك سلطة الخليفة ، فكان من السهل اتهامهم بالزندقة .

إن مشكلة العقل العربي في العصر الحديث ، تكمن في عجزه عن إدراك حقيقة ميراثه (الاسلامي وماقبلاسلامي*) المتضمن جميع العناصر الروحية والعلمية التي تساعد على صنع تياراً وسطياً حقيقياً يجمع بانسجام بين ثنائيات الوجود .

يمكن تحديد نقاط القوة في الحضارة العربية الاسلامية بالنواحي الثلاثة التالية :

أولاً : حرية تفاعل التيارات المختلفة : إن سر عظمة أي حضارة يكمن في قدرتها على منح حرية التعبير والتفاعل لجميع التيارات العقلية في المجتمع . صحيح أن الميل الديني اللاهوتي هو الذي كان يمتلك زمام السيطرة على جميع مناحي الحياة العقلية في ظل الاسلام ، إلا أن هذا الأمر لم يمنع من إعطاء مساحة واسعة من الحرية للميول العلمية والمنطقية . الدليل على هذا أنه في ظل الحضارة العربية الاسلامية ، ظلت تتفاعل بصورة مبدعة ثلاث تيارات مختلفة في ظل وضع جدالي أقرب ما يكون الى الوضع الليبرالي السائد حالياً في الغرب :

* التيار الديني السلفي ، ويطلق عليه أيضاً (تيار النقل) و(أهل السنة والحديث) و(أهل الإيمان) ، ومن أبرز ممثليه (الحنبلية) . وهذا التيار كان له حضوره في جميع الطوائف والمذاهب ، منذ نشأة الاسلام . وهو عموماً التيار المهيمن سياسياً الذي يرفض استعمال

---

* ماقبلاسلامي ، نحت من كلمتي (قبل اسلامي) مثل (رأسمالي) .

المنطق والفلسفة ، ويدعو الى الإيمان المباشر بالله والأنبياء والأئمة دون طرح أسئلة أو بحث عن براهين واقعية لتحليل وتفسير هذا الإيمان . الامام الغزالي من أقوى المدافعين عن هذا التيار ، رغم أنه لجأ الى المنطق والفلسفة لدحض ومقارعة أصحاب التيار العقلي .

ويعتبر كتابه (تهافت الفلاسفة) الحجة التنظيرية الكبرى التي ساعدت على السيادة المطلقة لهذا التيار ، ولتبرير موت التيارات المنافسة الأخرى .

* تيار الفلاسفة ، ويطلق عليه أيضاً (تيارالعقل والبرهان) و(المتكلمة) وهو التيار الذي أخذ بعلم المنطق والفلسفة والبرهان ، ومن أبرز رموزه الكندي والفارابي وابن رشد وابن خلدون . رغم أن هؤلاء الفلاسفة ظلوا على ادعائهم الأولي بالإيمان الديني والمشيئة الإلهية ، إلا أنهم في التفاصيل كانوا يعتمدون على العلم والمنطق في رؤية الواقع وتحليل الجوانب التاريخية والعقلية . صحيح أن هذ التيار كان يعتبر متطرفاً بنظر الغالبية من المتعلمين وغير المتعلمين ، وتعرض أصحابه الى المضايقة والقمع ، إلا أنه كان يتمتع بمساحة كافية من حرية التعبير والتأثير على العقل الديني السائد .

* التيار الوسطي : بالحقيقة أن هذا التيار كان موزعاً بين ميول عديدة مترددة بين تياري العقل الإيماني والعقل البرهاني . وتظل الصفة الجامعة بين أقسام هذ التيار هي الرغبة بمزج العقل مع الايمان . واول بوادر هذا التيار عبر عنها (المعتزلة) وتطور فيما بعد على يد (إخوان الصفا) . كذلك حاول الإمام الأشعري أن يكون مذهباً وسطياً يجمع بين الناحيتين . ويمكن اعتبار المتصوفة أكثر الذين جمعوا بصورة خاصة بين تطرف المنطق الفلسفي وتطرف الايمان الروحي . ، واعتمدوا بذلك على المذاهب القديمة التي صنعتها الشعوب الشرقانية أسلاف العرب ، مثل المانوية البابلية والعرفانية(الغنوصية) والهرمزية المصرية*.

وبرز كذلك فلاسفة جمعوا بين الفلسفة والايمان مثل ابن سينا وابن عربي . لكن مشكلة هذا التيار انه ظل مهمشاً بسبب عدم قدرته على خلق نظرية واضحة منسجمة تجمع

* الغنوصية (العرفانية) والهرمزية ، هي تيارات فكرية انتشرت في مصر والشام والعراق قبل الميلاد بقليل . وهي تجمع بين الايمان الروحاني التصوفي والمنطق الفلسفي . وكانت امتداداتها في الاسلام متمثلة في الفلسفة الاشراقية والتصوف .

بين ثنائيات الوجود المادي والروحي . ويمكن الافتراض أن نقطة الضعف هذه تعود أساساً الى طبيعة المرحلة الحضارية آنذاك التي لم تهيىء الظروف لخلق مثل هذا التيار . ربما لو أن الحضارة العربية الاسلامية ظلت مستمرة بتطورها الطبيعي لتهيأت أسباب نجاح هذا التيار وهيمنته فيما بعد .

ثانياً : قدرة الحضارة العربية الاسلامية على استيعاب ميراث الشعوب الشرقانية التي تعربت وأسلمت بمعظمها وانصهرت عرقياً وحضارياً في الحضارة الجديدة . والذي منح الاسلام هذه القدرة على الاستيعاب ، أن العرب كانوا من ذات الحضارة والعرق السامي الحامي الذي عمر المنطقة منذ آلاف الأعوام ثم أن الاسلام نفسه اعتبر نفسه متمماً للأديان والمعتقدات التي صنعها الأسلاف . تاريخ الحضارة العربية الاسلامية يكشف عن مدى اشتراك العناصر المسيحية واليهودية والهرمزية والمانوية في ضخ الاسلام بمعارفها الموروثة . اللغة العربية طورت نفسها وكونت نحوها المنطقي من خلال تجربة اللغة السريانية . علوم الفلك والتنجيم والكيمياء ورثت وطورت علوم حضارات الرافدين والمصريين والشاميين . المنطق والفلسفة العربية الاسلامية استوعبت أساساً ميراث الشعوب السالفة مثل العرفانية والمانوية والهرمزية التي كانت سائدة في المنطقة . وكانت حواضر هذه المعارف (السامية الحامية) ومراكزها في الاسكندرية وإنطاكيا وشمال افريقيا وحوران والرها ونصيبين .

ثالثاً : قدرة الحضارة العربية الاسلامية على استيعاب معارف الشعوب الأخرى غير الشرقانية ، التي دخلت الاسلام وساهمت بتشييد الحضارة وتبنت اللغة العربية في إبداعها الثقافي . الشعوب الايرانية والتركية والهندية قد رفدت الفكر الاسلامي بميراثها المجوسي والهندوسي والآسيوي التركي . من هذه الشعوب برزت أسماء كبرى مثل ابن سينا والفارابي والغزالي وغيرهم ولم ينحصر انفتاح الحضارة العربية الاسلامية على الشعوب المسلمة ، بل كذلك الشعوب المجاورة التي ظلت مستقلة عن الاسلام ، مثل الهندوس والصينيين واليونانيين والرومان من خلال الترجمة والاقتباس والمقارنة . مثال حكايات ألف ليلة وليلة ، برهان على هذه الناحية ، حيث بدأت فكرة هذه الحكاية في الهند ، ثم طورها قليلاً الفرس والأتراك ، ثم تلقفها العرب لتأخذ شكلها الفني العميق في بغداد ، ولتصبح تامة التكوين في مصر .

عصر انبثاق فكر وسطي جديد

ربما يصح الافتراض، أو على الأقل التمني، أن البشرية احتاجت بضعة آلاف من الأعوام لتنهي «مرحلة الطفولة الغيبية»، لكنها لم تحتج إلا لبضعة قرون لكي تبدأ بالتخلص من «مرحلة المراهقة العلمية»!

تجارب التاريخ تثبت أن التطرف في واحد من الميلين، الغيبي أو العلمي، يؤدي حتماً الى اختلال التوازن في البنية العقلية الاجتماعية. تارة باسم اللاهوت والدين والمثل السماوية، وتارة باسم العقل والعلم والواقعية، وفي كلتا الحالتين، ظلت البشرية تخوض الحروب وتشن الغزوات وتبرر الاستعباد، وتمجد التضحيات ولا تكف عن تبديد ثروات الطبيعة والانسان.

كوارث الحربين العالميتين الأولى والثانية، ربما هي آخر الزفرات الكبرى لطيش المراهقة الغربية والبشرية عموماً. ليس صدفة أنه في الغرب خصوصاً قد شرعت الانسانية بإدراك مدى هشاشة الثورة العلمية والعقلانية التي كان يعتقد بقدرتهاالمطلقة على الخلاص وخلق الجنة «التكنولوجية الرأسمالية أو الشيوعية» على الأرض. بدأ هذا الغرب يسترجع بصورة بطيئة جميع طروحات «المراهقة» المتطرفة عن العلم ونفي ميراث البشرية الروحاني.

الحقبة العالمية الحالية تمثل حالة مخاض لانبثاق حضارة انسانية جديدة مبدأها الاعتدال والوسطية والنسبية في التعامل مع ثنائيات الوجود. مع نمو التجارب والنضوج العقلي، يبدأ الانسان، فرد وجماعة، بالميل نحو التوازن في رؤية الموجودات وتفضيل الوسطية لايجاد الحلول. هكذا بدأت الآن البشرية بالتخلص من طيش «المراهقة العلمية»، لتبلغ عمراً جديداً من الشباب الناضج، مستفيدة كذلك من ميراث «الطفولة الروحية»، لكي تشق درباً وسطياً يجمع بين العلم والروح، بلا تطرف ولا تبسيط.

تتجلى حالة البحث هذه عن الوسطية بأوضح أشكالها في الناحية الفكرية السياسية. هذا النزوع الوسطي يفسر بروز الجماعات البيئوية والسلمية المنفتحة على العلوم الحديثة من ناحية، وروحانيات الشعوب وميراث أديان أوروبا والعالم. كذلك البحث عن نظام وسطي بين الاشتراكية والليبرالية قائم على الحياة التعاونية السلمية واحترام الأديان وتقاليد الشعوب وبساطة الحياة المحدثة. بدأت تنتشر الدعوات القائلة بأن العلم ليس بالضرورة

مناقضاً للروح . الطب الحديث يمكن أن يتسفيد من الطب التقليدي . الكيمياويات لا تستغني عن الأعشاب . وتقنيات الاتصال والتنقل لا تنفي طاقات التبادل الروحية . وأن العوامل الاقتصادية والسياسية والمناخية ليست وحدها مسؤولة عن التاريخ . بل هناك العوامل الخفية الدينية والفلكية وتأثيرات الكواكب . وأن علم النفس والتربية لا ينفي تأثير عوامل الايمان الديني في حركة التاريخ وحياة الشعوب . وان الاعتقاد بالنظريات الحديثة لا يغني عن الاعتقاد بالنظريات القديمة . علماً أن هذه التيارات لا زالت ضعيفة ومشتتة ومحاصرة من قبل التيارات (العلمية) المدعية بالعقلانية الانتاجية المدافعة عن نظام السوق ومؤسساته الاعلامية والتربوية الجبارة .

كثيراً ما يساء فهم الميل الوسطي باعتباره نوعاً من التوفيقية والنفعية المتغيرة . الحقيقة أن هناك فرقاً بين هذين المفهومين . التوفيقية هي محاولة الجمع بين النقيضين جنباً الى جنب والمناورة بالاعتماد على كل منهما ، بينما الوسطية هي البحث عن الاعتدال بين معتقدين متطرفين بتناقضهما . لو أخذنا معتقديين متضادين ، مثل العلم والدين ، فإن التوفيقي يحاول أن يكون بنفس الوقت متديناً جداً وعلمياً جداً دون أي محاولة لايجاد منطق واحد يجمع بين الموضوعين ، إذ تراه ينتقل من حالة التزمت الديني الى حالة التزمت العلمي حسب المزاج والظرف والمصلحة . أما الوسطي فانه يبحث عن المنطق الواحد الذي يجمع بين العلم والدين مع تشذيب كل منهما من جوانبه المتطرفة . أي أنه يعتمد على مبدأ يفترض فيه أن القوى الغيبية والالهية يمكنها أن تكون حقيقة موجودة ومسؤولة عن انبثاق الدين ، لكن هذا لا يمنع أن تكون هذه القوى أيضاً مسؤولة عن العلم ومانحة للانسان القدرة على التفكير والابداع .

بهذا المعنى فان الوسطي هو أولاً وأخيراً من يعتمد على مبدأ النسبية في التعامل مع ثنائيات الوجود . الخير لا يكمن إطلاقاً في أحد طرفي الموجودات ، . ولا الشر يكمن في الطرف الأخر . الخير والشر يكمنان في الطرفين معاً وفي آن واحد : البرد وحده هو الشر ، كذلك الحر وحده هو الشر ، والانسجام والتوسط بين الاثنين هو الدفء والراحة للانسان والطبيعة . الخير يكمن في انسجام الثنائيات ، والشر يكمن في تناحرهما . الأنثى وحدها هي الوحشة والجفاف ، والذكر وحده هو السأم والموت ، الانسجام والتوافق بين الاثنين هو الحب والخصب والحياة . بين الماضي والمستقبل هناك الحاضر ، والحاضر هو الخير وهو الواقع ، وهو الماضي والمستقبل بآن واحد . أن الشر لا يكمن في النار وحدها بل في الثلج أيضاً ، أما

الخير فيكمن في وسط النار والثلج ، أي الماء الجاري من اتحادهما ، وهو الارتواء والخصب وسر الحياة .

هكذا جميع ثنائيات الوجود ، يكمن خيرها في تكاملها وتوسطها ، وشرها في تناحرها وتطرفها . إذا كان الله هو رمز الخير ، فإن الله إذن هو انسجام الثنائية ومركزها ، والشيطان هو تطرف الأحادية وجانبها الأقصى .

المشروع العربي لخلق فكر وسطي عالمي

يبدو أن العرب (وعموم العالم الثالث) ، بسبب تبعيتهم التلميذية للغرب ، كالعادة لم يتمكنوا حتى الآن من الاستفادة من هذا الجانب الايجابي الناشىء في الغرب . تراهم قاموا باقتباس تبسيطي متطرف لهذه التحولات العقلية الناشئة . جميع التيارات السياسية والثقافية المعروفة في العالم العربي : ليبرالية وقومية وماركسية ، كلها قلدت الغرب بتلميذية كسولة ومشوهة ومتطرفة . وها هم المتدينون يكررون نفس الخطيئة . إن تنامي التيارات الدينية لم يكن إلا إنعكاس مضخم وكاريكاتوري للتيارات الجديدة المتنامية في الغرب ، وهي التيارات البيئوية والسلمية المنادية بالعودة الى الطبيعة واحترام الأديان والروحانيات وتقاليد الشعوب . لكن الإسلاميين بسطوا المسألة وتطرفوا في تفسيرها : الكفاح من أجل الطبيعة والجمال والصحة صار هو الكفاح من أجل الآخرة والجنة الموعودة . الكفاح من أجل بساطة الحياة واحترام التراث الروحي ، تحول الى كفاح من أجل تراث مطلق بجماله وزهده وتدينه . والنتيجة أن الأصوليين في بلداننا يجاهدون من أجل العودة الى ماضٍ فردوسي والتقدم نحو مستقبل فردوسي كذلك . أما الحاضر فقد استحال الى جهنم ، والبشر انمسخوا الى شياطين تتصارع مع ملائكة!

رغم مرور أكثر من قرن على انطلاقة الحركة الإصلاحية في المجتمعات العربية ، لا زال العقل العربي يعاني من انفصامية ازاء أسئلة عن ثنائيات تتفاقم وتزداد حدة مع الزمن : الانسان مخيَّر أم مسيَّر؟ الأفضلية للنفس أم للجسد؟ الأسبقية للمادة أم للروح؟ عاطفة أم عقل؟ علم أم دين؟ ليبرالية أم اشتراكية؟ ديمقراطية أم مركزية؟ وحدوية أم قطرية؟ تراث أم حداثة؟ علمانية أم شريعة؟ قومية أم عالمية؟ طائفية أم وطنية؟ . . . الخ .

كل يوم تضاف ثنائيات جديدة على هذه القائمة . حول هذه المقارنات انقسمت

مجتمعاتنا ونخبنا الى أحزاب وطوائف وجيوش تتصارع حتى الموت ، من أجل مساندة جانب ضد جانب آخر .

إن الصراع بين الثنائيات لا يمكن إلغاؤه تماماً من العقل ، فهو ميل طبيعي عند البشر . ولكن المشكلة تحدث عندما يهيمن تماماً على العقل هذا الميل الثنائي ولا يجد الفكر الانسجامي الوسطي الذي يخفف من حدته . الفكر الوسطي يكون دوره أشبه بالهيدروجين في الجو ، إذ بوجوده يمنع تفاعل الأوكسجين مع النار ، ويخفف من حدة الصراع بين الطرفين ، وبالتالي يجنب الأرض حرائق لا تتوقف . هكذا بالضبط هو دور الفكر الوسطي .

إن مشروع الفكر الانسجامي الوسطي يعتمد في تكوينه على الأهداف التالية :

أولاً : عقد الصلح والتقارب بين منهج التحديث والعلم مع الدين والتراث . إنه مشروع كبير يتلخص بتحرر العلمانيين من نظرتهم الاستعلائية للتراث الديني من أجل دخولهم هذا الميدان وطرحهم من جديد جميع الأسئلة والمجادلات التي كانت سائدة في عصور الحضارة العربية الاسلامية . وهذا يعني تخليص الدين والتراث من سيطرة تلك النخبة من الفقهاء المنعزلين عن الحداثة والعلم ، وإحداث نهضة فكرية دينية أشبه بالتي حدثت في أوروبا بالنسبة للمسيحية . وهذا يتطلب أولاً نبذ تلك الفكرة العلمانية التبسيطية التي تعتقد أن الدين قد تجاوزه الزمن وهو ضد الحضارة والحداثة والعلم .

والمسألة الأخرى المهمة في هذا المجال ، هي نبذ تلك الفكرة المهيمنة منذ قرون ، على أن تراثنا الديني والقومي الوحيد هو التراث العربي الاسلامي . أي إعادة الاعتبار للتراث الحضاري الذي سبق الحقبة العربية الاسلامية والذي اعترف به القرآن أيضاً ، إنه تراث بلاد الرافدين والشام وبلاد النيل واليمن والحجاز وشمال افريقيا . وهذا يعني القيام بنهضة فكرية تعتمد الترجمة الكثيفة لذلك التراث الحضاري الممتد على عدة آلاف من السنين والمتضمن جميع المعتقدات والأديان التي صنعها الأسلاف وشكلت الأساس التراثي للحضارة العربية الاسلامية ، مثل أديان الرافدين والنيل وعلومهما التنجيمية التي شكلت مصدراً أساسياً في تطور المعارف الانسانية . كذلك دراسة باقي الأديان التي رغم انقراضها فإنها لا زالت حية في كل تفاصيل معتقداتنا الدينية والشعبية والثقافية مثل المانوية البابلية والهرمزية المصرية ، بالاضافة الى الأديان التي لا زالت حية مثل الصابئية واليهودية والمسيحية .

إن الفكر الوسطي الانسجامي يبتغي من هذا أساساً ، تصحيح حالة الانفصام المرضي

(الشيزوفيرنيا) التي تسود العقل العربي ، بسبب الانفصام التاريخي والعقلي في الشخصية العربية ، بين الانتماء للحقبة الحديثة ، أو الانتماء للحقبة العربية الاسلامية ، أو الانتماء للحقبة الحضارية والدينية السابقة للاسلام .

ثانياً : إضفاء بُعد إنساني عالمي على المذهب الوسطي العربي مع احترام الخصوصيات الوطنية والمعتقدية لكل شعب . قد تبدو طريفة وغير واقعية هذه الدعوة العالمية لمشروع فكري عربي ، لأننا تعودنا الاعتقاد بأننا حتى الآن غير قادرين على معالجة مشاكلنا فكيف بنا بمشاكل العالم؟ وهذا الكلام يبدو صحيحاً لأول وهلة ، لكن التمعن قليلاً بالتفاصيل التاريخية والمعاصرة يكشف عن الأهمية الكبرى لمثل هذه المسألة . إن جميع الحضارات التي قامت في منطقتنا العربية ، منذ فجر التاريخ وحتى انتهاء الحضارة العربية الاسلامية ، كانت كلها تتميز بصفة أساسية ثابتة رغم جميع المتغيرات : الشمولية الانسانية العالمية . إن سر قوة وحيوية جميع الحضارات التي قامت في منطقتنا أنها كانت ذات دعوة عالمية من الناحية السياسية والفكرية والدينية . أفضل مثال ، أن هذه المنطقة كانت مهد أكبر دينين عالميين شاملين لجميع البشر ، المسيحية والاسلام ، بالاضافة الى المانوية البابلية والهرمزية المصرية الذين تحولا الى دينين عالميين لبعض الوقت لكنهما ذابا أخيراً في المسيحية والاسلام . أمر يدعو للتساؤل حقاً أن جميع هذه الأديان قامت بدعواتها العالمية في ظل وضع وطني يسوده الضعف والتشرذم وهيمنة الأجنبي ، ومع هذا فإن صناع هذه الأديان كانوا يدركون في حدسهم الموروث أن إنقاذ شعوبهم يمر بالضرورة بالدعوة الى انقاذ الانسانية جمعاء . وإلا كيف تفسر هذه الثقة والجرأة الخارقة لأن يقوم النبي عيسى ثم تلامذته بدعوة المحتلين الرومان الى اعتناق دينهم! نفس العمل مارسه الهرمزيين في مصر ، بعدها يقوم ماني البابلي بنشر أتباعه في جميع أنحاء الامبراطورية الفارسية والامبراطورية الرومانية . وبعد قرون يقوم النبي محمد وأصحابه بدعوة ملوك وأباطرة العالم لاعتناق الاسلام بينما هم لا يمتلكون حتى إمارة صغيرة يحتمون بها ، ووصلت ثقتهم بدعوتهم العالمية أنهم حققوها فعلاً خلال أقل من قرن!

أسباب كثيرة فرضت على شعوب المنطقة أن تكون بطبعها عالمية ، لعل أهمها أنها في وسط العالم ، ممر ومعبر ومرتع لجميع الحضارات والأعراق والشعوب في قارات العالم الأولى ، آسيا وافريقيا وأوروبا ، يكفي أن تكون هذه المنطقة من أكثر بقاع العالم التي ظلت تمتزج بها على الدوام الأجناس البشرية لقارات العالم القديم : آسيا وافريقيا وأوروبا .

إن مكمن ضعفنا هو الانغلاق القومي الديني ، وسر قوتنا في عالميتنا التي من خلالها فقط تتشكل قوميتنا . هذا يعني إعطاء الناحية القومية والمبادىء القومية بُعداً عالمياً ، ليس بالمعنى التضامني فحسب ، إنما في جوهر المبدأ بحيث أن العالمية والقومية يكونان كلا واحداً من الصعب الفصم بينهما . وهذا بالضبط المبدأ الذي منح القوة للنهضة الأوروبية وبرر حروب الحقبة الاستعمارية ، أي ما أطلقوا عليه (المذهب الانساني) .

لكن هذه المرة فإن البشرية ربما تكون قد استفادت من تجاربها السابقة التي أدت دائماً الى ذوبان المبدأ الانساني العالمي بالمصلحة القومية والدينية المغلقة . الهدف والطموح الآن هو العكس ، أي ذوبان الحالة القومية بالهدف الانساني الأكبر .

إن التقارب العالمي الحالي يفرض التوحد . وإن كانت الأعوام الأخيرة تشهد بروز النزعات القومية والدينية والمذهبية ، وهي بحقيقتها ليست ضد التقارب والتوحد العملي الحاصل بين الشعوب ، بل العكس تماماً أي ضد الهيمنة القومية التي تمارسها بعض الشعوب القوية باسم العالمية والاخوة الوطنية . معنى هذا أن النزاعات الحالية هي أبداً ليست ضد الحالة الانسانية العالمية بل ضد التعصبية القومية التي تحاول أن تستخدم العالمية من أجل الهيمنة وقمع الشعوب الضعيفة . إذن الوحدة ا لعالمية لا تقوم مثل السابق على أساس القوة واستحواذ المجموعات القوية على المجموعات الضعيفة ومسخ تقاليدها ولغاتها ومعتقداتها . بل إن العالمية الجديدة تقوم على أساس خلق مذهب عالمي انساني شامل يحترم جميع خصوصيات الأفراد والمجموعات والشعوب ويخلق انسجام بين المصالح الخاصة المختلفة والمصلحة العليا للبشرية بالتقارب والتفاهم والعيش بسلام وعدالة على هذه الكرة الأرضية التي تتحول يوماً بعد يوم الى قرية عالمية .

إن العرب لقادرون على التبشير بهذا المبدأ ، وهذا أولاً وقبل كل شيء يحل مشاكلهم الوطنية الداخلية والطائفية والدينية ، ثم ثانياً يمنحهم قوة إنسانية في تعاملهم مع العالم وتقديم هويتهم ودينهم بصورة جذابة وإيجابية خالية من التهديد والعنف ورغبات الاستحواذ والفرض . هذا يتطلب قبل كل شيء إعادة الروح العالمية للاسلام ، ليس عن طريقة تصدير الثورة ـ كما حاولها الشيوعيون في روسيا وغيرها من قبل ، ويحاولها الأصوليون الاسلاميون الآن ـ بل من خلال إعطاء معناً واضح وتفصيلي للموقف الانساني للاسلام القائم على أساس احترام حقوق الانسان ، بما يعني هذا احترام حرية كافة الأديان والمعتقدات لجميع

البشر . إن الفكر الوسطي لقادر على نفخ الروح الانسانية العالمية في الاسلام وذلك بتحويله الى دين شامل وحي وديناميكي يمكن أن يشمل حتى غير المسلمين ، فأي انسان مظلوم مهما كان دينه أو معتقده من شأن الاسلام الاهتمام به والتضامن معه : الاسلام دين الله ، والله رب جميع البشر ، إذن الاسلام دين جميع البشر حتى الذين لم يسلموا . المسلم الحقيقي ليس هو من يُدخل الآخرين في الاسلام ، بل من يُدخل الاسلام في قلوب الآخرين .

ثالثاً : التحرر من سيطرة التمركزية العقلية الغربية ، والانفتاح على التراث الفكري والديني لجميع الشعوب . إن دراسة الهندوسية والتاوية والمجوسية وأديان شعوب افريقيا وآسيا وتركستان وهنود أمريكا ، يجب أن تكون من المصادر الأساسية في الترجمة والبحث والتدريس في المدارس والجامعات . يوماً بعد يوم يكتشف الغرب نفسه أن في الفلسفة التاوية الصينية واليوغا الهندية وعلوم التنجيم التقليدية والمعتقدات السحرية الافريقية والهندية ، ثمة الكثير مما يمكن الاستفادة منه في الحياة المعاصرة .

ما دام الانتاج العقلي الغربي هو المهيمن على حياتنا الروحية فاننا لن نستطيع أن نخلق التوازن الروحي المطلوب في ذواتنا من أجل التحرر وبناء حضارة جديدة . إن مواجهة الهيمنة العقلية الغربية لا يكون فقط بالعودة الى تراثنا الديني والقومي ، بل كذلك بالعودة الى تراث الشعوب الأخرى التي تعودت هي أيضاً الخضوع للغرب . وهذا يتطلب القيام بنهضة فكرية للاتصال بالشعوب الأخرى وتبادل المختصين بالتراث وعقد المؤتمرات الفكرية والدينية وتكوين لجان بحث وترجمة مختصة بالتعريف بتراث الشعوب ومدى علاقته التاريخية بتراثنا الديني والقومي . هذا الانفتاح على التراث العالمي يمنح العقل العربي البعد العالمي والديناميكية والقدرة على التطور والتأثير المستقبلي على العالم أجمع ، بالاضافة الى أنه يغني الشخصية العربية ويمنحها الثقة بالذات والقدرة على التحرر من الهيمنة العقلية الغربية . ثم ان هدف التحرر من هذه التمركزية الغربية لا يعني أبداً العداء لكل ما هو غربي ، بل الانفتاح على الابداعات والتقنيات الغربية مع التحلي بروح النقد والتمييز بين ما هو مفيد وما هو سيء لمجتمعاتنا وللمجتمعات الغربية نفسها . لأن انفتاح الفكر الوسطي على التراث العالمي لا يتنافى مع حقيقة أن المجتمعات الغربية تملك تراثاً روحياً ومادياً يشكل جزءاً من التراث العالمي . ثم أن هدف انقاذ العقل العربي من ثنائية التطرف والانفصام ، يشمل أيضاً جميع الانسانية بما فيها المجتمعات الغربية نفسها .

رابعاً : الانفتاح على جميع المناهج والتيارات الفكرية التي اكتشفتها البشرية ، وتجنب الانغلاق والتعصب لمنهج واحد . سواء في المجال الابداعي أو العلمي أو التحليل التاريخي والاجتماعي . مثلاً ، يمكن الاستفادة من علم النفس لتحليل الشخصيات ونشاط الجماعات . الاستفادة من المنهج الماركسي في تحليل العلاقة بين الطبقات ودوافع الأفراد المصلحية . الاعتماد على المنهج البنيوي في تحليل العلاقة بين مكونات البنية الاجتماعية أو الإبداعية . الاعتماد على المنهج «التنجيمي» والطبيعي لمعرفة تأثير دورة الأفلاك والبيئة على الأفراد والجماعات . الاعتماد على المنهج الثقافي لاكتشاف ديمومة الشروط والصفات في حركة التاريخ . يمكن حتى الأخذ بنظر الاعتبار الرؤية الغيبية والدينية في تحليل الوقائع والأحداث ودور الايمان في نشاط الأفراد والجماعات .

هذا يعني ، أن الفكر الوسطي يؤمن أنه ليس هنالك منهج أو رؤية واحدة تحمل كل الحقيقة ، بل إن كل منهج يحمل جزءاً من الحقيقة ، ودور النشاط الفكري الانساني يتحدد أولاً في احترام جميع المناهج والانفتاح عليها من أجل اكتشاف ذلك الجزء من الحقيقة الكامن في كل منها .

وهذا الانفتاح الفكري يعني بالضرورة أيضاً الانفتاح على جميع الوسائل والتقنيات العلمية واللاعلمية (شعبية ودينية وسحرية) ، في التعامل مع ضروريات الحياة . مثلاً ، في مجال الطب والعلاج ، هناك الوسائل التحليلية العلمية والأدوية الكيمياوية والعمليات الجراحية ،لكن هذا لا ينفي إمكانية الاستفادة أيضاً من الأساليب الطبية الشعبية وأدوية الأعشاب التقليدية والأبر الصينية . ثم أن أساليب العلاج النفسي الحديثة يمكن أن تستفيد كثيراً من أساليب الإيحاء السحري الشعبية وتقنيات اليوغا الهندية ، وحتى تقاليد الصلاة وتقديم النذور للقديسين ومراقد الأولياء . من الأمثلة الشائعة في هذا المجال ، أن الكثير من علماء النفس اكتشفوا أن عملية الاعتراف أمام الكاهن التي يمارسها المسيحي يمكن أن تكون ذات مفعول إيجابي نفسياً وأخلاقياً بمستوى حالة المريض أمام المحلل النفساني . كل هذه الأمور يحاول الفكر الوسطي أن ينفتح عليها ،ليس بهدف تبنيها الساذج ، بل من أجل دراستها ومحاولة استخراج كل ما هو مفيد فيها ، وتخليصها من سيطرة الدجالين والمشعوذين . ها هو الغرب المتمسك بالعلم اضطر لتشكيل اللجان والمعاهد المتخصصة لدراسة ما يسمى بالظواهر الفوقطبيعية ، لأنه أدرك أن في هذه المجالات المهمشة من قبل

العلميين ثمة إمكانات كثيرة للاستفادة منها في الطب والتربية والاتصالات ، بل حتى في مجالات التجسس والتأثير السياسي والعسكري .

خامساً : البحث عن نظام سياسي واجتماعي جديد يجمع بن محاسن الديمقراطية والتعددية ومحاسن الاشتراكية والعدالة الاجتماعية . إذا كان التاريخ الحديث قد أثبت فشل ما يسمى بالتجارب الاشتراكية ، فإن التاريخ الحديث كذلك يثبت يوماً بعد يوم فشل الليبرالية القائمة على منطق هيمنة الأقلية الثرية (أفراداً وشعوباً) على الأغلبية الفقيرة (أفراداً وشعوباً) .

إذا كانت الاشتراكية قد فشلت بسبب عدم قدرتها على احترام التعددية الفكرية والخصوصيات الروحية والدينية للشعوب ، فإن الليبرالية يتفاقم فشلها بسبب عدم قدرتها على احترام العدالة الاجتماعية على صعيد الوطن والعالم أجمع ، وسيطرة نظام السوق القائم عل مبدأ الربح والمنافسة التي تصل الى حد شن الحروب الاعلامية والنفسية والعسكرية من أجل احتكار الأسواق وإبعاد المنافسين .

يدعي المدافعون عن النظام الليبرالي بالعقلانية والعلمية في تسيير عملية الانتاج وتطوير المجتمع . لكنه يكفي التمعن قليلاً بالتبذير الهائل للطاقة البشرية وثروات الطبيعة الذي يمارسه نظام السوق ، لكي نكتشف مدى العبثية والجنون الذي يسيطر على العالم : ما يقرب من ثلث طاقة البشر وثروات الطبيعة تبذر على انتاج الأسلحة المدمرة وصناعة الحروب . جزء كبير من الانتاج يتمثل ببضائع مكررة وغير مفيدة لا تخدم إلا عملية المنافسة بين الشركات ، غابات بكاملها يتم استهلاكها بأيام من أجل انتاج ورق لعدد واحد من مجلة تلقى في البحر! جزء كبير من الانتاج يتمثل بوسائل الاعلام الجبارة للترويج للبضائع وتشجيع عملية الاستهلاك والمنافسة ومسخ الروح الانسانية وتضخيم الاحساس بالنهم والحاجة لدى الناس الى حد الضياع والانتحار . جزء كبير من الانتاج يمكن اختصاره والاستغناء عنه ، ولا يخدم إلا أرباح الشركات ، ويشكل ضرراً على المجتمع ، مثل هذا العدد الهائل من السيارات وما تستهلكه من بترول وما تسببه من حوادث . رقم واحد يكشف عن مدى هذا الجنون : عدد السيارات في سويسرا ـ ٧ ملايين نسمة ـ يضاهي عدد السيارات في الصين ـ ما يقرب المليار ونصف المليار نسمة ـ !

هذا البحث عن الطريق الوسطي الثالث ، بين الاشتراكية والليبرالية ، يعني أساساً

عقلنة ميول التحديث التقني ، والتخفيف من حدة المكننة الجبارة التي تكتسح بلا رحمة حياة البيئة وتقاليد المجتمع الموروثة . المصانع والمختبرات وناطحات السحاب لا تنفي أهمية وسائل الانتاج التقليدية واحترام خصوصيات المجتمع والبيئة . السدود الجبارة ومكائن الضخ والأسمدة الكيمياوية وأدوية النباتات لا تنفي أهمية دراسة وسائل الري التقليدية والأسمدة الطبيعة وطرق الزراعة الموروثة . كل يوم يكتشف الغرب أن الجنة الموعودة لا يمكن بناؤها من خلال التصنيع والتكنولوجيا وحدهما ،بل إن للبيئة وتقاليد الحياة محاسنها وأهميتها في تطوير المجتمع . غدى معروفاً للجميع المخاطر الكبرى التي تحيق بالكرة الأرضية من جراء تلوث الجو وثقوب الأوزون ونقص الأوكسجين وتسمم النبات والمياه وانقراض الحيوان . حوادث الطرق وحدها تقتل يومياً من البشر ما يضاهي عدد ضحايا الحروب والطواعين التاريخية ، بالاضافة الى انتشار الأمراض الاجتماعية والتعقيدات النفسية والجريمة والبطالة والمخدرات والعنف ، كل هذا من جراء التطور التقني والتصنيع والهجرة نحو المدن الكبرى ونظام الانتاج المادي، الذي تحول أشبه بمارد انعتق من سيطرة الانسان وراح يعبث بالحياة والطبيعة ، ويشوه كل ما هو جميل وحي في الكرة الأرضية .

* * *

إن هدف المبدأ الوسطي البحث عن إمكانات خلق مجتمع انساني يستطيع أن يعيش في ظل نظام انساني عالمي يحترم الخصوصيات الدينية والقومية . وهذا النظام كذلك ، من ناحية ديمقراطي ومتعدد الميول الفكرية والسياسية ، ومن ناحية اشتراكي يضمن العدالة الاجتماعية من خلال سيطرة المجتمع (وليس الدولة) على وسائل الانتاج ، عبر الهيئات المدنية والنقابات والجمعيات والمصارف التعاونية والشعبية .

تبقى المشكلة أن مثل هذا النظام من الصعب جداً تحقيقه بشكل متكامل على صعيد بلد واحد . النظام السياسي والاقتصادي صار متداخلاً على صعيد العالم أجمع ، ويبدو من المستحيل انفصال بلد ما عن باقي العالم ،لهذا فإن الكفاح الأساسي يتمثل بالعمل على خلق تيار عالمي ، يشمل الحكومات والأحزاب والجماعات الدينية والثقافية ، للمطالبة من خلال وسائل الإقناع والكفاح السلمي باتفاق البشرية (عبر الأمم المتحدة مثلاً ، وكذلك الهيئات الدولية مثل مجموعة عدم الانحياز والجامعة العربية والمؤتمر الإسلامي) على ايجاد حلول مشتركة وعامة للبشرية جمعاء وانقاذها من التدهور الذي لو استمر على هذا المنوال

سيؤدي بالأرض الى كارثة جماعية من التلوث والفقر والحروب والتدمير الذاتي . وهذا يعني أن هدف بناء نظام انساني ديمقراطي وعادل ، لم يعد حلماً طوباوياً لمجموعة من المناضلين ، بل صار ضرورة حياتية للانسانية جمعاء ، في الغرب مثلما في العالم الثالث ، علمانيين ودينيين ، وحتى الأثرياء والسياسيين المستفيدين ظاهرياً ووقتياً من ديمومة الكارثة العالمية الحالية . إن الدعوة لفكر وسطي انسجامي ليست دعوة لمذهب أو معتقد سياسي أو ديني ينافس المعتقدات والأديان السائدة ، بل هي دعوة لاتخاذ الواقعية والنسبية في التعامل مع جميع المعتقدات والأديان السائدة . إنها قد تكون دعوة خيالية وصعبة التحقيق ، لكنها في كل الأحوال ليست أسوأ من الدعوات الأخرى السائدة التي فشلت حتى الآن بانقاذ البشرية من الفقر والتناحر والدمار الذاتي . قد يصح القول ، أن القانون الوحيد الذي أثبته تاريخ البشرية منذ فجر الحضارة وحتى الآن هو استحالة سيادة رؤية مذهبية أو دينية واحدة حتى في داخل الشعب ذي المعتقد أو المذهب أو الدين الأوحد . إن قانون التنوع والتعددية والنسبية في مجال الفكر والايمان هو الحقيقة الوحيدة المطلقة التي مارستها جميع الأديان والمعتقدات حتى وإن حاولت عدم الاعتراف بها . إذن فإن هدف الفكر الوسطي أولاً الاعتراف بهذه الحقيقة ، وثانياً الكفاح الفكري والضميري من أجل إيجاد قاسم مشترك ورؤية وسطية للحوار والتفاهم بين جميع التيارات بهدف خلق برامج عمل مشتركة لانقاذ الأوطان .

إن الحقبة الحالية التي تعيشها شعوب المنطقة العربية تتشابه بالكثير مع الحقب المظلمة التي تميزت بالضعف وهيمنة الأجنبي وفقدان الثقة بالذات وغموض الهوية الوطنية والقومية وطغيان النزاعات الوطنية والحزبية والقبائلية والطائفية . إنها نفس إشكاليات الحقب السابقة التي دفعت أسلافنا الى تقديم مشاريع فكرية ودينية عالمية لانقاذ أوطانهم من خلال الدعوة لانقاذ العالم أجمع .

الثقافة بين المجتمع والسياسة والدين:
المثال العراقي

سُئل يوماً الكاتب المصري يوسف إدريس ، كيف استطاع أن ينتقل من طبيب جراح الى كاتب قصة؟ وكان جوابه : «إني لا أشعر بفرق كبير بين المهنتين . . . بالأمس كنت أشرّح الانسان بواسطة المبضع ، والآن أشرّحه بواسطة القلم . . .»!

رغم تنوع تعريفات كلمة «مثقف» وغموض المعنى في جميع لغات العالم ، إلا أن ثمة تعريفان سائدان ، رغم تمايزهما فإنهما متداخلان في المعنى . أولهما التعريف العام الشامل لجميع المتعلمين ، ممن يطلق عليهم تسمية «شغيلة الذهن» ، أي كل من زاول العمل الذهني بتنوعاته العلمية والتقنية والكتابية والفنية ، من مهندسين وأطباء وإدارين واقتصاديين وسياسيين وكتاب وفنانين . هؤلاء يشكلون عموماً الفئات المثقفة مقارنة بـ «شغيلة اليد» من عمال وفلاحين وحرفيين وعسكر وغيرهم . علماً أن هذا الفصل بين الفئتين يجب أن يعامل بصورة نسبية بسبب التداخل التقني بين العمل الذهني والعمل اليدوي . ثمة تعريف ثان لكلمة «مثقف» ، هو أضيق معنىً من الأول ، إذ يشمل قطاعاً واحداً من «شغيلة الذهن» . فيكون «المثقف» هو الذي يزاول النشاط في المجالات الجمالية الروحية والفكرية : الفن والأدب والفكر ، من خلال الكتابة والرسم والتمثيل والتصوير والغناء . بصورة أكثر دقة ، يقصد بالمثقفين ، الكتاب والفنانين بجميع تنوعاتهم . على هذا الأساس يمكن القول أن من تبقى من قطاعات التقنيين والأطباء والاختصاصيين والسياسيين وغيرهم ، يمكن تمييزهم بتسمية «مثقفين عمليين» .

بالنسبة للمثقفين العراقيين ، فإنهم يعانون من إشكاليات ونواقص ذاتية ووطنية ، رغم خصوصيتها ، فإنها عموماً تتقارب مع أوضاع المثقفين في العالم العربي وكذلك في العالم الثالث ، بسبب الخضوع المشترك لظروف الهيمنة الاستعمارية وسيطرة الثقافة الغربية (طبعاً الثقافة السوفيتية والماركسية جزء من الثقافة الغربية) . لكن يمكن القول أن أوضاع المثقف العراقي تتشابه أكثر مع أوضاع مثقفي منطقة المشرق : «العراق وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن» ، بحكم القواسم المشتركة في التاريخ والميراث الحضاري والعقلية السائدة والظروف

السياسية بالاضافة الى تشابه المجتمعات من ناحية التنوعات الدينية والمذهبية والسكانية (نقترح استخدام «فئة سكانية» بدل قومية أو عرقية) .

يتوجب التنويه الى أن تعداد نقاط الخلل لدى المثقفين لا يقصد به جميع المثقفين ، لأننا ندرك أن بينهم الكثيرين ممن يمتلكون الأصالة الذاتية والوطنية في إبداعاتهم . المقصود إذن هو القسم الأكبر من المثقفين الذين خضعوا بدرجات متفاوتة لحالة الانمساخ والانقطاع عن الواقع مثل الكثير من مثقفي العالم العربي وعموم العالم الثالث . هذا الخلل بالحقيقة يشمل المجتمع بأكمله بقطاعاته المتعلمة وغير المتعلمة وخصوصاً النخب المثقفة ، التي تتحمل المسؤولية الأولى بخلق وعي المجتمع والدولة . يمكن تعداد نقاط الخلل كالتالي :

١ - علاقة المثقف بالمجتمع :

يبدو أن العلاقة متخلخلة تماماً بين ثقافة النخب المتعلمة وثقافة عموم المجتمع الواقعية والموروثة . قد تكون هذه الإشكالية طبيعية ، إذ تعاني منها حتى المجتمعات الصناعية المتقدمة . لكن في بلدان العالم الثالث ، فإن الفروق المادية والثقافية بين فئات المجتمع شاسعة الى أقصى الحدود . في بلد «متقدم» مثل فرنسا ، المسافة الحضارية بين المثقف الفرنسي والفلاح الفرنسي ، لا تتعدى المسافة الجغرافية بين القرية الفرنسية والعاصمة باريس . بينما في العراق فان المسافة الحضارية بين الفلاح والمثقف ، تتجاوز المسافة الجغرافية بين القرية العراقية والعاصمة بغداد ، بل هي تفوق المسافة بين العراق وكل من باريس أو لندن أو موسكو! إن ظروف التبعية المادية الثقافية فرضت واقعياً الهيمنة الثقافية الروحية لعواصم العالم «المتقدم» . بمعنى أن المثقف الغربي يستمد مرجعيته من مركزه الثقافي الوطني أولاً ومن ثم من المراكز الثقافية العالمية ، بينما مثقف العالم الثالث فانه رغماً عنه ظل يستمد مرجعيته من مراكز الثقافة العالمية البعيدة جغرافياً وحضارياً!

هذا الواقع الانفصامي للمثقف في بلداننا أنتج لديه شعوراً عميقاً بالاغتراب الروحي عن المجتمع بتنوعاته الثقافية والسياسية والحياتية . لهذا السبب ، ساد لدى النخب المتعلمة نوعٌ من مشاعر النرجسية والاستعلاء الممزوجة بروح العطف الأبوي والشفقة نحو باقي المجتمع «الجاهل» . وتجلت هذه الحالة في جميع المعتقدات والإبداعات الثقافية والسياسية والعلمية . وتشترك في هذا الاحساس جميع النخب المتعلمة والفئات العليا والغنية ، حتى التي تؤمن بالثورة والعدالة . بل حتى الأصوليين ودعاة الدين والعودة الى ميراث السلف

الصالح، سقطوا منذ البدء في اغراءات النرجسية والترفع على عقلية المجتمع! إذا كان المثقف المدني (نقترح استخدام «مدني» بدل «علماني» لتجنب الإشكاليات التاريخية الخاصة بفرنسا وأوربا) يتهم عادة المجتمع بـ «الجهل والتخلف»، فإن «المثقف الديني» راح هو الآخر يمارس نرجسيته واستعلاءه من خلال اتهام المجتمع بـ «الكفر والمروق عن مبادىء السلف الصالح».

كل نخبة تختلق لها فانتازيا خاصة بها لتبرير تعاليها وشفقتها الأبوية والنبوية باسم سلطة المعرفة والتفقه.

بصورة أوضح نقول، إن مشكلة المثقف في بلداننا، أنه اكتسب نفس عقدة المثقف الغربي، لكن بصورة متطرفة ومقلوبة: إن المثقف الغربي ينظر الى مواطنيه بدرجة معقولة من الاستعلاء، ضمن حدود التمايز داخل الحضارة الواحدة. لكن هذا المثقف رغماً عنه يشارك مجتمعه بمعتقدات الاستعلاء والغرائبية الأنثروبولوجية عند النظر الى المجتمعات «المتخلفة»، والتي أطلق على إبداعاتها بكل بساطة تسمية «فولكلور» (كشف عن هذه الحالة بصورة رائعة ادوارد سعيد في كتابه المعروف عن الاستشراق). أما بالنسبة لمثقف العالم الثالث فان مشكلته تكمن في تبنيه نفس نظرة المثقف والمواطن الغربي نحو ثقافة شعبه وعموم الشعوب «المتخلفة»!

للتمثيل على هذه الحالة، نستشهد بذلك الاعتقاد الباطني والعلني المتداول بين الكثير من المثقفين (وأشباه المثقفين) (نقول الكثير وليس الجميع): أن الإبداع والذكاء، هي خصال خاصة بالمثقفين. وهذا يعني التعامل مع جميع نشاطات االناس ومعتقداتهم وإبداعاتهم ،على أنها نشاطات شعبية «فولكلورية». (طبعاً هناك استثناءات إيجابية منها مثلاً انتشار ظاهرة الاهتمام بالشعر الشعبي العراقي في أعوام الستينات والسبعينات، ومن أفضل هذه النماذج يمكن ذكر اسم الشاعر مظفر النواب).

هذا الوهم الاستعلائي شكل دائماً حاجزاً بين المثقف والثقافة الوطنية والشعبية. فتشوهت الرؤية الثقافية وساد زيف الإبداع والفهلوة الاستثقافية وهيمن الميل الى استخدام الرموز العصية والمستوردة، من نوعية: «يا طائر البطريق... وأرفع قبعتي تحية لك يا سيدتي...»! لقد طغى الغموض والتعقيد الى درجة أنه صار شرطاً أساسياً للقيمة الإبداعية: تقديس الرمز المجهول واللغة العصية على الفهم ذات المفردات القاموسية والجمل الطويلة المعقدة التي لا تعرف منها الفاعل والمفعول به إلا بعد قراءتها مرات عديدة. في

القصص والأشعار يجب أن تكون المدن مجهولة والشخوص بلا أسماء والأحداث بلا أوطان ولا تواريخ .

لوحات الرسامين ، مهما احتوت على أشكال واقعية فانها بالضرورة يجب أن تلطخ بالألوان القاتمة والضباب الداكن الذي يغطي مساحة اللوحة ويخفي محتواها

ترانا تعودنا الاستماع منذ أعوام الى الجواب المكرر ، للرد على شكوى الناس من هذا الغموض والإبهام : «إذا كان المتلقي لا يفهم ، فهذه مشكلته . عليه أن يعي أكثر ليدرك مقاصدي . . .»! كل هذا الغموض والتعقيد يبتغي بالنهاية أن يشعر «المواطن المسكين» بجهله وعدم قدرته على الارتفاع الى مستوى هؤلاء «المبدعين الكبار» . ولا يدري هذا المواطن أن قسماً كبيراً من هؤلاء المثقفين أنفسهم غير قادرين على «فك طلاسم» بعضهم البعض . الجميع يشتركون بديمومة هذه «الأكذوبة الكبرى» من خلال «هز الرأس» أمام اللوحة أو النص ثم التشدق بالأسماء الرنانة من نوع دالي وبيكاسو وسارتر وفوكو ، لتغطية العجز عن الفهم الحقيقي!

صحيح أن «الغموض الطبيعي» يمكن أن يكون ميزة فنية وإبداعية مقبولة . لكن المشكلة أن هذا «الغموض الأدونيسي» أصبح «الممثل الشرعي الوحيد» للإبداع ، وصار الوضوح والمباشرة «العدو الامبريالي الأول» الذي يتوجب على المبدع الانتصار عليه! رغم أن شاعراً كبيراً مثل «السياب» ، أو فناناً أصيلاً مثل «جواد سليم» لا يمكن أبداً اتخاذهما نموذجاً للغموض الحالي . ويتجلى هذا الاستعلاء الساذج بالموقف السائد ازاء مبدعين كبار مثل احسان عبد القدوس ونزار قباني اللذان يمكن اعتبارهما من قمم الإبداع رغم الاحتقار الذي يكنّه لهما أغلب مثقفينا بسبب اتهامهما بـ «المباشرة» وبمستوى المراهقين والناس البسطاء!

يمكن في هذا السياق طرح التساؤل التالي : لماذا تخلو ثقافتنا الحديثة مما يسمى بالإبداعات الشعبية ، أي الكتب والقصص المكتوبة بلغة مبسطة وموجهة الى أكبر عدد ممكن من القراء المتوسطي الثقافة؟ منذ أكثر من قرن والثقافة الغربية لم تتوقف عن انتاج هذا النوع من الكتب العاطفية والبوليسية والعلمية والخيالية المقروءة من قبل حتى المثقفين «الرفيعي والنحيفي» المستوى . نفس التساؤل يُطرح بالنسبة للفقر الشديد الذي تعاني منه الثقافة الموجهة للأطفال ، فنياً وأدبياً . كل هذا لأننا تعودنا تقديس «الثقافة الراقية» والاستخفاف بكل الابداعات الثقافية التي قد تهبط قليلاً الى مستوى «الشعب الجاهل» !

من أجل أن يؤكد المثقف تفقهه بالثقافة الغربية ، تراه انكب على التكرار التلميذي الساذج للنظريات والتيارات والمصطلحات والرموز والأسماء الأجنبية «الغربية» . إن الانفتاح والاقتباس والاستلهام من الثقافة الغربية المهيمنة يمكن أن يكون أمراً طبيعياً وايجابياً ، لكن المشكلة تكمن في «المركزية الطاغية» لهذه الثقافة ، وباعتبارها أيضاً «الممثل الشرعي الوحيد» للثقافة العالمية والأجنبية! صحيح أن هناك محاولات محدودة بدأت في سنوات السبعينات بترجمة ابداعات أمريكا اللاتينية وافريقيا ، ولكن حتى هذه الترجمات لم تصلنا إلا بعد الاعتراف بها من قبل الغرب! الموسيقى الافريقية لم نكتشفها إلا من خلال الغرب ، حتى أغاني «الراي» الجزائرية أتتنا عن طريق الغرب ، بل إننا متخلفون بسنوات طويلة عن الغرب في اعترافه بالثقافات الأجنبية . منذ سنوات الستينات بدأت تنتشر في الغرب تيارات بديلة تدعو للانفتاح على الروحانيات الهندية والصينية والاسلامية والعلوم «الشعبية» مثل طب الأعشاب والعلاجات الروحية وغيرها . بل إنه في بعض الدول الافريقية شكلت الحكومات لجان من المتخصصين بالطب الشعبي من أجل اختبار الأطباء الشعبيين ومنحهم اجازات العمل والاشراف على نشاطاتهم ومنع المشعوذين . في الغرب فقط عرفنا أن «علم التنجيم» هو علم «بابلي مشرقي» صميم ، وأهل الرافدين هم أول من أبدع هذا لعلم بحكم علاقتهم اليومية مع السماء والنجوم . طبعاً هذا لا يعني اتفاقنا مع «الشعوذات» التي تمارس أحياناً باسم هذا العلم .

مختصر القول ، أن الانفتاح على الثقافة الأجنبية ، يعني قبل كل شيء الانفتاح على ثقافات جميع الشعوب وخصوصاً الثقافات التي تربطنا بها علاقات تاريخية وجغرافية مديدة ، مثل الثقافات الفارسية والتركية والآسيوية والافريقية بالاضافة الى ثقافات الشعوب الغربية .

إن انفصام المثقف عن مجتمعه تمثل أيضاً بالتجاهل الطاغي الذي يمارس ازاء ثقافات الجماعات السكانية والدينية والمذهبية التي يتكون منها الشعب العراقي ومنطقة المشرق وعموم العالم العربي . صحيح أن الثقافة العراقية أنجزت خطوة مهمة منذ سنوات ألا وهي الاعتراف بالثقافة الكردية وتقديمها وترجمتها الى العربية . لكن هذه الخطوة تظل ناقصة من دون الانفتاح على ثقافات جميع الأديان والمذاهب والجماعات السكانية في العراق وعموم منطقة المشرق . باسم الخوف من «إثارة الحساسيات والنعرات» تم تجنب التطرق لثقافات

وميراثات الفئات الوطنية : أكراد ،سنة ، شيعة ، سريان ، صابئة ، تركمان ، يزيدية ، فيلية ، أرمن ، ثم الدروز والعلوية والشركس والطوائف المسيحية ؛ بل حتى القبائل والقرى والمدن المختلفة تستحق الاهتمام بميراثاتها وتقاليدها وفنونها التي تشكل بمجملها ثقافة الوطن بأكمله . لهذا ترى مثلاً شاعرنا يمكن أن يقتبس الرموز من الأساطير الإغريقية والهندية والافريقية لكنه لم يفكر يوماً بأساطير وثقافات الجماعات التي يتآلف معها يومياً في سوح الوطن . .

إن سر قوة الأنظمة الغربية لا يكمن فقط في الاقتصاد والتكنولوجيا والعسكر ، بل قبل كل شيء في القدرة على دفع جميع التنوعات الثقافية للتعبير عن نفسها وبالتالي صهرها في ثقافة وطنية واحدة موحدة تمنح الانسان الثقة بالذات والحس بالأصالة والانتماء للهوية الوطنية المشتركة . الديمقراطية لا تعني فقط حرية التعبير لجميع التيارات الفكرية والسياسية ، بل قبل كل شيء حرية التعبير لجميع التنوعات الثقافية والدينية والمذهبية والسكانية بما فيها حتى الميراثات العشائرية والاقليمية ، ضمن مبدأ مقدس يبتغي بناء ثقافة وطنية متنوعة وموحدة ، من خلال الاتفاق على أن اللغة الوطنية (العربية بالنسبة لنا) تظل هي اللغة الأساسية (وليست الوحيدة) المشتركة بين كل هذه التنوعات الثقافية .

نضرب مثلاً صغيراً على هذه الحالة : أليس من الغريب أن نسمع في محطات الراديو والتلفزيون في بلداننا أغاني انكليزية وفرنسية واسبانية وحتى بلغة الهونولولو ، ولكننا لم نسمع أو نشاهد اغنية سريانية أو تركمانية أو أرمنية أو بربرية أو نوبية . تُعرض علينا أفلام عن طقوس وتقاليد الهنود والأفارقة وجميع الشعوب ، لكننا لم نشاهد أبداً فلماً عن طقوس وتقاليد المسيحيين أو الصابئة أو اليزيدية أو الأقباط أو العلوية أو الشركس . الشيعة مثلاً لم تعرفهم التلفزيونات العربية إلا بعد أن «تفضلت» علينا المؤسسات الغربية بتصوير بعض شيعة لبنان وهم يفجون رؤوسهم بالسواطير! إنها أمثلة بسيطة عن حالة الانقطاع الثقافي والاحتقار الذاتي وفقدان القدرة على النظر الى الذات الوطنية دون الاستعانة بالكاميرات والعيون الغربية . لماذا كل قصصنا وتمثيلياتنا وأفلامنا وقصائدنا ولوحاتنا محدودة الأماكن والأجواء والنماذج ولا تبتعد أبداً عن المركز الثقافي الاجتماعي المقرر من قبل الحكومة . لم نشاهد إلا نادراً فلماً مصرياً واحداً يتحدث عن شخصية مصرية قبطية . ثم لماذا هذا الاصرار على احتقار الانسان «الصعيدي» والسخرية من لهجته في جميع الأفلام المصرية؟ ثم لماذا

جميع الشخصيات من ذوي البشرة السوداء لا يمثلون إلا أدوار الخدم في الأفلام المصرية . رغم أن جزءاً مهماً من الشعب المصري بأشكال افريقية . بل وصل الأمر الي حد اختيار «رجال بيض» للقيام بدور «عنتر العبسي» مثل سراج منير ثم فريد شوقي بعد تسويد بشرتهما بالسخام؟

٢ - إشكالية العلاقة بين المثقف والسياسي :

إن هذا الخلل الاستعلائي بين المثقف والمجتمع ، قد يكون عاملاً أساسياً في فشل المثقف باستلهام الواقع ، وبالتالي فشله بالتأثير على هذا الواقع . ديمومة الفصام العقلي بين المثقف والناس أفسح المجال للسياسي ورجل الدولة ، لأن يفرض سيطرته المطلقة على الواقع الوطني : دولة وشعباً وثقافة !

إن إشكالية العلاقة بين المثقف والسياسي تكمن في الفرق بين أساليب ونوعية رؤاهما : المثقف ، إنسان البحث في متاهات الخيال والحس والتفكير وتأمل الأسمى والأجمل . أما السياسي ، فهو انسان الممارسة والدولة والحسابات والتخطيطات وقياسات موازين القوى والدفاع عن برنامج سياسي محدد للتفكير والتطبيق .

يُقال عن الجيش الوطني الحقيقي ، أنه القادر على أن يكون «فوق الميول والاتجاهات» . المثقف يشبه العسكري في هذه الناحية ، بمعنى أن المثقف الحقيقي هو المثقف المستقل ، ليس لأنه فوق الميول والاتجاهات ، بل على العكس ، لأنه الجامع الأكبر للميول والاتجاهات . . إنه ضمير الناس والوطن ، والحاكم المحايد بين الفرقاء . يمكن تشبيه الفرق بين السياسي والمثقف ، بالفرق بين النبع والنهر . السياسي مهما كان واسع الطموح وذا برنامج شمولي ، فانه بطبيعته يبقى يمثل نبعاً ونهيراً يصب مع باقي الروافد الوطنية في نهر الثقافة الوطنية والانسانية . التيارات السياسية ما هي إلا نهيرات تصب في نهر الثقافة الكبير . والمثقف مهما التزم بتيار معين فانه بطبعه لن يكون مثقفاً مبدعاً إن لم يكن رافداً وطنياً كبيراً يصب بدوره في بحر الثقافة الانسانية والكونية .

هذا الاختلاف بين السياسي والمثقف . . ليس اختلافاً تناقضياً ،بل هو اختلافاً تكاملياً ، لأنهما طرفان متكاملان في معادلة الوطن والانسان ، ويفترض أنهما يشتركان في مسؤولية ديمومة الحياة وتحسينها وتجميلها . النظام الاجتماعي السياسي الأمثل ، هو الذي

يتعاون فيه المثقفون والسياسيون بصورة تسمح لكل منهما أن يحافظ على دوره المطلوب : أن يحاول السياسي دفع المثقف الى المشاركة أكثر في تطوير الواقع وبرامج الاصلاح الاجتماعي . بنفس الوقت فإن المثقف يحاول أن يدفع السياسي للتخفيف من حدة «حزبيته» وأن يكون أكثر جمالية وإنسانية وشمولية .

كثيراً ما يواجه المثقف بمسألة «الالتزام» بقضية الشعب والدولة ، ولكن لا أحد يواجه السياسي بمسألة «الالتزام» بقضية جمالية الانسان وخياله وشموليته الروحية! ان هذا التخلخل في العلاقة بين المثقف والسياسي أدى الى الفهم الضيق لمعنى «الالتزام» ، وبالتالي دفع المثقفين الى التمزق بين موقفين متعارضين تماماً :

* البعض فهم «الألتزام» ، بالمعنى الحزبي والخضوع الفكري والإبداعي للقائد السياسي دولة أو حزباً . بحيث يغدو المثقف مفسراً وإعلامياً للبرنامج السياسي الذي يفرضه رجل الحزب والدولة . يغصب المثقف نفسه على حصر عالمه الشامل والمتنوع في رافد سياسي مقنن ، فتتقلص مسافات الابداع والنقد والتفكير الى حدود الأيديولوجية والبرنامج التعبوي السياسي .
* البعض الآخر ، تمرد على «الالتزام» ، فلجأ الى نقيضه ، أي الى الـ «لا التزام» . حيث يسود الاعتقاد بأن السياسي نقيض للانساني والثقافي ، وبالتالي يتوجب الترفع عن جميع تفاصيل الواقع اليومي ، وتجنب القضايا الاجتماعية والسياسية المباشرة ، واللجوء للغموض والفذلكة الاستعلائية .

بسبب هذه العلاقة المشوهة ظلت الحياة السياسية في العراق تفتقر الى الابداع التنظيري والبحث الموضوعي في الواقع السياسي والاجتماعي والفكري العراقي . الحركات السياسية والدولة ترفض المثقف الذي يتدخل مباشرة في تحليل الواقع ، لأنها تفضل المثقف «الشعّار» السهل الذي يمنح دون اعتراض وتمنع ، ويمارس دور المفسر والمزوق والطبال . أما المثقف الآخر «المستقل» ، فقد فضل تجنب المواجهة ودوخة الرأس بأمور لا تقوده إلا الى الاضطهاد والعذاب ، فالتجأ الى مزاولة الابداعات الروحية التي لا تمس مباشرة الحياة الاجتماعية والسياسية . أبسط مثال على هذه الحال ، أنه حتى الآن ، ورغم الألوف المؤلفة من المثقفين والسياسيين العراقيين المتواجدين في الخارج ، فاننا لا نمتلك حتى الآن أية دار نشر أو مؤسسة أو مجلة فكرية سياسية خاصة بالمثقفين ، منفتحة على جميع التيارات وتعنى بصورة مستقلة

وتفصيلية بدراسة الوضع في العراق! لا السياسيون يرغبون بذلك ،خوفاً من فقدانهم سيطرة مفاهيمهم وتنظيراتهم على الوضع والقرار العراقي ؛ ولا المثقفون يجرأون على كسر هيمنة الأحزاب ، وولوج الواقع الاجتماعي والوطني وفرض مفاهيم ثقافية شاملة وعميقة ومتجددة على الخطاب السياسي التبسيطي والمكرر .

٣ - إشكالية العلاقة بين المثقف والديني :

كلنا نتذكر ، نحن الأجيال الشابة من المثقفين «الثوريين» ، كيف كنا نستخف بتقاليد أهالينا وشعائرهم ، عندما يؤدون الصلاة والصوم أو يمارسون طقوس عاشوراء . بل كنا حتى نستخف بتراثهم الأدبي والأسطوري وحكايات ألف ليلة وليلة . لأننا أخذنا «العلمانية» من ذيلها ولم نفهمها إلا على طريقة الثورة الفرنسية والثورة الروسية ، أي «نبذ الدين وتجاهله»! لم ندرك أن أوربا لم تصل الى ما وصلت اليه الآن إلا بعد قرون من الابداعات الفكرية التي لم تترك ذرة واحدة من التراث الديني إلا وتطرقت اليها وناقشتها ونبشت في مجاهيلها . لا زال حتى الآن التراث الديني يشكل جزءاً مهماً من الإبداعات الثقافية والأكاديمية بجمع تياراتها المختلفة . بل وصلت «التخمة» بالأوربيين بحيث أنهم راحوا يدرسون تراثنا الاسلامي وقبل الاسلامي وأبدعوا به وراحوا يعلمونا إياه في جامعاتهم!

إن الخلل في العلاقة بين المثقف والواقع الشعبي ، ثم بين المثقف والسياسي ، مرتبط أساساً بموقف المثقف إزاء الدين . وصل الأمر الى حد تناسي أي علاقة بين الدين والثقافة ، باعتبار الدين مسألة تقليدية «متخلفة» وهو معني بشؤون الماضي واهتمامات الشعب «البسيط» . أما الثقافة فهي شأن معاصر ونخبوي ولا تهتم إلا بأمور المستقبل السوريالية والدادائية والوجودية والماركسية والليبرالية والبنيوية والأبستمولوجية والسكسيولوجية ، وهلم جراً . غدى من الطبيعي اعتبار أمور الفقه ونصوص التراث وتواريخ الأنبياء والأولياء والطقوس والحكايات ، كلها من الأمور الشعبية التي تقع خارج دائرة الثقافة والإبداع . من المعتاد الكلام عن «التعصب الديني» ، لكن لا أحد يتكلم عن «التعصب الحداثي» الذي يتجاهل كل ما هو تراثي وديني وشعبي باعتباره متخلف وخرافي!

إن ابتعاد المثقفين عن «المجال الديني» أعاق تطور الدين وتحديثه على عكس ما جرى في أوربا . لقد ظل الدين معزولاً في التكايا والجوامع والمؤسسات الفقهية المغلقة ، ولم يتخلص من إرث الحقبة العثمانية المظلمة التي قضت على الميراث المزدهر للعصرين الأموي

والعباسي . إن الاجتياح السلفي الحالي يعود أساساً الى تخلف ثقافتنا عن إنجاز المهمة التاريخية الكبرى : «تطوير الدين وتحديثه» ، أي صنع الأساس الأول لتطوير وعي المجتمع والدولة ، وخلق هوية ثقافية وطنية قادرة على منح الانسان الثقة بالذات بلا توتر ولا شعور بالنقص إزاء الحداثة القادمة من الغرب . إن الحالة الانفصامية بين الديني والثقافي ، ليس المثقف وحده هو المسؤول عنها ، بل كذلك رجل الدين . بالاضافة الى الترفع الذي يبديه المثقفون ، هناك أيضاً ضيق الأفق والانغلاق الذي أبداه الفقهاء والمثقفون الدينيون إزاء كل ما هو حداثي و«علماني» وداعٍ الى التجديد ، حتى وصل بهم الأمر الى معاداة كل ما هو أدبي وفني باعتباره مناقضاً للديِّن! نتيجة هذا لم يفكر أحد أن الدين بحد ذاته ثقافة ، ورجل الدين هو رجل مثقف قبل أي شيء ، وكل ما في الأمر أن ثقافته متخصصة بالأمور الدينية والفقهيّة والتاريخية .

مشكلة المثقفين الدينيين أنهم بغالبيتهم تابعين للمؤسسات الرسمية الدينية (سنية أو شيعية أو مسيحية ، وغيرها) . في العقود الأخيرة بدأ المثقفون الاسلاميون ينضوون تحت راية الأحزاب الدينية . وفي كلتا الحالتين ، لا يزال هؤلاء يعانون مثل المثقفين العصريين من التبعية للمؤسسة الرسمية والحزبية ، بالاضافة الى ديمومة عزلتهم وتأخرهم عن التعامل مع مواضيع العصر وأفكاره .

إن تجاهل الثقافة الحديثة للمجال الديني أعاقها عن إمكانية ضخ الاسلام بالمعارف والعلوم والمفاهيم الجديدة . لقد فشلنا حتى بإعادة العنفوان الحضاري الأول للاسلام المزدهر بما لا يحصى من التيارات الفقهية والفلسفية والصوفية بالاضافة الى التعايش مع الأديان والمذاهب المختلفة . يكفي القول مثلاً ، أن مذهب «المرجئة» الذي ساد العصر الأموي قد سبق بقرون مفهوم «العلمانية» الغربية : أن الانسان يحاسب فقط على أعماله ازاء المجتمع ، أما بالنسبة لإيمانه الديني فان محاسبته تعود الى الله و«ترجأ» أي تؤجل الى الآخرة حيث يوم الحساب .

على كل حال ، يبدو أنه منذ الثمانينات بدأت الثقافة الحديثة تهتم بالاقتراب من المجال الديني . ان الاجتياح السلفي الحالي وما يطلق عليه بـ «الصحوة الاسلامية» رغم تطرفه ومغالاته وتكفيره للمجتمع ، إلا أنه ساهم بخلق حالة ايجابية مفيدة على المدى البعيد : إدراك الكثير من المثقفين خطأ تجاهلهم لأهمية الدين ، وبالتالي ضرورة الاهتمام بالمجال الديني لضخه بالدراسات والنقاشات والمعارف والمفاهيم العصرية . وهذا هو أملنا الوحيد بإمكانية

خلق «تيار اسلامي معتدل» منفتح على العصر والحداثة ويؤمن بالتعددية السياسية والفكرية والدينية ، على نمط «التيار الديمقراطي المسيحي» الموجود في أوربا ، رغم الاختلاف الكبير بين الحالتين .

* * *

من أول الحلول الممكنة لتخطي هذه الإشكالية المزمنة ، أن يتخلص المثقف العراقي والمشرقي (والعربي عموماً) من إحساسه الدائم بكونه ضحية للأنظمة الجائرة والمجتمع المتخلف . صحيح أن الأنظمة جائرة وصحيح أن المجتمع متخلف ، ولكن الصحيح أيضاً أن المثقف يمكن أيضاً أن يكون جائراً ومتخلفاً ، بانقطاعه عن أصالته الذاتية والوطنية ونظرته النرجسية الاستعلائية . بمعنى أن الحس النقدي الذي يتحلى به المثقف ازاء الدولة والمجتمع والدين ، لن يكون مفيداً وايجابياً إلا بإكماله أيضاً بالحس النقدي ازاء ذات المثقف ومدى دوره في تخلف الدولة والمجتمع والدين وعموم الثقافة الوطنية . ان حلقة تخلف الدولة والمجتمع والدين لن تكتمل إلا بتخلف المثقف ومساهمته في تشكيل الوعي الوطني المتخلف الذي يبرر لمثل هذ الطغم الاستبدادية أن تستحوذ على الدولة والوطن بأكمله .

ثم تأتي بعد ذلك أهمية اتخاذ الخطوات اللازمة لاصلاح العلاقة بين المثقف والسياسي ، ثم بين المثقف والديني . نعتقد أن الوسيط الوحيد القادر على اجراء الحوار بين المثقف والسياسي ، هو «المثقف السياسي» أو «السياسي المثقف» من أمثال «لينين ومحمد باقر الصدر وانطون سعادة» وغيرهم . وهذا يعني أن على كل حركة سياسية أن تضع في حسبانها الاشراك المباشر للمثقفين السياسيين في قيادة الحركة والتنظير لها . وبنفس الوقت أن يلعب هؤلاء المثقفون الحزبيون دوراً وسيطاً بين الحركة السياسية والحركة الثقافية . أي بصورة أوضح ، أن تكف الحركات السياسية عن جعل المثقف المرتبط بها كداعية واعلامي للتأثير على المثقفين وجرهم الى مواقعها . بل الأمر يجب أن يكون العكس ، أي أن يلعب المثقف الحزبي دوراً أساسياً في نقل آراء المثقفين للتأثير على الحركة السياسية وضخها بالخطاب الثقافي الشمولي والمستقل .

نفس الأمر ينطبق على مسألة العلاقة بين المثقف والدين ، فيتم الحوار وتبادل التأثير من خلال «المثقف الديني» الذي يجب أن يلعب دوراً أكثر استقلالية وشمولية في تكوين ثقافة دينية منفتحة على الثقافة العصرية ومؤثرة على البرنامج السياسي للحركات الدينية . وبالتالي تكوين ثقافة دينية منفتحة على الفكر المدني (أي العلماني أو الحديث) ، وهذا

سيؤدي بالتأكيد الى تكوين ثقافة مدنية وطنية منفتحة وممثلة لجميع التنوعات الدينية الاسلامية السنية والشيعية وكذلك المسيحية وجميع الأديان والمذاهب والجماعات الثقافية والسكانية في العراق ومنطقة المشرق .

يمكننا هنا أن ننوه الى مسألة قد تبدو ثانوية ، لكنها بالحقيقة مهمة وتلعب دوراً في تعميق الأصالة والشمولية لدى المثقف ، ونعني بذلك : «الثقافة التاريخية» . الملاحظ وحسب اطلاعاتنا الشخصية أن أغلب مثقفينا تخلو مكتباتهم وقراءاتهم من الكتب المعنية بسرد تاريخ الشعوب والأوطان . تجد الكتب المتنوعة في مجالات الأدب والفن والفكر والتراث ، وهي طبعاً مجالات ثقافية أساسية لا يمكن الاستخفاف بأهميتها . لكن تبقى قراءة «كتب التاريخ» شرطاً أولياً لاكتمال المعرفة خصوصاً بالنسبة لمثقفي الشعوب التي تعاني من الانمساخ التاريخي وتمزق الهوية الوطنية . ربما قلة اهتمام مثقفينا بالتاريخ تعود أيضاً لذلك الانقطاع والانمساخ الثقافي الذي فرض على ثقافتنا باسم الحداثة والمستقبلية والنقمة على الماضي «الظلامي المتخلف» . لهذا ترى مثقفينا عموماً يميلون الى القراءات الأدبية والفنية والفكرية والسياسية ، ثم البعض يضيف الى ذلك الكتب التراثية المعروفة بسبب أهميتها اللغوية والشعرية . أما كتب التاريخ فهي الأقل والأندر عموماً .

إن قراءة التاريخ الوطني والعالمي ستمنح مثقفينا العمق الثقافي الوطني والانساني وتجعلهم قادرين على الإمساك بالمعلومات والأدلة والأمثلة التي تغني الأصالة الذاتية وتدعم الثقة بديمومة الهوية الحضارية . إن قراءة التاريخ تكشف المعلومات عن تفاصيل الجماعات الدينية والمذهبية والسكانية المتنوعة التي يتكون منها الوطن وأدوار هذه الجماعات في صنع تاريخ المنطقة . إن قراءة التاريخ تعني بكل بساطة قراءة تاريخ جميع المعارف والانجازات الانسانية في مجالات الأدب والفن والفكر والاجتماع والسياسة والدين والحروب والعلوم والتقنيات وغيرها . قد لا نغالي لو جزمنا أن «قراءة التاريخ» ، هي الشرط الأول لتكوين المثقف الانساني الشمولي والأصيل ذاتياً ووطنياً .

باختصار نقول : إن الشعوب التي لا تقرأ التاريخ لا يمكنها أبداً أن تساهم بصنع التاريخ . إن فهم الحاضر واستشراف المستقبل لن يتما إلا بدراسة الماضي واستيعاب معانيه ، وهنا يكمن سر قوة الحضارة الغربية ودهاء الحركة الصهيونية ، لأنهما هضما جيداً التاريخ ثم تمكنا من السيطرة عليه .

حول المرأة، والفلسفة الصينية «التاوية»

كان من المفروض على الأقل تخصيص فصلٍ كاملٍ عن قضية المرأة، لأهميتها الحاسمة في بناء هوية أي شعب ووطن، لكن شحة الوقت وطبيعة الكتاب فرضت الاقتصاد بهذا الموضوع.

باختصار، إن موضوع المرأة هو أكثر المواضيع التي تستحق التعامل معها بالاعتماد على الفلسفة الصينية «التاوية». بالحقيقة أن هذه ليست فلسفة بالمعنى الشائع، بقدر ما هي «طريقة حياة»، إذ لا تتعارض مع أي دين أو معتقد. إنها تعتبر الحياة والوجود بأجمعه يتكون من جانبين متكاملين: (ين) و(يان)، أي (مؤنث) و(مذكر)، ويمكن الترجمة أيضاً بـ (منفعل) و(فعّال). بمعنى أن كل شيء في الوجود إما (مؤنث) أو (مذكر).. نعم كل شيء: البشر والحيوان والنبات وجميع المواد وأعضاء الجسد والسماء والأرض وحتى الغذاء والدواء. مثلاً، النهار مذكر والليل مؤنث، الحر مذكر والبرد مؤنث، المالح مذكر والحلو مؤنث، الحديد مذكر والخشب مؤنث.. الخ. كل الوجود (ثنائي) لكن هذه الثنائية التاوية تختلف تماماً عن (ثنائيتنا التناقضية) أي (ثنائية الأحسن والأسوأ) السائدة لدى شعوب ضفتي البحر المتوسط في أوربا والعالم العربي. الثنائية التاوية هي (الثنائية الانسجامية) حيث كل طرف لا يكتمل إلا بالطرف الآخر.. الخير يكمن بالانسجام والتكامل بين الثنائيات، والشر يكمن في تخلخل الانسجام والتوازن بين هذه الثنائيات.

بناءً عل هذا فإن أي مجتمع لن يبلغ الاستقرار والازدهار إلا بتوازن ثنائياته وتكاملها: الدولة والمجتمع، القوى السياسية والقوى المدنية، الدين والعلم، الانتاج والابتهاج، المدينة والريف.. ومن بين كل ثنائيات المجتمع، فإن ثنائية (المرأة والرجل) هي الأكثر أهمية على الإطلاق، في جميع النواحي البيولوجية والروحية والتربوية والاقتصادية والسياسية. دائماً المجتمعات التي تعيش حالة عنف وتوتر وقمع هي المجتمعات التي يبلغ فيها تخلخل التوازن بين الرجل والمرأة حده الأقصى، حيث السيطرة الحاسمة لعناصر الذكورة ورموزها: الفحولة والأبوة والقوة والعمل والعقل (الخالي من العواطف والضمير) والسلاح والحديد والجفاف والصراخ والفردية. كل هذه العناصر (الذكورية) هي ضرورية ومفيدة للمجتمع في حالة

التخفيف من سيطرتها بموازنتها مع عناصر الأنوثة : الأمومة ، والليونة والراحة والعواطف والخضرة والرطوبة والهدوء والروح الجماعية .

لهذا فان المجتمع الأمثل هو المجتمع الذي يتمكن من تحقيق التوزان بين مكوناته الذكورية والأنوثية ، في الدولة والادارة والقانون والدين والثقافة والتربية وجميع مكونات الحياة المادية والروحية .

لو تفحصنا بعض الشيء التجربة الغربية بشقيها الماركسي والليبرالي ، فاننا نلاحظ أن مشكلة المرأة تكمن في غياب التوازن بين الأنوثة والذكورة في الدولة والمجتمع ، رغم كل الادعاءات بالحرية والمساواة بين الجنسين . المشكلة أنهم تصوروا أن «المساواة» بين الرجل والمرأة تعني «التشابه» وليس «التوازن والانسجام» . حكاية المرأة الغربية هي حكاية كل الجماعات الضعيفة الخاضعة : تتوهم بأن التحرر من عبودية الأسياد يكمن بتقليدهم والتشبه بهم . فتراها رغم التحرر من العبودية فانها تظل تعيش في عبودية أقسى وأعنف هي عبودية الروح والعقل وانمساخ الأنا والاحتقار الدائم للذات لأنها لن تستطيع أبداً بلوغ مستوى السادة السابقين . حكاية المرأة تشبه حكاية بعض الأفارقة الذين تصوروا أن مساواتهم مع المستعمرين تكمن بتحولهم من اللون الأسود الى الأبيض! وهذا بالضبط ما عملته نخبنا الحداثية والتقدمية التي تصورت بأن تطورنا ومساواتنا مع الغرب يكمن بتشبهنا به وتشابهنا معه ، والنتيجة أنهم حولونا الى أشبه بحيوانات سيرك بعد أن نجحت بالتخلص من سيدها «الغربي» راحت تتصارع بوحشية فيما بينها لأنها تريد تقليد سلوك وعادات سيدها السابق وتتشبه به .

هكذا حال المرأة حسب الطريقة الغربية ، إنها منذ أجيال تمضي وقتها لكي تستطيع أكثر وأكثر أن تنمسخ الى رجل : لكي تتمرد على جدار البيت وعبودية تربية الأطفال والخضوع الاقتصادي للرجل ، تراها تمضي نهارها في سوح العمل والانتاج محرومة من بهجة الأمومة وهي بالكاد تقتنص الساعة لكي تمضي بعض الوقت مع أبنائها المعقدين بسبب العزلة والحرمان . وفوق كل هذا فشلت حتى بالاحتفاظ برجلها الذي رغم تشدقه بالحرية والمساواة إلا أنه يبقى رجلاً يحلم أن يعود الى بيته بعد كفاح العمل فيجد امرأته تنتظره بزينتها وعطرها وقد أعدت له المائدة وهيأت الأطفال ورتبت الفراش . لهذا تجد أن نسبة الطلاق في أوروبا تبلغ أحياناً نصف مستوى حالات الزواج ، ونسبة النساء اللواتي يعشن وحدهن بعد

خيباتهم المُرّة مع الرجل تفوق نسبة النساء المتزوجات ، والأطفال الذين يعيشون مع أمهات بلا رجال تبلغ نسبتهم الثلث .

المشكلة ليست بحصول المرأة على حق العمل وتحررها الاقتصادي ، بل بتصوير هذا الحق على أنه واجب وشرط أساسي لتحررها ومساواتها بالرجل . الآن فقط بدأت بعض الحركات النسوية تنتبه الى هذه الحقيقة القاسية وتعترف بأن المرأة تبقى تتميز عن الرجل بأمور كثيرة واهمها بأن المرأة هي التي تحمل وتنجب وترضع وتربي الأطفال ، وفي الأمومة تكمن لذتها وقوة شخصيتها وشعورها بحريتها . لكن المشكلة تكمن بعدم اعتراف الدولة والمجتمع بأن الأمومة وتربية الأطفال هو أيضاً عمل «اقتصادي» يفوق انتاجية وفائدة للدولة والوطن جميع الأعمال الانتاجية الأخرى ، لأنه ينتج أهم «سلعة» في الوجود ، ألا وهي الانسان . بناءً على هذا فأنه على الدولة والمجتمع أن تعترف للمرأة بهذا العمل «الانتاجي» وتمنحها حقوقاً مثل حقوق العاملين : المرتب والاجازة والضمان الاجتماعي وجميع الحقوق الأخرى .

أما المشكلة الثانية المرتبطة بمشكلة الأمومة والعمل فهي مشكلة تحول المرأة الى سلعة مهمتها الإثارة وجذب الرجل الى عوالم فنطازية تتجاوز بإباحيتها عوالم ألف ليلة وليلة . يبدو أن مهمة الإثارة هذه أتت لتكمل المهمة الأولى الهادفة الى تدمير الحياة العائلية : من ناحية سيسأم الرجل زوجته التي تهمل جمالها وأمور البيت بسبب انشغالها بالعمل خارج الدار ، ومن ناحية ثانية فان هناك ما يدفع الرجل لكي يسأم من زوجته بأسرع وقت حتي لو كانت ملكة جمال الكون : خلال كل الوقت وفي جميع الأماكن يجب أن يظل الرجل معرضاً للإثارة والانشداد نحو نساء يفقن الحوريات بفتنتهن ليجعلنه لا يكف عن مقارنتهن بزوجته ولا يمكنه أبداً تجاهلهن لأنهن منشورات على بوسترات الحيطان وفي الصحف والتلفزيون والسينما والكتب . . أما في الشوارع والمحلات العامة فحدِّث ولا حرج . كم هي معروفة تلك الطرفة التي تتحدث عن الرجال الذين تنط عيونهم شبقاً لمرأى أفخاذ وأرداف نساء ساحرات في الطريق ، لكنهم سرعان ما يصابون بالخيبة بعد اكتشافهم بأن تلك النساء هن زوجاتهم اللواتي لا يثيرنهم في البيت ، إلا أن الثياب الداعرة في الشارع قد أحالتهن الى بغايا واعدات .

إن شعوب الغرب (ونحن وراءهم طبعاً) تعاني من سيطرة تلك الأجهزة الشيطانية الجبارة التي تمتلك وسائل الاعلام والثقافة وتسخرها لخدمة غايات لا إنسانية لجني الأرباح

وتحويل البشر الى قطعان من الجراد المستهلك حتى للقاذورات المغلفة بورق الألمنيوم الملون. لقد نجحت وسائل الاثارة الجهنمية بتدمير أقصى حدود المعقول في الهيجان الشبقي إذ بلغت درجة الكبت لدى بعض الرجال أنهم راحوا يبتدعون طرقاً خارقة من أجل الحصول على المتعة الجسدية : اختطاف الأطفال واغتصابهم ، بل هناك رواج للمجلات والأفلام التي تظهر ممارسة الجنس مع الأطفال الرضع!!

بدل المساواة والتوازن تحولت العلاقة بين المرأة والرجل الى لعبة قاسية ومأساوية كل طرف يحاول فيها أن ينتقم من الطرف الآخر بطريقته الخاصة : الرجل بواسطةالاحتقار والعنف والاغتصاب والابتزاز الجنسي ، والمرأة بواسطة الاثارة والتمنع وتهييج العواطف.

هناك في أوربا عموماً زيادة عدد الانتحار ، وخصوصاً بين الشباب بين سن (١٥ ـ ٢٤) حيث يعتبر الانتحار السبب الثاني للوفاة بعد السبب الأول المتمثل بحوادث الطرق! أكثر خمسة دول بعدد المنتحرين هي : هنگاريا والنمسا والدانمارك وفلندا وسويسرا. لوحظ أن عدد النساء المنتحرات ، وخصوصاً من الشابات يفوق عدد الذكور عدة أضعاف قد تبلغ ثمانية مرات وأكثر. انه فرق هائل يدعو الى التساؤل. إن هذا الرقم يؤكد أن أسباب الانتحار ليست شاملة لكلا الجنسين. والواضح أن المرأة ، وخصوصاً الشابة ، رغم كل مظاهر الخلاعة والتبجح السينمائي ، فهي تعاني أضعاف أضعاف ما يعانيه الشاب. مشكلة الفتاة في أوربا أنه مطلوب منها الوصول لثلاثة أهداف بآن واحد :

١ - أن تكون جميلة ومثيرة وحسب أكثر القياسات صرامة من ناحية الطول والوزن. إذا نقص كيلو من جسمها أو زاد فهذه كارثة. يجب عليها ليل نهار أن تراعي طولها ووزنها ومكياجها وقصة شعرها وتناسق أعضائها. هناك عشرات الصحف والمجلات في كل لغة متخصصة بجمال المرأة وريجيمها ورياضتها ومواد المكياج العجيبة الغريبة مع عارضات أزياء نحيفات مثل جياع العالم الثالث. في كل مجلة وجريدة تجد عدة اعلانات كل منها يدعي اكتشاف طريقة سحرية بتخفيف الوزن ، وكلها تحتوي صوراً لنساء أشد حسناً من الملائكة. وطبعاً في جميع اعلانات المساج لن تجد أبداً صورة واحدة لرجل لأن جمال الجسد من واجبات المرأة وليس الرجل! هناك اعلانات عن أجهزة كهربائية متنوعة ، بعضها خاص بتنحيف الأفخاذ ، وأخرى لتنحيف الأرداف ، وأخرى لتنحيف

البطن والخصر ، وأخرى للأثداء . أما المرأة التي لا تريد أن تتعب نفسها بتمارين وأجهزة معقدة ، فهناك العمليات الجراحية التي تبدل كل شكلها وتقطع كل الأجزاء الزائدة من جسمها وتضع لها بدل اللحم والدم مادة السلكوين : لتضخيم الشفاه والأثداء!

٢ - بالاضافة الى واجب امتلاك الجمال والطول والنحافة والاثارة الدائمة ، فانه بنفس الوقت على الشابة أن تكون أيضاً متفوقة بدراستها طامحة للنجاح والحصول على أفضل المعدلات لأن الجمال والجسد وحدهما غير كافيان بل يجب أن يضاف اليهما الشهادة الدراسية والعمل المرموق!

٣ - يضاف الى كل هذا ، انه لا يكفي أن تكون الشابة جميلة ومثيرة ومرموقة بالدراسة بل يتوجب عليها منذ سن المراهقة أن تكون مؤهلة لكي تصبح حبيبة ساحرة وزوجة مستقبلية مخلصة وام خصبة حنونة . والفتاة التي لا تجد أمير أحلامها الذي تمارس معه تمثيلية الحب الناري أمام الأصحاب وبشكل ظاهري فانها ستحس بنفسها معقدة وخايبة وتتعرض للسخرية والاستغراب لأنها غير قادرة على هذه المهمة لأسباب نفسية أو جمالية!

كم هو صعب ونادر جداً امتلاك القدرة على تحقيق هذه المهمات الثلاثة : جميلة ومهيجة مثل بريجيت باردو أو مادونا . . ذكية وجدية مثل مدام كوري أو مسز تاتشر . . حبيبة وام حنونة مثل مريم العذراء والأم تيريزا . وعندما تفشل الشابة بالتوفيق بين هذه المهمات الصعبة فانها إما أن تلجأ الى الانتحار أو الإدمان على المخدرات أو الدخول في سوق البغاء ، أو أن الحظ يحالفها وتكون واقعية وتجد من يتفهمها ويساندها فتقرر تتفيذ واحدة من هذه المهمات الثلاثة ، ولكن بعد معاناة وخيبات وجروح نفسية منتشرة في أنحاء الروح تظهر آثارها في الحياة الاجتماعية والعلاقة مع الرجل .

* * *

المقصود من كل هذا ، القول بأن حصول المرأة على حريتها ومساواتها مع الرجل ليس بالسهولة التي أوهمنا بها الماركسيون والليبراليون : يكفي أن تتحرر المرأة من عبودية البيت والتبعية الاقتصادية للرجل حتي تبلغ حريتها ومساواتها . لا إن واقع العلاقة بين الرجل والمرأة وخصوصياتهم البيولوجية والروحية والتاريخية أكثر تعقيداً بكثير مما يدعيه هؤلاء الحداثيين .

في أكثر الأحزاب الشيوعية شيوعية وعلمانية لا تتجاوز نسبة النساء في القيادة في أحسن الأحوال الـ (١٠٪) وفي أكثر البرلمانات الغربية تحرراً ومساواة لا تتجاوز نسبة النساء الـ (١٥٪)* .

لا نقول هذا لكي نبرر بقاء المرأة على خضوعها للرجل وحجرها في البيت بحجة أنه ليس هناك حلاً . إنِ فشل الحداثة الغربية بخلق التوزان بين المرأة والرجل ، لا يبرر أبداً الدفاع عن الطروحات الدينية التي تحول الرجل الى «حارس» مسكين يمضي ليله ونهاره بتحمل عذابات هوسه الجنوني على «عفة وطهارة» ذلك «السجين الخطر» المسمى «امرأة»! إن الاطلاع على محصلتي التجربة الغربية والتجربة الدينية المحافظة ، ورغم تغليف الحقيقة بالادعاءات الفضفاضة المتنوعة ، فان التجربتين تتفقان على «تقديس الفحولة» ، فبينما العلماني يجهد بدفع «المرأة» لكي تنمسخ الى«فحل» ، فان المتدين يجهد لكي «تستحيل» المرأة الى «ملاك» طاهر مهمتها الوحيدة أن تثبت للرجل بأنه ما زال «فحلاً» رغم كل «اخصاءات» الحياة وجبابرة الأرض .

ان فشل الحركات الانسانية والاصلاحية حتى الآن بخلق النظام القادر على خلق التوازن بين المرأة والرجل هو السبب الأول والأكبر بديمومة آلام البشرية وتفاقم خيباتها وصراعاتها وسيطرة الفحولة والعنف وشراهة الانتاج وتدمير الطبيعة واكتساح التقنيات الحديدية لأنوثة الأرض وتحويل البشر الى عقول شيطانية جامحة همها الأول والأخير هو الربح ثم الربح ثم الربح!

---

* يورد غارودي في كتابه «في سبيل ارتقاء المـرأة» ص ١٠ ، الارقام التالية :
في فرنسا ، اقل من ٤٪ من النساء العاملات يتوصلن الى مراكز ضمن الملاكات العليا و ٧٪ فقط من رؤساء المشاريع هم نساء (وأقل من ذلك بكثير في المشاريع الكبرى) . وبالمقابل فان النساء يمثلن ٧٠٪ من موظفي المكاتب و ٨٠٪ من مستخدمي المصالح و ٦٥٪ من العمال المأجورين . وبالاجمال فان اجور النساء بمجموعها ٣٠٪ اقل من اجور الذكور وظـروف عمل سيئة ومهام تكرارية وتقييم اجتماعي يعادل الصفر» .

ملحـــق
عن اشتراك المرأة في إدارة الدولة

نورد هذا المثال عن الجدل الدائر في الاردن حول تخصيص (حصة اجبارية ـ كوتا) في البـرلمان الاردني للمـرأة ـ لا نخـفي بأننا مع نظام (الكوتا) هذا ، لأن هنالك آلاف الموانع الاجتماعية والسياسية والنفسية التي تعاكس المرأة في حريتها السياسية والانتخابية ، إذن من حقها الحصول على امتيازات قانونية وتشجيعية (كوتا) لتسهيل وصولها الى البرلمان وإدارات الدولة . ان المعارضين لهـذا القـانون بحـجـة انه يهين المرأة ويعـتـبـرها اقل قـدرة من الرجل ، اشبه بالذين يعارضون قوانين (محو الأمية والدراسة الالزامية) لأنها تهين المجتمع وتعتبره غير قادر على تعليم نفسه من دون الزام قانوني ! ونشير الى ان مشكلة (الكوتا) مطروحة الآن للنقاش كذلك في المجتمعات الغربية ، لأن مشكلة اشتراك المرأة في السياسة لا زالت قائمة :

« كوتا » نسائية في الإنتخابات
تثير جدلاً في الأردن

الجدل الحاد الذي تشهده الساحة الأردنية حالياً مع اقتراب موعد الإنتخابات البرلمانية انعكس على كافة الأطياف السياسية وطبقات المجتمع الأردني .

والحديث عن تخصيص (كوتا) نسائية ضمن التعديلات المنتظرة على قانون الانتخابات يلقي بظلاله على كافة التجمعات في الأردن النسائيةمنها بشكل خاص كون المرأة الأردنية هي المعنية بالدرجة الأولى بهذا التعديل إذا حصل .

ولم تنجح محاولات المرأة الأردنية لاختراق البرلمان الا في الانتخابات التي جرت عام ١٩٩٣ التي أوصلت النائب توجان فيصل الى البرلمان .

ومن المعروف ان تلك الانتخابات لم تشهد سوى ترشيح ثلاث سيدات فقط لخوض الانتخابات كانت توجان إحداهن ، وعزا المراقبون عزوف المرأة الأردنية عن خوض التجربة من جديد للخسارة القاسية التي منيت بها(١٦) سيدة خضن الانتخابات البرلمانية التي

جرت في عام ١٩٨٩وهي أول انتخابات برلمانية تجري في الأردن بعد عودة الحياة الديمقراطية .

والان وقبل سبعة أشهر على الموعد المحدد لإجراء الانتخابات المقررة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) المقبل انقسمت آراء وتوجهات المرأة الأردنية حول موضوع قانون الانتخاب وتخصيص كوتا للنساء ضمن التعديلات المقترحة ، ورغم اتفاقهن على رفض قانون الصوت الواحد لتنافيه مع القواعد الديمقراطية ، الا ان الخلاف في وجهات النظر حول تخصيص (كوتا) للنساء بدأت في الظهور بشكل علني وخاصة مع اعلان بعض السيدات عن رغبتهن في الترشيح للانتخابات المقبلة . وتقود النائبة توجان فيصل التيار الذي يرفض تخصيص (كوتا) للنساء في البرلمان وتطرح وجهات نظر ترى أنها منطقية في تعليل أسباب رفضها للكوتا . تقول توجان « أنا ضد الكوتا لأني أؤمن بالمساواة بين كافة أفراد الشعب الأردني ، وتجربتي في الوصول للبرلمان أكبر دليل على أن قوة المرأة هي التي ستوصلها» . ويؤيد الفيصل في هذا الاتجاه الطبيبة والصحافية هدى فاخوري التي سبق وان خاضت الانتخابات ١٩٨٩ وخسرت ، حيث تقول «نريد برلمانا قويا ولا نريد للمرأة أن تصل من خلال كوتا لأن ذلك مظهر من مظاهر الضعف ، لنترك المجال مفتوحاً امام الجميع والشعب هو الذي يختار الاكفأ والاقدر سواء أكان رجلاً أو امرأة» .

على الجانب الآخر يقف فريق المؤيدات للكوتا النسائية من منطلق انه لا بد من العمل بنصوص الاتفاقية الدولية الخاصة بالقضاء على كافة اشكال التمييز ضد المرأة والتي تدعو في أحد بنودها إلى تخصيص ما نسبته ٣٠٪ للمرأة في المجالس البرلمانية . ويقود هذا الاتجاه قيادات الحركة النسائية في الأردن وحزبيات عريقات في الأحزاب اليسارية .

رئيسة اتحاد المرأة في الأردن والمحامية اللامعة أسمى خضر تقول «أنا مع الكوتا النسائية مرحلياً نظراً للفرق الشاسع بين الفرص التي اعطيت للرجل في مجتمعنا في كافة الميادين وبين الفرص التي منعت عن المرأة لأسباب اجتماعية كثيرة ، واللحاق بالركب بالنسبة للمرأة في ظل تصورات مجتمعنا الحالية لا تزال صعبة لذلك لا بد من اجراءات استثنائية لمساعدة المرأة على تقليص الفارق بينها وبين الرجل في العديد من مناحي الحياة وخاصة السياسية منها ، والكوتا النسائية اجراء لا بد منه في المرحلة الراهنة» . الشاعرة والأديبة عائشة الخواجا الرازم كانت أو ل امرأة أردنية تعلن نيتها في ترشيح نفسها للانتخابات المقبلة بصرف النظر عن صدور قانون يحتوي على تعديلات تنص على الكوتا أو لا وتقول

"رغم قراري بترشيح نفسي للانتخابات المقبلة فأني من أشد المؤيدين لفكرة الكوتا النسائية وهناك العديد من المناصرين لي في هذا الطرح .

وتعترف الرازم انه برغم تحفظها الشديد على النائب توجان فيصل الا ان اداء الفيصل في البرلمان منحها الثقة كسيدة وزاد من وعي الشارع الاردني لأهمية وجود المرأة في البرلمان .

وتتوقع الرازم ان تعلن حوالي ٥٠ سيدة اردنية ترشيح انفسهن للانتخابات المقبلة من كافة انحاء الأردن بما فيها مناطق الريف والبادية ، وترى ان حصول المرأة على عشرة مقاعد في البرلمان المقبل انجاز عظيم للمرأة الاردنية .

اميلي نفاع احدى القيادات النسائية البارزة في الأردن ومن أقدم اعضاء الحزب الشيوعي الأردني اعلنت عزمها عن ترشيح نفسها للانتخابات المقبلة وتعمل من خلال تشكيل تحالف نسائي اردني للمطالبة بتعديل قانون الانتخابات وتخصيص ما نسبته ٢٠٪ من مقاعد البرلمان للمرأة ، وتؤكد ان الكوتا النسائية اصبحت ضرورية أكثر من أي وقت مضى لأن نظرة المجتمع لاداء المرأة لا زالت دون المستوى المطلوب لذلك ليس من السهولة ايصال المرأة للبرلمان وخاصة مع وجود قانون الصوت الواحد الذي قلل من فرص الاحزاب السياسية وليس فرص المرأة فقط . وتعتقد نفاع انه لا بد من ايصال عدد كاف من النساء الى البرلمان لتشكيل قوة ضاغطة تتمكن من وضع التشريعات التي تساند المرأة وتعطيها قدراً أكبر من الحقوق .

من « جريدة القدس » اللندنية - 2 - 5 - 1997»

نموذج للفهم «العرقي القومي» للتاريخ، والنظرة التغريبية للمجتمع

مصيبة البداوة العربية ، والفهم العرقي القومي للمجتمع*

طالعنا الكاتب (. . .) بدراسة على حلقتين في هذه الصحيفة (11 و 12 تشرين الثاني1996) ، بعنوان «نقد الحس النقدي عند العرب» .

نشيد أولاً بالنيات الصادقة التي أبداها الكاتب خلال دراسته هذه وخشيته الطيبة من اعتبار أفكاره «هجوماً غير عادل على العقل العربي» . كذلك التواضع الذي عبر عنه صراحة بقوله : «لا أدّعي أن ما سأقوله صحيح بالكامل ، بل إن هذه مجرد أفكار يغلب عليها الرجحان في الوقت الحاضر . وهي قابلة للتعديل والتحوير ، كما أنها قابلة للمناقشة والتفنيد» .

يمكننا اختصار فحوى هذه الدراسة بنقطتين أساسيتين :

أولاً : ماهية المشكلة ، وقد لخصها الكاتب بعنوان الدراسة نفسها : «غياب أو ضعف الحس النقدي عند العرب» . من مظاهر هذه المشكلة حسب المقال ، ان العرب يعانون من : «التمسك بالرأي بصرف النظر عن قيمته وجدواه دون محاولة تفهم الآراء الأخرى . . . وتغلب الوثوق بالرأي والحسم فيه أكثر من الشك واحتمال البدائل . . . والميل الى الخضوع الى النزعات العاطفية أكثر من الميل الى المحاكمة العقلية . . . تمجيد السلف والتراث . . . القصور الهائل عن متابعة وإدراك ما يجري في عالم اليوم . . . فشل تطبيق الأسلوب الديمقراطي في الحكم . . .» .

ثانياً : أسباب المشكلة ، وقد طرح الكاتب فرضيته المحورية عن أسباب هذه المشكلة واختصرها بسبب واحد أساسي ، وهو : «البداوة» . طيلة الحلقتين تم الحديث عن هذه العلة المحورية كالتالي : «الجذور البدوية التي تتميز بها غالبية الشعب العربي التي تفرض عليها تقاليد وعادات وقيماً أخلاقية معينة من الاعتداد بالنفس والفخر وحب الغلبة . . .

* ان هذا الموضوع قد سبق نشره كرد على موضوع سابق في « جريدة القدس اللندنية » .

العصبية القبلية والغزو باعتبارهما من القيم الاجتماعية المستحبة لدى الأعرابي والعربي بوجه عام . . . عدم نجاح العربي في التحرر من قيم بداوته حتى بعد انتقاله الى مرحلة حضارية متقدمة . . . اننا لا نزال بدائيين في أفكارنا أو متأثرين بقيم البداوة أكثر من تأثرنا بقيم الحضارة . . . ان العربي بوجه عام لا يزال متمسكاً أو متأثراً بقيم وتقاليد بدائية تعود أصولها الى المجتمع البدوي المتخلف . . .» .

الحقيقة أن تعقيبنا هذا لم تكن غايته الرد مباشرة على كاتبنا ، بل لأننا وجدنا دراسته تمثل نموذجاً «للرؤية العرقية القومية» السائدة والمغطاة بصبغة «حداثية علمانية تقدمية» . بمعنى واضح نقول أن هذا المنهج ليس فقط (عرقياً قومياً) ، بل انه يتبنى أيضاً طروحات (الاستعلاء الغربي) عن (الشعوب المتخلفة عرقياً ، والشعوب المتطورة عرقياً)[3] .

إن الأفكار التي رددها الكاتب عن (بداوتنا وتخلفنا) طالما تعودنا سماعها منذ أجيال وأجيال . والطريف أن أكثر من يردد من هذه الاتهامات القاسية هم أنفسهم دعاة القومية الأصيلة والمؤمنين بأن عروبتنا تكمن في انحدارنا الحتمي من قبائل البادية وصولاً الى الجد الأسطوري الأكبر «يعرب وشريكيه الشهيرين قحطان وعدنان»! إن هذا يذكر بحكاية ذلك الأعرابي الذي كان يصنع ربّه من العجين ويشرع بتقديسه وتبجيله والصلاة له ، ولكن حين يشح الغذاء ويشتد الجوع ينهال هذا الأعرابي على ربه المسكين ويلتهمه بدون رحمة . هكذا يفعل «عروبيونا» حينما صنعوا لنا أصولاً عربية بدوية مقدسة بدماء نقية صافية تلغي جميع الأجناس التي استقرت في أوطاننا طيلة عشرات الآلاف من السنين ؛ لكن هؤلاء القوميين ما إن يحاصرهم الجوع «الحضاري التقدمي» لا يجدون غير ربهم البدوي (القحطاني العدناني) هذا لينهالوا عليه لعنة وتدميرا .

معنى تخلفنا وضعف حسّنا النقدي

إن مشكلة (ضعف الحس النقدي) لدى العرب التي تحدث عنها الكاتب ، هي ذاتها تصلح أن تكون فرضية تحتاج للبحث والاثبات ، وليس مشكلة متفق عليها كما حاول أن يصورها . يمكن الاتفاق على وجود الكثير من العيوب التي تسود المجتمعات العربية ، لكن الذي يستحق التساؤل ، هل أن هذه المشكلة «عربية بدوية خالصة» أم مشكلة انسانية عامة توجد لدى جميع شعوب الأرض ، مع الاختلاف بحدتها وبمظاهرها وبوسائل التعبير عنها؟

بالامكان الاتفاق مع الكاتب في حديثه عن عيوب المجتمعات العربية ، لو أنه تحدث من دون الاستناد والمقارنة مع تلك «المُثل الحضارية العليا» التي فرضتها علينا الحداثة الغربية . إن الكاتب لم يتحدث عن العرب بمنطق نقدي داخلي ، بل استند مباشرة وغير مباشرة على المقارنة مع (الشعوب المتطورة التي تبنت العلم ونبذت الخرافة) ، وان مشكلة العرب كما يقول بأنهم : «يتمسكون بالمعتقدات والخرافات التي كانت شائعة لدى الشعوب البدائية . . . ويعزون الكوارث الطبيعية أحياناً الى أسباب غيبية . . . ولأنهم وقعوا في الشرك الأبدي للعاجزين : اللاهوت . . .» . ثم يقارن العرب بـ «الشعوب البدائية!» حين يقول : «ان ظاهرة الايمان بالخرافات هذه وممارسة الطقوس والتعاويذ والعادات ـ يضع الكاتب هنا بين قوسين كلمتيين بالانكَليزية دون أي داع ـ التي تنتقل من جيل الى جيل لدى الشعوب البدائية . . .» .

إننا أبداً لسنا من المدافعين عن المعتقدات الغيبية والخرافات والتعصب الديني ، ولكننا تعلمنا من تجارب الزمن أن طرح التساؤل التالي : هل مشاكل البشرية وكوارثها خلال هذا القرن وحده ، أتت من المؤمنين باللاهوت وعلم الغيب وأهل البادية ، أم على العكس؟ أليس أن أكبر حربين عالميتين قامت بهما تلك الدول التي تحمل آخر ما ابتدعه العلم والعلمانية من ماركسية وقومية اشتراكية وليبرالية؟ ثم نسأل هل هناك مجتمع أو انسان يمكن أن يتمسك بالحياة من دون خرافة وحلم ، حتى لو كانت باسم الحرية الليبرالية أو الجنة الشيوعية؟ ثم كاتبنا نفسه أليس هو من المؤمنين بخرافة (أصلنا العربي البدوي ، والحداثة التقدمية)؟ لينظر الكاتب حوله حيث يعيش في نيويورك ، وليستقصي عن درجة الايمان بالغيب حتى في الوسط الأكاديمي الأمريكي والغربي . . . لينظر الى الكنائس حوله وليطالع الصحف والاعلانات اليومية عن قراءة الكف والشفاء بالسحر والانتماء للطوائف والأديان العجيبة الغريبة! كل هذا يغيب عن دعاة الحداثة والتقدمية ، بل يصل الأمر بهم لحد الاعتقاد بأنه حتى خرافات الغرب ومعتقداته الغيبية واللاهوتية هي تقدمية علمانية حداثية!

منذ أوائل هذا القرن سقطنا في تلك «الثنائية التفاضلية التبسيطية» التي ترى جميع الاختلافات في الكون والمجتمع إما أسود أو أبيض ، إما خير مطلق أو شر مطلق : تقدم أو تخلف ، علم أو خرافة ، حضارة أو بداوة ، علمانية أو تدين ، مادية أو مثالية ، قومية أو قطرية ، اشتراكية أو رأسمالية ، وهكذا دواليك . إنها «ثنائية انفصامية» صنعها الغرب وسببت لنا الكثير من الانقسامات والعقد النفسية والكوارث الاجتماعية . إننا لا ندعي أبداً بعدم وجود

«الخير والشر» في الحياة ، بل نعم هناك السلام والحرب ، الصحة والمرض ، الراحة والتعب ، الطيبة والقسوة ، الحرية والقمع ، الأمان والقلق ، الغنى والفقر ، الخصب والجفاف ، البناء والدمار ، . . . الخ . إنها ثنائيات تناقضية واقعية ومعاشة ، ولكن من الخطأ تعميمها تلقائياً على (المجتمعات وتواريخها وقيمهاالأخلاقية وأساليبها السياسية) كما أوهمنا بذلك الغرب منذ القرن الماضي . الغرب نفسه بدأت فيه قطاعات مهمة من المثقفين تدرك مدى سذاجة العقل الغربي في فرضه هذه الثنائية التفاضلية وتعميمها التبسيطي على طبيعة مجتمع ما أو جماعة ما . إن أهم سبب (وليس السبب الوحيد) لتعصبنا وخلفنا ليس بداوتنا وحدها (إن وجدت حقاً) ، بل مصيبتنا تكمن بسقوطنا في مطب «الثنائية الغربية» واستمرار فقداننا لثقتنا بشخصيتنا ، كأفراد وشعوب ، أمام حجافل الهيمنة الغربية المادية والروحية . باسم التحديث والتقدم (حسب الذوق الغربي) ، وللخلاص من ظلامية الحقبة العثمانية ، أقحمنا أنفسنا في حومة صراعات فكرية وفنية أدبية مغلفة ببرامج سياسية ذات مصطلحات رنانة لا توجد إلا في عقولنا وليس لها أي وجود في واقعنا ومجتمعاتنا .

صحيح أنه من واجبنا الاعتراف بعيوبنا وتفهم أسبابها ، ولكن أيضاً من الخطأ المبالغة بعيوبنا و«جلد الذات» من خلال الاعتقاد بأن الشعوب الأخرى أفضل منا . طبعاً اننا ضد الطرح الديني والقومي المتعصب الذي كلما سمعك تتحدث عن عيوبنا رد عليك بالحديث عن عيوب الغرب (وانحطاطه وتفسخ أخلاقه) . اننا مع الحل الأمثل ، وهو «الحل الوسط» : الحديث عن عيوبنا والبحث فيها ونقدها وإدانتها ، من دون الإصابة بـ «عقدة الخواجة» التي تعتبر الحضارة والأخلاق والتقدم والتطور لدى الغرب ، وكل العيوب والتخلف لدينا . يعني لدينا مشاكلنا ونواقصنا ولديهم نواقصهم ومشاكلهم : إذا كانت لدينا المرأة محجورة ومقموعة ويبرر أحياناً حتى قتلها باسم العفة والشرف ، فلديهم المرأة تائهة في وسط غابة من وسائل الاثارة والتعري والابتزاز الجنسي ومخاطر الاغتصاب والتشتت بين حاجات الأمومة وواجبات العمل والانتاج التي قد تؤدي الى الجنون والادمان والانتحار . إذا كان المواطن لدينا مسكيناً خانعاً لمؤسسات العائلة والمدرسة ثم الجيش والادارة والدولة التي قد تسجنه وتقمعه وحتى تحكم عليه بالموت لمجرد أنه يحمل أفكاراً تختلف عن أفكارها ؛ لكنك في الغرب لا تموت في السجن ، بل تموت من التلوث وصخب مدن الحديد العملاقة وتهديد البطالة وحوادث الطرق وامراض السرطان والتنفس والجنس التي تحصد الأرواح كل عام اكثر من سجون العالم الثالث وحروبه!

أمام هذه الحقائق التي تدعمها الاحصائيات والأرقام ، والتي لا تغيب عن علم الكاتب ، خصوصاً وهو يعيش في (نيويورك) التي تعتبر واحدة من أكثر مدن العالم الغربي بمستوى الجريمة والانحلال الاجتماعي والتمايز الطبقي والعنصري . كيف يمكننا الحديث عن ضعف «الحس النقدي» عند الشعب الفلاني مقارنة بالشعب الفلاني؟ أي «حس نقدي» تمتلكه هذه الحضارة الغربية التي حولت الانسان الى جزء ثانوي من آلة الانتاج الجبارة ، ودمرت الطبيعة بنباتاتها وحيواناتها وأراضيها وبحارها ، وجعلت من التسلح وإشعال الحروب شرطاً مهماً لبقائها ، وحولت العالم الثالث الى مزبلة لأسلحتها الفاسدة ومكائنها العتيقة وساحة لنهب الخيرات وتفريغ المنافسات بتشجيع الحروب والدكتاتوريات . وفوق كل هذا يبقى العالم الثالث بالنسبة للغرب مجالاً حيوياً للحديث عن الهمجية والتخلف والبداوة مقارنة (بنا نحن الغربيين) أصحاب الحضارة والتقدم والحداثة والديمقراطية والانسانية ، ووو!!

إننا بحاجة ملحة لإعادة النظر في جميع المصطلحات والتعريفات والمفاهيم ، الأخلاقية والسياسية والفكرية والثقافية ، التي تعلمناها من الغرب في العصر الحديث ، ثم قدسناها وأصبحت من البديهيات التي لا تقتضي حتى التساؤل والتفكير!

الرؤية العرقية والبداوة الأزلية

النقطة المهمة التي تمحورت عليها جميع أفكار الكاتب ، هي مسألة تأثير (البداوة) على المجتمعات العربية . الحقيقة أن هذه النقطة مكررة ومكررة الى حد القرف ، وليس هناك شيء جديد في التطرق اليها . منذ طفولتنا ونحن نسمع الكبار يتحدثون عن بُعبُع البداوة هذا . أينما ذهبنا في أي بقعة من الأرض تواجهنا تهمة البداوة هذه . أي كتاب نفتح ، مهما كانت لغته ، عن تاريخ العرب والحضارة العربية فإنه يبدأ بالحديث عن الصحارى والبعران والأصل البدوي للشعوب العربية والحضارة الاسلامية . الحقيقة أن فكرة «الأصل البدوي» فكرة مضخمة ومنفوخة أضعاف حجمها الحقيقي . يكفي التخلي عن «الفهم العرقي القومي» لتاريخ الشعوب العربية وحضاراتها ، والتحلي بحد معقول من الرؤية الواقعية الانسانية ، لاكتشفنا أن «البداوة» لا تشكل في حضورها وفي تأثيرها ، خلال جميع مراحل التاريخ ، أكثر من 20% أو 30% من المجتمعات العربية . الكاتب نفسه يستشهد بمثال يتناقض مع فرضيته تماماً . يقول أن نسبة البدو قبل قرنين في مصر كانت تشكل سدس السكان ، يعني بدوي واحد مقابل خمسة من المزارعين والمدينيين . طيب لنفترض في أسوأ الأحوال وفي

ظل انهيار الدولة والكوارث فإن نسبة البدو تزداد الى أقصى الحدود فتصل الى الثلث ، أي بـدو 30% و 70% غير بدو! هل من المعقول بهذه الحال أن نختصر عقلية وروحية مجتمع بأكمله حسب عقلية ثلث سكانه المهمشين ثقافياً وسياسياً واقتصادياً !

لا أحد يعلم كيف يتسنى للميول القومية العرقية امتلاك هذه القدرة العجيبة على التعامي عن الحقائق التي لا تحتاج رؤيتها حتى الى دراسة وبحث ، بل يكفي رؤية الواقع من دون آيديولوجيات طنانة تبهر البصر والبصيرة : هل أهل العراق منذ ان وجد النهران وبعدهما الانسان ، هم بدو أم مزارعين ومدينيين منتشرين على ضفاف الرافدين . . هل حضارات سومر وأكد وبابل وآشور وبغداد ، هي حضارات بدوية أم زراعية حضرية؟ نفس الحالة بالنسبة لمصر والشام وشمال افريقيا . أليس نحن من صنع أولى الحضارات الزراعية وشيد أول المدن وكون أول الدول واخترع الكتابة والعلوم والفنون والآداب والأديان السماوية الثلاثة؟ طيب أين هي البداوة الأزلية التي ابتلينا بها وأصبحنا بسببها بلا (حس نقدي)؟ ثم لماذا بالضرورة أن تكون عيوبنا ودكتاتوريتنا وتعصبنا نتيجة أصولنا البدوية؟ ألا يمكن أن نحمل جميع هذه العيوب وأكثر منها من دون أن تكون لنا أصولاً بدوية . . هل من الضروري أن يكون سكان المدن والأرياف بطبيعة «ديموقورطواية!» ومتفتحة وانسانية وتقدمية جداً جداً ؟ !

المشكلة تظل تكمن في الاعتقاد الخاطىء الذي فرضته علينا هذه الرؤية العرقية القائلة بأننا جميعنا نحن «العرب» أو قل نحن «الناطقين بالعربية» تلقائياً منحدرين مباشراً ، دماً ولحماً وروحاً ، من تلك القبائل البدوية التي تشكلت منها الجيوش الاسلامية الفاتحة . ولكن أية مراجعة للوضع التاريخي أثناء الفتح ، تكشف لنا الحقيقة الساطعة التالية : في فترة ظهور الاسلام كان سكان الجزيرة العربية كلها بين مليونين وثلاثة ملايين نسمة . بينما سكان العراق وحده بين ستة الى سبعة ملايين نسمة[2] ، أغلبيتهم الساحقة من الزراع وسكان المدن الناطقين بالآرامية (السريانية) المنتشرين في الحواضر التيي تعمر ضفاف دجلة والفرات من نينوى حتى الخليج . وكان معظم سكان العراق قبل الفتح مسيحيون نساطرة مع أقليات من اليهود والصابئة والمانوية . أما البدو فقد ظلوا طيلة تاريخ الرافدين ، على أطراف ضفاف الفرات الغربية . ظلوا أقلية مهمشة وتابعة ثقافياً ودينياً للحواضر العراقية ، والدليل على هذا ان القبائل البدوية العربية التي قطنت العراق وسوريا قبل الاسلام ، اعتنقت المسيحية واللغة السرييانية في الحيرة وبُصرى[3] .

لتي

لقد ظل البدو منذ عهد السومريين والأكديين حتى العباسيين والعثمانيين ، لا يزدادون عدداً وأهمية إلا عند ضعف الدولة العراقية . يبرز دورهم الاجتماعي والعسكري من خلال الغزو والاستيطان والتحالف مع الأمراء والملوك . نفس الحالة يمكن ملاحظتها في تاريخ سوريا وعموم الشام . أما مصر فقد عاشت نفس الحالة ولكن بدرجة أقل بسبب طبيعة نهر النيل المحاط بصحارى واسعة ونائية بعيدة عن مناطق ترحال البدو في سيناء من الشرق والصحراء الليبية من الغرب[4] .

يتوجب التأكيد أن البادية (وخصوصاً بادية الشام) بالنسبة لسوريا والعراق ، ظلت دائماً تغذي المشرق (الهلال الخصيب) بالقبائل البدوية[5] ، ولكن البادية لم تكن المصدر الوحيد لتكوينا لمجتمعات العربية الحالية . إن المصدر الأول والأهم لتجديد السكان ، هم سكان هذه البلدان أنفسهم ، من زراع ومدينيين . جميع البحوث التاريخية والآثارية تتفق على أن البلدان العربية الحالية ، من العراق حتى المغرب ، ظلت مسكونة بالبشر منذ عشرات الآلاف من السنين ، بل إن البحوث الأخيرة أثبتت أن (الانسان الذكي ـ كرومانيون) قد انبثق من الشرق الأوسط وشمال افريقيا[6] . في هذه المنطقة نشأت أول المستوطنات الزراعية وأول المدن وأول الدول والحضارات ، إذن أليس من المعقول أن هؤلاء الناس المستوطنين منذ القدم هم الذين يكونون المصدر الأول والأساسي لتجديد المجتمعات وديمومتها؟ رغم تغيير اللغات والأديان والدول إلا أن الديمومة السكانية الوطنية تبقى هي الأصل . والدليل على هذا اتفاق الباحثين التاريخيين على التشابه البدني «العرقي» بين العراقيين الحاليين وهياكل العراقيين القدماء الموجودة في التماثيل والرسوم والمقابر[7] ، نفس الحال لوحظ بالنسبة للمصرين الحالين وتشابههم مع المصريين القدماء .

طبعاً لا ننكر أبداً دور الصحراء بتصدير البدو الى البلدان العربية الحالية ، ولكن ثمة مصادر سكانية أخرى غير الصحراء ، لا تقل أهمية عنها . هل نسينا أن العالم العربي لا تحده الصحارى فقط ، هناك حدود أخرى هي القارات الثلاثة التي تحيطه : افريقيا وآسيا وأوروبا . مصر مثلاً ، ظلت طيلة تاريخها تستقبل مصادرها السكانية كالتالي : أولا سكانها الأصليين الذين قطنوها منذ التاريخ السحيق ، ثم من الشرق حيث الجماعات البدوية والحضرية التي ظلت دائماً وحتى الآن تأتي من الشام وشمال الجزيرة العربية عبر سيناء ، ثم من الغرب حيث قبائل ليبيا وشمال افريقيا ، أما من الجنوب فكانت تأتي قبائل النوبة (السودان حالياً) ،

أما من الشمال فكانت الجماعات الأوروبية (الرومانية واليونانية) التي ظلت تأتي مصر عبر البحر المتوسط ، يضاف الى كل هؤلاء الجماعات الآسيوية التركستانية والقفقاسية والايرانية والعراقية التي ظلت تستقر في مصر عبر الاحتلال أو الهجرة .

بالنسبة لحالة العراق ، فإن مصدرها السكاني الأول هو سكانه الأصليين أنفسهم الذين صنعوا الحضارة السومرية الأكدية ، الموجودون في العراق منذ التاريخ السحيق . أما مصدره الثاني فهي الجماعات الشامية (السامية) البدوية والحضرية التي ظلت تغذي العراق سكانياً منحدرة من أعالي الفرات أو عبر بادية الشام . يضاف الى ذلك مصدر مهم لسكان العراق ، طالما تجنب ذكره القوميون خشية تشويه أسطورة نقاء الدم العربي لشعب العراق ، فالحدود الشرقية والشمالية ظلت منذ الأزل تغذي الرافدين بالقبائل والجماعات الرعوية الآسيوية (آريون وتركستان وقفقاس وأرمن) الذين ظلوا يذوبون في الغالبية العراقية ويتبنون حضارتها ولغتها ودينها . مثلاً ، حتى أواسط هذا القرن ظلت القبائل الرعوية الكردية تهبط من جبال زاغاروس وتأتي لتستقر في سهول أربيل وكركوك والموصل . بفضل الدعم العثماني تمكنت هذه القبائل من فرض الاسلام واللغة الكردية على المناطق المسكونة أصلاً بالجماعات السريانية المسيحية[8] . يعني أن العراقي الحالي من الشمال حتى الجنوب بدمه وبدنه وتكوينه العرقي والروحي لم يحمل فقط ميراثات البدو العرب كما يُشاع ، بل هو يحمل قبل كل شيء مواريث أسلافه الأوائل (السومريين والأكديين) ، ثم مواريث الجماعات الآسيوية (الآرية التركستانية الكردية القفقاسية الأرمنية) ، بالاضافة الى المواريث البدوية العربية ، وهذا التنوع في الأصول نلاحظه على العائلة العراقية الواحدة وعلى وجوه الأشقاء المختلفي الأشكال والألوان!!

إن الأصل البدوي العربي المضخم والمبالغ به يستند الى الفهم العرقي القومي الذي فرضه علينا المؤرخون الغربيون : أوهمونا بأن قوة عروبتنا تكمن في مدى إيماننا بأصلنا البدوي العربي القح ، وبالتالي نجحوا بفصلنا (عرقياً) عن تواريخنا السابقة للفتح الاسلامي . أراد الغربيون بذلك التخلص من تلك «العقدة المزعجة» المتأتية من شعورهم بأن دينهم المسيحي قد صنعه أجداد هؤلاء «العرب المسلمين» ، ولأننا أيضاً الورثة (العرقيين) للحضارات الانسانية الكبرى في مصر والعراق والشام وشمال افريقيا . يبدو أن مصلحة الغرب هذه التقت أيضاً مع مصلحة الصهيونية لتبرير ادعاءاتها بأجنبية الشعب الفلسطيني عن أرضه

وعن ميراثه الكنعاني اليهودي الآرامي المسيحي ، ما دام الفلسطينيون منحدرون (عرقياً) من نسل القبائل العربية البدوية التي وصلت فلسطين بعد طرد اليهود !!

* * *

إن دراسة طبيعة المجتمعات العربية ومشاكلها ، كذلك دراسة أي مجتمع آخر ، يجب أن تتجنب الوقوع في شرك التبسيطية والنظرة الأحادية والاستناد الى منهج واحد محدد . إن الوجود الاجتماعي أشبه بالوجود الكوني ، من الصعب جداً الحكم عليه من خلال رؤية واحدة ومنهج محدد . هناك مناهج للبحث والتحليل عديدة ، منها المنهج الاقتصادي الماركسي الذي يؤكد على العامل الطبقي ، وهناك المنهج الديني المثالي الذي يؤكد على العوامل الايمانية والإلهية ، وهناك المنهج العرقي الذي يؤكد على ديمومة الخصائص القومية مهما اختلف الزمان والمكان ، وهناك المنهج الجغرافي الذي يؤكد على العوامل الجغرافية والطبيعية في التأثير على المجتمع . ثمة مناهج أخرى عديدة معروفة وغير معروفة ، منها مثلاً المنهج (البابلي) الذي يؤكد على دور الكواكب وتأثير النجوم في تصرف الأفراد والشعوب ، وهذا المنهج يزداد أتباعه يوماً بعد يوم عبر الاهتمام بعلم التنجيم .

يقول أن كل واحد من هذه المناهج يحمل جزءاً من الحقيقة الكلية التي لم ولن يستوعبها منهج واحد أو معتقد حتى الآن . إن هذه المناهج والنظريات أشبه بالثقوب في الجدار المطل على الحقيقة الكونية . من يبتغي معرفة أكبر قدر ممكن من الحقيقة عليه النظر خلال اكبر عدد من الثقوب (المناهج أو الرؤى أو النظريات) المنتشرة في الجدار .

هذا هو المنهج الذي ندعوه بـ «المنهج الوسطي» الجامع بتنوع وديناميكية بين مختلف المناهج الانسانية السابقة واللاحقة . إن هذا «المنهج الوسطي» يساعدنا على تجنب السقوط في شرك التعصب (الغربي والبدوي!) ، ويجعل رؤانا تتقبل الاستفادة من جميع التجارب الخاصة والعامة . المنهج الوسطي المنفتح والمتنوع سيخلصنا من (عقدة الخواجة) ويساعدنا على تجنب هذه التبعية التلميذية للرؤية الغربية (وثنائياتها الانفصامية) التي تغلق العقل وتقتل الثقة بالنفس وتلغي الاحساس بتمايز الذات لدى الأفراد والشعوب .

«سليم مطر ـ جريدة القدس ـ 10-12-1996 ـ لندن»

مصادر :

1 - من أشهر ممثلي هذه النظرية العرقية ، العلامة الفرنسي (رينان) عن (تخلف العرق السامي) . لقد تحدث عنه ـ ادوارد سعيد ـ الاستشراق ـ ص 163 .

2 - حول الاحصائيات السكانية التاريخية ، راجع :

- فيليب فارج ـ المسيحيون واليهود في التاريخ الاسلامي ـ الفصل الأول ـ دار ابن سينا ـ القاهرة ـ 1994 .

- شارل عيساوي ـ تأملات في التاريخ العربي ـ الفصل الثاني ـ مركز دراسات الوحدة ـ بيروت ـ 1991 .

3 - عن السريان في العراق والشام قبل الاسلام وبعده ، راجع :

- الأب البير أبونا ـ تاريخ الكنيسة السريانية ـ ٣ أجزاء ـ دار المشرق ـ بيروت ـ 1986 .

- نينا بيغوليفسكايا ـ ثقافة السريان في القرون الوسطى ـ دار الحصاد ـ دمشق ـ 1990 .

- الأب جورج قنواتي ـ المسيحية والحضارة العربية ـ المؤسسة العربية ـ بيروت ـ .

4- عن طبيعة الهجرات البدوية وتنقلات الشعوب في العراق وسوريا ومصر ، راجع :

- GEORGES ROUX - LA MESOPOTAMIE - SEUIL - PARIS - 1985.

(انه كتاب بالفرنسي ومترجم عن الانكليزي ، باعتقادنا أنه أفضل مصدر عن تاريخ العراق القديم وتفاصيل مكوناته الحضارية والسكانية) .

- فيليب حتي ـ خمسة آلاف عام من تاريخ الشرق الأدنى ـ مجلدان ـ الدار المتحدة ـ بيروت ـ 1983 .

- برهان الدين دلو ـ حضارة مصر والعراق ـ الفارابي ـ بيروت ـ 1989 .

- فيليب حتي ـ تاريخ سوريا ـ مجلدان ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ 1958 .

5- عن دور البدو في العراق زمن العثمانيين ، راجع :

- علي الوردي ـ لمحات اجتماعية ـ ثمان أجزاء ـ دار كوفان ـ لندن ـ 1992 (لاحظ مثلاً ، الجزء الخامس ـ القسم الثاني ـ الفصل الثامن) .

6 - عن آخر النظريات عن أصل الانسان ، راجع :

- TOUS PARENTS. P. 53 - Museumd'histoire Naturelle-Geneve-Paris-1995.

7 - عن التكوين البدني (العرقي) لسكان العراق ، راجع (الموسوعة الاسلامية) باللغة الفرنسية أو الانكليزية ـ قسم العراق ـ السكان .

8 - عن تاريخ التوسع الكردي ، راجع الموسوعة الاسلامية ـ قسم الأكراد .

الفصل الثاني

تجديد الهوية التاريخية العراقية

* العقدة الايرانية والهوية العراقية الممزقة بين العروبة والتفريس

* التفريس باسم العروبة.

* تأثير العقدة الايرانية في الحاضر العراقي

* ملاحق معلوماتية عن تاريخ العلاقات بين العراق وايران

العقدة الإيرانية والهوية العراقية الممزقة
بين العروبة والتفريس

طالما ردد الناس في بلداننا ، بأننا نحن «العرب» متشبثون أكثر من اللازم بماضينا وتاريخنا . لكن الحقيقة عكس ذلك تماماً ، لأننا عندما نقارن حالنا مع الغربيين ، سنكتشف أننا أقل الشعوب تشبثاً بتاريخنا ، لأننا الأقل معرفة ودراية بهذا التاريخ . نحن من بين الشعوب التي وافقت عن حسن نية أن تتآمر مع الآخرين ضد تاريخها لتقطيعه وتشويهه ومنح الجزء الأعظم منه لشعوب أخرى من فرس ورومان ، والمتبقي في مجاهل النسيان . بل يمكن التأكيد ، وسندلل على كلامنا هذا لاحقاً ، بأن السبب الأول والأكبر لضعفنا وتمزقنا وتوتر حاضرنا والتناقض المتطرف بين تياراتنا ، يكمن في ضعف هويتنا التاريخية وتمزقها وتقطيع أوصالها من قبل مؤرخينا المعاصرين . إن الشعوب مثل الأفراد ، من لا يتعرف ويعترف ويتصالح مع ماضيه فإنه سيعيش متغرباً منفصماً عن حاضره .

إن الذي دفعنا للبحث في هذا الموضوع ، إطلاعنا على الأجزاء الثلاثة من كتاب الباحث الإيراني «الشهيد آية الله مرتضى المطهري» والمعنون (الإسلام وإيران)[1] . يبدو أن هذا الكتاب يعكس وجهة نظر ايران الرسمية والدينية والشعبية بخصوص دور الإيرانيين في الحضارة الاسلامية ، وبالذات دور العناصر «الفارسية» في صنع الحضارة العربية الاسلامية في العراق . .الترجمة العربية للكتاب صدرت من طهران في أواخر الثمانينات وقامت بتوزيعه السفارات الايرانية في الخارج على الجماعات العربية المقربة إليها .

عبر الأجزاء الثلاثة من (الإسلام وايران) جهد (آية الله المطهري) لتأكيد فكرة أن معظم الابداعات الحضارية العراقية «قبل الاسلام» و«بعد الاسلام» ما هي إلا جزء من الحضارة الإيرانية الفارسية ، بالاستناد الى الفرضية التالية : أن جميع سكان العراق الأصليين من غير «العرب الأقحاح» ، هم تلقائياً من الفرس ، ما دام العراق كان خاضعاً لايران خلال عدة قرون قبل الفتح العربي الاسلامي! كأن المسلمين عندما فتحوا العراق وجدوه «أرضاً بلا بشر» ، إلا من بعض الجاليات الايرانية من ناحية وبعض الأعراب القاطنين في الحيرة من ناحية أخرى . . هذا هو كل ما تبقى من شعب الرافدين بعد أربعة آلاف عام من الدول

والامبراطوريات والحضارة الواحدة المستمرة مع اختلاف التسميات : السومرية الأكدية البابلية الآشورية الآرامية . إذن عندما وصل العرب عمروا أرض الرافدين «القاحلة من السكان!» ، ومع الفتح الاسلامي بدء تاريخنا كعراقيين ناطقين بالعربية! خلاصة هذا ، ان كل انسان وكل فكرة أو نشاط أو انتاج لا تثبت أصالته العربية وقدومه المؤكد من الجزيرة العربية ، فإنه تلقائياً ومن دون أي جدل هو «أعجمي فارسي» ! سيكتشف القارىء معنا بعد قليل ، كيف أن هذا «التفريس» والتقطيع لتاريخ العراق هو الجزء الأهم من عملية التقطيع التي تعرضت لها تواريخ البلدان العربية بصورة عامة . وكيف أن هذا التمزيق لماضي العراق كان السبب الأول والأكبر لتدمير حاضر العراق ومنع تكوين «هوية وطنية موحدة» .

إن اختيارنا الحديث عن هذا الكتاب ، لأن كاتبه باحث معاصر ورجل دين معروف ومعترف به من قبل النظام الاسلامي في ايران . من خلال هذا الكتاب النموذج ، يمكننا ان نكشف عن أمرين متداخلين :

- رغم ايمان النخبة الدينية الايرانية بالعقيدة الاسلامية ودعوة الاخوة والمساواة بين الشعوب الاسلامية ، إلا أن هذا لم يلغ «الأعماق القومية» الفارسية الايرانية التي تبلغ حد التعصب القومي والاعتقاد بأفضلية الايرانيين على الشعوب الاسلامية الأخرى . ان هذا الموقف الاسلامي الايراني يلتقي بالنتيجة مع الموقف القومي العلماني (الشاهنشاهي) الذي يتميز بتقييمه السلبي لدور الاسلام والمسلمين في تاريخ ايران واحتقاره المعلن والواضح للعرب والاسلام . صحيح أن الاسلاميين الايرانيين اختلفوا مع القوميين العلمانيين ، بأنهم قيموا ايجابياً الفتح العربي ودور الاسلام في نهضة ايران ، إلا أنهم بنفس الوقت تبنوا الغرور القومي والتعصب العرقي المغطى بالاسلام . ها هو المطهري يقول : «إن أكثر الآثار الاسلامية سواء في العلوم الدينية أو غيرها كانت من مساعي المسلمين الايرانيين ، وهذا هو فخر وميزة المسلمين الايرانيين على العهد الاسلامي» (ج٣ ص٦٢) . وطيلة الأجزاء الثلاثة جهد الباحث الى تأكيد هذه الفكرة ، ولكن على حساب دور العراق والعراقيين الذين سُرق دورهم بكل تعسف وظلم .
- الأمر الثاني الذي يكشفه لنا هذا الكتاب ، وهو الأمر الأكثر قسوة ومرارة : أن « التعصب القومي الايراني» ، بشكليه العلماني والاسلامي ، يلتقي ويستفيد كثيراً من «التعصب القومي العربي» . رغم الخلاف وحتى العداء المعلن بين الموقفين القوميين العربي والايراني ،

إلا أنهما ، بتطرفهما وتعصبهما ، اتفقا على خلع الهوية الوطنية عن التاريخ العراقي ، و«تفريس» حضارته وابداعاته باحتساب الجزء الأعظم من ناسه ومبدعيه على ايران . ولنا في هذا أمثلة لا تحصى سوف نورد العديد منها لاحقاً .

* * *

يتوجب التأكيد أن عملية «التفريس» هذه ، ليست قديمة أبداً ، بل بدأت فقط منذ القرن الماضي تحت تأثير المفاهيم القومية والطائفية للدولة العثمانية . منذ ذلك الوقت شرعت النخب العراقية والعربية «المتعثمنة» باعادة كتابة تاريخنا بطريقة أدت الى قلب معاني جميع المصادر التاريخية . قبل أن نتحدث عن أسباب عملية «التفريس» هذه ونورد الأمثلة العديدة عليها ، نوضح أولاً الطريقة (السحرية) التي تمت بها . نؤكد على أهمية هذه الطريقة لأنها من القوة والثبات والتكرار بحيث أننا جميعاً عراقيين وعرب اقتنعنا منذ أجيال بحقيقة هذا «التفريس» وتقبلناه وهضمناه وعشناه بصورة يومية وتلقائية ، أشبه بمن يتقبل حقيقة أن قدميه مقيدتان بالسلاسل ، فيتعود الزحف كأمر طبيعي وموروث من التاريخ!

هذه الطريقة السحرية والبسيطة جداً تتلخص بالتالي : أن القارىء لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية في المشرق ، وفي العراق خصوصاً ، أي منذ الفتح حتى سقوط بغداد ، التي دامت ستة قرون ؛ يلاحظ في جميع المصادر التاريخية التي كتبت خلال هذه القرون الستة ثمة «مفردتان» تتكرران عبر جميع الصفحات . هاتان المفردتان أشبه بالمفاتيح أي تلاعب بهما أو سوء فهم لمعانيهما سوف يتغير فحوى السرد التاريخي بأكمله ، والمفردتان هما : «الموالي ، العجم» .

الذي حدث ، أن النخب العربية «المتعثمنة» لسبب سوف نفصله لاحقاً ، قررت بوعي ومن دون وعي ، اعتبار هاتين المفردتين ، بمعنى واحد وحيد ، هو : «الفرس الإيرانيين» . هكذا نزلت الصاعقة السحرية وبقدرة قادر تغيرت معاني جمع المصادر التاريخية العربية القديمة ، وأعيدت قراءتها وتفسيرها بحيث أصبحت كلها لا تتحدث إلا عن «الفرس الإيرانيين» . أي موضوع أو حدث أو دين أو مذهب أو ثورة أو قصيدة أو حكاية ، تتعلق بـ «الموالي أو العجم» ، فهي تلقائياً ومن دون أي شك تعني «الفرس الايرانيين» !

نوضح باختصار معنى هاتين المفردتين :

* الموالي : وهم سكان البلاد المفتوحة الأصليين الذين اعتنقوا الاسلام وأصبحوا بموالاة

قبيلة عربية أو شريف عربي . تسمية (مولى ، موالي) تعني الفرد والجماعة التي وضعت نفسها بموالاة وحماية قبيلة عربية قوية أو قائد أو شريف عربي ذي جاه وسلطان . وقد شاع هذاالأمر خصوصاً في العراق عندما بدأت الأغلبية الساحقة من العراقيين المسيحيين الآراميين (السريان) باعتناق الاسلام و«موالاة» إحدى القبائل العربية أو أحد قادة الجيوش الكبار المسلمين الذي أصبحوا بمعظمهم ملاكين كبار للأراضي والقرى العراقية . أطلق العرب على فلاحي العراق تسمية نبط «وهم ينزلون سواد العراق . . يسكنون العراق وأربابها» ما يقول (ابن منظور)[2] ، وشملت تسمية نبط أيضاً آراميّ الشام . ويلاحظ في المصادر التاريخية أن تسميات عديدة أطلقت على سكان العراق الأصليين المسيحيين الناطقين بالآرامية : (سريان ، كلدان ، نبط ، أهل بابل ، آراميون ، نصارى ، نساطرة) . وهي تسميات متأتية من التنوع المذهبي والمناطقي وتمايز اللهجات بين أهل الريف والمدينة وبين شمال الرافدين (الجزيرة) وجنوبه (البطحاء) . لكن الجميع كانوا ناطقين باللغة السريانية(المشتقة من الآرامية) كلغة فصحى للكتابة وللطقوس الدينية . انظر مثلاً كيف يتحدث (ابن خلدون) عن أهل العراق : «واما وجود السحر (علم التنجيم) في أهل بابل ، وهم الكلدانيون من النبط والسريانيين فكثير»[3] .

يذكر (البلاذري) ان عمر بن الخطاب قسم أرض السواد (العراق دون الموصل) بين المقاتلين المسلمين ، فوجد أن كل مقاتل عربي سوف يكون مسؤولاً عن أراضي ثلاثة فلاحين عراقيين . معنى هذا أن كل مقاتل يقابله ثلاثة فلاحين مع عوائلهم . ويضيف (البلاذري) أيضاً ، أن عثمان بن حنيف ختم على رقاب (٥٥٠) الف علج[4] (وهي تسمية أطلقت تهكماً على الفلاح العراقي) . يعني هذا في أرض السواد وحدها كان هناك أكثر من نصف مليون فلاح عراقي،، وإذا احتسبنا معهم عوائلهم بالاضافة الى سكان المدن والأهوار والبوادي فإنهم يضاهون عدة ملايين نسمة . وتتفق التقديرات التاريخية على أن عدد سكان العراق عند الفتح بحدود سبعة ملايين . (لاحظ الجدول الاحصائي التاريخي في الملحق ـ ص 143) .

مع انتشار الاسلام واستقرار المقاتلة العرب في الحواضر وتملكهم للقرى والأراضي ساد لدى أبناء القرى والعشائر العراقية الآرامية تقليد الموالاة وحمل أسماء وألقاب عربية . الذي ساعد على هذا التعريب هو التقارب الثقافي واللغوي بين الآراميين والعرب . وذكر لنا (الجاحظ) في كتابه (البيان والتبيين) أنه حتى القرن الهجري الثالث ثمة الكثير من اهل

الريف العراقي لم يتقنوا العربية بعد[5] . ويمكننا ان نتخذ من حياة (الجاحظ) مثالاً واضحاً على عملية «الموالاة» التي عاشها اهل العراق . من المعروف ان (الجاحظ) لم يكن عربياً بل هو عراقي بصري من موالي (كنانة) وقد حمل جده (محبوب البصري) لقب (الكناني) لأنه كان يشتغل جمالاً لدى أحد الملاكين العرب اسمه (ابو قلمس عمرو بن قلع الكناني)[6] . ويبدو أن مؤرخينا المعاصرين قد أعفوا (الجاحظ) من تهمة «الفارسية» رغم انه من (الموالي) بسبب دفاعه عن العرب في رسائله وكتبه!

انتشر نظام الموالاة أولاً بين العراقيين القاطنين في الحواضر الجديدة التي استقرت فيها الجيوش العربية مثل الكوفة والبصرة والموصل . يقول المؤرخ االدوري : «ان جمهور الموالي في العراق كانوا من النبط . ومع ذلك فان الاشارة الى الموالي النبط نادرة ، ويبدو أن ذلك يعود لصلتهم بالعرب في الأصول والثقافة . . . يقال ان دواد الطائي تكلم أمام الحجاج . فقال له الحجاج : الكلام كلام عربي والوجه وجه نبطي . . . بعد ثورة الأشعث ضد الأمويين ، تخوفت السلطة من الموالي المقيمين في الكوفة ، وقيل عنهم : إنما الموالي علوج ، وإنما أتى بهم من القرى فقراهم أولى بهم . .»[7] . ويؤكد لنا (الدوري) أن هؤلاء الفلاحين كانوا يتكلمون الآرامية . يحدثنا (دلو) عن هذه الحالة : «في خلافة عثمان تردت أوضاع الموالي الاجتماعية والاقتصادية وزادت حالتهم سوءاً ، وذلك عندما أرادت الأرستقراطية العربية أن تجعل من السواد «بستاناً لقريش» . فانفلت أقاربه الحكام في انتزاع أراضي الموالي وأرزاقهم واستغلال جهودهم دون رحمة ، مما دفعهم الى الانحياز الى جانب (علي) الذي أدخلهم في صفوف جيشه ، إذ كان منهم فيه ثمانية آلاف . وساوى بين الموالي والعرب في العطاء . وكتب الى عماله يأمرهم بحسن معاملتهم»[8] وساءت أكثر حالة العراقيين زمن الأمويين ، وبالذات فترة (الحجاج) الذي فرض عليهم الجزية رغم دخولهم الاسلام . نتيجة ذلك قام العراقيون بعدة ثورات معروفة بالاشتراك مع الجاليات العربية المقيمة التي عانت هي أيضاً من اضطهاد الأمويين : ثورة الكوفة بقيادة المولى أبو علي الكوفي . ثورة عبد الرحمن بن الأشعث التي اشترك فيها من موالي الكوفة والبصرة أكثر من مئة الف . وعلى اثر فشل الثورة أمر الحجاج بإرجاع الموالي الى قراهم وختم (بالنار) على يد كل مولى اسم قريته لكي لا يغادرها الى المدينة . ثم شارك الموالي بثورات الحارث بن سريج وابي مريم ونافع بن الأزرق وعبيد الله الماحوز وقطري بن الفجاءة ، ثم ثورة المختار الثقفي الذي احتوى جيشه على عشرين الف مولى

عراقي . وطبعاً ان الحركات الشيعية والعباسية كانت بأغلبية ساحقة من الموالي العراقيين بالاضافة الى الجاليات العربية[9] .

بسبب هذا الظلم الاقتصادي والاجتماعي واستمرار فرض الجزية على العراقيين رغم اسلامهم ، واغتصاب أراضيهم من قبل القادة والأمراء العرب ، وبالتالي استمرار ثوراتهم التي كانت تنتهي بالفشل وزيادة القمع والظلم ، فقد توسعت الحركات المعارضة للهيمنة الأموية ولسيطرة الأقلية القبائلية العسكرية العربية . انتشرت الأفكار التي تدعو الى «المساواة» بين العرب وغير العرب والتي تجلت بالتيارات التالية : مذهبياً بالحركة الشيعية ، وسياسياً بالحركة العباسية ، وثقافياً بالحركة الشعوبية (أهل التسوية) . جميع هذه الحركات كانت عراقية أصيلة ، لأنها نشأت ونشطت في العراق ومؤسسيها وقادتها من العراق ، لكنها فيما بعد انتشرت وأثرت في الفرس والتركستان* وغيرهم من الجماعات المضطهدة . يقول (ابن قتيبة) شاتماً المثقفين الشعوبيين : «هم أوباش النبط وأبناء أجراء القرى»[10] ، ويعني (أبناء الفلاحين) ولم يقل عنهم (أبناء الفرس) كما يحلو لمؤرخينا المعاصرين أن يقولوا عنهم .

كل هذه الحركات كانت تطالب برفع الظلم وبالمساواة الانسانية بين الأقلية العربية العسكرية الحاكمة والأغلبية العراقية (آراميين وعرب) المحتقرة والمضطهدة . ولم تكن هذه الحركات موجهة ضد العرب كقوم ، بدليل أن معظم قادتها من أصول عربية مثل أئمة الشيعة وبني العباس .

إن حركات العراقيين كانت موجهة ضد العنصريين العرب من ملاكين وأمراء البدو والعسكر الذين كانوا يقسون على الفلاحين والحضر ويستخفون من طريقة عيشهم . يقول أحد الأعراب متهكماً من الموالي : «يكسحون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا»[11] . وتؤكد لنا مصادر التاريخ كيف أن الكثير من المتعصبين العرب حاولوا المستحيل للوقوف بوجه التيار الكاسح للتزاوج بين الجاليات العربية والسكان الأصليين الذين اعتنقوا الاسلام ، وقد أطلقت تسمية «هجين» على الذين يولدون من هذا التزاوج . يقول الرياشي[12] :

إن أولاد السـراري	كثروا يـا رب فينـا
رب أدخلـني بلاداً	لاأرى فيهـا هجينـاً

* فضلنا استخدام تسمية «تركستان» لسكان آسيا الوسطى ، بدلاً من تسمية «أتراك» التي أصبحت تعني سكان دولة تركيا الحالية .

لكن الوقوف بوجه تيار الامتزاج والتزاوج بين العرب والآراميين في العراق وسوريا خصوصاً، كان من المستحيل، بحيث شمل أخيراً حتى الخلفاء الأمويين والقادة العسكريين ومعهم المتعصبين من دعاة الحفاظ على نقاء الدم العربي. ومع الزمن ذابت الأقلية العربية (بدنياً وعرقياً) في الأغلبية من السكان الأصليين. لكن رغم ذوبان العرب عرقياً إلا أنهم بفضل السلطة والدين الاسلامي تمكنوا من فرض اللغة العربية وجعل السكان الأصليين يحملون أسماء وألقاب القبائل العربية المحاربة المسيطرة، وكذلك أسماء أشراف العرب من الملاكين والقادة العسكريين. ولهذا فإننا في العراق نعتقد فعلاً وحقيقة بأن عشائرنا عربية صميمة قادمة من الحجاز واليمن لأنها جميعها تدعي الانتساب للقبائل العربية الكبرى مثل: (بني طي وتميم وخزاعة وقريش وبني ربيعة وبني هاشم والعلويين)، بينما الحقيقة أن هذه ألقاب (ولاءات) فُرضت على أسلافنا الآراميين بعد الفتح الاسلامي، وهذا الأمر حدث في البلدان العربية الأخرى، مثل القبط في مصر والبربر في شمال افريقيا والنوبة في السودان.

المشكلة التي عقدت موضوع «الموالي» بالنسبة لمؤرخينا المعاصرين، أن تسمية «موالي» تشمل أيضاً الأقلية من الأسرى والعبيد التابعين لإحدى القبائل العربية أو الأشراف العرب. وهذا الأمر شجع على وضع الأغلبية في سلة الأقلية، وبالتالي اعتبار جميع الموالي على الأسرى والمماليك والعبيد الأجانب. طبعاً «الأجنبي» هو «الأعجمي»، إذن بالنسبة لمؤرخينا المعاصرين لا بد أن يكون هذا «الأعجمي» فارسياً حسب الفهم القومي «المتعثمن»!

بالنسبة لمفردة «أعجمي، أعاجم» فهي في جميع المراجع اللغوية العربية تعني كل من جهل اللغة العربية. أعجمي رديف لكلمة أجنبي. بل إن العرب أطلقوها حتى على أقسام أخرى من العرب. يقول شاعر عن قبائل الأزد اليمانية: «واستعربوا ضلة وهم عجم»[13]. وحسب ابن منظور في (لسان العرب) للتفريق بين العرب العاربة والعرب المستعربة: «المستعربة هم عجم دخلوا في العرب»[14]. لهذا فإن المصادر التاريخية العربية تتحدث عن الأعاجم لتشمل كل الجماعات والشعوب غير الناطقة بالعربي. وكما يعبر عن ذلك (ابن خلدون): «وهذا عام في جميع أصناف أهل اللسان الأعجمي من الفرس والروم والترك والبربر والفرنج، وسائر من ليس من أهل اللسان العربي» (ص ١٠٥٥).

لسوء الحظ، أنه منذ قرون وحتى الآن قد ساد لدى العراقيين تسمية أعجمي بمعنى فارسي ايراني. على هذا الأساس فإن الأمر انعكس على قراءة المصادر العربية القديمة من

قبل مؤرخينا المعاصرين، وتم اعتبار أي حديث أو ذكر للأعاجم فإنه يعني الفرس الإيرانيين.

على هذا الأساس قد تم «تفريس» كل سكان العراق الأصليين. بل إن مؤرخينا المعاصرين اضطروا للاستعانة بشعوب أخرى من اجل انجاز عملية التضخيم الأسطوري لدور «الفرس» وتقزيم دور «العراقيين». جميع سكان المناطق الآسيوية المحاذية لايران، من تركستان وسند (باكستان) وأفغان وأكراد وأرمن وقفقاس، تم اعتبارهم «فرس»، لأنهم (أعاجم) أو لأنهم (موالي)!

لكي تتكامل المصيبة ويصل هذا التشويه الى ذروته فان الفهم القومي العرقي العربي قد فرض نفسه بحيث تم نزع الهوية الوطنية العراقية حتى عن المواطنين الأصليين الذين لم يعتبروا «موالي»، ونعني المواطنين الذين لم يدخلوا الاسلام: مسيحيون ويهود وصابئة ومانوية، والذين أطلق عليهم تسمية «أهل الذمة». بما ان هؤلاء ليسوا «عرب أقحاح» بالاضافة الى انهم غير مسلمين، فانهم تلقائياً احتسبوا على «الأعاجم» وهم أجانب يمكن بسهولة اعتبارهم بصورة أو أخرى، على الفرس! نعم إن مؤرخينا اعتبروا الكثير من «أهل الذمة» العراقيين من الفرس الإيرانيين. لقد وصل الأمر الى حد تحريف المعلومات التاريخية بصورة سافرة تدعو للاستغراب. اسمعوا مثلاً مؤرخنا القومي «شكري فيصل»، يتحدث في كتابه الموسوعي «المجتمعات الاسلامية»، عن اختلاط الفرس بالعرب في العراق. تحت عنوان: «الزواج بالكتابيات الفارسيات»، يستشهد بالمؤرخ الطبري، الذي يقول: «تزوج المهاجرون والأنصار في أهل السواد يعني في أهل الكتابين منهم»(15). وبكل حماسة قومية يفسر مؤرخنا (نساء أهل الكتابين) بمعنى النساء الفارسيات! بينما أي شخص منا مهما كان اطلاعه محدوداً يعرف جيداً أن «الكتابين» هما «الانجيل والتوراة» و«اهل الكتابين» هم «النصارى واليهود». ثم ان الطبري يتحدث عن «اهل السواد» وارض السواد هي العراق. طيب كيف حصل ان «الفرس» صاروا هم اهل السواد وهم النصارى واليهود؟ على هذا المنوال يستمر مؤرخنا بتفريس ٩٠٪ من سكان العراق ومبدعيه وحضارته بحماسة لا تكل. وسوف نورد لاحقاً العديد من الأمثلة.

هكذا إذن تكاملت المؤامرة وتم تمزيق التاريخ العراقي، واحتسب القسم الأعظم من ناسه ومبدعيه على «الأعاجم الفرس الإيرانيين». لم يبق للعراق غير أولئك الذين ثبت أصلهم (العربي القح). لكن المشكلة أنه حتى هؤلاء لم يُحتسبوا على العراق بل تم احتسابهم بكل

بساطة على أصولهم القبائلية ، فيقال (شيباني ، أزدي ، طائي) ، وبالتالي يتم ارجاعهم تلقائياً الى نجد أو الحجاز أو اليمن ، ثم على (الأمة العربية) جمعاء ، من دون أية إشارة لأصلهم العراقي !

الآن لنعود الى كاتبنا (آية الله المطهري) حيث سنسجل عدداً من نماذج «التفريس» الكلي الذي قام به للحضارة العراقية في العصور الاسلامية . سوف نستشهد أيضاً ببعض النماذج لإسهامات المؤرخين العرب في عملية «التفريس» هذه ، ولنبين مدى التداخل بين الموقفين القوميين العربي والإيراني .

من أهم الأسس التي اعتمدت عليها الرؤية القومية العرقية ، هي الازدواجية الظالمة في التعامل مع أصول الشخصيات العراقية ، والكيل بمكيالين مختلفين : بالنسبة للعراق فانه مغيب كوطن وكشعب ، بل هناك القاب وانتماءات قبائلية يمانية وحجازية ليس فيها أي ذكر للانتماء العراقي . أما بالنسبة لايران فانها حاضرة كوطن ثابت ومقدس فوق الدين والقبيلة واللغة ، بل انها تعامل كامبراطورية (عرقية قومية أزلية) إذ يحتسب عليها جميع أبناء البلدان التي كانت تابعة سابقاً للامبراطورية الفارسية الساسانية : العرا ق وأفغانستان وتركستان . هذا الأمر أشبه باعتبار شعوب اليونان وأرمينيا وسوريا والعراق مع مبدعيهم ، جزءاً من «الأتراك» لأنهم خضعوا للدولة العثمانية لعدة قرون! هذه بعض نماذج «التفريس» المأخوذة من الجزء الثالث من الكتاب :

- خلال حديثه عن فقهاء المذاهب السنية الأربعة : (مالك بن أنس ، الإمام الشافعي ، أحمد بن حنبل ، أبو حنيفة النعمان) ، يقول الكاتب : «وعلى هذا فليس من هؤلاء الأئمة الأربعة ايراني في الأصل إلا أبا حنيفة ، والآخرون عدناني وقحطاني وشيباني» (ص ١٠٤) . هكذا اذن وبكل بساطة يتم الحديث عن الانتماء لايران كوطن وقومية تسري دماؤها حتى في الذين لم يعيشوا بها أبداً ، لا هم ولا أسلافهم . وعلى العكس تماماً بالنسبة للعراق أرضاً وشعباً وحضارة ، يتم تغييبه من التاريخ ويحتسب أبناؤه على انتماءاتهم القبائلية السلالية الأسطورية المفترضة . السبب واضح جداً ، لأن الإمام (أبو حنيفة) الذي تم اعتباره ايرانياً على أساس أصل جده (زوطي) المفترض من سبي كابول (الطريف أن كابول في أفغانستان وليس في ايران . ولا ندري إن كان أهل كابول وافغانستان يرضون بأن يحتسبهم مؤرخونا على ايران ؟) .

أبو حنيفة هذا الذي تم اعتباره فارسياً ، اسمه (النعمان بن ثابت الكوفي) ولد في الكوفة ، وأباه (ثابت) ولد وعاش في الكوفة وتزوج من امرأة كوفية ومات في الكوفة ، والنعمان نفسه كذلك ولد وعاش وتزوج من امرأة كوفية وعاش فيها وأبدع وتكلم باللغة العربية ولم يعرف لغة أخرى أبداً ، ولم يسافر خارج العراق ولم يشاهد لا ايران ولا غيرها ، وأمضى حياته يكافح وينشر دعوته في العراق حتى أطلق على مذهبه «مذهب أهل العراق»(16) ، ومات سجيناً في بغداد ولا زال قبره فيها (الامام المعظم) ومذهبه حالياً هو المذهب الرسمي لسنة العراق . طيب كيف حصل وان اعتبر ايرانياً؟! أية طاقة خارقة لهذا الأصل الايراني الذي يتجاوز بجبروته كل حدود المنطق والعقل . وأي حظ تعس لهذا العراق البائس الذي يُمنح أبناؤه ومبدعيه لايران بكل تعسف وصفاقة . تصوروا أن الكاتب (عبد الرحمن الشرقاوي) يتحدث عن ابي حنيفة قائلاً : «ولد أبو حنيفة بالكوفة سنة ٨٠ هـ من أسرة فارسية ، وسمي النعمان تيمناً بأحد ملوك الفرس»(17) . هكذا يصل الجهل والتجاهل بكاتبنا بحيث انه يعتبر اسم« النعمان» (احد ملوك الفرس) . فهو أولاً ، تجاهل بعناد ان اسم (النعمان) (عربي قح) وليس له أية علاقة بالفرس . ويكفي مطالعة أي معجم لمعرفة ذلك . ثم ان أي قارىء للتاريخ يعرف أن (الملك النعمان) الشهير ، لم يكن (احد ملوك الفرس) بل كان أميراً عربياً مسيحياً في منطقة الحيرة (قبل الاسلام) . والحيرة نفسها هي منطقة الكوفة التي ينتسب اليها أبو حنيفة . اذن فإن (أبا حنيفة) حينما اختار له اهله اسم (النعمان) ، ليس تيمناً بملوك الفرس بل تيمناً بملوك الحيرة العراقيين العرب !

تبقى الحقيقة الوحيدة من كل هذه التخريجات العجائبية لتبرير «تفريس» (الامام أبو حنيفة) ، ان هناك سبباً واحداً وحيداً : ان (ابا حنيفة) ، حتى وإن كان (بيولوجياً وعرقياً!) ثلثيه (عراقي) من ناحية أمه وأم أبيه الكوفيتين ، وأنه حضارياً وتربوياً وانسانياً هو عراقي ١٠٠٪ ، فانه ما دام ليس من أب عربي خالص ، فانه يكفي لنفي كل انتمائه للعراق حتى لو عاش فيه هو وأسلافه خلال الف عام . لقد تم اعتباره (فارسياً ايرانياً) بصورة تلقائية ومطلقة !

أما فقهاء المذاهب الثلاثة الذين اختصرهم (المطهري) بانتماءاتهم القبلية المفترضة دون أية إشارة لأوطانهم ، فإن (الإمام ابن حنبل الشيباني) ولد وعاش وتعلم وأبدع ومات في بغداد في العراق ومن أبوين عراقيين . إذن فإن كان (شيبانياً عربياً) ، فهو قبل كل شيء

عراقي الوطن والهوية . أما (مالك بن أنس) ، فانه من أهل المدينة ولد وعاش ومات فيها ، فهو عربي لكنه قبل كل شيء حجازي الوطن والهوية . أما (الإمام الشافعي) فهو فلسطيني من غزة ، وانتقلت به أمه الى مكة وهناك عاش وتعلم وأبدع ، ثم انتقل الى بغداد فالقاهرة حيث مات ودفن . اذن فهو فلسطيني الأصل حجازي المنشأ والوطن[18] .

هكذا تعامل مؤرخونا المعاصرون مع الشخصيات المعروفة ، فيردوها الى أصولها القبائلية دون أية اشارة للأوطان ،باستثناء ايران فهي الوطن والقبيلة والقومية والأمة! يقول مطهري مرة أخرى : «أبو عبيدة ايراني أصل ، وابو زيد خزرجي ، وأما الأصمعي فباهلي» (ص ١١٠) ، علماً ان الثلاثة هم مبدعين عراقيين مولداً وتجربة وثقافة وتزاوجاً ونسلاً .

قبل أن نورد نماذج أكثر على عملية «التفريس» التي قام بها المؤرخ (المطهري) وكذلك المؤرخون العرب المعاصرون ، نود أولاً أن نحاجج أصحاب هذه الطروحات القومية العرقية ، ونكشف عن مدى هزالة هذه الطروحات ومدى الظلم الذي حاق بالعراق ماضياً وحاضراً . لنستعين بمثال من ايران نفسها :

- إن الإمام الخميني ، قائد الثورة الاسلامية الايرانية ، لا أحد يشكك بحقيقة انتمائه لايران ، اجتماعياً وسياسياً وحضارياً ، انه ايراني بكل معنى الكلمة . لكن لو اعتمدنا المنطق «القومي السلالي البيولوجي» الذي طبّق بصورة تعسفية على شخصيات التاريخ العراقي ، فان الامام الخميني ليس ايرانياً أبداً . فهو أولاً من جد اسمه (احمد الهندي) ولد ونشأ في كشمير الهندية ، وقد هاجر الى النجف في أوائل القرن الماضي ، ثم تزوج من ايرانية وأقام في ايران في بلدة (خمين) . ولا زال شقيق الامام الخميني الأكبر يسمى (نور الدين الهندي)[19] . هل يحق لنا ، على اساس الفهم القومي السلالي ، اعتبار الخميني هندياً كشميرياً ، وليس ايرانياً ؟ ثم إذا اردنا التطرف اكثر في الفهم القومي ، فاننا يمكن اعتبار الامام الخميني عربياً عراقيا ، لأنه يحمل لقب (الموسوي) ، أي من الذين يعتقدون انهم من احفاد (الامام موسى الكاظم حفيد الامام علي) . و(الامام الكاظم) عاش ومات في العراق ولا زال قبره مزاراً شيعياً مقدساً معروفاً في بغداد . وعلى هذا المنوال ، يمكن احتساب جميع أبناء فئة «السادة» العلويين في ايران على العرب والعراق ، باعتبارهم من احفاد الامام علي بن أبي طالب الهاشمي القريشي الحجازي ، وقد هاجر أسلافهم الى ايران من العراق ولبنان والبحرين

والإحساء ، ومنهم عوائل مشهورة ومتنفذة في المجتمع والدولة في ايران (وقد يكون المطهري نفسه واحدا من هؤلاء السادة !) إن تاريخ ايران الاسلامي مليء بالشخصيات التاريخية التي كانت تدعي وتفتخر بالنسب العلوي العربي ، مثل العائلة الصفوية مؤسسة لدولة الصفوية (القرن ١٦م) التي فرضت التشيع بالقوة على ايران وبالاستعانة بفقهاء العراق والاحساء والبحرين ولبنان[20] . ومن الشخصيات العلوية الشهيرة أيضاً الملكة (فرح ديبا) زوجة الشاه المنفية الآن في مصر[21] ، وعدد هائل من العوائل والشخصيات المعروفة في تاريخ ايران ، مذ قرون وحتى الآن !

من مظاهر اللاعدل ايضاً في سرد التاريخ من قبل مؤرخينا القوميين ، انهم ركزوا بصورة مبالغة جداً على وجود الفرس في العراق ، لكنهم لم يعطوا اهمية لوجود العراقيين (والعرب) المتميز في ايران ، بالاضافة الى تركستان وافغانستان وبلاد السند . العلامة (ماسينيون) يحدثنا بإسهاب عن نشاط جاليات أهل البصرة والكوفة في خراسان بعد الفتح . ويعدد مدن الاستيطان المعروفة : بلخ ومرو وهراة وسيراف ونيسابور . ويشير الى دور العزاقيين الحضاري والسياسي في ايران حيث أسسوا مدينة (قم) التي أصبحت منذ الفتح (مركز) التشيع العراقي الذي خلق (التشيع) الايراني فيما بعد . وكذلك دورهم في بناء مدينة (البيزا أو البيضاء) التي أنجبت سيبويه والحلاج[22] .

يذكر (الطبري) انه كان في خراسان اربعون ألفاً من مقاتلة البصرة وسبعة آلاف من الكوفة ومعهم سبعة آلاف من موالي العراق . ويذكر (البلاذري) ، ان والي خراسان «حول معه من اهل المصرين (الكوفة البصرة) زهاء خمسين الفاً بعيالاتهم وأسكنهم دون النهر ـ أي خراسان ـ »[23] . وكل هؤلاء العراقيين اعتبروا خراسانيين شكلوا النخبة (المسلمة) التي قادت الحياة الثقافية والدينية والسياسية والعسكرية في خراسان . وهؤلاء الخراسانيين (العراقيين) هم الذين ساهموا بنجاح الثورة العباسية وعادوا الى العراق وشاركوا ببناء الدولة في بغداد . يلاحظ مثلاً أن الكثير من هؤلاء الرجال يحملون ألقاباً خراسانية وعربية بنفس الوقت : قحطبة الجرجاني (الطائي) ، الفضل الطوسي (التميمي) ، جديع الكرماني (الأزدي) ، عبد المالك الجرجاني (العتكي)[24] .

إذن ، مشكلة الانتماء والنقاء «القومي السلالي» ، لا تخص العراق وحده ، بل تخص ايران بدرجة أكثر حدة ، خصوصاً اذا علمنا أن الفرس في ايران ظلوا طيلة التاريخ أقلية عرقية

فرضت نفسها على باقي شعوب ايران من خلال اللغة فقط . من المعروف أن الناطقين بالفارسية كلغة أم في إيران أقل من ٥٠٪ ، وهناك أكثر من الثلث ناطقون بلهجات تركستانية مختلفة بالاضافة الى الأكراد والعرب والبالوش ، لكن الفارسية تبقى اللغة الرسمية والثقافية لهذه الفئات اللغوية . ثم ان جميع السلالات التي حكمت ايران منذ عشرة قرون وحتى القرن الحالي ، كانت سلالات تركستانية : (السلاجقة ، الايلخانيون ، التركمان ، الصفويون ، القاجاريون)[25] ، ولكن في ظل هؤلاء سادت اللغة الفارسية الحديثة ونشأ الأدب الايراني منذ الفردوسي وعمر الخيام وحتى الآن ، وان الكثير من مبدعي ايران ما كانوا من الفرس بل من أصول «عرقية» مختلفة ، منهم التركستاني ، ومنهم العربي ، ومنهم الكردي ، ولكن الجميع تبنوا اللغة الفارسية وأبدعوا بها وتم اعتبارهم ايرانيين فرس .

لماذا اذن لا ينطبق هذا المقياس على العراق أيضاً ، ولماذا تم التعامل مع شخصياته المبدعة على أساس مدى انتمائهم «العربي القح» ، وتم التغاضي عن حقيقة انتمائهم لأرض العراق ومجتمعه وحضارته ولغته الوطنية (العربية) ؟

إن الحديث عن المبدعين في ظل الحضارة العربية الاسلامية يجب أن لا يستند على الأصل العرقي السلالي المفترض ، إنما على أساس أرض الميلاد والمنشأ والثقافة . للأسف نحن في العزاق وفي عموم البلدان العربية ، وبسبب الفهم العرقي العروبي ، لا زلنا مترددين بقبول هذه الحقيقة الانسانية العالمية ، ونشعر بالخجل من عدم ثبات «الأصل العربي القح» للمبدع أو للمواطن . وطالما سمعنا وقرأنا الكثير عن الأسف أو التشفي لأن أغلب مبدعي الحضارة العربية لم يكونوا من أصول عربية ، متناسين حقيقة أن الأغلبية الساحقة من شعوبنا (الناطقة بالعربية) ليست من أصول عربية بالمعنى السلالي العرقي ، بل هي من أصول وطنية أصيلة مستوطنة منذ سحيق التاريخ ، وقد دخلت الاسلام واستعربت وأصبحت شعوباً عربية . لقد تم تناسي حقيقة ان الانتماء للوطن وحضارته هو الأساس وليس الانتماء لهذه القومية البيولوجية الأسطورية المفترضة . بسبب الفهم القومي الضيق تم اعتبار جميع المبدعين الذين ينتمون لأصل وطني (مثل الآراميين والأكراد والتركمان والأرمن واليهود وغيرهم في العراق خصوصاً) على (الأعاجم والفرس) ، ما داموا ليسوا عرباً أصلاء ولا ينحدرون مباشرة من عدنان وقحطان! ولنا مثال (صلاح الدين الأيوبي) الذي يُحتسب دائماً على أصله «الكردي» من دون الاهتمام بحقيقة مولده هو وأبيه في العراق ثم نشأته وحياته في سوريا[26] .

إن هذا الفهم القومي للتاريخ يتغذى دائماً بمفاهيم قومية عرقية ترسخت ونمت منذ أجيال وصارت جزءاً من تكوين الثقافة العربية حتى بتياراتها الأمية والعلمانية والعلمية . بل غدا من شبه المستحيل الحديث بأي موضوع اجتماعي تاريخي دون القبول ضمناً بهذه الطروحات العرقية . شئنا أم أبينا ، فإننا تعودنا على قبول المبدأ القومي التالي : إن طريق الانتماء للوطن لا بد أن يمر بالجزيرة العربية ! *

وزارة الثقافة العراقية أصدرت عام ١٩٧٨ كتاباً من ثلاثة مجلدات (للدكتور ناجي معروف) ، يحاول فيه أن يثبت «عروبة» العلماء المنسوبين الى «العجم» . بل إن مؤرخنا «الدكتور» جهد لإثبات «عروبة» حتى الجماعات الأخرى ، مثل «الأكراد» . تراه يستند الى (ابن حوقل والمسعودي والمقريزي) ليقول : «إن الأكراد ينتسبون الى كرد بن مرد بن عمرو بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . .»(27) وبالتالي فان أصل جدهم من اليمن ، . نعم هذا «دكتور» وأفكاره «العلمية جداً» تُدرس في الجامعة ويؤمن بها الكثير من المثقفين والسياسيين في العراق . يكفي أن نثبت أن الاكراد أصلهم «عرب من اليمن» ، حتى تنحل مشكلتهم في «العراق»! لأن الانتماء لأرض العراق ولشعب العراق ولتاريخ العراق ، لا بد أن يمر ، لا محالة ، بالانتماء لليمن أو للحجاز (مع تقديرنا لأهل اليمن والحجاز الذين لا نعتقد بأنهم بحاجة لأن يكون الأكراد منهم) .

يجب التوكيد أننا لا نبتغي أبداً إنكار دورا لعناصر الايرانية في صنع الحضارة العربية الاسلامية ، ولكننا ضد المغالات العنصرية من الجانبين العروبي والايراني . اننا ندعو لتبني المنطق الوطني الانساني الذي يعتمد وطن الميلاد والمنشأ والثقافة من اجل الاتفاق على تحديد الانتماء الوطني للشخصية التاريخية . بهذا المنطق الانساني سوف نمنح لكل وطن حقه وحصته من الشخصيات التي ساهمت بصنع الحضارة في ظل الامبراطورية العربية الاسلامية .

على هذا الأساس ، فإن مبدعين مثل (ابن العميد) و(الصاحب بن عباد) و(الطغرائي) و(الغزالي) هم ايرانيين دون جدل رغم تبنيهم للغة العربية ومعيشتهم في بعض الفترات في

---

* اننا نذكر وسوف نكرر في كل الكتاب ، بأننا أبداً لسنا ضد شعوب الجزيرة العربية ، واننا نعتز بأهل اليمن ونجد والحجاز والخليج العربي . اننا فقط ضد الفهم التعسفي العروبي العرقي للتاريخ .

العراق والمنطقة العربية . هم ايرانيون لأنهم ولدوا وعاشوا في مناطق هي حالياً جزء من ايران، وهذا يكفي لتأكيد انتمائهم الوطني ، حتى وإن كان بعضهم أصله عربي عراقي مثل (يحيى التميمي) الذي ولد وعاش في نيسابور واشتهر بأنه شيخ خراسان وإمام زمانه(28) .

بالحقيقة أن هوس «التفريس» لم يشمل الشخصيات العراقية وحدها بل كل الأعاجم ، خصوصاً من مناطق التركستان (آسيا الوسطى) ، وهي حالياً تشكل جمهوريات (أوزبكستان وكازاخستان وتركمانستان وطاجكستان وقرغيزيا) وكلها ناطقة بلغات تركستانية متقاربة ، عدا طاجكستان التي تتقاسمها الفارسية والتركستانية . بلدان تركستان هذه فيها مدن معروفة جداً في التاريخ الاسلامي وأنجبت الكثير من الشخصيات المعروفة التي اعتبرت ظلماً من قبل مؤرخينا على أنها فارسية : في كازخستان مدينة (فاراب) ومنها أبو نصر الفارابي . في أوزبكستان مدينة (بخارى) ومنها الإمام البخاري وكذلك ابن سينا ، ومدينة (خوارزم) ومنها العلامة الخوارزمي والعلامة البيروني والإمام الزمخشري ، ومدينة (ترمذ) ومنها الكثير من العلماءِ الملقبين بالترمذي . أما تركمانستان فإنها ضمت أيضاً عدة مدن معروفة ومهمة مثل (مرو وآمل وبيهق وسرخس ونسا) وكل واحدة من هذه المدن أنجبت العديد من الشخصيات التاريخية المعروفة من أشهرهم الإمام المؤرخ الطبري والإمام السرخسي .

يمكن أيضاً ذكر بلاد أفغانستان التي تختلط فيها اللغات التركستانية والآرية . هذه البلاد انهضم حقها من قبل مؤرخينا المعاصرين لأن الكثير من شخصياتها احتسبوا على ايران والفرس . فيها مدن مهمة معروفة مثل (كابول) وكذلك (بلخ) التي منها أتت عائلة (البرامكة) الشهيرة في الدولة العباسية ، والتي احتسبها مؤرخينا خطأً على الفرس . علماً بأن (برمك) الجد الأول لم يكن مجوسياً بل بوذياً ، بعد سبيه وزوجته الى العراق ولد ابنهما (خالد) الذي أنجب (يحيى) الذي أنجب (جعفر البرمكي) الوزير الشهير زمن (هارون الرشيد)(29) . إذن عائلة البرامكة عراقية صميمة من خلال الولادة والتربية والتزاوج بأمهات عراقيات ، ولكن هذا لا يمنع من ذكر الأصل الأفغاني البوذي لجدهم الأول .

نعود من جديد الى مؤرخنا (المطهري) لنبين كيف أنه تخطى حيثيات المنطق الانساني والوطني والتاريخي ، وتبنى المنطق القومي الطائفي المراوغ من أجل «تفريس» الشخصيات التاريخية العراقية . هذه بعض النماذج :

* «محمد بن قاسم الأنباري المعروف بابن الأنباري ، نسبة الى الأنبار ، الذي سمي أنباراً

لأنه كان مخزن الحبوب على عهد الساسانيين» (ص ١٠٧) . الأنباري هذا اعتبر ايرانياً لمجرد أن منطقة الأنبار كانت تابعة للساسانيين مثل كل العراق ، وخصوصاً وأن الأنباري هذا ليس عربياً قحاً وإنما من أهل العراق الآراميين الأصليين ، اذن فهو ايراني !

* محمد بن اسحاق المطلبي أول مؤلف للسيرة النبوية ، هو ايراني لأنه «مولى شيعي من عين تمر بالعراق ، التي كانت تحت سيطرة الفرس . . .» (ص ١٠٩) (عين تمر) منطقة على أطراف بادية العراق قرب كربلاء ، وليس لها أية علاقة بايران لا من بعيد ولا من قريب !

* «ابن خلكان الأربيلي هو ايراني لأنه من مواليد اربيل في العراق»! (ص ١٠٩)!

* «موسى بن نصير فاتح المغرب والأندلس هو مولى فارسي» (ص ٢٢٢) بينما يخبرنا التاريخ بأن حكاية موسى بن نصير مثل حكاية الحسن البصري والعديد من الشخصيات المعروفة مثل اسماعيل بن يسار ومحمد بن سيرين ، إنهم ولدوا في الحجاز من آباء آراميين سبوا في جنوب العراق أثناء حروب خالد بن الوليد الأولى . يقول فيليب حتي : «كان موسى ابن رجل نصراني من العراق أخذه خالد بن الوليد أسيراً مع عدد من الصبيان أمثاله كانوا يدرسون في كنيسة يدرسون الاناجيل»([30]) .

* «الحسن البصري من الموالي العجم بل الفرس» (ص ١١٣) علماً بأن الحسن البصري هذا ، جميع المصادر التاريخية تتفق علي أنه ولد في الحجاز وأصل أبيه آرامي مسيحي أو صابئي من ميسان في جنوب العراق ، وقد تم سبي أبيه وهو صبي وعاش وتزوج في الحجاز ، وقد أتي الحسن الى البصرة وعاش بين أقاربه([31]) . لكن المشكلة بما أنه ليس عربياً قحاً بل مولى عراقي الأصل ، فإنه تلقائياً صار محسوباً عل الايرانيين .

* «معروف الكرخي ، كان من كرخ بغداد ، واسم أبيه «فيروز» ومن هنا يظن أنه ايراني . . . قيل أن أبويه كانا مسيحيين وأسلم هو . . .» (ص ٢٠٢) . إن هذا مثال على مدى التعسف في البحث عن أية اشارة توحي بفارسية الشخص . حتى الاسم يمكن الاستدلال عليه لاثبات الايرانية : فهذا اسم (فيروز) دليل كاف على نفي عراقية هذا المبدع . وكأن الأسماء الايرانية لا يمكن أبداً اطلاقها على غيرهم . لننظر الى الأغلبية الساحقة من الايرانيين أليست أسماؤهم عربية ، فهل هذا يكفي لنفي انتمائهم لايران؟ والطريف ان حجة الأسماء هذه تم استخدامها بكثرة من قبل الأجهزة الحكومية في العراق من أجل التشكيك بعراقية المواطنين وخصوصاً إذا كانوا من الشيعة!

* «إن أول متكلم مسلم ألف كتاباً في مسائل علم الكلام هو علي بن اسماعيل بن ميثم التمار ، وهو هجراني بحراني ، وحيث أن البحرين كانت تحت حكم الساسانيين فهو لذلك ايرانياً» (ص ١١١) . تصوروا أن كاتبنا هذه المرة تخطى العراق ليشمل برحمته أهل البحرين ، وخصوصاً وأن أهل البحرين هؤلاء من الشيعة ، فما أسهل احتسابهم على ايران!

* * *

التفريس باسم العروبة

مثلما ذكرنا ، أن عملية «التفريس» هذه لم يبادر بها الايرانيون ، بل هي بالحقيقة من صنع المؤرخين العراقيين والعرب «المتعثمنين» . أما كيف تم هذا «التفريس» وأسبابه فسوف نتطرق اليها لاحقاً . الآن نستشهد ببعض نماذج هذا «التفريس العروبي» الذي تخطى بتعنته وعنصريته حتى القوميين الايرانيين . يلاحظ أن عملية «التفريس» تضمنت عدة حلقات متداخلة : أولاً ، الايحاء وكأن بلداناً كانت خالية من السكان قبل وصول العرب . ثانياً : الايحاء وكأن السكان الذين وجدهم العرب أمامهم ، ما هم إلا (جماعات) مهمشة معزولة (سريانية أو قبطية أو بربرية) ، يتم احتسابها بسهولة على الأجانب ، وفي العراق على الأعاجم «الفرس» . ثالثاً وهي الحلقة الأقوى التي تم تطبيقها خصوصاً على العراق ، فبعد اخلائه من معظم سكانه وتفريس الباقين ، تم الاجهاز على كل العراق وعاصمته بغداد وحاضرتة ودولته العباسية ، باعتبارها كلها محسوبة على «الفرس»! ونجد هذه الفكرة مكررة في معظم الكتب العربية ، وها هي بعض النماذج :

اخلاء البلاد من سكانها :

- يقول المؤرخ (ابراهيم أيوب) : «وتولي الأعمال الكتابية في الخلافة العباسية الفرس ، لأن الفرس كانت لهم القدرة الفائقة في الكتابة ، بينما كان العرب يفخرون بالسيف لا بالقلم»(32) . لاحظوا كيف وضعنا هؤلاء المؤرخون بين نارين : إما عرب بدو (يفخرون بالسيف لا بالقلم) أو فرس حضر (لهم القدرة الفائقة بالكتابة) . ليس هناك من حل وسط : هناك عرب بدو ، وفرس حضر ، وما علينا إلا أن نختار واحداً من اثنين : إما إسلافنا العرب البدو أو خصومنا الفرس الحضر! هذا هو تاريخنا «العروبي» الذي ضحى بأسلافنا وتاريخهم الحضاري

الطويل ونظف بلداناً من سكانها لكي لا يبقى فيها سوى «العرب والفرس» !

لو عدنا الى التاريخ الموضوعي المتخلص من عقدة القومية ، فإنه سيخبرنا بحقيقة ثالثة ، واضحة للجميع ولا يمكن أن ينكرها حتى الخصوم ، لأنها موجودة في أي كتاب يتناول حال المنطقة قبل الفتح العربي الاسلامي . بالنسبة للعراق ، نستشهد بكاتبنا «المطهري» نفسه ، الذي يورد المقطع التالي متحدثاً عن دور العراقيين قبل الاسلام : «وكانت أهم ناحية من نواحي الدولة الشاهنشاهية الايرانية الساسانية أرض العراق ما بين النهرين ، والتي كانت ميداناً للحرب بين الساسانيين والرومان ، وكان أكثر أم هذه الأراضي من العنصر السامي ويتكلمون باللغات السامية وان أكبر خدمة قدمها هؤلاء لايران هي أنهم كانوا يترجمون علوم اليونان الى االلغة السريانية ، وهم الذين أشاعوا الطب والرياضيات والنجوم والفلسفة في ايران ، وقد قام من بينهم علماء كثرون . وكانت لغتهم السريانية قد شاعت لدى البلاط الساساني ، بعد أن كانت اللغة الآرامية (العراقية أيضاً) هي اللغة الرسمية للدولة في ايران» (ج١ ص ٢٧) .

نعم هذه هي حقيقة العراقيين ودورهم أثناء السيطرة الايرانية قبل الاسلام . ويمكننا ان نجد في كتب التاريخ نفس الحقيقة عن دور الشاميين والمصريين واهل شمال افريقيا .

لكن مؤرخينا يصرون بهوس غريب على اعتبار بلداننا قاحلة إلا من الأعجام الأجانب ، وأن أسلافنا عرب وتراثهم «البداوة والجاهلية» . إن هذا الهوس «العروبي التفريسي» جعل مؤرخينا يخشون ويتجنبون ذكر أي شيء عن الفترة التي سبقت الفتح ، بل حتى يصرون على تشويه الحقائق التاريخة المعروفة . وان اضطروا الى ذكر هذه الحقائق ، فانهم يفعلون المستحيل لكي يحرفوا معانيها ، الى حد يجعل أي مراقب موضوعي يعتقد بأن هؤلاء المؤرخين العروبيين جعلوا من العروبة أقرب الى «القومية المازوشية» التي تتلذذ بجلد الذات والتنكر لمفاخرها وتضخيم أمجاد الخصوم !

هاكم مثلاً مؤرخاً مثل (شكري فيصل) ، يطرح نفس الموضوع أعلاه الذي طرحه (المطهري) عن نشاط العراقيين قبل الاسلام ، ولكن بطريقة محرفة مشوهة تصر على «التفريس» :

«شارك السريان الساكنون في الامبراطورية الساسانية في تطور الأدب السرياني . . وان السريانية قد.شغلت المقام الأول كأداة ثقافية أكثر من اللغة الفارسية نفسها»[33] . لنقارن بين

المقطعين . (مطهري) رغم انه ايراني ، إلا أنه ذكر بتلقائية اسم (العراق ما بين النهرين) عند حديثه عن السريان . ولكن مؤرخنا العروبي (شكري فيصل) تحدث عن السريان : «الساكنون في الامبراطورية الساسانية» ، هكذا ، نعم ، «الساكنون» . كما لو يقال (الجزائريون الساكنون في الامبراطورية الفرنسية!) لقد ألغي تماماً اسم الوطن وأصبح أبناؤه (ساكنون لدى الدولة المستعمرة) . كل هذا من اجل تجنب ذكر بأن هنالك بلد اسمه «العراق بلاد النهرين» وفيه شعب متحضر ناطق بالسريانية ، قبل أن يجيئه العرب!

لوْ تفحصنا مثلاً دور «الفرس» في عملية الترجمة والنهضة الحضارية الكبرى التي أحدثتها . جميع المصادر التاريخية القديمة والحديثة تعترف بدور الفرس المحدود جداً في الترجمة . ابن النديم في (الفهرست) يحدثنا عن بضعة كتب عن قصص ملوك فارس وعن حكايات (كليلة ودمنة) التي ترجمها الفرس عن الهندية . ليس هناك كتاب فارسي واحد في العلوم والفلسفة أو في التاريخ[34] . بينما على العكس ، جميع المصادر تعترف بالدور الحاسم للعراقيين (السريان) الذين نقلوا ما لا يحصى من الكتب من اللغتين السريانية واليونانية الى العربية . يكفي أن نسجل هنا مثالاً واحداً على مدى غنى وعظمة الثقافة السريانية في بغداد العباسية : ان المترجم الشهير (حنين بن اسحق العبادي) وهو نسطوري من الحيرة (قرب النجف والكوفة) ولغته الأم هي السريانية ، قام هذا المثقف الكبير بترجمة (٣٩) كتاباً من اليونانية الى العربية ، لكنه بنفس الوقت قام بترجمة (٩٥) كتاباً الى السريانية وحدها[35] !

لكن مع هذا يصر مؤرخينا المعاصرين على تضخيم دور «الفرس» وتقزيم دور «العراقيين» ومعهم باقي الشعوب الأصلية في الشام ومصر وشمال افريقيا .

يقول المؤرخ (ابراهيم أيوب) : «كانت الدولة الاسلامية قد اتسعت رقتها وانفتحت على غيرها من الشعوب غير العربية من أصحاب الحضارات القديمة كالفرس والروم والهنو د ، وهذا ما جعل المسلمين يقتبسون عن الحضارات التي احتكوا بها . . .»[36] لاحظ غياب أي ذكر للشعوب الأصلية التي تقطن البلدان العربية قبل العرب (الأقباط والسريان والبربر وغيرهم) . هكذا في جميع كتب التاريخ المعاصرة يتم الحديث عن تأثير (الفرس والإغريق والهنود) ، من دون اية اشارة لدور السكان الأصليين للبلدان (العربية) المفتوحة : الآراميين في العراق والشام ، الأقباط في مصر ، البربر في شمال افريقيا . هؤلاء السكان معظمهم دخلوا الاسلام واستعربوا وساهموا فعلياً ببناء دولة الخلافة وتكوين جيوشها وازدهار حضارتها . المسألة المهمة

التي غابت عن المؤرخين الذين كتبوا عن المؤثرات «اليونانية والفارسية والهندية» ، أنهم تناسوا المصدر الأهم والأكبر للثقافة والحضارة في العصر العربي الاسلامي : (الميراث السامي - العراقي الشامي) ثم (الميراث الحامي - المصري المغاربي) . أليس الاسلام قلباً وقالباً ديناً سماوياً . الاسلام بتفاصيله ومعانيه وأفكاره وروحانيته ما هو الا خلاصة لأديان «المنطقة الشرقانية» (الآسيوية السامية - الافريقية الحامية) التي استعربت وأصبحت بلداناً عربية . الميراث الديني «الشرقاني : العراقي الشامي المصري المغاربي» تجلى قبل الاسلام بالديانات المسيحية واليهودية والصابئية والمانوية والهرمزية والعرفانية (الغنوصية) . هذا التراث العريق والفعال والجامع لثقافات الشرق والغرب كان المصدر الأول لتطور الفقه والثقافة والفكر في الاسلام . هل نسينا ان المسلمين عندما فتحوا هذه البلدان ، وجدوا أمامهم أغلبية ساحقة من المسيحيين بكنائسهم وخزانات كتبهم وفقهائهم وصراعاتهم الفكرية وطوائفهم المختلفة اليعقوبية والنسطورية وتياراتهم الفلسفية والروحانية والتنسكية والاشراقية العرفانية[37] . أليست شعوبنا هي التي صنعت المسيحية ونشرتها وكافحت من اجلها حتى فرضتها على المحتلين الرومان والبيزنط ، وجلعت أوروبا تتخلى عن أديانها السابقة وتتبنى هذه الديانة الشامية السامية المشرقية ؟ لا زالت المسيحية الأوروبية بموسيقاها وغنائها وروحانيتها وطقوسها وحتى ثياب قديسيها ، كلها تشهد على التأثير المسيحي السوري ، بل ان بعض السوريين وصلوا الى منصب البابا في روما ، بعد ان سبق لهم تكوين سلالات من الأباطرة الرومان السوريين . وكانت مدينة «انطاكيا» السورية مركز اشعاع حضاري وديني خلال عدة قرون وحتى الفتح . أما مصر فان مدينة «الاسكندرية» خلال ثمانية قرون وحتى الفتح ، تعتبر المركز الحضاري الأول لمنطقة البحر المتوسط ومركز التقاء التيارات الثقافية الشرقانية (السامية والحامية) واليونانية ، ومن الاسكندرية انبثقت : (الغنوصية والأفلاطونية الجديدة والهرمزية) ، وأنجبت أعظم العلماء والفلاسفة الذين تم احتسابهم على اليونان زوراً وظلماً ، مثلما تم احتساب التراث الشامي المسيحي كذلك على اليونان والرومان !

أما بالنسبة للدور الحضاري لشمال افريقيا ، فيكفي الاطلاع على تلك الأسماء اللامعة التي شكلت تيارات هامة لعبت أدواراً معروفة في تاريخ المسيحية الشرقانية وتأثيرها المباشر على أوروبا : (القديس ايروس الليبي) مؤسس الطائفة (الآريوسية) الشهيرة ، و(القديس أوغسطين) (الفنيقي الجزائري) أول فلاسفة المسيحية ، ثم (دونات) مؤسس (الحركة

الدوناتية) ورائد أول حركة ثورية مسيحية ضد هيمنة الكنيسة الرومانية[38] .

بالنسبة للعراق ، عندما دخل المسلمون وجدوا أمامهم كنيسة بابل النسطورية التي كانت تضم ٩٠٪ من العراقيين ومنتشرة كنائسها وأسقفياتها من نينوى حتى الأحواز وسواحل الخليج وقطرايا (امارة قطر الحالية) . وكان المبشرون العراقيون النساطرة قد امتد نشاطهم وبنيت كنائسهم في تركستان والهند وحدود الصين . بالاضافة الى ايران ، حيث نافست النسطورية العراقية المجوسية الايرانية ودخلت حتى في البلاط الايراني ، مما دفع بشاهات ايران الى القيام بمذابح عديدة معروفة ضد نساطرة العراق . ويذكر لنا التاريخ دور الملكة الشهيرة «شيرين» زوجة الملك «كسرى الثاني ـ القرن السابع م» التي كانت مسيحية آرامية من مدينة (ميسان) في جنوب العراق[39] . لقد لعبت هذه الملكة دوراً مرموقاً بحماية النساطرة العراقيين . الى جانب الأغلبية الساحقة من النساطرة كانت هناك أقلية من «اليعاقبة» في تكريت والموصل ، وهناك أيضاً طوائف نشطة من اليهود والمانوية البابلية والصابئة والدهريين (الدنيويين) ، وجميع سكان الرافدين كانت لغتهم الفصحى والدينية هي اللغة السريانية (المشتقة من الآرامية) ، أما الناس فحسب مناطقهم يتكلمون بلهجات آرامية متنوعة شكلت الأساس للهجات العراقية الحالية . علماًبأن العراقيين قد تمكنوا في القرن الثالث من ابداع «الديانة المانوية» التي جمعت بين المسيحية وعبادة النجوم البابلية والصابئية . تمكن النبي «ماني البابلي» من نشر دينه وكنائسه من الصين حتى بلاد الغال . وقد ألف «ماني» سبعة كتب كلها باللغة السريانية ، وبمبادرة من المبشرين العراقيين تم تكوين أول أبجدية تركستانية (الأبجدية الايغورية) مشابهة للسريانية . لقد فرضت المانوية نفسها حتى على المجوس في ايران ، وشقت ديانتهم لتنبثق منها (المزدكية) الايرانية[40] . وظلت المانوية نشطة حتى أواسط العصر العباسي ، واطلق عليها تسميات «الزندقة والمثنوية والمنانية» حتى هذه «الديانة المانوية البابلية» اعتبرها مؤرخينا المعاصرين جزءاً من المجوسية الايرانية . وخلطوا بينها وبين المزدكية الايرانية ، علماً بأن (ابن النديم) قد تحدث عنها باسهاب في فهرسته ، لم يشر بكلمة واحدة عن دور ما للفرس في نشاط المانوية والزندقية ، وانما تحدث عنها كحركة عراقية وأنصارها في العراق!

إذن ، هؤلاء السكان الأصليين في العراق والشام ومصر وشمال افريقيا (آراميون وقبط وبربر) اعتنقوا بأغلبيتهم الاسلام وتبنوا العربية والعروبة ، فهل يعني هذا انه يستحقون الالغاء

من التاريخ واعتبارهم (شعوب منقرضة) كما يحلو لمؤرخينا المعاصرين الحديث عنهم . والحقيقة أن شعوبنا الأصلية هذه لم تنقرض بل ذابت حضارياً في الثقافة والدين الجديدين . لقد مرت بحالة الذوبان وتغيير اللغة والدين هذه جميع شعوب الأرض طيلة فترات التاريخ . لأن التاريخ يخبرنا دائماً ، أن «انقراض اللغة والدين» أسهل بكثير من «انقراض الناس» . وان عمليات الإبادة «العرقية» الفعلية للشعوب لم تعرفها البشرية إلا في القرون الأخيرة وعلى يد الأوروبيين بسبب امتلاكهم للأسلحة النارية ووسائل السيطرة والفتك والإبادة التقنية والطبية (مثال قارة امريكا الشمالية) .

أليس من المعقول أن تكون شعوبنا الأصلية هي المصدر الأول والأكبر في صنع الحضارة العربية الاسلامية التي نشأت واستقرت عواصمها في بلداننا : دمشق وبغداد والقاهرة؟ هل من المقبول أن يعترف مؤرخونا المعاصرون (إسلاميون وعلمانيون) بتأثير : «المجوسية الايرانية والروحانية الهندية والفلسفة الاغريقية» ، مع تجنب الاعتراف بالتأثير الحاسم لميراث شعوبنا الأصلية بحجة (غير معلنة) بأنه ميراث (مسيحي - يهودي) يقلل من دعوة انتساب شعوبنا للقبائل العربية الفاتحة؟ أليس من الظلم أن جميع المؤرخين العرب المعاصرين يذكرون المصادر (اليونانية والفارسية والهندية) للثقافة الاسلامية مع تجاهل المصدر الأول والأكبر لشعوبنا التي منحت الاسلام ميراث اربعة آلاف عام من الحضارات والابداعات العلمية والأدبية والدينية؟

تعجيم السكان وتغريبهم

بعد أن أتم مؤرخونا إخلاء العراق من سكانه الأوائل ، فإن المرحلة الثانية تمثلت بتغريب وتعجيم الباقين ممن أسلموا (الموالي) والتعامل معهم كأجانب متطفلين على بلادهم ودولتهم . اسمعوا ماذا يقول مؤرخنا الكبير (احمد حسن الزيات) عن العصر العباسي في بغداد : «وأطلق الخلفاء أيدي الموالي في سياسة الدولة واستبدوا بأمورها ، وكالوا للعرب من الحقارة والمهانة صاعاً بصاع . فضعفت العصبية العربية ، وعلا صوت الشعوبية ، ونتج عن ذلك دخول العناصر الفارسية والتركية والسريانية والرومية والبربرية في تكوين الدولة ، وتمازجهم بالتزاوج والتناسل .. .»[41] . لاحظ مؤرخنا كيف يرثي حال العرب الذين لم يسمحوا فقط بإشراك هؤلاء «الموالي الأعاجم» في الدولة ، بل تركوا الدماء العربية تتلوث بدماء هؤلاء الموالي من خلال التزاوج والتناسل! بالاضافة الى وضع الجميع في جبهة واحدة ، والعرب في الجبهة المقابلة . والطريف أن كاتبنا اعتبر الجميع «موالي أعاجم» ، لكنه استثنى ذكر «الأقباط» ، لأن

وطنيته المصرية منعته من تغريب وتعجيم أشقائه «الأقباط» وجرح مشاعرهم ، أما الآخرين فلا يهم!

يبلغ الحرج بهؤلاء المؤرخين من أجل الاعتراف بدور العراقيين المتميز في صنع الحضارة العباسية ، الى حد الاضطرار للاعتماد على الطروحات العنصرية المعروفة ضد الشعوب السامية . ترى مؤرخنا (الزيات) يشرح النزعة العقلية التي سادت لدى أهل العراق في ذلك الوقت ، فيقول : إن «القياس في استنباط الفقه . . بتأثير الجنسية الآرية فيهم» (ص ٤٣٦) . نعم هكذا ، فأهل العراق «عرب بدو» لا يعرفون غير الصحراء وخيالاتها وروحانيتها ، والنزعة العقلية لا تأتيهم إلا من «الآريين الايرانيين»! لقد أصاب العمى القومي مؤرخنا بحيث جعله يتناسى حضارة أربعة آلاف عام سبقت الاسلام وسبقت حتى الوجود الآري في ايران . وان العراقيين هم الذين أسسوا علوم الرياضيات والطب والفلك والنجوم وحساب الزمن والهندسة ، هذا باعتراف جميع المؤرخين . بل إن العالم الفرنسي الشهير (جان بوترو)[42] طالب بتدريس حضارة الرافدين في المناهج الدراسية الأوربية قبل دروس الحضارة اليونانية والرومانية ، باعتبارها الأساس الذي انطلقت منه الحضارة الانسانية .

إن حمى «تفريس» سكان العراق شملت جميع المؤرخين ، حتى مؤرخ جاد مثل «فيليب حتي» . فهو مثلاً في كتابه الشهير عن (تاريخ العرب) ، يتبنى مثل الباقين ، عملية «تفريس» الشخصيات العراقية بصورة تتنافى مع العلمية والجدية التي يتصف بها عادة . تراه مثلاً يتحدث عن أحد الأطباء في زمن العباسيين : «وقد اشتهر طبيب يهودي بصري الأصل فارسي الجنس يدع ماسرجويه . . قام بترجمة كناس سرياني الى العربية . .»[43] . تصوروا ، طبيب يهودي ومن أهل البصرة ، وترجم من السرياني الى العربي . . طبيب من أين أتاه هذا «الجنس الفارسي»؟ طبعاً السبب الوحيد لتفريس هذا الطبيب العراقي البصري ، ان اسمه (ايراني) . لماذا إذن لا يحتسب علماء ايران على العرب ما داموا كلهم حملوا الأسماء العربية؟

يبلغ هذا الفهم العرقي القومي لدى بعض المؤرخين ، حد الابتذال والتبجح بالتعصب الطائفي والقومي . ها هو أحدهم ويدعى (الدكتور محمد شريف) صاحب كتاب معنون (القادسية الكبرى) والصادر عام ١٩٨٦ دعماً لسياسة الحكومة العراقية . خلال جميع صفحات الكتاب البالغة (٦١١ صفحة) كافح مؤرخنا العروبي بكل شهامة من أجل

«تفريس» ليس التاريخ العراقي وحده ،بل كذلك القسم الأكبر من التاريخ العربي ، وخصوصاً المتعلق بالشيعة :

* كالعادة ابتدأ بتعجيم وتهميش سكان العراق الأصليين (الأنباط) ، إذ يقول عنهم تهكماً : «إنهم جماعة أطلقوا عليهم اعتباطاً أو تندراً لقب الأنباط يعملون في الزراعة للدهاقين الفرس»[44]. هكذا عدة ملايين من الفلاحين اعتبروا «جماعة» يعملون في الزراعة للدهاقين الفرس!

وبعد أن أتم الخطوة الأولى ، بدأ هجومه «التفريسي» الكاسح ضد التاريخ العراقي والعربي :

* مؤسس السبئية (فرقة شيعية) عبد الله بن سبأ اليهودي المجوسي بن الأمة السوداء» (ص ١٣٢) . «القرامطة وحركة الزنج كلها بقيادات فارسية» . وان «الباطنية والدولة الفاطمية (في المغرب ومصر وسوريا) قد مهد لها ميمون القداح الديصاني المجوسي اليهودي» (ص ١٥٤) . «ومدينة السلمية قرب حماه مقر الاسماعيلية زعيمها فارسي» (ص ١٥٧) . و«مذهب النصيرية (علوية سوريا) له علاقة باسماعيل الصفوي (الفارسي)» (ص ١٥٨) . إن «المانوية والسبئية وآراء يوحنا الدمشقي والغنوصية ، كل هذه مهدت السبيل الى ظهور الزندقة والشعوبية والحقد على العرب حملة الرسالة» (ص ١٥١)!

تفريس العراق ودولته العباسية

بعد أن أنجز المؤرخون عملية «تفريس» سكان العراق الأصليين ، قبل الاسلام ثم بعد الاسلام ، لم يبقَ لهم غير «تفريس» كل العراق وعاصمته بغداد ودولته العباسية . هذه بعض النماذج :

* الزيات يقول : «أما الدولة العباسية فقد اصطبغت بصبغة فارسية ، لأن الفرس هم الذين أوجدوها وأيدوها ، فاتخذت قصبتها بغداد أقرب الأمصار الى بلادهم» (ص ٢٣٣) . هكذا اذن ، تم اختيار (بغداد) لأنها قريبة من ايران! لا ندري عن أي «فرس» يتحدث هؤلاء المؤرخون؟ هل كان العباسيون قريشيين عراقيين أم فرس؟ الحركة العباسية تأسست ونشطت وانتشرت في العراق وأنصارها وكوادرها ومثقفيها من العراقيين ، وحتى الخراسانيين الذين ناصروها (تركستان وايرانيين) كانوا تحت قيادات ونخب من العراقيين (عرب وموالي) الذين

أقاموا في خراسان بعد الفتح . مقر قيادة الحركة العباسية لم يكن في ايران بل في «الاردن» (قرية الحميمة) جنوب البحر الميت[45] .

طيب ، إذا كانت الدولة العباسية فارسية ، لماذا لم يختر هؤلاء الفرس عاصمتهم في ايران نفسها؟ ألم يختار الفاطميون القاهرة ، والأندلسيون الأندلس ، فما الذين منع الفرس من تأسيس العاصمة في بلادهم؟ ثم لماذا لم يختاروا خليفة ايرانياً ؟ ألم يختر الأتراك العثمانيون خليفة من عندهم على كل المسلمين وجعلوا العاصمة (اسطنبول) في بلادهم ، وظلوا يحكمون العرب والمسلمين لما يقرب الخمسة قرون! ثم عن أية صبغة فارسية ، وقد تخلى الايرانيون طوعاً خلال أقل من قرنين عن دينهم المجوسي الذي اعتنقوه لما يقرب الألفي عام! ثم اللغة الفارسية أي دور لعبت في زمن العباسيين ، ألم تكن العربية هي السائدة حتى في ايران ،بل ان لغتهم الفارسية تغيرت تماماً بتأثير العربية وانفصلت عن اللغة السابقة (البهلوية) . لو كان الايرانيون بذلك الحضور الأسطوري المنفوخ لماذا لم يفرضوا لغتهم مثلما فعل العثمانيون بفرضهم التركية على دولة الخلافة العثمانية وإدارتها ، رغم ايمانهم بالاسلام والقرآن !

- أما مؤرخنا (جورجي زيدان) فانه بكل بساطة أطلق على العصر العباسي (العصر الفارسي) ، ويقول : «إن الدولة العباسية قامت بالفرس وفيهم الموالي وأهل الذمة»[46] . ان مؤرخنا يحتسب سكان العراق (الموالي واهل الذمة) على الفرس! لكنه بعد فصل يضطر ان يذكر حقيقة أساسية تكشف عن مدى زيف المبالغة بدور الفرس في الدولة العباسية : «من بين ١٣ خليفة عباسي لأم غير عربية ، هناك المأمون فقط أمه فارسية» (ص ٤٢٩) . نعم المأمون فقط كانت امه فارسية . وباقي الأمهات كن عراقيات ومصريات وسوريات وبربريات وارمنيات وتركستانيات ، وغيرهم . وأشهر أمهات الخلفاء العباسيين التي لعبت دوراً سياسياً متميزاً في التاريخ ، لم تكن فارسية ،بل هي «الخيزران» ام الخليفة هارون الرشيد ، التي كانت من أصل (بربري مغربي ، أو يماني)[47] .

- مؤرخنا وناقدنا الكبير (احمد امين) في كتابه الأساسي (فجر الإسلام) يعطي للفرس الدور الاول والحاسم في كل شيء ، إنه بكل سهولة وتلقائية اعتبر العراق كله جزءاً من «بلاد فارس»! تراه مثلاً للتدليل على دور الفرس في التأثير على فن الكتابة العربية ، فانه يستشهد بالدور الكبير الذي لعبه كاتب الأمويين (عبد الحميد الكاتب) . وللتأكيد على «فارسية»

هذا الكاتب اسمعوا مؤرخنا ماذا يقول عنه : «ان عبد الحميد من الموالي وأصله من الأنبار» ثم يضع ملاحظة في اسفل الصفحة : «الأنبار : مدينة على الشاطىء الأيسر للفرات في الشمال الشرقي من العراق»[48] . نعم هكذا للتدليل على فارسية الشخص يكفي أن نثبت انه من العراق . علماً أن مدينة الأنبار تبعد مئات الكيلومترات عن ايران وهي محاذية تماماً لسوريا ولبادية الشام وسكانها متأثرين كثيراً بالقبائل البدوية ، هي منذ القدم مدينة سامية عربية عراقية خالصة تماماً ، فكيف حصل أن أصبح أبناؤها محسوبين على الفرس؟

- (فيليب حتي) يقول في معرض حديثه عن بناء بغداد : «اختار المنصور قرية فارسية على الضفة الغربية لدجلة موقعاً يبني فيه عاصمته بغداد»[49] . هكذا بسهولة عجيبة تمتلىء كتب التاريخ بهذه المفاهيم السريعة والبديهية الى حد القرف . عن أية قرية فارسية يتحدث هذا المؤرخ وهو يعرف جيداً بأن بغداد في وسط العراق ، والعراق كله باعتراف هذا المؤرخ كان آرامياً مسيحياً ثم إسلامياً عربياً فمن أين أتت هذه القرية الفارسية لتصبح مكاناً لعاصمة الخلافة؟ لو افترضنا ان اسم «بغداد» من أصل فارسي ، فهل هذا يكفي للقول بأنها قرية فارسية . هل يصح القول أن (طهران) عربية بالاعتماد على اسمها فقط؟ وهل (طرابلس) يونانية؟ ثم أن اسم «بغداد» لم يثبت أبداً أصله الفارسي بل هناك فرضيات عدة . ها هو (امين الريحاني) يقول : «بغداد بابلية الأصل . فقد أسسها نبوخذ نصر في المكان الذي دارت فيه رحى الحرب بينه وبين أعدائه ، تذكاراً لانتصاره عليهم ، وأسماها «بعل داد» أي مدينة بعل . . . وقد اكتشف عام ١٨٤٨ في الجانب الغربي في الكرخ بقية حصن مبني بالآجر عليه اسم نبوخذ نصر وفتوحاته»[50] (علماً أن حرفي العين والغين يتبادلان في اللغات السامية مثل كلمتي عرب وغرب) .

ان يكون اسم (بغداد) عراقياً سامياً هو امر طبيعي ، خصوصاً اذا علمنا ان الأغلبية الساحقة من أسماء المناطق العراقية هي أسماء (سومرية ـ أكدية ـ آرامية) سبقت العرب ، مثل : سامراء وبعقوبة والبصرة وكربلاء وميسان ونينوى وكركوك واربيل والكوفة والنجف ودجلة والفرات ، وغيرها العديد من الأسماء[51] . بل الكثير الكثير من المسميات التي نعتقدها عربية في العراق هي ميراث عراقي سابق للعرب . منها مثلاً ، أسماء الأشهر الميلادية الحالية الموروثة من تقويم السنة البابلية التي تبدأ بشهر نيسان وتنتهي بآذار ، ونجد بقايا هذ النظام البابلي في ترتيب الأبراج الذي يبتدىء بالبرج الأول (الحمل) في نيسان[52] .

إننا على هذا المنوال يمكننا أن نستشهد بعشرات الكتب المؤلفة من قبل عراقيين وعرب ، أما بالنسبة لتلك المؤلفة من قبل المستشرقين فانها عموماً لا تختلف عن الكتب العربية بسبب التأثير المتبادل بين الطرفين في هذا المجال . هناك كتب لا يمكن أن نستشهد ببعض مقاطعها لأنها منذ أول صفحة حتى آخرها تعلن عن عنصريتها (القومية المازوشية) . باسم (النقاء العروبي) ومعاداة (الفرس المجوس) تعتبر كل شيء أنتجته الحضارة العباسية هو فارسي من دون أي جدل : «الثياب الزاهية والقصور الفخمة والخمرة والغزل وحب الورود والنساء والغلمان والأفكار والتيارات الشيعية والمعتزلة والتصوف والدولة الفاطمية وثورات القرامطة والزنج» . كل شيء يصبح بالنسبة لهؤلاء القوميين فارسياً زنديقاً شعوبياً مجوسياً ، بصورة تبلغ حد الهوس المرضي! نسجل هنا بعض هذه الكتب الزاخرة في كل صفحة بالأمثلة التفريسية الى حد السريالية والفنتازيا والهذيان : (الدكتورة زاهية قدورة : الشعوبية وأثرها) . (وجاء دور المجوس ـ الدكتور عبد الله الغريب) . (الدكتور محمد شريف : القادسيةالكبرى) . (الدكتور عبد العزيز الدوري ـ الجذور التاريخية للشعوبية) .

* * *

النخب «المتعثمنة» والتعصب الطائفي ـ العروبي

الأمر الذي يجلب الانتباه ويستحق البحث والاهتمام ، ان هذا التضخيم «الهوسي والمرضي» لدور الفرس ، ليس له أي أثر في المصادر التاريخية المعروفة التي كتبت في تلك الفترة ، مثل : (تاريخ الطبري) ، و(فهرست ابن النديم) ، و(معجم البلدان لياقوت الحموي) ، و(كتب ورسائل الجاحظ) ، والعشرات من المصادر التاريخية الأخرى التي تمكنا من الاطلاع عليها . جميع المصادر تذكر الفرس بصورة معقولة جداً وتشيد بدورهم مع ذكر الشعوب الأخرى من دون مبالغة ولا تعصب . (مقدمة ابن خلدون) أفضل مثال على الرؤية الموضوعية الانسانية للتاريخ العربي الاسلامي . إنه يكتب التاريخ من دون تعصب لأي جهة ، ويذكر الجميع بخيرهم وشرهم . تراه رغم افتخاره بأصله العربي اليماني «الحضرموتي» فانه لا يتوانى عن القول : «إن العرب أبعد الناس عن الصنائع . . . والسبب في ذلك أنهم أعرق في البداوة وأبعد عن العمران الحضري . . وان عجم المغرب من البربر ، مثل العرب في ذلك لرسوخهم في البداوة . .» (ص ٧٣٠) . لكن اعترافه ببداوة العرب ، لا يجعله أبداً يقع في مطب

«التفريس» الذي وقع فيه مؤرخونا القوميون، ولا تراه يتحدث عن (اليونان والفرس والهنود) دون أي ذكر لشعوبنا الأصلية . لا ، انه على العكس يمنح الدور الأول في تكوين الحضارة العربية الاسلامية لشعوب المنطقة الأصليين، تراه يقول : «لم يكن على وجه الأرض لهذا العهد أحضر من أهل الشام والعراق ومصر» (ص ٦٥٨) . ثم انه يعترف بدور «الفرس» الحضاري ولكن من دون أية مبالغة وهوس ، وبالتساوي مع الشعوب الأخرى : «فالفرس طالت مدتهم (بالحضارة) آلافاً من السنين وكذلك القبط والنبط والروم» (ص ٦٣٨) . ثم انه يعترف بدور مصادر الحضارات الأخرى التي تلفت معظمها حسب تصوره : «أين علوم الفرس التي أمر عمر بمحوها عند الفتح ، واين علوم الكلدانيين والسريان واهل بابل ، وما ظهر عليهم من آثارها ونتائجها ، واين علوم القبط من قبلهم» (ص ٦٣) . طالما كرر مؤرخونا المعاصرون مقولة (ابن خلدون) المعروفة : «إن حملة العلم في الاسلام أكثرهم من العجم» (ص ١٠٤٧) . لكنه أبداً لم يفهم كلمة «عجم» على أنها تعني «الفرس» ، بل فهمها بمعنى «غير الناطقين بالعربية» كما بينا سابقاً . تراه يقول : «حملة الحديث الذين حفظوه على أهل الاسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغةو المربى لاتساع الفن بالعراق» (ص ١٠٤٩) . ثم يذكر (ابن خلدون) دور أهل بابل الذين أوجدوا (علم التنجيم والفلك) الذي أسماه (السحر والطلاسم) ،وتراه يشير بكل صراحة ووضوح كيف ورث علماء العراق والمشرق هذا العلم من أسلافهم . يقول . «وجود السحرفي أهل بابل ، وهم الكلدانيون من النبط والسريانيين فكثير . . وفي أهل مصر من القبط وغيرهم . وكان لهم فيها التأليف والآثر . ولم يترجم لنا من كتبهم فيها الا القليل ، مثل الفلاحة النبطية لابن وحشية من اوضاع اهل بابل ؛ فأخذ الناس منها هذا العلم وتفننوا فيه . . ثم ظهر في المشرق جابر بن حيان كبير السحرة في هذه الملة» (ص ٩٢٤) . ان (ابن خلدون) بوعيه التاريخي الشامل أدرك دور شعوبنا الأصلية باغناء ميراث البشرية . يقول : «وكان الكلدانيين ومن قبلهم السريانيين ومن عاصرهم من القبط عناية بالسحر والنجامة وما يتبعها من الطلاسم ، واخذ ذلك عنهم الأمم من فارس ويونان» (ص ٨٩٠) .

إذن ، ان عملية «التفريس» المعاصرة ، ليس لها أي أساس علمي في المصادر التاريخية الأصلية . في الحقيقة ان عملية «التفريس» هذه للتاريخ العراقي تعود أساساً الى نهاية الفترة العثمانية ، أي في القرن الماضي حينما بدأت أولى بوادر النهضة الثقافية وإعادة كتابة التاريخ

العربي الاسلامي . من المعروف ان النخب المثقفة في العراق والشام رغماً عنها تبنت الكثير من مواقف الدولة العثمانية المسيطرة التي كانت تخوض الصراع المرير والدامي ضد خطر الدولة الايرانية . والمشكلة ان السلالات التي حكمت ايران منذ القرن السادس عشر (الصفوية ثم القاجارية) ، كانت ناطقة بالتركستاني مثل العثمانيين ؛ وهذا يعني أن الشيء الوحيد الذي كان يفصل الايرانيين عن العثمانيين ، لا اللغة ولا القومية ولا الدين ، بل هو «المذهب» وحده .

علي هذا الأساس أخذ الصراع المذهبي بُعداً سياسياً وحضارياً ، وصار الانتماء الطائفي أشبه بالانتماء القومي . كل «الشيعة» في العالم صاروا تلقائياً محسوبين على ايران ، وكل «السنة» صاروا محسوبين على الدولة العثمانية . حدة المشكلة تركزت أساساً على العراق . من سوء حظه ، ان الايرانيين اعتنقوا «المذهب الشيعي الجعفري» الذي مقر عتباته المقدسة وحوزته العلمية في العراق . أما العثمانيون فقد اعتنقوا «المذهب الحنفي» الذي كان يسمى (مذهب أهل العراق) ومؤسسه الفقيه العراقي (ابو حنيفة) المدفون في بغداد[53] . إذن تكاملت المأساة ، واصبح العراق البائس الجريح مركز مذهبي هذين العملاقين المتصارعين و«ساحة حربهما المقدسة» ، وصار الشعب العراقي كبش فداء لفروض الحج الدامي ، وبالذات الأغلبية الشيعية . بكل بساطة احتسب العثمانيون هؤلاء الشيعة العراقيين على ايران ، وتم اعتبارهم نوعاً من الرتل الخامس . خلال اربعة قرون ظلت ايران تكافح المستحيل من اجل انتزاع العراق وعتباته الشيعية المقدسة من العثمانيين . بين حين وآخر ، تجتاح ايران العراق وتنتزعه من الأتراك وتشرع بالمذابح ضد السنة وتنبش قبر (أبي حنيفة) . سرعان ما يعود الأتراك ليعيدوا جثمان (أبو حنيفة) الى وضعه ويشرعوا بالمذابح والقمع ضد الشيعة . . وهكذا لأربعة قرون! لقد بذلت ايران الجهد والمال والذهب من اجل كسب شيعة العراق وجرهم لنصرتها . وكانت جموع الحجاج الايرانيين لا تتوقف ، وجثث موتاهم القادمة الى مقبرة النجف كانت هي التجارة الأولى الرائجة بين العراق وايران ، بل كان الأمر يصل احياناً الى حد تهريب هذه الجثث سراً بين البضائع الأخرى[54] ! أما طلاب العلم الايرانيين فقد ظلوا دائماً هم الأغلبية في الجامعات والحوزات الشيعية العراقية . خلال هذه القرون ، تمكنت ايران فعلاً في أن تؤثر في جزء مهم من النخب الشيعية العراقية وتبث فيهم روح التعاطف والتعلق الخاص بايران . بل ان الكثير من قادة هذه النخبة الدينية العراقية كانوا

بصورة أو أخرى من أصول ايرانية أو نتيجة تزاوج عراقي ايراني ولهم علاقة متميزة مع ايران . طبعاً ، مقابل هذا ، فان الدولة العثمانية جرت الى جانبها النخب السنية العراقية وفضلتهم في المكاسب السياسية والعسكرية والاقتصادية ، لقاء تهميش شيعة العراق وعزلهم عن كل ما يتعلق بالدولة ومؤسساتها الادارية والعسكرية والتعليمية .

في ظل هذه الوضعية المتوترة قامت النخب العراقية والشامية والمصرية «المتعثمنة» بكتابة التاريخ العربي ، والعراقي خصوصاً ، في ظل تلك الأجواء المشحونة بالتعصب الطائفي والصراع الايراني ـ التركي كتب تاريخ العراق الأموي والعباسي . والمشكلة أن هذا التعصب العثماني المعادي للشيعة ولايران التقى مع التيار « القومي العروبي» الذي وقع في الفخ العثماني وتبنى الفهم العرقي للتاريخ بتأثير من آيديولوجية «القومية الجرمانية» التي كانت مؤثرة في النخب العثمانية . على غرار الألمان ، قام الأتراك بصنع قوميتهم على أساس « القومية الطورانية» واعتبار الشعب التركي جزءاً عرقياً بيولوجياً من «الوطن الأم» في طوران (تركستان) في آسيا الوسطى[55] . على غرار الأتراك ، قام دعاة القومية العربية باعتبار شعوب العراق والشام وباقي البلدان العربية منحدرة عرقياً من «الوطن الأم» الجزيرة العربية[56] . ثم ان هذه النخب العربية «المتعثمنة» ورثت أيضاً عقدة خاصة بالأتراك تتمثل بحقيقة تأثير الثقافة الفارسية على الشعوب التركستانية منذ أيام الامبراطورية الساسانية ، واستمرار تأثير الثقافة الفارسية على الثقافة التركية العثمانية .

على أساس هذا الفهم «العروبي العرقي» الممتزج بالطائفية العثمانية وعقدة النقص التركية ازاء الحضارة الايرانية ، تمت كتابة التاريخ الاسلامي العربي بطريقة قومية طائفية معاصرة . في جو الرعب الايراني الشيعي تمت غربلة تاريخ الحضارة العربية الأموية العباسية وذلك برمي كل ما هو مشكوك في نقاء عروبته في «مزبلة الشعوبية الفارسية»! هكذا اذن وقعت نخبنا المثقفة في المأزق التركي العثماني ، وتبنت مفاهيم «العروبة العرقية الطائفية» واعلنت الحرب الشعواء ضد كل ما له علاقة بالفرس والشيعة . من أجل تضخيم الدور السلبي «للعدو الفارسي» تم نضخيمم الدور الكلي لهؤلاء الفرس ، بحيث احتسبت عليهم كل تفاصيل الحضارة في بغداد والعراق : الإلحاد والزندقة ، فارسية . الطرب والفن والخلاعة ، فارسية . التغزل بالجواري والغلمان والخمرة ، فارسية . التشيع والمانوية والباطنية ، فارسية . الشعوبية والتمرد والثورة ، فارسية . لم يُترك شيء من الحياة والحضارة والابداع إلا

ونُسب الدور الأول والأكبر فيه للفرس . بل حتى الأعلام والمبدعين الذين من أصول تركستانية وقفقاسية وأرمنية وهندية وسندية تم احتسابهم على الفرس ، مثل (ابن سينا والفارابي والخوارزمي والبيروني) ، لمجرد أنهم ليسوا «عرب أقحاح»!

* * *

تأثير العقدة الايرانية في الحاضر العراقي

بما ان الشعوب مثل الأفراد ، بقدر ما يكون الاحساس بالماضي هشاً والارتباط به ممزقاً ، بقدر ما يكون الارتباط بالحاضر كذلك هشاً وممزقاً . بعد أن تم تصغير الدور العراقي في الحضارة العربية الاسلامية وتضخيم «البعبع الفارسي» في هذه الحضارة ، انعكس الأمر مباشرة على الواقع السياسي والثقافي للمجتمع العراقي . هكذا خلقت في العقل الباطن العراقي «عقدة نفسية ـ سياسية ـ ثقافية» تمس مباشرة الاحساس بقيمة الذات الوطنية التاريخية ، وهذه العقدة يمكن تسميتها بكل بساطة : «العقدة الايرانية» . هذه العقدة تتغذى من مصدرين : أولهما هو الماضي الذي تم «تفريسه» وتمزيقه ، والثاني هو الحاضر المهدد دائماً بما يسمى بـ «الخطر الايراني» . وظل الهدف الخفي الغير معلن من كل عملية التشويه هذه ، خدمة الضرورة السياسية العثمانية الكبرى : احتساب شيعة العراق (والبلدان العربية) على الفرس «الزنادقة المجوس» واعتبارهم جاليات أجنبية مشكوك بولائها ، وبالتالي تبرير عزلهم وقمعهم وحتى طردهم من الوطن . وهذا ما مارسته فعلاً الحكومات العثمانية في جميع مناطق الشيعة ، وحتى خارج العراق . في مكة والمدينة مثلاً حتى أواسط القرن الماضي ، كان الجزء الأكبر من السكان في هاتين المدينتين هم شيعة[57] ، والآن لا يوجد في هاتين المدينتين أي أثر لهؤلاء الشيعة . والسبب أن العثمانيين والوهابيين رغم عدائهم وحروبهم الدامية ، إلا أن مصلحة الاثنين التقت في محاربة الشيعة من خلال المذابح والتهجير والإجبار على تغيير المعتقد . سياسة العزل والإفقار والإبعاد مورست في البحرين والإحساء وسوريا ولبنان ، أما في العراق فقد وصلت الحكومات العثمانية ثم العراقية عمليات الطرد المستمرة للجماعات الشيعية التي وصلت ذروتها في الثمانينات بطرد ما يقارب مليون عراقي الى حدود ايران بحجة عدم ثبوت أصولهم العراقية العربية النقية[58] .

هكذا إذن فعلت النخب «المتعثمنة» في تاريخنا وحاضرنا . بسبب مصالح طائفية

ضيقة وبسبب تبعية قرون للدولة العثمانية ، تمت التضحية بتاريخ الوطن وحاضره ومستقبله . رغم زوال العثمانيين إلا أن عقليتهم التي زرعوها خلال قرون ظلت تنمو وتثمر في عصرنا الحديث . ثم ان الانكليز الذين شكلوا الدولة العراقية الحديثة تبنوا نفس اللعبة ودعموا عملية الهيمنة الطائفية وتشجيع حالة عزل الشيعة من اجل تطبيق سياسة «فرق تسد»[59] . حتى عندما حاول الملك الراحل (فيصل الاول) التخلص من هذه الحالة الطائفية فانه عانى من مصاعب كثيرة انتهت بموته المشكوك بأسبابه . ان التيار القومي العربي الذي فرض هيمنته السياسية والثقافية استمر بالعزف على وتر «الخطر الايراني» . من خلال التبجح بالعلمانية والنقاء العرقي العربي استمرت اللعبة الطائفية العثمانية واستمر تشويه التاريخ العراقي والمغالاة بتفريسه واتهام خيرة أعلامه ومبدعيه بالميول «الشيعية الفارسية المجوسية اليهودية الشعوبية الزندقية» (هذه العبارة الأخيرة ليست مبالغة من عندنا بل مذكورة في عدة كتب تطرقنا لبعضها في دراستنا) . وصل الأمر الى ذروته في الثمانينات عندما تم تحطيم تمثال الشاعر العراقي الأحوازي المعروف «ابو نواس» بعدما صدرت فتوى قومية باعتباره فارسياً!

إن هذه النظرة العنصرية «التفريسية» من القوة والتأثير بحيث أنها دخلت في جميع كتب التاريخ وتربت عليها في العصر الحديث أجيال وأجيال من الطلبة والمثقفين والمسيسين والمؤرخين ، ودخلت حتى في الذهنية الشعبية بحيث صار من الطبيعي الاعتقاد بأن «التشيع» العراقي والعربي هو من أصل فارسي ، وان جميع جوانب الحياة والثقافة في العراق الحديث والتي لم يثبت قدومها من الجزيرة العربية ، بالتأكيد يجب أن تكون فارسية : الموسيقى والغناء والطبخ والحرفيات والثياب والطقوس الدينية ، وحتى الكلمات والأسماء (العراقية القديمة ـ السومرية ـ الآرامية) بما أنها غير عربية فهي تلقائياً فارسية[60] .

إن هوس «التعريب» و«التفريس» شمل حتى المواطنين العراقين . فكل مواطن عراقي ، لم تثبتِ أصالته العربية وانه من أحفاد «قحطان وعدنان» فان عراقيته مشكوك بها ، حتى لو كان مستوطناً في العراق منذ الف عام . ترى العراقي قد تعود أن يفعل المستحيل لكي يثبت للآخرين ، لا عراقيته ، بل قبل كل شيء عليه أن يثبت «أصله العربي» وانه من جد يعود لبني «لخم أو تنوخ أو خناعة»! أفضل دليل على مدى «الأسطورية والتوهم» التي لجأ اليها العراقي خلال قرون من القسر أو الإغراء من اجل الادعاء بأي «لقب عربي أصيل» ، هو هذا

الكم الهائل من العوائل والعشائر العراقية التي تدعي الأصل «القريشي الهاشمي العلوي» من الذين يطلق عليهم بالعراقي «سيد شريف» . الباحث «حنا بطاطو» يذكر لنا أرقاماً عجيبة عن عدد السادة في العراق والمنتشرين بين الشيعة والسنة ، وبين العرب والأكراد والتركمان ، وفي المدينة والريف والبادية . حتى عام ١٩٣٦ كانت حصة هؤلاء «السادة» في رئاسة الوزراء قد بلغت (٦٩,٢٪)(61) . بل الطريف ان لقب «سيد شريف» فرض نفسه حتى على حزب علماني مثل الشيوعي العراقي ، إذ يلاحظ مثلاً انه في عام ١٩٥٦ تكونت قيادة اللجنة المركزية من ثلاثة «سادة قريشيين» ، احدهما شيعي (حسين الرضي) والثاني سني (عامر عبد الله) ، والثالث كردي (جمال الحيدري)(62) ! بل حالة «التعريب القريشي العلوي» جذبت حتى «الرئيس صدام» ، الذي نشر شجرة العائلة ليؤكد أن سلالته تعود للإمام علي بن أبي طالب! من دون أية مبالغة ، يمكننا بكل اطمئنان ان نقول ان عدد الذين يعتقدون بأنهم من أصل «سيد شريف» في العراق يزيد على ثلث عدد السكان ! !

ان هذا الفهم العرقي «العروبي والتفريسي» للماضي العراقي شكل الأساس لرؤية الحاضر وتحديد معنى الوطن والمواطنة . صار من الطبيعي اعتبار ارض العراق وحدوده هي ارض الناطقين بالعربية فقط ، أما المناطق التي يقطنها عراقيون غير ناطقين بالعربية مثل الأكراد والتركمان والسريان ، فهي مناطق غير عراقية بصورة كافية وأكيدة ، وانها قابلة للتمايز بل والتفاوض على مدى عراقيتها وحتى القبول المبدأي بحق انفصالها المستقبلي! وهذا بالضبط الذي تعودنا عليه بخصوص المناطق العراقية التي يقطنها أكراد عراقيون ، بالاضافة الى الطروحات المتكررة عن مخاوف تقسيم العراق الى مناطق قومية وطائفية . أن مناطق مثل كركوك واربيل والموصل التي شكلت منذ فجر التاريخ جزءاً طبيعياً وسكانياً من بلاد الرافدين وعاشت طيلة تاريخها في ظل الدول الرافدية وقطنتها دائماً الجماعات العراقية الآشورية والبابلية الآرامية خلال جميع العصور ولا زالت أسماؤها وآثارها شاهدة على عراقيتها ؛ ولكن ، بما أن هذه المناطق غير مقطونة الآن بأغلبية عربية فإن هذا يكفي للتشكيك بعراقيتها وتبرير ضمها الى خرائط «كردستان» الكبرى التي يحلم دعاتها بالانفصال عن الوطن العراقي .

كل هذا أتى من «ضعف الهوية العراقية» وضعف الشعور بالانتماء الى وطن عراقي ذي

تاريخ واحد يشترك فيه جميع العراقيين مهما اختلفت انتماءاتهم الفئوية «القومية!» والمذهبية والدينية .

* * *

إن هذه «العقدة الايرانية» ظلت تُغذى من قبل النخبة الحاكمة باسم «الخطر الايراني» ومكافحة «الشعوبية» التي اتهم بها الشيوعيون والشيعة وجميع العراقيين الذين تجرأ أحدهم وشكك بنقاء «الأمة العربية» أو امتدح بالصدفة أي شيء يتعلق بالفرس من بعيد أو قريب .

في أعوام الثمانينات مع اندلاع الحرب العراقية ـ الايرانية ، وصلت حمى «التفريس» الى ذروتها وهبطت الى مستوى الابتذال الذي يخجل منه أشد القوميين المخلصين للأمة العربية . السيد خير الله طلفاح (خال الرئيس) أصدر كتابه الشهير الذي بيع إجبارياً لمعظم العراقيين ، وجاء فيه : «ثلاثة أشياء أخطأ الله بخلقها : الفرس واليهود والذباب»(63) . في هذا الكتاب يعتبر (طلفاح) الفرس (حيوانات متنكرة بجلد بشر)! هذه العنصرية المخجلة بسذاجتها ، لم تبق ضمن النطاق الاعلامي والتربوي بل تجلت على شكل قوانين بلغت حد الطعن بكرامة الانسان العراقي والعسكري بالذات ، إذ أجبرته حتى على التخلي عن زوجته والتنكر لأبنائه إن كان فيهم شيئاً من الدم «الفارسي المجوسي» . تصوروا عام ١٩٨١ أصدر الرئيس ، القرار التالي : «الزوج العراقي المتزوج بامرأة من أصل ايراني يستلم (٤٠٠٠) دينار اذا كان عسكرياً ، و(٢٥٠٠) اذا كان مدنياً ، في حالة تطليقه من زوجته أو تسفيرها خارج العراق»(64)! وعلى هذا الأساس دفعوا حتى الأزواج والأقارب للمشاركة بحملة تهجير لما يقرب مليون عراقي «اتهموا» زوراً بالأصل الايراني ، لأنهم من أصول شيعية ، لا أكثر ولا أقل .

في ظل هذه الأجواء السائدة في العراق منذ أيام العثمانيين ، فإن «العقدة الإيرانية» ، مع الزمن ظلت تزداد قوة وتأثيراً وانتشاراً ، بحيث أنها تغلغلت حتى في عقول المثقفين والمتعلمين الرافضين مبدئياً للطروحات القومية والعرقية . نورد هنا بعض الأمثلة المختصرة من التي نسمعها ونقرأها كل يوم بصورة «طبيعية» ويومية دون أي احتجاج أو استغراب من أحد :

* نستشهد مثلاً بموقف الشاعر العراقي الراحل بلند الحيدري . رغم أصالة هذا الشاعر ومواقفه الديمقراطية الصادقة ومعاناته الشخصية من الاضطهاد والقمع ، إلاأن هذا لم يمنعه

من الوقوع في فخ «العقدة الايرانية» والفهم القومي العرقي للمجتمع العراقي . قام شاعرنا بحماسة غريبة بتبني ادعاءات السلطة الطائفية وأعلن في مقابلة مع (صحيفة القدس ٢٢-٥-١٩٩٦) ، عن خلع الهوية العراقية عن الشاعر الكبير «محمد مهدي الجواهري» واحتسبه بكل بساطة على «الفرس» !

علماً أن مشكلة «تفريس» الجواهري قديمة تعود الى أعوام العشرينات . يتحدث عنها الجواهري بإسهاب في مذكراته . يقول أنه طُرد من وظيفته كمدرس بسبب قصيدة تغزل بها بمصيف ايراني فاعتبرت قصيدة «شعوبية» . ويدافع الشاعر عن نفسه قائلاً : «لقد غنيت مصايف لبنان وسوريا وفلسطين وامتدحت في شعري باريس وسواستوبول وستالينغراد وبراغ ، أفهذه شعوبية؟»[65] علماً بأن المسؤول عن طرده هو أحد كبار مؤسسي التيار العروبي (ساطع الحصري) الذي كان مشرفاً على وضع نظام التربية في العراق . وكان الحصري هذا لا يتقن العربية كفاية لأن ثقافته ولغته الأم هي التركية[66] ، بالاضافة الى تعصبه (العلماني العروبي) ضد الشيعة . لهذا السبب تم طرد الجواهري لأنه نجفي ومدح بعض علماء الشيعة! لكن ، والحق يقال ، ان التعصب الطائفي لم يكن هو المسيطر تماماً على الحياة السياسية العراقية ، فترى رغماً عن الحصري وأتباعه من المتعصبين ، أصبح الجواهري فيما بعد ، من المقربين جداً للملك الراحل (فيصل الأول) ، والشاعر الذي يتغنى بقصائده جميع العراقيين بمختلف تياراتهم وأديانهم ومذاهبهم وفئاتهم اللغوية .

* في مقابلة لصحيفة (القدس ٢٢-٨-١٩٩٦) مع الموسيقار العراقي (نصير شمة) ذكر حادثة تتجلى فيها بشاعة تأثير هذه «العقدة الايرانية» . والحكاية أن (نصير) أراد تحقيق مشروع (الفارابي) باضافة الوتر الثامن الى العود . وعندما علم الموسيقار العراقي (منير بشير) بهذا الأمر ، ولأنه مستشار في وزارة الثقافة ، كتب «تقريراً أمنياً خطيراً» يتهم فيه منافسه الشاب بالخيانة الوطنية ، لأنه : «يدعي (نصير) بأن الفارابي من صنع العود . وطالما أن الفارابي فارسي فانه هذا يعني أني أنسب أصول العود لايران . . الشيء الذي جعل من تواصلاتي موضع اتهامات يقاضي بموجبهاالقانون»! تصوروا مدى السذاجة التي زرعتها هذه العقدة في عقول ونفوس هؤلاء المثقفين الحكوميين . أي اطلاع على التاريخ ، يبين لنا جيداً بأن «الفارابي» ليس فارسياً أو ايرانياً إبداً ، بل هو تركستاني من مدينة (فاراب) الواقعة حالياً في جمهورية كازخستان . لنفترض أن الفارابي كان فارسياً ، فما هي المشكلة ؟ ثم ان اضافة

وتر جديد لا يعني أبداً نفي حقيقة معروفة لجميع المهتمين ، بأن أول من صنع العود وعزف عليه وكتب نوطاته وحفظه وطوره ونقله الى العرب والى الفرس والأتراك وغيرهم ، هم العراقيون القدماء . الآثار والمنحوتات البابلية والآشورية تشهد على الأمر . الطريف في هذه الحادثة ، أن (منير بشير) من عائلة مسيحية عراقية ، وخشيته هذه من (الفرس) ليس لها مبرر (طائفي) شخصي غير التملق لمهووسي «العقدة الايرانية» السائدة .

* ان هذه «العقدة الايرانية» ، دخلت في أعماق العقلية العراقية بمستوييها الشعبي والمثقف . تصوروا أن يتجادل مجموعة من المثقفين القوميين حول مدى حقيقة «عروبة» صديقهم المثقف فلان . لأن المشكلة ، حسب طرحهم ، ان فلان من «بني تميم» وهذه العشيرة العراقية (العربية) موجودة في العراق قبل الفتح العربي بعدة قرون . على هذا الأساس فإنها يقيناً قد «تلوثت» بالدماء الفارسية بعد أن اختلطت وتزاوجت مع الفرس الحاكمين . وهذا الأمر يقلل من نقاوتها العربية ! الأكثر عجباً في هذه الحكاية ، أن هؤلاء المثقفين هاربين من جور النظام ومنفيين في بلد عربي مجاور!

* ان تأثير العقلية العثمانية وتهويل الخطر الايراني جعل العراق من الحالات النادرة بين أوطان الأرض ، إذ تقوم الدولة باعتبار الأغلبية الساحقة من شعبها : «أجانب مشكوك بعراقيتهم ومواطنيتهم» وهم الشيعة من (عرب وفيلية وتركمان) ثم الأكراد . من الطبيعي أن ديمومة هذه المشكلة منذ قرون جعلت حتى ضحاياها يدخلون بلعبتها . فليس من المستغرب أن تجد الكثير من الاسلاميين الشيعة العراقيين والعرب من يفضل الانتماء السياسي والحضاري لايران ، بل هناك من يلجأ الى اصطناع أصل ايراني ، ما دام قد تعلم من كتب التاريخ القومية بأن العراقيين والعرب «بدو متخلفين» و«الفرس» هم أصحاب الحضارة . يبدو أن هذه الصورة القومية المبتذلة عن بداوة العراقيين وتحضر الفرس شائعة جداً في ايران وطالما سمعناها شخصياً من أصدقائنا الايرانيين !

بالنسبة للأكراد الذين هم أيضاً من ضحايا هذه «العقدة الايرانية» فانهم وجدوا الحل بالتخلص من أي انتماء لهؤلاء «العراقيين البدو» والبحث عن الانتماء للعرق الآري الايراني «الهندوأوروبي» أملاً بالانتساب لبعض أمجاد هذا «العرق الآري المتطور!» . رداً على ادعاء العروبيين بالأصل الحجازي اليمني ، فإن الأكراد بكل بساطة اصطنعوا لهم تاريخاً

وأصلاً من خارج العراق بل وحتى من خارج كردستان العراق ، أي الأصل الميدي الايراني «الهندوأوروبي»! هناك تيار مهم بين المثقفين الأكراد العراقيين ، يقوم بالمبالغة والتطرف بنفي الأصل العراقي القديم لسكان كردستان العراق الذين شاركوا في الحضارة العراقية منذ العهد السومري وحتى الآن . تشبهاً بالعروبيين ، قام القوميون الأكراد بصناعة أسطورة قومية اعتمدت على حجة معروفة وهي أن اللغة الكردية الحالية من أصل آري . وبناء على هذا الفهم القومي الضيق اخترعت أسطورة الأصل الميدي «الايراني» للأكراد . متناسين أن جبال كردستان العراق (الجانب الغربي من زاغاروس) مقطونة بجماعات عراقية (غير آرية) منذ سحيق الزمن[67] . وقد شاركت هذه الجماعات الأصيلة بصنع الحضارة العراقية منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، مثل الغوتيين والكاشيين والحوريين[68] . وان تبني لغة لا يعني أبداً الانتماء العرقي لأصل هذه اللغة . فلأن معظم سكان العراق يتكلمون العربية لا يعني أبداً بأنهم منحدرون عرقياً من تلك الأقلية العربية المحاربة التي قدمت من الجزيرة العربية . من المعقول مثلاً ، أن يربط (أكراد ايران) تاريخهم بالأصل (الميدي) الايراني ، على اعتبار أن هذه الحضارة كانت في ايران بما فيها منطقة كردستان ايران الحالية . ولكن هذه الحضارة (الميدية) ليس لها أية علاقة بمناطق سكنى الأكراد في العراق ، بل هذه المناطق الكردية العراقية ظلت دائماً جزءاً من الحضارات والدول التي قامت في العراق . أفضل مثال لنا هو منطقة أربيل ، تاريخها المعلوم وآثارها وشواهدها الحالية كلها تبين أنها حملت التراث العراقي منذ السومريين والآشوريين والآراميين حتى العصر العربي الإسلامي . لا زالت حتى الآن تحتفظ باسم (اربيل) الموروث منذ العهد السومري ـ الآشوري بمعنى (اربع ايلو ـ أي الآلهة الأربعة) . طيب لماذا يتخلى أكراد العراق عن تراث مناطقهم العراقية الكردية ، ويتمسكون عنوة بتراث ايران واكراد ايران ؟

إن هذا الفهم القومي «الميدي» لأصل الأكراد دفع بعض المثقفين الأكراد الى محاولة ربط كل ما له صلة ما باللغة الكردية بالحضارة الايرانية . مثلاً بعضهم يصر على تغيير تسمية الطائفة «اليزيدية» الى «الأزدية» واعتبارها من أصل زرادشتي ، وبالتالي نفي عراقية اليزيدية[69] . متناسياً حقيقة أن هذه اليزيدية واحدة من الطوائف العراقية النادرة التي حتمت عليها ظروف التاريخ والجغرافيا لأن تجتمع فيها ، بصورة رائعة ، ميراثات جميع

الأديان العراقية : البابلية والمانوية والمسيحية والاسلام ؛ بالاضافة الى مواريث الفئات اللغوية العراقية المختلفة : العربية والكردية والسريانية .

* هناك بعض الباحثين من يحاول أن يبذل الجهد المستحيل من اجل احتساب حتى الجماعات العراقية القديمة على الفرس ، مثل الصابئة ، يحاول البعض تفريس أصول الديانة الصابئية وربطها بالديانة الزرادشتية وتجاهـل الأدلة الساطعة على بابلية هـذه الديانة وآرامية لغتها .

* أما بالنسبة للتركمان فانهم يقطنون فعلياً في العراق منذ أكثر من الف عام وأصبحوا جزءاً فعالاً من سكان العراق وتاريخه . بل إن دماء الكثير من العراقيين (العرب) تحمل آثاراً من دماء التركستانيين الذين لم يتوقفوا عن الاستيطان في العراق منذ الألف الأول قبل الميلاد . لكن مع ذلك فان بعض القوميين التركمان (الطورانيين) لا يتوانون عن التنكر لأي ارتباط بالعراق والحديث عن تركيا «الوطن الأم»(70) ! متناسين الحقيقة التالية المضادة لفهمهم القومي : ان الشعب التركي الحالي في تركيا ليس له أية علاقة بشعوب تركستان الأسيوية ولا يحتفظ منها بغير اللغة . باعتراف جميع الباحثين أن الشعب التركي الحالي هو خليط من سكان الأناضول القدماء من حيثيين وليديين وإغريق وأرمن ، بالاضافة الى البلقان والعرب والأكراد والقفقاس وغيرهم من الجماعات التي تشكلت منها الامبراطورية العثمانية خلال خمسة قرون من التمازج والاختلاط في ظل سيطرة أقلية محاربة من القبائل التركستانية التي نجحت بفرض الاسلام ولغتها التركية رغم ذوبانها البدني والحضاري في الجماعات ا لأخرى(71) .

تجربة تركيا تمنحنا أمثلة تكشف عن مدى سذاجة الادعاءات القومية العرقية . إن (حزب الاتحاد والترقي) الذي يعتبر أول الأحزاب القومية التركية التي نبذت الانتماء العثماني الاسلامي ودعت الى «الأمة الطورانية» ونقاء العرق التركي ؛ إن قادة هذا الحزب ومؤسسيه جميعهم ليس فيهم حتى واحد يحمل «الدم التركي النقي» : أولهم من أصل بولوني اعتنق الاسلام ، واثنان يهود ، وآخر بلغاري غجري اعتنق الاسلام ، والأخير نصفه شركسي ونصفه مجري»(72) .

طبعاً مثل هذا الميل للبحث عن أصول خارجية و«وطن أم» غير العراق يجد تبريره

وحجته في تأكيد العروبيين على الأصل الحجازي اليمني (العدناني القحطاني) للعراقيين الناطقين بالعربية .

* رغم أن هذه «العقدة الايرانية» تخص العراق والعراقيين قبل كل شيء ، إلا أنها أيضاً شملت «برحمتها» جميع الطوائف الشيعية في المنطقة العربية : سوريا ولبنان وشرق السعودية والبحرين والامارات وعمان واليمن . بالاستناد ال هذه العقدة تستمر تغذية تهمة «الزندقة والشعوبية والعمالة لايران» ونزع الوطنية عن أي تحرك سياسي أو فكري أو اجتماعي يقوم به الشيعة ، وتبرير عزلهم واضطهادهم السياسي والاجتماعي . وهذه التهمة من الشيوع بحيث يتبناها مثقفون وسياسيون بعيدون جغرافياً ووطنياً عنها ، كما في مصر والمغرب العربي حيث تخلوا هذه البلدان من أية طوائف شيعية ، بالاضافة الى بُعدها الجغرافي عن ايران . مثلاً ، لا زالت حتى الآن الكتب المدرسية الليبية تعتبر التشيع من «معتقدات الفرس السابقة . . ومأوى يلجأ اليه كل من أراد هدم الاسلام لعداوة وحقد ، ومن كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية وهندية . .»(73)! هكذا إذن ، باسم النقاء العروبي ،يتم احتساب التشيع واليهودية والنصرانية والهندية بالاضافة الى الزرادشتية ، جميعها على الفرس! ثم يأتي المفكر المغربي (محمد عابد الجابري) ، ليحتسب بكل بساطة التشيع العراقي والعربي على «الاشراق الفارسي» ، واعتبر تيار التشيع في الاسلام نقيض العقلانية وممثل لما أسماه «بالعقل المستقل»(74) .

على هذا المنوال سنجد في الغالبية الساحقة من الكتب العربية التي تتطرق للشيعة باعتبارهم «فرس مجوس» . كما يقول (الدكتور عبد الله الغريب) في كتابه الدعائي الشهير الذي مولته الحكومة العراقية ، والذي طبع أربعة مرات خلال بضعة سنوات ، وهو بعنوان (وجاء دور المجوس) ، يقول هذا الدكتور : «نحن نعلم أن رفع الشيعة لشعار آل البيت وعصمة الأئمة هو في أصله معتقد مجوسي . .»(75) . وكلنا نعلم أن اهل بيت النبي محمد واحفاده الأئمة هم عرب وليسوا ايرانيين! مع الشيعة ، يحتسب مؤرخنا (الدكتور) على «الفرس» معظم المذاهب والحركات التي لها صلة ما بالتشيع : الدروز والنصيريين والاسماعيليين والحمدانيين (وهؤلاء كلهم في العراق والشام) ، ثم الأغالبة والأدارسة والموحدين (وهؤلاء كلهم في المغرب) . وخصص مؤرخنا كل مقطع من كتابه البالغ (٥٠٠ صفحة) للهجوم على المذاهب الباطنية والشيعية باعتبارها كلها (فارسية خمينية)!

كتابة التاريخ الشامل والموحد أساس بناء الهوية الشاملة الموحدة

إن إشكالية العلاقة التاريخية بين العراق وايران هي «العقدة الأولى» التي ظلت تواجه بناء «الهوية الوطنية العراقية» في العصر الحديث . حول هذه «العقدة الإيرانية» تمحورت جميع مشكلات الهوية الوطنية العراقية :

* المشكلة الطائفية وتاريخ التشيع العراقي وعلاقته بالتشيع الايراني .
* المشكلة الكردية وحقيقة انتماء الأكراد الى العراق .
* مشكلة الانتماء «القومي العربي» للعراق وموقف الفئات العراقية (غير الناطقة بالعربية) مثل التركمان والسريان والصابئة واليزيدية والفيلية .
* مشكلة علاقة العراق بالجارين المنافسين والمتنافسين : تركيا وايران ، وتأثيرها المباشر على العلاقة التاريخية الخاصة مع سوريا وعموم الشام .

إن النخب العراقية لو نجحت منذ عقود في دراسة وتوضيح «تاريخ العلاقات الايرانية - العراقية» ، لساهمت في فك هذه «العقدة الايرانية» ، وبالتالي خلق الأساس لبناء هوية عراقية وطنية واضحة موحدة . إن حل هذه العقدة سوف يجنب الشعب العراقي الكثير من الصراعات القومية والطائفية وعمليات التهجير والحروب الدولية ومشاريع التقسيم وغيرها من الكوارث التي نتجت عن التمزق في الانتماء الوطني والرعب التاريخي من هذا «الخطر الايراني» .

إن من أول شروط بناء هوية وطنية لأي دولة وشعب ، هو كتابة التاريخ الوطني بصورة تعتمد المبدأين التاليين :

1 - عدم تقطيع التاريخ واهمال فترات منه والتمسك بفترات أخرى . ان تاريخ الأوطان مثل تاريخ الأفراد ، ليس من الطبيعي أبداً أن يعتقد شخص ما بأنه قد ولد منذ عشرة أعوام فقط ، بينما هو في الحقيقة قد ولد منذ ثلاثين عاماً .

2 - أن يكون تاريخ الوطن شاملاً لجميع تنوعات المجتمع . ان يتم الاعتراف باسهامات جميع الفئات اللغوية والدينية والمذهبية في صنع تاريخ الوطن . ان الهوية الوطنية الموحدة تستند أساساً على تاريخ وطني شامل وموحد يعترف به الجميع لأنه يعترف بدور الجميع في صنعه .

مشكلة الهوية التاريخية العراقية تكمن في فقدان الديمومة التوحيدية لهذه الهوية . ان التاريخ العراقي مقطع ومجزء ومشتت الى عدة فترات وأجزاء لا يربط بينها رابط . لقد تعود العراقي أن لا يشعر بأي انتماء وطني تاريخي لأية حقبة من ماضيه :

* بالنسبة للتاريخ العراقي السابق للاسلام ، مهما افتخر به العراقي ، إلا أنه في أعماقه يعرف أنه ليس له أية علاقة (عرقية قومية) مع صناع تلك الحضارة السومرية البابلية الآشورية الآرامية . العراقي (العربي) تعلم خلال أجيال أن يعتبر أجداده (قحطان وعدنان) وانه مرتبط قومياً وعرقياً بتاريخ أجداده العرب في الحجاز واليمن ، وبالتالي فان علاقته بتاريخ العراق القديم علاقة رمزية معنوية لا أكثر . أما الفئات العراقية الأخرى ، تشبهاً بالعروبيين ، فقد صنعت لها تواريخاً وأسلاف من خارج أرض العراق (أكراد آريون ميديون) ، و(تركمان طورانيون أتراك) . بقي سريان العراق هم الوحيدون الذين يشعرون بانتمائهم لتاريخ العراق السابق للاسلام . لكن المشكلة أنهم اعتبروه تاريخهم القومي الخاص بهم ولا يخص غيرهم من العراقيين . ثم انهم خلقوا قطيعة تامة مع العصور الاسلامية باعتبارها عصور عربية اسلامية لا تخص السريان المسيحيين ، رغم الاشتراك المباشر والفعال للعناصر السريانية المسيحية بصنع التاريخ الاسلامي في العراق .

* بالنسبة للعصور العربية الاسلامية وبالذات القرون الستة من الدولتين الأموية والعباسية في بغداد ، فان العراقي كذلك تعود أن لا يشعر بأي انتماء وطني خاص بهذه الحقبة . الأمر يبدو أقرب الى المفارقة ، لكنها الحقيقة . ليس هناك لدى العراقي أي شعور بأن (هارون الرشيد) عراقي أو الجاحظ أو التوحيدي أو ابن حيان أو اسحق بن حنين . هؤلاء بالنسبة للعراقي «عرب» وكفى . بالتالي فانهم لا يختلفون مثلاً عن أعلام الأندلس أو مصر أو الحجاز . بل ان العراقي (مثل كل العرب) لم يهتم أبداً إن كان (الفيلسوف الكندي) مصري أو عراقي ، المهم أنه عربي وليس فارسي !

هذه الحقيقة ليست مشكلة الشعب العراقي وحده ، بل هي مشكلة معظم الشعوب العربية . لأننا تعودنا عند قراءة تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، أن تكون الأوطان غائبة . بالنسبة للأعلام والشخصيات المعروفة ليس هناك غير انتماءات قبلية : (هارون الرشيد) عباسي قريشي عدناني عربي ، وفلان طائي ، وفلان لخمي ، وفلان خزاعي ، والكل يرجعون

للجزيرة العربية . أما الباقون من الأعلام والشخصيات غير العربية ، فانهم عموماً أعاجم غرباء مهمشي الأصول : سريان أو قبط أو يهود أو بربر ، وكل هؤلاء يتم احتسابهم بالتساوي مع العناصر الفارسية أو التركية أو الرومية وغيرها من العناصر (الغير عربية) . يمكن لمؤرخينا المعاصرين ذكر جميع الأصول الوطنية الأجنبيية ، عدا الأصول المصرية أو العراقية أو السورية أو التونسية ، خوفاً من تهمة «القطرية» ومعاداة «القومية» . (ابن خلدون) ، لأن جده ربما العاشر أو العشرين ، «قحطاني من حضرموت» فانه يبقى يماني ولا يمكن ان يقال عنه تونسي! لا أحد يقول عن (هارون الرشيد) انه عراقي لأنه هو وأبيه وجده وجد جده ، جميعهم قد ولدوا وعاشوا ونشأوا وتثقفوا في بغداد في العراق !

عكس حال البلدان العربية ، فان باقي الأوطان (غير العربية) دائمة الحضور والاعتراف من قبل مؤرخينا المعاصرين . هناك اليونان والهند وخراسان وتركستان وأرمينيا ، حتى الأندلس تذكر كانتماء وطني (ربما لأنها الآن اسبانية غير عربية!) أما (ايران) فهي الوطن الأقوى والأكثر اعترافاً من قبل جميع مؤرخينا ، إذ يكفي مثلاً أن يعتمد الخلفاء العباسيون على بعض الوزراء الذين (ربما يعتقد) أن فيهم شيء ما من أصل فارسي ، حتى يتم اعتبار العصر العباسي بكامله فارسياً ايرانياً !

هكذا اذن ، وضعتنا العروبة في مفارقة عجيبة غريبة : من ناحية لدينا أوطان لها حدود رسمية ودول معترف بها عربياً وعالمياً ، ومن ناحية ثانية أن أوطاننا هذه بلا تواريخ متميزة . الوطن الذي بلا تاريخ مثل الانسان الذي بلا ماض . . انه طفل ساذج جاهل فاقد للشخصية سهل الانقياد والتأثر بالآخرين . وهذا هو الحاصل فعلاً منذ بدايات هذا القرن وحتى الآن . المأساة الفلسطينية مثال واضح على مدى ضعف الهوية الوطنية التاريخية التي استثمرتها الصهيونية من اجل تبرير طرد الشعب الفلسطيني من ارضه : (ما دام الفلسطيني عرقياً عربي فليعد الى أرض أسلافه العرب!) لنا أمثلة كثيرة من معظم الدول العربية ، خصوصاً تلك التي فيها تنوع ديني ومذهبي ولغوي ، والعراق أكثرها تعقيداً . اننا لم نفكر حتى الآن بكتابة تاريخ بلداننا بطريقة تحترم خصوصية واهمية ومشاركة كل بلد عربي . الاعتراف بالخصوصية الوطنية التاريخية لكل بلد عربي لا يمنع الاعتراف أيضاً بأن بلدان العالم العربي تجمعها عشرات القواسم التاريخية والجغرافية والثقافية والسكانية والسياسية . كتابة التاريخ الوطني لا تتناقض بالضرورة مع كتابة تاريخ جامع لبلداننا قادر على أن يبرز

تقاربها وتشابهها وتوحدها الروحي والثقافي والسياسي والجغرافي منذ فجر الحضارة وحتى الآن . ينقصنا الاعتقاد والقبول بأن (المرحلة العربية الاسلامية) لم تنبثق من الصحراء والعدم وليست منفصلة عن المراحل التاريخية التي عاشتها منطقتنا ، بل هي تتمة لمراحل حضارية وتفاعلات سكانية ودينية وثقافية مستمرة خلال آلاف السنين ، منذ أيام البابلين والكنعانيين والفراعنة والقرطاجيين . هناك كل الشواهد المعقولة التي تساعد على كتابة مثل هذا التاريخ الشامل المتخلص من العقدة القومية العرقية الضيقة واللاإنسانية .

بالنسبة للعراق فان القطيعة مع تاريخنا (قبل الاسلامي) ، عودتنا ان نتعامل مع تراثنا الشعبي واللغوي والثقافي والفني من خلال الفهم القومي الضيق والمجزأ . كل شيء لم يثبت قدومه من الجزيرة العربة فانه تلقائياً أجنبي وعلى الأغلب أعجمي فارسي : الطبخ والثياب والغناء والآلات الموسيقية والطقوس الدينية وخصوصاً الشيعية . لم يحاول احد أن يعود الى التراث العراقي السابق للاسلام . كم تنقصنا البحوث اللغوية التي تحاول ان تجد مؤثرات اللغة (السومرية ـ الأكدية ـ الآرامية) في اللهجة العراقية الحالية . ان الجزء الكبير من مفردات اللهجة العراقية الحالية وطريقة إبدال الحروف مثل (ق تتحول ال گـ) بمعظمها من بقايا اللغة (الآرامية السريانية) الموروثة بدورها من اللغة (السومرية الأكدية) .

يمكن ان نستمر على هذا الحال لنكتشف الكثير الكثير من الموروثات الفنية والأدبية والأسطورية والدينية والتقاليد الشعبية والحرفية والهندسية . الكثير من الباحثين تحدثوا عن الموروث الفارسي والهندي والعربي في حكايات الف ليلة وليلة ، دون محاولة البحث عن الموروث العراقي القديم في هذه الحكايات ، بالاضافة الى مورونات الشام ومصر : أليس من المعقول مثلاً ملاحظة تأثير أسطورة گلگامش ورحلاته الشهيرة في رحلات السندباد البحري؟ نفس الشيء يمكن أن يقال عن التقاليد والطقوس (الشيعية) التي احتسبت جملة وتفصيلاً على الفرس : أليس من المعقول القيام بمحاولة الربط بين المأساة الحسينية ومأساة تموز ووسيطهما المسيح المصلوب . . ألا من رابط بين رمز المرأة المقدسة في (عشتار) و(مريم العذراء) و(فاطمة الزهراء) . . هل هي صدفة أن يضيف العراقيون لقب (الزهراء) الى (فاطمة) من دون أية علاقة مع ميراث معبودتهم عشتار (إلهة كوكب الزهرة)؟

على هذا الأساس فانه أمام الباحثين العراقيين والعرب مساحات شاسعة من البحث

التاريخي العقلي لم تطأها الأقلام التي ظلت بمعظمها مطوقة ومحصورة بتقاليد الفهم العرقي القومي البيولوجي الخانق للحقيقة العلمية والخيال الانساني المبدع .

طيلة دراستنا هذه تحدثنا عن إشكالية «الهوية الوطنية التاريخية» . لكن بالحقيقة ثمة إشكالية أخرى معروفة لا تعني العراق وحده بل تعني جميع بلدان العالم الثالث ، تتمثل بالتمزق الطبيعي في الذات الفردية والجماعية بسبب عملية التحديث والتأثيرات الحضارية الكاسحة القادمة من الغرب . ومشكلة الحداثة هذه الشهيرة بـ «عقدة الخواجة» ، انها وحدها كافية للتأثير علي كل تفاصيل الحياة والفكر والممارسة وخلق التمزقات الاجتماعية والتوترات السياسية . لكن «مشكلة الحداثة» هذه تصبح أعقد وأصعب عندما تحل في مجتمع يعاني أساساً من التمزق بسبب «ضعف الهوية الوطنية التاريخية» .

يعني هذا ان العراق والكثير من البلدان العربية تعاني من هاتين «العقدتين» بآن واحد .

ان حل «عقدة الحداثة» يتطلب الكثير من الخطوات الحياتية والتربية المستمرة والدائمة التجدد والتطبع لاشكاليات الحداثة المعقدة والمتغيرة . لكن حل «العقدة الوطنية التاريخية» أسهل بكثير ، لأن الأمر لا يتطلب غير قناعة وإرادة النخبة الوطنية التي تقرر ان تكتب تاريخها بصورة انسانية ووطنية ، وتعيد النظر بمناهج التربية الوطنية . ان بناء «الهوية الوطنية» سوف يساعد كثيراً على مواجهة «مشكلة الحداثة» ، لأن «الهوية الوطنية» أشبه بالخلايا الدفاعية في ذات الوطن ، إذا كانت قوية وواضحة وشاملة فانها تساعد الجسم الوطني على تجميع قواه واكتساب ثقته بنفسه من اجل مواجهة عواصف الحداثة ومتغيراتها اليومية الكاسحة للأسس الثقافية والدينية والسياسية .

ان بناء «هوية وطنية» مستقرة وواضحة تتفق عليها جميع فئات الشعب ، ، قضية شاملة وعامة تخص جميع الأوطان . معاينة سريعة لخارطة العالم تبين لنا ان الأوطان المستقرة القوية هي الأوطان التي تمكنت من انجاز مهمة بناء الهوية . ان ضعف الهوية الوطنية لأي شعب يؤدي الى ضعف الشخصية الاجتماية والفردية وكثرة التوترات السياسية وسيادة العنف وديمومة الدكتاتورية .

ان الدافع الاول للجوء للدكتاتورية هو ضعف القاعدة الاجتماعية للفئة الحاكمة ، بسبب الاعتماد على أقلية لا تمثل الا جزءاً من الشعب : تجمع عشائري أو طائفي أو ديني أو

مناطقي أو سياسي ، أو كلها معاً مثل حالة العراق! من اجل التعويض عن ضعف القاعدة الاجتماعية للسلطة يتم الاعتماد على الاجهزة المخابراتية والحزبية القمعية . بقدر ما تتمكن الدولة من تمثيل مختلف الفئات الدينية والمذهبية واللغوية والمناطقية ، بقدر ما تضطر بدرجة أقل لاستعمال القوة في ديمومة سيطرتها . ان الديمقراطية لا تقوم الا في الدولة القوية ، والدولة لا تكون قوية إلا بمدى قدرتها على تمثيل أوسع قاعدة من فئات الوطن ، والدولة لا يمكنها ان تمثل كل تنوعات المجتمع من دون امتلاك أساس (فكري ـ تاريخي ـ تربوي) وطني وشامل متفق عليه من قبل جميع هذه التنوعات مهما اختلفت قناعاتها ومشاريعها السياسية . من دون «هوية وطنية موحدة» لا يمكن أن توجد «دولة وطنية موحدة» ، والا فان العنف البوليسي والحروب الخارجية هي الوسيلة الوحيدة لديمومة الدولة التي لا تستند على هوية وطنية متكاملة وموحدة .

ان الحاجة لبناء «هوية وطنية موحدة» ليس من امور الترف والبحث عن امجاد وهمية ، بل هي ضرورة انسانية ملحة . أية مجموعة من البشر لا يمكن ان تمضي حياتها تعيش في رقعة واحدة وتشترك في تفاصيل الحياة اليومية ، من دون حد أدنى من الشعور بالانتماء لمثال او فكرة مشتركة . حتى إن لم تكن هذه الفكرة موجودة في الماضي فانها على الأقل ستكون مشروع المستقبل . ان الشعور بالانتماء الى (ماض مشترك) يساعد على (الاشتراك في الحاضر) والاستمرار بـ (الاشتراك في المستقبل) . ليس هناك فرد او جماعة ، يختار طواعية عدم الارتباط ببلاده وبناس بلاده . انه امر قاس ومتعب ان تشعر بالأجنبية والاغتراب عن أناس تتعايش معهم كل يوم وتتصل معهم في كل شؤون الحياة اليومية ، وتشاركهم الأرض والهواء والماء والسماء . ان الانسان الذي يشعر بالشك بحقيقة انتمائه لبلاده ولناس بلاده ، أشبه بالطفل الذي يشعر بالشك بحقيقة انتمائه لعائلته . . كلاهما يعاني الغربة والاغتراب الى درجة قد تؤدي الى الدمار الذاتي أو الجنون . وهذا هو الحاصل فعلاً في بلداننا .

قائمة مصادر الفصل الثاني

1 - المطهري ، آية الله مرتضى - الاسلام وايران - ٣ أجزاء . منظمة الاعلام الاسلامي - طهران (١٣٩٠ هـ) .

2 - ابن منظور - لسان العرب - ١٥ جزء - دار صادر - بيروت ١٩٦٨ - ج٧ ص٤١١ .

3 - ابن خلدون - المقدمة - دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٨٢ - ص ٩٢٧ .

4 - البلاذري - فتوح البلدان - المكتبة التجارية - القاهرة - ص ٣٢٦ .

5 - الجاحظ - البيان والتبين - ٤ أجزاء - القاهرة ١٩٦١ - ج ٣ ص ٧١ .

6 - الطويلي ، احمد - الجاحظ - الشركة التونسية - تونس ١٩٨٧ - ص ٧ .

7 - الدوري ، عبد العزيز - التكوين التاريخي للأمة العربية - مركز دراسات الوحدة العربيية - بيروت ١٩٨٦ - ص ٦٣ . نشير الى أهمية الفصل الثاني الذي يتحدث بصورة معقولة رغم بعض «التفريس» ، عن الموالي وعملية التعريب التي جرت خصوصاً في العراق .

8 - دلو ، برهان الدين - مساهمة في اعادة كتابة التاريخ العربي - دار الفارابي - بيروت ١٩٨٥ - ص١٦٦ .

9 - نفس المصدر - الفصل الثامن .

10 - عمر ، فاروق - التارخ الاسلامي - دار اقرأ - بيروت ١٩٨٥ - ص٢٣٦ .

11 - ابن عبد ربه - العقد الفريد - لجنة التأليف - القاهرة ١٩٤٨ - ج٣ ص٤١٤ .

12 - المبرد - الكامل في اللغة والأدب - القاهرة ١٣٦٥ هـ - ج١ ص٣١٤ .

13 - الأصبهاني ، أبو الفرج - الأغاني - ٢٤ جزء - دار الكتب - القاهرة - ١٩٧٤ - ج١٤ ص٢٨٨ .

14 - ابن منظور - مصدر سابق - مادة عرب .

15 - فيصل ، شكري - المجتمعات الاسلامية - دار العلم - بيروت ١٩٨١ - ص ١١١ .

16 - ابن النديم - الفهرست - مكتبة خياط - بيروت - ص ٢٠١ وبعدها .

17 - الشرقاوي ، عبد الرحمن ، أئمة الفقه التسعة - دار غريب - القاهرة ١٩٩٥ - ص ٥٦ .

18 - عن الأئمة يمكن مثلاً مراجعة نفس المصدر السابق .

19 – هويدي ، فهمي ـ ايران من الداخل ـ مركز الأهرام ـ القاهرة ١٩٨٨ ـ ص٢٠ ـ ٢١ .
20 – نوار ، عبدالعزيز ـ دار النهضة ـ بيروت ١٩٧٣ ـ الفصل السابع ، كذلك المصدر رقم ٥٣ .
21 – جانو ، أسيمة ـ التاج الايراني ـ مكتبة مدبولي ـ القاهرة ١٩٨٧ ـ ص ٤٣ .
22 – ماسينيون ـ خطط البصرة ـ المؤسسة العربية ـ بيروت ١٩٨١ ـ ص٢٨ ـ ٥٠ .
23 – فيصل ، شكري ـ مصدر سابق ـ ص ٢٠٦ .
24 – عمر ، فاروق ـ مصدر سابق ـ ص١٣٢ .
25 – عن تاريخ ايران وسلالاتها الحاكمة ، بمكن مراجعة الموسوعة الكونية الفرنسية والموسوعة الأسلامية ـ مادة ايران .
26 – العلوي ، هادي ـ شخصيات غير قلقة ـ دار الكنوز ـ بيروت ١٩٩٥ ـ فصل ١٤ .
27 – معروف ، ناجي ـ عروبة العلماء المنسوبين الى البلاد الأعجمية ـ وزارة الثقافة ـ بغداد ١٩٧٨ ـ ٣ أجزاء ـ ج١ ص ٩٧ .
28 – الترمانيني ، عبد السلام ـ أزمنة التاريخ العربي ـ الكويت ١٩٨٢ ـ ص٩٣٦ .
29 – حتي ، فيليب ـ تاريخ العرب ـ دار غندور ـ بيروت ١٩٩٠ ـ ص٣٥٩ .
30 – حتي ، فيليب ـ موجز تاريخ الشرق الأدنى ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ ص١٦٧ .
31 – فيصل ، شكري ـ مصدر سابق ـ ص ٨٢ ـ ٨٣ .
32 – أيوب ، ابراهيم ـ التاريخ العباسي ـ الشركة العالمية ـ بيروت ١٩٨٩ ـ ص ٢١٦ .
33 – فيصل ، شكري ـ مصدر سابق ـ ص ٢٣٣ .
34 – عن الترجمة من الفارسية ، راجع مثلاً :
ـ ابن النديم ـ مصدر سابق ـ ٢٤٤ .
ـ عبد الباقي ، أحمد ـ معالم الحضارة العربية ـ مركز دراسات الوحدة ـ بيروت ١٩٩١ ـ الفصل الخامس .
35 – قنواتي ، جورج ـ المسيحية والحضارة العربية ـ المؤسسة العربية ـ بيروت ـ ص١٠٣ .
36 – أيوب ، ابراهيم ـ مصدر سابق ـ ص ٢١١ .
37 – بخصوص الوضع الحضاري للمنطقة قبل الفتح مباشرة ، راجع مثلاً :
ـ حتي ، فيليب ـ تاريخ سوريا ـ دار الثقافة ـ بيروت ١٩٧٢ .
ـ النشا ، مصطفى ـ نحو تاريخ جديد للفلسفة القديمة ـ وكالة زوم برس ـ القاهرة ١٩٩٢ .

- دمشقية ، غسان - لاهوت التحرير - دار الأهالي - دمشق ١٩٩٠ .

- الجابري ، محمد عابد - بنية العقل العربي - المركز الثقافي - الدار البيضاء ١٩٨٦ (القسم الثاني فصل خاص بالعرفانية) .

38 – عن تاريخ بلدان المغرب :

- غوتيه - ماضي شمال افريقيا - دار ف - لندن ١٩٨٣ .

- المدني ، احمد - قرطاجنه في اربعة عصور - المؤسسة الوطنية - الجزائر ١٩٨٦ .

39 – عن وضع سريان العراق :

- بيغوليفسكا ، نينا - ثقافة السريان - دار الحصاد - دمشق ١٩٩٠ .

- ابونا ، الأب البير - تاريخ الكنيسة السريانية - ٣ أجزاء - دار المشرق - بيروت ١٩٩٢ (ص ١٢٦ عن الملكة شيرين) .

40 – عن المانوية ، راجع مادة (Manicheisme) في إحدى الموسعات العالمية .

- ابن النديم - مصدر سابق - ص ٣١٨ .

41 – الزيات ، احمد - تاريخ الأدب العربي - دار الثقافة - بيروت ١٩٧٨ - ص ٢٣٤ .

42 – BOTTERO Jean-Initiation a l Orient ancien-Seuil-Paris 1992 p 25 35

43 – حتي - تاريخ العرب - مصدر سابق - ص ٣١٩ .

44 – شريف ، محمد - القادسية الكبرى - دار الجيل - القاهرة ١٩٨٤ - ص ١١٦ .

45 – دلو - مصدر سابق - ص ١٩٦ .

46 – زيدان ، جرجي - المؤلفات الكاملة - دار الجيل - بيروت ١٩٨٣ - مجلد ١٢ ص٣٥٦ .

47 – الترمانيني - مصدر سابق - ص ٩٧٣ .

48 – أمين ، أحمد - فجر الاسلام - الهيئة المصرية - القاهرة ١٩٩٦ - ص ١٩١ .

49 – حتي - موجز تاريخ الشرق - مصدر سابق - ص ١٨٦ .

50 – الريحاني ، امين - ملوك العرب - مجلد ٤ - ص ٣٦ .

51 – ماسينيون - مصدر سابق - ص ٧١ .

52 – فريحة ، أنيس ـ دراسات في التاريخ ـ منشورات جروس ـ طرابلس ١٩٩١ ـ ص ١٢١ .

53 – الوردي ، علي ـ تاريخ العراق الحديث ـ ٨ أجزاء ـ كوفان للنشر ـ لندن ١٩٩١ ـ الجزء الأول (المقدمة والفصل الأول) .

54 – الوردي ـ نفس المصدر ـ ج٢ ص ٢٥٩ .

55 – زين ، نور الدين زين ـ نشوء القومية العربية ـ دار النهار ـ بيروت ١٩٧٩ ـ ص ٨٦ـ٨٧ .

56 – نفس المصدر ـ ص ٧٤ .

57 – عن شيعة مكة والمدينة ، راجع :

ـ الخليلي ، جعفر ـ موسوعة العتبات المقدسة – قسم المدينة المنورة ـ دار التعارف ـ بغداد ١٩٧٠ ـ ص ٢٥٧ .

ـ الهاجر ، يوسف ـ البقيع ـ مؤسسة البقيع ـ بيروت ١٩٩٠ .

58 – BABKAHAN Al-IRAK (1970-1990) P 41.

59 – بطاطو ، حنا ـ العراق ـ الكتاب الأول ـ مؤسسة الأبحاث ـ بيروت ١٩٩٠ ـ ص ٢٠٥ـ٢٢١ .

60 – ماسنيون ـ مصدر سابق ـ لاحظ «تفريس» ابراهم السامرائي للتسميات الآرامية الشائعة في البصرة ـ ص ٧٤ـ٧٨ .

61 – بطاطو ـ مصدر سابق ـ الكتاب الأول ـ ص ٢٤٢ ـ راجع خصوصاً الفصل السابع عن «السادة» انه من اغنى وأطرف فصول الكتاب .

62 – نفس المصدر ـ الكتاب الثالث ـ ص ١٣ و٣١٣ .

63 – مصدر رقم (٥٨) ص ٨٣ .

64 – نفس المصدر ـ ص ١٠٤ .

65 – الجواهري ، محمد مهدي ـ ذكرياتي ـ دار الرافدين ـ دمشق ١٩٨٨ ـ ص ١٦٣ .

66 – نفس المصدر ـ ص ١٤٧ .

67 – حول نظريات أصل الأكراد ، راجع مثلاً :

ـ الحاج ، عزيز ـ القضية الكردية في العشرينات ـ المؤسسة العربية ـ بيروت ١٩٨٤ ـ محلق تعريفي .

ـ الموسوعة الاسلامية باللغة الفرنسية أو الانكليزية ـ مادة (KURDE) .

68 – عن دور الشعوب القادمة من زاغاروس في تاريخ العراق القديم ، راجع أي كتاب عن تاريخ العراق ، مواد : (غوتيون ، كاشيو ، حوريون) منها مثلاً :

- دلو - مصدر سابق .

كذلك :

- ROUX GEORGES - LA MESOPOTAMIE-SEUIL-PARIS 1985

69 – راجع مثلاً :

جريدة المؤتمر العراقية - لندن - عدد ٥٧ - ١٩٩٦ - مقالة (سامي شورش) عن اليزيدية .

70 – راجع مقالتنا عن (الهوية العراقية) - جريدة القدس - 23-2-1995 .

71 – فارج ، فيليب - المسيحيون واليهود في التاريخ العربي والتركي - سينا للنشر - القاهرة ١٩٩٤ - الفصل السادس .

72 – زين - نشوء القومية - مصدر سابق - ص ٨٦ .

73 – هويدي ، مصطفى علي - تاريخ الوطن العربي وحضارته - اللجنة الشعبية للتعليم - ليبيا ١٩٩٢ - ص ٢٣٣ .

74 – راجع الرد الجيد والمفصل في كتاب :

- طرابيشي ، جورج - مذبحة التراث - دار الساقي - بيروت ١٩٩٣ - ص ٧٣-١٢٩ .

٧٥ – الغريب ، عبد الله - وجاء دور المجوس - بلا دار نشر - طبعة رابعة ١٩٨٥ - ص ٥٦ .

ملاحق معلوماتية
خاصة بالعلاقات الحضارية
التاريخية بين العراق وايران

خارطة التقسيم الامبراطوري قبل الإسلام

الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية الساسانية قبل الفتح الاسلامي . لاحظ أن الامبراطورية الفارسية كانت تشمل كل من الرافدين وارمينيا والقوقاس وأفغانستان ومعظم تركستان أما البيزنطية فتشمل كل السواحل الشرقية من البحر المتوسط

(المصدر : Histoire du Moyen-Orient-Bernard Lewis)

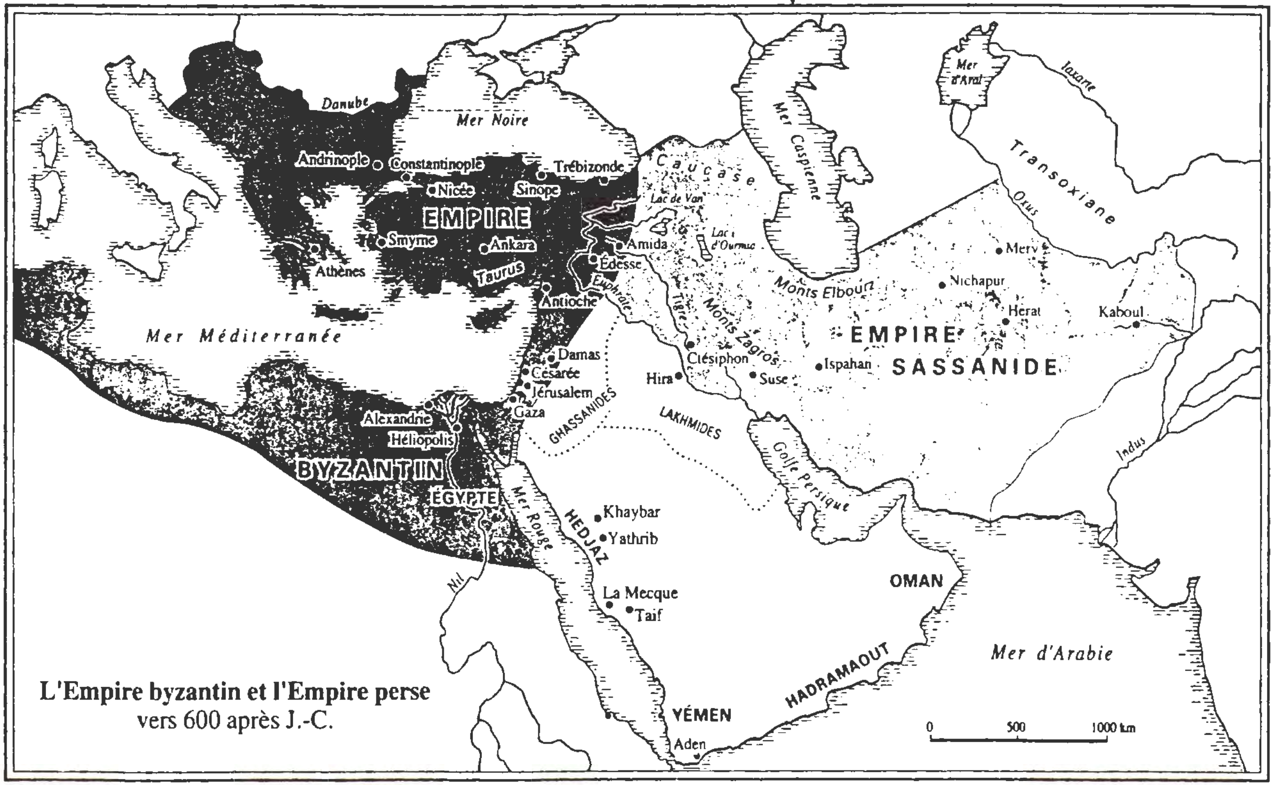

L'Empire byzantin et l'Empire perse
vers 600 après J.-C.

خارطة القسم الشرقي (الآسيوي) من الامبراطورية العباسية

هذه الخارطة تبين المناطق الآسيوية التابعة للخلافة العباسية علماً بأن إيران في هذه الفترة ليس لها وجود ككيان موحد بل منقسمة الى عدة أقاليم مثل (فارس) وطبرستان وأذربيجان واقليم الجبال أما خراسان فكانت تشتمل على أجزاء من ايران وأفغانستان الحالية واقليم خوزستان (الأحواز ـ عربستان) فكان اقليماً خاصاً ليس له أية علاقة بايران وهو أقرب الى العراق بحكم اشتراكه بالسهل والطبيعة وكذلك التكوين السكاني والحضاري الذي كان ولا زال نفس الموجود في جنوب العراق . .

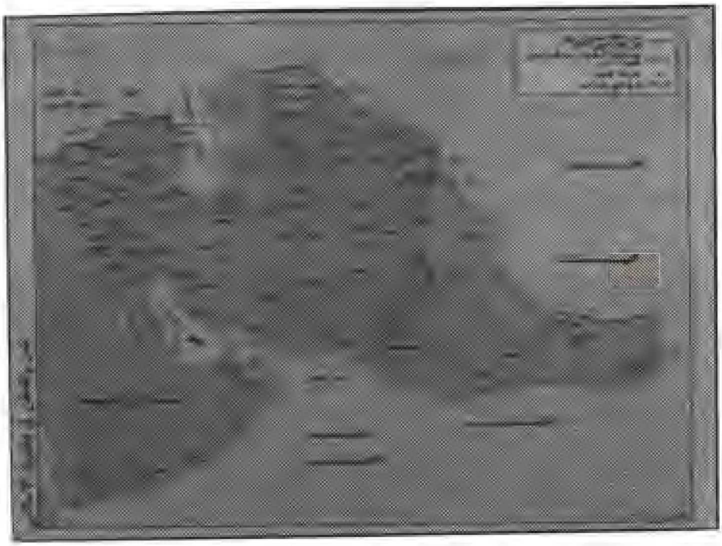

من كتاب «الأطلس العربي ـ لجنة اعداد ـ ص 99 »

خارطة العراق والشام في العصر العباسي

هذه الخارطة التي تمثل تقسيم المنطقة في القرن الثالث الهجري وهي تكشف عن الأمور التالية :

- ان العراق كان مقسوماً الى ولايتين : اقليم السواد الذي يبتدىء من الخليج ويشتمل على اجزاء من الأحواز (خوزستان) وهي المحمرة وعبادان التابعتين الآن لايران ، وكذلك يشتمل على الكويت . وفي اقليم السواد سامراء والأنبار ويشتمل من الشرق على مناطق كثيرة تابعة الآن الى ايران . .

- أما الاقليم الثاني فهو اقليم الجزيرة الذي يشتمل على كل شمال العراق الحالي عدا منطقة السليمانية (شهرزور) التي كانت ضمن اقليم الجبال (جبال زاغاروس) والذي يسمى أيضاً (العراق الأعجمي) .

- ويلاحظ شمول اقليم الجزيرة لكل شمال الرافدين الجغرافي التاريخي حتى منابع دجلة والفرات . وقد اقتطعت تركيا هذه المناطق بعد الحرب العالمية الأولى (ديار بكر ، وماردين ونصيبين وحران) بعد أن تم تكريد السكان وتتريكهم . علماً أن اقليم الجزيرة هذا كان يتراوح في تبعيته لبغداد أو الشام ، حسب الظروف .

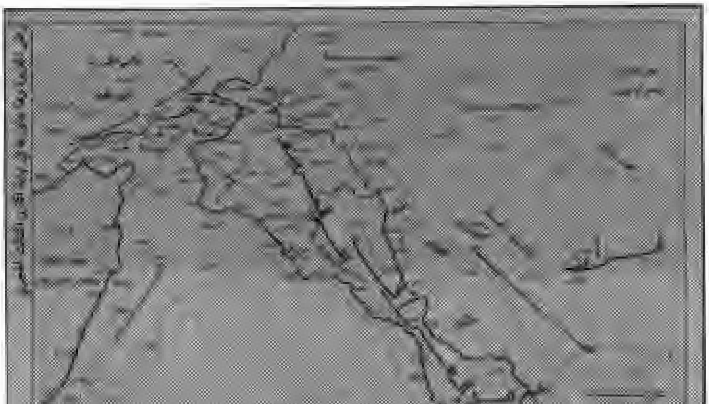

عن كتاب «الأطلس العربي ـ لجنة اعداد ـ ص 98 »

إحصائيات سكان المشرق المسيحيين أثناء الفتح الاسلامي

هذان الجدولان يبينان الحقائق التالية :

- ان سكان الجزيرة العربية زمن الفتح لا يتجاوزن المليون وهناك تقديرات قصوى لا تتجاوز المليونين .

- ان سكان العراق يتجاوزون التسعة ملايين ، وهناك تقديرات دنيا تصل الى سبعة ملايين . بالنسبة لسوريا الطبيعية (الشام) فانها تبلغ اربعة ملايين وقد تتدنى الى ثلاثة ملايين في تقديرات اخرى . والغريب ان مصر كانت عند الفتح في حالة سكانية كارثية بسبب الظروف الطبيعية والصحية والاقتصادية التي سادت تلك القرون السابقة للفتح ، ويبلغ العدد أقل من ثلاثة ملايين وقد يرتفع الى اربعة ملايين حسب تقديرات اخرى .

- ان اكثر من (90٪) من سكان الرافدين وسوريا ومصر كانوا على الديانة المسيحية مع نسبة من اليهود لا تتجاوز الـ (5 ٪) .

ويمكن ان نفترض بصورة اكيدة وجود اقليات اخرى من الصابئة والمانوية في العراق ، اضافة الى أقلية من (المجوس) بسبب وجود الاداريين والدهاقنة (مسؤولي الضرائب) الايرانيين أثناء السيطرة الساسانية قبل الفتح . ان وجود 90 ٪ من المسيحيين في العراق يؤكد على ضآلة الفرس (المجوس) الذين استوطنوا في العراق . ولكن يمكن ان نفترض ان الكثير من الايرانيين والآسيويين استوطنوا في العراق وتزاوجوا مع العراقيين واندمجوا فيهم واعتنقوا ديانتهم وتكلموا لغتهم الآرامية ، وهؤلاء (الأعاجم) اعتبروا سرياناً عراقيين خارج نطاق الوجود الاداري الايراني . نفس الحالة يمكن افتراضها بالنسبة للوجود (البيزنطي) في سوريا ومصر :

ملاحظة للقارىء ، نرجو إضافة ثلاثة اصفار الى كل رقم في الجدول . مثلاً رقم (1000) يعني مليون .

الطوائف في الأزمنة الأولى للخلافة العربية
(بالآلاف)

الاقليـــــم	اجمالي السكان	المسيحيــون	اليهـــود
شبه الجزيرة العربية	1000	100	10
سوريا	4000	3960	40
بلاد الرافدين	9100	9009	91
مصر	2700	2673	27
الاجمالي	16800	15742	168

السكان بحسب الطائفة في سوريا ، من عام 633 الى عام 1580
(بالآلاف)

السنــــــة	الاجمالي	المسلمون	المســيحيون	اليهـــود
633	4000	0	3960	40
730	4000	250	3710	40
900	4000	2000	1960	40
1199	2700	n d	n. d.	n. d
1343	1200	1068	120	12
1350	1000	890	100	10
1580	1419	1291	115	13

من كتاب «المسيحيون واليهود في التاريخ الاسلامي ـ فارج وكرباج ـ ص 44 - 45 »

تعريب وأسلمة سكان العراق الآراميين (الأنباط)

إن هذه المقاطع من كتاب المؤرخ (الدوري) تكشف عن إن سكان العراق عند الفتح الاسلامي كانوا يتكلمون الآرامية من الشمال حتى خليج البصرة . ويبدو أن عملية التعريب ونشر الاسلام بدأت في الحواضر التي استقرت فيها الجيوش العربية مثل البصرة والكوفة والموصل ، لأن سكان هذه الحواضر اضطروا بسهولة الى التخلي عن ديانتهم المسيحية النسطورية وتبني اللغة العربية وحمل القاب عربية من اجل تسهيل حصولهم على امتيازات الدولة الاسلامية والمشاركة في الجيوش والحصول على الغنائم . وتبين المصادر التاريخية ان سكان الارياف بقوا عدة قرون بعد الفتح على ديانتهم المسيحية ولغتهم الآرامية . وقد أطلق العرب على الآراميين العراقيين والسوريين تسمية : (نبط ، أنباط)

وتكشف لنا هذه المقاطع عن ان الكثير من العراقيين ادّعوا بالنسب الفارسي من أجل إغاظة الفاتحين العرب الذين استغلوا الفلاحين العراقيين واستولوا على أراضيهم وفرضوا «الجزية» حتى على الذين اعتنقوا الاسلام . ثم ان كلمة «فارسي» في ذلك الوقت لم تكن تعني أبداً قومية معينة بل كانت مثل كملة «عثماني» و«بيزنطي» أي جميع الشعوب التي كانت خاضعة للامبراطورية الفارسية من ايرانيين وتركستان وارمن وآراميين :

«وكان الفلاحون في القرى في صنف الأحرار نظرياً ، إلا أنهم في الواقع لم يكونوا دائماً كذلك وكانوا يؤلفون جزءاً كبيراً من الشعب ويتكلمون الآرامية مع العربية .

ويستعمل لفظ (النبط) للاشارة الى الفلاحين الذين يتكلمون الآرامية في العراق وخصوصاً في منطقة البطيحة . وقد أوضح ابن الكلبي ان العرب كانوا يطلقون لفظ (النبط) على سكان العراق الذين لم يكونوا رعاة ولا جنوداً ويسمى المسعودي فلاحي العراق (النبط) و(السريان) . . ويصيب المسعودي حين يعتبر النبط سكان العراق القدماء ، وأن الفرس أضعفوهم . ثم يذكر أن النبط دخلوا في جملة الفرس «وانتسبوا اليهم» ، وانه لما حصلت الفتوحات الاسلامية ذهب بعض النبط الى الانتساب للفرس «وأنفوا من النبطية لزوال العز الذي كان فيهم ، وانتمى جلهم الى ملوك الفرس» . ثم يقتبس شاعراً يتساءل :

«وأهل القرى كلهم يدعون بكسرى قباذ فأين النبط؟»

ليظهر بذلك أن عامة القرويين من النبط . وأخيراً يتحدث عن قرى نبطية قرب سامراء .

ولقد قامت الطبقة المتوسطة من الآراميين بدور مهم في الحركة الثقافية في العراق، وأخرجت عدداً من الأطباء الكبار، والفلكيين والعلماء والمترجمين. وقد كانت حرّان المركز الأول للثقافة الآرامية وفيها بقية الدين الصابئي القديم الذي يدور حول عبادة الكواكب. وكانت هناك مجموعات كبيرة نسبياً من الآراميين المسيحيين في تكريت والرقة وقرب الموصل.

وكان فلاحو السواد فقراء جداً يقول المقدسي في معيشة أهل البطيحة: «عيش ضيق، إدامهم السمك، وماؤهم حميم»... ثم يصف النظرة الاجتماعية اليهم فيقول: «وعقلهم سخيف ولسانهم قبيح» والكثير من هؤلاء الأنباط كانوا من الأقنان ويعيشون في القرى ويعتبرون جزءاً من الأرض. وكان هؤلاء في الأصل من الفلاحين النبط الأحرار، ليس لهم ما يملكون إلا مقدرتهم على العمل. وعندما تنتقل ملكية الأراضي التي يشتغلون عليها، سواء أكان ذلك بالفتح أو بالشراء، كانوا يبقون على الأرض، كان السادة الجدد يعتبرونهم جزء من ملكيتهم الجديدة ويعاملونهم معاملة العبيد. وقد حصل هذا قبل الاسلام، وجاء الاسلام فألغى الفوارق الطبقية بين المغلوبين، وحرر العاملين في الأرض، إلا أن قسماً منهم بقوا عبيداً في الواقع».

من كتاب «تاريخ العراق الاقتصادي ـ عبد العزيز الدوري ـ ص 31-32 و 76-77.

خارطة الأحواز التابعة حالياً لإيران

هذه خارطة منطقة الأحواز: (عربستان ـ خوزستان). علماً بأن الأحواز ظلت دائماً جزءاً مستقلاً سياسياً عن العراق ولكنه تابع حضارياً وسكانياً للعراق. ويكمن السبب في أن هذه المنطقة هي امتداد جغرافي طبيعي لسهل جنوب العراق.

منذ فجر التاريخ كانت فيها الحضارة العيلامية التي ظلت خلال ألفي عام تابعة حضارياً ودينياً للسومريين والساميين علماً بأن العيلاميين شعب (آسياني) مثل السومريين وهم سكان المنطقة منذ التاريخ المجهول. بعدها انتشرت المسيحية النسطورية بين سكان الأحواز وكذلك اللغة الآرامية العراقية، وتكونت فيها مدينة (جندشابور) الشهيرة بكونها مركزاً علمياً حضارياً للثقافة السريانية المسيحية وكذلك الإغريقية. وكان الاسم السرياني لهذه المدينة هو (بيت عابات ـ بيت العيبة أو الهزيمة). بعد الفتح الاسلامي انتشرت اللغة العربية وأصبح

السكان جزءاً من سكان وعشائر جنوب العراق لكنها الآن ومنذ عام (1925) أصبحت جزءاً تابعاً لايران ، وتعاني من عمليات التفريس المستمرة .

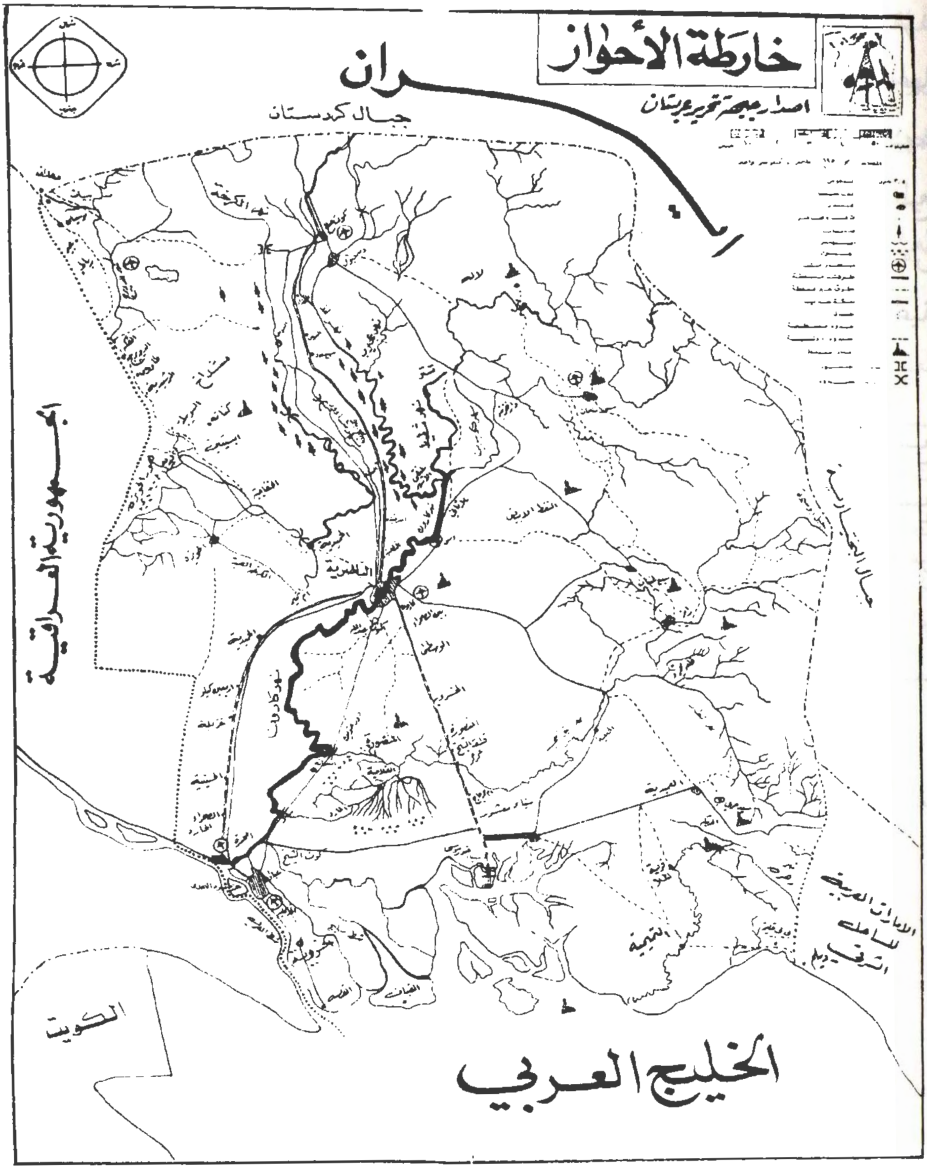

التشيع العراقي، وريث أديان الرافدين

ثمة اصرار غريب من قبل ورثة التشويه الطائفي العثماني، على اعتبار التشيع حالة فارسية أولاً وأخيراً. والحقيقة التي أشرنا إليها سابقاً، ان الهدف الأول والأخير من كل عملية التشويه والتفريس التي جرت لكل تاريخ العراق منذ سقوط بابل وحتى الآن، هو: «تفريس الشيعة» ونفي الانتماء الوطني عنهم، خدمة لأهداف الدولة العثمانية في صراعها ضد ايران الشيعية. ولقد نجح هؤلاء القوميون المتعثمنون في غايتهم جل نجاح. لكنهم لسذاجتهم وانقيادهم للميراث العثماني الطائفي، لم يدركوا، انهم بعملهم هذا قاموا بتقطيع الوطن وتاريخه وهويته الجامعة. وهم هيأوا بذلك لعزل الدولة عن الأغلبية الساحقة من مواطنيها ودفعها لممارسة الدكتاتورية كوسيلة وحيدة لتعويض فقدان القاعدة الاجتماعية الممثلة لكل مكونات الأمة.

إن معرفة جذور التشيع العراقي تتطلب البحث في تاريخ المجتمع الذي صنع هذا التشيع العراقي. لو أخذنا نماذجاً من الحواضر المعروفة التي شكلت وتشكل حتى الآن مراكز التشيع في العراق، لاكتشفنا ان التشيع العراقي نشأ وترعرع في بيئة عراقية أصيلة بعيدة عن المؤثرات الفارسية المزعومة. وان التشيع العراقي ما هو إلا خلاصة لتراكم التجارب الدينية في بلاد الرافدين، منذ ديانة الكواكب السومرية السامية حتى المانوية البابلية والمسيحية النسطورية العراقية.

مثلاً، مدينة «النجف» المرتبطة بحاضرة الحيرة والكوفة، هذه المدينة تقع ضمن منطقة بابل الكبرى حاضرة الرافدين التاريخية، والتي ظلت مقدسة لدى العراقيين حتى بعد دمارها. لهذا أطلق النساطرة تسمية (كنيسة بابل) على كنيستهم الكبرى، وكذلك فعل المانوية. لقد ورث الشيعة هذا التقديس لبابل وعبروا عنه من خلال اختيارهم للنجف كمركز للمرجعية العليا والحوزة العلمية الأولى. لم يكن صدفة أن يكون قبر الامام علي في النجف. وهو الذي اختار الكوفة (المحاذية تماماً للنجف وبابل) عاصمة للخلافة الاسلامية. ان تأثير ميراث بابل في الشيعة ليس افتراضاً سطحياً، بل هناك دلائل كثيرة تؤكد هذا، نورد منها على سبيل المثال: حسب ياقوت الحموي في (معجم البلدان) ان الشيعة يعتقدون أن

النبي ابراهيم أتى من بابل واشترى النجف وقال أنه سيُحشر مع أولاده في ذلك الموضع سبعون ألف شهيد[1] . إن طقوس عاشوراء تذكر بطقوس أهل الرافدين بالاحتفال بغياب تموز في ظلمات الأرض ، ثم بطقوس النساطرة بالاحتفال بذكرى صلب المسيح ، وطقوس المانوية بالاحتفال بصلب ماني البابلي . أليس عاشوراء مقتبس من اسم عشتار امرأة تموز . في عاشوراء «كانت النساء يمشين بشعور منثورة وأوجه مسودة وملابس ممزقة يلطمن الخدود ويولولن حزناً على الحسين الشهيد»[2] ، ونساء بابل كن يفعلهن نفس الشيء حزناً على هبوط تموز الى العالم السفلي . و«عاشوراء كان يُعرف بكونه اليوم الذي تسقط فيه أول مطرة في السنة ، والذي خلق فيه آدم وحواء والسماء التاسعة ، ومنحت فيه الرسالة المقدسة لأرواح العشرة آلاف رسول»[3] .

الذي يؤكد لنا أيضاً أن حواضر الشيعة المعروفة ، لم تكن فارسية رغم سيطرة الفرس على العراق لعدة قرون بل كانت عراقية بناسها ولغتها وديانتها ، ان هذه الحواضر كانت مراكز مسيحية نسطورية قبل الاسلام وظلت كذلك خلال عدة قرون بعد الاسلام . لو أخذنا النجف مثلاً فإن هذه المدينة ظلت لقرون بعد الاسلام تزخر بالنشاط النسطوري السرياني . المصادر التاريخية تتحدث عن وجود عدة أديرة مسيحية في النجف : الحريق ، الاسكون ، هند ، عبد المسيح ، العذارة ، مارت مريم ، ودير حنا الكبير ، وغيرها من الأديرة[4] . ويذكر الشابشتي : «أن النصارى يخرجون يوم عيدهم (السكورة ـ أي الشكورة من السرياني) الى القبة في أحسن زي ، عليهم الصلبان ، بأيديهم المجامر ، والشماسة والقسان معهم يقدسون على نغم واحد متفق الألحان ويتبعهم خلق كثير من متطربي المسلمين وأهل البطالة . .»(5) .

وكانت النجف المرتبطة بحاضرة الحيرة والكوفة معروفة بحسن حاناتها وجودة خمرتها ، بحيث أنه يحكى أن الخليفة الوليد بن يزيد أتى من دمشق عبر صحراء السماوة مخصوصاً ليتذوق خمرة النجف والحيرة . وكان في الحيرة أربعة حانات شهيرة ، هي حانة عون ، وحانة دومة (وهي سيدة مسيحية معرووفة تغزل بها اسحاق الموصلي وأبو نواس) ، ثم حانة شهلاء اليهودية ، وكان حنين الحيري وهو نصراني من أشهر مطربي الحيرة وله أغاني عن النجف (النجاف بالسرياني)(6) .

أما سامراء (شمال بغداد) ، حاضرة الشيعة المهمة ، فانها كانت كذلك منطقة مسيحية تحتوي العديد من الأديرة : سامراء ، مار ماري ، السوسي ، باشهر ، عبدون ، صباعي ،

العذارى ، العلث ، مار جرجيس(7) . واسم (سامراء ، أو شامرا) هو اسم آرامي قديم ، وليس له علاقة بـ «سر من رأى» حسبما أشيع فيما بعد . إن دير سامراء الموجود منذ القدم قد اشتراه المعتصم وكون حوله مدينته وحول الدير الى مركز بيت المال(8) . وكان أسقف سامراء زمن الخليفة المتوكل هو «قيوم» ، وفي زمن المعتمد اسمه «ايشو عزخا» . لقد استمرت الأسقفية في سامراء حتى زمن المغول ، وفي زمن اباقاخان ابن هولاكو كان مطران سامراء «بريخشوع» . وقد لعب الآراميون دوراً في بناء سامراء ونقل تراثهم الهندسي البابلي ، فان مأذنة سامراء الشهيرة (الملوية) التي بُنيت زمن المتوكل ، قد أشرف على بنائها المهندس دليل بن يعقوب النصراني(9) ، الذي استوحاها من الزقورات السومرية البابلية . . نضيف الى هذا ان أسماء الغالبية الساحقة من المدن والقرى العراقية (كذلك مدن وقرى الشام) ، هي أسماء آرامية : مثل الكوفة (من نهر الكوثا) ، وكربلاء (كرب ايل ـ خربة الله ـ خربة بمعنى قرية كما هو شائع حتى الآن في الشام) . نفس الشيء بالنسبة لمعظم المدن العراقية : بعقوبة وديالى والبصرة (بصرايا) وميسان والمدائن ونينوى وتكريت وكركوك واربيل (اربع ايل) . .

أخيراً ، يمكننا تسجيل بعض الملاحظات التي تدل على علاقة التشيع بالأديان العراقية والسامية السابقة :

- تكرار الرقم (١٢) المقدس : الابراج البابلية (١٢) ، تلاميذ المسيح وكذلك تلاميذ ماني (١٢) ، والأئمة المقدسين لدى الشيعة (١٢) .
- ذكرى غياب تموز في ظلمات الأرض ، وذكرى صلب المسيح وصلب ماني البابلي ، وذكرى استشهاد الحسين .
- تقديس الإلهة عشتار رمز كوكب الزهرة ، وتقديس مريم العذراء ، وتقديس فاطمة ومنحها لقب «الزهراء ـ من كوكب الزهرة رمز عشتار» ، كذلك لقب «البتول» وهو كذلك لقب مريم البتول ـ أي الطاهرة .
- عودة الإله تموز كل عام رمز الربيع والخصب ، وعودة المسيح المرتقبة لدى جميع الساميين بما فيهم المسلمين وخصوصاً الشيعة . وعودة المهدي المنتظر لدى الشيعة (الإمام الغائب) ، وهذا المهدي يطلق عليه العراقيون بما فيهم السُنّة (الخُضر) .

أخيراً ، فكرة البناء الهرمي للمؤسسة الدينية الشيعية ومراتب رجال الدين المتصاعدة ،

والتي نجدها مشابهة تماماً لنظام الكنيسة النسطورية والكنيسة المانوية .

يمكن للباحث المتخصص أن يلاحظ الكثير الكثير من التفاصيل التي ورثها التشيع ، كما الاسلام بصورة عامة ، من أديان وثقافات الهلال الخصيب (العراق وسوريا) باعتبار هذه المنطقة هي الأقرب الى مكة والعرب جغرافياً ولغوياً وحضارياً ، وفيها تكونت أولى وكبرى الحواضر العربية الاسلامية مثل دمشق والكوفة وبغداد . طبعاً لا يمكن نكران تأثير الأديان والثقافات الايرانية والمصرية والهندية والاغريقية والمغاربية والأندلسية التي أسهمت بدرجات مختلفة في صنع هذه الحضارة الاسلامية العالمية .

قائمة مصادر الملحق

1 - الخليلي ، جعفر ـ موسوعة العتبات ـ قسم النجف ـ ج ٩ ـ ص ٦٨ ـ دار التعارف ـ بغداد ـ ١٩٦٥ .

2 - نفس المصدر ـ قسم كربلاء ـ ج ١ ـ ص ٣٧٣ .

3 - نفس المصدر .

4 - مصدر (١) ـ ص ٢٧-٥٧ .

5 - نفس المصدر ـ ص ٥٣ .

6 - نفس المصدر ـ ص ٤٠-٥٧ .

7 - نفس المصدر ـ قسم سامراء ـ ص ٢٩-٧٤ .

8 - نفس المصدر ـ ص ١٥ .

9 - نفس المصدر ـ ص ٨٩ .

العقيدة القومية الإيرانية

هذا تعريف مكثف لطبيعة العقيدة القومية الايرانية ، وهي لا تختلف كثيراً عن العقيدة القومية العربية :

«بالاضافة الى ذلك فإن النظام البهلوي ، مثله في ذلك مثل النظام النازي في ألمانيا والفاشي في ايطاليا ، يروج آيديولوجية قومية تقوم على الشوفينية وعلى الحنين الامبراطوري وعلى عبادة شخصية القائد . . وهناك في هذا الصدد نقطة شبه محددة وهي أن الشاه نفسه قد أخذ على عاتقه اعادة تأكيد ايمانه بالنظرية العرقية القائلة بأن ايران بلد «آري» ، كما انه أضاف الى الألقاب الرسمية لقب آريامهر (نور الآريين) . وقد بدأ اصطناع ميثولوجيا قومية ايرانية خاصة في القرن التاسع عشر من جانب المثقفين ، وقد شجع رضا خان في ما بعد ذلك تشجيعاً عظيماً فقد عمل على إعادة كتابة التاريخ الايراني للتقليل من أهمية الفترة الاسلامية التي بدأت في القرن السابع عندما فتح العرب ايران . وبدلاً من ذلك عمد الى تفخيم الماضي ما قبل ـ الاسلامي الذي يمتد من القرن الخامس الميلادي وشجعت الدولة أعمال الحفريات الأثرية للتنقيب عن مخلفات هذه الفترة . وكان هذا التاريخ الدعاوي هو ما يتعلمه الأولاد في المدارس والصحف الايرانية مليئة بقصص شوفينية حول كيف اخترع هذا الملك أو ذاك الاستراتيجية العسكرية وكيف أن الحضارة الايرانية فاقت كل ما عداها . وهنا تستخدم الملكية والقومية كي تعضد الواحدة منهما الأخرى ذلك إن إحدى الموضوعات الرئيسية في ايران اليوم هي ان ايران لا تكون قوية إلا إذا كانت محكومة لشاه قوي وكانت الاحتفالات بمرور ٢٥٠٠ سنة على الملكية التي أقيمت عام ١٩٧١ مخصصة للتأكيد على هذه العلاقة .

ويتضمن رفض الفترة الاسلامية نشر فكرة شوفينية ضد العرب الذين تلام «بربريتهم» على كل أراضي ايران اللاحقة .

ولعل من المثير للسخرية الى حد بعيد ان كافة الأدلة المتوفرة تشير الى ان العرب فتحوا ايران بسهولة بالغة لأن جمهرة السكان الايرانيين رحبت بهم . فقد رأى هؤلاء في الغزو العربي وسيلة للاطاحة بحكامهم من الشاهات المتجبرين واحتضنوا الاسلام جزئياً على الأقل بوصفه دين أكثر ديمقراطية من العقيدة الزرادشتية التراتبية التي كانت مسيطرة في

إيران حتى ذلك الحين . . وهناك تشويه آخر قام به النظام بدأه رضا خان عام ١٩٣٦ ، ذلك هو محاولة تطهير اللغة الفارسية من الكلمات الأجنبية ـ وخاصة العربية والتركية ـ واستبدالهما بـ «فارسية نقية» . . ويفترض في الوثائق الرسمية في الجيش ان تكون مكتوبة بهذا الأسلوب الجديد ، ولكن الفشل كان نصيب هذه السياسة بشكل عام : فالشاه نفسه لا يتكلم هذه «الفارسية النقية» على الاطلاق ، كما ان النظام تردد على الدوام في القيام بأحوج الاصلاحات جميعاً ، أي استبدال الخط العربي غير الفعال بخط تسجل فيه كل الحروف سواء أكانت حروف علة أو حروفاً ساكنة . وكان أتاتورك قد قام بهذا الاصلاح في العام ١٩٢٨» . .

من كتاب «مقدمات الثورة في ايران ـ فريد هوليداي ـ ص 84-85»

* * *

مناطق الوجود العراقي التاريخي في إيران وتركستان

صحيح أن العراق (بلاد النهرين) كان حضارياً ولغوياً جزءاً من المجموعة السامية ـ العربية وبعلاقة روحية متميزة مع بلاد الشام . إلا أن العلاقات السكانية ظلت وطيدة مع الشرق الاسيوي (الايراني ـ التركستاني ـ القفقاسي الأرمني) . وظلت الهجرات الاستيطانية والغزوات مستمرة نحو العراق منذ فجر التاريخ وحتى القرن الحالي . لهذا فإن العراقيين ارتبطوا سكانياً مع هذه المناطق وكثرت الهجرات العراقية التجارية والدينية والعسكرية نحو ايران وارمينيا وتركستان . العراقيون هم الذين نشروا المسيحية والمانوية في هذه المناطق ، ولا زالت الآثار المسيحية السريانية في الهند والصين وتركستان وايران وارمينيا . أما الفتح الاسلامي لآسيا فإن الجيوش كانت بأغلبيتها من سكان العراق (العرب والآراميون) ومراكز الانطلاق والقيادة كانت في الكوفة والبصرة .

هنا لمحة عن وجود العراقيين في خراسان التي تشتمل حالياً على أجزاء من شرق ايران وأفغانستان وتركمانستان :

«وقد كان تأثير البصرة عظيماً في خراسان ولا سيما في أقاليمها الأربعة : هَراة ونيسابور وبلخ ومرو . .

أما بلخ فهي بَختر القديمة بوابة آسيا الوسطى ، وهي على اتصال بطريق الحرير والصين ، كما انه الطريق الذي كان الترك وأصحاب الأغنام يسلكونه في تنقلهم الى أعالي الجبال ما بين أُش وكشغر وتَرفان وهو كذلك الطريق الذي اتبعه الاسكندر . ولعل «بلخ» أكثر عواصم خراسان آثاراً بصرية . ومن الناحية السياسية لما كان الأزديون هم المؤسسين لبلخ فُوِّض البكريون قبل سنة ١٣٢ هـ بادارتها ، وكان رؤساء بني شيبان القائمين على طريق القوافل التجارية فيها (النقيب الأول أبو خالد الشيباني (فطر ١٢٩ هـ) ، وفي فانين كان الوالي بصرياً في سنة ١٣٠ هـ وقد توفي والي خراسان سنة ١٤٠ هـ) .

إن أمراء «بلخ» وهم بنو ماهان (من سنة ١٣٠ الى ٢٦٠ هـ) الذين جُرِّدوا عن إمارتهم من قبل بني فَريغون القادمين من جُوزجان كانوا أتباع النقيب الشيباني : منهم عيسى (المتوفى سنة ١٣٤ هـ) وابنه (رئيس الحرس العباسي في بغداد سنة ١٥٨ هـ ، انظر ابن خلكان ط . وستنفلد ١/٤٤٧-٤٦٦) ، وبعد موت والي خراسان سنة ١٩١ هـ كان لحفيده عيسى بن علي ثروة طائلة في «بلخ» (انظر الطبري ٧١٣/٢) ، ومنهم داود أمير بانجور (قرب بلخ) كان والياً على البصرة سنة ٢٠٦ هـ .

ومن الناحية العقلية تبع البلخيون النمط البصري ؛ ففي «الحديث» كانوا متشددين ولكنهم منهجيون ، ومنهم مقاتل بن سليمان وكان ذا أصول في تفسير القرآن (انظر مجموعتنا لسنة ١٩٢٩ ص ١٩٤-٢١٠) ؛ وفي ميدان الاعتزال كان للبلخيين مدرسة خاصة . وفي الزهد كانوا أصحاب النظريات «للمراحل» المكتسبة (شقيق ، حكيم الترمذي) وأتباع الحلاج المتطرفين الذين عرفوا بـ «العطارين» ؛ وفي الفلسفة كان أبو زيد البلخي الباحث المستقل . وفي التاريخ الأدبي كان البرمكيون ، وهم أصلاء في مدينة بلخ ، قدموا اليها من البصرة قبل أن يستقروا في بغداد .

أما «مرو» فقد جاء اليها البصريون من هراة ؛ وقد تركوا بكراً وعبد القيس في «مرو الروذ» (وطالقان» . وقد استقر في «مرو» كل من بني تميم وبني خزاعة والأزديين وعمروها .

وإذا تأملنا في الجيش الخراساني الذي كان نواة للجالية العباسية المستقلة الى قطاعات تتبع رؤساء عسكريين وذلك في الجانب الغربي سنة ٧٦٢م كما في الجانب الشرقي في سنة ٦٧٤م ، وهذه الجالية كانت مستقرة في مرو الروذ ، أمكننا بقوة أن نتحرى الاشعاع البصري في المحيط البغدادي منعكساً وآتياً عن طريق «مرو» . ومن هذا التأثير ما كان قبل

ذلك في علم الحديث ، فقد تأثر البغداديون باثنين من علماء الحديث من «مرو» هما ابن المبارك (المتوفى سنة ١٨١هـ في هيت) وهو حنظلي من غطفان ، وابن حنبل الشيباني الذُهلي من بكر (أو بالأحرى حرقوصي من تميم) . ان تخطيط بغداد في الجانب الغربي يشير الى أن باب الشام للضبيين ولجماعات من طوس وابيورد (تميم ، انظر ميهنة موطن الزاهد أبو الخير الذي نزل أحفاده في بغداد) ؛ وأن باب البصرة للتميميين وبني الحارث من أهل البصرة (والى جانب الكنديين في الكوفة وهم الأشاعثة) ؛ وان باب المحول لبني الحارث من اهل مرو وأبيورد والأهواز (خوز) . أما الجانب الشرقي فلخزاعة وبلحارث (المخرِّم) وتميم .

وبصرف النظر عن الاتصالات غير المنظمة والمقصودة مع الرقة (حيث الاسطرلاب الحرّاني الذي عرفه التميميون في الكوفة) والاتصال مع الموصل ، لم تفلح الكوفة إلا في مسألة واحدة هي توليد «جالية ـ Colonie» فكرية كانت قد تبنتها ، وكان ذلك في مدينة «قم» تلك المدينة العجيبة «المقدسة» عند الشيعة حيث قُدِّست فيها السيدة فاطمة ـ رضي الله عنها ـ وتبدو عظمتها وقدسيتها في انها عندهم قد تحولت الى «فاطر» من «الفطرة» والى ليلة القدر والمسجد الأقصى ، والدرة البيضاء و«كوني ـ Kuni» وهي المحور من الصفوة المختارة الخمسة من أهل «العَبا» . لقد كانت «قم» إقطاعاً للمرازبة الكوفيين من بني الأشعر اليمانيين ومن الطلحيين الذين ينتسبون الى الأمير الثالث طلحة (المتوفى سنة ١١٠ هـ) طوال الحقبة الممتدة بين ٨٣ الى ٢٧٠ هـ تقريباً . ان هذه «النحلة» الفاطمية التي نجدها في سورية لدى الشعراء «النصيريين» «المهلبيين» تبدو قد تطورت بعيداً عن النظريات الغنوصية لأتباع سلمان الفارسي في المدائن .

وكانت البصرة قد أدخلت «التقنيات ـ Techniques» شيئاً فشيئاً الى «سيراف» ، كما أدخلت صناعة الدباغة استفادة من خشب الطلح في عدن وذلك قبل سنة ٥٣٠ هـ بوساطة الأسرة المنذرية الذين قدموا من سيراف (ذكر ذلك ابن المجاور في مخطوطة في باريس رقمها ٦٠٢١) .

كلمة عن نيسابور (ابراشهر ، نوشهر) :

كانت نيسابور مأهولة بالمعمرين البصريين (Colons) من القبائل : الليث وسُلَيْم وبني عامر وباهلة ، وكان فيها من العرب من أصحاب القطائع (Apanages) من البيوتات والأسر التي تنتمي الى بني حنيفة والفضلية والشيشانية والقرشيين والتميميين والضبيين

والذبيانيين الذين قدموا جميعاً من البصرة . كما نجد بين ولاة نيسابور الربيع الحارثي (المتوفى سنة ٥٣ هجرية الذي كان الحسن البصري كاتباً له) والليثي والحنفي والأموي والتيمُلي والأزدي (المهلّب) والباهلي والحرشيّ (القيسي) والكلابي والقسري والسُّلَمي (مؤرخ الصوفية أبو عبد الرحمن السلمي) والهلالي والكناني ؟

وفي نيسابور تجتمع أفواج الحجيج من البصريين متوجهة أنظارها نحو مكة .

وفي سنة ٢٦٥ هـ اجتمع وجهاء نيسابور يعضدهم جماعة من العُبّاد سُمُّوا «المطوِّعة» ، كما كانت الحال في البصرة ، وقاموا بحملة على الطوائف الدنيا من العيّارين والجلاّدين والحجّامين الذين يدعون الى المشاركة في الملكية . وكذلك كان بنو مجاشع في نيسابور وقد كانوا قد قدموا من البصرة . وكان رئيس المتطوعين في نيسابور ذهلياً (ي . ف ابن محمد المتوفي سنة ٢٦٧ هجرية) . وكان صديق الصوفي أبو عثمان في الحيرة .

لقد اتخذت الجماعات البصرية من هذه المدينة حصناً منيعاً للمذهب السني ضد المذهب الشيعي المتعاظم شأنه في مدينة مشهد .»

من كتاب «خطط البصرة ـ العلامة ماسينيون ـ ص 43-50» .

* * *

دور سريان العراق والشام
في النهضة الحضارية العربية

رغم العناوين الكبرى عن دور «الفرس» في صنع الحضارة الاسلامية ، إلا أن تفاصيل التاريخ تكشف لنا مدى المبالغة والطنين المزيف عن دور الفرس ، على حساب التجاهل والتحريف لدور المشارقة السريان من عراقيين وشاميين . لأنه بكل بساطة تم اعتبار هؤلاء السريان أجانب أعاجم لأنهم ليسوا «عرباً أقحاحاً»! هنا نورد مقارنة سريعة عن دور الفرس والهنود مقارنة بدور السريان في إحداث النقلة الحضارية الكبرى من خلال حركة الترجمة التي تمت في بغداد العباسية :

«الترجمة من اللغتين الفارسية والهندية»

هناك ظاهرتان بارزتان في موضوع حركة الترجمة تستحقان الوقوف عندهما قليلاً لمعرفة

أسبابهما . الأولى عدم الاهتمام بكتب تاريخ أمة اليونان وأدبها ، والثانية عدم النقل من التراث الفارسي والهندي إلا ما ندر . إن سبب عدم نقل شيء يستحق الذكر من كتب تاريخ اليونان وأدبها واضح ، وهو أن ما يحتويه هذان الموضوعان من الأساطير بعيد عن العقلية العربية ، وما يشوبهما من الوثنية وتعدد الآلهة يعتبر كفراً يخالف روح الاسلام . أما النقل من اللغة الفارسية فقد كان ضئيلاً جداً قليل الأثر . وسبب ذلك ، كما نرى ، أن الفرس لم يكن لهم تراث طبي يستحق النقل لغلبة الطب اليوناني عليه . وان تراثهم الأدبي والتاريخي محشو بالأغاليط والخرافات والمبالغة مما لا يستسيغه العقل . يقول المؤرخ اليعقوبي : «فارس تدّعي لملوكها أموراً كثيرة ، مما لا يقبل مثلها ، من الزيادة في الخلقة حتى يكون للواحد عدة أفواه وعيون ، ويكون للآخر وجه من نحاس ، ويكون على كتفي آخر حيّتان تطعمان أدمغة الرجال ، وطول المدة في العمر ، ودفع الموت عن الناس ، وأشباه ذلك مما تدفعه العقول ويُجرى فيه مجرى اللعبات والهزل ، ومما لا حقيقة له» . أما تراثهم الروحي فقد كان ثنوياً يقوم على الزعم بأن النور والظلمة أزليان ، وذلك مما يعتبر شركاً في الإسلام . سبق أن أشرنا الى أن حركة الترجمة كانت بدأت بنقل الكتاب الهندي السد هانت في علم الفلك عند الهنود . وكانت ترجمت بعض الكتب في الرياضيات وبخاصة في الحساب .

أبرز المترجمين وما ترجموه من الكتب

لقد كانت حصيلة حركة الترجمة أن نُقل الى اللغة العربية واللغة السريانية كثير من كتب اليونان وغيرهم في الطب والفلسفة والرياضيات . وهي العلوم التي نالت اهتمام العلماء العرب آنذاك «بحيث لم يعد باقياً الشيء الكثير من العلم المعروف في عالم ذاك الزمن . ولم ينقل الى العربية» . وقد أحصى ابن النديم والقفطي وابن أبي أصيبعة جانباً مهماً من تلك الكتب مع مترجميها ، مما تيسرت لهم معرفته . وفيما يأتي نذكر أبرز مترجمي القرن الثالث وأهم ما ترجموه من الكتب :

حنين بن اسحق

أبو زيد العبادي ، كان ماهراً في الترجمة الى جانب مهارته في الطب . وقد انصرف الى ترجمة الكتب اليونانية وإخراجها باللغة العربية ، أو السريانية ، إذ كان فصيحاً في اللسان اليوناني واللسان العربي «دخل الى بلاد الروم لأجل تحصيل كتب الحكمة ، وتوصل في

تحصيلها غاية إمكانه ، وأحكم اليونانية عند دخوله الى تلك الجهات ، وحصل نفائس هذا العلم» .

كان في بيت الحكمة قسم خاص بالترجمة ، فأناط المأمون رياسته بحنين ليتولى شؤون الترجمة والإشراف عليها . وبلغ من حرص حنين واهتمامه بما أوكل إليه أن تولى بنفسه ترجمة عدد كبير من الكتب الى العربية أو السريانية ، كما كان يعيد النظر فيما يترجمه غيره من النقله ويصلحه ، بحيث يمكن القول إن جميع ما ترجم في بيت الحكمة في عهد حنين قد عرض عليه وراجعه وأجرى فيه ما رآه ضرورياً من التصحيحات قبل صدوره .

وقد أولى المأمون حركة الترجمة عناية فائقة ، فكان يتابع أعمال حنين ومن معه . ويقول ابن أبي أصيبعة أنه رأى عدداً من كتب جالينوس وغيره بخط الأزرق كاتب حنين وعلى بعضها هوامش بخط حنين باليوناني ، على تلك الكتب علامة المأمون .

ويستدل من رسالة حنين أن ما ترجمه من كتب جالينوس الى السريانية جاوز المئة كتاب ، وما نقل منها الى العربية تسعة وثلاثون كتاباً ، وهي في الطب والفلسفة . ويتضح من قائمة ابن النديم بما ترجم من كتب جالنوس وشروحه على بعض كتب أبقراط ، أن حنيناً ترجم أغلب الكتب الستة عشر التي يقرأها طلاب الطب على التوالي من كتب جالينوس .

وترجم حنين بن اسحاق من كتب أرسطو ما يلي : كتاب قاطيغورياس (المقولات) الى اللغة العربية ، وكتب باريارمانياس أو باريرمينياس (العبارة) الى اللغة السريانية ، وقسماً من كتاب انولوطيقا الأول (التحليل) الى اللغة السريانية ، وبعض أقسام من كتاب انولوطيقا .

ثابت بن قُرَّة

كان ثابت بن قرة الحرَّاني الرياضي الفيلسوف المتوفى سنة ٢٨٨ ممن برعوا في الترجمة وبرزوا فيها . ويظهر من عدد الكتب واختلاف مواضيعها مما نقله الى اللغة العربية من اللغتين اليونانية والسريانية ، انه كان يجيد هاتين اللغتين الى جانب اللغة العربية . يقول القفطي عنه : «وأما نقله من لغة الى لغة فكثير» . ويقول ابن أبي أصيبعة : «كان جيد النقل الى العربية ، حسن العبارة ، قوي المعرفة باللغة السريانية وغيرها» . ويقول عنه المستشرق أوليري : «وهو عالم يعرف اللغة الاغريقية والسريانية والعربية» . وجاء في تراث الاسلام عنه «كان ثابت يعرف اللغتين السريانية واليونانية اضافة الى العربية فترجم الكثير عن هاتين اللغتين

الى العربيـة» . وجاء في تراث العرب العلمي «كان ثابت يحسن الى جانب اللغـة العربيـة اللغات السريانيـة واليونانيـة والعبرية ، ولما عمل في نقل بعض الكتب من اليونانيـة أبدى كفاية عالية بحيث عدّ من كبار المترجمين» .

اسحاق بن حنين

تعلم اسحق صنعة الطب ومارسها بمهارة ، فكان واحد عصره فيها . وكان يجاري أباه حنيناً في سعة معرفته باللغة العربية واللغتين اليونانية والسريانيـة ، بل كان يزيد عليه فصاحة ، وقد عمل معه في الترجمة فتميَّز بصحة النقل وجودته . إلا أن نقله للكتب الطبية قليل جداً بالنسبة الى ما نقله من كتب الحكمة . لحقه الفالج آخر عمره وبه مات في ربيع الآخر سنة ٢٩٨ .

حبيش بن الأعسم

هو ابن أخت حنين بن اسحاق وقد درس عليه صنعة الطب ، وأتقن اللغتين السريانية واليونانية الى جانب اللغة العربية ، وحذا حذو خاله في الترجمة من حيث الدقة وأكثر نقله من اللغة السريانية ، وكان حنين يقدمه ويثني على نقله . وكان ممن ينقلون الكتب الى اللغة العربية لأبناء موسى بن شاكر . يقول عنه ابن أبي أصيبعة «هو ناقل مجود يلحق بحنين واسحاق» .

قسطا بن لوقا البعلبكي

كان بارعاً في علوم كثيرة منها الطب والفلسفة والهندسة والموسيقى ، فصيحاً باللغتين اليونانية والسريانية وباللغة العربية ، جيد النقل ، وقد نقل عدداً من الكتب وأصلح نقولات كثيرة . دخل بلاد الروم وجمع عدداً من التصانيف القديمة وعاد الى الشام . ويقول أوليري أنه تعلّم في بلاد الإغريق ولذا امتاز بالترجمة . وقد استدعى الى العراق ليعمل في الترجمة . ويعتبز قسطا من فلاسفة المترجمين ، ومن مترجمي بيت الحكمة المشهورين وقد عمل بمعية حنين بن اسحاق . توفي قسطا في أرمينيا حوالي سنة ٣٠٠ .

متى بن يونس

أبو بشر من أهل دير قُنَّى ، أحد الأديرة القريبة من بغداد ، ودرس في مدرسة مار ماري التابعة لهذا الدير ، عاش ببغداد ودرس كتب أرسطو في المنطق على ابراهيم القويري . واليه

انتهت رياسة المنطقيين في عصره ، وصنف عدداً من الكتب والتفاسير في المنطق ، ودرس عليه هذا العلم عدد كبير من الطلاب ، وكانت وفاته ببغداد سنة ٣٢٨ .

ترجم أبو بشر الى اللغة العربية كتب أرسطو في المنطق والطبيعيات ، منها : كتاب انولوطيقا الثاني (البرهان) نقله من السريانية ، وكتاب سوفسطيقا (المغالطة) نقله من السريانية ، وكتاب أبوطيقا (الشعر) نقله من السريانية كذلك ، وكتاب الكون والفساد بتفسير الاسكندر الأفروديسي ، وكتاب الآثار العلوية ، ومقالة اللام من كتاب الإلهيات .

أبو عثمان الدمشقي

سعيد بن يعقوب من أهل دمشق سكن بغداد واشتهر بها طبيباً في أواخر القرن الثالث ، وكان منقطعاً الى أبي الحسن علي بن عيسى وزير المقتدر بالله ، وقد أناط به رياسة البيمارستان الذي أسسه في سنة ٣٠٢ في محلة الحربة بالجانب الغربي من بغداد وأنفق عليه من ماله ، ثم أضاف الى أبي عثمان رياسة جميع البيمارستانات في بغداد ومكة والمدينة . ولأبي عثمان الدمشقي عدد من التصانيف الطبية ، وكان من النقلة المجيدين الى اللغة العربية . وذكره ابن النديم في قائمة المترجمين . وكان فصيحاً باللغتين اليونانية والعربية معتمد النقل .

نقل الى العربية مقالات من أصول الهندسة لإقليدس ، وكتاب طوبيقا من ترجمة اسحق بن حنين الى السريانية . كما نقل قسماً من السماع الطبيعي ، وكتاب الكون والفساد من الترجمة السريانية ، وكتاب المدخل الى القياسات الحملية لفرفوريوس .

عيسى بن يحيى بن ابراهيم

أحد تلاميذ حنين بن اسحاق ، وقد درس عليه صنعة الطب ، وعمل معه في الترجمة في بيت الحكمة ، وكان من الناقلين المجودين من اليونانية الى اللغة العربية ، وقد أثنى حنين على نقله ، وكان عيسى يقلده في الترجمة ، وله مصنفات في الطب .

ساهم عيسى بن يحيى في حركة الترجمة مساهمة فعالة فنقل عدداً من الكتب من اليونانية أو مما ترجم منها الى السريانية . ومما نقله الى اللغة العربية : كتاب السبعين مقالة للطبيب اليوناني أوريباسيوس ، من اللغة السريانية . ونقل مما فسره جالينوس من كتب أبقراط : كتاب عهد أبقراط وكان حنين نقله الى السريانية وأضاف اليه ، فترجمه عيسى

بالاشتراك مع حبيش ، وكتاب الأمراض الحادة ، وكتاب الفصول ، وكتاب الأخلاط . وفسّر القسم السادس من كتاب ابيذيميا ، كما فسّر كتاب طبيعة الانسان وكان حنين قد نقل نصه الى العربية .

اصطفن بن بسيل

من الكتّاب النحارير الحاذقين في الترجمة ممن عينهم المتوكل على الله ليعلموا بمعية حنين.بن اسحاق عندما أناط به رياسة بيت الحكمة . ويظهر أنه كان جيد النقل ، يقارب في نقله حنين بن اسحاق ولو أنه كان دونه فصاحة» .

من كتاب «معالم الحضارة العربية ـ أحمد عبد الباقي ـ ص 272-286» .

* * *

أهمية الترجمة السريانية في النهضة الحضارية

نكمل موضوع الترجمة بايراد هذا المقطع الذي يتحدث عن تأثير حركة الترجمة التي لولاها لما تفجرت الحركة الحضارية الكبرى في العصر الاسلامي . ومن جملة التأثيرات التي يتجنب الحديث عنها مؤرخونا المعاصرون هو التأثير اللغوي والعقلي الذي انتقل من اللغة السريانية الى اللغة العربية . والسبب منطقي جداً : ما دام جميع المترجمين كانت السريانية هي لغتهم الأم وهي لغة شقيقة للغة العربية ، إذن فمن المعقول جداً أن يعتمد هؤلاء السريان على لغتهم السريانية في صياغة الترجمة العربية التي كانت لغة محدودة بالمفردات الصحراوية والشعرية . على هذا الأساس فإن اللغة العربية ما أصبحت لغة علمية فلسفية حضارية إلا بالاقتباس الكلي من اللغة السريانية بمفرداتها وجملها وبلاغتها . ومن الغباء أن يركز مؤخورنا المعاصرون على بعض المفردات الفارسية التي دخلت العربية لتبرير الحديث عن تأثير الفرس ، بينما يتم تناسي التأثير الحاسم للسريانية على العربية ، وذلك بسبب جهلهم للوجود السرياني في العربية ، ولأن السريانية شقيقة للعربية ومن الصعب تحديد التأثير ، كما لو نضيف اللون الأزرق الغامق على اللون الأزرق الفاتح ، فيصبح لوناً واحداً ، هو الأزرق :

«أهمية حركة الترجمة :

كان لحركة الترجمة ـ التي أولاها الخلفاء في بغداد وسامراء رعاية خاصة وشجعها رجال الدولة العربية وأعيانها ، فنشطت وازدهرت في خلال القرن الثالث ـ أهمية خطيرة في

مسيرة الحضارة العربية . فقد ساعدت العلماء والدارسين على أن يتعرفوا على ثقافة الأمم السابقة وعلومها ، في حقول الفلسفة والطب والرياضيات والفلك وأحكام النجوم وغيرها ، وأن يلموا بها وينهلوا منها مما وسَّع آفاق تفكيرهم العلمي بما يناسب المستوى الحضاري الذي وصلوا اليه . . فأفادوا منها كثيراً في مختلف العلوم وبخاصة في الطب والفلسفة وعلم الفلك . فقد استفاد الأطباء مما اطلعوا عليه من كتب التشريح العديدة مما ترجم لأبقراط وجالينوس وغيرهما ، لأن الدين الاسلامي لا يبيح المثلة بالانسان حياً أو ميتاً . فكانت هذه الترجمات خير ما وضع لهم مبهمات هذا الموضوع . كما أخذت مصنَّفاتهم الطبية تعكس جوانب عديدة من الطب اليوناني . فإن ما صنفه يوحنا بن ماسويه ، وحنين بن اسحاق ، وأبو بكر الرازي ، وغيرهم من علماء الأطباء ، كان متأثراً بما جاء في كتب جالينوس الى حد كبير .

كذلك انتفع رجال الدين وبخاصة علماء الكلام منهم ، بكتب الفلسفة والمنطق والجدل . وقد ظهرت آثار ذلك على عدد غير قليل منهم . وكان علماء المعتزلة أكثر استفادة من غيرهم فصاروا أقدر على الجدل والمناظرة . وغدا تأثير الفلسفة اليونانية ومنهجها واضحاً في تفكير رجال مختلف المذاهب الاسلامية وأعمالهم . وكان الكندي فيلسوف العرب يحذو حذو أرسطو في منهجه الفلسفي وفي تصانيفه الفلسفية .

ومن النتائج المهمة الأخرى لحركة الترجمة أن ظهرت حركة تأليف في بعض فنون المعرفة . فقد بدأ المترجمون يضعون الرسائل والكتب ليستعملها الطلاب ، وهي بشكل ملخصات في شتى أنواع العلوم وبخاصة الطبية منها . ثم ما لبثت هذه الحركة أن توسعت بين العلماء العرب الذين أخذوا يكتبون على أسس متينة من المعرفة . فقد ظهرت في الطب والفقه والتاريخ واللغة مثلاً ، كتب كثيرة وبعضها بعدة أجزاء بحيث كان بعضها أشبه بالموسوعات . كما كان المؤلف الواحد يصنف عشرات الكتب في مختلف المواضيع مدلّلاً على سعة معرفته وتفننه بمختلف العلوم . فقد صنف الكندي ما يزيد على ٢٥٠ كتاباً في الفلسفة والجدل والمنطق والرياضيات والفلك والطب والسياسة وغيرها . وقد دلّل في أكثرها على اطلاع واسع ومعرفة عميقة . وصنف محمد بن زكريا الرازي عميد الأطباء ما يزيد على ٢٣٠ كتاباً في الطب والصيدلة والكيمياء والفلسفة والرياضيات والفلك وأحكام النجوم وغيرها . وهي أيضاً تدل على سعة علمه وعمق تفكيره . وصنف ثابت بن قرة الرياضي الفيلسوف ما ينيف على السبعين كتاباً في فنون مختلفة .

ولم تقتصر حركة التأليف ووفرة ما صنف من الكتب على المواضيع التي عالجها الفلاسفة والأطباء والرياضيون فحسب ، بل تناولت العلوم القرآنية من تفسير وقراءات ، وعلوم الحديث ، وعلوم الفقه والكلام . اضافة الى ما صنف في التاريخ والجغرافية وأحوال البلدان . أما في ميدان اللغة والشعر والأدب عامة فقد نبغ شعراء مفكرون مجددون الى جانب أساتذة الأدب واللغة المتقدمين . فإن ما صنفه الطبري وابن قتيبة والجاحظ وأبو حنيفة الدينوري ، وغيرهم من علماء هذا القرن وأدبائه لجدير بالاعجاب سواء من حيث كميته أو نوعيته . ولكن مما يؤسف له أن هذا العدد العظيم من الكتب المصنفة والمترجمة لم يصلنا منه سوى النزر اليسير ، إذ ضاع القسم الأعظم بفعل عوادي الزمن المختلفة ، ولم يبق من تلك الكتب سوى عناوينها وأسماء مصنفيها بفضل محمد بن اسحاق المعروف بابن النديم المتوفى سنة ٣٨٠ في كتابه القيم الفهرست» .

نفس المصدر السابق . ـ ص 286-287» .

* * *

تأثير الديانة العراقية على المجوسية

كثيراً ما تُنسب الى ايران وديانتها الزرادشتية تأثيرات مبالغة على مذاهب أهل العراق الاسلامية وقبل الاسلامية ، لكن المصادر التاريخية تتفق على العكس ، أي التأثير الحاسم لحضارة العراق على ايران في جميع المجالات اللغوية والعلمية والفنية والدينية . هنا مثال على تأثير ديانة العراق على الديانة الزرادشتية .

«لقبه ملك الملوك أو الملك الأكبر (شاهَنْشاه) . اختير دائماً من أسرة الأخميديين . وهي زعيمة عشائر الفرس . يتول الحكم بالوراثة إلا في حالات استثنائية (داريوس خلف قمبيز) . ولم يتخذ الملك صفة الإله كما في مصر ، بل اعتبر نفسه ممثلاً للإله «أهُوْرَا مَزْدا» . ولما ضَمّت دولتهم بلاد ما بين النهرين اعتبر نفسه ممثلاً للإله «مردوخ» ، ولما أخضعوا مصر اعتبر نفسه ممثلاً للإله «أَمُون ـ رَعْ» . لا بل أمر بأن تقام أنْصاب تمثله متعبداً للإله «أمون ـ رع» . فلم يكتف الفرس إذن بالاقتباس ، بل حاولوا التكيّف أيضاً . تعبد الفرس للإله «أهُوْرَا مَزْدا» ، فعُرِفَتْ ديانتهم باسم «المَزْديّة» . واقتبسوا من بلاد ما بين النهرين الاعتقاد بوجود «الأرواح» . ولما برز المصلح «زرادشت» أعطاها مفهوم «التوحيد» ونقلها الى مرحلة التطبيق الأخلاقي .

وما لبثت تأثيرات ما بين النهرين أن اعترتها . وساد الاعتقاد بوجود «الأرواح» . فمنها «الأرواح الصالحة» التي تحيط «بأُرمُزْد» ، ومنها «الأرواح الشريرة» ، وعلى رأسها إله الشر والظلام «أهْرِيمان» . والصراع بين «أُرْمُزد» و«أهْريمان» ، أو بين الأرواح الصالحة والأرواح الشريرة مستمر» .

من كتاب «الحضارات - لبيب عبد الساتر - ص 68-69 » .

* * *

حضارة بين النهرين وتأثيرها على الحضارات الأخرى

* «إن أهم ظاهرة برزت في حضارة بلاد ما بين النهرين هي ظاهرة ازدهار مجموعة حضارات تابعة في العالم الذي يحيطها ، وكانت تلك الحضارات التابعة مولدة في النوع مع عناصر حضارة بلاد ما بين النهرين بسماتها القومية وسيطرتها الواضحة بحيث انه من الصعب اكتشافها وعزلها في سبيل القيام بدراسة خاصة لها . ومن تلك الحضارات هي الحضارة العيلامية بعاصمتها سوسة (الاحواز) ، والحضارة الأوراتية في موصاصير (ارمينيا) ، والحضارة الحثية بعاصمتها الأناضولية ختوشا (تركيا) .

أخيراً ، يجب الاهتمام بدور مصر الهيلنستية باعتبارها نقطة انتشار أفكار بلاد ما بين النهرين : التي نقلت التنجيم وعلم الفلك البابلي من مصر الى الغرب ، وان هذا يوازي انتشار الفن الآشوري - عبر آسيا الصغرى الى اليونان ويوازي كذلك ممارسات القصر الآشوري غير الممارسات الفارسية والساسانية الى البيزنطيين ومن ثم الى أوروبا . إن الشيء الذي لم يكتشف بعد هي الاتصالات فيما بين بلاد بابل الهيلنستية والهند بل حتى الشرق الأقصى» .

من كتاب «بلاد ما بين النهرين - ليوا وينهايم - ص 83-89» .

* «وجاء التنجيم الى الغرب من بابل ، وشجع عليه الموسوعي الرواقي «بوزيدونيس Posidonius» فقد كان الرواقيون والأفلاطونيون في صف التنجيم ، في حين كان الأبيقوريون والمسيحيون ضده ، وتفترض نظرية التنجيم وجود علاقة بين الناس والنجوم «فنحن نشارك الكواكب في القدرات والمشاعر» ولما كان مســار «زحل» بطيئاً ، فقد اعتقدوا أنه يجعل الناس كسالى ، أما كوكب الزهرة فهو المشرف على الحب ، في حين أن كوكب المشتري

Jupiter يهب الناس القوة ، وعطارد يبارك التجارة ، وارتبطت الأفعى بإله الشفاء ، والبرج الذي يحمل هذا الاسم يساعد على الشفاء ، وكان التنجيم شبه علم ، كما كان حساب خرائط البروج عملاً معقداً . وكان يطلق على المنجمين لقب الرياضيين Mathematici .

وانفجرت الحركة في عهد تيروس Tiberius الذي اعتكف في كابري ومعه (حشد من البابليين) » .

من كتاب «المعتقدات الدينية لدى الشعوب ـ جفري بارندر ـ ص 127» .

* * *

اسطورة «علم الانساب» العربي

ان إدعاء معظم سكان العراق والشام وباقي البلدان العربية ، بالنسب العربي والانتماء للقبائل العربية النازحة من الجزيرة ، يبدو واهياً واسطورياً لأنه اعتمد على ما يسمى بـ «علم الأنساب» الذي لا زال يعتمد عليه الكثير من المثقفين والمؤرخين القوميين . لكن اية نظرة سريعة لهذا «العلم» تفضح لنا هشاشته وسذاجته واسطوريته !

« قال في العقد الفريد : ونوح النبي عليه السلام وهو ابو البشر الثاني عليه الصلاة والسلام ، لان ما قبله من اولاد آدم لم يبق لهم نسل من بعد الغرق بالطوفان ، فالباقون من نسل نوح . قال الله تعالى : ﴿وجعلنا ذريته هم الباقون﴾ .

ولنوح عدة اولاد : سام ، وحام ، ويافت . فأولاد سام : العرب وفارس والروم . وأولاد حام : السودان والبربر والقبط . وأولاد يافت : الترك والصقالية وياجوج وماجوج .

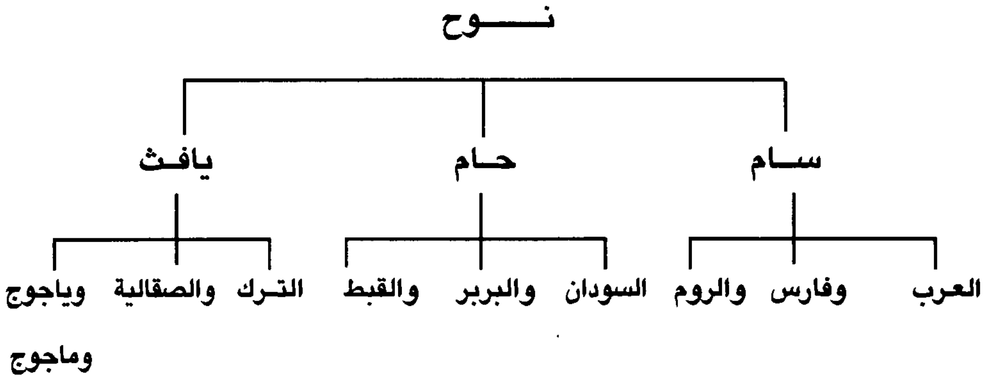

وذكر ابن الاثير في تاريخه ذرية نوح عليه السلام ، قال وهب ابن منبه : ان سام بن نوح ابو العرب وفارس والروم . وحام بن نوح ابو السودان . ويافث بن نوح ابو الترك وياجوج وماجوج . وقيل القبط من ولد قوط بن حام . قال ان امرأة سام بن نوح صلب ابنه بتأويل بن محول ابن اخنوخ بن قين بن آدم . قال واما يافث فله من الولد جامر وموبع ومورك وبوان ونوبا وماشج وتيرش . فمن ولد جامر ملوك فارس في قول ، ومن ولد تيرش الترك والخزد . ومن ولد ماشج الاسبان . ومن ولد موبع ياجوج وماجوج . ومن ولد بوان الصقالبة وبرجان » .

« من كتاب « انساب العرب - سمير القطب - ص 321 »

* * *

مشكلة نقل الجنائز الايرانية الى العراق

هذه الحكاية المحزنة والطريفة تكشف عن مدى تعلق الإيرانيين روحياً وتاريخياً بأرض العراق :

■ «مشكلة نقل الجنائز :

انتهز مدحت باشا فرصة زيارة الشاه ففاوضه حول بعض المشاكل التي كانت قائمة بين البلدين إحداها كانت مشكلة نقل الجنائز .

والواقع أن مشكلة نقل الجنائز كانت من المشاكل المستعصية التي أدت الى الضرر الفادح بالفرد والمجتمع ، فقد كان الإيرانيون يحرصون كل الحرص على نقل موتاهم الى العراق لدفنها في النجف ، فكانت الجثث تتعفن في الطريق لطول المسافة ، وكثيراً ما كانت سبباً في نقل الأمراض والأوبئة الى العراق . وقد تم الاتفاق بين مدحت باشا والشاه على أن لا يسمح بدخول الجنائز الايرانية الى العراق إلا بعد مرور سنة واحدة على الوفاة .

كان القصد من هذا الاتفاق أن يجري دفن الموتى في المقابر المحلية في ايران مؤقتاً لمدة سنة واحدة ، وهو ما يعرف عندهم بـ «الأمانة» ، حتى إذا انتهت السنة جاز نقل الجثث الى العراق ، وهي عندئذ ليست سوى عظام جافة لا لحم عليها ، وبذلك يمكن تجنب الضرر الناتج عنها . وقد وضعت الحكومة العثمانية على الحدود الايرانية موظفين صحيين يراقبون نقل الجنائز ويفحصونها لكي لا تكون «طرية» .

ظن مدحت باشا حين عقد هذا الاتفاق مع الشاه أن المشكلة حُلَّت حلاً نهائياً واستراح الناس منها ، وقد تبين فيما بعد أن ظنه هذا كان خاطئاً من بعض الوجوه . ذلك أن بعض الايرانيين لجأوا الى «التهريب» في نقل جنائزهم فأدى هذا الى ظهور مشكلة ربما كانت أشد ضرراً من المشكلة الأولى .

ظهر في بعض المدن الايرانية أشخاص اختصوا بتهريب الجنائز وكأنهم جعلوا ذلك مهنة لهم ، فهم يأتون بجثة الميت فينتزعون عنها اللحم بالسكين والحجر ثم يرشون على العظام مقداراً من النورة والزرنيخ ، ويتركونها معرضة للشمس والهواء حتى نصير كأنها مدفونة تحت التراب مدة طويلة . وتُحمل هذه العظام في صندوق خاص بها ، أما اللحم فيحمل في كيس ، حتى إذا وصل أصحاب الجنازة الى النجف جمعوا اللحم والعظام ، ودفنوها معاً في قبر واحد ، بعد أن يقرأوا الفاتحة والأدعية المناسبة طبعاً!» .

من كتاب «تاريخ العراق ـ ج ١ ـ علي الوردي ـ ص 259-261» .

* * *

نماذج من عقلية تفريس الحضارة العراقية

إن عملية «التفريس» للحضارة العراقية والعربية وصلت الى حد الهوس المرضي وتحويل «العروبة» الى نوع من «القومية المازوشية» التي تتلذذ باحتقار الذات . وهذا نموذج من هذه الطروحات العجيبة التي تعودنا قراءتها من دون أي استغراب :

«وإذا أردنا أن نعطي للقارىء صورة واضحة عن الحياة في ذلك العصر كانت بغداد هي المكان الملائم لإعطاء مثل هذه الصورة ، فقد ازدهرت فيها الحضارة ازدهاراً رفيعاً ، واحتشدت قصورها بالجواري والقيان والغلمان وانتشرت فيها مجالس اللهو والشراب ، وغصت بأنواع من الأجناس المختلفة نتيجة للفتوح والسبي ، وكان لكل من هذه الأجناس صفاته ومميزاته الخاصة ، ولكن الطابع القوي الذي ساد هذه الأجناس جميعاً هو الطابع الفارسي ، فتغلغلت العادات الفارسية في النفوس ، وأصبح تقليدها أمراً محبباً حتى قال المقريزي «فسموا عوائد العجم أدباً ، وقدموها على السنة» ويكفي أن نتأمل عادات الشعوب في ذلك العهد لنرى مصداق هذا القول ، فنجد المنصور سنة ١٥٣ هـ يأمر الناس بارتداء الملابس الطويلة المفرطة الطول ، وهي زي فارسي ـ وقد انتشر ارتداء القلانس صيفاً وشتاء ، وكان الناس يلبسونها إذا

مثلوا بين يدي الخلفاء والأمراء والعظماء تعظيماً وتبجيلاً لهم كما أحدث المنصور عادة تقبيل الأرض بين يدي الخليفة وهذا أصدق شاهد على تطور العادات في هذا العصر إذ لم يكن العربي المعروف بأنفته وكبريائه يرضى بمثل هذا في العصور السابقة . واقتبس العرب من الفرس تنويع الأزياء بحيث يكون لكل طبقة زي خاص تعرف به ، فكان للخلفاء رداء خاص للرأس (عمامة) وللفقهاء عمامة ، وللأعراب ، حتى اللصوص كانت لهم عمامة . . . وكان أصحاب السلطان على مراتب ، ولكل مرتبة زي ، وكان الشعراء يلبسون الوشي والمقطعات والأردية السود . وفي هذا العصر ظهر التأنق في الملبس حتى أصبحت هناك فئة خاصة تعرف بالتأنق والتظرف ، وتتخذ العادات الفارسية في المأكل والمشرب وآداب المائدة والكلام والضحك والتعطر والتطيب وحبهم للورد ومدحهم إياه وكانوا يشترون أزياءهم من خراسان ونيسابور ، وقد غالوا في تطرفهم الى حد الزندقة والكفر . وكان في طليعة جماعة المتطرفين الشاعران الفارسيان أبو نواس وبشار بن برد .

وما زال الفضل بن سهل بالمأمون حتى أقنعه بتغيير السواد بالخضرة وأن يكتب الى جميع أعماله كي يجعلوا أعلامهم وملابسهم خضراً . وكانت الخضرة هي لباس كسرى والمجوس .

وكان للفرس أثر كبير في انتشار مجالس اللهو بين العامة ، وكذلك في انتشار المجون والخلاعة ، وقد حفل ذلك العصر بالماجنين ، وأشهرهم الحمادون الثلاثة ومطيع بن إياس ، وصالح بن عبد القدوس ، ووالبة بن الحلباب وعمارة بن حمزة بن ميمون وغيرهم كثير من العرب والفرس .

ونلاحظ من ناحية أخرى أثر الفرس في فن العمارة العربية ، وهو فن اشتهر به الفرس في ذلك العهد شهرة واسعة ، وقد اشتهرت القصور التي شيدها المنصور كقصري الذهب والخلد ، وكذلك القصور التي بناها الرشيد على نهر دجلة والقصر الهاروني الذي بناه الواثق ؛ واشتهرت هذه القصور بفخامتها وروعتها ووضوح الأثر الفارسي فيها .

وكان شغف العرب بالبساتين في ذلك العصر عادة فارسية ، وكذلك اهتمامهم بالأزهار وتزيين موائدهم وثيابهم بها وتغزلهم فيها .

وانتشر بين الشعب والخلفاء لعب النرد وهو من وضع الفرس والشطرنج وهو من وضع الهند .

وكان الغناء مطبوعاً بالطابع الفارسي إذ كان أغلب المغنين من الفرس وعلى رأسهم

ابراهيم الموصلي ويرجع أصله الى بيت كبير من العجم ويليه في الشهرة ابنه اسحاق ؛ وكتاب الأغاني مليء بأخبارهما . . وهما لم يشتهرا بالغناء فحسب ، بل جمعا الى ذلك الاطلاع الواسع في الشعر والأدب وأدخلا من التجديد في فنون الغناء وآلاته ، وموازينه المأخوذة عن الفرس . وكان ينافسهم في البلاد المغني العربي القرشي المشهور ابن جامع وطالما حدثت منافسات وخلافات بينه وبين ابراهيم الموصلي كان يتحزب فيها رجال البلاط .

وكان ابن جامع يتزعم مدرسة الغناء الحديثة ـ الفارسية بينما كان يتزعم المدرسة العربية القديمة الفارسي ابراهيم الموصلي فأصبح الغناء في ذلك العصر فناً رفيعاً وأصبح الناس ينظرون الى المغني نظرتهم الى أديب فنان ، وهذا التقدير هو الذي دفع أحد الأمراء العباسيين الى الغناء دون أن يكون في ذلك منقصة له ، ونعني به ابراهيم بن المهدي ابن المنصور ، فقد نازع أشهر المغنين وتفوق عليهم في كثير مِن الأحيان . وقد قلده في هذا المضمار كثيرون من أمراء إلبيت العباسي .

ولكن فضل الأعاجم في ميدان الغناء ، كان يقابله إساءتهم الى اللغة العربية حيث انهم وإن أغنوا اللغة العربية التحريرية غير انهم أفسدوا اللغة اللسانية ، بما أدخلوا عليها من لحن ولثغ ، وخاصة في لغة الكلام والمخاطبة ، ويروون ان عبد الله بن الأهثم مر ذات يوم بقوم من الموالي وهم يتذاكرون النحو فقال «لئن أصلحتموه ، إنكم لأول من أفسده» . ويقول الجاحظ أيضاً ان الفرس قد أدلو اللكنة في اللغة العربية وانهم كانوا في كلامهم يلحنون «ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام لما عرفه» .

وذكر ابن قتيبة أنه دخل أعرابي السوق فسمعهم يلحنون فقال «سبحان الله يلحنون ويربحون . ونحن لا نلحن ولا نربح» .

وإذا أراد العربي أن يتملح أدخل في شعره أو كلامه شيئاً من الألفاظ والتعبيرات الفارسية . وهكذا طغت اللغة العربية باللغة الفارسية ، وكان العامة والخاصة يستشهدون بأقوال حكماء الفرس وسير ملوكهم ، وسياستهم وأخبارهم ، كما ترجمت كثير من كتبهم وأشعارهم الى العربية .

رأينا فيما سبق كيف تأثر الشعب في حياته الاجتماعية بالعادات والتقاليد الفارسية ، غير ان هذا التأثير يظهر بشكل واضح في بلاط الخلفاء الذين ساروا في حياتهم الخاصة

والعامة على نهج الأكاسرة فأغرقوا في الترف وأكثروا حولهم من مظاهر الأبهة والعظمة ، وأحاطوا أنفسهم بحاشية كبيرة ونصبوا على أبوابهم الحجاب . الى غير ذلك مما هو غريب عن العرب وحياتهم القاسية الخشنة . ومن الحق ان البلاط الأموي كان زاخراً بمثل تلك المظاهر ، وكان الخلفاء الأمويون كلهم يشربون ويعقدون مجالس اللهو والغناء ما عدا عمر بن عبد العزيز . وكان بلاطهم صورة مصغرة لما صار عليه البلاط العباسي الذي كثرت فيه مجالس الشراب ولم يعد الخلفاء الذين كانوا جميعاً يشربون ويسمرون ما عدا المنصور يجدون حرجاً في الشرب واللهو . وهذه كلها عادات كسروية . وعلى ذلك نرى أن الأمر في الحياة الاجتماعية سار علي ذلك النحو الذي وصفناه ، فكان الترف والبذخ وما يستتبعهما من استهتار ومجون هما الطابع السائد في ذلك العصر . ولقد بينا بما لا يدع مجالاً للغموض الأثر الفارسي في مثل هذا الطور من أطوار الحضارة ، ورأينا كيف اتخذ الخلفاء والأمراء السواد الأعظم من الشعب الحياة الفارسية مثلاً يتبع وأسلوباً جميلاً من أساليب الحياة ، وفي ذلك انتصار ـ أي انتصار ـ للشعوبية ولكننا نستطيع أن نقول انه انتصار سهل ، لم تبذل فيه الدماء ولم تزهق فيه الأرواح . إذ كان التقليد هنا غالباً على الصراع ، وترك العرب الشعوبية تغزوهم في هذه الناحية بمحض اختيارهم وملء إرادتهم» .

من كتاب «الشعوبية وأثرها الاجتماعي ـ الدكتورة زاهية قدورة ـ ص 188-198» .

* * *

الشعوب الآسيوية والجبلية تمتزج بسكان الرافدين

إن طبيعة الرافدين السهلية والخصبة ظلت دائماً مصهراً إنسانياً لمختلف الشعوب الآسيوية الرعوية والسامية البدوية . تمتزج وتذوب في سكان الرافدين وتتبنى حضارتهم وتسهم بتطويرها ، من دون أي صراعات عرقية وحروب أهلية على خلاف بعض الأوطان التي ظلت الصراعات الدينية والعرقية هي الطاغية على تاريخها :

«دخلت أرض الرافدين عبر ممرات الجبال الشرقية والشمالية موجات غازية من الأقوام والشعوب الجبلية والتي اختلطت بسكان بلاد الرافدين والشرق العربي عامة ، اختلاطاً واسعاً وتركت آثاراها في شمال العراق ، في نوزي ، بالقرب من كركوك وهي أهم مراكز الحضارة الحورية ، وكونت في الامبراطورية الميتانية ، الطبقة الأرستقراطية العسكرية المعروفة باسم

ماريانو ، وقد شاركت في تكوين حضارة البلاد وثقافتها وبخاصة في الفنون التشكيلية من نحت ونقش وأختام .

وقد هاجم بعض هذه الشعوب دول بلاد الرافدين وعمل على تقويضها . فقد أضعف صراع الملوك الأكديين مع الكوتيين (الغوتيين) ، واللولوبين مملكة أكّد وأدى الى انهيار الحكم الأكّدي (أواخر الألف الثالث) . وعمل العيلاميون والكاشيون على تدمير الدولة البابلية الأولى . ودخل الحثيون المسيطرون على آسية الصغرى في حروب مريرة مع الآشوريين في أواخر الألف الثاني ق .م وكذلك الأورارتيون ، الذين شكلوا مملكة هامة حول بحيرة وان في الألف الأول ق .م .

أما اتحاد القبائل الايرانية بزعامة الميديين فقد عمل على تقويض أركان الامبراطورية الآشورية ٦١٠ ق .م في حين أدى توحيد الفرس والميديين بزعامة قوروش الى اختلال ميزان القوى في آسية الغربية والى قيام صراع بين فارس وبابل انتهى بسقوط بابل بيد الفرس عام ٥٣٩ وبزوال آخر دول بلاد الرافدين في العصور القديمة .

لقد عاشت هذه الشعوب القديمة في بلاد الرافدين ، وهي مختلفة الأصول واللغات في تفاعل وتبادل مستمرين ، وقامت بينها صلات في السلم والحرب تمثل وقائعها صحائف التاريخ القديم . فقد سعى الرحلّ من البدو والرعاة الجبليين لاحتلال المناطق الخصبة والسيطرة على السهول وطرق القوافل . ولكن في البيئة الزراعية وفي وديان الأنهار قامت المجتمعات الحضرية المستقرة ، مجتمعات الفلاحين والصناع والتجار في القرى والمدن . وفي هذه المجتمعات المدنية حل الانتماء الى المدينة والمعبد محل الانتماء الى القبيلة . وعندما خط الناس طرق المواصلات والقوافل التجارية والجيوش اشتدت قوة الحكومات واتسعت سلطة الدولة وقامت الممالك الكبيرة والامبراطوريات ، جرى تنقل السكان ونقلهم على نطاق وساع حاملين معهم لغاتهم وثقافاتهم وعاداتهم . ومن هنا يمكن القول إننا عندما نتكلم في التاريخ القديم عن السومريين والبابليين والآشوريين والآراميين ، فإننا لا نعني بذلك عروقاً ، بل مجتمعات سياسية مدنية . فعندما تظهر الدولة وتتلاشى العروق ضمن الشعوب المكونة لها . أما استمرار العوامل العرقية بعد إنشاء الدولة فإنه يكون مدعاة لضعفها وربما لانهيارها .

إننا سنرى عند دراستنا لتاريخ دول بلاد الرافدين أنه لم يقم فيها في تاريخها الطويل صراع عرقي . فالعوامل الاقتصادية والاستراتيجية هي التي كانت أكبر تأثيراً في تحرك الدول

وفي إثارة الغزوات والحروب . وعلى الرغم من العنف الذي رافق تقلب الدول والسلالات الحاكمة ، فقد قامت في بلاد الرافدين حضارة مشتركة أسهم في صنعها السومريون والأكّديون ، والآشوريون والبابليون وغيرهم . . ولم تكن هذه الحضارة إلا جزءاً من حضارة الشرق العربي القديم كله . وفي تحليل مكونات هذا التراث الحضاري العظيم ليس بالمستطاع دائماً أن نحدد دور كل مجتمع من المجتمعات . فأين ينتهي جهد السومريين ، وأين يبتدىء دور الأكّديين؟» .

من كتاب «دول وحضارات في الشرق ـ عيد مرعي ومحمد فرزات ـ ص 60-61» .

* * *

عودة «الشعوبية» الى التاريخ الحديث

هذه لمحة تكشف عن كيفية إعادة استخدام المفاهيم التاريخية بعد قولبتها المعاصرة من أجل أهداف سياسية طائفية عنصرية . علماً بأن هذه العنصرية الطائفية لم تكن حكراً على أهل السنة بل اشترك بها الجميع من مسيحيين وشيعة وغيرهم : فكما تبين لنا هذه اللمحة أن أحد منظري «الشعوبية» الجديدة هو السيد هاني الفكيكي أحد قادة حزب البعث التاريخيين وهو من أصل جنوبي شيعي ، لكن أصله الشيعي لم يمنعه من الاشتراك بحملة العداء للشيعة باسم مكافحة الشعوبية الجديدة . علماً أنه نفسه اعترف فيما بعد في مذكراته بأنه كان ضحية للعنصرية الطائفية التي حدثت في حزب البعث وأدت الى طرده من قبل المجموعة العسكرية «السنية» .

مبحث جانبي : الجدل حول الشعوبية

« لقد عادت الشعوبية في القرن العشرين مرة أخرى بأساليب أخرى وأهداف أخرى »

(صبحي محمد جميل ، عميد قسم الدراسات الإنسانية بجامعة بغداد)

« إن من لم يعتقد بأن الجنس العربي هو الأفضل فهو شعوبي آثم »

(خير الله طلفاح ، عم وصهر صدام حسين)

* لقد أثارت النزاعات بين القوميين العرب والشيوعيين العراقيين قضية الطائفية السياسية في العراق مجدداً . ولم يكن التحليل العقلاني لاتجاه بعض الجماعات العرقية والمذهبية نحو حركات سياسية بالذات ليجد إصغاء في خضم هذه المعركة الضارية . لقد

أدت الحقيقة التي تقول بأن الحزب الشيوعي وجد حتى الثورة أنصاراً من الشيعة ، وأن الرضى ـ وهو السكرتير العام ـ كان من أصل شيعي وتوصل الى أن يساوي الحزب الشيوعي بالشيعة ، وذلك ليس في العراق فقط ، بل في بلاد عربية أخرى ، وكذلك أدت هذه الحقيقة الى استعادة مصطلح كان قد طواه النسيان منذ عدة قرون ، والى استخدامه سياسياً وهو مصطلح «الشعوبية» . ولقد اعتبر الكثير من القوميين العرب صراحة أو تلميحاً المصطلحات الثلاثة : الشيوعية ، والشعوبية ، والشيعة ، مترادفات ، إلا أن الشيعة قد كانوا ممثلين في الحياة السياسية جميعها كما كان الحال قبل الثورة . ولقد اكتسب مصطلح الشعوبية معنى خاصا في عراق ما بعد الثورة . ولقد حاول القوميون العرب باستعادتهم لمصطلح من العصور الوسطى الإسلامية أن يقذفوا خصومهم (الشيوعيين وقاسم) بأنهم خصوماً للعروبة .

وعلى العكس من ذلك كان الفكيكي قد أوضح حينما كتب بعنوان «الشيوعية المحلية قمة للشعوبية وامتداد لها» يقول :

«في تلك المرحلة (بعد الحرب العالمية الأولى) من حياة الشعب العربي كانت الشيوعية ظاهرة جديدة في الوطن العربي . وحاول الشعوبيون عن طريقها ان يصلوا الى أهدافهم . ويؤكد هذا القول حقيقة أن قيادة الأحزاب الشيوعية قد أوكلت بانتظام لأعداء العروبة ووحدة العرب من هؤلاء العجم المتلثين كرهاً» .

وشهد هذه المصطلح نهضة جديدة له بعد الثورة الايرانية ، وبعد اندلاع الحرب العراقية الايرانية ١٩٨٠ ، وتقابلنا بين الكتاب العراقيين أيضاً ثلاثة عناصر كان الكتاب السابق ذكرهم قد تناولوها أيضاً . إلا وهي : فكرة العداء الأبدي من الفرس للعرب واعتبار الشعوبية إحدى مظاهر هذا العداء والمساواة الخفية للشيعة بالغلاة أو بالزنادقة» .

من كتاب «الطائفية والسياسة في العالم العربي ـ فرهاد ابراهيم ـ ص 270-274» .

* هذا مثل آخر يبين كيف أن هذه العنصرية الطائفية من القوة بحيث أنها تطغى حتى على العلاقات الرفاقية ، ويتم التعبير عنها بصورة مباشرة من قبل قادة الدولة :

«لقد برز عبد السلام عارف في تاريخ العراق الحديث كأبرز حاكم طائفي ، قد لا يصل إليه في طائفيته سوى أحمد حسن البكر ، الذي كان يختلف عنه بكونه طائفياً يعمل في الخفاء ويخطط بخبث ومكر عظيمين ، ففي الفترة التي حكم فيها عارف ، خاصة بعد

انقلاب ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣ ، كان الشارع العراق يعيش أكبر انقسام طائفي في حياته ، وأصبح الصراع يتصاعد بين الشيعة والسنة الى درجة أصبحت تهدد فيها وحدة الشعب العراقي بأخطار جسيمة ، ولم يخفِ عارف عداءه للشيعة ، وكانت حركة تشرين في واقعها تستهدف تعزيز النهج الطائفي لمؤامرة شقيقتها التي وقعت في شباط ، حتى أنه لم يستطع أن يخفِ امتعاضه من وجود عدد من الشيعة أعضاء في ما يسمى بمجلس قيادة الثورة ، ففي إحدى الاجتماعات لهذا المجلس ، وكان جميع أعضائه قد حضروا مكان الاجتماع في القصر الجمهوري إلا محسن الشيخ راضي ، وهو شيعي من النجف ، حيث كان الجميع ينتظرون قدومه لبدء الاجتماع ، فما كان من عارف إلا أن بادر الحاضرين قائلاً : (لماذا ننتظر هذا العجمي؟ دعونا نبدأ الاجتماع) . وكلمة عجمي تعني في قاموس غلاة أهل السنة كل شيعي ولو كان معروفاً جيداً نسبه العربي . ولا يخفى بأن الذين آزروا عارف في انقلابه على حزب البعث كانوا يشاطرونه كثيراً في آرائه وتوجهاته الطائفية ، وكان قسم من هؤلاء أعضاء في قيادة الحزب نفسه ، ونظرة واحدة للبيان الذي أصدره عارف يوم الثامن عشر من تشرين الثاني ، تبين لنا بعض دوافعه وسوداوية أفكاره . (أدت الهجمات على حريات الشعب التي قام بها الشعوبيون المتعطشون للدماء من أفراد الحرس القومي) . وكلمة شعوبي يعرف العراقيون ما تعني فعلاً ، وهي في قاموس السياسة في العراق تطلق على الشيعة عموما ، وعلى الرغم من ان الحرس القومي من تنظيمات حزب البعث ، وقد نفذ هذا الجهاز مجازر رهيبة وأعمالاً منكرة في العراق ضد الشيعة لصالح الاتجاه القومي ، إلا أن هؤلاء لم يسلموا أيضاً من إطلاق صفة الشعوبية عليهم ، فهم وعلى الرغم من الخدمات الكبيرة التي قدموها لسلطة الانقلاب ، والتي كان عارف شخصياً يشجعهم عليها ، اتهموا بالعداء للقومية العربية ، ومرة أخرى ينتهي انقلاب تشرين الى مذبحة أخرى بحق الشيعة ، وتمتلىء بهم السجون ويطالهم الإعدام والإرهاب والتعذيب . وتفصل أعداد كبيرة منهم من وظائفهم ، ويطاردون في أرزاقهم ، فبعد كل مؤامرة وانقلاب تصب السلطة الحاكمة الجديدة جام غضبها وحقدها على الشيعة وحدهم ، وهكذا كانوا دوماً كبش الفداء عل مذبح الأطماع الشخصية للحكام . ولقد جاءت الوزارة التي شكلها طاهر يحيى بعد ١٨ تشرين سنة صرفة ، ولم تحوِ في دورتها سوى اثنين من الشيعة الذين كانوا في واقعهم أبعد ما يكون عن الشعور بمشاعر أهلهم وعشريتهم» .

من كتاب (البناء المعنوي للقوات المسلحة العراقية ـ العقيد احمد الزيدي ـ ص 83» .

شيعة العراق والنخبة الدينية الشيعية المرتبطة بإيران

يبدو أن التاريخ وسوء الحظ، أوقعا شيعة العراق وسط نارين: نار الحكومات التي اعتبرتهم دائماً على إيران والأعاجم، ثم نار النخبة الدينية المتفرسة عرقياً وسياسياً والتي لم ترتبط أبداً بالواقع العراقي وظلت حتى الآن تعاني من ازدواجيتها الوطنية.

هذه رسالة قارىء عراقي (شيعي) نُشرت في جريدة الوفاق العراقية المعارضة (لندن). إن هذه الرسالة تعبر بصدق وتلقائية عن الرأي الشعبي السائد لدى الأغلبية الساحقة من الشيعة العراقية:

* « الله في عونكم أيها الشيعة »!!

السيد رئيس التحرير المحترم

السلام عليكم وبعد... قرأت والأمل يحز في نفسي رد السيد زيد حمادي على مقالة الباحث «التنويري» (زاهر الجيزاني) ولم يبق أمام السيد زيد حمادي سوى أن يشتم العراق وشعبه بل لم يبق أمامه سوى أن يرمي شعب العراق في البحر، أو يرجمه بحجر دفاعاً عن إيران. وإذا كان السيد زيد حمادي يدافع عن الشورجة - البورصة المالية - فالعراقيون العرب الشيعة لم يستفيدوا ديناراً واحداً من هذه البورصة.. ففقراء الشيعة سواء في بغداد أو الجنوب منذ الخمسينات يعانون من انعدام السكن والتعليم والصحة والتنظيم السياسي بسبب اضطهاد السلطة لهم ومع ذلك لم تسهم هذه البورصة المالية في التخفيف عن معاناتهم في حين كان تجارها وغالبيتهم من ذوي الأصول الايرانية يعيشون في بيوت فاخرة وأرصدة كبيرة. أمام مائة ألف صريفة تضم نصف مليون عراقي عربي شيعي يسكنون فوق المزابل وفي وسط مياه الصرف الثقيلة وفي ذيل بغداد - ولم يفكر هؤلاء في إنشاء صندوق إعانة لهم. أو التبرع بتحسين سكناهم، أو مساعدتهم مالياً أو حث المراجع الدينيين على طرح مشكلتهم على نطاق علني.. انتظر فقراء الشيعة حتى ظهور عبد الكريم قاسم.. ليعاملهم بوصفهم مواطنين عراقيين وينصفهم.

أما المرجع الديني ا(السابق) فما يزال صدى الحديث عن الرصيد الملياري المسجل باسم وكلائه في الخارج، يتفاعل بين فقراء الشيعة في المنفى.. وفي الأردن ما يقرب من ٥٠ الف عراقي عربي شيعي - جائع ذليل ولهم الحق في هذه الثروة، مثلما لهم الحق أيضاً في الثروة التي سرقها صدام.

هذه الكتلة الكبيرة المصروعة على رمضاء العراق تماماً مثل إمامهم الشهيد الحسين عليه السلام المصروع على أرض كربلاء لا ناصر لهم ولا معين فالطرد يأتيهم من جهاتهم الأربع في (مرقد السيدة زينب عليها السلام) الشيعة العرب العراقيون هم الفقراء والجائعون إنهم يتسولون والأحزاب السياسية المرتبطة بايران تستلم الأموال باسمهم ، باسم آلامهم وتعاملهم متسولين وأذلاء بل أكثر من هذا ، تعلمهم وتدربهم على التسول وتذلهم في اليوم الواحد مئات المرات من خلال أوراق طعام حقيرة يتصدق بها هذا المكتب أو ذاك من مكاتب المراجع الايرانيين ، أما الباحث «التنويري» (ز . ج) فقد أصاب كبد الحقيقة وعبر عن آلامنا وفتح أعيننا على حقيقة غائبة عنا ، وآن للضحية أن تقول كلمتها أمام جلاديها وأمام خادعيها على حد سواء ، وسيكون الاتهام جاهزاً سلفاً هنا (جماعة صدام ـ مخابرات ـ خريج المدرسة العفلقية ـ الخ) والسؤال هل جماعة صدام ومخابراته وخريجو مدرسته يعيشون فقراء وجائعين ومطرودين؟ كلما يعرف أن هؤلاء احتازوا على أفضل الأراضي وأفضل المناصب وأفضل الأرصدة . وكذلك أعوان المراجع الايرانيين لهم في المنافي أفضل الامتيازات ولا أقول سوى ـ إلى الله المشتكى من هذه المحنة . وقد أثبتت تجارب ١٩٩١ أن ايران ليست العمق الاستراتيجي للشيعة العراقين وهي عمق للايرانيين وليس الى سواهم .

والعراقيون العرب الشيعة هم الذين يحق لهم التحدث عن اضطهادهم ومأساتهم ولديهم كفاءات سياسية وثقافية قادرة على ذلك ولا يحق للشيعي الايراني أو الباكستاني أو الهندي أو الأفغاني التحدث نيابة عنهم» .

المخلص زيدان العماري

جريدة الوفاق 4-7-1996 » .

* * *

مثال من تاريخ الشعوبية في سوريا

يبدو أن المطالبة بالمساواة ورفض هيمنة الأقلية الأرستقراطية العربية ، لم يكن أمراً شائعاً في العراق فقط ، فهذا نموذج من سوريا التي عرفت تيار «الشعوبية» بدرجة أقل من العراق :

* **«ديك الجن الحمصي**

ولقد كان دون هذين بمراحل بعيدة شاعر آخر هو عبد السلام بن رغبان (٧٧٧ـ٨٤٩) الملقب بديك الجن لبشاعة سحنته وخضرة عينية . وهو من أبناء حمص لزم موطنه طول

حياتهَ فلم يبرحه . وكان من الراجح من ذرية نصراني اعتنق الاسلام في موقعة مؤتة . على أن شاعرنا هذا يتمتع بأهمية خاصة لأنه عمد في شعره ـ الذي لم يبقَ منه إلا القليل ـ الى تأييد قضية الشعوب المغلوبة في وجه مفاخر العرب ، ودافع عن تفوق السريان ـ أي السريان المستعربين ـ ضد العرب . لذلك كان خليقاً بأن يعتبر رائداً لتلك الحركة الفكرية الهامة التي عرفت بالشعوبية . ولقد كان ديك الجن شيعياً معتدلاً ، ومع اعتداله أقرب الى التهاود ، إذ بذر أمواله في التماس الطرب والسعي وراء اللذات . وفي ساعة اهتياج من ساعات الغيرة الشديدة عمد الى امرأته ـ وكانت قبلاً أمة نصرانية عنده ـ فسدد إليها طعنة قاتلة . لكنه تثبت بعدئذ من براءتها ، فكان طيفها لا ينفك يعتاده ، فيبرح به الألم ، على ما وصف في شعره الذي يتدفق عاطفة»

عن كتاب «تاريخ سوريا ـ فيليب حتي ـ ص 182» .

* * *

كوارث الطبيعة والصراع الإيراني ـ التركي

هذا الجدول يكشف لنا عن توالي الكوارث الطبيعية والسياسية على العراق ، من ناحية غدر الطبيعة والنهرين الكريمين . ومن ناحية الاجتياحات الآسيوية (الايرانية ـ التركية) التي كانت تستفيد من غدر الطبيعة . علماً أن هذه هي الكوارث الكبرى ، أما عشرات الكوارث الصغرى فلا تذكر . ثم إن الصراع الايراني ـ التركي كان ليس فقط يستخدم أرض العراق في الحروب . بل كان أيضاً يستخدم الشعب العراقي كوسيلة أساسية في هذه الحروب من خلال تقسيم العراقيين الى طرفين أساسيين في هذه الحروب : شيعة وسنة . مع ملاحظة أن الجدول يتحدث عن ذبح الأتراك لـ (30) الف عراقي شيعي وليس (فارسي) كما العادة التي جرى استخدامها من قبل المؤرخون بتسمية الشيعة العراقيين ، ولجأ اليها أيضاً المؤرخ (حنا بطاطو) رغم صدق نواياه وعلميته المحترمة .

إن المطلع على تاريخ العراق منذ فجر التاريخ يمكنه ان يكتب مثل هذا الجدول عشرات المرات بسبب ديمومة الحالة الكارثية بالتعاضد بين غدر الطبيعة الكريمة واجتياحات الشعوب الآسيوية الرعوية والقبائل الصحراوية :

الكوارث التي حلت ببغداد خلال القرون ١٧ و١٨ و١٩ التي نملك سجلاً بها

١٦٢١	مجاعة .
١٦٢٣	الفرس يذبحون «مئات الألوف» من السُنّة ويبيعون «آلافاً» منهم عبيداً .
١٦٣٣	فيضان .
١٦٣٥	وباء .
١٦٣٨	مجزرة عامة نفّذها الأتراك راح ضحيتها ٣٠ الف شخص معظمهم من الفرس .
١٦٥٦	فيضان .
١٦٨٩	مجاعة ووباء .
١٧٣٣	حصار فارسي : «أكثر من ١٠٠ الف ماتوا جوعاً» ـ طاعون .
١٧٧٧-١٧٧٨	حرب أهلية في بغداد .
١٧٨٦	فيضان ـ محصول فاشل ـ مجاعة ـ اضطرابات مدنية .
١٨٠٢-١٨٠٣	وباء ـ فناء «معظم سكان العراق (؟!)» .
١٨٢٢	وباء ـ فيضان .
٢٨٣١	وباء ـ فيضان ـ حصار ـ مجاعة ـ هبط عدد سكان بغداد من ٨٠ الف نسمة الى ٢٧ الفاً .
١٨٧٧-١٨٧٨	وباء ـ مجاعة .
١٨٩٢	فيضان .
١٨٩٥	فيضان .

من كتاب «العراق ـ بطاطو ـ ج ١ ـ ص 34 » .

* * *

ديمومة الميراث في الحياة اليومية

هذا الموضوع على طرافته ، فإنه يذكر مسألة حقيقية عن ديمومة التقاليد الثقافية لدى الشعوب دون إدراك واعٍ بل بصورة تلقائية دفينة في أعماق الشعور الجمعي :

لا جديد تحت شمس العراق

سألتني قبل أيام الصحافية الاذاعية لوريزا سواقي ، من اذاعة سبكترم ، ما اذا كان هناك شيء من تراث العراق القديم ، ما زال حياً في العراق . وهو سؤال عميق في الواقع وطالما خطر للأجانب عند زيارتهم لهذا البلد العربي . بالطبع يشعرون بصدمة عندما يصلون الى هناك فعبثاً يبحثون عن برج بابل والحدائق المعلقة وقصور الرشيد ومدينة المنصور . فلا يجدون منها شيئاً . ولكن هذا بحث ساذج . فالمباني لا تشكل إلا جزءاً ضئيلاً من تراث

الأمة . من يسأل عن تاريخ العراق فليبحث عنه في شعب العراق . كثير من التقاليد وأساليب الحياة العراقية يعود تاريخها الى عهود البابليين والسومريين .

خطر لي ذلك وأنا أتذكر اكتشافات العالم الآثاري الفرنسي جان بوترو . سبق لأولاد الحلال أن هربوا الى امريكا ثلاثة ألواح بابلية . درسها الخبراء الأمريكان فلم يجدوا فيها أي شيء يتعلق بمعالجة مرض الإيدز أو صنع قنبلة ذرية جديدة فتركوها جانباً . لم يفهموا محتوياتها قط ، حتى قدر للعالم الفرنسي بوترو أن يلقي نظرة عليها . وفي الحال وكأي رجل فرنسي أصيل ، اشتم فيها رائحة أطعمة لذيذة ، فترك كل شيء وصب جهوده عليها . فتح قنينة شراب وشمر عن ساعديه . وكان ما اكتشفه 35 وصفة مفصلة للطبخ . واتضح من قراءته للنصوص ، ومن قراءتي لوصفه لها ، أنه لا جديد هناك تحت شمس المطبخ العراقي . فمعظم الطبخات الوارد ذكرها على هذه الألواح المسمارية الثلاثة تتعلق بإعداد لمادة لا تكتمل أي وليمة عراقية بدونها ، وأقصد بها «المرق» المتكون من الخضروات ولحم الخروف أو لحم العنز أو لحم الدجاج . وفيها اشارات لتطييب المرق بالثوم والكزبرة والكمون . ويعتمد أسلوب الطبخ على السلق بالماء .

واتضح أن هذه الألواح تعود الى عهد الملك حمورابي (1792-1750 قبل الميلاد) . وهذا اكتشاف أزعجني كثيراً فإنني قضيت ثلاثين سنة من عمري ووالدتي رحمها الله تطبخ لي وتطعمني بأكلات من أكلات ذلك الملك البابلي المهيب وأنا أتدلع وأتدلل عليها وأركل بحذائي ما أعدته من طبيخ دون أن أدرك حقيقة الأمر . ثلاثون سنة من عمري وأنا آكل طعاماً بابلياً سومرياً دون أن أعرف .

تعتبر الآن هذه الألواح الثلاثة المكتوبة بالحروف المسمارية أقدم وصفات للطبخ عرفها الانسان . وتدل أيضاً على مدى اهتمام أبناء الرافدين ببطونهم تماماً كما يفعلون اليوم . ألم أقل لا جديد تحت شمس العراق؟

وقد عقدت جامعة ييل ندوة «مأكولاتية» خاصة بشأن هذه الاكتشافات . وكان من أهم ما قدم فيها للمشاركين طبخة دجاج بالبهارات حسب تعليمات طباخ الملك حمورابي . وأعرب الجميع عن عميق تقديرهم لذوق الطباخ البابلي . وربما لن تمضي فترة طويلة حتى تتبنى مطاعم كنتوكي هذه الوصفة القديمة ، وتقوم بتسويقها مع الرز باسم دجاج حمورابي ، وكما أتوقع سيقدمونه في العراق في المهرجانات والندوات الفكرية باسم دجاج صدام .

ولكن لا حاجة للأخت لوريزا سواقي لأن تنتظر حتى ذلك الوقت . شرفينا بزيارتك لتعد لك زوجتي وليمة بابلية من المرق حسب مواصفات وتعليمات طباخ حمورابي ، بل ربما حمورابي نفسه ، فلا بد أنه كان ماهراً في الطبخ كما كان بارعاً في التشريع ، ككل أبناء الرافدين .

«خالد القشطيني - جريدة الشرق الأوسط - 25-2-1997» .

* * *

الأصول العراقية للمفردات الأعجمية

إن الجهل بمعرفة اللغات القديمة لشعوب المنطقة الأصلية مثل السومرية والسامية والمصرية والبربرية أثر كثيراً على معرفة أصول اللغة العربية . وقد لعبت «العقدة الايرانية» دوراً بالاعتقاد بأعجمية وفارسية الكثير من هذه المفردات . هذا مثال على أهمية ربط الحضارة العربية ولغتها بما سبقها في المنطقة :

«وفي عام ١٩٨٠ ، أحصى الأستاذ طه باقر ما يقرب من ٢٥٠ كلمة تعود الى أصل سومري أو بابلي ، في حين أنها كانت تعد من الدخيل أو الأعجمي في اللغة العربية . ونقتبس في أدناه عدداً من تلك المفردات :

الكلمة في العربية	أصلها البابلي
أباب (الماء)	abubu
أتون	utunu (سومرية الأصل)
آجر	agurru
أرجوان	argamanu
ذريون (نبات زهري)	adranu
إقليم	kalam (سومرية الأصل)
بط	busu
بلور.	burallu
دكان	tukkanu (سومرية الأصل)
تنور	tinuru
صنم	salmu
سفرجل	supurgillu
سوسن	shishnu
كبة	kuppatu
هيكل	ekallu (سومرية الأصل)
يرقان	amurriqanu

من كتاب «من سومر الى التوراة - د . فاضل علي - ص 147 - 148 » .

الفصل الثالث

تجديد الهوية الشرقانية «العربية»

- عالم عربي أم عالم شرقاني؟
- مع الوحدة العربية وضد القومية العربية
- بلدان الهلال الخصيب والهوية المشرقية المنسية
- ملاحق معلوماتية عن تارخ بلدان المشرق العراقي ـ الشامي ، وعن وحدة الهلال الخصيب والحزب القومي السوري

عربي.. عروبي.. اعرابي..
«العالم الشرقاني» اسم جديد لهوية مزقتها الكلمات..

كانت المرة الأولى التي واجهتني بها هذه الإشكالية يوم ٥ حزيران ١٩٦٧ . كان عمري آنذاك يتجاوز ١١ عام ، ولم أزل في أولى خطوات اكتشاف الذات والهوية والانتماء الى الجماعة . استيقظت ذلك الصباح على وهج حزيران وأناشيد المذياع وجدال أهل الحارة . كلمة «عرب» كانت تتردد بكثرة ذلك اليوم : العرب هجموا . . العرب سيرمون اسرائيل في البحر . . العرب تقدموا . . العرب العرب . . .

أصابتني الدهشة منذ تلك الساعة ، واحتجت الى أعوام لكي أفهم ماذا يقصد الناس بكلمة «عرب» ، وحتى الآن لم يكتمل فهمي تماماً . منذ صغري كنت أسمع كل يوم هذه الكلمة ولكن بمعنى أقرب الى الشتيمة . نحن سكان أحياء الطين المهاجرين من الجنوب ، كان أهل بغداد (المتمدنون) يطلقون علينا تسمية «عرب» وكذلك «شروگَية ، أي شرقية» ، القادمين من محافظات العراق الجنوبية الشرقية . منذ صغري تعلمت أن كلمة «عرب» هي عكس كلمة «حضر» ، وهي رديف للفقر والتخلف والبداوة . وعندما كان يأتينا البدو مع جمالهم ليبيعوا الملح ، كان الناس يقولون : (جاء العرب) . كنت متيقناً أن رجال العرب مثل أبي ، تقليديون ويرتدون العقال العربي ، والنساء مسكينات يرتدين العباءات السوداء . أهل المدينة متطورون مثل الأوروبيين ، والكثير منهم مسيحيون ، وحتى أسماءهم شاعرية ومعطرة مثل طباعهم : لؤي ، عُدي ، دُريد ، مي ، منير ، سهى ، . . . بينما أهلي «العرب» فأسماؤهم تبدو مضحكة وسيئة في عيون المتمدنين : جاسم ، گاطع ، حنتاو ، صينية ، موزة ، شمخي ، صلبوخ ، وحتى صهيون !

وأهل الحضر دائماً لونهم أبيض كالحليب ، نساءهم سافرات ورجالهم أفندية مع ربطات عنق وأحذية لماعة ، وهم وأولادهم يرتدون البيجامات . بينما نحن «العرب» محروقون بالشمس والغبار ولهذا يسموننا (أولاد الملحة) ، ونرتدي الدشاديش «المتخلفة» . وكنت أعتقد أن اللغة الفصحى ولهجة الأفلام المصرية هي من شيم أهل الحضر والمدنية بينما نحن العرب لهجتنا ثقيلة مخزية . ولكي ندخل فعلاً في عالم الحضارة كنا نجهد أن نتخلص من لهجتنا

ونرطن بكلمات فصيحة ، فغصبنا أنفسنا بمناداة أبينا (بابا) بدل (بويا) وأمنا (ماما) بدل (يُمّا) .

هذه الصورة التي كنت أحملها عن العرب حتى يوم ٥ حزيران ١٩٦٧ ، لهذا فان أول شيء خطر في بالي ذلك الصباح أن أعمامي «العرب» هجموا بفقرهم وخيولهم وسيوفهم على الاسرائيليين . وكنت أداري نفسي بأمل أن لا يكون أعمامي وحدهم في الحرب إنما معهمْ عرب الخليج والسعودية وربما الأردن ، لأني سبق وأن رأيت في الصحف أنهم يرتدون العقال العربي . ولم أصدق مذيع تلفزيون بغداد الأفندي الجميل الأنيق وهو يقول بغضب وتحدي : «نحن العرب» ، ثم الأكثر عجباً أن عبد الحليم وفيروز وناس متحضرين كثيرين ينشدون أيضاً : «نحن العرب» . الحقيقة أن أول من أوضح لي هذا الالتباس صديقي محمود الفلسطيني ، عندما أفهمني ذلك اليوم في المدرسة : ان هناك عرب متخلفين فقراء واحدهم يسمى عُربي (العين مضمومة) ، وهناك عرب متطورين وأغنياء واحدهم يسمى عَرَبي (العين مفتوحة)! وبين الضمة والفتحة هناك عالم لا محدود من الفروق الحضارية ومشاعر متناقضة تتراوح بين التفوق والعار .

أقولها بصراحة ، أني خلال أعوام طويلة لم أتخلص تماماً من مشكلة انتمائي الى قوم اسمهم «عرب» . مرحلة الشباب الأولى عشتها بثورة وتعصب قومي عربي مراهق حالم . يبدو أن التعصب لقضية ما يأتي عادة من الشعور الدفين بالعار ازاء هذه القضية . ثم عشت بعدها سنوات المرحلة النقيضة ، حيث تمردت ورفضت كل ما هو عربي وقومي بحجة الانتماء الطبقي والأممي ، التقدمي والمتحضر ، والسبب يبقى هو ذاته ، أي الشعور الدفين بالعار . والآن ، ومنذ بضعة أعوام ، وخصوصاً بعد تجربة العيش في أوروبا والمواجهة اليومية مع الاستعلاء الأوروبي من ناحية والانمساخ العربي من ناحية أخرى ، بدأت أكتشف هويتي الحقيقية ، عبر اكتشاف حقيقة هوية الآخر (فرداً وجماعة) . الانسان الآخر بأبعاده السياسية والعقلية والجغرافية والتاريخية . عرفت أن هذه المشكلة لا تخصني أنا وحدي ، بل إن جميع الشعوب الناطقة بالعربية تعاني من (تمزق كلامي ودامي) في الهوية ، أدى ويؤدي الى عذابات وصراعات وحروب أهلية لا تتوقف . منذ صبيحة يوم ٥ حزيران ١٩٦٧ ، وأنا أعيش وأتابع هذه الإشكالية التي تزداد حدة وتعقيداً عاماً بعد عام وبعد كل حدث . كل يوم يزداد يقيني بأن «عرب» ليست كلمة واحدة وليست معنى واحد وليست انتماء تاريخي أو

جغرافي أو سكاني (عرقي) واحد . إنها (كلمة ـ هوية) لا تكف أن تكون عرضة لعواصف التفسيرات والحركات الإعرابية .

كلمة واحدة بمعاني متعددة

هناك حكاية عن أربعة مهاجرين من بلدان المغرب العربي ، قرروا يوماً وضع إكليل من الزهور عند المكان الذي استشهد فيه رفيقهم الجزائري أثناء تظاهرات الطلبة في باريس ، منذ بضعة أعوام . في طريقهم الى المكان تجادل هؤلاء الشبان عن العبارة التي سيكتبونها على الإكليل . أحدهم قال : باسم الجالية «العربية» ، فرد عليه الآخر معترضاً : باسم الجالية «الشمال افريقية» ، أما الثالث فقد طالب ، باسم الجالية «المغاربية» ، والرابع أصر : باسم الجالية «الإسلامية» ، حتى احتدم الجدل وتطور الى شجار أدى الى تمزق الاكليل وخراب المشروع .

هذا مثال واضح على إشكالية الهوية التي انغمر فيها العقل العربي . فما أسهل أن نستمع الى البعض من مختلف البلدان العربية يبذل الجهد لكي ينفي تهمة أن يكون عربياً ، ليبرز انتماءه الوطني أو العرقي أو الديني أو القاري .

والمشكلة تكمن في أن تسمية «عرب» غير قادرة على إبراز معناها الجيوسياسي الشامل لكل الأعراق والطوائف والقوميات القاطنة في هذه البقعة المسماة العالم العربي . هذه التسمية ارتبطت منذ تكوينها ، تاريخياً بالعنصر العربي وواقعياً باللغة والثقافة العربية . تسمية الأوروبي مثلاً ، لا تتضمن إمكانية تفسيرها بغير المعنى الجيوسياسي بسبب عدم وجود عرق أوروبي ولغة أوروبية بل هنالك لغات وثقافات وأعراق لها روابط ومصالح مشتركة تجتمع تحت اسم الانتماء الأوروبي الجيوسياسي .

عندما يلتقي مغربي من أصل بربري مع عراقي من أصل تركماني ، أمن المعقول أنه لا شيء يجمع بينهما ، لكونهما ليسا من «عرق» عربي؟ كيف يمكن أن يعبرا عن انتمائهما المشترك لمنطقة جيوسياسية واحدة لها ما لا يحصى من الروابط والمصالح المشتركة وتجتمع تحت لواء جامعة الدولة العربية . بإمكان هذين ، البربري والتركماني ، أن يقولا نحن من الشرق أو الإسلام أو العالم الثالث ، ولكنهما سوف يجدان صعوبة حقيقية في القول بأنهما «عرب» للتعبير عن انتمائهما المشترك لكتلة جيوسياسية واحدة . وعندما يقول العراقي الناطق بالعربية لأخيه العراقي الناطق بالسريانية ، بأنهما عراقيين ، الأمر مقبول ، لكن

السرياني سوف يجد صعوبة بتقبل عبارة (نحن عرب) لأنه يفترض مباشرة المعنى العرقي لهذه العبارة . لهذا يميل الكثير من العرب الى القول بأنه شرقي أو من الشرق الأوسط أو من الضفة الشرقية للبحر المتوسط أو من آسيا أو افريقيا ،أو أي اسم آخر للتعبير عن انتمائه لمنطقة تشترك بعوامل الوحدة الجيوسياسية اسمها العالم العربي . ونفس الحالة من التشابك والتردد اللغوي نواجهها على الصعيد السياسي ، أن يلتقي شخصان من نفس البلد أو حتى من نفس العائلة ، فيخاطب أحدهما الآخر : أنا فينقي لبناني وأنت عروبي متنكر لانتمائك الوطني للبنان . . أنا عراقي أصيل وأنت عربي بدوي غازي لوطني . . انتم العرب أبناء الصحراء ونحن المصريين أبناء الحضارة الفرعونية العريقة . . تاريخنا نحن أبناء سومر ، أو قرطاج ، أو فرعون ، أو ما شاء التاريخ ، بينما هم أو أنتم أحفاد الصحراء والتاريخ المتأخر عن تاريخنا بآلاف السنين . نحن وأنتم وهم ، وما لا يحصى من التشابكات اللغوية التي لا تكف عن التعقيد والتبسيط والاستغلال الساذج وتشويه الحقائق والحروب الصغيرة والكبيرة . كل هذا من اجل تجنب المعنى الفلاني لكلمة «عرب» بسبب تعدد التفسيرات والاستخدامات لهذه الكلمة التي ارتبط بها تاريخنا منذ الفتح العربي في القرن السابع وحتى الآن .

فينيقي

الاشكالية اذن تتمحور أساساً حول المعاني المتعددة والمتناقضة لهذه الكلمة ـ المصطلح «عرب» . يمكننا تحديد المعاني المعروفة والمتداولة بخمسة . هنا محاولة للدخول في تفاصيل هذه المعاني المتنوعة ، على أمل الدخول في تفاصيل التمزقات الواعية وغير الواعية التي نعاني منها أفراداً وشعوباً ، في دروب البحث عن الذات والهوية .

١- المعنى العرقي القومي

وهو المعنى السائد والمستخدم رغم أن الكثير يحاول إخفاءه بمعانٍ أخرى . فالعرب حسب هذا المعنى هم مجموعات من البشر ينتمون الى أصول قبلية وثقافية واحدة ، وتاريخهم الحضاري يبتدىء مع ظهور الاسلام وخروجهم من الجزيرة الى باقي المناطق التي تسمى الآن البلدان العربية . ولهؤلاء البشر مثل جميع الشعوب لغة واحدة هي اللغة العربية . وحسب هذا المعنى فإن القبطي عرقياً هو ليس عربياً ، والآشوري ليس عربياً ، والبربري كذلك ، أغلب المجاميع السكانية القاطنة في هذه البلدان العربية هي ليست عربية بالمعنى العنصري والمحدد للكلمة . وعلى هذا الأساس فإن تاريخ العرب ، ثقافة وسياسة وديناً وتراثاً ووجوداً بشرياً ، يبتدىء منذ القرن السابع ومن منطقة محددة هي الجزيرة العربية ، ثم يمتد ويتفرع وينمو بعد

الفتح العربي الاسلامي ، ليشمل جميع المناطق التي تم تعريبها ، أو ما يسمى اليوم بالعالم العربي .

٢ - المعنى الاجتماعي :

وهذا المعنى يكاد أن يكون سائداً على المستوى الشعبي والتاريخي . ويمكن اتخاذ مثالي الشخصي الذي ابتدأت به الموضوع نموذج لهذا لمعنى . والحقيقة ان كلمة «عرب» ارتبطت في أصلها اللغوي التاريخي بمعنى البداوة ثم فيما بعد اتخذت معناها القومي . المعنى اللغوي لكلمة «عرب» يقصد الناس المتنقلين ، ومن المحتمل أن يكون هذه الكلمة ابدال مع كلمة «عبري» أي العابرين والمتنقلين . وهنالك فرضية أقوى تعتبر كلمة «عرب» متأتية من «غرب» خصوصاً ن العين والغين تتبادلان في اللغات السامية ، واول من اطلق هذه التسمة سكان العراق الآشوريين في القرن الثامن قبل الميلاد على القبائل البدوية القاطنة في «غرب» الفرات(2) . ويبدو أن هذا الخلط بين الانتماء العرقي للعرب والاتهام بالبداوة وعدم التحضر موجودة منذ القدم . حتى القرآن يشير الى هذه المسألة بالحديث عن الأعراب : «ومن حولكم من الأعراب منفقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق . . .» (سورة التوبة : الآية ١٠١) . حتى مؤرخينا والباحثين في تاريخ الأدب العربي قد وقعوا في إشكالية الخلط بين المعنيين . دائماً نسمع من يذكر مقولة ابن خلدون الشهيرة (اذا عربت خربت) متناسين انه لا يقصد المعنى «العرقي» إنما المعنى «الاجتماعي» ، وبالذات بمعنى قبائل بني هلال التي اجتاحت وخربت المغرب . لأن ابن خلدون نفسه يفتخر بانتمائه للعرب وأصله المعروف المنحدر من قبائل اليمن . ويمكننا قول نفس الشيء عن الكثير ممن اتهموا بالشعوبية من قبل مؤرخينا ، بسبب الخلط بين المعنيين البدوي والعرقي . وهذا الخلط في المعنى نجده حالياً في جميع لهجات البلدان العربية . دائماً هنالك كلمة ما مشتقة من «عرب» تستخدم للاستصغار والاتهام بالبداوة : أعراب ، عُربان ، . . . وغيرها !

٣ - المعنى الجيوسياسي :

هذا المعنى يرتبط أساساً بحقيقة واقعية وتاريخية مناقضة تماماً للمعنى العرقي . تبدأ الحكاية مع خروج القبائل العربية من الحجاز حاملة رسالة الاسلام والشروع بفتح وتعريب بلاد الرافدين ومصر وشمال افريقيا . ومنذ الأعوام الأولى لتكوين الدولة العربية الاسلامية

بدأ المعنى الجيوسياسي ينافس المعنى العرقي الذي حاول أحياناً أن يعارض وأحياناً أن يتفق ويندمج . القبائل العربية التي استوطنت هذه البلدان ، مهما كان عددها ، ان الارقام تثبت انهم كانوا دائماً أقلية عددية مقارنة بالشعوب الأصلية القاطنة منذ آلاف السنين . ولكن القبائل العربية كانت تمتلك القوة العسكرية والسياسية بالاضافة الى القوة الفكرية والروحية الكبرى المتمثلة بالاسلام . في البدء ومع الدولة الأموية كانت لا تزال القبائل العربية لم تفقد بعد خاصيتها العرقية والتمايز عن الشعوب الأصلية (الموالي) القاطنة في هذه البلدان . لكن بعد قرون من التزاوج والتمازج ، مع ظهور الدولة العباسية وصلت حالة انصهار العنصر العربي في الشعوب الأصلية الى ذروتها . وهذا يفسر ردة الفعل القوية من قبل بعض المتمسكين بالنقاء العرقي ازاء حالة الذوبان الحضاري هذه ومحاولة تقديس القبلية العربية باسم مكافحة الشعوبية .

في العصر الحديث اتخذ هذا المعنى الجيوسياسي طابعاً رسمياً مع تكوين جامعة الدول العربية وانبثاق مفهوم الدول العربية أو العالم العربي . هذه الدول تعترف بوجود أقليات ثقافية ودينية متنوعة في بلدانها ، وكذلك بانتمائها العربي الجيوسياسي البعيد عن الانتماء «العرقي» . مصر والمغرب والعراق دول عربية مثلما تقول البرتغال البانيا والسويد دول اوربية ، فالانتماء هنا انتماء سياسي جغرافي ومصالح مشتركة ، ولا يشترط أي انتماءً عرقياً أو قومياً بالمعنى المباشر . هذا المعنى يفترض أن الأرمني المقيم في بلد عربي والقبطي والبربري هم عرب ، كما الايطالي الكاثوليكي والألباني المسلم والألماني البروتستانت هم أوروبيين ، وكما المصري والسنغالي والافريقي الجنوبي الأبيض هم افريقيين . انه انتماء جغرافي سياسي لا يعني أي انتماء عرقي أو اجتماعي .

٤ - المعنى العروبي القوماني :

وهذا المعنى له جذوره القديمة منذ انبثاق مفهوم العرب . ويمكن أن نجد أساسه حتى في القرآن عندما أكد على : ﴿أنزلناه قرآناً عربياً . . .﴾ (سورة طه : الآية ١٠٣) . ثم اصرار قادة العرب على أن يكون خليفة المسلمين من نسل عربي شريف وان تكون اللغة العربية هي لغة الدولة والدين والحضارة . ووصل الى ذروته في هذا الاتجاه الكفاحي في الفترة العباسية مع اندلاع الصراع مع الحركات الشعوبية المعادية للهيمنة العربية . ظل هذا الاتجاه خامداً خلال قرون الحقبة العثمانية وكاد أن يذوب في النسيان في الحالة الاسلامية ـ العثمانية المتعددة

القوميات ، لولا انبثاق التيار القومي الأوروبي والحركة الاستعمارية ثم انجرار الأتراك الى التعصب التركي ، وبالتالي دخول العرب في هذا المعترك الكفاحي وبدء تكون حركة القومية العربية في أواخر القرن الماضي واعطاء هذا الاتجاه القديم بُعداً أيديولوجياً وبنية سياسية .

أول ما يميز هذه الحركة انها ترفض الانصهار القومي والثقافي والسياسي في الحالة الأجنبية (عثمانية اسلامية أو اوربية) . ثم الميزة الاخرى المهمة في هذا التيار ، انه حاول بصورة واعية ولاواعية أن يجمع ما بين الانتماء العرقي العربي والانتماء الانساني الجيوسياسي ، تحت شعارات الوحدة العربية والأمة والرسالة الخالدة . فهو من ناحية يعلن ان جميع القاطنين في البلدان العربية هم عرب بغض النظر عن انتمائهم العرقي ، ومن ناحية أخرى يؤكد في تفاصيل دعوته على أهمية العنصر العربي وتاريخ انبثاق القبائل العربية من الجزيرة ، وعلى عروبة الاسلام والانتماء العربي لقادة الحضارة العربية الاسلامية . فأي نصير لهذا التيار يحاول في أعماقه أن يثبت انتماءه «العرقي» العربي لتبرير ولتوكيد انتمائه للتيار العروبي الكفاحي هذا .

٥ - المعنى التاريخي ـ الحضاري :

هذا المعنى دخل الى الساحة في العصر الحديث ، مع بدايات عصر النهضة والاستقلال ، واكتشاف أبناء البلدان العربية أن لهم تاريخاً طويلاً عريضاً سبق الوجود العربي الاسلامي ، يشتمل على أكبر الحضارات وآلاف السنين : بابليين وكنعانيين وفراعنة وقرطاجيين وغيرهم .

والمشكلة التي واجهت وتواجه جميع المثقفين العرب وخصوصاً المؤرخين ، أن مصطلح «عرب» ارتبط تاريخياً بعصر الفتح العربي ، وهذا يعني أنه لا يشتمل على العصور التي سبقته . فالحضارة الرافدينية ليست عربية ، وكذلك المصرية والشامية والقرطاجية . هنا تأتي الازدواجية ـ الانفصامية بين التاريخ العربي القومي الذي يبتدىء بمكة والاسلام ، ثم التاريخ الوطني لكل بلد عربي الذي يبتدىء بآلاف السنين قبل الاسلام . ومن اجل التخلص من هذه الانفصامية بين القومية والوطنية (القطرية) ، ثمة ميل خجول بدأ ينمو عند المؤرخين العرب بإطلاق تسمية عرب على الحضارات والشعوب السامية (الرافدينية والشامية والقرطاجية) ، واحياناً أقل تعتبر عربية كذلك الشعوب الحامية (المصرية والبربرية) . (راجع مثلاً كتابات احمد سوسة وفكتور سحاب وبرهان الدين دلو ، وغيرهم) . وهي محاولات

فاشلة تعاني من ضعف كبير لا يشجع على نجاحها ، لأن كلمة «عرب» تحولت الى مصطلح شبه ثابت ارتبط دائماً بالقبائل العربية والجزيرة العربية والفتح الاسلامي واللغة العربية . بالاضافة الى أن المؤرخين أنفسهم لم يتخلصوا من فهمهم العرقي العروبي ، تراهم رغم «تعريبهم» للحضارات العراقية والشامية والمصرية ، فانهم يعودون دائماً الى «تقديس» الحضارات «العربية» في اليمن والجزيرة العربية ويعتبرونها هي الأساس والمنطلق للتاريخ «القومي العربي» !

العالم الشرقاني بدل العالم العربي

يمكن مقارنة تسمية «عرب» مع تسميات جيوسياسية مماثلة في مناطق أخرى من العالم . مثال «آسيا» ، فهذه الكملة تتضمن أيضاً بعض الإشكال . إذ هناك فرق بين أن يقول العراقي أو اللبناني انه من قارة آسيا ، ولكنه لا يقول انه «آسيوي» لأن هذه التسمية اتفق عليها عموماً أن تعني الانتماء الى الجنس الأصفر (الصين وتايلاند والفلبين وغيرها) . هنالك مثال أقرب إلينا ، تركيا مثلاً ، فمشكلة تركيا ، ان هذا الاسم ارتبط بعرق معروف اسمع العرق التركي المنتشر في معظم أواسط آسيا وفي بلدان عدة مثل أذربيجان وتركستان وأوزبكستان وغيرها . ولكن تركيا البلد تعاني من ازدواجية أشبه بالازدواجية العربية : ان الشعب التركي الحالي ينتمي الى أصول عرقية مختلفة ، منهم الأكراد والعرب والأرمن واليونان والسلاف . عبارة «أنا تركي» تفترض المعني العرقي ـ اللغوي ، وتتناقض مع الانتماء الوطني (الجيوسياسي) لباقي الأعراق غير التركية . ثم انه عند الحديث عن تاريخ الاتراك كعرق ولغة وشعب يتناقض مع تاريخ تركيا كبلد وارض موجودة ومسكونة بالشعوب والحضارات الحيثية والاغريقية ـ البيزنطية منذ آلاف السنين قبل فتح الأتراك لتركيا الحالية . لهذا فإن الاتراك بحاجة الى تسمية أخرى يطلقونها على بلدهم لتجنب المعنى العرقي التركي ، ومن أجل الانتماء للمعنى الجيوسياسي الشامل لتنوع الشعوب وامتداد التاريخ . وربما تسمية «بلاد الأناضول» هي الأنسب والأكثر تطابقاً مع تاريخ البلد وسكانه وثقافته المتنوعة العريقة .

ربما التجربة الايرانية أفضل مثال على نصف النجاح في اتخاذ المسميات الشاملة . فايران حتى أوائل القرن كانت تسمى (بلاد فارس) . ولكن الفرس في ايران لا يمثلون اكثر من ٥٠٪ من السكان ، والباقين من الأكراد والتركستان والعرب والبلوش وغيرهم . لذا كان

الاختيارالذكي للشاه رضا خان باعادة استخدام اسم (ايران عام ١٩٣٥) بمعن بلاد الآريين ، ومنهم الفرس والأكراد والغيلانيين والمازندارانيين . ولكن هذا الحل يعاني من ضعف لكون بعض القوميات في ايران هي من أصول غير آرية مثل التركستان والعرب .

بناء على هذا ، يمكن أن نفترض أننا اتفقنا يوماً على الحفاظ فقط على المعنى العرقي لتسمية «عرب» ، فنقول : القبائل العربية ، اللغة العربية ، تاريخ العرب الذي بدأ في الجزيرة العربية في القرن السابع . أما المعنى الجيوسياسي المعبر عن العالم العربي بتاريخه وتراثه وحضاراته وشعوبه ، فيمكن استخدام تسمية أخرى غير هذه التسمية . لنقل مثلاً ، اننا اخترنا تسمية «شرقانية» ، وهذا إختيار اولي قابل للنقاش والتغيير ، لكننا فضلناه لأسباب عديدة ، منها : ان تسمية «شرقاني» مشتقة من «شرقي» التي تطلق على الشعوب غير الأوروبية القاطنة في آسيا وافريقيا : العرب والايرانيين والهنود والصينيين . اما تسمية «مشرقي» فان المقصود بها الجزء المشرقي من العالم العربي المقابل للجزء «المغربي» في شمال افريقيا .إذن اشتقاق كلمة «شرقاني» للتمييز عن «شرقي» و«مشرقي» وأيضاً شموليتها لجميع منطقة شرق البحر المتوسط أي ما يسمى حالياً «العالم العربي» .

إن تسمية «شرقاني» هذه لو افترضنا إمكانية استخدامها بدلاً من تسمية «عربي» فإنها سوف تجنبنا جميع الإشكالات العرقية والتاريخية والاجتماعية التي أضعفت حتى الآن روح الوحدة والهوية المشتركة بين شعوب وجماعات بلداننا «العربية» . حينئذ ، سيمكننا القول مثلاً «العالم الشرقاني» بدل «العالم العربي» ، وجامعة «الدول الشرقانية» وتاريخ «الشعوب الشرقانية» . وعندما ندخل في التفاصيل سنقول أن هذه الشعوب الشرقانية تتكلم حالياً اللغة العربية منذ أن فتحتها القبائل العربية التي فرضت لغتها والاسلام من خلال امتزاجها بالشعوب الشرقانية الأصلية . ومعظم الشعوب التي استوطنت في العالم الشرقاني خلال التاريخ ، هي شعوب يجمعها الانتماء الى الوحدة الثقافية للعائلة السامية ـ الحامية ، مصريين وبربر وبابليين وعبرانيين وآراميين ، وآخرهم العرب ، بالاضافة الى استيطان جماعات كثيرة آسيوية (كردية وتركمانة وأرمنيية وشركسية) وكذلك أوربية وافريقية ، ومساهمتها الثقافية والسياسية في خلق الهوية الشرقانية المتنوعة والموحدة في ذات الوقت . وتاريخ هذه البلدان الشرقانية يمتد لعدة آلاف من الأعوام ، وخلاله انبثقت أولى حضارات البشرية في بعض أجزاء هذا العالم الشرقاني : بلاد الرافدين ومصر ، وأعقبتها حضارات كبرى في بلاد الشام ثم اليمن وشمال افريقا . وفي القرن السابع ، برزت من بين هذه الشعوب الشرقانية مجموعات

قبلية صحراوية تقطن الجزيرة العربية شاعت تسميتهم «عرب» . في القرن السابع خرجت هذه القبائل العربية من صحارى ومدن الجزيرة حاملة رسالة الاسلام وشرعت بفتح باقي العالم الشرقاني من العراق والشام وبلاد النيل وشمال افريقيا . وشملت الفتوحات أجزاء أخرى خارج العالم الشرقاني : في آسيا (ايران والهند والبقاع المنغولية ـ التركية) حيث انتشر فيها الاسلام والحضارة الشرقانية ذات الرداء العربي ـ الاسلامي . كذلك امتدت هذه الحضارة نحو جنوب أوربا (بلاد الأندلس وصقلية) . ومنذ ذلك الوقت شاعت بين شعوب العالم الشرقاني اللغة العربية والدين الاسلامي ، بالاضافة الى غلبة العنصر العربي على البنية العقلية للشعوب الشرقانية بحيث شاعت كلمة «عرب» في تسمية هذه الشعوب . .

يمكننا تقسيم المراحل التاريخية التي مر بها العالم الشرقاني حسب العصور التالية :

١ - من ٤٠٠٠ حتى بضعة قرون ق .م : العصور التاريخية والحضارية الأولى ، في وادي الرافدين ووادي النيل ثم امتداد تأثيرهما الى باقي أجزاء العالم الشرقاني في الشام واليمن وشمال افريقيا . وفي المرحلة الأخيرة من هذه العصور انبثقت اليهودية في فلسطين كمحاولة للتعبير الديني عن الحضارة الروحية لشعوب العالم الشرقاني .

٢ - من بضعة قرون ق .م حتى القرن السابع ب .م : عصور السيطرة الأجنبية (الايرانية والاغريقية والرومانية والاثيوبية) على جميع أجزاء العالم الشرقاني . وتميز أيضاً هذا العصر بانبثاق وانتشار المسيحية كدين يعبر عن الحاجة للتوحد الروحي والسياسي للشعوب الشرقانية .

٣ - بين القرن السابع ب .م والقرن ١٣ : عصور الحضارة العربية الاسلامية ، وانتشار القبائل العربية واندماجها في الشعوب الشرقانية التي تبنت الاسلام واللغة العربية وصنعت حضارة شرقانية منفتحة عليى جميع حضارات البشرية . على

٤ - بين القرن ١٣ والقرن العشرين ـ العصور المظلمة والسيطرة الأجنبية على العالم الشرقاني ، العثمانية والايرانية ثم الأوروبية .

٥ - القرن العشرون ـ عصر النهضة والاستقلال ونشوء جامعة الدول «العربية» الشرقانية وبروز العالم الشرقاني في الساحة العالمية ككتلة جيوسياسية ناطقة باللغة العربية وتعتنق أغلبيتها الدين الاسلامي ، وتمثل امتداداً حضارياً عريقاً ومقابل للكتلة الأوربية الواقعة على الضفاف الغربية للبحر المتوسط .

علماً أن هذا العالم الشرقاني ، يتكون من العديد من الأوطان والشعوب المتمايزة في تاريخها ولهجتها وتكوينها السياسي ، لكنها جميعاً تشترك في قواسم تاريخية ـ جغرافية ـ ثقافية ، ولغة عربية موروثة منذ القرن السابع وجماعات لغوية مختلفة : بربر وأكراد وشركس وتركمان وأفارقة ، وغيرهم . الاسلام (بطوائفه المتعددة) هو الدين الغالب على أبناء العالم الشرقاني ، بالاضافة الى طوائف مسيحية ويهودية وصابئية وغيرها موروثة منذ عصور قديمة . وتوجد مصالح اقتصادية وسياسية تم التعبير عنها من خلال تكوين جامعة الدول «الشرقانية» ، وانبثاق الحركة التوحيدية الشرقانية الداعية الى تقارب وتعاون هذه الدول والشعوب ، على غرار المجموعات الجيوسياسية الأوربية والأمريكية وغيرها . علماً أن تسمية «شرقاني» ، ترفض ترجمتها الى أية لغة ويتم تلفظها كاسم علم غير قابل للترجمة «SHARKANY» ، مثل امريكا أو افريقيا أو الهند .

أخيراً ، نعرف ونعترف أن مقترحنا هذا قد يثير الاستغراب أو الابتسام لدى البعض ، فاننا في كل الأحوال لا نبتغي غير اثارة التساؤل والتفكير في بديهيات تتطلب الجرأة في مناقشتها ومراجعتها بدلاً من تقديسها ثم تدمير الأوطان وخوض الصراعات والحروب بين الأشقاء بسببها !

مع الوحدة العربية.. ضد القومية العربية
العروبة السياسية بين «حق العرق» و«حق الأرض»

إن الدول الوطنية التي تأسست في البلدان العربية، وخصوصاً في بلدان المشرق العربي (الهلال الخصيب) بعد الحرب العالمية الأولى، قامت منذ البدء على أساس خاطىء يعتمد الفلسفة التالية: «إن الوحدة ضد التنوع.. وإن تجاهل الجزء وكبته سيؤدي الى ذوبانه في الكل..». وقد اتخذت هذه الفلسفة سلاحاً لها مفهوم «القومية العربية» التي عملت على تجاهل حقيقة التنوعات السكانية لمجتمعات بلدان المشرق، المشكلة ليست في الإقرار بحقيقة وجود هذه «العروبة» التي تجمع الشعوب العربية بروابط ثقافية ولغوية وتاريخية وجغرافية اضافة الى المصالح السياسية والاقتصادية. إن روابط العروبة هذه ايجابية ومقبولة ما دام هدفها جمع شمل البلدان العربية وتقريبها وتوحيدها، ولنا في هذا نموذج الوحدة الأوربية. لكن المشكلة هو سيادة المفهوم «العرقي» أو ما يسمى بالمفهوم «القومي» لهذه العروبة، أي التأكيد على شرط الأصل «القبائلي التاريخي» الذي يعتقد ويُفترض أنه متوفر في جميع الناطقين بالعربية! على هذا الأساس تمت محاربة وقمع جمع الطروحات التي تطالب باحترام التنوعات السكانية والثقافية الأخرى، تحت ستار: «مكافحة الشعوبة»، ثم محاربة جميع الطروحات التي يمكن أن تؤكد على الأصالة الوطنية، باسم: «مكافحة الميول القطرية».

لقد تجلى هذا الفهم «العرقي القومي» للعروبة بقياس وطنية المواطن بمدى «أصالته العربية»، اعتبار المواطنة والانتماء للوطن حسب ما يسمى بـ «حق العرق والقومية»، وليس على «حق الأرض والوطن». لقد ابتدعت الانسانية منذ القدم وكذلك الديمقراطيات الغربية، مفهوماً يستحق الاستشهاد به: «حق الأرض»، أي أن الانسان يمتلك حق الحصول على المواطنة والجنسية بمجرد ولادته على أرض الوطن أو عيشه لسنوات معينة في الوطن. بناءً على هذا يتم منح الأجانب الجنسية مجرد ولادتهم أو زواجهم بمواطن أو مواطنة أو إقامتهم فترة معينة. إن حق الانتماء للأرض أقوى من حق الانتماء للقومية والسلالة العرقية، وهذا ما لم تعترف به العروبة السياسية لحد الآن.

إن سيادة عقلية الانتماء القومي العرقي أدت الى ضعف الانتماء الى الأرض وتاريخها

وثقافتها وناسها . بمعنى أن الحكومات لا تعامل المواطن والجماعات الوطنية على أساس الانتماء للوطن والاقامة على أرضه والانصهار بتاريخه وثقافته ، بل على أساس الانتماء للتاريخ القبائلي العربي الحجازي القديم .

من أبسط الأدلة على هذه العقلية ، هو تعامل حكوماتنا في منح الجنسية للمواطنين . في حالة العراق مثلاً ، استمرت جميع الحكومات العراقية منذ عام ١٩٢١ وحتى الآن على التعامل مع الكثير من الجماعات العراقية ، مثل الأرمن والآثوريين وكذلك مع الكثير من الشيعة من عرب وفيلية ، على اعتبارهم أجانباً أتراكاً أو ايرانيين ، ورفض منحهم الجنسية وحتى طردهم من الوطن . لقد تجلت ذروة هذه السياسة العنصرية في أعوام الثمانينات عندما قامت الحكومة بطرد ما يقرب المليون عراقي (من الشيعة) الى ايران بحجة عدم امتلاكهم الجنسية العثمانية ، رغم أصالتهم الوطنية وتوطنهم في العراق منذ أجيال ،بل إن الكثير منهم من عشائر عربية «أصيلة عرقياً!» . بنفس الوقت لا تتواني هذه الحكومة من منح الكثير من الأشخاص غير العراقيين الجنسية العراقية بحجة انهم عرب قادمون من بلد عربي! ثم التعامل مع الجماعات العراقية المختلفة بريبة واحتقار ما داموا لم يثبتوا انتماءهم الحقيقي للسلالة العربية . وعلى هذا الأساس أيضاً استمرت عمليات تعريب المناطق غير الناطقة بالعربية (كردية وتركمانية وسريانية) ، بتهجير السكان الأصليين وإحلال الناطقين بالعربية محلهم .

الحقيقة ان «حق العرق» هذا من صلب فلسفة الحركة الصهيونية لقد قامت اسرائيل على فكرة ان اليهودي أينما عاش ومهما كان تاريخه ووطنه وجنسيته فانه يمتلك «حق العودة» والتوطن في فلسطين باسم «حق العرق» أي الانتماء لما يفترض انه «العرق اليهودي» . ثم ان الصهيونية قد نجحت باستغلال الطروحات العروبية العرقية القائلة بأن جميع العرب من «أصل قبائلي عربي» توطنوا فلسطين وغيرها بعد الفتح العربي الاسلامي . على أساس هذا الفهم «العرقي - العربي والصهيوني» ، بررت الصهيونية طردها لشعب فلسطين باعتبار اليهود هم «عرقياً» من سلالة السكان الأصليين لهذه الأرض حسب التوراة ، وان الفلسطينيين ما هم إلا من سلالة العرب القادمين من الجزيرة العربية وما عليهم إلا ترك فلسطين والعودة الى موطنهم الأصلي !

إن الخطاب العروبي فشل من الأساس في مواجهة الخطاب الصهيوني ، لأنه لم يناقض

المنطق الصهيوني القائم على حق العرق . ان الخطاب البديل المطلوب هو الذي يؤكد على ديمومة وجود شعوبنا في أوطانها منذ الحقب البعيدة . وان هذه الشعوب طيلة تاريخها استقبلت الكثير من الجماعات والأديان واللغات ، لكنها ظلت هي نفسها سليلة الأرض والتاريخ مهما اختلفت الأسماء واللغات والأديان . هذا يعني أن الفلسطينيين هم أبناء ارض فلسطين منذ التاريخ المجهول ثم وجود الكنعانيين ثم اليهود ثم الآراميين ثم العرب ثم الصليبيين . تتبدل الأسماء واللغات والأديان ، وشعب فلسطين هو نفسه لأنه شعب هذه الأرض التي تذوب في تاريخها الجماعات واللغات والأديان الجديدة . على هذا الأساس فان اليهود (أو الاسرائيليين) مهما كانت أصالتهم السلالية اليهودية المفترضة فانهم في أقصى الأحوال لا يمكنهم أن يكونوا سوى جزء من شعب فلسطين . إذا كان اليهود يبتغون العيش بسلام فعليهم مجاراة منطق التاريخ والقبول بكل بساطة بحقيقة انتمائهم للشعب الفلسطيني بدلاً من محاولة نفيه وطرده من أرضه وإلغاء تاريخه .

هذا هو التاريخ الأسطوري الذي فرضته علينا العروبة السياسية . ولم يدرك مفكرو العروبة بأنهم يتفقون دون وعي مع المشاريع الغربية والصهيونية . يبدو أن تحالفاً غربياً صهيونياً قد تم من اجل كتابة تاريخنا بالصورة التي تلائم المشاريع الاستعمارية القديمة والجديدة . إن الغربيين منذ الحروب الصليبيية يكافحون من اجل دحض أية فكرة تقول بأن خصومهم هؤلاء «العرب المسلمين» هم أحفاد الذين صنعوا «الدين المسيحي» الذي تجهد اوروبا على تصويره كدين روماني اغريقي . اما الصهيونية فإنها راحت تستغل هذا الهاجس الأوربي القديم من اجل نفي فكرة ان يكون سكان فلسطين والمشرق الحاليين هم أحفاد الذين صنعوا اليهودية مثلما صنعوا من بعدها المسيحية ثم الاسلام ، وبالتالي منح الشرعية التاريخية لاستيطان اليهود في فلسطين وطرد الفلسطينيين من وطنهم . ان الطرفين الغربي والصهيوني اتفقا على خلق قطيعة بدنية عرقية بين العرب الحاليين وأسلافهم صانعي الحضارات قبل الاسلامية ، والتأكيد عل وجود تواريخ عديدة لمختلف المذاهب والأديان والجماعات الثقافية اللغوية . كل هذا من اجل خلق التناقض التاريخي بين الناطقين بالعربية والجماعات السكانية الأخرى : بين العرب والبربر في المغرب ، والعرب والنوبيين في السودان ، والمسلمين والأقباط في مصر . أما في بلدان المشرق فان المشروع الصهيوني لن يجد شرعيته إلا بتفكيك المشرق الى دويلات مذهبية وقومية ودينية لكل منها تاريخها الخاص على غرار دولة اسرائيل العرقية .

إن فكرة النقاء العرقي (القبائلي) العربي التي أشاعتها العروبة السياسية ، تبدو خرافة واهية عند وضعها تحت ضوء التاريخ . إن أية مراجعة لتاريخ المنطقة تثبت بصورة لا تقبل الجدل أن شعوب المشرق خصوصاً من اكثر شعوب الأرض تمازجاً واختلاطاً مع ما لا يحصى من الشعوب والجماعات والأجناس السوداء والبيضاء والشقراء والصفراء والحمراء خلال الآلاف من الأعوام . ان موقع منطقة المشرق في وسط القارات الثلاثة جعلها محطة لمرور واستيطان الكثير الكثير من الجماعات القادمة من آسيا وافريقيا واوربا . والشعوب التي لم تأت المشرق غازية أو سائحة أو باحثة عن الرزق والتجارة ، فإن أسلافنا تكفلوا بجلبهم كأسرى وعبيد ومماليك وجواري منذ فتوحات البابليين والآشوريين والفينيقين حتى الفتوحات العربية . يكفي ملاحظة التاريخ الأموي والعباسي مثلاً حيث ظلت أسواق دمشق وبغداد خلال قرون تستورد الآلاف المؤلفة من العبيد (السود) والمماليك (البيض) والجواري من كل جنس ولون المجلوبين من المستعمرات والبلدان المفتوحة ، بالاضافة الى الرقيق المستورد من بلدان آسيا وأوروبا . يبدو أن سهولة شراء الرقيق وصلت حينذاك الى مستوى شراء حصان أو ماشية . طبعاً فإن هؤلاء البشر استوطنوا المشرق وتزاوجوا هم وأحفادهم وذاب نسلهم في السكان الناطقين بالسامية ثم العربية . بل إن بعض هؤلاء الرقيق تمكنوا من تكوين سلالات حاكمة منها سلالة المماليك «الشركس والشيشان» الذين حكموا مصر والشام عدة قرون ، وقد سبق الأمر في العراق مع (المحاربين التركمان) زمن العباسيين وتكرر الأمر في بغداد أثناء الحكم العثماني مع المماليك السلاف والجورجيين .

من سلبيات العقلية العروبية

إن التشوهات التاريخية والعقلية التي خلقتها هذه العروبة السياسية ، قد أدت الى سلبيات عديدة في عصرنا الحديث ، يمكن إيراد أهمها كما يلي :

1 - إن هذه العقلية العروبية كانت ولا تزال ضد الطبيعة والحقيقة التاريخية التي عاشتها شعوب المشرق وعموم العالم العربي منذ القدم وحتى الآن . الملاحظ في جميع الحضارات الكبرى التي قامت في منطقتنا انها كانت بصورة وأخرى تعتمد وتعترف وتستفيد من هذا التنوع الديني والسكاني (العرقي) والمذهبي . يكفينا مثلاً التمعن بالعصرين الأموي ثم العباسي خصوصاً ، حيث وصلت الحضارة العربية الاسلامية الى ذروتها بسبب تلك الحرية التي توفرت لظهور التنوع العجيب في الأعراق والأديان

والمذاهب والتيارت الفكرية التي لا تحصى . إن قمع هذا التنوع وتجاهله في العصر الحديث باسم الوحدة والأصالة القومية والعرقية كان هو السبب المباشر في تخلفنا وتمزقاتنا الروحية والسياسية والثقافية . ثم ان هذا الفهم الضيق للوحدة أدى كذلك الى هشاشة هويتنا الفردية والجماعية وعدم امتلاك الثقة بالذات الوطنية التي تساعد على تقبل الحضارة «الغربية» دون توترات وتمزقات فردية وجماعية . ان التأكيد على مسألة التنوع والاختلاط هذه ، ليس الهدف منها أبداً التقليل من أصالة شعوبنا وعراقة وجودها في المنطقة ، بل العكس ، الغاية من ذلك هو تبيان حقيقة أن التنوع والتعددية الثقافية والسكانية من الميزات التاريخية الأصيلة والدائمة في مشرقنا وعالمنا العربي . ثم ان الخوف من الاعتراف بالتنوع أدى تلقائياً الى تهيئة احتكار السلطة من قبل أقليات طائفية ودينية تجعل من شعار الوحدة والخوف من التفتت مبرراً لعزل الجماعات الوطنية الأخرى . جميع تجاربنا التاريخية تكشف لنا ان عدم الاعتراف بهذا التنوع وتجاهله وكبته كان دائماً سبباً لتخلفنا وتمزقنا وان الاعتراف بهذا التنوع والتعددية مع التأكيد على «التوحد والمركزية السياسية والثقافية» كان السبب الأول في ازدهارنا وتماسكنا ووحدتنا .

2 - إن هذه العروبة ومفهومها التوحيدي الكلاني ، لم يلغ فقط حقيقة خصوصية كل بلد عربي عن الآخر ، بل ألغت كذلك حقيقة خصوصية كل منطقة اقليمية عربية عن الأخرى . لقد جرى القفز العجائبي على منطق الجغرافية والتاريخ في جميع التجارب الوحدوية العربية . كأن يتوحد العراق مع اليمن الواقعة في أقصى جنوب الجزيرة ، في الوقت الذي لا زالت فيه الحدود مغلقة تماماً بين سورية والعراق منذ عشرات الأعوام وحتى الآن ، بصورة لم تحدث بين بلدين في الكرة الأرضية أبداً! ثم تتوحد ليبيا مع سوريا في الوقت الذي تسود حالة الاحتراب مع الدول المجاورة ! إن من أول شروط عقلنة مفهوم التقارب والوحدة في العالم العربي ، هو الاعتراف بحقيقة وجود مناطق اقليمية مختلفة ومتمايزة في الجغرافية والتاريخ والخصوصيات السكانية والمذهبية والعقلية . إن تجربة الاتحاد بين بلدان المغرب العربي يمكن ان تكون دليلاً ايجابياً في هذا المجال . لماذا مثلاً يخاف الجميع من الحديث علناً من ان العلاقة بين سوريا ولبنان (وكذلك مع فلسطين والأردن ، بالاضافة الى العراق) لا تعتمد أساساً على رابطة العروبة ، بل على رابطة أعمق وأقرب بكثير من هذه العروبة ، أي رابطة الأرض والتاريخ المشترك الذي

سبق العروبة بآلاف الأعوام . على هذا الأساس يبدو من المعقول أولاً الاعتراف بوجود المجموعات الاقليمية التالية : مجموعة بلدان المغرب العربي ، مجموعة بلدان النيل (مصر والسودان) ، مجموعة بلدان الجزيرة العربية ، ثم مجموعة بلدان المشرق العربي (بلدان الهلال الخصيب) . وكل مجموعة من هذه البلدان تستحق أولاً التقارب والتضامن والتفاهم فيما بينها عل غرار تجربة الاتحاد المغاربي . وهذه هي المرحلة الأساسية التي يجب أن تسبق كل حديث عن «الوحدة العربية الكبرى» !

3 - إن هناك ما هو أكثر بديهية ووضوح في هذه الممارسة العروبية الساذجة ، وهو الموقف المعلن لجميع الحركات العروبية بعدم الاعتراف بالحدود السياسية للبلدان العربية ، وتكرار القول بأنها «حدود مزيفة ومصطنعة» . هذا يعني بكل بساطة التضحية بالانتماء للأرض والوطن باسم الانتماء لهذه «الأمة العربية» الأسطورية التي خلقتها أوهام الحالمين . هذا الموقف المحتقر لحدود البلدان العربية سمح للحركات والأنظمة «العروبية» بالتدخل المباشر في شؤون الدول الأخرى وسيادة عقلية التآمر والاحتراب في التعامل بين الدول العربية . وكان من المفروض بدلاً من هذه العقلية التدخلية ، أن تسود عقلية أكثر واقعية واعتدالاً تعتمد مبدأ التضامن والدعم والاعتراف المبادل وتشجيع التقارب في كل المجالات . ان رفض مبدأ التدخل وقيام الحركات السياسية «القومية» ذات الفروع «القطرية» ، هذا لا يعني أبداً رفض مبدأ التضامن والتفاهم بين الجماعات والنخب المختلفة في البلدان العربية . انه امر معقول جداً تكوين الاتحادات النقابية والمنظمات والجمعيات الرياضية والثقافية والفنية ودور النشر والصحف التي تجمع بين بلدان كل مجموعة اقليمية عربية ، وبين المجموعات الاقليمية ككل . بل ليشمل التقارب أيضاً الأحزاب الوطنية المختلفة ذات المبادىء المتقاربة مع التشديد على تجنب التدخل وفرض الوصاية «القومية العليا» . هذا يعني عدم الاكتفاء بتطوير نموذج «جامعة الدولة العربية» كمؤسسة واقعية للتقارب والتوحد ، بل يضاف اليها كذلك «جامعة الأحزاب والمنظمات النقابية العربية» كمؤسسة شعبية للحوار والتقارب بين الشعوب العربية . إن مثل هذا الأمر واضح في التجربة الأوربية ، حيث تتكون منظمات للتنسيق والتضامن والتشاور بين الأحزاب الأوربية المتشابهة ، مثل الأحزاب الديمقراطية المسيحية ، والأحزاب الاشتراكية ، بالاضافة الى البرلمان الأوربي المشترك ومؤسسات حقوق الانسان وغيرها .

4 - بسبب هذه العصبوية العرقية التي نشرتها العروبة السياسية ، انتشرت كذلك التيارات «العصبوية» القومية والدينية والمذهبية والقطرية المعادية لكل ما هو «عربي» . هناك مثلاً «دعاة الفرعونية والقبطية» في مصر الذين وصل بهم الأمر الى حد المطالبة بإلغاء اللغة العربية . وهناك نفس الشيء «دعاة البربرية الأمازيغية في الجزائر والمغرب» الذين يعتبرون أشقاءهم الناطقين بالعربية «أجانب غزاة» ويفضلون استخدام الفرنسية على العربية . وهناك أيضاً دعاة «العراقوية البابلية والآشورية» الذين يجاهرون بعدائهم لكل ما هو عربي . ثم هناك دعاة «كردستان الكبرى» الذين يطالبون بكل شمال العراق وسوريا . وهناك دعاة «الفينقية اللبنانية والأمة المارونية» ويضاف الى هؤلاء جميعاً دعاة «الأمة الاسلامية» الذين يقفزون على جميع شروط التاريخ والجغرافية والثقافة ويطالبون بالوحدة مع ايران وباكستان في الوقت الذي يرفضون بشدة أي حديث عن الوحدة العربية!

يمكن تفهم جميع هؤلاء في معاناتهم من كابوس «القومية العربية» التي حاولت أن تمسخ جميع الخصوصيات الجغرافية والتاريخية والدينية واللغوية باسم الانتماء العرقي القبائلي العربي . لكن رفض «القومية العربية» لا يجب أن يعني أبداً معاداة الشعوب العربية والناطقين بالعربية ، واللجوء للانعزالية الوطنية والطائفية والدينية والعرقية . ان الاعتراف بالخصوصيات الوطنية واللغوية والدينية لا يعني أبداً رفض حقائق التاريخ والجغرافية والثقافة التي تؤكد أن بلدان العالم العربي ظلت تعيش حتمية التقارب والتمازج والتوحد منذ آلاف الأعوام قبل الفتح العربي الاسلامي ، وما التوحد الحضاري البشري الذي ساد زمن الخلافة العربية الاسلامية إلا مرحلة طبيعية من التطور التاريخي الذي حتمته ظروف التوحد الجغرافي والتقارب الحضاري البشري منذ فجر التاريخ .

التاريخ يعطينا شواهد على هذه العلاقة الحتمية بين الانتماء الوطني والانتماء القومي . محمد علي باشا والي مصر لم يكن وطنياً عربياً ولا فكرياً عروبياً (إنه ألباني الوطن وعثماني الانتماء) ، لكنه عندما توطن في مصر وأصبح حاكمها قام بفتوحاته القومية نحو السودان وبلاد الشام والجزيرة العربية . خضوعه اللاشعوري لإرادة مصر (دولة وتاريخ) حتمت عليه هذا الطموح بتكوين امبراطورية عربية ، كأنه بذلك يلبي حاجة التاريخ والجغرافية بأزلية التواصل والتوحد بين بلدان وشعوب المنطقة . ويمكن ان نضع في نفس السياق محاولات

جمال عبد الناصر الوحدوية التوسعية . لكن اختلاف جمال عن محمد علي ، انه كان واعياً لهذه الضرورة التاريخية وبالتالي الحاجة الى ايديولوجيا عروبية (الناصرية) تحمي وتبرر هذا الطموح المصري بالتوسع والتوحد مع بلدان المنطقة . هذا المثال يبين مدى سذاجة الطروحات القطرية التي تتهم الانتماء العرقي والاتجاه العروبي وحده بالمسؤولية عن هذه الطموحات الوحدوية .

إنه سؤال يستحق التفكير حقاً ، لو افترضنا ان التاريخ ارتأى أن تظل مصر قبطية ـ مسيحية ، فهل هذا يعني انه كان بالامكان ان تتجنب الصراع مع اسرائيل؟ لو اعتمدنا على تارخ مصر والعلاقة المتوترة بين الفراعنة والعبرانيين ، ثم الطموح المصري (الفرعوني القبطي) بالتمدد والتوسع والاندماج مع بلاد الشام والعراق والجزيرة . بالاضافة الى هذا ، تأثير الخلاف بين المسيحية الشرقية القبطية مع اليهودية المنغلقة المتعصبة ، ثم الأهم من كل هذا حتمية الصراع بين الانتماء المصري للمشرق وافريقيا والعالم الثالث وانتماء اسرائيل للغرب وامريكا والعالم الصناعي ، كل هذه الأمور تؤكد على حتمية الصراع القبطي الاسرائيلي بضراوة قد تفوق ضراوة التيار العروبي الناصري (المسلم العربي) .

التضامن والتوحد العقلاني

إن رفض العروبة السياسية وأساطيرها العرقية ، لا يعني أبداً رفض مبدأ التقارب والتفاهم والتضامن بل حتى التوحد الديمقراطي بين البلدان العربية . على العكس ، إن رفض المفهوم التبسيطي العرقي للعروبة ، هو رفض لحالة الاحتراب والتشرذم السائدة بين البلدان العربية بسبب عقلية التآمر والاحتراب التي خلقتها هذه العروبة . إن بلداننا المحكومة بهذه الحركات «القوموية» فشلت حتى بإقامة علاقات طبيعية (وليست قومية) فيما بينها . بل إنها على العكس خلقت حالة من التنافر والتباعد وقطع العلاقات وغلق الحدود منذ عشرات السنين وحتى الآن . إننا بحاجة ماسة جداً الى استلهام تجربة الوحدة الأوربية التي بدأت واستمرت وتطورت من دون هذه الهلوسات «القوموية» والمزايدات والمؤامرات التدخلية ، وحتى من دون أية تنظيمات «قوموية» كبرى تحتقر الحدود «المصطنعة» وتبرر التآمر والتدخل والاحتراب .

إن شعوب العالم العربي تمتلك عاملاً مهماً يمنحها الأفضلية في تحقيق التقارب أكثر

بكثير من حالة الشعوب الأوربية : عامل اللغة والثقافة العربية المشتركة التي خلقت وتخلق الوحدة الروحية والذهنية بين جميع شعوب العالم العربي ، رغم الحدود وعقلية التآمر والاحتراب السائدة بين الحكومات . يتوجب التأكيد على أن وجود الثقافة واللغة العربية لا يعني أبداً أنها خاصة فقط بـ «العرب المنحدرين من السلالات العربية النقية» ، كما أوهمتنا الحركات العروبية واستغلتها الحركات «العرقية والقومية» المضادة للعروبة . العربية هي لغة وثقافة شعوب البلدان العربية بجميع تنوعاتها السكانية والدينية والمذهبية . بمعنى أوضح ، مثلاً إن المواطن الناطق بالعربية في المغرب أو الجزائر ليس بالضرورة أن يكون من «العرق» العربي بل هو مواطن أصيل في وجوده مثل اخيه البربري الناطق بالأمازيغية . ونفس الحالة تنطبق على جميع البلدان العربية .

يلاحظ مثلاً في تجربة الوحدة الأوروبية ، انه من المعروف عن الجماعات السكانية التي تعتبر «أقلية لغوية أو مذهبية» في بلدها هي التي تصوت أكثر وتتحمس للاسراع في قيام الوحدة الأوربية ، لأن هذه الوحدة سوف تخلص هذه «الأقليات» من شعورها بثقل «الأغلبيات» ولتصبح جميع الفئات خاضعة للدولة الأوربية الكبرى المتعددة الأعراق والشعوب والمذاهب . أما نحن فان الفهم العروبي العرقي للوحدة العربية قد خلق الخوف في الجماعات التي تحس بنفسها كأقلية سكانية أو دينية ، لأن الوحدة العربية صورت منذ الأساس على انها تحقيق لسيطرة «القومية العربية» وتذويب للفئات المختلفة الباقية . إن شعور القبطي في مصر ، أو النوبي والزنجي في السودان ، أو الكردي والتركماني والسرياني والشركسي والأرمني في العراق والشام ، بانتمائه لوطنه وأصالته التاريخية في هذه الأرض ، سوف يبرر لجميع هؤلاء تمسكهم باللغة العربية كلغة تاريخية وطنية لا تمثل أي عرق أو قومية أو انتماء قبائلي أسطوري . هذا الشعور بالأصالة سيدفع الجميع الى التمسك بمبدأ التعاون والتقارب وحتى التوحد بين بلدان العالم العربي ، مثلما يفعل أي مواطن أوربي مهما كان مذهبه أو لغته بالتمسك بالوحدة الأوربية .

إن الوحدة التي ترفض التنوع والتعدد لا تؤدي سوى الى التشرذم . كذلك التنوع والتعدد الذي يرفض التضامن والتوحد لا يؤدي سوى الى الضعف والاحتراب . خصوصاً وأننا في عالم تقوده الامبراطوريات والوحدات الجيوسياسية الكبرى التي لا ترحم الضعيف والصغير مهما كان بعيداً منعزلاً .

العراق والشام وغياب الوعي الاقليمي
تاريخ صراع الأقطاب حول منطقة المشرق

إن العلاقات بين الأوطان محكومة أساساً بشروط الجغرافية والبيئة ؛ وبما أن هذين العاملين ثابتين على مر التاريخ ، فان طبيعة العلاقات بين الأوطان تتمتع بديمومة وثبات «نسبي» ، رغم تغير الأديان والحضارات والمعتقدات .

منذ فجر التاريخ وحتى الآن ، تميزت منطقة المشرق «الهلال الخصيب» بالوحدة الحضارية والسكانية السامية ـ العربية ، رغم انقسامها الي طرفين متمايزين جغرافياً وسياسياً : الطرف الشرقي ، أي بلاد الرافدين بخصوصيتها النهرية التي حتمت قيام دولة موحدة لادارة النهرين وحياة السكان التي تعتمد عليهما بشكل أساسي ؛ ثم الطرف الغربي ، أي سوريا الطبيعة (حالياً سوريا ولبنان وفلسطين والأردن) التي اعتمدت أساساً على البحر المتوسط والتوسع التجاري والحضاري على ضفافه ، مع وجود تنوع في التضاريس الجغرافية الداخلية أعاقت قيام دولة موحدة على غرار الرافدين . ان الجوار والتداخل الجغرافي بين الرافديين وسوريا خلق وحدة حضارية وسكانية مستمرة منذ فجر التاريخ وحتى الآن . ثم ان موقع المشرق فعلاً في نقطة التقاء آسيا وافريقيا واوربا ، جعله نقطة التقاء لحضارات هذه القارات الثلاثة . رغم سيادة العنصر السامي ـ العربي إلا أن هذا المشرق استوعب ما لا يحصى من الجماعات الآسيوية التركية والايرانية والكردية والأرمنية ، كذلك الأوربية الاغريقية والرومانية ، بالاضافة الى الجماعات الافريقية المصرية والبربرية والنوبية والزنجية . لكن هذه الجماعات كانت سرعان ما تمتزج بالأغلبية السامية ـ العربية وتتبنى حضارتها ولغتها السائدة .

إن هذا الموقع الجغرافي الوسطي بين القارات التاريخية الكبرى قد لعب الدور الحاسم في تاريخ المشرق وتكوينه السياسي والسكاني والعقلي . الميزة الأساسية لمنطقة المشرق أنها شكلت منذ القدم المحور الذي تدور حوله أقطاب «منطقة الشرق الأوسط» بتنوعاتها الحضارية والسكانية والجغرافية القادمة من آسيا وأوربا وافريقيا . لقد شكل وادي الرافدين بوابة المشرق نحو الحضارات الآسيوية الايرانية الهندية الصينية ، وشكلت الشام «سوريا الطبيعية» بوابة المشرق نحو حضارات البحر المتوسط بقسمها الشرقي الحامي (المصري البربري) وقسمها

الأوربي (الاغريقي الروماني) . ليس صدفة ان الاسلام لم يأخذ امتداده الحضاري المعروف إلا بعد انتقال الدولة الاسلامية الى المشرق . الحضارة العربية الاسلامية قد انطلقت من العاصمة دمشق ، ثم بلغت ذروتها في العاصمة بغداد . في هاتين المدينتين تمكن اهل المشرق من لعب دورهم التاريخي الحقيقي وجعلوا من منطقتهم مركزاً لحضارة عالمية كبرى تمتد على مدى القارات الثلاثة .

من اجل معرفة الطبيعة السياسية والعقلية لمجتمعات ودول المشرق ، يتوجب معرفة طبيعة الأقطاب المجاورة المحيطة بهذا المشرق وماهية الثوابت التاريخية التي تتحكم بهذه الأقطاب . يمكن عد هذه الأقطاب الكبرى المحيطة بخمسة : (القطب الايراني ، القطب المصري ، القطب الأناضولي ، القطب الجزيري الحجازي ، القطب الأوروبي) . هذه الأقطاب بمجموعها ، مع المشرق ، اصطلح على تسميتها بمنطقة «الشرق الأوسط» ، عدا القطب الأوربي الذي ظل على علاقة مباشرة بالمشرق من خلال البحر المتوسط :

القطب الايراني

ايران هي الجارة الكبرى المشرفة مباشرة على المشرق عبر سلسلة جبال زاغروس طول الحدود الشرقية لوادي الرافدين . تمتد هذه الحدود جنوباً من خليج البصرة حتى الشمال حيث جبال أرمينيا وطوروس الأناضول . إن التجاوز الجغرافي الحميم بين الهضبة الايرانية ووادي الرافدين ، كان بالحقيقة تجاور النقيضين : ايران ، رأس الكائن الآسيوي المرتكز على الهضبة الايرانية وجبالها ، والممتد بين هضاب وجبال أواسط آسيا الآرية التركستانية ، حتى حدود الهند والصين وروسيا . لبثت ايران دائماً ترمق بشغف وحماس ناحية الغرب حيث وادي الرافدين وشواطىء سوريا الواعدة . أما العراق ، رأس الكائن المشرقي المرتكز على نهري دجلة والفرات والمنفتح على سهول سوريا الخصبة حتى شواطىء المتوسط . لبث العراق دائماً يرمق بخوف وحذر حدوده الشرقية حيث تتربص شعوب ايران وآسيا بانتظار فرصة للانحدار والهبوبط واجتياح الرافدين ، كما فعلت طيلة التاريخ !

ايران ظلت دائماً أشبه بالعاشقة الولهة الباحثة عن كل السبل للسيطرة على الحبيب ؛ والعراق ظل دائماً ذلك اليافع المتمرد الهارب من سيطرة الحبيبة . جبال زاغروس ترتفع على الرافدين الى مسافة تبلغ أحياناً (٤٥٤٨ قدم ـ جبل زارد) . الهضبة الايرانية وجبالها منحت الايرانيين دائماً قوة حربية حاسمة من خلال الانحدار العسكري والاجتياح السريع . ايران

ذات الأراضي الجبلية وصحراء «لوط» القاحلة ظلت دائماً ترمق بإعجاب وشهية الحضارات الكبرى الناشئة في الوادي الخصيب وما تنتجه من ثروات وخيرات وعلوم ومعتقدات . ثم إن موقع العراق ظل ضرورياً للوصول الى الشام وشواطىء المتوسط .

عل مدى التاريخ لبثت الشعوب الرعوية الآسيوية (الآرية ـ التركستانية) ، ما إن تحط الرحال في الهضبة الايرانية قادمة من أواسط آسيا ، حتى تفتح عيونها على وادي الرافدين بنهريه وأراضيه السهلة الخصبة الغنية ، فتنحدر عليه بسهولة من أعالي زاغاروس . من ابرز هذه الشعوب والجماعات التي اجتاحت العراق منذ عصر السومريين وحتى القرن الماضي : عيلام ، غوت ، كوش ، حوريين ، ميد ، اخمين ، بارث ، ساسان ، بعد الاسلام برز : البويهيون والأتراك السلاجقة ، المغول ، ثم الصفويون . لقد تعددت فترات الاجتياح والسيطرة الايرانية الآسيوية وتراوحت بين عشرات السنين حتى عدة قرون . أما المجموع الكلي لهذه الفترات فيبلغ عشرات القرون المتقطعة . أطول هذه الفترات كانت سيطرة البارثيين والساسانيين التي دامت من القرن الأول ق .م حتى القرن السابع والفتح العربي .

على مر التاريخ ظل الهم الأول والرئيسي للدولة الرافدية حماية حدودها الشرقية لدرء خطر الاجتياحات الايرانية الآسيوية . جميع الدول العراقية تجنبت مغامرة السيطرة على ايران بسبب صعوبة الصعود الحربي نحو جبال زاغاروس والهضبة الايرانية . وكان أقصى ما تفعله الدولة العراقية انها تقوم باجتياحات سريعة وعمليات تأديب للدول والقوى المشاكسة في ايران . (يبدو ان صدام لم يفطن لهذه الحقيقة التاريخية الجغرافية ، فقام بمغامرته الحربية التي انتهت بكارثة) . ان الدولة العربية الاسلامية هي الدولة «المشرقية» الوحيدة التي تمكنت فعلاً من عبور جبال زاغاروس وفرض السيطرة على الهضبة الايرانية وعموم آسيا الوسطى . وهذا أمر استثنائي في تاريخ المشرق ، ويعود ربما أساساً الى العنفوان الحربي الذي كانت تتمتع به القبائل العربية الصحراوية القادمة تواً من بوادي الجزيرة العربية .

المسألة المهمة التي يمكن ملاحظتها ، أن ايران خلال جميع فترات احتلالها للعراق لم تستطع أبداً أن تفرض ثقافتها أو سكانها على الرافدين ،بل كان العكس هو الذي يحصل : في كل مرة تحتل ايران الرافدين كانت تكتسب وتتبنى الحضارة الرافدية : اكتسبت الكتابة المسمارية والثقافة السومرية منذ الألف الثالث ق .م ، ثم الحضارة البابلية التي أثرت بصورة كبيرة على الثقافة الايرانية والديانة المجوسية . وصل الأمر في الحقبة الساسانية انهم جعلوا عاصمتهم في المدائن وسط العراق ، قريباً من بابل القديمة ، وصارت اللغة الآرامية

(السريانية) العراقية ـ السورية هي السائدة ثقافياً في أنحاء الامبراطورية الفارسية ، مع بقاء اللغة البهلوية محصورة في البلاط الايراني . المسيحية النسطورية العراقية انتشرت حتى بين العائلة الملكية في ايران ونافست المجوسية . علماً ان هذه المجوسية فشلت تماماً بالانتشار بين العراقيين ، وبقيت محصورة بين الجاليات الايرانية المقيمة . الديانة المانوية البابلية انتشرت بزخم في ايران ، حتى أنها شقت الزرادشتية لتخرج منها الطائفة المزدكية التي جمعت بين المجوسية الايرانية والمانوية العراقية .

أتت بعد ذلك الحقبة الاسلامية لتصبح ايران مسلمة بعد أن سبقها العراق . لقد انتشر الاسلام في ايران أساساً بواسطة القبائل العراقية البصرية والكوفية التي استوطنت ايران خصوصاً في خراسان ونيسابور وقم ، وشكلت أساس الجيش الخراساني الذي ساند الثورة العباسية . عندما ساد التشيع في العراق بدأت ايران السنية تدريجاً أيضاً تميل الى التشيع ، حتى تمكن الصفويون أن يفرضوا التشيع في القرن السادس عشر . علماً أن الصفويين اعتمدوا على الفقهاء و«السادة» العراقيين واللبنانيين والبحرانيين لنشر المذهب الجعفري . ان فئة السادة في ايران (من بينهم الإمام الخميني) ، التي تتمتع بقدسية دينية وسياسية في الدولة والمجتمع ، لا ينكرون من انهم من أصول عراقية عربية (لبنانية وبحرانة وإحسائية) وينحدرون من نسل الإمام علي . لكن طبعاً هذا لا يقلل من حقيقة انتمائهم التاريخي والحضاري لإيران .

إن حاجة ايران للسيطرة على الرافدين ، لم تكن مدفوعة بحقد وكبرياء قدر ما هي مدفوعة بعشق ورغبة بالذوبان والاندماج . أوضح صورة لمدى تعلق الايرانيين بالعراق ، تقديسهم وحبهم للأئمة والعتبات المقدسة في العراق . كم من الحروب خاضها الايرانيون ضد العثمانيين من اجل تحرير العتبات المقدسة؟ وكم هناك من الأساطير عن الجهود العجيبة التي ظل يبذلها الايرانيين من اجل دفن موتاهم في مقبرة النجف في العراق .

حقبة الشاه الأخيرة كشفت عن تجربة طريفة تستحق الاشارة اليها : عام ١٩٧٥ في ظل المنافسة بين نظام الشاه ونظام البعث ، قام الشاه بتكوين حزب حكومي حمل الكثير من سمات حزب البعث ، بل حتى اسمه هو (حزب ريستاخ) ويعني (حزب البعث أو النهضة) في الفارسية !

إذن ، مشاعر ايران نحو العراق ظلت دائما مفعمة برغبة وحب وغيرة . العشق الايراني

، نموذج للعشق الامتلاكي ، حيث تندفع الحبيبة ، باسم الحب ، للسيطرة على حبيبها . أما العراق ، فيدو انه ظل دائماً رافضاً متهكماً من هذا «العشق» . ظلت مشاعر العراق نحو ايران مفعمة بتوجس وحيرة مع بعض التعاطف والسخرية . تجربة الحرب مثال واضح لهذه الحالة : صدام حسين عندما اجتاح ايران ، كان أساساً مدفوعاً بالخوف والقلق من الثورة الايرانية وطموحاتها التوسعية . أرادها ضربة هوجاء خاطفة لإسقاط الثورة وإقامة نظام أكثر أماناً له . أما ايران فانها منذ أول الثورة راحت تعلن عن رغبتها بتغيير النظام في العراق وإقامة نظام اسلامي لانقاذ الشعب العراقي من «الكفرة» . حتى الاستمرار بالحرب ، كان العراق يشن هجماته مدفوعاً بالخوف والأمل بايقاف الحرب ، مع التبجح السافر باعلان الحقد العنصري على الفرس «المجوس» ؛ أما ايران فقد ظلت على العكس ، مستمرة حتى آخر رمق باسم الحب للشعب العراقي والعتبات المقدسة وتخليصه من (حكم الطغاة)!

بالنسبة لدور الشام في هذه الإشكالية ، فهو التالي : منذ فجر التاريخ استمرت ايران تكافح المستحيل لتجعل الرافدين جزءاً من كيانها الحضاري وتركيبها السكاني ، لتبعده عن التأثير السامي ثم العربي القادم من سوريا وشمال الجزيرة العربية . رغم القرون الطويلة من الاحتلال ، فشلت ايران تماماً في التأثير على التكوين السكاني والحضاري للعراق ، وبالتالي فشلت أيضاً في جعله جزءاً من حضارتها وسكانها . يعود هذا الفشل أساساً الى اختلاف الجغرافية والبيئة . كان من المستحيل على الشعوب الايرانية الآسيوية ذات الطبيعة الجبلية من الحفاظ على كيانها السكاني الثقافي في أرض سهلية ومنخفضة مثل ارض الرافدين . (ان اختلاف الجغرافية والبيئة أعاق العرب أيضاً عن تعريب ايران رغم استقرار الكثير من الجماعات العراقية والعربية فيها وفرضهم الاسلام والحضارة العربية المشرقية) .

لهذا استمرت السيطرة الايرانية سيطرة عسكرية سياسية ولم تصل الى سيطرة حضارية سكانية . علماً أنه على مدى التاريخ استقر في العراق الكثير الكثير من الايرانيين والأكراد والتركستانيين وامتزجوا وتزاوجوا مع العراقيين . لا يمكن أبداً نكران حقيقة أنه في دماء جميع العراقيين هناك نسبة من مختلف الدماء الآسيوية . ونفس الأمر ينطبق على شعوب ايران ووسط آسيا اذ تمتزج فيهم نسبة مهمة من الدماء العراقية . لكن حضارة ايران وثقافتها ظلت دائماً آرية آسيوية ، وحضارة العراق وثقافته ظلت دائماً سامية عربية مشرقية .

اذن كان العائق الأكبر أمام ايران من اجل «تفريس العراق» ، هو القبائل السامية ثم

العربية القادمة من سوريا والجزيرة العربية : إما عن طريق بادية الشام وشمال الجزيرة العربية حيث تحط الرحال على ضفاف الفرات ؛ وإما عن طريق شمال سوريا حيث تنحدر القبائل السورية من أعالي دجلة والفرات وتعمر شمال الرافدين أولاً ثم تنحدر حتى الجنوب .

هنا بالضبط يكمن سر العلاقة بين الشام والعراق ، ودور ايران في هذه العلاقة . بمعنى أوضح أن العراق ظل دائماً متوجساً من السيطرة السياسية العسكرية المنحدرة من الشرق حيث زاغاروس وايران ، وبنفس الوقت ظل مرتبطاً بسوريا حيث تمتد فيها جذوره الثقافية والسكانية والروحية . ايران حيث «العشق الامتلاكي» والخطر السياسي العسكري ، والشام حيث «الارتباط الروحي والعقلي» وامتداد الجذر السكاني والحضاري .

القطب المصري

لو انتقلنا الى الجانب الشامي لوجدنا ان علاقة الشام بالعراق متأثرة بدورها بطرف آخر ، أي «مصر» الجار الكبير الواقع على الجنوب حيث سيناء وساحل المتوسط ثم وادي النيل . يبدو أن هناك «بعض التشابه» بين التأثير الايراني على العراق والتأثير المصري على الشام . لكن الإقرار بهذا التشابه لا يمنعنا من التأكيد على وجود اختلاف كبير بين «علاقة ايران بالعراق» و«علاقة مصر بالشام» .

إن العراق وايران رغم تمازجهما السياسي والحضاري فان التمازج الثقافي والسكاني ظل انفعالياً ولم يصل الى حد الانصهار والتوحد بل ظل التمايز والحفاظ على الخصوصية هو السائد في العلاقة ، كما أوضحنا ذلك سابقاً . أما بالنسبة للشام ومصر فان العلاقات السكانية والحضارية بين الطرفين ظلت تميل نحو التقارب والتشابه مع مرور الزمن بسبب تشابه الجغرافية والبيئة بين سوريا ومصر ، بالاضافة الى الانفتاح وتمازج سكاني تاريخي بين المنطقتين بحيث يصح القول أن «سكان مصر» منذ القدم وحتى الآن ما هم إلا مزيج تاريخي أصيل بين القبائل السامية القادمة من الشام مع القبائل الحامية البربرية القادمة من شمال افريقيا وبلاد النوبة «السودان» . حسب اعتقاد تيار مهم من المؤرخين أن الشعوب السامية ما هي إلا فرع من الشعوب الحامية (المصرية البربرية) وقد قدمت من شمال افريقيا بعد التصحر الذي حدث في الألف العاشر قبل الميلاد . وقد امتزجت هذه الشعوب الجديدة بسكان المشرق الأصليين من سومريين وغيرهم وخلقت ثقافة جديدة هي الثقافة السامية التي ظلت قريبة من الثقافة الحامية القديمة . ثم بعد ذلك بدأت بعض هذه الجماعات السامية المشرقية

تنحدر من المشرق نحو الجزيرة العربية حتى اليمن وتمتزج بالشعوب الأصلية لتكون ثقافة جديدة هي الثقافة العربية المتفرعة من الثقافة السامية المشرقية .

المهم ، من دون التوسع بالتفاصيل التي لا يسمح بها موضوعنا ، نقول ان العلاقة السكانية (العرقية) بين أهل سوريا واهل مصر علاقة سكانية ـ ثقافية قديمة جداً .

مع نشوء الحضارة السامية (الكنعانية) ونمو النشاط التجاري للسوريين حول ضفاف المتوسط ، بدأت موجات الهجرة السورية الى مصر (وشمال افريقيا) . منذ ذلك الوقت وحتى الآن ظلت الجماعات السامية تأتي مصر قادمة من سوريا وشمال الجزيرة العربية . يمكن ذكر بعض الأمثلة على التأثير السوري ، منها سيطرة قبائل «الهكسوس» السورية على مصر لعدة قرون ، تاريخ «اليهود » الفلسطينيين في مصر ، انتشار المسيحية اليعقوبية السورية «القبطية» في مصر . يبدو أن الهجرات السامية كانت تضطر الى التوسع نحو سواحل شمال افريقيا عندما كان يصعب عليها الاستقرار في مصر بسبب قوة الدولة المصرية . مثال على هذا الجماعات الفينيقية (الكنعانية اللبنانية) التي تمركزت في قرطاجة (تونس) وعمرت سواحل ليبيا والجزائر والمغرب (بين القرن الثامن ق .م حتى القرن الأول ق .م) . إن هذه الهجرات السامية وصلت الى ذروتها في عصر الفتح العربي الاسلامي وتعريب اقباط مصر ، وانتشار الثقافة العربية بلهجتها وخواصها الشامية . يمكن الاستشهاد كذلك بحالة قبائل بني هلال التي قدمت من الشام وشمال الجزيرة العربية عبر سيناء واستقرت في صعيد مصر زمن الدولة الفاطمية ، وبعدها نزحت الى المغرب وفرضت التعريب التام . أما في العصر الحديث فنلاحظ هجرة الشاميين (من سوريا ولبنان خصوصاً) منذ القرن الماضي ودورهم المعروف بالاسهام في النهضة المصرية الحديثة .

بالاضافة الى هذه العلاقات السكانية والحضارية بين المنطقتين ، فان سوريا ظلت تشكل أيضاً مصدر خطر على مصر بسبب قدوم الكثير من الغزاة الى مصر عبر سوريا ، وبالذات خطر الدول المختلفة القادمة من هضبة الأناضول ، مثل الحيثيين والاغريق والبيزنط والصليبيين وأخيراً العثمانيين . كذلك هنالك خطر الهضبة الايرانية عبر العراق والشام ، حيث تمكن الفرس من القضاء تماماً على آخر الدول الفرعونية في القرن السادس ق .م ، مباشرة بعد سقوط آخر الدول البابلية التي كانت مهيمنة على العراق وسوريا !

لهذه الأسباب جميعاً ، بالاضافة الى ضعف الدول السورية بشكل عام ، فان مصر ظلت دائماً مدفوعة الى فرض سيطرتها على الشام سياسياً وعسكرياً . لم تكف مصر طيلة

تاريخها عن العمل على مد نفوذها أو احتلالها للشام، منذ الفراعنة ثم البيزنط حتى العصور العربية الاسلامية مع آل طولون والفاطميين ثم المماليك، حتى محمد علي باشا، وانتهاءً بالوحدة المصرية السورية عام ١٩٥٨.

القطب الجزيري «السعودي»

تمتد منطقة الجزيرة العربية على حدود المشرق شرقاً من خليج البصرة ومروراً ببادية الشام حتى خليج العقبة وصحراء سيناء. لبثت هذه المنطقة دائماً ضعيفة التأثير سياسياً وحضارياً بسبب ندرة الدول والمراكز الحضارية القوية فيها وذلك لوعورتها وموقعها الجغرافي المهمش والمعزول بحرياً عن العالم من ثلاثة جهات، عدا الجهة الشمالية التي تحد المشرق. لكن جنوب الجزيرة (اليمن السعيد) ظل متميزاً بجباله وخصوبته وموقعه البحري الذي سمح له بالاتصال بالمصريين والأحباش من خلال البحر الأحمر، وكذلك بالايرانيين عبر خليج عمان. أما باقي الجزيرة فكانت في وسطها صحراء قاحلة تمتد من حدود اليمن جنوباً حتى بادية العراق والشام شمالاً. القسم الغربي (الحجاز) الممتد على ضفاف البحر الأحمر من خليج العقبة حتى اليمن، ظل خلال آلاف الأعوام على علاقة وطيدة مع سوريا التي نقلت اليه الحضارة السامية مع بعض المؤثرات المصرية والحبشية. وقد تجلى هذا الأمر بوضوح في القرون الأخيرة التي سبقت الاسلام مع نشوء الخط التجاري المعروف بين الشام واليمن عبر مدن الحجاز (مكة ويثرب). ليس صدفة أن ظهور الاسلام في الحجاز كان تعبيراً عن الامتزاج الحضاري بين التأثيرات المشرقية القادمة من الشام والعراق (المسيحية واليهودية والصابئية والمانوية) والتأثيرات اليمانية التي كانت تحمل بدورها الكثير من المؤثرات السامية المصرية. أما شرق الجزيرة أي سواحل الخليج فإنها ظلت طيلة التاريخ على علاقة وطيدة مع جنوب العراق منذ السومريين حتى العصور الحديثة، وما انتشار القرمطية والتشيع في منطقة الخليج إلا دليل على عمق العلاقات البشرية والحضارية مع جنوب العراق، بالاضافة الى تشابه اللهجات والتقاليد بين المنطقتين. وفي معظم فترات الخلافة العربية والعثمانية ظل شمال الخليج مرتبط إدارياً بولاية البصرة.

إن تأثير الجزيرة العربية على المشرق بدأ يتضح في فترة ما بعد الميلاد عندما بدأت هجرات القبائل العربية نحو أطراف سوريا والعراق لتمتزج مع سكان المشرق وتتبنى حضارتهم السريانية. بعد انبثاق الاسلام والفتح العربي لمنطقة المشرق، تقاطرت القبائل والجماعات

العربية على العراق وسوريا وامتزجت بالسكان الأصليين ونشرت بينهم اللغة العربية والاسلام . الملاحظ أنه رغم قدوم العرب المسلمين وجيوش الفتح من الجزيرة العربية إلا أن التأثير الثقافي والسياسي لهذه المنطقة بدأ بالضعف بعدما انتقلت مراكز الخلافة الاسلامية الى دمشق والبصرة والكوفة ثم بغداد . سرعان ما تسلم أهل المشرق (السكان الأصليين ومعهم العرب الذين توطنوا وأصبحوا مشارقة) أجهزة الخلافة العربية وتطوعوا في جيوشها وضخوا في الاسلام واللغة العربية جميع ما ورثوه من حضاراتهم السالفة . زمن الأمويين ثم العباسيين ، رغم احتفاظ الحجاز (مكة والمدينة) بأهميته الدينية التاريخية لكنه فقد دوره الحضاري اوالسياسي . ظل التأثير البشري للجزيرة من خلال هجرات القبائل العربية نحو المشرق ومصر وشمال افريقيا ، لكن من الناحية الحضارية والسياسية ظلت هذه المنطقة مرتبطة بمراكز الخلافة والحضارة في المشرق خصوصاً . حتى علوم اللغة العربية نشأت وتمركزت في الكوفة والبصرة . إن الأغلبية الساحقة من العناصر التي لعبت دوراً مذكوراً في الحضارة العربية الاسلامية كانوا من سكان المشرق ، منهم العناصر المشرقية الأصلية المستعربة من مسلمين ومسيحيين ويهود وصابئة ومانوية ، ومنهم العناصر العربية التي استقرت وتزواجت وامتزجت مع اهل المشرق وصارت جزءاً من سكانه وحضارته . طبعاً لا ننسى كذلك دور جميع الشعوب التي تكونت منها الامبراطورية مثل الفرس والتركستان ، بالاضافة الى المصريين (مسلمين وأقباطاً) والبربر واسبان الأندلس ، لقد ساهم جميع هؤلاء في صنع الحضارة العربية الاسلامية .

في القرن التاسع عشر حاولت منطقة «نجد والحجاز» ان تخلق لها دوراً سياسياً دينياً شبيهاً بدورها القيادي أثناء الفتح الاسلامي ، من خلال الحركة الوهابية وغزوات الوهابيين لأطراف العراق وسوريا . لكن سليقة التاريخ والجغرافية أفشلت هذه المحاولة ، بسبب ضربات العثمانيين والمصريين لها ، فلبثت الوهابية محصورة في نجد فقط . تكررت المحاولة مرة أخرى بعد الحرب العالمية الأولى من خلال قيام شريف مكة وأبنائه بقيادة الثورة العربية ، ومحاولة إعادة عملية الفتح الاسلامي للمشرق . لكن هذه الثورة انتهت بانتقال العائلة الهاشمية الى عواصم المشرق وفقدانهم السلطة في الحجاز وعموم الجزيرة لصالح العائلة السعودية . من جديد ومنذ أعوام الستينات بدأت العربية السعودية بمحاولة القيام بدور قيادي ديني وسياسي ازاء منطقة المشرق وعموم العالمين العربي والاسلامي . هذه المحاولة ظلت ضعيفة التأثير من الناحية الثقافية والعقائدية بسبب الإمكانات «التاريخية» المحدودة في هذا المجال . لكن

التأثير السياسي المهم الذي نجحت العربية السعودية بمارسته استند على الثروة النفطية الهائلة لنشر العقيدة الوهابية وبناء الجوامع ودعم الحركات الدينية والبنوك الاسلامية ؛ كذلك عبر انشاء امبراطورية اعلامية جبارة تعتمد على كوادر صحفية ومثقفة بمعظمها من منطقة المشرق ومصر .

القطب الأناضولي

هذا القطب يقع في شمال منطقة المشرق حيث هضبة الأناضول ، (وهي تركيا الحالية التي ضمت اليها في هذا القرن مناطق ارمينيا واعالي شمال الرافدين التي تحولت الى مناطق كردية تركية حالياً) . تفصل الأناضول عن الشام والرافدين سلسلة جبال طوروس . ان العوامل الجغرافية لهضبة الأناضول شبيهة بالهضبة الايرانية ،لكن موقع الأناضول على ضفاف البحر المتوسط قلل من حدة حماستها في الاتجاه نحو الجنوب حيث منطقة المشرق . ان ارتفاع هذه المنطقة عن المشرق سمح لها كذلك بامتلاك سهولة في الانحدار والاجتياح العسكري . لقد ظلت الأناضول ذات تأثير سياسي عسكري واضح وتمكنت من فرض سيطرتها على الرافدين والشام لعدة فترات متقطعة ، سواء بواسطة سكان الأناضول مباشرة (الحيثيين والبيزنط ثم العثمانيون الذين سيطروا على المشرق لأربعة قرون) ، أو بواسطة سكان اليونان وأوربا الشرقية القادمين عبر الأناضول : الاغريق (الاسكندر المقدوني ، والدولة السلوقية) ، ثم الصليبيون الذين قدموا من أوروبا عبر الأناضول .

الملاحظ أنه طيلة التاريخ ظلت هناك منافسة شديدة بين القطب الأناضولي والقطب الايراني للسيطرة على بلاد الرافدين خصوصاً بالاضافة الى سوريا . هذه المنافسة بين القطبين تعود لعدة أسباب منها ان الهضبة الأناضولية تحد الهضبة الايرانية وتشترك معها بالطبيعة الجبلية ، وتشرفان على وادي الرافدين وتتمتعان بسهولة اجتياحه العسكري . ان العراق يمثل بالنسبة للأناضول الممر التجاري الأساسي الذي يجب اجتيازه للوصول الى الخليج ومنه الى الهند ، وخصوصاً ان الطريق عبر ايران صعب ومستحيل بسبب المنافسة ومناعة ايران الجبلية . ثم ان العراق ظل منذ فجر التاريخ يشكل بالنسبة لايران والأناضول وادي الخصب والخيرات ومركز الحضارات التي طالما أثار شهية الجيران لاجتياحه والاستحواذ على خيراته والاستفادة من نتاجاته الحضارية .

لقد عاش وادي الرافدين طيلة تاريخه في ظل المنافسة بن هذين الجارين الجبارين : منذ سقوط بابل وسيطرة الفرس الأخمينيين على الرافدين عام ٥٨٩ ق .م ، بدأت المنافسة مع

الاغريق المستقرين في اليونان والأناضول . تحول الرافدين الى ساحة صراع بين الطرفين طيلة اربعة قرون . بعدها تمكن الايرانيون البارث من دحر الاغريق وفرض سيطرتهم على العراق عام ١٢٦ ق .م) . بعدهم أتى الفرس الساسانيون عام (٢٢٦ ب .م) حيث استمر العراق ساحة للمنافسة والحرب بين هؤلاء الساسانيين والبيزنطيين المستقرين في الأناضول وسوريا ، حتى الفتح العربي الاسلامي في القرن السابع . منذ القرن السادس عشر تجددت هذه المنافسة واندلعت الحروب المدمرة بين الصفويين الايرانيين والعثمانيين المستقرين في الأناضول . خلال اربعة قرون تقريباً شهد العراق اجتياحه لعدة مرات من قبل الصفويين ثم انتزاعه من قبل العثمانيين ، وتحول العراق الى ساحة صراع بين الايرانيين والعثمانيين . لقد انعكست هذه المنافسة حتى على الوضع المذهبي في العراق : العثمانيون اعتنقوا المذهب السني الحنفي نسبة الى ابو حنيفة الكوفي العراقي «الإمام الأعظم» . جهد الاتراك لدفع العراقيين الى ترك التشيع واعتناق المذهب الحنفي . اما الايرانيون فقد فضلوا منافسة الاتراك واعتناق المذهب الجعفري (العراقي) ، على أمل التحالف مع شيعة العراق ضد العثمانيين الحنفية! بسبب الصراع الصفوي العثماني تعمق الخلاف بن المذهب الجعفري والمذهب السني الحنفي واتخذ بعداً سياسياً واجتماعياً عنيفاً لم يعرفه من قبل . بالحقيقة ان المذهب الحنفي ومؤسسه ابو حنيفة اقرب المذاهب السنية الى الجعفرية تاريخاً ومعتقداً . الغريب ان هذه الحالة ما هي إلا تكرار حرفي لتايخ الخلاف في المسيحية المشرقية قبل الاسلام ، عندما تعمق الخلاف لدى العراقيين بين أتباع المذهب النسطوري (وهم الغالبية) وأتباع المذهب اليعقوبي (الأقلية) ، حيث لعب الصراع الفارسي ـ البيزنطي ، دوراً حاسماً في تعميق وتأجيج هذا الخلاف!

القطب الأوروبي

بالنسبة لهذا القطب الكامن على الضفة الغربية للمتوسط فانه تمثل عبر التاريخ باغريق اليونان ثم الرومان ثم الصليبيين حتى الحركة الاستعمارية الأوربية في القرون الأخيرة ، وصولاً الى التأثير الأوربي الغربي الحالي . إن هذا الموضوع بالحقيقة لا يتعلق بمنطقة المشرق وحدها ، بل يشمل كل الضفة الشرقية للبحر المتوسط ، أي كل العالم العربي من سوريا وحتى المغرب . ويستحق هذا الموضوع أن يعالج تحت عنوان : «تاريخ العلاقات العربية ـ الأوربية» . منذ الألف الأول قبل الميلاد بدأ الكنعانيون «فنيقيو لبنان وعموم شواطىء سوريا» بنشر الحضارة المشرقية السامية على ضفتي البحر المتوسط الشرقية والغربية ، بل انهم منحوا

قارة أوربا اسمها «غوربة ـ اوربا» ، وهي التسمية التي أطلقها الشاميون على إلهة «الغروب» حيث «تغرب» الشمس على ضفاف اوربا ، وقد اقتبس الاغريق هذه التسمية في أسطورتهم المعروفة التي تنسب لها تسمية اوربا . بعد ذلك ظهر الاغريق الذين نافسوا الفينقيين واكتسبوا منهم الأبجدية والحضارة وحلوا محلهم في السيطرة على البحر المتوسط ، خصوصاً في القرن الثالث ق .م مع انتصارات الاسكندر المقدوني . بعد ذلك ظهر الرومان الذين سيطروا أيضاً على المنطقة بعدما قضوا على القرطاجيين الفينقيين في تونس وشمال افريقيا في القرن الثاني الميلادي . خلال قرون السيطرة الرومانية تمكن السوريون من لعب دور مهم في نقل الحضارة السامية المشرقية الى الرومان ، بل تمكنوا من تكوين سلالات من الأباطرة الرومان المعروفين . وصل التأثير السوري على روما واوربا الى ذروته بجعل«المسيحية الفلسطينية السورية» دين روما واوربا الرسمي والغاء جميع الأديان الأوربية السابقة ، منذ القرن الرابع الميلادي . عبر هذه المسيحية تمكن السوريون من نقل تراثهم السامي المشرقي بطقوسه وآدابه وموسيقاه وباقي فنونه التي لا زال أثرها واضحاً حتى الآن . لقد وصل السوريون الى منصب بابا الفاتيكان لعدة مرات .

في القرن السابع انبثقت الحضارة العربية الاسلامية وظهر دور الأندلس في جنوب اوربا ، عاد المشارقة السوريون ليكرروا من جديد دور أسلافهم الفينقيين بغزو ضفاف البحر المتوسط ، لكن هذه المرة باسم الاسلام والحضارة العربية . وعاد من جديد دور اوروبا و«الرومان» من خلال الحروب الصليبية والسيطرة على شمال الرافدين وضفاف سوريا بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر .

في الفترة العثمانية استمر التأثير الأوربي على الشام من خلال النفوذ الديني والثقافي والتجاري ، خصوصاً منذ القرن السادس عشر بعد تمكن الفاتيكان من اقناع جزء من مسيحيي المشرق (أقسام من النساطرة واليعقوبية والمالكية والمارونية) بالتحول الى الكاثوليكية والارتباط بروما . ومنذ نهاية القرن الثامن عشر بدأ النفوذ الأوربي على الضفة الشرقية للمتوسط يتخذ طابعه العسكري ، ابتداءً من غزوة نابليون لمصر وفلسطين عام (١٧٩٨) . وفي هذه الفترة أيضاً بدأت الصهيونية الأوروبية بالاعداد لتنفيذ مشروعها الاستيطاني في فلسطين من خلال الاستيطان والتجارة . بعد الحرب العالمية الأولى وصل النفوذ الأوربي الى ذروته بسقوط الدولة العثمانية وتقاسم العراق والشام بين الاستعمارين البريطاني والفرنسي ، وشروع الصهيونية «الأوربية» بالإعداد الفعلي لمشروعها بتكوين دولة اسرائيل كممثل مباشر للقطب الأوربي والغربي .

الخلاصــة

من خـلال هذه المراجـعـة الـسـريعـة لتـاريخ هذه الأقطاب الكبـرى : «ايران ، مـصـر ، السعودية ، تركيا ، اوروا» وعلاقتها التاريخية بمنطقة المشرق (ببلدانها الحالية : العراق وسوريا والأردن وفلسطين ولبنان) ، تتبين لنا الحقيقة التالية : «إن جميع هذه الأقطاب تمتلك ميراثاً تاريخياً مترسخاً في أعماق «الذاكرة الجمعية» وقائماً على مصالح وضرورات جغرافية وسياسية وحضارية . مهما اختلفت الأديان واللغات والآيديولوجيات فإن «سليقة التاريخ والذاكرة الجمعية» تظل محكومة بديمومة الموقع الجغرافي وشروط البيئة .

رغم الاختلاف بين هذه الأقطاب وشدة المنافسة بينها ، فانها تجتمع في مصلحة مشتركة تتمثل في النواحي التالية :

1 - أن هذه الأقطاب لا تسمح لأي قطب منها بفرض نفوذه وحده على كل المشرق . ان نفوذ أو سيطرة قطب معين على باقي المشرق ، يؤدي تلقائياً الى تهديد سلامة باقي الأقطاب ، وبالتالي يمهد للسيطرة على عموم الشرق الأوسط والبحر المتوسط .

2 - ان جميع هذه الأقطاب تشترك أيضاً في الرغبة بعدم السماح لبروز دولة مشرقية قوية ، ومنع أي تقارب وتحالف بين بلدان المشرق ، وخصوصاً التحالف بين البلدين الكبيرين ، سوريا والعراق . ان مثل هذا التحالف المشرقي ، يضعف من نفوذ باقي الأقطاب ، ويهدد ببروز قوة حضارية مشرقية كبرى تتمكن من الحد من طموح جميع الأقطاب الأخرى . ان مثال الحضارات المشرقية السالفة ، وتاريخ الامبراطوريتين الأموية والعباسية ، لا زال عميقاً في الذاكرة التاريخية .

3 - ان بقاء المنافسة بين بلدي المشرق الكبيرين : العراق وسوريا ، وتأثرهما بتجاذبات الأقطاب المحيطة ، كان السبب الأول والأساسي للخراب والهزائم العسكرية والحروب الأهلية والخارجية وسيطرة النظم الاستبدادية والأقليات المذهبية ، على عموم المشرق . منذ اغتصاب فلسطين وحتى عملية السلام المجحفة : الانقلابات العسكرية والمجازر والحركات الانفصالية في بلدان المشرق ، كانت دائماً بدعم من دولة ضد الدولة الأخرى . اندلاع حرب لبنان ودور الخصام العراقي السوري في ديمومتها . حرب العراق وايران التي بدأت بعد انقلاب صدام على الوحدة مع سوريا ، ثم دور الخصام السوري العراقي في ديمومة هذه الحرب . حرب الكويت تأثير الخصام السوري العراقي في تأزيم

الحالة حتى اندلاع الحرب . على هذا المنوال يمكن أن نقرأ تاريخ المشرق الحديث منذ الحرب العالمية الأولى وحتى الآن .

4 - ان تحالف بلدان المشرق يعد ضرورة حياتية وأمنية ازاء تهديد القطبين العملاقين ايران وتركيا . ويعد هذا التحالف ضرورياً بين العراق وسوريا ازاء الخطر الذي تمثله تركيا في تحكمها بينابيع دجلة والفرات وتهديدها للمصالح الحيوية للبلدين . ان القوة المشرقية لا تبتغي اعلان العداء «القومي» للقطبين الايراني والتركي ، بل الهدف الأساسي هو اقامة علاقات متوازنة وتشجيع روابط الأخوة والتقارب في جميع النواحي السياسية والثقافية والاقتصادية .

5 - ان التقارب العراقي السوري وتكوين تحالف مشرقي يؤدي الى الحد من تنامي الخطر الاسرائيلي العسكري والاقتصادي ، وبالتالي القدرة على مواجهتها حضارياً وفرض الأمر الواقع عليها : إما أن تقبل اسرائيل بمنطق التاريخ والجغرافية وتندمج حضارياً وسكانياً وسياسياً بمنطقة المشرق بميراثها اليهودي المسيحي الاسلامي ، وإما أن تصر على البقاء حالة شاذة تستمد ميراثها من الدويلات الصليبية والدور التوسعي المعروف للقطب الأوربي ، وهذا الوضع شاذ لن يسمح بديمومته لا التاريخ ولا الجغرافية .

من كل هذا يمكن الجزم بأن طبيعة المشرق الجغرافية والتاريخية والسكانية لا تسمح أبداً بحل وسط ووضع حيادي عادي بين دول المشرق ، بل هنالك وضعان متطرفان متناقضان لا وسط بينهما : إما أن تبقى بلدان المشرق في حالة خصام وتنافس وتمزق حسب أهواء الأقطاب المحيطة ، وهذا يعني أن تظل تعيش في الخراب والانحطاط والصراعات السياسية والطائفية والسكانية والحروب الأهلية والخارجية في ظل أنظمة ضعيفة ونفوذ صهيوني وغربي متزايد ؛ وإما أن تدرك هذه البلدان منطق التاريخ وطبيعة دورها الحضاري ، فتقرر التقارب والتحالف وعدم الانقياد لأهواء الأقطاب المحيطة ، وهذا يؤدي تلقائياً الى خلق قوة مشرقية قادرة على حماية نفسها ودعم العلاقات الحضارية والانسانية بين عموم بلدان الشرق الأوسط والبحر المتوسط والعالم العربي . ان الحلف الحضاري المشرقي سوف يكون خصوصاً الأساس لحلف حضاري بين جميع بلدان العالم العربي ، لأن التاريخ برهن ويبرهن يومياً بأنه من دون تقارب بلدان الشرق لا يمكن أبداً الحديث عن أي تقارب أو توحد عربي . ان دور المشرق يشبه الى حد بعيد دور «اوربا الغربية» في توحيد القارة الأوربية .

ملاحق معلوماتية

خاصة بتاريخ بلدان المشرق
ودورها الحضاري وإشكاليات توحدها

اوربا.. اسم فينيقي سامي بمعنى (الغرب والغروب)

بالنسبة لتأثير الفينيقيين على الحضارة وبالذات على أوروبا التي منحوها حتى اسمها (اوربا ـ غوربا) أي الغروب حيث تغرب الشمس على سواحل اوروبا كما يراها السوريون القاطنون على السواحل الشرقية . والطريف أن اسم (اوربا) هو نفسه اسم (عرب) لأن حرف العين والغين يتبادلان في السامية مثل سين وشين . والعرب هم القاطنون في (غرب) الفرات وقد شاع الاسم لدى أهل النهرين لأن الصحراء في الغرب ، والبدو يأتون من الغرب (بادية الشام) . ولا زال العراقيون يطلقون على سكان أعالي الفرات (الغربية) عكس (الشرجية ـ الشرقية) وهم أهل الجنوب :

«أسطورة قدموس[1] فينيقية يونانية يمثّل فيها زفْسُ ، ربُّ أرباب الأولمب وإلهُ المطر والرّيح والصاعقة ، وزوجته هيرا الإلهةُ الحاميةُ للزواج ، دوراً عظيماً . ثم تبنّاها الرومانُ فجعلوا جوبيترَ وزوجَه جونون يحلاّن فيها محلَّ زفسَ[2] وهيرا[3] . وقد ذكر هذه الأسطورة كثيرون من المؤرخين منهم هيرودوتُ وسيكَ وبوسانيا ونقولا الدمشقي ، ونَظَمَها كثيرون من الشعراء شِعْراً ، وأشار إليها هوميروسُ ، وقصَّها الشاعرُ اللاتينيُّ أوفيدُ[4] بين الأساطير التي نظمها في كتابه « التحوّل» .

---

١ – قدموس : لفظة يونانية معناها ، القاهر المظَفَّر . وأوروبا لفظة سامية أصلها عَرُوبا ، ومعناها الغرب . ويقولُ هيرودوت إنّ أوروبا الفينيقية هي التي أعطت القارة الأوروبية اسمها ، لأنّ هذه القارة لم يكن لها اسم في ذلك الزمان البعيد .

٢ – زفس هو جوبيترُ الرومان ومعنى اسمُه ، المحيي أو الهواء الأعلى ويسميه العَرَبُ المشتري .

٣ – هيرا هي جونونُ الرومان ومعنى اسمها : الاتحاد الزوجي ورئيسة المجتمع . هي أخت زفسَ وزوجته» .

من كتاب «أساطير شرقية ـ كرم البستاني ـ ص 45» .

افريقيا.. اسم فنيقي سامي
بمعنى (الفرقة أو المقاطعة)

«كلمة افريقيا :

اسم افريقيا لا بد وأن يثير الانتباه. حيث انه كان يطلق في البداية على قرطاجة ومناطق نفوذها قبل أن يشمل القارة بأسرها. ففي زمن الحروب البونية كان المؤرخون اللاتين يطلقون اسم أفريقي على المواطنين القرطاجيين. وكان السكان الثائرون يسمون باسم قبائلهم منهم المور والبربر وليس الأفارقة. فالإفريقي هو المواطن القرطاجي. وافريقيا الاسم الرسمي للمقاطعة المحيطة بقرطاجة في عهد الرومان وهي مستقلة ادارياً عن نوميديا وموريتانيا. وكان العرب يطلقون على تونس التي نعرفها اليوم اسم افريقيا. لهذا يربط المستشرقون كلمة افريقيا بأصل سامي أصبح بالعربية «الفرق».

ويرى سلان أن الكلمة الفينيقية التي تحولت باللاتينية لأفريقيا تعني القطعة أو الجزء، وهي المقاطعة التي تنفصل عن الوطن الأم.

أما غيزل فلا يعير انتباهاً لهذا الأمر. على أن كلمة افريقيا ليست لاتينية وإنما أخذت من اللغة البونية (الفينيقية).

ويبدو لي أن بقاء الاسم مع مرور الزمن يعني توفر عناصر معينة لاستمراره».

من كتاب «ماضي شمال افريقيا ـ أ. ف. غوتييه ـ ص 89».

بـرديصـان، عـالـم سـريـانـي (عـراقـي سـوري)
يـسـتـحـق الـتـذكـر

رغم مرور ستة قرون بعد سقوط بابل على يد الفرس (539 ق .م) ونهاية آخر دولة عراقية حتى الفتح الاسلامي ، إلا أن العراق استمر بتقديم العلماء الكبار الذين أدخلوا الميراث الديني العراقي في الديانة المسيحية . عكس السائد لدى مؤرخينا المعاصرين من أن الديانة الفارسية (المجوسية) كانت المؤثر الأول في أديان المنطقة ، نكتشف من خلال هذا النص أن الديانة العراقية والسورية كانت هي المؤثر الأول . بالإضافة الى تأثير الأفكار الروحية الفلسفية (الغنوصية ـ العرفانية) والهرمزية القادمة من الاسكندرية في مصر . علماً بأن هذا العالم قد ولد في (الرها) شمال الرافدين العراقي السوري ، والتي أصبحت في القرن الحالي تابعة لتركيا :

«في فجر الثقافة السريانية ظهر كوكب مشعّ وضّاء ، كان «آخر الغنوصيين» ، مزج التصورات والآراء الفلسفية لبلاد ما بين النهرين (القديمة) والنصرانية والعقائد الغنوصية (العرفانية) ، القادمة من الاسكندرية .

ولد برديصان في الرها سنة ١٥٤ م ضمن أسرة علم وأدب . ونشأ في قصر ملكها (معنو) حيث كان أليف طفولة أبجر الثامن أمير الرها وملكها المستقبلي ، وحليف صباه وشبابه وعضيده في المشورة والرأي . أما اسمه فهو مستمد من اسم النهر (ديصان) ، الذي كان يمر بالرها . وتذكر المصادر المتوفرة عنه ، أنّ برديصان هو الذي استطاع أن يقنع أبجر وحاشيته باعتناق النصرانية ، إذ سبق لبرديصان (مستشار هذا الملك) أن دان بالنصرانية واهتدى اليها في مطلع شبابه .

لقد استطاع برديصان أن يلبي ميوله العلمية والفلسفية بفضل معرفته العميقة للغتين ، السريانية واليونانية على قدم المساواة ، حيث كان متبحراً في العلم السرياني والثقافة الاغريقية .

أصبح برديصان مسيحياً وداعية الى المسيحية ، وقد استهواه مذهب فالانتين (المصري) ، أما معارفه الفلكية فقد استمدها من قدماء المنجمين ومن العقائد التنجيمية المختلفة . وقامت

دعوته المسيحية على مجموعة من الآراء والمعتقدات ، الخاصة بالقضاء والقدر تكونت تحت تأثير أفكار الغنوصيين ، والأفكار التي تقول ، إن النفس لا تولد ولا تموت كما كان قريباً من أطروحات مرقيون وماني البابلي وكان ثنوي العقيدة بعامة .

وضع برديصان كتباً شتى لم يبق منها غير كتاب «شرائع البلدان» ، الذي أملاه برديصان على تلميذه فيليبس (كما تلقى أفلاطون كلمات معلمه سقراط الأخيرة) . أو أنه يمثل صيغة سريانية فلسفية «للمحاورة عن النفس» وعن القضاء والقدر منسوبة الى برديصان أيضا . والغريب أن هذا الكتاب الذي يدور البحث عنه أساساً عن النفس والقضاء والقدر عُرف عند السريان باسم «كتاب شرائع البلدان» ، وذلك نقلاً عن عنوان الفصل المعقود ، في هذا الكتاب في ايراد شرائع البلدان المختلفة حجة على حرية الانسان المطلقة (وهو على صورة حوار بين برديصان وتلميذه المدعو عويذا ـ المترجم) . وقد ترجم نصه السرياني الى اليونانية واستخدم في كتاب « Praeparatio» ليوسيقوس القيصري وفي كتاب « Recognitiones» لكليمنت ـ المزيف . وقد أثرت الآراء الفلسفية لبرديصان ، وكذلك نظرياته وتعاليمه التنجيمية والفلكية سواء على معاصريه أو على علماء القرون التالية . وظهر هذا التأثير العميق في الأدبين السرياني واليوناني في آن معاً . ومع أن كثيراً من الآراء والاستنتاجات ، التي كان يرددها برديصان مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعقائد الغنوصية وبالتقاليد التنجيمية «البابلية» المحلية ، ففي المحاورة المعقودة بين برديصان وتلميذه المدعو عويذا ، يصب الفيلسوف آراءه الفلكية ـ التنجيمية قائلاً : «إننا نستطيع أن نريك ، كيف أن المصائر والأقدار لا تفعل ذات الفعل لدى الناس جميعاً ، واننا نملك حرية شخصية ، من شأنها أن تمنحنا امكانية «عدم الخضوع والاستكانة» لتأثير الطبيعة المباشر ، وكيلا نكون تحت تأثير «السلطة الموجهة» (القضاء والقدر) . أما عويذا فيردّ قائلاً ، أنه لو تمت البرهنة على ذلك ، فان سيقتنع بصحة رأي الحكيم . عندئذ ينصحه برديصان : «اقرأ كتاب كهنة بابل ، الذي كُتب فيه ، أن اتحاد النجوم واقترابها من بعضها يؤثر على أبراج الناس ، واقرأ كتاب المصريين ، الذي يتحدث عن المصادفات والحظوظ ، التي تبرز للناس» . فأجاب عويذا معلمه : لقد قرأت كتباً بالفلك والتنجيم ، ولكنني لا أعرف ، أيها كانت بابلية ، وأيها كانت مصرية» . فيوضح له برديصان : «إنها علوم كلا البلدين» .

وهكذا ، فقد بنى برديصان علومه الطبيعية والفلكية على المعتقدات وعلى العلوم الفلكية ، التي تم بلوغها في بلاد ما بين النهرين (في بابل) وفي مصر (في الاسكندرية) .

وكان الفرق بين هاتين المدرستين ضئيلاً ، حتى أنه يمكن القول ، أنه حصل تأثير علمي متبادل بينهما في القرن الثالث للميلاد الى درجة الامتزاج الكامل (تقريباً) ، فتوحدتا في نظرية عامة ، كانت تتألف من منظومة علمية فلكية ضمن إطار شكلي (قشري ـ خارجي) في صورة معتقدات تنجيمية معينة تراكمت بعض مقولاتها بناء على مراقبات طويلة (امتدت) الى قرون كثيرة كان يقوم بها «كهنة» بابل و«سحرتها» و«حكماؤها» لحركة النجوم والأفلاك . وبناء على تلك الملاحظات الطويلة ، استطاع منجمو بابل أن يضعوا لوحة فلكية تقويمية دقيقة (الى حد كبير) عن التغيّرات الفلكية ، الطبيعية المتوقعة على مدار السنة بأكملها . وقد دوّنوا (بشكل خطي) جميع التغييرات ، التي تحصل في حركة النجوم والكواكب ، ورسموا بنجاح عظيم أماكنها (منازلها) ودرجاتها ومداراتها وزواياها وسمتها أيضاً . على هذا ، فإن العلوم الفلكية ، التي كان برديصان وأتباعه ينهلون منها ، بلغت شأناً كبيراً ومستويات رفيعة في تلك الأزمنة .

ولكي يؤكد برديصان صحة رأيه في حرية الإرادة الانسانية ، يشير بوضوح ، الى أن حركة النجوم وقوانينها ومنازلها ودرجاتها لا يكون لحركتها اليومية التأثير نفسه على الناس جميعاً . وللبرهنة على هذا الرأي ، فانه يعتمد على مقولة التنوع والتغاير في القوانين ، التي أقرتها شعوب مختلفة ، ثم يعرض لهذه القوانين والشرائع (مبتدئاً من أقاصي الشرق الكوني» . ويتضمن هذا المؤلف الغني ، معلومات عن القوانين والعادات ، السائدة في بلدان مختلفة ، التي تشكل في الواقع الجزء الثاني ، الممتع والمفيد ، من المحاورة ، التي تجسد فعلاً سعة علم واطلاع وتنوع اهتمامات ومعارف هذا العالم السرياني الكبري . والأغلبية المطلقة من أخباره ومعلوماته صحيحة ودقيقة ، وتتضمن قيمة علمية كبيرة ، سواء ما كان منها في المجالين الاثنوغرافي والقانوني (الحقوقي) ، أو في مجال البرهان على المستوى الرفيع للمعارف والتصورات السريانية عن الشعوب الأخرى .

وفي عداد القوانين ، التي يأتي على ذكرها برديصان ، القوانين الصينية والبراهمانية ، وكذلك «القانون الآخر للهند» ، أي الفروض والواجبات والعادات الأخرى ، غير التي يسير عليها البراهمانيون . وبعد ذكره «لقوانين الفُرس» يتحدث عن «قوانين الأنعام» (الشعوب غير المتمدنة) ويعني بها سكان هيلانة والساحل الجنوبي الشرقي لبحر الخزر ، ثم يتبعها بالحديث عن تقاليد أهالي الرها والعرب ـ بشكل مختصر ـ ، ومن ثم يروي «قوانين الهاطري ـ

الفرنجة» ، أي قوانين الإغريق والشعوب «الشمالية» ، بما فيها قوانين البريطانيين . ثم يرسم صورة عن «القوانين الأمازونية» ، حيث ينقل صورة مفصلة عما كان متداولاً (في زمنه) من قصص عن الأمازونيات مقدماً وصفاً حياً عن هذا النظام الخاص وعن أشكال الزيجات التي تُعقد في إطاره .

وتجدر الاشارة الى التوافق الكبير بين تصورات برديصان عن الشعوب المعروفة والمشهورة في الكرة الأرضية (في ذلك الحين) والمعطيات ، الاغريقية ـ اللاتينية ، التي كانت تعطي «وصفاً كاملاً للعالم» ، مع أن معلومات برديصان تسبق المصنفات الاغريقية اللاتينية بمدة زمنية لا تقل عن مئة عام . وهنا فصل يعقب مباشرة القوانين والشرائع المذكورة بعنوان «كتاب الحكماء الكلدان» ، الذي يبرهن مضمونه بصورة قاطعة على منشئه الهرمسي ، ومع ان هذا الفصل كُتب مختصراً ، إلا أنه يقدّم وصفاً للكثير من المناطق والشعوب ، مع ذكر حركات النجوم والكواكب وتبيان أهمية العقيدة الهرمسية ، وأماكن انتشار عبادة كوكب الزهرة . أما الجزء الذي يلي ذلك «من المحاورة» فهو مكرّس للمسائل وللقضايا التنجيمية المتعلقة بمشكلة حرية الإرادة وعدم تبعيتها للظواهر الطبيعية .

ولا بد من الإشارة خصوصاً الى سمة من سمات شخصية برديصان المبدعة ـ ونعني بها موهبته الشعرية ، التي أورثها لابنه هرمنيوس . حيث يذكر أن برديصان وضع مئة وخمسين نشيداً على طريقة مزامير داود النبي ، ضمَّنها آراءه اللاهوتية (الغنوصية) ولقّنها الشبيبة (الرهاوية) بعد أن وقعها على ألحان عذبة تخلب الأفئدة . وقد بقي قسم منها بفضل استخدام القديس أفرام السرياني لأشعارها ، بعد أن أدخل فيها آراء العقيدة الأرثوذكسية ، وفي بعض الحالات حافظ (القديس أفرام) على المضمون أيضاً ، ليستخدمه في مجادلاته ومناقشاته اللاحقة ضد برديصان .

ولا شك أن الشعر السرياني الحديث (القرن الثالث) مدين بكثير من أشكاله وصيغه لبرديصان ، الذي وضع بعض الأوزان والايقاعات الجديدة في التوشيحات الشعرية السريانية ، فانتشرت هذه النماذج كشكل شعري ذي فرادة وخصوصية . ويذكر القديس أفرام السرياني ، أن الأناشيد والأغاني ، التي أبدعها برديصان ومدرسته ، كانت ذات جاذبية عظيمة في صفوف الشباب ، الأمر الذي اضطر بعض آباء الكنيسة الى تلحين بعض النصوص الانجيلية والعقائد الأرثوذكسية لتغنى من قبل الناشئة رداً على الانتشار الهائل لأغاني برديصان وأناشيده في الأوساط المذكورة» .

التأثير السوري في مصر

«طيلة التاريخ ظلت مصر متعلقة بسوريا ، ويمكن عد السيطرة المصرية على سوريا بعشرات القرون ، منذ الفراعنة والطولونيين والفاطميين والمماليك حتى الوحدة المصرية السورية عام 1958 . ولكن رغم ذلك فإن السوريين هم الذين كانوا يضخون مصر بالهجرات السكانية والتأثيرات الحضارية ، وكان أبرزها انتقال المسيحية اليعقوبية من سوريا الى مصر باسم (الكنيسة القبطية) وكذلك انتشار اللغة العربية بلهجتها السورية من خلال الجيوش السورية ، هنا لمحة عن التأثير السوري على مصر خلال العصور السابقة لانتشار المسيحية :

«التأثير السوري في مصر

وكما كان تأثير الحضارة المصرية على سورية بارزاً فان هنالك دلائل تلفت النظر بصورة أوسع عن التأثير السوري في مصر . ويتضح التأثير السوري في أقدس قصة فرعونية مصرية وهي قصة آلام أوزيريس الذي قطع جسمه إرباً ووضع تحت شجرة الأثل في جبيل . ويظن البعض أن الجثة المشوهة وضعت في مصر . وقد تكون عبادة أوزيريس برمتها مأخوذة من الساحل السوري في تاريخ قديم جداً . وقد أدخل الإله حورون (Hawron) وهو الإله الرئيسي في يبنة الى معابد مصر في ايام امنحوتب الثاني (حوالي ١٤٥٠-١٤٢٠) ويظهر في اسم حورمحب مؤسس السلالة التاسعة عشرة (١٣٥٠ ق .م) ويمكن الاستدلال على عبادة عشتاروت في منتصف القرن الثالث عشر من ان اسم أحد أبناء رعمسيس الثاني كان ميري استروت (Meri-Astrot) أي محبوب عشتاروت .

وكان الإقبال على الفتيات السوريات في مصر أكبر من الإقبال على الفتيات المصريات في سورية . وقد دخل منهن عدد كبير الى مصر بشكل رهائن وإماء أو زوجات عندما كانت الامبراطورية في ذروتها حتى ان تغييراً ملحوظاً حصل في سحنة أفراد الطبقة العليا . وكان بين حريم الملوك والأرستوقراطيين أميرات ميتانيات وحثيات وفينيقيات في كثير من الأحيان . وهنالك تباين واضح بين ملامح تحوتمس الرابع الدقيقة وأنفه الأقنى وبين النموذج الذي تمثله سحنة تحوتمس الأول بفكه الكثيف وأنفه القصير . وأتت مع الزوجات الأجنبيات أفكار أجنبية بين دينية وغير دينية . وقطع أخشاب الفصيلة الصنوبرية التي وجدت في قبور ما قبل

عهد السلالات والدعائم المستخدمة في بناء قبور السلالة الأولى تدل على الاستيراد من سورية منذ ذلك العهد البعيد . وتشهد الأثر المتأخرة في مصر عن كثرة المحاصيل السورية في عهد الملكية الحديثة وغناها . وكان الصناع السوريون ينتجون أسلحة ثمينة مزخرفة وثياباً مزركشة واواني أنيقة وأثاثاً ومركبات مرصعة بالذهب والفضة . واستعار المزينون السوريون من مصر نبات اللوتس (عرئس النيل) والبابيروس (البردى) وشوكة اليهود (acanthus) ولكن السوريين هم الذين جعلوا من الآراولة (الكرسنتيم) والسوسن والختمي نباتات زخرفية . وهم الذين كانوا أيضاً أول من فكر بوضع الزهور الاصطناعية في أوان معدنية . ولاجل نقل صمغ الصنوبر والصمغ العادي والعسل والزيت استخدم السوريون الجرار المستدقة في أسلفها وقد اكتشفت بقاياها في مصر وجبيل . ووجدت أوان مزخرفة بدهان ذي بريق معدني حسب أسلوب سورية الشمالي كمستوردات في قبور الفراعنة الأولين في أبيدوس . ووصل فن الدهان ذي البريق المعدني الى كريت المينوسية من سورية الشمالية . وسرعان ما نشأ عند المصريين تذوق لمثل هذ المنتجات الفنية التي أتت بها حوادث الحرب أو عمليات التجارة والسياحة وأخذوا يقلدونها . وفي حركة البعث في فترة سايتي في القرن السابع نقل المصريون عناصر متزايدة من الفن الفينيقي الذي فقد أصالته في القرن التالي وكسفه الفن اليوناني .

ظهر العود لأول مرة في مصر بعد فتوحات تحوتمس الثالث . والأهداب الثقيلة التي عليه هي سورية في شكلها . وتظهر القيثارة لأول مرة مع البدو الساميين في عهد السلالة الثانية عشرة . وكانت سورية غالباً مصدر الرصاص الذي أصبح شائعاً في السلالة الثامنة عشرة .

ولم تكن القرون الأربعة للحكم المصري كافية لجعل سورية مصرية كما ان أربعة قرون من الحكم التركي لم تكن كافية لجعل سورية تركية . ولم يتأثر السكان الوطنيون إلا قليلاً بالفكر واللغة المصرين . وبقيت بضع كلمات مصرية في العربية الحديثة ولكن معظمها انتقلت فيما بعد بطريق اليونانية أو القبطية . وفي العصور الفينقية كما في العصر الحديث هاجر كثير من السوريين الى وادي النيل ولكن قليلين جداً من المصريين هاجروا الى سورية . وكان معظم العلاقات التجارية بيد الفينقيين . ويبدو أن اقليم مصر كان لا يسمح لسكانها بالعيش في بلاد أخرى خاصة حيث الأمطار وموجات البرد في الشتاء تتطلب مقدرة على المقاومة . وقد قال المثل الشائع أن من اعتاد على شرب ماء النيل يحب أن يشرب منه دائماً» .

من كتاب «تاريخ سوريا ـ ج١ ـ فيليب حتي ـ ص 146-148» .

تعريب الأندلس من خلال السوريين

إن ديمومة التاريخ وتكرار الأحداث مرتبط بديمومة الموقع الجغرافي وظروف البيئة . نلاحظ مثلاً أن موقع سوريا الطبيعة على البحر المتوسط جعل من سكانها منذ الأزل يتجهون بأنظارهم الى سواحل البحر المتوسط ، سواء عن طريق التجارة الفردية أو الفتوحات التجارية السياسية . لقد عمر السوريون (الفينيقيون) جميع سواحل البحر المتوسط ونقلوا آثارهم وحضارتهم الى اليونان وايطاليا واسبانيا وشمال افريقيا ومصر . وقد لاحظ المؤرخون ان الفتوحات الأموية لشمال افريقيا واسبانيا هي شبه تكرار حرفي لفتوحات الفينيقيين السباقة وبناءهم لقرطاجة والكثير من مدن الساحل الافريقي والاسباني مثل (برشلونة ـ برقة لونة ـ وقادس) في اسبانيا .

هنا لمحة عن توطن الشاميين في الأندلس التي فتحتها الجيوش المتكونة من البربر والسوريين ، كما حدث أيام القرطاجيين :

«تفريق الشاميين في الأندلس

رأى أبو الخطار أن أهل الشام يسكنون كلهم في قرطبة وما جاورها وأنهم كثروا «عنده ولم تحملهم قرطبة» (ابن خلدون ٤ : ١١٩) . فاذا نحن صرفنا النظر عن أن ازدحام هؤلاء في منطقة واحدة يثقل الحياة الاقتصادية في تلك المنطقة ، فان وجودهم على مقربة من دار الحكم ينطوي على تهديد مباشر لأبي الخطار ، عاجلاً أو آجلاً . من أجل ذلك فرّقهم أبو الخطار في الأندلس ، قيل بنصيحة أرطباش بن غيطشة ، على الوجه التالي :

أ) أنزل أهل دمشق في إلبيرة (مقاطعة غرناطة) ـ لشبه البيرة بدمشق ـ وسماها «دمشق» .

ب) أنزل أهل حمص في إشبيلية ـ لشبه مقاطعة اشبيلية بحمص ـ وسمّاها «حمص» .

جـ) أنزل أهل قنّسرين في مقاطعة جيّان وسماها قنّسرين .

د) أنزل أهل الأردن في مقاطعة ريـّة (في أُرْشُذونة ومالِقة) وسماها «الأردن» .

هـ) أنزل أهل فلسطين في شذونة (وهي مقاطعة شريش) وسماها «فلسطين» .

و) أنزل أهل مصر ، وكانوا كثاراً ، في مكانين : في مقاطعة باجة من جنوب غربي الأندلس ، وفي مقاطعة تُدْمير من جنوبي شرقي الأندلس .

وأقطع أبو الخطار أهل الشام ، في الأماكن التي أنزلهم فيها ، أراضي مما كان يملك عجم الأندلس (الاسبان الذين لم يعتنقوا الاسلام ولا تعلموا العربية) ثم أعطاهم من أنعام هؤلاء العجم ما يستطيعون أن يعيشوا به» .

من كتاب «العرب والاسلام في الحوض الغربي ـ عمر فروخ ـ ص 152-153» .

* * *

البيئة وتأثيرها على شخصية المجتمع وعقليته

«أثر البيئة في مصر وأرض الرافدين

إننا إذ نتوجه من مصر القديمة نحو العراق القديم ، نغادر حضارة ما زالت آثارها الضخمة باقية ، «أهرام عظيمة من الحجر تعلن سطوة الانسان في قهره القوى المادية» ، ونتوجه نحو حضارة اندثرت آثارها ، وحالت مدنها الى ركام . فالتلال الشهباء الصغيرة التي تمثل ماضي العراق تكاد لا تذكر المرء بأي من عظمته السالفة .

ليس في ذلك من ضير ، لأنه يتفق والذهنيتين الأساسيتين اللتين بنيت عليهما هاتان الحضارتان . فلو عاد المصري القديم الى الحياة اليوم ، لسرّ لمرأى أهرامه وهي باقية بعد ، لأنه كان يعطي الانسان ومنجزاته الملموسة معنى جوهرياً يفوق ما ترضى بإعطائه معظم الحضارات . ولو عاد العراقي القديم الى الحياة ، لما اضطرب كثيراً لمرأى آثاره وهي حطام ، لأنه كان دائماً يعرف معرفة عميقة بأن «الإنسان أيامه معدودة ، ومهما صنع فما هو إلا ريح تهب .»(١) فمركز الوجود ومغزاه لديه بعيدان عن الإنسان ومنجزاته ، بعيدان عن الأشياء الملموسة ، في قوى غير ملموسة تحكم الكون .

أما كيف توصلت الحضارتان المصرية والعراقية الى هاتين الذهنيتين المتباينتين ـ الواحدة تثق في قوة الانسان ومعناه الأبعد ، والأخرى لا تثق ـ فسؤال عسير . فـ «ذهنية» حضارة ما ، هي نتاج مناهج حياتية معقدة متداخلة تتحدى التحليل الدقيق . ولذا فاننا سنشير الى عامل

واحد يبدو انه لعب في ذلك دوراً مهماً ، هو عامل البيئة . فقد نشأت الحضارة المصرية في بلد مرصوص حيث تقع القرية لصق القرية فتطمئن ، والمنطقة كلها محاطة ومعزولة بحواجز جبلية تحميها . في سماء هذا العالم المحمي تمر كل يوم شمس لا تخذله أبداً ، وتنفخ الحياة فيه بعد ظلام الليل . وفيه يرتفع النيل الأمين كل سنة ليخصب التربة المصرية ويحييها من جديد . فكأنما الطبيعة هنا تكبح نفسها عن قصد ، كأنها وضعت هذا الوادي في حرز حريز لكي يمتّع الانسان نفسه دونما عائق .

أما حضارة أرض الرافدين فقد نمت في بيئة مختلفة كل الاختلاف . ولئن نجد فيها الإيقاع الكوني نفسه ، بالطبع ـ تعاقب الفصول ، سير الشمس والقمر والنجوم ـ فإننا نجد فيها أيضاً عنصراً من القسر والعنف لم تعرفه مصر . فدجلة والفرات يختلفان عن النيل ، اذ قد يفيضان على غير انتظار أو انتظام ، فيحطمان سدود الانسان ويغرقان مزارعه . وهناك رياح لاهبة تخنق المرء بغبارها ، وأمطار عاتية تحول الصلب من الأرض الى بحر من الطين وتسلب الانسان حرية الحركة ، وتعوق كل سفر . فهنا ، في العراق ، لا تضبط الطبيعة نفسها . إنها ببطشها تتحكم بمشيئة الانسان ، وتدفعه الى الشعور بتفاهته إزاءها» .

من كتاب «ما قبل الفلسفة ـ هـ . فرانكفورت ـ ص 145-147» .

* * *

عن النقاء العروبي لأسلافنا

نورد هنا موضوعاً شيقاً وطريفاً عن الجواري والعبيد في عصور الحضارة الاسلامية . والغاية من هذا الموضوع هي الدعوة للتفكير والتساؤل : أليس من المنطقي والمعقول أن يكون هذا العدد الهائل من الرقيق وخلال عدة قرون أن يكون قد ترك أثره في التكوين العرقي لشعوبنا ، بحيث يمكننا القول بكل يقين أنه ليس هناك أحد منا لم يرث شيئاً من هؤلاء الأسلاف من العبيد والجواري ، سواء عن طريق الآباء أو الأمهات ؟

« الرقيق

كان مصدر الرقيق في بداية الفتوحات العربية من أسرى الأعداء ممن لم يعتنقوا الاسلام ، أو لم يدخلوا في ذمة المسلمين . إذ يقسم الأسرى والسبايا بأن يكون للدولة الخمس يُصرف في الصالح العام ، وتوزع أربعة الأخماس على المقاتلين ، فيُعطى الفارس

سهمين والراجل سهماً واحداً . ولم ينفرد العرب بهذه المعاملة للأسرى ، فقد كان ذلك مرعياً عند الأمم الأخرى . فمن كان يقع من المحاربين العرب في أيدي الروم مثلاً ، لكثرة الحروب معهم ، كان نصيبه الاسترقاق . إلا أن الدولة العربية كانت تُعنى بافتدائهم إما بالمال وإما بإطلاق ما يقابلهم من أسرى الأعداء .

ونظراً لتوسع الفتوحات العربية ، كثر الرقيق المجلوب من البلاد المفتوحة ، وشاع استخدامهم . إذ كان الأسرى والسبايا يوزعون على ذوي العلاقة من المحاربين جنداً وقواداً ، وأكثر هؤلاء يبيعون ما يزيد عن حاجتهم منهم . فاتسعت معاملات شراء أنواع الرقيق واستجلابها ، فصارت تجارة واسعة ، كان لها في بغداد سوق خاصة . وعندما أنشئت سامراء أقيمت فيها سوق كانت تقع في الشارع الأعظم ، وهي مربعة الشكل بها طرق متشعبة وعلى جانبيها الغرف والحوانيت للرقيق أيضاً .

ويعتبر الرقيق ملكاً لصاحبه ، له أن يبيعه أو يهبه أو يعتقه . ولصاحب الأمة أن يستمتع بها ويستولدها باعتبارها ملك يمينه ، سواء أكان متزوجاً أو غير متزوج ، وإذا ما ولدت منه كان ابنها حراً ، وسميت هي «أم ولد» ورغم رقّها فلا يجوز له أن يبيعها أو يهبها ، وتصبح حرة عند وفاته .

ومع ان الاسلام لم يُلغ الرقّ فقد أمر بحسن معاملة الرقيق وعدم تكليفهم بما لا يطيقون من الأعمال ، وشجع على عتقهم ، أي تحريرهم من عبودية الرق ،بل إنه اعتبر ذلك من أجلّ الأعمال . فقد جاء في الآيات الكريمة ﴿فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فكُّ رقبة﴾ . وقد أكدت آيات أخرى من القرآن الكريم على ذلك . فقد ورد في الآية الكريمة ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجُنُب والصاحب بالجَنْب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾ وشجعت الآية الكريمة ﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾ على الزواج من ملك اليمين إذا كانوا صالحين .

وللعبد أن يشتري حريته من مالكه ، فقد جاء في الآية الكريمة ﴿ . . . والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء إن أَرَدْنَ تحصناً . .﴾ . أي أن المملوك إذا كان أميناً وكان ذا كسب وأراد أن يكاتب سيده على مبلغ معين لقاء عتقه فيكاتبه ، سواء أدى المبلغ عاجلاً أو آجلاً .

وكان عتق الرقيق يتم على نطاق واسع في بعض المناسبات . وقد يشتري بعض الناس الرقيق لغرض عتقهم . فقد أعتق المتوكل على الله عند إعذار ابنه المعتز ألف عبد وأمر لكل منهم بمئة درهم وثلاثة أثواب .

وقد سمي الأرقاء البيض مماليك والسود عبيداً . وكان من الطبيعي أن تختلف قيمة المملوك أو العبد ذكراً أو أنثى ، بما يحسن من الأعمال ، وحملة السلاح منهم أعلى منزلة من غيرهم ، وقد صار منهم قواد وأمراء بارزون في الجيش العربي ، وكان لكثير منهم شأن كبير في سير الأحداث ومصائر الخلفاء .

وكان الصقالبة والترك المصدر الذي لا ينضب معينه من المماليك . وما كان يجلب الى حاضرة الخلافة ، بغداد أو سامراء ، من الصقالبة يأتي من بلاد الفرنج عن طريق الأندلس . ويقول المقدسي : «إن بلدهم خلف خوارزم ، إلا أنهم يُحملون الى الأندلس فيخصون ، ثم يخرجون الى مصر والروم ، ويقعون الى الشام وآقور» . أو أنهم يؤتى بهم من الشرق مما يسببه الخراسانيون أو يتاجرون به . وكان الرقيق من الترك يُجلب من فرغانة واسبيجاب . وقد اشتهرت سمرقند برقيقها ، ويقول ابن حوقل عنها : «وسمرقند مجمع رقيق ما وراء النهر ، وخير الرقيق مما وراء النهر تربية سمرقند» . ويقول عن رقيق خراسان «وأنفس الرقيق ما يقع من بلاد الترك ، ولا نظير لرقيق الترك في جميع رقيق الأرض ، ولا يدانيه في القيمة والحسن . وغير غلام رأيته قد بيع بخراسان بثلاثة آلاف دينار . وتبلغ عندهم الجارية التركية ثلاثة آلاف دينار . ولم أر بجميع أقطار الأرض من الرقيق ما بلغ من غلام ولا جارية رومية ولا مولَّدة ، ولا سمع في خبر ولا أثر إلا ما كان معه آلة السماع مع الحذق البارع والأداء الصحيح» .

أما العبيد فيعتبر المقدسي أرض السودان موطنهم ، وهم على ثلاثة أنواع : جنس يُحملون الى مصر وهم أجود الأجناس ، وجنس يحملون الى عدن وهم البربر وهم شر أجناس الخدم ، والجنس الثالث على شبه الحبش . فكانت أهم أسواق هذا الصنف من الرقيق مصر وشبه جزيرة العرب وشمال افريقيا ، وكانت القوافل تأتي بهم من الجنوب .

توسعت تجارة الرقيق وأخذ النخاسون يسلكون مختلف سبل الغش لبيع ما لديهم ، كما تطلب من المشتري مزيداً من الحذر لئلا يخدع . وقد تكوّن نتيجة نشاط هذه التجارة عديد من الملاحظات والمقاييس التي تساعد المشتري على أن يحقق غرضه ويأمن الغش والتدليس . وقد جمع الطبيب أبو الحسن المختار بن حسن بن عبدون المعروف بابن بطلان

المتوفى سنة ٤٥٥ عدداً من الملاحظات والوصايا التي تساعد المشتري ، وصنفها في رسالة سماها رسالة في شرى الرقيق وتقليب العبيد . ومما جاء فيها أن من الضروري أن يتفحص المشتري أعضاء الرقيق كالرأس والصدر والأطراف والحواس للاطمئنان على سلامتها وخلوّها من العيوب التي تعيقها في أداء وظيفتها . وهناك قواعد للتعرف على أخلاق الجواري المعروضات للبيع ، بقياس الفراسة ، منها : دلائل الحواجب ، فإن غزارة شعرها دليل الهمّ ، وطولها الى نحو الصدغ دليل التيه والصلف ، وطولها نحو الأنف دليل على البله ، والفم إذا اتسع كان دليلاً على الشجاعة ، وإذا غلظت شفته دل ذلك على الحمق ، أما الأذن فإن عظم حجمها دليل الجهل والدهاء وطول العمر ، وبالضد من ذلك صغرها . والصوت العظيم دليل الشجاعة ، وسرعة الكلام دليل العجلة والبله ، وحسن الصوت دليل الرعونة . والتنفس الطويل دليل رداءة الهمة . أما العنق فإن صغرها دليل المكر ، وطولها دليل الجبن ، وغلظها دليل الشجاعة . وتدل الخطى الواسعة على التأنّي .

وهناك بعض الاختبارات للتأكد من أن الجارية المعروضة للبيع تحسن ما يدَّعيه بائعها من اتقانها الطبخ مثلاً ، أو إجادتها الغناء ، أو الرقص ، أو الزمر ، أو الضرب على العود .

وعلى المشتري أن يتنبه الى أنواع الغش والتدليس التي يلجأ اليها النخاسون أو بائعو الجواري لإظهار الجارية بأحسن المواصفات المطلوبة وأكثرها قبولاً . فثمة وسائل ومعالجات مختلفة يتخذونها لتغيير الألوان ، لتصير السمراء ذهبية أو بيضاء ، أو تحمير الخدود ، أو تغيير الشعور الى السواد الحالك ، أو تجعيد الشعور السبطة ، أو تطويل الشعور بأن يوصلوا في طرفها من جنسها . كما أنهم يستعملون من الوصفات ما يزيل آثر الجدري والنمش والوشم وما يزيل الكلف من البشرة ، أو يزيل روائح الأنف ، أو يجلو الأسنان ، أو يطيب نكهة الفم ، أو يغير زرقة العين ويجعلها كحلاء ، أو صبغ البياض الذي في سواد العين ، أو اتخاذ بعض أو يغير لتصير الأمة الثيب بكراً ، أو لإخفاء الحمل عن المشتري .

وميز ابن بطلان بين العبيد والإماء بحسب أجناسهم ، ومن يصلح للخدمة من الإماء وأيهن للمتعة ، وأي أجناس الرقيق عبيد طاعة وولاء ، وأيهم لا يصلحه إلا الكد والعصا ، فقال : «من أراد الجارية للذة فليتخذها بربرية ، ومن أرادها خازنة وحافظة فرومية ، ومن أرادها للرضاعة فزنجية ، ومن أرادها للغناء فمكية ، ومن أراد العبيد لحفظ النفوس والأموال ، أي للحراسة ، فالهند والنوبة ، ومن أرادهم للكد والخدمة فالزنج والأرمن ، ومن أرادهم للحرب والشجاعة فالترك والصقالبة» .

الجــواري

إن ازدياد الثروة لدى كبار رجال الدولة وأغنياء التجار جعلهم يتوسعون في اقتناء الجواري لمختلف أنواع الخدمة ، أو لاتخاذهن للمتعة ولمجالس اللهو والسمر ، حتى عجَّت القصور والبيوت بهن . وكن من أمم وشعوب متعددة تختلف في لغاتها وطبائعها وعاداتها . وصرن جزءاً من المجتمع العربي الاسلامي يأثرن فيه ويتأثرن به ، فظهرت الحاجة الى العناية بتربيتهن وإعدادهن ولا سيما الموهوبات منهن ، بتعليمهن الأدب والشعر وأفانين الموسيقى والغناء . وكلما أجادت الجارية هذه الفنون أو بعضها نفق سوقها وغلا ثمنها . فلا غرابة أن يصير تعليم الجواري والبلوغ بهن درجة الحذق والمهارة عملاً مجزياً . فكان أحدهم يشتري الجارية التي يتوسم فيها الموهبة والذكاء أو اللباقة ، فيعلمها ويدربها ثم يبيعها بأضعاف ثمن شرائها . فالجارية التي تحذق الغناء تزيد قيمتها على مئة ألف درهم . فقد اشترى ابراهيم بن المهدي جارية بثلاثمئة دينار وعلمها الغناء وأحسن تخريجها حتى نبغت فيه واشتهرت ، فلما أعطاه المعتصم بالله سبعين الف دينار ثمناً لها امتنع عن بيعها . واشترى رجل من أثرياء البصرة جارية فأحسن تعليمها ، ولما أملق حملها الى السوق فاشتراها أمير البصرة بمئة الف درهم . واشترى الواثق بالله قلم الصالحية ، وهي جارية مولَّدة حسنة الغناء والضرب بعشرة آلاف دينار . واشترى رجل جارية تحسن النوح في العزاء لا مثيل لها بثلاثين ألف درهم غزّيّة .

وكان لبعض خلفاء بني العباس الألف جارية وما جاوزها . وقد اشتهر المتوكل على الله بكثرة الجواري «يقال إنه كان له أربعة آلاف سرية» واعتاد الأمراء والعمال وغيرهم أن يتقربوا الى الخلفاء بإهدائهم الجواري الفائقات الجمال ، أو المتقنات الغناء والرقص . فقد أهدى اسحق الموصلي جارية اسمها شجن الى الواثق بالله وكانت مغنية بارعة ، وأهدى اليه المغني عمرو بن بانة جاريته فريدة وكان قد رباها وعلمها الغناء ، فصارت أثيرة عند الواثق بالله . ولما آلت الخلافة الى المتوكل على الله أهدى اليه طاهر بن عبد الله أمير خراسان هدية فيها مئتا وصيف ووصيفة ، في الهدية جارية يقال لها محبوبة كانت لرجل من أهل الطائف قد أدبها وثقفها وعلمها صنوف العلم ، فحسن موقعها من الخليفة وحلت من قلبه محلاً جليلا . ولما استخلف المعتضد بالله أهدى اليه ابراهيم بن أحمد الأغلبي خمسين جارية ومئة خادم .

ومن الطبيعي أن يصبح بعض الجواري الحسان أو المغنيات المتقنات أو الشاعرات

الموهوبات ، سيدات الدار التي يحللن بها ، بل لقد أصبح بعضهن سيدات قصر الخلافة . وكان لبعضهن ممن صرن أمهات أولاد دور مهم في سياسة الدولة ، بحكم تأثيرهن في أزواجهن وأولادهن من الخلفاء .

وكان الى جانب الجواري المغنيات اللواتي اختص بهن الخلفاء والأمراء والأغنياء ، قيان اتخذن الغناء مهنة لهن . ويظهر أن المغنيات المشهورات في بغداد في القرن الرابع كن من الجواري . وكذلك كن في القرن الثالث ، فقد اشتهر من المغنيات عريب وشارية وكانتا تتنافسان في الغناء ووضع الأصوات ، وغدا الناس متحازبين بعضهم مع شارية وبعضهم مع عريب ، ومال كل حزب الى من يتعصب لها من الاستحسان والطرب واقتراح الأصوات ، وكانت جواري كل منهما تغني صنعة سيدتها لا تتجاوزها .

ويصنف ابن بطلان الجواري بحسب البلدان التي جلبن منها ، ويعدد البارز من صفات كل منهن . فيقول عن الجواري الهنديات انهن لهن حسن القوام وسمرة اللون ، مع حظ وافر من الجمال ، مع صفرة ، وصفاء بشرة وطيب نكهة ولين نعمة ، لكن الشيخوخة تسرع إليهن ، وهن يصلحن للولد . وعن السنديات إنهن أشبه بالهنديات إلا أنهن يمتزن بدقة الخصور وطول الشعور . وعن القندهاريات إنهن مشابهات للهنديات أيضاً إلا أن لهن فضيلة على كل الناس فإن الثيب منهن تعود كالبكر . وعن المدنيات إنهن سمر الألوان معتدلات القوام ، اجتمعت فيهن حلاوة القول ونعمة الجسم ، وهن قنوعات بالقليل لا يغضبن ولا يصخبن . وعن الطائفيات فإنهن سمر مذهبات مجدولات ، أخف خلق الله أرواحاً ، وأحسنهم فكاهة ، ولكنهن لسن بأمهات أولاد ، يكسلن في الحبل ، ويهلكن عند الولادة . وعن البربريات قالوا إنهم على الأكثر سود ، ويوجد فيهن الصفر ، والشجاعة والسرقة فيهن طبع وغريزة ولذا لا يؤتمنّ على مال ، إلا أن البربريات والمغربيات مطبوعات على الطاعة ، نشيطات للخدمة ويصلحن للولد . وعن الزنجيات فإن مساويهن كثيرة ، وكلما زاد سوادهن قبحت صورهن ، وتحددت أسنانهن ، وقل الانتفاع بهن ، والغالب عليهن سوء الأخلاق وكثرة الهروب ، والرقص والايقاع فطرة لهن وطبع فيهن . وقيل : لو وقع الزنجي من السماء الى الأرض ما وقع إلا بالإيقاع . وهن أنقى الناس ثغوراً لكثرة الريق ، وفيهن جلد على العمل . أما الحبشيات فالغالب عليهن نعمة الأجسام ولينها وضعفها ، يتعاهدهن السل ، ولا يصلحن للغناء ولا للرقص ، وفيهن سلاسة انقياد ، ويصلحن للائتمان على النفوس ، ويمتزن بضعف الأجسام ،

وهن قصار الأعمار . وأما النوبيات فهن من جملة أجناس السودان ذوات ترف ولطف وقصف ، وهواء مصر يوافقهن لأن ماء النيل شربهن . وإذا انتقلن الى غير مصر تسلطت عليهن العلل والأمراض ، أخلاقهن طاهرة وصورهن مقبولة ، فيهن عفة وتصوُّن وإذعان للمولى كأنهن فطرن على العبودية وأما التركيات فقد جمعن الحسن والبياض والنعمة ، ووجوههن مائلة الى الجهامة ، وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة . وقد توجد فيهن السمراء الأسيلة ، ومليحتهن غاية وقبيحتهن آية ، وهن كنوز الأولاد ومعادن النسل ، وفيهن نظافة ولباقة ، لا يكاد يوجد فيهن نكهة متغيرة ، وفيهن أخلاق سمحة وقلة وفاء . وأما الروميات فبيض شقر سباط الشعور زرق العيون ، عبيد طاعة وموافقة وخدمة ومناصحة ووفاء وأمانة . يصلحن للخزن لضبطهن وقلة سماحتهن . ولا يخلو أن يكون بأكفهن صنائع دقيقة . وأما الأرمنيات فالملاحة فيهن لولا ما فيهن من وحشة الأرجل ، مع صحة بنية وشدة أسر وقوة . وقل ما يوجد فيهن بخل ، وفيهن غلظ طبع ولفظ ، وهن عبيد كد وخدمة ، وليس فيهن فضيلة غير تحمل العناء والأعمال الثقيلة . وهذا الجنس غير مأمون عند الرضا فضلاً عن الغضب .

ويقول أحد سماسرة الرقيق : إذا اجتمع للبربرية مع جودة الجنس أن تجلب وهي بنت تسع حجج ، وتلبث بمكة ثلاث حجج ، ثم تجيء الى العراق وتثقف فيه ، ثم تباع وهي بنت خمس وعشرين سنة ، تكون قد جمعت الى جودة الجنس شكل المدنيات وخنث المكّيات وآداب العراقيات .

تأثير الجواري والقيان

لقد كان تأثير الجواري والقيان في الحياة الاجتماعية شديداً واضحاً ، فقد كن وسيلة لنشر الفنون الجميلة وما يتبعها من رقيّ الذوق الفني والشعور بالجمال وتقديره . فنشرن أنواعاً من الظرافة في أزياء الملابس وألوانها ومناسبات لبسها ، وفي حب الأزهار وتعشقها ، وكتابة الأشعار الرقيقة والجمل الظريفة على العصائب والمناديل وأكمام الملابس وجيوبها ، وعلى الوسائد . كما نشرن بعض أساليب التجميل كالعناية بتصفيف الشعر وترقيق الحواجب . ومن الجدير بالذكر أن بعض الجواري أقمن على الدين الذي كن عليه كالنصرانية والوثنية ، وكان مواليهن حتى من الخلفاء يحترمون دينهن ويسمحون لهن بالفروض والطقوس الخاصة في الأعياد وغيرها ، الأمر الذي يظهر مدى التسامح الديني الذي كان من مميزات الحضارة العربية الاسلامية .

ومما يظهر شدة أثر القيان والجواري في المجتمع العربي أن الجاحظ عميد الأدب في القرن الثالث وضع فيهن رسالة سمّاها رسالة القيان ذكر فيها موقف الشريعة من اقتنائهن ، وتأثيرهن في ظهور التسامح الخلقي ، وأشار الى براعتهن في الغناء ونظم الشعر . وأشاد بفضائلهن وسكون النفس اليهن لأنهن يجمعن للإنسان من اللذات ما لا يجتمع في شيء على وجه الأرض ، لأن اللذات كلها إنما تكون بالحواس ، فللعين النظر الى القينة الحسناء ، وإذا رفعت عقيرتها تغني حدّق اليها الطرف وأصغى نحوها السمع ، فاستبق السمع والبصر أيهما يؤدي للقلب ما أفاد منها قبل صاحبه . فيتولد منه مع السرور حاسة اللمس . فيجتمع له في وقت واحد ثلاث لذات لا تجتمع في شيء قط ، ولم تؤد الحواس مثلها .

كما يذكر الجاحظ ما ينشأ من الفتنة في مجالسة القيان ، لأن القينة لا تخلص في ودها ، وأنها لا تفتأ تنصب الأحابيل والشراك لجر المغانم وتحقيق المكاسب . وهو يرى ذلك أمراً طبيعياً في الجارية بحكم نشأتها وتربيتها ، بل إنها مضطرة اليها بحكم صنعتها .

ويشارك صاحب الموشى الجاحظ في ذم القيان إذ يقول : لم يبتل أحد من أهل المروءات والأدب ، ولا امتُحن الفتيان ببلية هي أعظم من هواهن . لأن حبهن حب كاذب ، وعشقهن عشق مشوب ، وهواهن منسوب الى الملل ليس بثابت ولا متصل ، وإنما هو لطمع وغرض . وهن سريعات الغضب ، يستدل على ذلك بأفعالهن الردية وأخلاقهن السيئة . وإن محبتهن تظهر ما ظهرت علامات اليسار والمال ، وتنتقل عند الإفلاس والإقلال .

وكان للجواري تأثير مهم آخر في المجتمع ، ذلك أنهن حجبن الأحرار من النساء عن الحياة الاجتماعية والثقافية . إذ اتخذ الرجل في حياته هذه طائفة من الجواري الأديبات الشاعرات والمغنيات ، دون زوجته الحرة التي أخذ يحرص على أن لا يراها أحد من الرجال غيره وغير الأقربين من محارمها . فكان ذلك سبب الحجاب الذي لف المرأة العربية المسلمة قروناً عديدة ، وما ترتب على ذلك من عزلتها وجهلها . ويذكر القاضي التنوخي أن امرأة من أهل الأنبار كانت قد جاوزت الأربعين سنة ، خرجت من بيتها الى بغداد في محنة عرضت لها . فرأت في طريقها جملاً يدير دولاباً ، فسألت عنه وحلفت بالله أنها ما رأت جملاً قط . وذلك ناشىء لا شك من احتباسها في بيتها ، وتشديد الحجاب عليها» .

من كتاب «معالم الحضارة العربية ـ أحمد عبد الباقي ـ ص 50-59» .

وجود العبيد والجواري في حضارة العراق القديم

إن مجتمع مدينة بابل يذكر كثيراً بمجتمع مدينة بغداد في العصر العباسي ، من حيث وجود فئات أجنبية عديدة بالاضافة الى السكان الأصليين :

«كان مركز بابل التجاري يعطي زواره صورة ملونة لشعوب مختلفة ، وفي المقدمة السكان الأصليون الذين عاشوا في بابل منذ أجيال عديدة ، منذ أن وضع فيها أجدادهم عصا الترحال بالاضافة الى الحجاج والتجار والضيوف الذين كانوا يقدمون من مختلف البلدان للاقامة في هذه المدينة الجميلة سواء لفترات طويلة أم قصيرة . ولقد جلبت الحملات العسكرية للملوك البابليين ولا سيما حملات نبوخذ نصر ، الألوف من الأسرى الى بابل والذين كانوا يضطرون للعمل هناك كعبيد . إن المتجول في الشوارع والأسواق يمكنه أن يتعرف ببساطة ليس على ممثلي مختلف أنواع الشعوب حسب ، بل كان بإمكانه أن يأخذ انطباعاً عن مختلف أنواع الطبقات الاجتماعية أيضاً . وكانت الطبقة الدنيا في المجتمع البابلي تتكون من العبيد . كانوا يشتغلون في مختلف أنواع الأعمال ، فقد كانوا يعملون كعمال مساعدين في بناء القصور الملكية أو الزراعة أو كأجراء عند التجار وأصحاب الحرف أو كخدم في البيوت . ويلاحظ أن العبيد كانوا يعاملون كشيء زهيد منذ عهد سومر أو كأية قطعة يمكن التصرف بها كيفما يشاء دون أن يحميها أي قانون ، فمثال نرى ذلك في مجموعة قوانين حمورابي التي تؤكد بأن عقوبة العبد تختلف عن عقوبة الحر وقد نص كما يلي : (وإذا فقأ أحدهم عين رجل حر ، فقئت عينه . إذا فقأ أحدهم عين رجل عبد رجل آخر أو كسر عظمه ، ينبغي أن يدفع لصاحب العبد نصف ثمن الأجير) . وكان هذا المبلغ يدفع بالطبع الى صاحب العبد ، إذ أن تشويه العبد كان يعتبر تقليلاً لثمنه . وكان العبد يعتبر بالنسبة لسيده أداة عمل ثمينة ، ولذلك كان الاعتناء به من مصلحته الشخصية . وكان العبد الذي يعمل خادماً في أحد البيوت يعتبر الى حد ما أحد أفراد العائلة . وغالباً ما كان يتخذ رب البيت عبدته كعشيقة أو امرأة إضافية والتي كانت تستطيع نتيجة انجاب الأطفال ولا سيما الذكور أن تصل الى مركز مرموق في العائلة . ولم يكن عدد المشتغلين من العبيد في بيت مواطن متوسط كثيراً . وكانت معظم الأعمال يقوم بها أفراد العائلة التي كانت تملك عادة ما يتراوح بين واحدة الى ثلاثة عبيد . وفي عهد نبوخذ نصر بنى الحرفيون وأصحاب المهن والمصالح ورشات انتاج كبيرة شغلوا فيها أعداداً كبيرة من العبيد» .

من كتاب «رحلة الى بابل ـ ايفلين كلينكل ـ ص 46-47» .

عن وحدة بلدان المشرق

إن الدعوة الى وحدة بلدان المشرق (الهلال الخصيب) قديمة وتعود الى سنوات العشرينات بعد التحرر من الاحتلال العثماني وانكشاف مؤامرات الانكليز والفرنسيين (سايكس بيكو) التي قسمت المشرق ووعد (بلفور) بمنح فلسطين لليهود. هنا بعض الآراء بهذا الخصوص:

« مشهد وحدة الهلال الخصيب

يرتكز هذا المشهد على فكرة وجود بنية تاريخية ـ اجتماعية واحدة في المنطقة المدروسة في هذا الكتاب، وانه من الطبيعي تالياً أن تتكرس هذه البنية في شكل قانوني مناسب، هو دولة واحدة تضم أراضي المنطقة بأسرها. لقد دافع اللبناني أنطون سعادة عن الفكرة (ملحقاً قبرص والكويت بهذه البنية)، كما تبنتها أحياناً الأسرة الهاشمية. ويمكن الاعتقاد أن لا حياة لهكذا مشروع إلا من خلال وحدة الكيانين الأساسيين في المنطقة أي سوريا والعراق. وهذا ما حصل شكلياً ولفترة وجيزة عام ١٩٧٩.

من المعقول التفكير بهذا المشهد، خصوصاً إذا بدا ان المنطقة المعنية ازدادت هشاشة وضعفاً، بسبب تضافر الضغوط الاقليمية المباشرة عليها، المتأتية مثلاً من اسرائيل وايران وتركيا. فالمنطقة ككل تتميز بوجود أربعة كيانات (ومشروع كيان فلسطين) بمقابل اسرائيل نووية وتركيا موحدة وايران قادرة (من دون ذكر أطراف عربية كمصر أو السعودية). من هنا فالضغوط التوسعية على هذه المنطقة كانت دائماً كبيرة، باستثناء مراحل قصيرة من الزمن، كما في المرحلة الأموية أو في مطلع المرحلة العباسية. ولكن رد الفعل الطبيعي لحكام المنطقة لم يكن توحيدياً بقدر ما سعى الى موازنة ضغط خارجي بآخر. فوازن العراقيون لفترة الفرس بالترك، والسوريون محمد علي بالعثمانيين الى ما هنالك. هل هناك ما يشير الى تحول تاريخي في هذا المسلك؟ في الواقع فإنه من الصعب رؤية مؤشرات على هكذا تحول. إذ أنه خارج الحزب القومي السوري (وهو نفسه يبدو أحياناً وقد تخلى عن العراق حيث لم تلقَ طروحاته أي مدى يذكر)، ليس هناك من قوى تدعو فعلاً الى وحدة «الهلال الخصيب»، ولا يبدو ان هناك أنظمة تعمل فعلاً في هذا الاتجاه. ولكن المشهد يبقى قائماً ويصبح على الأرجح معقولاً أن بدا أن الثلاثي الاسرائيلي ـ الايراني ـ التركي يزيد من «أزمة الهلال» وأن

العرب غير مهتمين بمواجهة حقيقية له . غير أن ضعف المشاركة العراقية النسبي في الحرب مع اسرائيل ، والموقف الرسمي السوري من العراق خلال حربه مع ايران ، وأمور أخرى ، تشير الى أننا بعيدون عن أي تيار توحيدي «هلالي» حقيقي .

من كتاب «المجتمع والدولة في المشرق العربي ـ غسان سلامة ـ ص 258-259 » .

* * *

«الهلال الخصيب : نظام اقليمي جديد

طرح الرعيل القومي العربي الأول المتمثل بالأمير فيصل بن الحسين والزعامات السورية الوطنية وجماعة العهد من الضباط العرب في الجيش العثماني ، فكرة الهلال الخصيب لوحدة المشرق العربي ، ولكن اتفاقيات سايكس ـ بيكو حالت دون ذلك . إلا أن ظروف الحرب العالمية الثانية وتعقد القضية الفلسطينية دفعت مشروع الهلال الخصيب للواجهة مرة أخرى عندما طرح نوري السعيد في عام ١٩٤٢ فكرة الهلال الخصيب في مذكرة اشتهرت باسم الكتاب الأزرق ، بعث بها الى وزير الدولة البريطاني كيسي ، كتصور لمستقبل المنطقة بما يوفر حلاً للقضية الفلسطينية ، تضمنت المبادىء الأساسية التالية :

(١- أن يعاد توحيد سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن في دولة واحدة .

٢ - أن يبت سكان هذه الدولة أنفسهم في نوع الحكومة التي تروق لهم سواء أكانت ملكية أم جمهورية ، وسواء أكانت وحدة أم اتحاداً فيدرالياً .

٣ - أن تنشأ عصبة عربية ينضم اليها العراق وسورية فوراً على أن يسمح للدول العربية الأخرى الانضمام اليها متى شاءت .

٤ - ان يكون لهذه العصبة العربية مجلس دائم ترشحه الدول المنخرطة في سلك هذ العصبة ويرأسه أحد رؤساء تلك الدول على أن يتم انتخابه برضاء تلك الدول .

٥ - ان يكون بمجلس العصبة العربية مسؤول عن الأمور التالية : الدفاع ، الشؤون الخارجية ، العملة ، المواصلات ، الكمارك ، حماية حقوق الأقليات ، التعليم .

٦ - يمنح اليهود في فلسطين ادارة شبه ذاتية في المنطقة التي يكونون أكثرية فيها مع منحهم حق ادارة مناطقهم في الريف والمدن بما في ذلك المدارس والمؤسسات الصحية على أن تكون جميع تلك المؤسسات تابعة لإشراف الدولة السورية .

٧ – أن تكون القدس مدينة يسمح الدخول اليها لأبناء جميع الأديان بقصد الزيارة أو التعبد، وتتألف لجنة خاصة من ممثلي الأديان الثلاثة لضمان ذلك.

٨ – أن يمنح الموارنة في لبنان ـ اذا شاءوا ـ ادارة ممتازة على نحو ما كانوا يتمتعون به في خلال السنوات الأخيرة في عهد الامبراطورية العثمانية على ان تستند الى ضمان دولي أسوة بالادارات السابقة وفقاً لأحكام الفقرتين ٦ و٧.)

وعن عرب فلسطين واليهود كتب نوري السعيد يقول:

(«إننا نجد عرب فلسطين يتخوفون من أن يصبحوا أقلية في دولة يهودية ولذلك نراهم معارضين أشد المعارضة في منح اليهود حقوقاً خاصة ولكن لا بد أن يخف هذا العداء اذا أصبحت فلسطين جزءاً من دولة عربية قوية كبيرة، وبذلك أيضاً يزداد اطمئنان اليهود على سلامتهم، فضلاً عن ازدياد الفرص الاقتصادية السانحة لهم عندما يصبحون طائفة متمتعة بإدارة شبه ذاتية في دولة أكبر بكثير مما كانوا يأملون.)

رغم من أن نوري السعيد كان من الرعيل القومي العربي الأول، إلا أنه فقد ثقة التيار القومي الجديد بسبب دوره في حركات عام ١٩٤١، واصطدم بالتالي مع رواد المشروع القومي العربي الثوري الجديد المتحالف مع دول المحور إبان الحرب العالمية الثانية وفيما بعد الاتحاد السوفييتي إبان الحرب الباردة.

إن النجاح لا يقاس إلا بالنجاح، وقد أجهض مشروع الهلال الخصيب آنذاك لصالح مشروع «ثوري» ثبت فشله بعد نصف قرن. ليس في هذا إدانة أو تزكية لأحد، خاصة وأن كاتب السطور هو أحد المساهمين في هذه التجربة والمطلوب تجاوز التجربة.

– إن فشل المشروع القومي العربي «الثوري» في تحقيق أهدافه، أضاف أعباء ثقيلة على الشعوب العربية ومقارنة بسيطة بين ما كان مطروحاً وما هو معروض اليوم يوضح ذلك العبء. ليس في هذا عودة للماضي بل دعوة للانفتاح والاستفادة من فرص متاحة اليوم قد تكون متواضعة ولكنها حتماً خطوة للأمام.

اذا كانت تطورات ما بعد الحرب العالمية الثانية قد حالت دون تحقيق مشروع الهلال الخصيب، فيا ترى هل الفرصة متاحة اليوم لنظام اقليمي جديد يؤسس على أطروحة الهلال الخصيب ويستند الى مصالح اقتصادية وأمنية مشتركة؟

إن نهاية القطبية العالمية المزدوجة التي غذت التناقضات الاقليمية ، وبداية الصحوة العربية من الحلم «الثوري» وغياب الخوف من هيمنة قطر عربي على آخر ، وحاجة اسرائيل الى السلام الشامل ، والحاجة الملحة للتنمية الاقتصادية والاقليمية المشتركة ، كلها عوامل توفر فرصة قد تكون نادرة لبناء النظام الاقليمي الجديد») .

من مجلة «الملف العراقي ـ غسان العطية ـ عدد 49-1996» .

* * *

نماذج طريفة عن اختلاط سكان الهلال الخصيب

إن العلاقات الحضارية والسكانية بين العراق ومناطق الشام قديمة . صحيح أن بلاد الرافدين ظلت عادة تستقبل الهجرات الشامية ، إلا أن أهل العراق ، بصورة أقل بكثير ، ظلوا يهاجرون الى سواحل الشام لأسباب تجارية وكذلك كملجأ من الاضطهاد . هنا مقاطع عن الأسر اللبنانية التي تعتقد بأصولها العراقية . تكمن طرافة الموضوع في بعض التفاصيل التي تستحق بعض التوقف من حيث اعتقاد بعض العوائل المارونية الكبرى والمهمة بأصلها العراقي .

«جد الأسر التنورية ـ «تنورين منطقة مارونية شمال بيروت»

الجد الأول للأسر التنورية (حرب ـ يونس ـ طربيه ـ داغر ـ يعقوب) يدعى خطار وهو أتى من بلاد ما بين النهرين ، هجر بغداد سنة 1421 االى مدينة حلب في شمال سوريا حيث سكن هناك قرقماز الأول كان أحد أحفاده نقل الى دمشق وكان يشغل منصب كاتخداه أي أمين سر نائب الشام اتهم بحماية الثائرين على الضرائب وفداحتها فهرب الى لبنان عام 1471 حيث استقر في يانوح حيث اعتنق النصرانية مع أولاده (مخطوطة الأب بولس مطر) «جد أهالي «تنورين» الأول بغدادي اسمه خطار هجر بغداد عام 1421 الى حلب . نقل من أحفاده واحد اسمه قرقماز صار كاتخداه عند الحاكم . ثم عند مطالبة الشعب برفع البلص ساعده قرقماز الأول وهرب الى يانوح وصار نصراني مع أولاده» . وجاء في المخطوط المعادي المؤرخ عام 1599 «إن جد أهالي تنورين هو بغدادي نقل الى حلب ورحل أحفاده الى الشام ثم الى لبنان» إذن فعيال تنورين مرجعهم الى أصل واحد ، بسبب عدم توفر أسباب المعيشة والرزق لأولاد وأحفاد قرقماز الأول في يانوح نقل أحدهم المدعو قرقماز الثاني الى العاقورة حيث بنى كنيسة مار سابا . من أحفاد قرقماز الثاني موسى الذي نزح الى الهرمل عام 1491

وتوطن في بلدة مرجحين وتوفي فيها عن ولد اسمه جرجس ابي قرقماز . هذا الأخير دخل في منازعات دموية مع المتاولة هناك الذين حاولوا خطف إحدى بناته فاضطر الى الرحيل الى قرية تنورين التحتا وذلك عام 1520 . هناك أقطعه الحاكم المتوالي أرضاً بين النهرين» .

من كتاب «موارنة لبنان ـ محمد دكروب ـ ص 52-53» .

الأكثر طرافة أن الصدفة التاريخية جعلت أن يكون الثلاثي الحاكم في لبنان ، حسبما يعتقدون ، بأن أصولهم تعود الى العراق : الرئيس الماروني (الياس هراوي) ورئيس الوزراء السني (رفيق الحريري) ورئيس مجلس النواب الشيعي (نبيه بري) .

«لعل العائلات المشهورة حظيت من معلومات الكتاب بحصة وافرة لسهولة الحصول على تاريخ مفصل لها من مصادر متنوعة أوردها بمعظمها رغم تضارب هذه المعلومات . ومن المفارقات كما أورد أبو سعد أسماء لافتة لبعض العائلات ، وذلك أن بين الأسر المسلمة من يتسمى بأسماء من أصل صليبي ، كآل برنار وداكيز ودبليز وشمبور . ويرى بعض المؤرخين أن هذه التسميات تعود الى اعلان بعض الصليبيين ـ الذين جاؤوا الى لبنان خلال الحملات ـ إسلامهم ، وانخرطوا مع تعاقب القرون في البيئة الاسلامية اللبنانية .

وللأسماء والألقاب الطريفة أسبابها وتعليلاتها في المعجم ، ومنها على سبيل المثال تسميات عائلات الرز والكوسا والبرغل والابريق والباعوط ، واسم الأسرة الأخيرة هو سرياني لعيد كان يقع نهار الاثنين الذي يلي الفصح ، ويعني التضرع والابتهال . كما ان اسم «فتوش» هو عربي عامي محرف عن «الفتوت» وهي أكلة قوامها في الأصل خبز يابس يفت ويعالج بالتوابل والزيت والخضار والسماق والبصل والفجل ، ولا يعرف الكاتب شيئاً عن أصولها ، إلا أن أشهر من برز منها النائب وزير السياحة الحالي نقولا فتوش .

ولترويكا السلطة في لبنان جذور تاريخية متقاربة ، كما يبين المعجم ، فقد أورد الكاتب استناداً الى معلومات تاريخية موثقة أن رئيس الجمهورية اللبنانية الياس الهراوي هو سليل أسرة سكنت زحلة في البقاع وبسكنتا ، ومنسوب أصلها في قرية الهري في شمال لبنان . أما جذورها فهي تعود الى اسم أسرة في العراق هي فخذ من آل زياد . ورئيس مجلس النواب اللبناني نبيه بري (الرقم 2 في الترويكا) اسم اسرته مشترك بين المسلمين الشيعة في جنوب لبنان ، والمسيحيين في غوسطا وصربا . وهو اسم علم يشبه النسبة ، كان لجماعة من عرب البقاع . كما كان اسماً لفخذ من البزون في العراق ، وبه عرفت قبيلة كانت تقيم في بادية

الشام وباب النيرب في حلب . ولعائلة رئيس مجلس الوزراء اللبناني رفيق الحريري (الرقم 3 في الترويكا) فروع اسلامية شيعية وأخرى سنية . وأصل الأسم عربي يطلق على من يعمل أو يتاجر بالحرير . والأرجح ان مصدرها يعود الى قرية حرير القريبة من البصرة ، ويقال ان جد هذه الأسرة هو الشيخ علي بن أبي حسن الحريري الذي هاجر من حرير الى الشام وتزوج هناك ونمت له ذرية توزعت على حماه وحوران وحلب . وآل الحريري الذين ينتسب اليهم الرئيس الحريري أصولهم حلبية» .

من مقال عن (معجم أسماء الأسر في لبنان) ـ سناء الجاك «جريدة الشرق الأوسط 25-2-1997» .

* * *

نبذة تاريخية عن تنوع الطوائف المسيحية في المنطقة

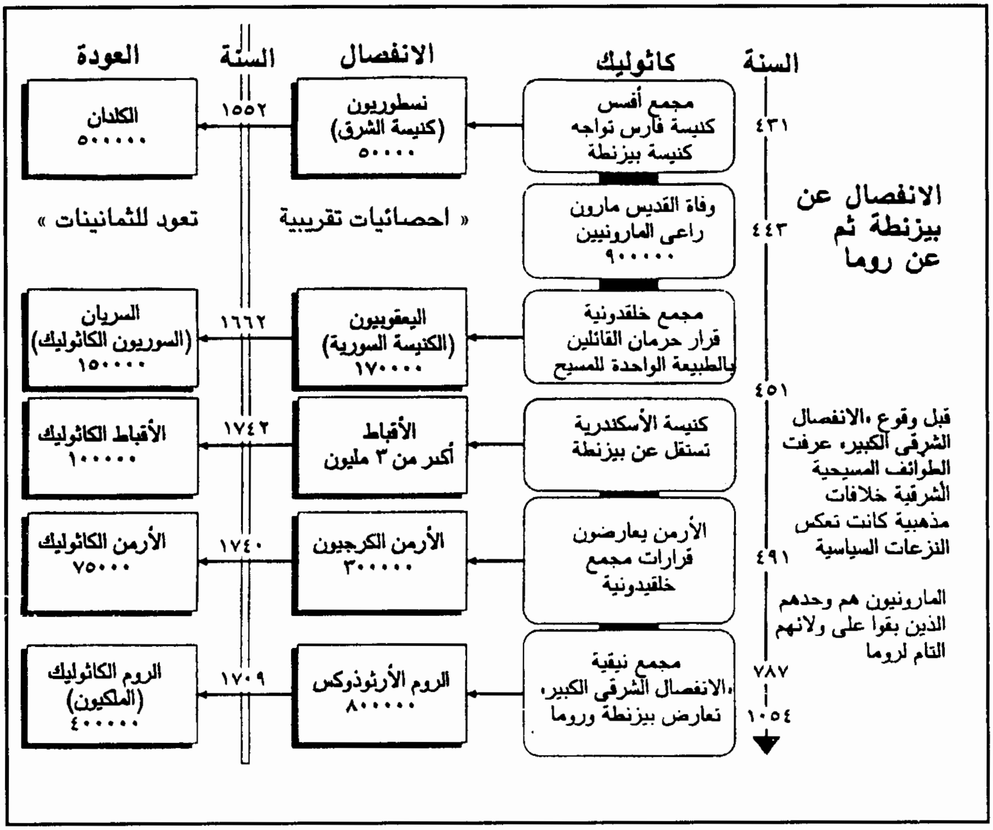

● الشرق العربي مهد الإسلام وأرضه ، ومع ذلك ففيه ما لا يقل عن ثلاث عشرة طائفة مسيحية ، تضم حوالي سبعة ملايين مسيحي . وإذا كان المسيحيون المحليون قد اختفوا من شمال افريقيا ، منذ القرن السابع عشر ، فإن بأودية النيل ، والأردن ، والفرات مسيحيين من أهل تلك البلاد ، وكذلك في جبال لبنان . ومن هذه الطوائف ، أربع كنائس كانت قد صاغت عقيدتها وطقوسها المسيحية ، قبل ميلاد النبي محمد بعدة قرون ، واحتفظت بها حتى اليوم .

الانفصال عن كنيسة روما

كانت الامبراطورية البيزنطية - التي يمتد تاريخها من ٣٩٥ الى ١٤٥٣ - مسرحاً لخلافات داخلية نشأت عنها مختلف الكنائس ، التي عارضت القسطنطينية أولاً ثم روما ثانياً ، وكان الأساس الظاهر لهذه الخلافات هو نظريات لاهوتية ، «مناقشات بيزنطية» مثل المناظرة حول أحدية أو ثنائية طبيعة المسيح ، ولكن كانت وراءها خلافات دنيوية أكثر مما هي دينية .

وكان مسيحيو بلاد ما بين النهرين (العراق الآن) ، هم أول من ثار على سلطة الباب ، وكانوا في الواقع يحاولون استرضاء سادتهم الجدد الفرس ، الذين انتزعوا لتوهم تلك البلاد من بيزنطة . واختار العراقيون مذهب البطرك نسطور ، القائل بأن للمسيح طبيعتين فأثبتوا بهذا خروجهم على القسطنطينية ، وهكذا تكونت الكنيسة النسطورية المستقلة . وسرعان ما تفشى هذا المبدأ حتى داخل بيزنطة ذاتها على تخوم الولايات الرومية ، وقام المصريون والسوريون والأرمن بالمناداة بمذهب الطبيعة الواحدة ، الذي ينكر أي طبيعة بشرية للمسيح ، وراحوا يصارعون العقيدة البابوية . وقرر مجمع خلقيدونيا (٤٥١ م) حرمان القائلين بالطبيعة الواحدة واتهمهم بالهرطقة ، وأدت هذه القطيعة الى ظهور الكنائس القومية : القبطية ، والسورية ، والأرمنية . وبعد ذلك بثلاث قرون ، قاومت بيزنطة نشأة الدولة الفرنجية التي أرادت إرجاع روما عاصمة للامبراطورية اللاتينية . وأصبح الروح القدس - وليس المسيح - هو القضية التي تركزت حولها الخلافات وأدت المجادلات الناتجة عن ذلك الى «الشقاق الأكبر» بين الكنيستين ، الشرقية (الأرثوذكسية) ، والغربية (الكاثوليكية) .

من كتاب «أطلس معلومات العالم العربي - رفيق وفارح - ص 31» .

الإمارات الصليبية في بلاد الشام

من كتاب «الأطلس العربي ـ ص112 » .

انتفاقية سايكس ـ بيكو

لاقتسام المشرق وليس الوطن العربي!

يبدو أن «غرور» أهل المشرق جعلهم يتصورون أنفسهم «كل العرب» . فمن السهل لديهم الحديث عن «الوطن العربي» و«الأمة العربية» وو . . . ولكن الموضوع بالحقيقة يخص منطقتهم . مثلاً ، اتفاقية (سايكس ـ بيكو) كانت لاقتسام العراق والشام وليس «الوطن العربي» كما نسمع دائما . والدولة «العربية» التي حاولوا تحقيقها بعد التحرر من العثمانيين كانت بالحقيقة «دولة مشرقية» ولكن تحت سلطة «ملك عربي» بسبب الأصل القرشي الشريف .

ثم إن هذه الخارطة تبين أيضاً أن شمال الرافدين (الكردي ـ التركي) حالياً (مدن ماردين وديار بكر والرها «اورفا») كانت جزءاً من سوريا ، وقد منحتها فرنسا الى تركيا عام (1920-1923) بموجب اتفاقيات (سيفر ولوزان) .

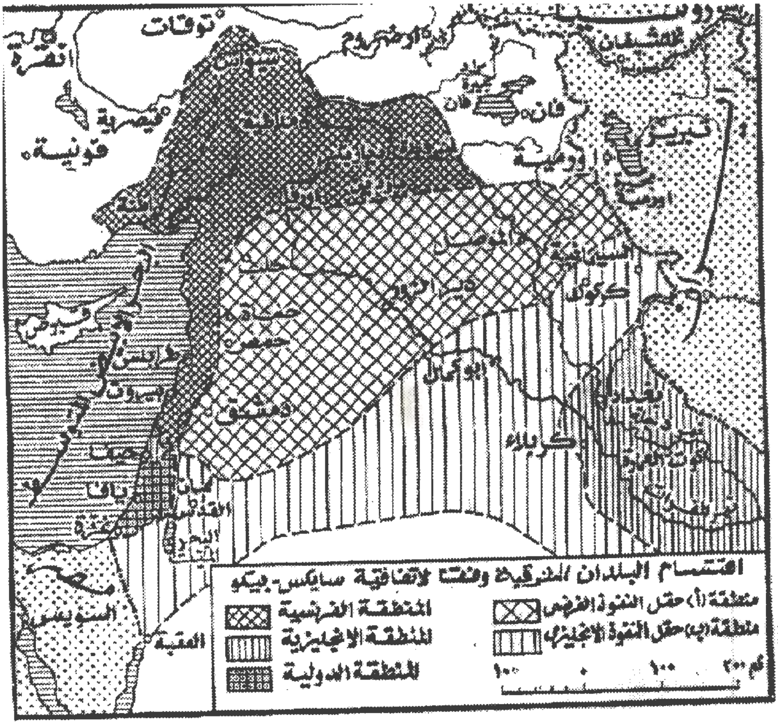

من كتاب «تاريخ الأقطار العربية الحديث لوتسكي » .

العروبة العرقية البدوية الرومانتيكية !

المفكر والناقد جورج طرابيشي يورد لنا مقاطعاً من طروحات (زكي الأرسوزي) أحد مفكري ومؤسسي التيار القومي «البعثي» . ونكتشف من خلال ذلك مدى تطرف وسذاجة الطروحات القومية العرقية التي غرقت في «الرومانسية السياسية» وقرأت التاريخ من وجهة نظر قومية ، بل حتى قبائلية بدوية ، الى حد احتقار جميع فترات وجوانب التاريخ الحضري لشعوب المنطقة :

«وفي نص آخر يحدد فيلسوف «الأصالة الرحمانية» هوية أولئك الدخلاء» و«الأغيار» و«الهجناء» بمزيد من الوضوح فيقول :

«ما إن نفد الدم العربي في الفتوحات وفي الاختلاف على مشروعية الحكم حتى تجرأ هجين ، وهو المأمون ، على انتهاك حرمة بلاد العرب واحتلال عاصمة بلادهم بغداد بجيش من خؤولته من صعاليك إيران . وقام هجين آخر ، وهو المعتصم ، بنقل العاصمة من بغداد الى سامراء ، لكيما يحرر بني خؤولته ، أوغاد تركستان ، من رعاية العرب . وعندئذ أخذ العرب يتقلصون عن المدن آوين الى الأرياف . وعندئذ أخذ الدخلاء والهجناء والرعاع يطغون على سطح الحياة . وما إن طغى الأغيار على البيئة العربية حتى زاغت قيم الحياة الأصيلة عن محورها بحيث بدا الميل سوياً» .

ومن الممكن تحديد دراما الانحطاط أو «الانحراف» عند الأرسوزي بأنها النقلة ، المزامنة لتحول العرب من الجاهلية الى الاسلام ، من «العروبة» الى «العجمة» ، لا بالمعنى العرقي للكلمة ، فحسب ، بل بالمعنى اللغوي أيضاً وأساساً . فخروج العربي الى العالم حاملاً رسالة الاسلام لتبرئة «الشعوب من آثامها» قد اضطر هذا العربي إياه الى مخالطة هذه الشعوب ، فاتحاً أمامها باب «الاستعراب» وزاجاً نفسه في وهدة «الاستعجام» . ومن هنا كانت الخسارة مضاعفة . فـ «استعجام» العربي قد أخرجه عن محور شخصيته ، أي عن حقيقته كما كانت تتجلى في العصر البطولي الجاهلي ، مما استتبع «انحلالاً» في لسانه ، هذا اللسان الذي «به يتلخص بنيان الأمة» ومنه يستمد أبناؤها «مصدر كينونتهم» ، والذي بانقطاعه عن «أرومته» ، بل عن «رحمه» الأولى ، انقطع عن «نسغه» المغذي ، فأمسى «كالورقة التي قطعت عن غصنها فجفت وتناثرت في مهب الرياح» . وفي الجبهة المقابلة جاء «استعراب»

الأعجمي «الدخيل» ليوصل مأساة العربي «الأصيل» الى ذروتها . فـ «المستعربون» ، الذين تطفلوا «كالبرغش» على دين العربي ولسانه معاً ، أتقنوا العربية من «خارج حدسها» ، بدون أن يكون في مكنتهم ، بحكم قدرهم البيولوجي أن جاز التعبير ، أن يتصلوا بها «اتصالاً رحمانياً» ، وبدون أن تكون لهم «بمثابة الأنسجة من الكائن الحي» و«الأم من مهجة كبدها» . وعلى هذا النحو بقي مثل هؤلاء «المستعربين» من اللسان الذي استعاروه مثل «الأمة المشتقة» من الأمة الأصيلة» فبدلاً من أن يكون كيانهم ولسانهم شيئاً واحداً ، وبدلاً من أن توحي كلماتهم بحقيقتهم ، بقيت الكلمة عندهم «دلالية واصطلاحية يلتصق بها المعنى عرضاً مثلما تلجأ الروح المتشردة الى الجثة فتستوحش منها» .

إنه لا يرى للعرب من مخرج من مأزق «الانحطاط» و«الانحلال» و«الانحراف» إلا بالعودة عن كل التراث الذي خلفه هؤلاء «الدخلاء» ، وبالتطهر من كل السموم التي أفرزوها والتي أمست بمثابة «ظلف» أو «قرمة» ميتة تمنع تدفق النسغ الحي في الجسم العربي . وحتى يستعيد هذا الجسم قابليته للحياة ، وقدرته على الإبداع ، فلا بد له من تحقيق عودة مثلثة الأبعاد الى الوراء كطريق وحيد الى النهوض ، أو «البعث» كما يؤثر فيلسوف «الرحمانية» أن يقول :

الارتداد زمنياً الى الجاهلية باعتبارها عصر العرب البطولي الذهبي :

- «أي عهد من تاريخنا انبلج في المثل الأعلى عن طبيعة أمتنا كقرارة لها وأمنية كما انبلج في الجاهلية؟ ونحن بالعودة الى جاهليتنا نلتقي مع أصول الثقافة الحديثة ، الأصول التي تقوم على الاعتقاد بأن النفس تنطوي على مقوماتها ، على عقل يؤهلها لمعرفة الحقيقة ووجدان ينير لها سبيل المعرفة . وفضلاً عن ذلك ، إننا لنتحاشى بهذه العودة ما أورثناالتاريخ من حزازات بين المذاهب والأديان» .

الارتداد عن الحضارة المكتسبة الكاذبة الى البداوة الفطرية الأصيلة . فـ «البدوي حارس العروبة» كما يقول العنوان البليغ الدلالة لمقال كتبه داعية البعث الرحماني عام ١٩٦٥ يعارض فيه «تحضير البدو» :

- «إن ابن البادية لا يمثل الأصالة فحسب ، بل إنه العنصر الذي تقوم عليه ملاءمة الأمة العربية للمراحل التاريخية التالية . . إن كل نهضة عربية أصيلة قامت على ساعد أهل البادية . . أعتقد أن الخطأ كل الخطأ في الرأي القائل بتحضير البدو ، ففي تحضير البدو إخضاع الأمة العربية للأراجيف التاريخية» .

من كتاب «مذبحة التراث ـ جورج طرابيشي ـ ص 21-23 » .

طبعاً إن آثار وتطبيقات هذا الفهم القومي العنصري المحتقر للآخر وللذات الوطنية التاريخية كان ولا زال السبب الأول في جميع كوارث المنطقة وتمزق شعوبها وانعزال أنظمتها . هنا نموذج بسيط للتطبيقات السياسية لهذا الفهم العرقي :

« تهجير وتعريب !

أخطرت سلطات صدام ٧٠٠ عائلة من أهالي خانقين بضرورة تغيير قوميتها من كردية الى عربية ، وخاصة عشيرة الكاكائي التي أصبح اسمها البياتي أو الطائي . وكانت هذه السلطات قد رحلت ٧٠٠ عائلة ممن لها أبناء في كردستان أو خارج العراق .

المشرف على عمليات التهجير والتعريب في جولتها الراهنة هو روكان التكريتي .

(**جريدة المؤتمر العراقية** 7-3-1997 ـ **لندن**» .

* * *

وحدة « المشرق » في فكر أنطوان سعادة والحزب القومي السوري

إن المفكر (أنطون سعادة) زعيم الحزب القومي السوري ، يُعتبر من الرواد الأوائل الذين أكدوا على أن الأرض والبيئة والجغرافية هي التي تصنع «الأمة» وليس العكس كما هو شائع لدى القوميين العرب الذين تبنوا الفكرة القومية الألمانية التي تؤكد على أن «العرق واللغة» هي التي تصنع الوطن والأمة . بالنسبة لأنطون سعادة إن الوطن السوري يعني «الهلال الخصيب» اي سوريا والعراق ولبنان والاردن وفلسطين بالاضافة الى الكويت التي اعتبرها جزءاً من العراق . وأكد في جميع كتاباته أن الأرض السورية صهرت العديد من الشعوب والأقوام والجماعات في الحضارة السورية الممتدة منذ آلاف السنين .

رغم إعجابنا بشخصية (أنطون سعادة) واتفاقنا مع فكرته عن الانتماء للأرض ، وليس للعرق ، وعن التقارب الخاص بين بلدان «المشرق» وغيرها من الأمور ، إلا أننا نختلف أيضاً في أمور أساسية مثل :

1 – إطلاقه تسمية سوريا ، على منطقة المشرق (الهلال الخصيب) ، وهذا اختيار غير عملي ، لأن هناك دولة واقعية اسمها (سوريا) ، ومن الصعب على أبناء بلدان المشرق تبرير ادعائهم حمل اسم سوريا . وقد أثبتت التجربة أن هذا كان اختياراً غير واقعي . ونعتقد أن تسمية (المشرق) الأكثر واقعية ومقبولية .

2 – أن الحزب القومي السوري . لم يختلف عن باقي الأحزاب القومية في الاعتقاد بأن (الحدود مصطنعة) وتكوين (تنظيم قومي حزبي شامل) من اجل قيادة النشاطات ضد (الحدود المصطنعة) وغيرها من الأمور . اننا نعتقد انه من الضروري التخلي عن فكرة (الحدود المصطنعة) ويتوجب الاعتراف بخصوصية كل بلد مشرقي وعربي مع الدعوة الى التقارب والتوحد على الطريقة الأوروبية . والتخلي كذلك عن فكرة «التنظيم القومي الموحد» . وبدل ذلك خلق تيار فكري سياسي تنتمي اليه مختلف الأحزاب المتشابهة على طريقة الأحزاب الشيوعية والأحزاب الاسلامية والأحزاب الليبرالية . كل مجموعة من هذه الأحزاب تجتمع وتنسق مع بعضها كتيار واحد ، ولكن من دون تكوين قيادة موحدة وفروع «قطرية» تابعة!

3 – لقد فشل الحزب القومي السوري بتحديد موقف واضح من الطروحات القومية العروبية التي سيطرت على الساحة ، إذ تأرجح موقفه بين العنصرية ضد العرب أو التطبيل والتزمير للعروبة والوحدة العروبية . ولم يتمكن الحزب من اتخاذ موقف عقلاني يؤكد على ضرورة التقارب والتوحد اولاً بين بلدان المشرق العربي ثم التقارب والتوحد بين الأقاليم (العربية) المختلفة : المغرب ، والنيل ، والجزيرة العربية .

4 – ان انطوان سعادة والحزب القومي السوري لهم الريادة بطرح فكرة الجمع بين المادية والروحية تحت اسم (المدرحية) . لكنهم للأسف فشلوا بتطوير هذه الفكرة الأصيلة وضاعوا بالطروحات المقتبسة نصاً من الفلاسفة الغربيين ، وترهلت هذه الفكرة مع الزمن حتى تم تناسيها تماماً ونحن نعتقد أن هذه الفكرة هي مستقبل الفكر الانساني ويمكن تطويرها وتعميقها (راجع الفصل الأول من هذا الكتاب) .

هذه مقاطع عن مفهوم القومية حسب المفكر (أنطوان سعادة) من (نشوء الأمم) الذي يُعتبر من أفضل كتبه والذي يستحق إعادة القراءة ، وقد أصدره عام 1938 :

«إن الأمة من الوجهة السلالية أو من وجهة الأصل ، هي مركب أو مزيج معين كالمركبات الكيماوية التي يتميز كل مركب منها بعناصره وبنسبة بعضها الى البعض الآخر .

وهذه الأمة السورية فأي أصل واحد لها ؟ أهو الأصل الكنعاني (الفنيقي) والكنعانيون جاؤوا طبقة فوق طبقة أهل العصر الحجري ، أم الأموري أم الحثي أم الآرامي (الكلداني)؟ أو ليست سورية مزيجاً أو مركباً معيناً من هذه الشعوب مضافاً اليها العرب بعد الاسلام

وغيرهم . واذا أخذنا الوجهة الانتربلوجية من الأصل السوري وجدنا أنه كذلك مزيج من مفلطحي الرؤوس ومعتدليها ومستطيليها كما أثبتت ذلك الأبحاث الانثربلوجية . وكما سنسهب ذلك في الكتاب الثاني . قد رأينا أن فرنسا لا تختلف عن سورية وايطاليا بهذا الصدد . واذا وجهنا نظرنا الى انكلترا والجزر البريطانية عموماً فاننا نجد الحالة نفسها من المزيج ففي انكلترا وحدها شعبا «الانكليز والسكسون» ثم ما جاءهم من رومان ونرمان ، وهؤلاء الأخيرون كان لهم التأثير في تغيير لغة الانكليز حتى أصبحت لاتينية أكثر منها جرمانية ، حتى أنشد تنسون «من نرمان وسكسون ودنمركيين نحن» .

وماذا نقول في ألمانيا . أليست هي خليط من نحو ثلاث سلالات انتربلوجية وتختلف أشكالها السلالية في الشمال والجنوب والوسط . مع كل ما يحكى هنالك عن نقاوة الدم الآري؟ وهذه أميركا أمامنا فأية وحدة سلالية ، تاريخية ، أو أنتربلوجية لها ؟ أليست الولايات المتحدة خليطاً من انكليز وألمان وإرلنديين وطليان وسوريين وفرنسيين وأسوجيين . . . الخ . والبرازيل أيضاً هي خليط من برتغاليين وسوريين وألمان وطليان وزنوج وهنود أصليين واسبان . وعلى هذا قس أية أمة أميركية أخرى . أكرر أن الأصل الانساني الوحيد للأمة هو وحدة الحياة على تعاقب الأجيال وهي الوحدة التي تتم دورتها ضمن القطر . المزيج المتجانس أصل كاف للأمة وهذا المزيج هو ما يعبر عنه أحياناً بلفظة السلالة .

لا أمة على الإطلاق بدون قطر معين محدود . أما ما ذهب اليه اسرائيل زنويل Israel Zangwill من أن الشعب اليهودي تمكن من الاحتفاظ بنفسه بدون بلاد فمن الأغلاط الاجتماعية الفاضحة ، فاليهود قد احتفظوا بيهوديتهم الجامدة من حيث هم مذهب ديني . وقد أكسبهم دينهم الشخصي عصبية لا تلتبس بالعصبية القومية إلا على البسطاء والمتغرضين . اليهود ليسوا أمة أكثر مما هم سلالة (وهم ليسوا سلالة مطلقاً) ، إنهم كنيس وثقافة . لا يمكننا ان نسمي اليهود أمة أكثر مما يمكننا أن نسمي المسلمين أمة والمسيحيين أمة أو السنيين أمة أو الشيعة أمة والأرثوذكس والكاثوليك أمة الخ . ولجميع هذه المذاهب عصبياتها وتقاليدها التي تتميز بها . الأمة تجد أساسها ، قبل كل شيء آخر ، في وحدة أرضية معينة تتفاعل معها جماعة من الناس وتشتبك وتتحد ضمنها .

لعل سورية أفضل مثال للبيئة التي تصهر الجماعات المختلفة النازلة بها وتحولها لى مزاج واحد وشخصية واحدة . فنحن نعلم أن سورية كانت مأهولة في العصر الحجري المتوسط ، كما دلت البقايا المكتشفة في فلسطين ، وانها على الأرجح مصدر الثقافة المغالثية . ونعلم أيضاً أن جماعات شمالية كالحثيين وغيرهم قطعت رؤوس طورس وهبطت سورية لتلتقي فيها

بالجماعات الجنوبية الخارجة من الصحراء ، فتمتزج هذه الجماعات كلها وما أضيف اليها مما جاء من الغرب كالفلسطينيين بعضها بالبعض الآخر وببقايا جماعات العصر الحجري وتكون مزيجاً خاصاً . ومع أننا نتمكن ، بالأدلة الرأسية والدموية من تقصي مختلف السلالات الموجودة حالياً في سورية فإننا نرى لها كلها طابع البيئة الخاص الذي يكسبها تشابهاً قوياً وتجانساً شديداً .

أما حيث تكون النفسيات الداخلة في لغة جديدة قوية فإنها تفعل في اللغة وتكسبها من نفسياتها وتوجيهها في التعبير عن احتياجاتها ومثلها العليا شأن السوريين في اللغة العربية فانهم أخذوها عن الفاتحين العرب ولكنهم نقلوا الى هذه اللغة علومهم وأدبهم ومجاري فكرهم فأصبحت اللغة العربية لغتهم القومية تسيطر نفسيتهم ومواهبهم فيها في بيئتهم وتجاوزها . وان من الأسئلة التي تنبه الفكر الى هذه الحقيقة : ماذا كانت تكون الثقافة العربية لولا ما نقله السوريون من السريانية واليونانية الى اللغة العربية؟» .

من كتاب «نشوء الأمم ـ أنطوان سعادة ـ ص 154-160» .

* * *

الخوف الاسرائيلي من ادعاء الفلسطينيين بديمومة تاريخهم وأصالتهم في أرض فلسطين

نورد هنا نص مقالة نشرها كاتب اسرائيلي معروف . من خلال هذه المقالة نكتشف مدى الأهمية التي يمنحها الاسرائيليون لفكرة إيمان الفلسطينيين بديمومة جذورهم الوطنية في أرض فلسطين منذ الكنعانيين «على الأقل» . والغريب أننا نكتشف من خلال هذه المقالة ، أن دعوة الفلسطنين بجذورهم الكنعانية قديمة وتعود الى العشرينات ، ولكن يبدو أن الاجتياح القومي الاسلامي خنق هذا الادعاء الفلسطيني باسم الأصل العربي الاسلامي!

« اطلاع الجمهور الاسرائيلي على الادعاء العربي ـ الفلسطيني بأن عرب هذ البلاد هم ورثة وأحفاد الكنعانيين حدث في هذه الأيام إلا أن الادعاء نفسه قديم جداً فمنذ العشرينات كانت القيادة العربية الفلسطينية قد ذكرت هذه المسألة من خلال أطروحاتها الموجهة للبريطانيين ، كما انها ذكرت في سلسلة مقالات صحافية في حينه . والغرض من هذا الادعاء هو البرهنة على أن عرب البلاد قد سبقوا أبناء اسرائيل الذي غزوا البلاد من الخارج . وهذا الادعاء يتضمن اشكاليات كثيرة فان كان الفلسطينيون هم أحفاد الكنعانين فما هي

علاقتهم وارتباطهم بالشعوب العربية الأخرى من أحفاد المحتلين الذين انطلقوا لاحتلال الشرق الأوسط وشمال افريقيا تحت لواء الاسلام قبل عدة قرون ؟ من اجل التغلب على هذه المشكلة ادعو أن شعوب كنعان القديمة مثلهم مثل العمالقة ، والعموريون كانوا عرباً . لماذا؟ لأنهم تحدثوا بلغات سامية وما هو المغزى من ذلك أن العربية الأدبية - كما يدعون بروحية النظريات المتقادمة من القرن التاسع عشر - هي أم اللغات السامية ، عليه فان كل الناطقين باللغات السامية يتحدثون لغات في أساسها عربية . من الصعب ايجاد تواصل في الواقع التاريخي الذي سبق الاسلام والذي تشكل الوثنية محتواه الديني . وهذا الأمر يعتبر مساساً خطيراً في نظرة الاسلام للتاريخ اذ ينظر الى الوثنية التي سبقته على أنها «جهل» لا يتوجب التعامل معه بإيجاب .

المفكرون الاسلاميون بدورهم عارضوا بشدة كل محاولة لخلق تواصل انساني وطني بين العرب الحديثين وبين الشعوب الوثنيةا لقديمة وقد نجحوا بالفعل في القضاء على التوجهات من هذا القبل من جذورها . عليه فقد خشي الفلسطينيون وارتدعوا من استخدام الادعاء بكنعانيتهم بشكل كبير واكتفوا بالادعاء الأكثر جدية بحقهم في البلاد لكونهم يشكلون أغلبية فيها .

درويش مقدادي معلم وكاتب فلسطيني انتقل للعراق وجلب معه هذه النظرية اذ كانت قد جرت هناك محاولات مختلفة لبلورة وتوطيد هوية وطنية عراقية تقوم على التواصل مع البابليين العرب وصولاً الى العراقيين المعاصرين .

كثيرون من العرب المسيحيين لم يرتدعوا بالمرة عن الادعاء بكنعانيتهم . في لبنان ومصر ظهرت توجهات ونظريات فينيقية وفرعونية بالنسبة للهويات الوطنية اللبنانية والمصرية التي لا يوجد لها علاقة مع القومية العربية إلا أن طابعها المناهض للعرب والإسلام جعل الأغلبية الساحقة من الجماهير ترفضها . وفي أوساط الفلسطينيين واصل مسيحيون مختلفون ترديد الادعاء بكنعانيتهم وبالتدريج انتشر ذلك واستوعب ليصبح مقبولاً من كل الجمهور العربي الفلسطيني وكل طفل عربي أصبح يدرس عنه في المدرسة .

ومن خلال فعلتهم هذه يقوم الفلسطينيون بغض النظر عن مشكلة أكثر جدية بالنسبة للادعاء بكنعانيتهم . فهم لا يتطرقون لمسألة اللغة التي تحدث بها الكنعانيون والتي استخدمها الكتاب المتدينون والعلمانيون . وفي أوساط الجماهير العربية هناك اجماع على ان اللغة المشتركة تشكل أساساً لتحديد وبلورة الهوية الوطنيية . وهكذا يجعل العرب حسب

وجهة نظرهم أمة واحدة ستقوم في المستقبل دولة واحدة موحدة بفضل لغتها العربية . وبناء على ذلك نجد أننا إن قمنا بتجديد الكنعانيين حسب لغتهم ودققنا في هوية ورثتهم لا نجد شيئاً يستجيب لتوقعات الفلسطينيين بالضبط .

لغة كتابات ميشع ملك مؤاب وخرصي السامري وجبل صور في لبنان وغيرها من الوثائق والرسائل المكتشفة في البلاد هي نفس لغة التوراة وهناك من يسمونها العبرية التوراتية والبعض الآخر يسميها السامية الغربية والواضح هو أن العربية المكتوبة نابعة منها أو تشكل تواصلاً لها وإن كان للكنعانية ورثة فهي العبرية الاسرائيلية الحديثة .

الفلسطينيون يتجاهلون الكتابة التي استخدمتها نيفي الكنعانية وهي نفس الكتابة التي وردت بالعبرية وتظهر بشكل متواصل في الكتابات الكنعانية والصيداوية المختلفة وفي كتاب الأحكام كذلك ، وهي نفس الكتابة العبرية القديمة التي استبدلها المنفيون الى بابل بالكتابة الآرامية (الآشورية) .

انعدام الجدية في محاولة ابراز كنعانية الفلسطينيين الأمر الذي لا يلغي قيمتها فحتى الأمور اللامنطقية والسخيفة التي تعتقد بها الجماهير تتحول الى عامل آيديولوجي يؤثر على المواقف السياسية الملموسة وإن قام الجمهور الفلسطيني فعلاً بهضم الادعاء بأصوله الكنعانية وعلم أي لغة استخدموها وما هي اللغة الحديثة التي ورثتها فإن ذلك قد يقلص من درجة عدائهم لجيرانهم الذين ينطقون بالعبرية الورثة الفعليين للغة الكنعانية .

ولربما عرف جمهورنا ايضاً ان العبرية التي ينطق بها ليست الا «لغة كنعان» وعندما تنبأ يشعياهو النبي بانتصار أبناء اسرائيل على مصر قال : «في ذلك اليوم ستكون خمس مدن في بلاد مصر تتحدث بلغة كنعان وتدين بالولاء لجنودها» .

لغتنا هي لغة كنعان ويريد العرب الفلسطينيون الاعتقاد بأنهم أحفاد كنعانيون فهل يمكن ان يطل وينبثق من هذه المسألة حل جديد ثوري للصراع الدائر هنا منذ قرن من الزمان ، وهل يمكن ان تكون النبوءة العبرية الوطنية لكل من ع . ج . حورون وأوري الشلح (يوناتان رطوش) واهارون امير عوزي اورنان هذه النبوءة التي تنفي بنفس الدرجة اليهودية الصهيونية والعربية بالاسلامية مرتبطة بالواقع اكثر مما اعتقدنا بشأنها ؟

يهوشع فورات (معاريف) 1996/9/5»

عن جريدة القدس اللندنية ـ 6-9-1996 .

العروبة وتمزيقها للوحدة الوطنية

هنا مقاطع من مقالة لكاتب جزائري «عروبي» ، يتحدث فيها عن الحركة المطالبة بالحقوق الثقافية للأمازيغ (البربر القبايل) . تكشف هذه المقالة عن التطرف القومي المعاكس الذي تتبناه بعض النخب القبائلية بحيث يتم تبرير استعمال اللغة الفرنسية وإحلالها محل العربية . لكننا أيضاً نفهم أن سبب هذا التطرف هو نتيجة لتطرف التيار القومي المهيمن الذي لم يتمكن من خلق «هوية وطنية جزائرية» متحررة من العقدة الفرنسية ولكن دون المغالاة بهذه «العروبة المشرقية» التي تهمش التاريخ الوطني الجزائري . إن الجزائر ، مثل جميع البلدان العربية ، بحاجة الى تاريخ وطني جزائري يبتدىء منذ فجر التاريخ وحتى الآن . تاريخ وطني يشعر الجزائري بأنه جزائري أولاً ثم أنه مغاربي ، ثم أنه جزء من هذ العالم العربي الكبير :

«فمن خلال عملية استقراء بسيطة يظهر لنا جلياً ان التصعيد في المطالب الأمازيغية يزداد بشكل طردي مع ازدياد حدة الأزمة ، ولعل المقاطعة المدرسية في منطقة القبائل منذ بداية العام الدراسي التي نادت اليها الحركة الثقافية البربرية في 1994/8/30 من أجل إدخال اللغة الأمازيغية الى المناهج التعليمية أكبر دليل على المطالب التعجيزية التي تعمل الحركة الأمازيغية على تمريرها ، وإلا كيف يمكن في هذه الفترة الحرجة ان تعالج مثل هذ القضايا الهامة وخاصة اذا علمنا ان ملابساتها جد معقدة وفي حاجة الى دراسة متأنية وموضوعية ، ان الحركة الامازيغية أضحت تطالب بضرورة جعل اللغة الامازيغية لغة رسمية في مقام اللغة العربية وتجاوزت مجرد اعتبارها لغة تدريس .

ان سياسة الضغط التي انتهجتها الحركة الأمازيغية جاءت كنتيجة لضعف النظام وهشاشته وفقدانه للمصداقية فضلاً عن غياب مؤسساته الشرعية ، مما أعطى فرصة كبيرة لمثل هذه الدعاوى التغريبية أن تزيد الخناق على الجزائر .

ان الدافع الذي تستند عليه الحركة الامازيغية لأجل تبرير سياسياتها وممارساتها ، وهو كونها تعمل على استرجاع الاعتبار للغة والثقافة الامازيغية ، إلا أن الدوافع الخلفية التي تنطلي على كل من لا يعرف هذه القضية عن قرب وبشكل واع لا يستطيع ان يدرك دوافعها الحقيقية ، التي لا تخرج عن اطار محاولة تفتيت الأرضية الجامعة للمجتمع الجزائري حيث ربط التراث الامازيغي بالغرب وفي مقدمة ذلك فرنسا . إذ ليس بإمكان المصالح الغربية أن تجد لها موطىء قدم من غير ايجاد ولاءات افراد ينتهجون الفكر العلماني التغريبي الإباحي ،

وخاصة وأن الأقلية المستغلة للحق الامازيغي ـ الأقلية الفكرنكفوبربرية – تستغله لتختفي من ورائه لأجل الحفاظ على امتيازاتها ومواقعها المتجذرة في السلطة ، سواء على مستوى الادارات ومراكز الاقتصاد أو مواقع صناعة القرار فضلاً عن مسكها لزمام الاعلام والتعليم ، فهي تريد بذلك أن تنفرد لوحدها بمثل هذه الامتيازات وصد الطريق أمام الإسلاميين والوطنيين الذين تصفهم بالظلاميين ، من اجل التنصل من الهوية الاسلامية . كما ان الحركة البربرية تولي أهمية كبيرة للغة الفرنسية وتعمل جاهدة لإحلالها في الجزائر في الوقت الذي تبدي فيه عدم رغبتها أن تتعامل باللغة العربية . والمتتبع للشعارات المحمولة احتفالاً «بالربيع الأمازيغي» يلاحظ أن 99% من الشعارات مكتوبة باللغة الفرنسية وليس حتى باللغة الامازيغية التي يزعمون أنهم يناضلون من أجلها ، والشعارات التي حملت تبين العداء الحقيقي للغة العربية فضلاً عن الدين الاسلامي الحنيف مثل : أنا لست عربي ـ أنا بربري وسأظل بربري ـ لا حجاب لا جلباب ـ العربية للحمير ـ كرهنا لا نريد أن نتعلم العربية .

وان كنا ننسى فلا ننسى تصريح زعيم الأفافاس بمناسبة المظاهرة التي قادتها الفئة المتغربة في 1994/12/27 لتعبر عن رفضها للقانون الذي أراد تعميم استعمال اللغة العربية حث قال آيت احمد : «إنه قانون قمعي وظالم ، واللغة العربية ستكون سبباً في المزيد من تدهور البلاد لأنها غير علمية وان الفرنسية مكسب للجزائر لا ينبغي التفريط فيها ، بل تدرس البربرية الى جانب الفرنسية والعربية» .

ولنا أن نتعرف على ما قاله رابح سطنبولي في ندوة حول المنظومة التربوية وهذا الأخير يعتبر عضواً في تنسيقية MCB بتيزي اوزو حيث تهجم على المدرسة الجزائرية قائلاً : «إن المدرسة الجزائرية هي سبب الأزمة الحالية والارهاب الأصولي» فضلاً عما قاله خدام حول المدرسة الجزائرية حينما قال : «ان المدرسة الجزائرية تغرس في التلميذ عقدة النقص ، وهمشته وهي تتجه دائماً الى الشرق والعروبة ولذلك فهي مدرسة التبعية وثقافة الماضي وقد مرت بأطوار ثلاثة : الاشتراكية والرأسمالية ثم الأصولية الظلامية . . انها مدرسة الحقد ، والدوغماتية والشوفينيزم والاسلاموبعثية » ـ نقلاً من قسام حجاج القبائلي .

الكاتب الجزائزي ـ زهير عبد الله

جريدة القدس اللندنية ـ 25-9-1996 .

مشروع لخدمة منطقة المشرق

هذا مثال بسيط على المشاريع المشتركة التي يمكن تنفيذها في المنطقة من دون تلك الخطابات الوحدوية الرنانة والفارغة :

«هذه فكرة مشروع لفتح قنال بين البحر المتوسط (الساحل السوري) مروراً بالصحراء السورية والعراقية حتى الخليج العربي ليصب بالقرب من ميناء أم قصر .

صفات المشروع بشكل عام

1 - العرض 600-800 متر . يكوّن بحيرات مالحة في بعض المناطق المنخفضة .

2 - العمق 100-200 متر تحت مستوى سطح البحر لتحمل سفن حمولة تزيد عن 100,000 طن .

3 - موانىء تجارية وسياحية .

4 - مجمعات سياحية وسكنية .

5 - طريق محاذ وجسور حسب الحاجة .

6 - خطوط خضراء من الأشجار على جانبي القنال بعمق مئات الأمتار على كل جانب كمرحلة أولى ثم تتزايد لتكون خطوطاً خضراء حقيقية بعمق عدة كيلومترات .

أهداف المشروع

1 - اقتصادية تجارية لسورية والعراق حيث يلغي القنال في حال انجازه دور قناة السويس ويحقق للعراق منافذ مباشرة للتصدير والاستيراد البحري . كما ان مرور القنال من الغرب وحتى أقصى الجنوب سيحقق فوائد مالية وزمنية عملية ويختصر من دور أساطيل النقل البري التي تمر من تركيا أو الاردن أو أقصى جنوب العراق .

2 - سياحية : تظهر نشرات الاحصاء الدولية ان للسياحة دوراً كبيراً في تحقيق عائدات مالية للكثير من بلدان العالم وتظهر الدراسات ان دور السياحة سيتعاظم في القرن المقبل

ليضاهي أو يتجاوز دخل البترول للدول المصدرة لهذه المادة من هنا لا بد من التركيز على هذا الجانب باعتبار ان حالة المناخ في الصحراء الغربية في العراق تساعد على انشاء السياحة الشتوية ومن الممكن في حال انشاء المشروع تحويل الصحراء الى مركز عالمي سياحي شتوي مهم لجذب السواح على ان يرتبط ذلك باقامة اتفاقية بين البلدين لتسهيل مرور الأشخاص على جانبي الحدود دون عوائق .

3 - اصلاحية صحية : انشاء الخطوط الخضراء على جانبي القنال يساعد على تثبيت رمال الصحراء وزيادة كمية الأمطار ايجاد مساحات زراعية جديدة فضلاً عن زيادة الثروة السمكية في القنال أو البحيرات المتكونة منه . بمعنى آخر فتح الباب جدياً لاستصلاح الصحراء وتغيير المناخ بدرجة كبيرة في المنطقة .

4 - ايجاد مجمعات سكنية جديدة وتوفير المزيد من فرص العمل للقرن المقبل واستيعاب الزيادة السكانية.

تكاليف المشروع وامكانيات البلدين

بوسائل التكنولوجيا المتوفرة وبامكانيات البلدين وربما باستخدام طاقات الجيشين (السوري والعراقي) لا تتعدى تكاليف المشروع عدة مليارات من الدولارات وعلى مدى 5-8 سنوات اذا جرى العمل ليلاً ونهاراً .

وباختصار فالمشروع فكرة عامة وتتطلب الكثير من المناقشات السياسية والقانونية والفنية ولكن انجازه سيكون مفيداً للغاية لكل من سورية والعراق ولنبدأ من الآن .

جواد كاظم خلف / عراقي

مهندس زراعي / فرنسا» .

«جريدة القدس ـ 4-4-1997 ـ لندن»

الفصل الرابع

تجديد الهـويـة التـاريـخيـة
للشعوب «العربية»

* التصالح مع الميراث القبلاسلامي
* توحيد الميراث التاريخي
* توحيد الميراث الديني
* توحيد الميراث اللغوي
* ملاحق معلوماتية عن علاقة اللغة العربية مع اللغات السامية
* ترجمة التراث العربي الى العربية
* المانوية حلقة مفقودة من تاريخنا
* ملاحق معلوماتية عن أصول شعوب المنطقة وتاريخ التعريب

الميراث القبلاسلامي ومستوجبات التصالح معه

إن أعظم خطوات الإصلاح التي قامت بها النهضة الأوروبية للتخلص من ظلامية العصور الوسطى ، هي خطوة تصالح الفكر المسيحي الأوربي المهيمن مع الميراث قبل المسيحي (الاغريقي والروماني) ، الذي كان مندثراً خلال العصور الوسطى ، لولا دور العرب في نقله والحفاظ عليه . وصل الأمر الآن بالأوربيين ، أنه حتى المؤمن الكاهن المسيحي صار يبدو له طبيعياً الشعور بالانتماء للتراث الاغريقي والروماني والسلتي والجرماني ، وبنفس الوقت الانتماء للتراث المسيحي . بحيث أن الأوروبي ، مهما كان متديناً أو علمانياً ، تراه يقرأ ويدرس الانجيل وكتب القديسين مع كتب الإغريق والرومان وباقي التراث المحلي الأوروبي .

أما نحن ، لسوء حظنا لم نشاهد من أوربا والحداثة غير جانبها التقني التجديدي والمستقبلي . انزلقنا في وهم الفصام بين التراث والحداثة . فعلنا بالضبط عكس الأوروبيين ، فشلنا تماماً في توحيد أجزاء تاريخنا وماضينا وتراثنا ، ولم نخلق حداثتنا الخاصة والأصيلة والمستفيدة من حداثة أوربا . قمنا بتفسيخ ماضينا الى تواريخ وميراثات متعددة ومتناقضة : إسلامية وجاهلية وقومية وقطرية . انفصمنا في رؤية التاريخ والتراث حتى استحالت تياراتنا الفكرية والسياسية في داخل البلد الواحد ، أشبه بشعوب مختلفة الأصول والأوطان ، لها تواريخها وتراثها وتقاليدها . إنها تتناقض حتى بالمنطق والجغرافيا واللغة والفنون والآداب وتقاليد المأكل والمشرب والملبس وجميع تفاصيل الحياة اليومية :

* التيار القومي والتيار الديني تبنّيا التاريخ العربي الاسلامي ، مع بعض التنوعات في تقييم الأحداث والمعاني الدينية واختلاف الموقف من مسألة التحديث . ويتفق التياران على اعتبار التاريخ الوحيد الذي يستحق التقديس والانتماء ، هو التاريخ العربي الاسلامي المنبثق بعد القرن السابع الميلادي . وأن التاريخ السابق ثانوي وهش التأثير لأنه «جاهلي» بالنسبة للاسلاميين ، وقطري وغير وحدوي وغير عربي بالنسبة للقوميين .
* التيار الليبرالي والتيار اليساري اتفقا على تجاهل الماضي العربي الاسلامي ، باسم عالمية الحداثة وضد التعصب القومي والتفرقة الدينية . اعتقدا برؤية للوجود تعتمد المنطق الغربي (ماركسي أو ليبرالي) بالتأكيد على رؤية الحاضر وحده من اجل التجديد المستقبلي الاشتراكي أو الليبرالي .

* بين هذه التيارات الرئيسية ، هناك ما سمي بالتيارات القطرية ، التي رفضت التاريخ العربي الاسلامي وتبنت تاريخ ماقبلاسلامي «الوطني» : الفرعونية المصرية والآشورية العراقية والفينيقية اللبنانية والسامية القومية السورية ، وصولا الى القرطاجية والبربرية المغاربية .

في هذا السياق يمكن اعتبار الرؤية الصهيونية ، النموذج الأكثر تطرفاً في استثمار هذه الانفصامية العربية . لقد قطّعت الصهيونية تاريخ فلسطين وألغت الحقبة ما قبل اليهودية ثم الحقب التالية : المسيحية الآرامية ، والاسلامية العربية باعتبارها تواريخ عابرة وغزوات أجنبية ، وأن الحقبة اليهودية السالفة هي الديمومة الوحيدة لتاريخ فلسطين!

إن تخلخل القواسم التاريخية المشتركة بين تياراتنا العقلية المتنوعة ، أدى باستمرار الى احتدام التوتر الاجتماعي السياسي وهيمنة العنف وهوس التدمير الذاتي ، بسبب انمساخ شخصية الفرد والمجتمع وتمزق الهوية الوطنية والروحية . يبدو أن الشعوب كالأفراد ، الانفصام في رؤية الماضي والتاريخ يؤدي دوماً الى انفصام في الروح والعقل . الانسان السوي هو الانسان العارف والمعترف بتاريخه وماضيه ، والقادر على خلق الانسجام مع ذاته الموروثة بمحاسنها ومساوئها .

إن سرّ جبروت أوروبا يكمن في قوة ثقتها بذاتها التاريخية وبالتالي انسجامها العالي مع حاضرها . جميع تيارات أوروبا المتصارعة ، حداثية ومحافظة ، علمانية ودينية ، قطرية ووحدوية ، يسارية ويمينية ، قد اتفقت على رؤية شمولية مشتركة وموحدة ومنسجمة إزاء تاريخها وتراثها وتقاليدها ، مع حرية الاختلاف في تفاصيل الأحداث وتقييمها سلباً أو ايجاباً .

ديمومة الأرض وديمومة التاريخ :

يحكى أن الاسكندر المقدوني عندما احتل بلاد الرافدين ودخل بابل (٣٢٦ ق.م) ، أعجبته خصوبة الأرض وعطاء النهرين وفخامة الحضارة ، لكنه مقت سكان البلاد وميلهم الى التمرد . سأل مستشاره الحكيم عن رأيه بجلب عوائل جنوده الاغريق وتوطينهم بلاد الرافدين ليسهل حكمها . لكن الحكيم اعترض قائلاً : «لو جلبت اغريق ووطنتهم هنا ، لا محال بعد أعوام سيتطبعون على مناخ البلاد وأرضها ونهريها وثمارها وسيمتزجون بناسها وتاريخها ويكتسبون عاداتها ، ولا محال في النهاية سيتشابهون مع سكان البلاد بطباعهم

وعقليتهم ويفقدون أصلهم الاغريقي» . وهذه الحكاية لها شواهد تاريخية مماثلة تثبت صحة منطقها . فالاغريق في بلاد الشام صاروا سوريين واستقلوا عن بلاد الاغريق وكونوا السلالة السلوقية (بين ٣٠٠ ـ٣٠ ق . م) ، وفي مصر حدث نفس الشيء مع سلالة البطالسة . ومن تاريخنا العربي يمكن أن نأخذ مثال بلاد الأندلس التي استقلت عن باقي العالم العربي ـ الاسلامي وكونت حضارتها العربية ذات الخصوصية والاستقلالية الأندلسية (الاسبانية) . يمكن ايراد أمثلة كثيرة عن ديمومة الخصوصيات التاريخية لكل بلد ومنطقة جيوسياسية مهما تنوعت واختلفت الحضارات والشعوب التي تتوالى على حكمها .

وبهذا المعنى إن القبائل العربية التي خرجت من الجزيرة حاملة لواء العروبة والاسلام ، قد فقدت خصوصيتها العرقية وبنيتها القبائلية ودخلت في تاريخ وتراث ودماء شعوب الأوطان التي حلت بها .

السؤال المهم الذي يطرح نفسه في هذا السياق : لماذا هناك بلدان فتحها العرب اعتنقت الاسلام ولكنها لم تتعرب ، مثل ايران والسند وأفغانستان وأواسط آسيا التركستانية ؛ بينما هنالك شعوب اعتنقت الاسلام وتعربت وهي الشعوب العربية الحالية ، بل هناك بعض المجموعات قد قبلت التعرب دون أن تدخل الاسلام مثل الأقباط الحاليين وبعض الطوائف المسيحية وغير المسيحية في المشرق العربي (العراق وبلدان الشام)؟

لماذا ايران بقيت ايرانية بينما العراق صار عربياً؟ هل هذا يعني لأن ايران كانت وظلت مسكونة بالعنصر الايراني ، بينما العراق : إما أنه كان أرض قاحلة خالية من البشر (التاريخ يقول العكس) وقد عمرها العرب ، وإما أنها كانت مثل ايران معمرة بالملايين من الرافديين أحفاد السومرين والبابليين والآشوريين مع جاليات عديدة يهودية وفارسية واغريقية وحورية وغيرها ، ولكن العرب بقدرة قادر أبادوا بدنياً جميع هؤلاء السكان وحلّوا محلهم!! هل من المعقول أن تكون الأقليات المسيحية السريانية القاطنة حالياً في شمال العراق (نينوى) هي كل ما تبقى من أحياء من تلك الملايين من العراقيين القدماء؟ وهل هذا يعني أن جميع الناطقين بالعربية في العراق ينتمون الى العنصر العربي وهم فعلاً منحدرين من القبائل العربية التي نزحت من الجزيرة؟

التاريخ يخبرنا ان القبائل العربية كانت أقلية فعالة ومهيمنة سياسياً وثقافياً ودينياً تمكنت خلال قرون طويلة أن تصهر في داخلها الأغلبية الرافدية وعربتها من خلال التزاوج والاسلام

واللغة العربية . في ايران حدث العكس أن الأقلية العربية اضطرت الى الذوبان ثقافياً و بدنياً في العنصر الايراني رغم نجاحها في فرض الاسلام وجزء من التأثير الثقافي واللغوي العربي ، وقد حدث نفس الشيء مع الشعوب الآرية والتركستانية .

إن السبب الأول الذي سهل عملية تعريب البلدان العربية الحالية هو التقارب العقلي والبشري بين القبائل العربية وسكان هذه البلدان . الناظر لتاريخ المنطقة ، يكتشف أن هذه الأرض الشاسعة التي يتكون منها العالم العربي الحالي كانت متصلة ببعضها منذ القدم : من خلال ساحل البحر المتوسط المنفصل عن أوروبا بجبال طورس شمال سوريا والممتد الى مصر وليبيا وتونس حتى جبال الأطلس في المغرب . يضاف الى السواحل أيضاً الصحراء الممتدة من جنوب الجزيرة العربية مروراً ببادية الشام وسيناء حتى الصحراء الكبرى في شمال افريقيا . على امتداد هذه السواحل والصحارى ظلت شعوب المنطقة وقبائلها وتجارها وغزاتها يتنقلون ويتمازجون ويؤثرون ببعضهم بعضاً منذ فجر التاريخ . ليس صدفة أن جميع المؤرخين اضطروا للاتفاق منذ عدة أعوام على الاعتراف بالوحدة العرقية والثقافية بين من سمّوا بالشعوب السامية والشعوب الحامية (المصرية البربرية النوبية) ، وأطلقوا عليهم تسمية العائلة «الافريقية ـ الآسيوية» . بل زاد الآن أتباع الفرضية القائلة بأن الشعوب السامية قد قدمت من شمال افريقيا عبر مصر ، بعد عملية التصحر التي حدثت في المنطقة (بحدود ٦٠٠٠ ق .م) ، والتي سبقت التصحر الذي حدث في المشرق والجزيرة العربية . ظلت الهجرات والامتزاجات مستمرة خصوصاً من القسم الآسيوي الى القسم الافريقي ، منها هجرات الشاميين المستمرة الى مصر ، ومنهم الفينيقيون الى تونس وشمال افريقيا . ان مراحل التقارب والتوحد بين شعوب المنطقة وصلت الى نضجها بانبثاق المسيحية التي نجحت تماماً بتحقيق الوحدة الدينية الروحية بين شعوب المنطقة من اليمن حتى المغرب . لكن هذه المسيحية تأخرت عن تحقيق الوحدة السياسية الثقافية بسبب تبني الامبراطورية الرومانية ثم البيزنطية لهذا الدين وبالتالي منعهم لأن يكون عاملاً للثورة السياسية . ولقد جاء الاسلام والتعريب في هذا الوقت بالذات ليلبي الضرورة التي تأخرت عنها المسيحية . على هذا الأساس يمكننا الافتراض انه لو لم تنبثق الموجة العربية الاسلامية وتوحد المنطقة ثقافياً وسياسياً ، لكان من المحتم ان تنبثق موجة غيرها تقوم بنفس عملية التوحيد ، ربما الأقباط ، أو البربر ، أو السريان .

بدأ سكان المشرق بالتحالف والموالاة مع القبائل العربية المهيمنة من خلال تقليد الحلف

والموالاة المعروف لدى العرب والساميين . وهذا يعني حمل أسماء العشائر المهيمنة لضمان حمايتها بعد الدخول في الدين الاسلامي .

لقد أطلق العرب تسمية «مولى ـ موالي» على السكان الأصليين الذين دخلوا الاسلام وتعربوا . فيقال عن «فلان» انه من «موالي بني تغلب» مثلاً ، ولن تزول صفة «مولى» عن الشخص والجماعة إلا بعد بضعة أجيال ، ليصبح بعدها تميمياً أو تنوخياً أو قريشياً ، الخ ، وينسى أنه كان مشرقياً آرامياً أو عبرياً أو تركمانياً أو رومانياً أو اغريقياً أو كردياً ثم أصبح عربياً بواسطة الموالاة والتحالف .

عندما نقرأ تاريخ الحضارة العربية في دمشق وبغداد نكتشف أن معظم شخصيات «العرب» هم من «الموالي» مثل موسى بن نصير والحسن البصري وأبو نؤاس والجاحظ والمتنبي وغيلان الدمشقي ومقاتل بن حيان النبطي ، وغيرهم وغيرهم . هؤلاء بالحقيقة من أهل العراق وسورية الذين انتمت عشائرهم وقراهم بالموالاة الى إحدى القبائل العربية . بل حتى الأشخاص الذين يحملون ألقاباً عربية مثل التميمي والقريشي وغيرها ، هناك احتمال كبير أن يكون أصلهم من الموالي (أي السكان الأصليين) الذين حملوا لقباً عربياً لمجرد تمشية الأمور ، خصوصاً وأن حمل الألقاب في تلك الأزمان أمر سهل لا يقتضي أية وثائق أو إثباتات ، وهناك حكايات كثيرة تسرد مثل هذه الحالات . يبدو أن الكثير من السكان الأصليين الذين لم يدخلوا في موالاة إحدى القبائل العربية ، التجؤوا الى حمل ألقاب غير قبائلية ، بل نسبة الى المدينة أو المهنة أو الصفة المعروفة ، مثل : «المتنبي» أو «الحموي» أو «الماوردي ـ ماء الورد» وغيرها .

إن عاملاً مهماً لعب دوراً في تسريع عملية التعريب ، وهو زواج المحاربين والمستوطنين العرب بنساء المناطق المفتوحة . ولنا مثالاً على هذا ، ان معظم الخلفاء الأمويين وخصوصاً العباسيين كانوا من أمهات غير عربيات ، أي من (الإماء) وهن بمعظمهن من نساء العراق والشام ، بالاضافة الى نساء من البربر والأقباط والأكراد والفرس والروم والتركمان . لقد استغرقت عملية الأسلمة والتعريب هذه عدة قرون ، بل المصادر التاريخية تذكر أن الكثير من أرياف العراق والشام ظلت على مسيحيتها ولغتها السريانية (النبطية) حتى بعد قرون عدة من الفتح العربي .

من دون أية مبالغة ، وبكلام علمي دقيق ، نقول ان تنظيم القبيلة العربية من الانفتاح

والسعة بحيث يمكن مقارنته بتنظيم (الحزب السياسي) في العصر الحديث من حيث انفتاحه وتقبله كل الراغبين من مختلف الجماعات والأفراد التي تود الدخول فيه وتطلب حمايته، لأن عملية الكسب هذه تقوي القبيلة وتزيد من هيبتها وعدد رجالها ومحاربيها وتضمن الحماية للجماعات المنتمية اليها .

إن نظام الانتماء والكسب هذا المسمى بنظام (الحلف والموالاة) ظل سائداً بين القبائل والقرى في المشرق حتى أواسط القرن الحالي ، حيث تفرض عشيرة قوية هيمنتها على عشائر وقرى المنطقة تحت راية شيخ محارب واسم قبائلي مشترك ، ومع مرور الزمن والأجيال يسود الجميع الاعتقاد بأنهم منحدرون من أصل واحد وسلف أسطوري مشترك . يمكن ذكر أمثلة كثيرة من العراق الحديث مثل «حلف المنتفك» و«حلف بني لام» و«حلف البو محمد» في وسط وجنوب العراق . الملاحظ هنا ان بعض التحالفات القبائلية كانت تضم أيضاً جماعات عراقية ليست بالضرورة أن تكون آرامية نبطية أو عربية ، بل كذلك جماعات مشرقية أخرى مثل الأكراد والأفيلية والتركمان ، الممتزجين والمتزاوجين مع العرب ، وهذه حالة بعض أقسام من قبائل البيات والقيسية وربيعة والجبور .

يمكن الاستشهاد بمثال قبيلة (البيات) العراقية ، المنتشرة فروعها من شمال العراق الموصل وكركوك مروراً ببغداد وديالى ثم واسط والحلة ، ومركزها في الخالص . هذه القبيلة لعبت دوراً أسياسياً في جميع أحداث العراق في العصر العثماني . البيات يعتقدون بانتسابهم الى قبيلة (آل ربيعة) التي تنتسب بدورها الى بني طي . لكن هذه القبيلة تحتوي على معظم تنوعات الشعب العراقي : التركمان والأكراد والفيلية بالاضافة الى العرب . كما يذكر الباحث (فرحان سعيد) ، فإن قبيلة البيات «مخلوطة من العرب وغيرهم ، وان كثيراً من أفراد القبائل التي كانت تطاردهم السلطات التركية ، قد انضموا الى البيات ، حتى أصبح عددهم ١٠٠٠٠ كوخاً وخيمة . . .» إن مثل هذا الاختلاط في القبيلة الواحدة لا يخص البيات إنما جيمع القبائل العراقية (نفس الشيء بالنسبة لباقي العالم العربي) . ويضيف الباحث : «إن هذا الأمر ينطبق على غالبية العشائر العربية في العراق ، فالعشيرة تتألف عادة من العرب (الأقحاح!) ، ومن الحلفاء الذين ينضمون اليها . . . والواقع أن العشائر المعاصرة لا تضم وحدة دموية متجانسة إنما هي مجموعة من البطون المتحالفة والمندمجة بعضها ببعض . . . التي جمعتها المصالح المشتركة والتضامن . . .» . (آل ربيعة الطائيون ـ فرحان سعيد ص ٣١٧) .

وآل ربيعة الطائية الذين ينتسب اليهم البيات ، كانوا يحكمون منطقة ممتدة من حلب وحما والأردن وفلسطين حتى حدود بغداد ، ومقرهم قرب مدينة (عانة) العراقية ، وأميرهم «أبو ريشة» لقب بملك العرب . وينتسب الى آل ربيعة ثلاثين عشيرة كبرى في العراق والشام ، وكل عشيرة لها عشائر تنتسب لها ، كل واحدة من هذه العشائر الفرعية لها عشائر أيضاً تحتمي بها وتحمل اسمها ، وهكذا دواليك بحيث أن الباحث بأنساب العشائر يضيع لا محالة في مسميات وادعاءات وتشابه أسماء وألقاب تجعل من المستحيل التصديق بحقيقة أي ادعاء قبائلي.وتدحض ما يسمى بـ «علم أنساب العرب» . إن تفاصيل تاريخ العشائر العربية الحالية في المشرق تكشف لنا ، ان هذه القبائل لم تستوعب في داخلها فقط الجماعات المشرقية السريانية بل حتى الجماعات اليهودية والكردية والفارسية والتركمانية والافريقية والاغريقية وغيرها ، أي مختلف الجماعات القديمة والجديدة المستوطنة في المشرق .

يمكننا ان نضيف الى عملية التعريب بالحلف والموالاة هذه ، ما يمكن تسميته بـ «عملية التعريب بالواسطة» ، أي تعريب المناطق الجديدة عن طريق توطين جماعات غير عربية أصلاً ، ولكن تم تعريبها قبل توطينها في المناطق الجديدة . يمكن أن نستشهد على هذه الحالة بدور المشارقة في تعريب مصر وشمال افريقيا ثم الأندلس . من المعروف أن بلدان المشرق هي التي أصبحت موطن التعريب بعد أن أصبحت موطن الامبراطورية العربية الاسلامية في دمشق أولاً ثم في بغداد . ان الكثير من سكان المشرق تطوعوا في الجيوش العربية طمعاً بالامتيازات ومغانم الفتوحات . ثم ان العرب ما كانوا متمرسين بأمور التقنيات الحضارية والحربية والادارية فاضطروا للاعتماد على أهل المشرق في بناء دولتهم وجيوشهم وأساطيلهم . على هذا الأساس فان الفتوحات تمت بواسطة جيوش وبحارة وإداريين وحرفيين معظمهم من سكان المشرق الأصليين (سريان بأكثرهم وكذلك يهود وأكراد وتركمان وأرمن واغريق ورومان وغيرهم) . لكن هؤلاء المشارقة عندما وصلوا الى البلدان المفتحة حلوا فيها على أساس أنهم «عرب» لأنهم كانوا مسلمين وناطقين بالعربية وقادمين من عواصم الحضارة العربية الاسلامية . لهذا فإنهم قاموا بدورهم في تعريب البلدان المفتوحة ونقلوا اليها الحضارة المشرقية المغطاة بالاسلام واللغة العربية . ولنا مثل واضح جداً هو دور الجماعات البربرية المغربية في تعريب بلاد الأندلس بالتكاتف مع الجماعات السورية التي قادت الدولة الأموية في الأندلس . والطريف أن هذه الجماعات المسلمة (السورية البربرية اليهودية الاسبانية) عندما

هربت الى المغرب بعد سقوط الأندلس، لعبت دوراً مهماً في إتمام تعريب بلدان المغرب! من هذا يمكن تشبيه عملية التعريب التي جرت في البلدان العربية أشبه بـ «الكرة الثلجية» التي تكبر وتكبر كلما تدحرجت أكثر.

هنا يكمن الدور التاريخي الكبير الذي قامت به القبائل العربية وهي تحمل رسالة التوحيد والوحدة باسم الاسلام واللغة العربية. وكان من المنطقي أيضاً أن تقوم بعملية التوحيد هذه الديانة اليهودية أو المسيحية. لكن اليهودية تجربة أولية ظلت أسيرة انتمائها القبلي الضيق وحدودها العنصرية العبرانية. ويمكن القول أن المسيحية هي محاولة أكثر نضجاً لكسر محدودية اليهودية وإعطائها الطابع القومي الشامل لشعوب المنطقة. نجحت المسيحية أن تكون تقريباً الدين الرسمي للأغلبية الساحقة من شعوب المنطقة العربية الحالية من نجران اليمن حتى الكوفة والشام ومصر وشمال افريقيا. حتى العراق الخاضع للفرس الزرادشتيين، صار بأغلبيته مسيحياً نسطورياً. التاريخ لن ينسى أن أسلافنا هم من صنع المسيحية وفرضها بدم التضحية على امبراطوريات أوروبا وشعوبها. ولكن هذا الدين عجز عن تحقيق الوحدة الروحية والسياسية لشعوب المنطقة بسبب اصطدامه بقوة الهيمنة المادية والروحية الاغريقية ـ الرومانية. ربما هذا يفسر اقبال قادة الدولة والفكر من الرومان والاغريق البيزنطيين (كذلك الفرس ولكن بدرجة أقل) على تبني المسيحية بسبب احساسهم بأن هذا الدين أخذ يتحول الى ايديولوجيا وروح خاصة بشعوب الضفة الشرقية من البحر المتوسط. لقد نجح الرومان والاغريق فعلا، من خلال تبنيهم للمسيحية، ان يطيلوا أمد سيطرتهم وبقائهم في المنطقة، وبالتالي إضعاف أسباب التحرر والتقارب بين شعوبها. ولكن المسيحية بعد اليهودية، كانت الخطوة المهمة والممهدة لما قام به الإسلام والعرب في القرن السابع. وهذا بالضبط الذي دفع الاسلام أن يعتبر نفسه ديناً مصححاً ومتمماً لليهودية والمسيحية وجميع أديان المنطقة. وأن يكون العرب الموحدين والدامجين للشعوب السامية ـ الحامية التي سبقتهم.

يمكن تشبيه ما قام به الرومان والاغريق بتبنيهم المسيحية، بما قام به الأتراك العثمانيين بتبنيهم للاسلام الذي ساعدهم في الهيمنة على المنطقة العربية لقرون عدة. كما أتى الاسلام كقوة روحية مضادة للهيمنة الأجنبية الممارسة باسم المسيحية، كذلك أتت الحركة القومية العربية كقوة ايدلوجية مضادة للهيمنة التركية العثمانية الممارسة باسم الاسلام. لهذا فان الاسلام لم يأت ضد المسيحية، بل اعتبر نفسه متمم لها ومنقذ لشعوبها من الهيمنة

الأجنبية والمانح لها قوة قومية جديدة . هذا يفسر الاقبال السريع على الاسلام والتعريب من قبل هذه الشعوب ، كأنها أدركت بسليقتها التاريخية و(لاوعيها الجمعي) وفي أعماقها الموروثة تلك الحاجة الى التوحد والتمايز عن جيرانها من شعوب آسيا وافريقيا وغرب البحر المتوسط .

من هذا يحق لنا الاعتقاد انه من المنافي للحقيقة التاريخية القول أن أجدادنا الذين شيدوا الحضارة العربية الاسلامية هم من العرب الأقحاح وتاريخهم يبتدىء من عصر الفتح العربي الاسلامي . الشعوب العربية والحضارة العربية الاسلامية هي نتاج حضارات جميع الشعوب الأصلية التي امتزجت وذابت بالأقلية العربية التي سيطرت بعد الفتح .

تفسيخ الماضي . . . تفسيخ الحاضر

إن التمادي في تجاهل الحضارات القبلاسلامية أثر سلباً وشوه كذلك الرؤية الواقعية للحضارة العربية الاسلامية . جميع المؤرخين العرب والأجانب اتفقوا على القطع التعسفي للأصول الوطنية العريقة للحضارة العربية الاسلامية . بالنسبة لهم أن الجذور الأولى لحضارة العرب لا تتعدى أصول البداوة وشعر المعلقات وسجع الكهان . إذن ، فإن كل ما هو غير ذلك ، فهو أجنبي : الفنون فارسية والتصوف هندي والفلسفة اغريقية!

لقد تناسى هؤلاء المؤرخون حقيقة تزيد إثباتاً بعد كل عام مع تزايد الاكتشافات التاريخية والأثرية ، وهي أن الذين صنعوا الحضارة العربية الاسلامية ما هم إلا أحفاد وورثة ، بشرياً وحضارياً ، للشعوب والدول والأديان السابقة ، رافدية وفينقية ومصرية وقرطاجية ويمنية .

في جميع نتاجات الحضارة العربية الاسلامية نجد الأصول الأولى للحضارات السالفة . في الدين الاسلامي يكمن الإرث الروحي والديني لشعوب المنطقة : (اليهودية والمسيحية والأديان والميراثات السامية ـ المصرية ثم الشرقية العالمية) . أما بالنسبة للثقافة والفنون والعلوم وأنماط الحياة والإبداعات الجمالية ، نجد خصوصاً تأثيرات الشعوب السامية الحامية أولاً ثم بعدها التأثيرات الفارسية والآرية والتركية والافريقية . في التصوف الاسلامي ، هناك آثر الهنود والصينيين ، ولكن التصوف المسيحي الشرقي وكهان أديرة الصحارى العربية ، يبقى هو أساس التصوف العربي الاسلامي .

إن أفظع درجات سوء الفهم ومسخ التاريخ تتجلى في تعاملنا مع تاريخ وأصول الفلسفة

العربية الاسلامية . إن جميع المؤرخين ، عرباً وأجانباً ، اتفقوا على اعتبار أصول الفلسفة العربية ، اغريقية وأوروبية . لأن الاعتقاد السائد أن العقل الشرقي (السامي الحامي العربي) هو بطبعه روحاني وديني ومثالي مخالف لروح المنطق والعقلانية والتفلسف التي هي خصوصيات اغريقية لاتينية أوربية!

والحقيقة أن تفاصيل التاريخ تبين أن ما يسمى بالفكر والفلسفة الاغريقية ، هي ليست اغريقية تماماً ، رغم أنها كتبت باللغة الاغريقية ثم اللاتينية .

لقد اتفق المؤرخون على التمييز بين مرحلتين : أولها الحضارة الهيلينية التي نشأت في أثنيا والجزر الاغريقية قبل الميلاد ببضعة قرون ، واعتمدت كثيراً على ما اكتسبته من الحضارات الشرقية وخصوصاً نظام الأبجدية الذي كان ثورة كبرى في الحضارة البشرية ودليل ساطع على منطقية وعقلانية الفكر السامي .

بعد القرن الثالث قبل الميلاد فرض الاغريق ، وبعدهم الرومان سيطرتهم العسكرية والسياسية على الضفة الشرقية للمتوسط ، فتكونت بذلك حضارة وفلسفة جديدة ميزها المؤرخون باسم الحضارة (الهلنستية) أي الحضارة التي نشأت من مزج العقل الاغريقي واللاتيني مع العقل الشرقي السامي الحامي . وازدهرت هذه الحضارة في مدن الساحل الشرقي ، مثل إنطاكيا (السورية) والاسكندرية (المصرية) ثم حران ونصيبين والرها في بلاد الرافدين ، بالاضافة الى قرطاجة والقيروان في شمال افريقيا . أما في بيروت فقد نشأت أكبر المدارس الحقوقية التي أغنت الحضارة الرومانية . وساهم في تأسيس هذه الحضارات الاغريقية اللاتينية من أبناء الشرق فلاسفة ومبدعين من دونهم لا يمكن الحديث عن أي إبداع اغريقي لاتيني : «إفلوطين) المصري مؤسس الأفلاطونية الجديدة ، وفاراتوستينس القيرواني مكتشف محيط الأرض ، أنطيوخوس العسقلاني ، وسينازيوس الفورنائي الليبي ، اوسابيوس القيصري الفلسطيني ، وأسماء لا تحصى . ويمكن الجزم أن ما يقرب من نصف المبدعين والمفكرين المنسوبين الى الحضارة الاغريقية اللاتينية هم ممن ولدوا وعاشوا في مدن شرق المتوسط وبلاد الرافدين . بل هناك أسماء عدة لرجال ساهموا بقيادة الامبراطورية الرومانية ، ومن أشهرهم الامبراطور المعروف بـ (فيليب العربي) . والملكة (جوليا) والاثنان من حمص في سوريا .

ضمن هذا السياق يمكن كذلك التعامل مع تاريخ المسيحية . بكل طيبة شاركنا المؤرخين الأوربيين خطيئتهم باعتبار المسيحية حالة أجنبية أوربية منذ البدء . ترانا اتفقنا بصورة عجيبة

على اعتبار الجاهلية وعبدة الأصنام هي تراث العرب الوحيد قبل الاسلام ، كأن مدينة مكة هي مختصر جغرافي أسطوري لجميع بقاع المنطقة العربية ومدنها وشعوبها! لقد تناسينا ان المسيحية ظلت خلال القرون الثلاث الأولى ديناً خاصاً لأبناء الضفة الشرقية للبحر المتوسط . قبل مجيء الاسلام كانت المسيحية هي الدين الأول لجميع شعوب المنطقة ، من بلاد الشام الى اليمن ومصر وشمال افريقيا . إننا نتناسى أن الصناع الأوائل للفقه المسيحي هم أسلافنا : أوغسطين القرطاجي واريوس الليبي ونسطور ويعقوب الشاميين ومئات من الأسماء السامية ـ الحامية التي صنعت الفكر المسيحي . إن مدرسة الاسكندرية ومعها أنطاكيا ونصيبين والرها وحران ، هي التي صنعت الوحدة بين الفلسفة والفقه المسيحي أي ما يسمى بالعرفانية (الغنوصية) ، مثلما صنعت بغداد والبصرة ، بعد قرون ، نفس الوحدة بين الاسلام والفلسفة (المعتزلة والأشعرية) . في أنطاكيا عُرف« المسيحيون» لأول مرة بهذا الاسم . وفي صور تكونت أول جالية مسيحية . ولم تصبح المسيحية ديناً للأوروبيين ، إلا بعد ثلاث قرون . وما تخلى هؤلاء المحتلون (بيزنط وروممان) عن أديانهم وتبنوا مسيحية الشرق إلا بعد أن فرضت نفسها كحركة فكرية وسياسية تحررية . لولا استيلاء الأوروبيين على المسيحية ربما كانت نجحت في تحقيق هدفها التوحيدي والتحرري لشعوب المنطقة .

الانقطاعات العقلية مع الماضي والحاضر

إن المهمة الجبارة الأولى التي تنتظر انجازها من قبل العقل العربي ، تتمثل بإعادة كتابة التاريخ العام للمنطقة العربية ضمن رؤية توحيدية وشمولية تحطم الجدران الانفصامية التي خلفتها الأوهام الدينية والقومية ، وفرضتها الهيمنة الأوربية الغربية .

إن إعادة كتابة تاريخنا الحضاري والسياسي والروحي والديني تتضمن كذلك إعادة النظر بالتاريخ الديني والتاريخ اللغوي ، حسب السياق التالي :

أولاً : توحيد الميراث التاريخي

الجانب الأكثر حساسية في هذه القضية ، يتمثل بذلك التناقض الذي اختلقناه بين التاريخ العربي القومي المشترك بين جميع البلدان العربية إزاء التواريخ الوطنية «القبلاسلامية» الخاصة بكل بلد عربي . لأن الفصل القسري بين التاريخ العربي الاسلامي والتاريخ

ماقبلاسلامي ورطنا كذلك في عملية فصل جغرافي قطري بين تواريخ البلدان العربية المتنوعة . بالنسبة لكل مواطن عربي هنالك تاريخ واحد فقط مشترك بين العرب جميعهم ، هو التاريخ العربي الاسلامي . بالنسبة لغير الشامي فان حضارة الفينقيين والآراميين تبدو أجنبية . وحضارة القرطاجيين تبدو كذلك أجنبية لغير المغاربي . العراقي مثلاً ، يمكن أن يشعر بالانتماء المشترك مع المغاربي عندما يتحدث عن الفترة العربية الاسلامية ، لكن ما إن يتم الحديث عن الحضارة القرطاجية والحضارة البابلية حتى يبدأ الافتراق بين العراقي والمغاربي والانحدار نحو المنافسة الوطنية .

إذن كيف يمكن الجمع بين هذه التواريخ الوطنية المتنوعة؟ كيف يمكننا ، من ناحية احترام التاريخ الوطني المتميز والخاص بكل بلد عربي ، ومن ناحية أخرى وضع كل واحد من هذه التواريخ الخاصة في سياق متكامل ومنسجم رغم التمايزات وحتى التناقضات؟

إن المهمة التي تواجه العرب تتمثل بالعمل على كتابة التاريخ العربي بطريقة تعيد اكتشاف جميع العلاقات التكاملية بين التواريخ الوطنية المختلفة . وهذا يبدأ أولاً باعادة الترابط بين التاريخ العربي الاسلامي والتاريخ ماقبلاسلامي . رد الاعتبار لماضينا وتراثنا الأقدم والأطول زمناً ، الممتدة جذوره في أعماق وعي الناس وتقاليدهمم ومفاهيمهم التي اندمجت في الحضارة العربية الاسلامية .

الأوربي ، مهما ركز على تاريخه الوطني «القطري» فانه يشعر بالانتماء المشترك لتواريخ جميع الشعوب الأوروبية : الاغريقي الروماني الجرماني السلافي . وهذا بالضبط الذي تحتاجه رؤيتنا الى تاريخنا . من حق المصري أن يعتز بتاريخه الفرعوني ، لكن هذا لا يتنافى أبداً مع الشعور بالانتماء المشترك لجمع حضارات المنطقة ، كحضارة متكاملة مشتركة بكثير من الخواص الروحية والمادية التي تميزها عن الحضارات الجارة : أوروبية وافريقية وآسيوية .

إننا بحاجة الى باحثين في التاريخ والثقافات قادرين على تعقب مراحل التقارب والانصهار بين شعوب وحضارات المنطقة ، وصولاً الى المرحلة العربية الكبرى .

يتوجب النظر الى التواريخ الوطنية لكل بلد عربي من خلال هذه الزاوية التطورية المتصاعدة نحو التقارب والتكامل البشري ـ الثقافي .

إن النظرة الشاملة لعموم تاريخ العالم العربي لا تمنع من تقسيم التارخ المشترك الى تواريخ

اقليمية متمايزة مثلما هو الحال عند كتابة التاريخ لعموم منطقة المغرب العربي . على هذا الأساس يمكن كتابة تاريخ الجزيرة العربية ، وتاريخ منطقة المشرق العربي (الهلال الخصيب) ، وتاريخ منطقة النيل (مصر والسودان) ، كل هذا ضمن نظرة شاملة ومتكاملة لعموم التاريخ العربي بجميع مراحله منذ ما قبل الحضارة وحتى الآن .

ثانياً : توحيد الميراث الديني

من المعضلات التي يعاني منها العقل الديني العربي هي معضلة الفصَل التعسفي بين الميراث الاسلامي والميراث الماقبلاسلامي . لا زالت النظرة الاسلامية عن الجاهلية والكفرة وعبدة الأصنام والتفسخ الأخلاقي والوحشية هي الطاغية في تعاملنا مع تراثنا القديم . لا زال الاسلامي يزايد على العلماني بالتمسك بالتراث ، ولكن العلماني ينسى دائماً أن يسألَ الاسلامي عن آلاف الأعوام من التراث الحضاري ماقبلاسلامي . إننا تعودنا أن نتعامل مع هذا التراث بطريقة مشابهة لتعامل الغزاة الأوروبيين مع التراث الأمريكي . فتاريخ أمريكا يبدأ يوم «اكتشافها» من قبل هؤلاء الغزاة !

إننا حتى تجاوزنا الحقيقة التي يقرها الاسلام نفسه . فالقرآن الكريم خلي تماماً من هذا الفصل التعسفي والتنكر للماضي . القرآن رغم رؤيته الإلهية للتاريخ ، إلا أنه في حقيقته العميقة لا يتنافى مع الرؤية العلمية العلمانية لتاريخ المنطقة العربية . فالقرآن قد تبنى تراث الأسلاف والأديان والحضارات السابقة ، وأكبر مثال على هذا أن النبي محمد ﷺ اعتبر نفسه وارثاً ومتمماً للأنبياء السابقين ، وأن العرب هم أحفاد ابراهيم واسماعيل ، وان الاسلام مكمل للأديان الأخرى وعلى الأخص اليهودية والمسيحية . وتم تقديس جميع أنبياء وحكماء الأسلاف ، بل إن الاسلام قد أضفى القدسية على شخصيات تاريخية غير دينية ، مثل الاسكندر المقدوني .

إن كان من حق المتدينين والقوميين أن يضفوا القدسية على الحقبة العربية الاسلامية ، فليس من الحق والعدل أبداً ، إنكار آلاف الأعوام من تاريخ وتراث ما قبل الاسلام ، وحتى اعتباره أجنبياً ومعادياً لايماننا الديني والقومي . من حق المتدينين أن يؤمنوا بأن هذا التاريخ ماقبلاسلامي غير مقدس ، وأن أسلافنا كانوا جاهلين للحقيقة الإلهية ، لكن هذا لا يمنع أبداً أن نعترف بالعلاقة بيننا وبين أولئك الأسلاف على أنهم صناع تاريخنا وحضارتنا السالفة .

إن الرؤية التاريخية المنفتحة سوف تكشف لنا عن بعد تاريخي وحضاري للاسلام ، لا زال مجهولاً بالنسبة لنا . الاسلام ، ما هو إلا وليد طبيعي لتطور التقارب الروحي والثقافي والديني لشعوب المنطقة . التقارب العرقي والديتي الذي كان في تصاعد ونمو تدريجي منذ فجر التاريخ .

مثلما اغتصبت الصهيونية منا اليهودية وحورتها لأهدافها الاستعمارية الغربية ، كذلك اغتصبت أوروبا منا المسيحية وكتبت تاريخها بمعزل عن تاريخنا . إن النظرة الموضوعية للتاريخ ستكشف لنا أن اليهودية هي نتاج طبيعي لتلاقي حضارات شعوب المنطقة : شامية ورافدية ومصرية . اليهودية مرحلة ابتدائية في مجرى تكون روح مشتركة بين هذه الشعوب . تاريخ اليهودية ونصوصها يكشف بشكل واضح عن هذا التلاقي والتمثل : «العبرانيين خرجوا من اور في العراق ، وابراهيم تزوج بهاجر المصرية لتكون ام اسماعيل والعرب ، وعاش اليهود لاجئين في مصر وصار نبيهم موسى الضابط المصري ، ثم كونوا دولتهم في فلسطين ، وكتبوا تلمودهم في بابل . . .» . تاريخ اليهودية وكتبهم المقدسة مثال بيّن على الأصول الأولية لعملية التقارب الفكري والروحي بين شعوب المنطقة .

لكن اليهودية ، رغم إنها كانت نتاج مشترك لجميع حضارات المنطقة ، إلا أنها ظلت تجربة أولية وقاصرة بسبب انطوائها القبائلي العبراني . لهذا فان المسيحية قد شكلت مرحلة متقدمة اكثر تطوراً وشمولية من سابقتها اليهودية . لم يعد الله رب للعبرانيين وحدهم ، بل جعله المسيح رب جميع البشر . حسب الانجيل فإن المسيح قد تمرد وثار ضد طرفين ، هما اليهود والرومان . المسيحية أتت ضد العصبية القبلية العبرانية وضد الهيمنة الأجنبية الرومانية .

ضمن هذا السياق يمكن اعتبار الاسلام هو المرحلة الناضجة والمتقدمة التي نجحت في الوصول الى الهدف التوحيدي الذي شقت دربه شعوب المنطقة وتجلى في الأديان السالفة . إن تاريخ الأديان الثلاثة يكشف عن عملية نمو متصاعد نحو الأكمل والأشمل : الأديان السامية والفرعونية صنعت الدين وطورت الأفكار الروحية . . . ثم أتت اليهودية التي جمعت بين الثقافتين السامية والمصرية وساهمت في توحيد فكرة الإله . . ثم أتت المسيحية التي وحدت الله والبشر . . أما الإسلام فقد وحد الله والبشر والأوطان وصنع حضارة موحدة للدين والثقافة واللغة ، أي أنه أكمل تكوين « الأمة » .

إن اعتقادنا واحترامنا للاسلام وتاريخه وأصوله هو الدافع لأن ندرس ونتعرف على أديان

ومعتقدات ماضينا التي يعترف بها الاسلام ويُعرِّف عليها . لتكن جزءاً من تراثنا ومناهجنا الدراسية جميع الأديان والميراثات الروحية لأسلافنا : السامية والمصرية واليهودية والمسيحية والصابئية والمانوية واليزيدية وجميع الأديان والمعتقدات الميتة والحية التي صنعتها حضاراتنا في بلاد الرافدين ومصر واليمن والشام وشمال افريقيا . إن إعادة ربط التراث العربي الاسلامي بالتراث الروحي لحضاراتنا السالفة سوف يخدم العقل العربي في ناحيتين :

أولها ، أنه يعيد إلينا جزءً كبيراً من ذلك التراث الذي صنعه أسلافنا خلال آلاف السنين ، وسلبته منا أوربا ، وبكل صلافة اعتبرته المصدر الأول لتراثها الفكري . إنه التراث المسيحي الذي سلبته منا أوربا منذ احتلال الرومان والاغريق للضفة الشرقية للبحر المتوسط ، رغم ان هذا التراث نشأ ونما خلال قرون في مدن الشرق ، الاسكندرية وقرطاجة وإنطاكية ونصيبين وحران وغيرها . ولقد نجحت أوروبا بجعله جزء أساسياً من تراثها رغم أن جميع القديسين والفقهاء والفلاسفة الذين صنعوا هذا التراث هم من أبناء منطقتنا . ونفس الحالة بالنسبة للتراث اليهودي ، الذي نجحت أوربا كذلك بسلبه في نهايات القرن الفائت من خلال نشوء الحركة الصهيونية كأداة سياسية فكرية لديمومة الهيمنة الغربية . رغم ان هذا التراث نشأ منذ البداية في المنطقة ، بل إن جزءاً مهماً من هذا التراث قد كتب باللغة العربية أثناء الحقبة العربية الاسلامية وخصوصاً في الأندلس . وصل الأمر بالخطاب الأوربي الحالي أن يطلق على الفكر الأوربي الحالي تسمية (الفكر اليهودي ـ المسيحي) .

أما الناحية الثانية التي ستخدم الفكر الديني العربي ، فتتمثل برد الاعتبار لتاريخ وأصول الفكر الاسلامي بالذات . أي نبذ ذلك الوهم السائد بأن الاسلام نشأ أولاً من تراث بدوي جاهلي في مكة والجزيرة ، وأن باقي أصوله هي أجنبية : فارسية وهندية واغريقية . إن رد الاعتبار للتراث الديني قبلاسلامي سوف يكشف لنا ان الاسلام ما هو إلا خلاصة إبداعية لجميع الميراثات الدينية والروحية التي صنعها أبناء المنطقة العربية : العرفانية (الغنوصية) والتصوفية المانوية والمسيحية واليهودية والآداب السريانية والفنون المصرية والفلك البابلي والعلوم الفينيقية والقرطاجية ، وغيرها من المصادر المعرفية التي ضختها شعوب المنطقة في الحضارة العربية الاسلامية .

إن اعادة كتابة تراث الاسلام وتاريخ العالم العربي يعني اعادة كتابة تاريخ الحضارة

البشرية وخصوصاً تاريخ شعوب البحر المتوسط . وان انعتاقنا من الرؤية التقطيعية والانفصامية لتاريخنا هو انعتاق من هيمنة الرؤية التمركزية الأوربية .

ثالثا : توحيد الميراث اللغوي

العربية وأصولها السامية ـ الحامية

مكتشفات العصر الحديث التاريخية أثبتت بصورة جلية على أن اللغة العربية هي جزء من تلك العائلة اللغوية الكبرى المسماة «العائلة السامية ـ الحامية» . وعائلة هذه اللغات تمثل تراث الشعوب السالفة التي أورثتنا الانسان والثقافة واللغة . لماذا إذن هذا الإصرار على التعامل مع هذه اللغات كأي لغات أجنبية وميتة؟ لماذا هذا التردد في الاعتراف والكشف عن ديمومة هذه اللغات في داخل اللغة العربية ولهجات وثقافات شعوب المنطقة؟

إن إعادة الربط بين اللغة العربية ولغات الأسلاف السامية ـ الحامية عامل أساسي لخلق رؤية منسجمة ، ومتوازنة لتاريخنا الشامل ، ضمن سياقه التطوري التوحيدي المحتم بظروف الجغرافيا والمناخ وتجانس الأعراق والثقافات . لو نظرنا الى تاريخنا اللغوي ، لوجدنا أن هناك مراحل تدرجية بدأت منذ أولى الحضارات لتصل الى قمتها في القرن السابع بهيمنة اللغة ، والأبجدية العربية . إن أولى المراحل البدائية تتمثل باختراع الكتابة الصورية : الهيروغليفية في بلاد النيل ، والمسمارية في بلاد الرافدين . مع الزمن توطد هذا التقارب بأول وأهم اختراع في تاريخ البشرية ، إنه النظام الرمزي ، نظام الأبجدية الفينقية . ويعتبر هذا الاختراع حصيلة تعاون وتمازج معرفي طويل بين الشعوب السامية والحامية . إذ ليس صدفة أن أول ظهور لهذه الأبجدية كان في صحراء سيناء ،حيث تلتقي هناك جمع قبائل وحضارات المنطقة . بعد ذلك شاعت اللغة الآرامية (السريانية) مع شيوع المسيحية ، كلغة أساسية وثقافية في جميع أنحاء المنطقة ، ولتكسر الهيمنة السياسية الثقافية التي فرضتها اللغات الاغريقية واللاتينية والفارسية . مع بزوغ الاسلام في القرن السابع ، وصل التقارب الى قمته في الاتفاق على اللغة والأبجدية العربية التي لخصت حصيلة تطور جميع اللغات والثقافات السابقة ، يمنية وبابلية وفينقية وسريانية وقبطية وباقي لغات المنطقة .

إن الفرد الأوربي ، مهما كانت لغته ، فإنه مجبر على دراسة اللغات والآداب الاغريقية اللاتينية كمدخل أساسي لدراسة لغته الوطنية ، فرنسية أو إيطالية أو انكَليزية وغيرها . إن

سر قوة الثقافة الأوربية يكمن في قدرتها على إعادة التواصل بين ثقافات الحقب التاريخية المختلفة التي عاشتها أوروبا . لكننا نحن العرب تجاهلنا هذه المهمة الأساسية وأبقينا ثقافتنا العربية منفصلة عن أصولها التاريخية ، التي صنعتها شعوبنا خلال آلاف السنين من الحضارات الكبرى ، التي قامت في بلاد الرافدين والشام ومصر واليمن وشمال افريقيا .

يبدو أن جذور الانفصام تعود الى فترة قيام الدولة العربية الاسلامية في القرن السابع ، وبسبب ظروف الصراع الديني والمنافسات القومية ، كذلك الاختلاف الظاهري للغة العربية عن اللغات السامية ـ الحامية السائدة ، ثم انتشار هذه اللغة وتحولها الى لغة الحضارة والدين واللغة الأم لأغلبة السكان . لكن هذه الظروف أدت الى اندثار هذه الثقافات الماقبلاسلامية الناطقة بلغات وأبجديات صارت منسية من قبل الأجيال المستعربة . ثم إن خشية العرب المسلمين من التشبه بلغة أسلافهم (غير المسلمين) ، قد خلق لدى هذه الشعوب المستعربة حالة تناسٍ واعية ، وغير واعية ، وصلت الى حد الشعور بالأجنبية المطلقة عن أولئك الأسلاف . وساد اعتقاد خاطىء بأن الثقافة واللغة العربية منقطعة تماماً عن الثقافات واللغات السابقة ، واعتبارها نتاج «مطلق» للقبائل العربية التي نشرت الاسلام واللغة العربية!

إن دراسة العائلة اللغوية السامية ـ الحامية يجب أن يكون موضوعاً أساسياً وإجبارياً في مناهج تدريس اللغة والأدب والثقافة العربية . ومن الخطأ الإبقاء على التصور القائل بأن دراسة تلك الثقافات سيكون على حساب اللغة العربية ، بل الحقيقة هي العكس تماماً . لأن دراسة السريانية والقبطية والعبرية والسومرية والبربرية ، وإظهار دورها في إغناء وتطوير اللغة العربية ، سوف يعيد الاعتبار الى اللغة العربية نفسها ، ويظهر حقيقتها على أنها خلاصة وذروة لجميع تلك الثقافات واللغات . بالاضافة الى الفائدة التاريخية التي سيجنيها العقل العربي من أجل تكوين هوية ثقافية وسياسية عربية تستمد عنفوانها وشرعيتها من أصول الثقافات الأولى .

لننظر مثلاً الى القواميس العربية ، حتى الآن لا زالت جاهلة ومنقطعة تماماً عن أصولها اللغوية السابقة . وأبرز مظاهر هذا التقصير تتجلى في تفسير معاني الأسماء . (نشيد هنا بتجربة رائدة وجديدة تستحق التقدير رغم نواقصها ، وهي ـ معجم أسماء العرب ـ موسوعة السلطان قابوس) .

في القواميس السائدة ، مثلاً عندما تبحث عن معنى اسم «عيسى» ، فإن جميعها

تختصر الجواب بعبارة واحدة : اسم عبراني أو آرامي . ويعني المنقذ والمخلص! لكن أي مطلع على اللغات السامية سوف يكتشف ان معنى هذا الاسم موجود في صلب اللغة العربية : عيسى في العربية ممكن أن يعني أيضاً ، المخلص أو المُنجد . هناك كلمة عسى ، وتفيد بمعنى التمني ، وهناك كلمة عسس ، وهم حراس النجدة الليلية ، وهناك كلمة فيها إبدال لحرف السين الى شين ، وهي العيش ، وتفيد بمعنى الحياة والانقاذ ، ومنها اسم «عياش» .

على هذا المنوال سوف تكتشف ما لا يحصى من أسماء الأشخاص والمدن والقرى . مثلاً ، من أسماء القديسين المسيحيين ، اسم «توما» ، وهو أيضاً له معنى بالعربي ، لأن معناه في الآرامي والعبري هو «توأم» . خذ أيضاً اسم قديس آخر «متى» ، وحسب الأصل الآرامي يعني المانح والواهب ، ولفظه العربي هو «مُعطي»! أما اسم «مريم» ، فيبدو واضحاً بالعربية عندما نعرف أن في الأصل الآرامي يتكون من «مار» ويعني القديس أي «الآمر» ومنه الأمر ، ثم «يم» وهو البحر والماء . إذن فإن اسم مريم يعني بكل بساطة في العربية مثلما في الآرامية «أميرة اليم» ، «قديسة الخصب» وهناك اسم آخر يكشف لنا عن التمازج العميق بين العربية وأسلافها السامية ، وهو اسم «إيليا» ويعني المقدس والعالي في جميع اللغات السامية ، ورديفه العربي هو «علي ، علاء ،» ، ومنه اشتق اسم «الله» وهو لفظ سرياني وليس عربي ، لأن حرف اللام بهذه الطريقة المفخمة لا يوجد في أي كملة عربية أخرى غير «الله» . وقد يكون اللفظ الأقرب الى العربية هو «العالي» ومنه «إله» . إذن جميع الأسماء التي تحتوي على «أيل» لها معنىً مرادفاً في العربية : «جبرائيل» ، يعني «إيل الجبار» ، أي «علي الجبار» ، وهو «الله الجبار» ، و«ميخائيل» هو محيائيل» ويعني «إيل الذي يحيي» ، و«اسرائيل هو «إصراعيل» «إيل الذي يُصرع» ، و«دانييل» هو «إيل الذي يدين ويحكم»* . ومدينة «بابل» تعني «باب أيل» أي «باب الله» .

الدكتور يوسف حوراني يفترض أن «أل» التعريف في العربية قد أتت من اللغة الأكدية . إذ يعتقد هذا الباحث أن أهل الرافدين ، تعودوا لفظ اسم «إيل» قبل أي اسم من أجل حفظه من الشر . ومع الزمن صارت «إيل» أداة ضرورية تسبق الاسم ، وبالتالي صارت هي أداة

* لمن يرغب الاطلاع على معاني جميع الاسماء (المسيحية) يمكنه مراجعة اي قاموس للاسماء باحدى اللغات الاوربية المعروفة .

التعريف عند معظم الساميين ومنهم العرب . بينما اللغة الآرامية والعبرية اختارتا كلمات «ها» للتعريف ، ورديفها العربي أيضاً «ها» التي تستعمل للضمائر والإشارة : «ها ، هو ، هي ، هذا ، هذه ، . . كتاب . ـه ، الخ» ومنه اشتق اسم الإله «يهوه» وهو الضمير المهيمن . أما الساميون الجنوبيون «اليمن» وكذلك الكنعانيون والفينيقيون فكانوا يستعملون التنوين كأداة تعريف ، فتقول «لبنان» وهي «لبناً» أي الأبيض ، وهو جبل لبنان . ولا زالت العربية تحتفظ بهذا الأسلوب التنويني الذي صار مختصاً بالكلمات غير المعرَّفة (البنية الذهنية الحضارية ـ يوسف حوراني ـ ص ١٧٢ ـ ١٧٨) .

والأكثر طرافة في الموضوع هو تحول الأسماء السامية العربية الى أسماء أوروبيية ، واستخدامها من قبل المسيحيين العرب على أنها أوربية ، منها مثلاً اسم «حنا» أو «يوحنا» وأصله السامي العربي مشتق من «حنان» ، أما تنوعات لفظه الأوربي فلا تحصى : في الفرنسي «جان» للمذكر و«آن» للمؤنث ، وفي الإيطالي «جيوفاني» ، وفي الاسباني «خوان» ، وفي الانكليزي «جون» ، وفي الألماني «هان» ، وفي الروسي «إيفان» ، وهكذا تعود علينا بضاعتنا بحلة جديدة تماماً .

أما اللغات الحامية (المصرية والبربرية) ، وهي الأبعد جغرافياً وتاريخياً عن العربية ، فإنها تركت آثارها أيضاً على العربية بصورة مباشرة وغير مباشرة ، وخصوصاً في القسم الافريقي من العالم العربي . في هذا المجال نستشهد بما يذكره الباحث المصري سليمان الحكيم ، عن الأصول السامية ـ العربية لمعظم أسماء الآلهة المصرية ، وكذلك الأسماء الشائعة حالياً للمدن والعوائل المصرية : الشناوي ، شنودة ، الصاوي ، الحفناوي ، البسطاوي ، الصفطاوي ، الهواري ، الأشموني ، الأسناوي ، السخاوي ، مريت ، سمير ، سوزي ، شيري . . الخ . وهو يستند في بحثه على بحث قدمه الدكتور علي فهمي خشيم بعنوان (آلهة مصر العربية) . ومثال على هذا نذكر اسم «أشموني» ورديفه العربي «ثمانية» ، واسم «سمير» ورديفه العربي «سمير» وهو المحبوب والمسامر ، واسم «سخاوي» ويعني السخي ، والسخاء هي الأرض اللينة في العربي والمصري . واسم «مريت» يعني في المصري «الماء» أو «المروي» كما في العربي . واسم «سوزي أو سوزان» هو السوسن في العربي و«الهكسوس» هم «ساسة الخيل» لأن «هق» في العربي تعني الخيل ، ولأن «الهكسوس» هم أول من أدخل الخيل الى مصر من بلاد الشام . (سليمان الحكيم ـ الأصول المشتركة بين اللغتين العربية والفرعونية ـ الحياة ٣١ أيار ١٩٩٢) . وفي هذا

السياق يمكن التعامل مع اللغات البربرية في شمال افريقيا حيث نجد التشابه في الأصول بين العربية والبربرية . وعلى هذا الأساس اتفق علماء اللغة والتاريخ على إطلاق تسمية «العائلة اللغوية السامية ـ الحامية» .

تبقى هذه الأمثلة ، أمثلة لا أكثر ، وليس المهم فيها صحتها أم خطأها ،بل إن غايتها هي التوكيد على الأهمية الكبرى لاعادة النظر في مناهج تدريس اللغة والأدب العربي ، التي تتجاهل تماماً الأصول العريقة للغات وآداب الحضارات الأولى ، التي من دونها ما كان للغة وآداب العرب أن تنبثق وتتطور وتهيمن أبداً .

ملاحق معلوماتية

خاصة بالقسم اللغوي

وعلاقة اللغة العربية باللغات السامية

أصل معاني أسماء الأبجدية العربية

«أما نحن فنقول إن الخط الكنعاني ليس إلا من صنع الكنعانيين واختراعهم وحدهم لأنه لا دليل مطلقاً على وجود أبجدية حرفية من هذا النوع عند غيرهم من الأمم .

ولا يمنع هذا احتمال أن مخترعي هذا الخط كان لهم إلمام بالخط الهيروغليفي والقلم المسماري وأنهم استعانوا ببعض صور وعلامات لهذين الخطين على اختراع خطهم الجديد .

وقد يؤيد هذا الاحتمال أن الحروف الكنعانية وإن كانت ليست صوراً فإننا نجد لمعانيها بالكنعانية علاقة بالصور كما يتضح ذلك من الجدول الآتي :

ألف : بقرة	جيمل : جَمَل .
بيت : بيت	دالت : باب
ها : شبكة حديد للشباك	نون : حوت
واو : وَتَد	سامخ : آلة يعتمد عليها كالعصا
زاين : سلاح	عين : عين
حيت : حائط	فا : فم
طيت : حنش	صادى : شبكة للصيد
يود : يد	قوف : سم الخياط
كاف : كف اليد	ريش : رأس
لمد : عصا لضرب البقر	شين : سِنٌ
ميم : ماء	تاو : علامة»

من كتاب «تاريخ اللغات السامية ـ ولفنسون ـ ص 99-100» .

الخط العربي والأبجدية، والأصل الآرامي

«سأل العرب : من أين أتانا الخط؟ وفي سؤالهم إقرار أنه ليس خطّاً أصيلاً بل مقتبساً .

والتاريخ يعلمنا حقيقة عامة : وهي أن كل سؤال عن غامض يكون الجواب عنه أساطيراً وخرافات ، فكأن المسؤول القديم كان يستنكف من أن يقول : «لست أدري» بل كان الأمر على نقيض هذا إذ يقول : «نعم أدري» ثم يروح يضع القصص والروايات تاركاً خياله للشرود .

ومن الأجوبة الطريفة عن هذا السؤال ما جاء في إحدى الأساطير من أنّ الذين علّموا العرب خطّهم كانوا أناساً هلكوا في الجاهلية القديمة منهم أبو جاد ، أو أباجد ، وهواز أو هاوِز وحاطِي وكلمان . . . الى آخره وواضح أن هذه الأسماء ليس لها مسميات ، هي ترتيب حروف الهجاء الآرامية القديمة بشكل كلمات يسهل على الصغار حفظها . فالحروف الآرامية ـ وعددها اثنان وعشرون ـ قد جمعت بحسب ترتيبها في كلمات «أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت» . وذلك بغية حفظها على هذا الترتيب ، لأنها كانت تستخدم أيضاً للأرقام قبل اقتباس الأرقام الهندية . فكانت قيمة الألف واحداً والباء اثنين الى حرف التاء وقيمته العددية ٤٠٠ . والسريان هم الذين اقتبسوا الأرقام الهندية ، وعن السريان أخذ العرب هذه الأرقام التي تعرف في الغرب بالأرقام العربية وهماً أنها من وضع العرب . أما نحن فنعطي كلّ ذي فضل حقه من الفضل ، ونسمي أرقامنا الأرقام الهندية .

ونعود الى أبجد هوز ، لنقول إن صاحب الأسطورة توهم أن أبجد هو أبو جاد وهو بشر ، وكلمن يصبح «كلمان» وله أربع بنات ، واحدة منهن شاعرة رثت أباها عند موته بقصيدة» .

من كتاب «نظريات في اللغة ـ أنيس فريحة ـ ص 89-90» .

* * *

العربية بين البداوة والحضارة

إن مشكلة أصل المفردات العربية وإرجاعها دوماً الى أصلها في الصحارى العربية يبدو أمراً خاطئاً ، لأن أصل المفردات العربية وخصوصاً الحضارية يجب إرجاعه الى اللغات السامية في العراق وسوريا . هنا رأي في هذا المجال .

«ولكن مما يؤسف له أشد الأسف أن جميع علماء اللغة من المسلمين لم يكونوا يعرفون شيئاً من اللغات السامية كالعبرية والسريانية معرفة صحيحة فنشأ عن ذلك أنهم لم يوفقوا

الى بيان المعاني الدقيقة التي يؤديها كثير من الكلمات العربية في أصل وضعها ونشأ عن ذلك أيضاً وقوعهم في أغلاط فاحشة فيما يتعلق بفهم اشتقاق الكلمات لأنه ليس من الممكن في كل الأحوال أن يهتدي الباحث الى أصل اشتقاق الكلمة اذا اقتصر في بحثه على لغة سامية واحدة . لكنه اذا وازن بين اللغات السامية التي تشترك في كلمة من الكلمات استطاع أن يهتدي بسهولة الى الحقيقة الواضحة في أصل اشتقاقها .

ونشأ من حرص العلماء على أن يجمعوا من الأعراب كل ما يمكن جمعه من الكلمات أن جاؤوا بكلمات عربية غير مألوفة عند العرب ولا متداولة بين فريق منهم وذلك لأن هؤلاء العلماء كانوا يلحون بشدة على الأعراب أن يأتون لهم بجديد من الكلمات وكان بين هؤلاء الأعراب بطبيعة الحال من هو صادق ومن هو كاذب ومن الكاذبين من كان يقصد التلفيق واختلاق الكلمات .

ولكن هذه الكلمات المختلقة لم تستطع أن تندمج في اللغة العربية اندماجاً تاماً بل بقيت غير واضحة المعنى وكثير منها ظل غير موثوق بصحة استعماله .

وكذلك نشأ من كثرة استعمال المجاز في الأدب العربي وجود كثير من الألفاظ غير واضحة المعنى ولا مفهومة الدلالة من ناحية مادتها اللغوية .

ولما حاول العلماء أن يشرحوا معناها ويوضحوا دلالتها لم يجدوا من الألفاظ ما يوصلهم الى ذلك بمعناه اللغوي الحقيقي فاستعملوا الفاظاً أخرى في معانٍ مجازية أيضاً كان من شأنه أن زادت عدد الألفاظ المبهمة المعنى فكأن هؤلاء العلماء بمحاولتهم تعليل الإبهام والغموض في المادة اللغوية قد أرادوا مضاعفته والزيادة فيه .

وقد استغل هذا النوع من الألفاظ بعض الشعراء الذين كانوا يميلون الى الإبهام والإغراب فحشوا شعرهم بالألفاظ النادرة الاستعمال أو المشكوك في صحتها» .

من كتاب «تاريخ اللغات السامية ـ ولفنسون ـ ص 217-218» .

* * *

الأصل الأكّدي لـ «الـ» التعريف

إن اللغة العربية وريثة الغنى التاريخي والحضاري للغات السامية في العراق وسوريا . وكانت اللغة الأكدية هي الرائدة الأولى والأكبر لهذه اللغات ، والتي ظلت مستعملة في

العراق والمنطقة حتى بضعة قرون قبل الميلاد حيث ورثتها اللغة الآرامية ـ السريانية . والأكدية بدورها كانت قد استوعبت كل ميراث اللغة السومرية وحضارتها . . إذن العربية وريثة جميع اللغات السامية بالاضافة الى السومرية ، وهنا مثال على صحة هذا الأمر :

«المبدء اللاهوتي لـ «ال» التعريف العربية كمبدأ فكري ونظام ذهني تطورت معه علائق الانسان بالعالم حوله لم يبق الإله «ايل» حساً متعالياً بعيداً منفصلاً عن يوميات الانسان ، بل نجده فرض تعاليه كعلاقة ذهنية ، تتجلى لنا خلال استعمال اللغة بوجه خاص . فنحن حين نستعرض طريقة التصنيف السومرية للمفردات هذه الطريقة التي لجأ اليها السومريون للتمييز بين الأشياء التي تحمل تسمياتها تجانساً في اللفظ ، حين نستعرض هذه الطريقة ، نجد «ايل» بلفظه السومري «آن» كان يعني نوعاً من الوجود المبدئي الكامن في الأشياء .

لقد كان السومريون يرفقون كل لفظة باشارة تحدد صنف مدلولها ، وذلك لكثرة الألفاظ المتجانسة لديهم وضيق لغتهم التي يغلب على ألفاظها المقطع الواحد . وبهذه الاشارة التي تكون غالباً كبادئة للكلمة كانوا يحددون صنف الكلمة ، إذا ما كانت اسماً لإله أو لشجرة أو لطائر أو لإنسان أو لمعدن ، أو لأي شيء آخر . وحيث ورث الأكاديون الذهنية السومرية بثقافتها ، ورثوا عنهم هذه الطريقة في التصنيف . وكما كانوا يضعون اشارة أرض «كي» الى جانب تسمية احد الأقطار كذلك كانوا يضعون اشارة «ال» الى جانب تسمية أحد الآلهة لتمييز وصفه .

أما الأسماء التي رافقتها صفة «ال» فقد بلغت الآلاف ، بحيث وجدت في مكتبة «أشور بانيبال» الشهيرة قائمة تضم أكثر من الفين وخمسمائة اسم إله ، بابلي الأصل . كما جمع «د . ديمل» ثلاثة آلاف وثلاثمئة اسم بلقب إله . عدد «ك . تولكفيست» ألفين وأربعمائة منها .

واذا استعرضنا امكانات اللغات السامية ، وفي رأسها الأكادية التي ورثت أسلوب التصنيف السومري هذا ، نجد أن هذه اللغات واسعة المفردات وتحمل قابلية ذاتية لخلق تسميات بطريق الاشتقاق ، أولاً ، لانتشارها وتعدد لهجاتها وخبرات أبنائها ، وثانياً ، لكون مفرداتها الأساسية ثلاثية المقاطع ، بعكس اللغة السومرية ، التي يغلب عليها المقطع الواحد للكلمة الواحدة .

وبنتيجة هذه الميزة للغات السامية راحت اللغة الأكادية تستغني عن طريقة التصنيف القديمة لعدم الحاجة لها بسبب قابليتها لتنويع اللفظ . وهو ما لم يكن في قابليات اللغة

السومرية . ولكن ما لم يحدث الاستغناء عنه هو بادئة «ال» اللاهوتية . فهذه بقيت ترافق المطلق في كل تسمية . وقد وصلتنا ، كما يبدو ، الى اللغة العربية وفق المبدأ اللاهوتي القديم فعرفناها بوظيفة «ال» التعريف للأسماء ، إذ هذه ، على تنوع استعمالاتها ، تجدها لا تزال تحمل المبادىء اللاهوتية ذاتها التي كانت تدل اليها في الذهنية القديمة .

وما يشجع على هذا الافتراض هو التأثير الأكادي الواسع الذي نلاحظه في قواعد اللغة العربية وأدواتها ومفرداتها ، بحيث نستطيع القول باطمئنان أنها الوارثة الشرعية لقواعد اللغة الأكادية ، وحركات إعرابها ، الى جانب الكثير من مفرداتها التي لا تزال حية في أسماء النباتات المختلفة المستعملة اليوم ، وغيرها من اللهجات العامية بوجه خاص .

وهكذا تكون قد سقطت بوادىء التصنيف السومرية جميعاً مع التطور اللغوي ، على أيدي الساميين ، وبقيت بادئة «ال» وحدها في اللغة العربية شاهداً على المبدأ التصنيفي اللاهوتي الذي تعامل به انسان حضارة الشرق المتوسطي الآسيوي طوال ما يقارب ثلاثة آلاف سنة .

وحين نبحث عن حلقة تصل بين «ال» اللغوية و«ال» اللاهوتية نجد معالم هذه الحلقة في البادية السورية ، المكان الطبيعي الصالح لمثل هذا التطور الذهني والتفاعل اللغوي بين الأكاديين والساميين الغربين الذين تحدر منهم العرب بسلالتهم وتراثهم الثقافي .

لقد عرف الإله «مارتو» في النصوص الأكادية بأنه إله البادية السورية وهو يدعى كذلك «رمّانو» (أي رحمان) . وهذا الإله كان يأتي اسمه غالباً مسبوقاً باشارتين لاهوتيتين ، «أل أل» أي «الاله» الذي أصبح فيما بعد «الله» بالإدغام . وهنا نفترض أن الاشارة الأولى للألوهة كانت أصبحت «أل» التعرف ، التي غدت توضع ، بعد ذلك ، قبل اشارة الألوهة الثانيةلتفييد الألوهة المطلقة . واذا استعملنا هذا التعريف قبل الاسم الثاني للإله «مارتو» أي الرحمان تصبح موافقة للترادف العربي ، «الله رحمن» ومن المعروف أن حرفي الحاء والهاء لا وجود لهما في الأكادية ، ولهذا فإن «رمانو» هو ذاته رحمان ، كما ان هناك ملاحظة هامة لا بد من ذكرها حول إله البادية هذا «مارتو» أو «امورو» . فهذا الإله يرد على الأختام مرفقاً بإله آخر ، وكأنه صفة له . فهل يعن هذا أنه كان إلهاً مطلقاً يوصف به الآخرون؟ إن افتراض كملة «الله» كصفة تعريف له تقتضي أن يكون ذلك . لأن هذه الكلمة بطبيعة تركيبها تتضمن معنى التوحد للمطلق ، إذ هي ادغام في كلمة «الاله» . .»

من كتاب «البنية الذهنية الحضارية ـ يوسف الحوراني ـ ص 173-178» .

قاموس سرياني عربي

الكلمة السريانية	معناها بالعربية	الكلمة السريانية	معناها بالعربية
قابيل	قبل	عال	على
قرو	قرأ	حاد	واحد
كتاب	كتب	تلوثو	ثلاثة
كتوبو	كتاب	أربعو	أربعة
قوم	قام	حمشو	خمسة
ايثو	أتى	شتو	ستّة
ايريث	ورث	شبعو	سبعة
يأمو	يمّ (بحر)	ثمونيو	ثمانية
فتاح	فتح	تشعو	تسعة
نهرو	نهر	عسرو	عشرة
عومقو	عمق	حد عسار	أحد عشر
ملكو	ملك	ثلوثا عسار	ثلاثة عشر
عبدو	عبد	اربعسار	أربعة عشر
جملو	جمل	عسري	عشرين
حمورو	حمار	تلوثين	ثلاثين
روعيو	راعي	أربعين	أربعين
لنحت	إلى تحت	خمشين	خمسين
عيلويو	عال	موؤو	مائة
الوهو	الله أوالِه	ألفو	ألف
روحو	روح	اينو	أنا
يومو	يوم	آت	أنت وهي تكتب
للبو	ليل		أنت بدون لفظ النون
جابورو	جبّار	هو	هو
ميثو	ميّت	هي	هي
مين	من	حنان	نحن (احنا باللهجة البدوية)

الكلمة السريانية	معناها بالعربية
آتون	أنتم وتكتب انتون
هينون	هم
آتين	أنتن تكتب انتين
هينين	هنّ
أمثلة على الألفاظ المتشابهة مع تغيير حرف واحد بين اللغتين .	
زبنو	زمن
هونو	هذا
هودي	هذه
هولين	هؤلاء
أيبين	الذين
لبيش	لبس
نفاص	نفض
كرسو	كرش (بطن)
جازو	كنز (تلفظ الجيم كالمصرية)
أجيروا	أجير
ياب (تكتب يهب)	وهب أعطى
ايخال (تكتب ايكال)	أكل
عوربو	غراب
أشوي	مهّد سوى
أوتو	أية
سباع	شبع
دخار (تكتب دكار)	ذكر
أرعو	أرض
جديشو	كدس كديس
جدام	جزم وجذم وقطع

الكلمة السريانية	معناها بالعربية
جوبو	جبّ بئر
جونو	لون
جزورتو	جزيرة
جيغلو	عجلة دولاب
جيسو	جيش
جويو	جرو
جوشمو	جسم
جاتو (تكتب جنتو)	جنّة
حرتو	آخرة
بهلو	أبله أحمق بهلول
زعرور	صغير (بالعامية أزعر)
ديبورو	دبور
ديبوروثو	نحلة (دبورة)
دا جولو	دجّال كذاب وغشاش
دوميو	دمية شبه صورة
ديوثو	محبرة ـ دواة
دروعو	ذراع
هويدين	حينئذ
هيكلو	هيكل
هيمين	آمن
هيمونوثو	إيمان
هوخانو (هوكانوا)	هكذا
وويلي	ويلي ـ الويل لي
فاحو	فخّ
دوش	داس
ليشونو	لسان ولغة

الكلمة السريانية	معناها بالعربية	الكلمة السريانية	معناها بالعربية
ليعزو	لهجة	نورو	نار
شيتستو	أساس ـ أس	خيويو	حيّة
كيفو	الصخرة ـ الكهف	حايوثو	حيوة (حياة)
سحاف	سحق	مدرشتو	مدرسة
	(بتبديل الفاء قافاً)	ميخولتو	مأكل
اتقين	أتقن أكمل أسس	مديتو (تكتب مدينتو)	مدينة
برونوشو	ابن الانسان	عامو	شعب (العامّة)
نيشي	نساء	حولو وحولتو	خال وخالة
حاجو	حج وعيد	سوبو وسوبتو	شيخ وشيخة
نوهزو	نور		(شايب وشايبة)

الألفاظ المتباعدة والتي لا تزال لها في العربية رسوبات وتعابير معينة (العربية الفصحي)

الكلمة السريانية	معناها بالعربية	الرسوبات والتعابير الباقية
سهر وسهرا	قمر	كانت السهرة في الماضي عبارة عن جلسة على ضوء القمر
سليق	صعد	تسْلق
فلح ـ فولحونو	عمل عملاً	فلاحة (حيث كانت الفلاحة هي العمل
يرخوْ يرخا	الشهر	اشتق منها أرّخ تأريخاً .
قينتو	أغنية نغم	القينة هي مغنّية لدى العرب
سوجيثو	أغنية أنشودة	شجيّ ـ شجيّة (صفة للنغم)
سودورو ـ سوادارا	عمامة منديل	سدارة
نوخرويو	غريب أجنبي	نكرة
قروبو	الحرب	الخراب

الكلمة السريانية	معناها بالعربية	الرسوبات والتعابير الباقية
ايمار	قال	أمــــر
رابو	عظيم كبير	ربّ وربة وربوة وربوبية وبي بمعنى كبر وربا يربو بمعنى زاد كثر
بيشــو	شرير	بائس بؤس بئس
عولــو	طفل	عيّل (باللهجة المصرية)
حايوبو	أثيم خاطىء	خائب
عاوولو	آثم مخطىء ظالم	عايل العاميّة
عطمو	فخذ ورك	عظم
عـطو	محى أفنى أباد	غطّى
عماط	أظلم قتم غام	غمط (حقّه)
حيوورو	أبيض	حوّر ـ حور العين
ترنو غلو	ديك	ترغلّة (باللهجة اللبنانية اليمام)
تيمنو	الجنوب	اليمن والتيمن
ايزال	ذهب مضى	زال
هوشو	الآن	هسّع باللهجة البدوية
شاري	بدأ	شرع ومنها تشرين اول اشهر السنة
سورودو	خوف رعب فزع	شرود
زبان زابين وزبونو	اشترى وباع	الزبون أو العميل في البيع والشراء
موريو مورتو	سيّد وسيدة	امرؤ وأمرأة وبالدارج (مرتو) امرأته
شتو واشتي	شرب	أشتى شتاء (بمعنى شربت الأرض)
شواح	نبت	الشوح
سوموقو سمّاقا	أحمر	السمّاق (لونه أحمر)
يرقو يرقا	أخضر	الورق الأخضر
حاجو	عيد	الحج بالعربية أصلاً معناها العيد
جبو	اختار انتخب	جبى واجتبى
زينو	سلاح	زينة (كان السلاح في الماضي بمثابة الزينة للشباب)
حفار	خجل استحيا	خفر ـ الخفر هو الخجل والحياء .

الكلمة السريانية	معناها بالعربية	الرسوبات والتعابير الباقية
سنو	كره أبغض	سنأ يشنأ شنأة
أعيق	أحزن أكرب غمْ	أغاق
نفال	سقط	النافل والنوافل (سقط المتاع)
ايشكورو	قطعة ارض	بالعاميّة (اشكاره)
لئي لايو	تعب تعب	لأي (بمعنى تعب)
عادار	ساعد	عذر وعضد
عفرو	تراب	عفّر وعفرا
عيقورو	اصل (نباتي)	عقار (دواء من الأعشاب)
نحيث	نزل انحدر	نحت (غاص في عمق القطعة من حجر أو معدن أو غيره)
شملي	تّم أكمل	الشمل
ترعو	باب	ترعة بمعنى باب وبوابة
سرهيب	أسرع هرع	سرب وانسرب وتسرّب
حوبــو	خطايا آثام	حوبــة
جمار	أكمل	غمر
حاليف	بدل غير	الحليف هو البديل أو الرديف
جايوسو	سارق ناهب تاعب	جاس يجوس جائس

الألفاظ المحرّفة أو التي اختلف تركيبها بالعربية :

الكلمة السريانية	معناها بالعربية	وجهة التحريف فيها
بحار	خبر	جاءت الخاء قبل الباء
بوركو	ركبة	جاءت الراء عوضاً عن الباء
سابار	بشّر	جاءت الباء قبل الشين
ســدار	سرد	جاءت الراء قبل الدال
سراط	سطر	تحوّلت الطاء لي مكان الراء
عام	مع	انقلبت الكلمة وانعكس الحرفان

الكلمة السريانية	معناها بالعربية	وجهة التحريف فيها
سعار	شرع	سبقت العين الراء
عاميط	عتّم	استبدلت الطاء تاء وجاءت التاء قبل الميم
فورقتو	الفقارة	سبقت القاف الراء
اشفيل	افشل	استبدل كل من الفاء والشين مكانيهما في الكلمة
شتيق	سكت	استبدل الحرفان الكاف أو القاف من جهة والسين أو الشين مكانيهما
حراع	خدع	استبدلت الراء دالاً .
بحان	امتحن	استبدلت الباء ميماً
حسام	حسن	استبدلت الميم دالاً .
قوفدو	قنفذ	أضيف إليها حرف النون
عيندو	عندليب	أضيفت اللام والياء والباء
زرنوفو	زرافة	حذفت النون
راغ	رغب	أضيفت الباء
اوحادتو	أحجية	قبلة الدال جيماً
هويدين	حينئذ	قلبت الهاء حاء وأضيفت النون
حيصرو	الخنصر	أضيفت النون
عفاق	عانق	استبدلت الفاء نوناً
عطرونو	القطران	استبدلت العين قافاً

بعض أسماء مدن وقرى وأعلام معروفين، مشتقّة عن الآرامية أو السريانية

الاسم العربي	لفظه الآرامي	معناه بالعربي
جرش	جراش	جرش
الرمثا	رمتو رمتا	العالية
الأردن	يوردنون	من ياريد فاض الماء
سرغايا	سراغ	سرّج(سراجين)
المعرّة	معرتو معرتا	المغارة

الاسم العربي	لفظه الآرامي	معناه بالعربي
معلولا	معلولو معلولا	مدخل شقّ
صيدنايا	صيدانايا	مكان الصيد
ميروبا	ميورابي ـ مايا رابا	مياه غزيرة
بقعاتا	بقعواثو ـ بقعاثا	بقاع عديدة
الحطيئة	حاطويـــو	قلبت الياء همزة (الخاطئة)
السموأل	شموئيل	صموئيل
امرؤ القيس	مورو ديقسو	صاحب الخشب (نجار أو حطّاب)
الفيجة	فاييغ	أروى الغليل (العطش)
علي	عيلويو	عال وعلي ورفيع
عامر	عومورو ـ عامورا	ساكن
عمر	عمرو اوعومرو	ساكن أو مسكن أو دير
بحيرا	باحيرا	متبحّر متعمّق
صور	صورو ـ صورا	عنق ـ رقبة
شلهوب	شلهيب	احترق عطشاً أو أشعل النار
لبيد	لبيدو ـ لبيدا	كثيف متراكم (ذو لبدة) أو كث الشعر
طرفة	طرفوا ـ طرفا	(ورقة)
النابغة	نباغ	نبغ ونبر الماء
	نباع نابوعو	نبع ـ ينبوع
الفرات	أوفرت	فرات = شقّ فتت
الفرزل	فرزلو	الحديد (أرض الحديد)
تدمر	تدمورتو تدمورتا	المعجزة ـ الأعجوبة
اليمن	تيمنو ـ تيمنا	الجنوب
أريحا	اراح	ابتعد ارتحل تنحّى
حيفا	حيفو ـ حيفا	قوة ـ شدّة ـ حدّة
رفـــح	رفوحو رفاحا	انتفاش العجين لدى التخمر
بيت الدين	بيت دينو ـ بيث دينا	المحكمة ـ قصرالعدل

الاسم العربي	لفظه الآرامي	معناه بالعربي
بعبدا	بيت عبدو ـ بيت عبدا أو	بيت العبد بيت العمل ـ مكان العمل
	بيت عبودو ـ بيت عبادا	رب المكان أو البقعة
مردوخ	موردكو ـ ماردوكا أو	رب الطهارة أو التطهير
	مروددوخيو ـ مادوخيا	ملك كيش (لعلة بالأكادية)
سركيس	شار ـ كيش	ملك كيش
برديصان	برديصون ـ بارديصان	ابن الفح
جبلة	جبيلتو ـ جبيلتا	
هابيل	هاب ايل	عطا الله ـ وهب الله
خلدة	حلاد ـ خلاد	حفر الأرض الخلد
دير الزور	دير زعورو ـ ديرا زعورا	الدير الصغير
حلب	حلفو ـ حلفا	نبات الحلفى
لجش	لاقيش	جمع الثمار أو لقط الثمار ؟
تل كلخ	قلاح	اقتلع ـ مقلع
	تيلو تيلا	التل المرتفع
لوط	ليطو	ملعون
	لوط ـ لاط	لعن
الخابور	حابورو ـ خابورا	كدس من القمح المجموع
مشغرة	شغار ـ مشغرتو مشغرتا	مكان لاضرام النار
زغرتا	زعورتو ـ زعورتا	الصغيرة
قاسيون	قشيو ـ قشيونو	قليل الوعورة ـ (قليل القسوة)
شمّوط	شوموطو ـ شمْوطا	عنقود ذرة

من مجلة «دراسات إشتراكية ـ عدد خاص 1990 ـ دراسة داؤود درويش ـ ص 38 »

قاموس عن التقارب بين اللغات السامية

عربي	اشوري بابلي	عبري كنعاني	آرامي سرياني	لغات جنوب الجزيرة والحبشة
أبٌ	أَبُو	أَب	أبا	أب
ابنٌ	بنُو	بن	بْرضا	بن
أخٌ	أَخُو	أح	أُحا	أحُو
أَخَذَ يَأخُذُ	إِخُوز	أَحَزياحز	أَحد نحُود	أَخْزَ ياخز
أَحَدٌ (واحد)	أدُو	احَاد	حَدْ	أَحَدُ
أُذُنٌ	أُزنُو	أزن	أُوْدنَا	أزْن
إثْنَتَان	شِنَا	شنَايم	تْرين	سَنِيت
أَرْضٌ	أرْصتُو	أرص	أَرْعَا أَرْقَا	أرض
أَرْبَعٌ	أَرْبَعُو	أَربَع	أرْبَع	أَرْبَع
إسْمٌ	شُومُو	شم	شْمَا	سم
أُمٌّ	أُمُّو	أم	امَا	أُمّ
أَمَة	أَمْتُو	أمَه	أَمْتَا	أَمَة
إنْسَانٌ	نِشُو	انوش	ناشا	انش
أَنْفٌ	أَبُو	أف	أبَّايَا	أَنْف
أَنْثَى	أَشْشَتُو	إِشَه	أَتتَا	أَنست
أَيِّلٌ	أَيلُو	أيَّال	أيلا	(هيّال)
بِئْرٌ	بُورُو	بور	برا	بئر
بَرْق	برقو	بَاراق	بَرْقَا	(مبرق)

عربي	اشوري بابلي	عبري كنعاني	آرامي سرياني	لغات جنوب الجزيرة والحبشة
بَعْلٌ	بِلُو	بَعَل	بَعْلا	بَعْل
بِكْرٌ	بُكْرُو	بكور	بُكْرا	بكر
بَكَى	إِبْكِي	بَكى يَبْكه	بْكَا نبْكا	بَكَا يَبكى
بِتْتٌ	بِنْتُو	بَتْ	بَرْتَا	بنت
بِنْـتٌ	بِتُو	بَيت	بَيْتَا	بيت
تِسْعٌ	تِشُو	تشْعْ	تْشَعْ	تشْعُ
ثَلاَثٌ	شَلاشو	شَلوش	تْلات	شلاّس
ثَمَانٌ	شَمَانُو	شمونه	تعمَانَا	سَمَانِى
ثُوْرٌ	شورو	شور	تَوْرا	سور
ثُومٌ	شومُو	شُوم	تُوما	سومَات
جَمَلٌ	جَملو	جَمَل	جَمْلا	جَمل
حَبْلٌ	أَبْلُو	حبل	حَبْلاَ	حَبْل
حَفَرَ يَحْفر	حَفر	حَفَر يَحْفُر	حْفَ	حفر
حَقْلٌ	أَقْلُوا	حلق	حَقْلاَ	حَقْل
حَمٌ	أَمُو	حام	حمْاَ	حَم
حِمَارٌ	إِمُو	حَمُور	حْمَارا	حمار
خَبَلَ	خبل	حَبَل يحْبل	حْبَل	خَبَل
خَمْسٌ (٥)	خَشُو	حَمْش	حَمْشَا	خَمْس
خِنْزِيرٌ	خُمْسُرُ	حَزِير	حْزيرا	خَنْزير
دُبْس	دِشْپُو	دْبَاش	دْبْشَا	دبس

عـربــي	اشــوري بـابـلـي	عـبـري كنعـانـي	آرامــي ســريـانـي	لغات جنوب الجزيرة والحبشة
دَمٌ	دَمُو	دَم	دْمَا	دم
ذِئْبٌ	زِيبُو	زْاب	دابَا	زاب
ذُبَابٌ	زُبُّو	زبوب	دَيُّوبَا	ذبب
ذَكَرَ	زَكُو	زَكَر	زَكْرَا	ذكر
ذَنَبٌ	زِبَّاتُو	زَانَاب	دُونْبَا	زناب
رَأسٌ	رَشُو	رُوش	رِيشَا	راس
رَحِمَ	إِرِم	رَحم	رْحِم (أَحَبَ)	رحم
رَحَضَ	رحص	رَحَص	رحص	َحَضَ
رَكِبَ	ركب	رَكَب	رْكَب	ركب
زَرْعٌ	زِرُو	زرَع	زَرْعَا	زَرْع
سَبْعٌ (٧)	سِبُو	شَبْع	شْبَع	شَبْعُو
ستٌ (٦)	شِشو	شِش	شْتَا	سِسُو
سُكْر	شِكَرُو	شِكَر	شَكْرَا	سكَر
سَلِمَ : سَلاَم	شَلَمُو	شَلم شَلوم	شْلَمَا شلم	سلم : سلام
سِنٌّ	شِنُو	شِن	شِنَا	سن
سُنْبُلَةٌ	شو بُلْتُو	شِبلت	شَبلْتَا	سَبْل
سَأَلَ يَسْأَلُ	إِشَأَل	شَأَل يِشْأَل	شْأَل	سال
سَمَاءٌ	شَمُو	شَمَايِم	شْمَايا	سمَاى
شَمْسٌ	شَمْشُو	شمش	شِمْشَا	شمس
شَعْرٌ	شَرْتُو	سعار	سَعْرا	سَعرْتْ

عـربـي	اشـوري بـابلـي	عـبري كنعـانـي	آرامـي سـريـانـي	لغات جنوب الجزيرة والحبشة
صَرَخَ	صرخ	صَرَح	صْرَح	صرخ
ضَرَّةٌ	صرّتو	صَاراه	عَرّتَا	ضر
طَحَنَ يَطْحَنُ	إطن	طَحَنَ يطحَن	طحن نَطْحن	طحن
طَعْمٌ	طمو (عقل)	طَعَم	طَعْما	طَعْم
طَيِّبٌ	طَبو	طوب	طَبَا	طْيب
ظُفر	صِپْرُو	صِپرن	طفْرَا	ظفر
ظِل	صِلُّو	صل	طُلاًّ	(صلّلوت)
عشر (١٠)	عَشْرو	عسر	عْسَرْ	عَشْرُو
عُضٌ : عَصَا	عِصُو	عص	أَعَا	غد
عَظْم	عصمْتُو	عصم	عَطْمَا	عَضْم
عقرب	عَقْربو	عَقْرَب	عقربا	عَقْرَب
على	الى	عَل	عَل	على
عمود	إمْدو	عَمُود	عَمُودَا	عَمَد
عِنَب	إنْبُو (كرم)	عنَب	عنْبْتَا	عنب (سبئى)
عين	أنُو	عينِ	عَينَا	عَين
فَتَحَ	إبت	فتح يفْتَح	فْتَح	فَتح
فتل يفتل	ڤتل	ڤتل يفتل	ڤْتَل	فتل
فم	پُو	په	پُومَا	أَفْ
قُرب يَقْرب	قرب	قرب يِقْرب	ڤْرب	قرب

عــربــي	اشــوري بـابـلـي	عـبري كنعـانـي	آرامـي سـريـانـي	لغات جنوب الجزيرة والحبشة
قَرْن	قَرْنُو	قرن	قَرْنَا	قَرْن
قمح	قمُو	قَمح (دقيق)	قَمْحَا (دقيق)	قَمْح (فاكهة)
قوس	قَشْتُو	قشت	قَشْتَا	قَشت
كبد	كبتُو	كَابد	كَبْدَا	كَبد
كرش	كَرْشُو	كرس	كَرْسَا	كَرْش
كلب	كَلعبُو	كلب	كَلبَا	كَلْب
كوكب	كا كبُو	كوكَب	كَوكْبَا	كوكَب
كلية	كَلِتُو	كِلْيَه	كِلْتا	كُلت
كل	كلُلاَتُو	كل	كُل	كل
كما	كِما : كِ	كما : كَ	كَ كْما	كَمَا
لب (قلب)	لِبُّو	لب	لبًا	لبه
لَبِس	لبش	لَبَش يلبش	لبش	لبس
لسان	لشَانو	لَشون	لشَنَا	لسَان
لهب	لاَبو	لَهب	شلَهب	لَهْب
ليل	لِيلَتُو	لَيْلَه لَيلِ	لليَا	ليله
ماء	مُو	مايم	مَايَا	مَاى
مائة	مأتُو	مأه	مَا ا	ما أت
متى	مَتيِ	مَتَى	أمَتْ	مت (ى)
مثل	مِشْل	مَشَل	مثل مَتْلاَ	مسل

عربي	اشوري بابلي	عبري كنعاني	آرامي سرياني	لغات جنوب
مر	مَرُّو	مَر	مَرْ نَمر (فعل)	مَرًّا نمرًا
ملك	مَلْكُو	ملك	مَلْكَا	ملكى (سيد)
موت	مُوتُو	مَوت	مَوْتَا	موت
نسر	نِشْـرُو	نشر	نشْرَا	نشْرْ
نَفَخَ يَنْفُخ	نفَح	نَفَح ينْفَح	نفَح	نفخ
نفس	نَپِشْتُو	نفش	نَفْشَا	نَفْس
نمر	نِمْرُو	نَمر	نمْرَا	نَمر
و . حرف عطف	و	و u	و u	و
وَدَّ يوَدّ	ودّ	يَدَد	يدٌ	وُدٌّ
ورق	وَرْقُو	يرق يرَق	يَرْقا	وَرق (الذهب)
وقر . وقار	وَقْرُو	يَقَر	إيقَر نيقر	وَقر
وَلَدَ يَلد	وُلد	يَلَدَ يلد	إيلدْ نيلد	وَلَد يلَد
يد	إدُو	يَدْ	إيدَا	أَدْ
يمين . ناحية	إمْنُو	يَمين	يَمينَا	يَمَنْ
يوم	أمْنُو	يوم	يَومَا	يوم

من كتاب « تأريخ اللغات السامية ـ أ . ولفنسون (أبو ذؤيب) ـ ص 283 - 294 »

اللغة المندائية (الصابئية) واصلها الآرامي

هذا جدول يكشف عن مدى التقارب بين اللغتين العربية والسريانية . أما بالنسبة للغة (المندائية) فأنها لغة الصابئة في جنوب العراق والاحواز . والمندائية هذه لغة آرامية ولكن بلهجة خاصة متميزة عن السريانية . ان آرامية اللغة المندائية تثبت ان لغة اصل الجنوب كانت الآرامية ولكنها ذابت في اللغة العربية مع انتشار الاسلام والتعريب ، وقد حافظ الصابئة على لغتهم الآرامية بسبب محافظتهم على دينهم الجامع بين عبادة النجوم البابلية والروحانية العرفانية القريبة من المسيحية :

السرياني	المندائي	التفسير بالعربي
إليا	الا	معناها : مرتفع معناها المكان العالي بالعربية ايضا نلفظها حاليا عليا .
آلاها	آلاها	معناها : الله بالعربية ايضا .
أطفا	اطف	معناها : العطف والعاطفة بالعربية ايضا .
أيّا	ايا	معناها : هذه او هذه هي للمؤنث بقراءة الياء مشددة (ايا جارة لو تسمعيني) معناها هذه هي الجارة التي بودي ان تسمع .
الما	الما	معناها : الكرة الارضية وكل ما فيها من الاجناس ومنها عالم بالعربية .
اليها	الف	معناها : المتعلم وخاصة الذي يسْتطيع قراءة حرف الالف .
امّا	اما	ومنها العمة بالعربية ايضا . ومعناها : المرأة الكبيرة في البيت .
امّو	امو	ومنها العم بالعربية ايضا ومعناها : الرجل الكبير او سيد البيت .
آمين	امين	معناها : استجب الدعاء مثل ما تقول . امين يا رب وتطلق على الانسان الطيب او المخلص في عمله .
أمَرَ	امر	معناها : اوعز او اصدار امر واصدر اوامره (امير) .
أمر	امر	معناها : السنوات التي يعيشها الانسان الانسان ومنها العمر بالعربية ايضا .
اناشا	اناشا	معناها : هذا انسان ولما نقول ناشي نعني الناس او مجموعة من الناس والاخيرة من اصل الاولى .
ناشوثا	ناشوثا	هي صفة الانسان وكل ما يتعلق بها من افضائل كالمحبة والاخلاص او نحوها .
أمثا	أنتا	ومنها امة بالعربية ايضا جميعا مصفحة من كلمة الأم التي تنجب المجتمع .
انا	أنا	ومنها انا بالعربية ضمير المتكلم .

السرياني	المندائي	التفسير بالعربي
انا	انا	هذه الكلمة تعني العناية او عني بالشيء . نلفظها حاليا عون اي مساعدة او نحوها .
ادمّا	آدم	معناها : آدم ابو البشرية هذه اللفظة جاءت مركبة في الميثولوجية الأشورية من أ + دمْ ومعناها هذا هو الدم الذي مزج مع التراب ليصير انسان عن طريق قوة الخلق والذي هو واجب الوجود .
بخ	اها	معناها : الاخ بالعربية ايضا ولما تقول اخوني معناها هذا اخي ، وفي المندائية يستبدل حرف الخاء ، بالهاء مثل اهوني وكذلك حرف الحاء ايا مثل اهب .
بخ	اها	وجمعها في المندائية هو آهي معناها اخوان والاصح هو اخ واخوني واخواثا ومنها اخ واخي واخوان بالعربية .
اصبا	اصبا	معناها : اصبع ايضا هذه الكلمة اشتقت من حالة الاصطفاف الطبيعية في اليد والرجال مثلما نقول بالاشورية اصيبا معناها هذا متسلسل او متراصف او نحوها .
ابثر	اباثر	معناها : يتبع او متسلسل ومنها لفظة باثر بالعربية .
ابدْ	ابد	معناها : الى الابد او ابد الآبدين او نحوها والاخيرة من نفس الاصل .
أبَدَ	أبَدَ	معناها : عبد او العبادة بالعربية ايضا ، ولأن الآشورية والمندائية القديمة خالية من حرف العين لفظت أبد بدلا من عبد .
سارا	سرا	معناها : القمر تلفظ حاليا سهرا .
اسوثا	اسوثا	معناها : الحرية ، الصحة السعادة ، نلفظها جاليا ازوثا ونعني بها صفة للأنسان الذي يتمتع بالصحة والسعادة او نحوها .
اربايا	اربايا	معناها : عربي للمفرد والجمع هو ارباي بالآشورية والمندائية .
اصرا	اسرا	معناها : رقم عشرة وكما هو بالعربية ايضا .

من مجلة «حويودا ـ حزيران ، 199 ـ ص 35 السويد»

ترجمة تراثنا العربي الى العربية

● لا . . ليس ثمة خطأ في العنوان لتوضيح المسألة ، يمكن ايراد أمثلة لشعوب قد عاشت من قبلنا نفس الاشكالية وتخطتها بحل سهل جداً لكنه يتطلب الكثير من الجرأة والشجاعة . منذ قرن واليوناني لا يقرأ أرسطو وأفلاطون والالياذة وجميع تراثه الاغريقي ، إلا وهو مترجم من الاغريقية القديمة الى الاغريقية الحديثة . والايطالي ، منذ أربعة قرون يفعل ذلك مع تراثه المكتوب باللاتينية . والفرنسي ترجم أيضاً تراثه المكتوب بفرنسية القرن العاشر والهندي والصيني فعلا نفس الشيء ، وفعلت هذا عدة شعوب في الشرق والغرب عندما عانت من تطور لغتها الأصلية وصعوبة التعامل مع نصوص لغة الأسلاف .

صحيح أن الفرق بين العربية الحديثة والعربية القديمة ليس بالكبير بحيث يسمح لنا بالحديث عن لغتين مختلفتين ، لأنه لم يؤد الى اختلاف قواعد الاعراب وبنية اللغة المتعارف عليها ، لكنه اختلاف كبير في الأسلوب وقواعد البلاغة . بالاضافة الى التغير الشاسع في معاني الكلمات والغاء جزء كبير من مفردات القاموس واستحداث ما لا يحصى من الأسماء والأفعال والمصطلحات والتعابير ، مع اشكال جديدة من الجمل بسبب حرية التلاعب بمكان الفاعل والفعل والمفعول به في اللغة المعاصرة .

لو افترضنا أن الجاحظ أو ابن عربي أو أياً من مثقفي العصور السابقة ، وجد يوماً جريدة عربية صادرة في أيامنا هذه . يا ترى هل سيتمكن من فهم واستيعاب مقالاتها ؟ قد يفهم المعنى العام ، لكنه يقيناً سوف يعاني من صعوبة وملل في التعامل مع تلك النصوص المختلفة عن لغة عصره . سوف يجهد ويلجأ كثيراً الى قواميس المنجد والوافي وأخرى متخصصة في الصحافة والاعلام والعلوم الحديثة . . كل هذا من أجل استيعاب نص صحافي يفهمه أي طالب عربي معاصر متوسط الثقافة .

وهذه هي ذات الاشكالية التي نعيشها نحن أبناء اللغة العربية الحديثة . يمكنني إيراد مثال تجربتي الشخصية . فأنا ثقافتي عربية ، والعربية هي لغتي الأم ، وتعلمت القرآن في المدرسة والعائلة . لكني مع كل هذا ، ما تمكنت حتى الآن من قراءة نصوص التراث والتمتع بانسيابيتها وسهولتها . . بل اني فوجئت بفهمي الأفضل لنصوص تراثية عربية بعد قراءتها مترجمة الى اللغة الفرنسية ، رغم أني لم أدرس هذه اللغة إلا منذ سنوات !

كنت في البدء أعتقد أن الاشكالية شخصية وفردية ، مع الزمن ومن خلال اطلاعي المباشر على حال المثقفين العرب وعلاقتهم مع نصوص التراث ، اكتشفت أن الغالبية العظمى يعانون من نفس الصعوبة . والطريف أن الجميع يساهمون بشكل أو آخر بعدم التطرق الى هذه الحقيقة المُرّة ، بل وتجنبها من خلال حفظ بعض الآيات القرآنية وأبيات من المعلقات والمتنبي والمعري ثم ترديد الأسماء التاريخية المعروفة مثل فلان وابن فلان وأبو فلان ؛ دون التمكن من إقامة علاقة طبيعية مع هذه النصوص .

الناطق بالعربية ، إن كان طالباً أو عاملاً أو مثقفاً ، لا يستطيع أن يقرأ بنفسه أبو حنيفة أو الشافعي أو جعفر الصادق وباقي رموز الثقافة العربية والاسلامية ، بل يحتاج دائماً الى تلك النخبة من المثقفين والمتدينين ليكونوا وسطاء بينه وبين ميراث إيمانه ومعتقداته . ولو كانت هذه النصوص مكتوبة بلغة حديثة ومفهومة لما احتاج القارىء لهؤلاء الفقهاء ، أو على الأقل لكان امتلك حرية وقدرة أكثر في محاورة واغناء وتطوير ما يطرحه هؤلاء الوسطاء ، والتخلص من الايمان الضيق والحرفي بما يقولونه .

وهذا الواقع الاشكالي ساعد على خلق هوة عميقة بين المثقف العربي والثقافة الموروثة ، وبالتالي فرض حالة من الانفصام في العقل العربي برمته ، وعُمّق الهوة التاريخية بين ما يسمى بالثقافة المعاصرة والثقافة التراثية ، وخير تمثيل لهذه الحالة هو الفصل العقلي الثقافي والسياسي ما بين المثقف العصري ذي اللغة المعاصرة ، والمثقف التراثي المتضلع بفك رموز لغة الأسلاف .

أمر طبيعي وواقعي أن يكون هناك تعارض بين اتجاهين حداثي تغييري وسلفي محافظ ، فهذا أمر تفرضه سنة الحياة في كل أمة وعصر . لكن الحاصل لدينا نحن الناطقين بالعربية ، ان الشقة بين هذين الاتجاهين متطرفة جداً بعمقها وشدتها وكأنها بين ثقافتين لشعبين متناحرين ومنفصلين زماناً ومكاناً .

المثقف العصري لم يتعرف على نصوص التراث الدينية والأدبية والعلمية إلا بصورة محدودة جداً ومتقطعة وغالباً ما تكون من خلال المدرسة والمقتطفات التراثية المنشورة في الصحافة . بينما نجد من الطبيعي جداً أن معظمنا قد قرأ التراث الأدبي الأوربي واليوناني والأمريكي والصيني ربما وحتى الهندي ، وكل هذا من خلال الكتب المترجمة ، لأننا نستوعب ونتمتع بكتاب لفيلسوف غربي مترجم الى العربية الحديثة ، لكننا نواجه صعوبة في الانسجام مع كتاب تراثي مثل رحلة ابن بطوطة أو مقامات الهمذاني ، رغم جفاف لغة

الفلسفة وخفة وطرافة وغنى حكايات ابن بطوطة والهمذاني !

وعلى الطرف الأقصى الآخر ، نجد مثقفنا السلفي المتضلع بلغة التراث والفقه والدين وعلم الكلام ، في معظم الأحيان ، يعيش حالة انقطاع شبه تام عن الثقافة المعاصرة . بسبب انقطاعه عن اللغة المعاصرة وانكبابه على نصوص مكتوبة بلغة تختلف عن لغة عصره . وغالباً ما يشعر في أعماقه ، هذا المتفقه ، بأجنبية النصوص الحديثة وتبعيتها للغة «مشوهة» وبعيدة ومنفصلة عن لغة التراث المقدسة !

ان الانقطاع اللغوي عن التراث أدى الى توتر كبير في علاقة العربي مع ميراثه العقلي واماضيه الروحي والديني ، ويبدو الأمر وكأنه قد جرت عملية طلاق غير معلنة بين اتجاهي العقل العربي : المثقف المعاصر له الحاضر ، والمثقف التراثي له الماضي ، وبموجب هذه الاتفاقية قد صار التاريخ بأجمعه والتراث الديني وما يتعلق بالتقاليد والطقوس الروحية حكراً خاصاً للمتضلعين بفقه اللغة والدين . والنتيجة ، فقدت الثقافة المعاصرة أصالتها وعمقها الروحي التاريخي ، وفقدت الثقافة الدينية التراثية قدرتها على التجدد والاجتهاد واكتساب علوم العصر .

صحيح ان هنالك نصوصاً تراثية مفهومة جداً ، مثل نص ألف ليلة وليلة المكتوب بلغة مبسطة ومنفتحة أقرب الى اللغة المعاصرة . لكن عموماً . ان غالبية النصوص التراثية تتراوح مستوياتها بين الغموض المطلق والغرابة العصية على الفهم . يمكننا إيراد مثال نموذجي للمستوى الشائع ، وهو نص معروف لـ (ابن حزم الأندلسي) في «طوق الحمامة» (ص ٩٧) .

باب من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها

«واعلم أعزّك الله أن للحُب حكماً على النفوس ماضياً ، وسلطاناً ، وأمراً لا يخالف ، وحدّاً لا يعصى ، وملكاً لا يتعدّى ، وطاعة لا تُصرف ، ونَفاذاً لا يرد ، وأنه ينقض المِرَر ، ويَحُلّ المُبرم ، ويُحلّل الجامد ، ويخل الثابت ، ويحلّ الشغاف ، ويُحِلّ الممنوع ، ولقد شاهدت كثيراً من الناس لا يتهمون في تمييزهم ، ولا يخاف عليهم سقوط في معرفتهم ، ولا اختلال بحُسن اختيارهم ، ولا تقصير في حَدْسهم ، قد وصفوا أحباباً لهم في بعض صفاتهم بما ليس بمُستحسن عند الناس ولا يرضى في الجمال ، فصارت هجيراهم ، وعُرضة لأهوائهم ، ومنتهى استحسانهم ثم مضى أولئك إمّا بسلوّ أو بَيْن . أو هجر أو بعض عوارض الحب ، وما فارقهم استحسان تلك الصفات ولا بان عنهم» .

أغلبنا يتفق بوجود صعوبة لفهم واستيعاب هذا النص ، بالاضافة الى فقدان الانسيابية المفترضة . علماً أن هذا ليس بنص فلسفي ولا صوفي انما وصفي ، بين السرد القصصي والتحليل الواقعي ، ولا يحتوي على مفردات مجازية أو شعرية .

هنا أسجل محاولة لترجمة هذا النص الى العربية المعاصرة . أؤكد أنها محاولة ليس أكثر ، لأني لست متخصصاً ، ولم أبذل جهداً كبيراً في استخدام القواميس والبحث والتقصي . إني أطرح المحاولة كما هي وبكل تلقائية وصدق ، لاعطاء مثال على اشكالية القراءة والترجمة . لقد تركت بعض العبارات بين هلالين ، وهي التي لم أفهمها معنى أو بلاغة . أما الكلمات التي تحتها خط ، فهي إما قد تم تغييرها أو إضافتها أو حذف بعضها :

« باب من أحب صفة فلا يستحسن ما يخالفها

واعلم ، أعزك الله ، أن للحب تأثيراً كبيراً على النفوس ، وسلطاناً جبارا ، وهيمنة لا تخالف وقانوناً لا يعصى ، وسيطرة غير محدودة ، وخضوعاً غير منته ، ونفوذاً لا يرتد ، والحب كذلك ، (ينقض المرر ؟) ، ويفتح المعقود ، ويذوب الجامد ، ويخلل الثابت ، (ويحل الشغاف؟) ، ويسمح بالممنوع . ولقد شاهدت كثيراً من الناس لا يُشك في نباهتهم ، ولا يخاف عليهم من ضعف معرفتهم ، ولا اختلال بحسن اختيارهم ، ولا تقصير في حدسهم ، أقول ان هؤلاء قد وصفوا أحباباً لهم بطريقة غير مستحسنة عند الناس ولا تتفق مع الجمال ، (فصارت هجيراهم ، وعرضة لأهوائهم ، ومنتهى احسانهم؟» ، ثم رحل أولئك إما عن نسيان أو موت أو هجر أو بعض حوادث الحب . . » .

الناظر للتاريخ الثقافي للعالم العربي يجد أننا نعيش عدة أشكال أو مستويات من القطيعة الثقافية الروحية ، منها القطيعة التاريخية مع التراث السابق للاسلام ، وكذلك القطيعة مع الواقع التحديثي السريع والمفروض من الخارج . اما القطيعة التي تعنينا في هذا الموضوع هي القطيعة مع التراث العربي الاسلامي .

القطيعة عن التراث العربي ـ الاسلامي ، بسبب توقف التواصل الحضاري المعرفي والمادي خلال قرون ما يسمى بالفترة المظلمة ، حيث القطيعة الروحية والمادية بين الانسان الناطق بالعربية وإرثه المادي والروحي . وهذا الانقطاع هو الأدنى مسافة والأقوى تأثيراً والأعمق جراحاً ، بسبب قربه وحضوره الثقافي والديني واليومي الواعي . حالة الفصل هذه

ساعدت على خلق الغرابة والغموض حول ذلك التراث وتبرير قدسيته واضفاء اللاهوتية على من يتعامل معه .

يمكن الاعتقاد مثلاً ، ان هذه الاشكالية تأخذ طابعاً مختلفاً لدى شعوب قريبة لنا مثل الأتراك والأيرانيين والباكستانيين . لهؤلاء علاقة مع النص الاسلامي مختلفة عنا لأنهم مجبرون على الاطلاع على التراث بلغاتهم الوطنية المعتادة ، وخصوصاً بعد خطوة الأتراك ، أوائل القرن ، في ترجمة النصوص الدينية العربية وما أعقبها من تطورات ثقافية وسياسية . ولعل ما يميز اشكالية هذه الشعوب هو الأحساس بالأسف وتوتر الهوية القومية بسبب اضطرارهم للاعتماد على تراث ديني مكتوب بلغة اسمها العربية وهي مختلفة تماماً عن لغات شعوبهم . وهذه الاشكالية طالما عبر عنها المثقفون القوميون في تركيا وإيران .

المختصون بالتراث يتحدثون عن وجود ثلاثة ملايين مخطوط عربي واسلامي مبعثرة في أنحاء العالم ، ولم يطبع منها حتى الآن غير ٥٪ . وفي هذه الملايين من المخطوطات يكمن ماضينا وتاريخنا وديننا وتراثنا المعرفي بأكمله .

يخطىء من يتصور أن الزمن كفيل بحل مشكلة علاقتنا مع لغة التراث ، لأن التطور الثقافي واللغوي لا يؤدي كما يعتقد هؤلاء الى تقليل الهوة بين لغة التراث ولغة العصر ، العكس هو الحاصل ، فالمشكلة تتعقد أكثر فأكثر بمرور الزمن ، لأن المسافة تنأى مع الأعوام بين هاتين اللغتين ، لغة التراث باقية كما هي محفوظة في الكتب ، بينما لغة العصر تتطور مع الحياة وتبتعد أكثر فأكثر عن لغة تلك العصور .

يتوجب أيضاً التأكيد أن الدعوة الى ترجمة التراث ليست ضد التراث أبداً ، بل العكس ، انها دعوة لجعل النصوص التراثية بمتناول الأغلبية الساحقة من القارئين والناطقين بالعربية . وهذا أمر سيجعل من التراث ثقافة شائعة وسهلة القراءة والاطلاع ، وبالتالي طمر الهوة اللغوية والروحية بين التراث وأبناء العصر . ثم يجب التذكير أن ترجمة النصوص التراثية الى العربية الحديثة سوف لن يضاهي بجرأته ترجمة هذه النصوص الى اللغات الفارسية والتركية والأوردية وغيرها من لغات الشعوب الاسلامية .

ان دعوتنا هذه محاولة لاعادة الشباب الى اللغة العربية ونصوص التراث . اننا أشبه بمن يبتغي اخراج كنوز وثياب فاخرة من صناديق عتيقة ، ويلبسها لحسناء فاتنة وفقيرة أضاع منها الزمان ميراث أسلافها الاثرياء .

المانوية حلقة مفقودة من تاريخنا

■ قبل البدء في موضوع المانوية نشير إلى أن فضل اكتشاف هذا الموضوع يعود أولاً لي الكاتب اللبناني باللغة الفرنسية «أمين معلوف» ، من خلال رائعته الروائية (جنائن النور - Les jardins de lumiere) التي سرد عبرها حياة النبي «ماني البابلي» ، التي صدرت مترجمة على دار الفارابي بعنوان «حدائق النور» .

تعتبر (المانوية) واحدة من أبرز الأمثلة على التغريب والتشويه اللذين تمت بهما كتابة تاريخ المنطقة العربية ، خصوصاً بالنسبة إلى الحقبة «الآرامية السريانية» التي وحدت ثقافياً ولغوياً العراق والشام (بلاد الهلال الخصيب) خلال الألف عام التي سبقت الفتح العربي الإسلامي . ومن المثير للعجب إتفاق جميع المؤرخين العرب والأجانب على اعتبار «المانوية» ديناً آزياً فارسياً ، رغم جميع الشواهد التي تدحض تماماً مثل هذا الرأي ، وتبين بصورة قاطعة أن هذا الدين عراقي الموطن ، مؤسسة رجل بابلي ، واللغة التي نطق وكتب بها هي السريانية ، لغة أهل العراق والشام خلال عدة قرون قبل الفتح العربي ، والتراث الديني الذي نهل منه هو التراث السامي : البابلي العرفاني المسيحي .

يبدو أن السبب الأول لهذا التشويه التاريخي مرتبط بالفكرة الخاطئة التي تعتبر أجنبياً ، كل تراث الحقبة التي سبقت الفتح العربي الإسلامي . فهو تراث فارسي فيما يخص العراق ، وإغريقي روماني فيما يخص الشام ومصر وشمال أفريقيا . لأنه خلال هذه الحقبة كانت المنطقة خاضعة للسيطرة الفارسية بالنسبةإلى العراق ، والإغريقية الرومانية بالنسبة إلى باقي المنطقة . إن التشويه الذي تعرض له تاريخ (المانوية) مثال ساطع على التجاهل والتشويه الشاملين اللذين تعرضت لهما جميع تفاصيل التراث السابق للفتح العربي : التراث العرفاني (الغنوصي) واليهودي والمسيحي والصابئي والمانوي والهرمزي ، كذلك جميع الابداعات الثقافية واللغوية والحضارية في مجالات الفنون والعلوم والفلسفة واللغات والآداب السريانية والقبطية . إذ تم احتساب تراث هذه الحقبة على تراث الدول التي كانت مسيطرة على المنطقة .

بعد سقوط بابل في (٥٣٩) قبل الميلاد على يد الفرس الأخمينيين بسط الإيرانيون نفوذهم على بلاد الرافدين حتى القرن السابع ، أي ما يقرب من ١١ قرناً . تخلل هذه الحقبة

ثورات وتمردات فاشلة قام بها العراقيون ، بالإضافة إلى حروب طاحنة بين الإيرانيين من جهة والاغريق والرومان من جهة ثانية للسيطرة على العراق . وقد تمكن الإغريق والرومان من انتزاع العراق من الفرس عدة مرات وفرض سيطرتهم عليه مدة عقود وقرون متقطعة ، لينتزعه الفرس منهم من جديد . وهذه الحقبة تشبه إلى حد بعيد الحقبة التي أعقبت سقوط الدولة العباسية ونشوب الصراع بين الأتراك والفرس للسيطرة على العراق .

ظروف نشوء المانوية

خلال هذه القرون الطويلة تمكن أهل الرافدين من الحفاظ على هويتهم السكانية والثقافية والدينية المتميزة عن إيران . وظل الإنتماء السامي هو السائد وظلت اللغة الارامية أولاً ثم فرعها السرياني منتشرين بين العراقيين ، بل ان العراقيين فرضوا لغتهم السريانية لتكون لغة الثقافة الأولى في الامبراطورية الإيرانية نفسها بحيث فضلت اللغة الفارسية (البهلوية) استعمال الأبجدية السريانية ، والتخلي عن نظام الكتابة المسمارية الذي سبق أن اقتبسوه أيضاً من أهل الرافدين . ثم إن العراقيين ظلوا بعيدين عن الإيمان بالدين الزرادشتي الذي كان الدين القومي والرسمي للايرانيين . حافظ العراقيون على ديانتهم السامية - البابلية الموروثة والقائمة على عبادة الآلهة الممثلة للكواكب وقوى الطبيعة والمنقسمة عموما إلى ثنائية قوى الخير والنور وقوى الشر والظلام . علماً أن هذه الثنائية البابلية هي التي أثرت في الإيرانيين وديانتهم الزرادشتية ، وليس العكس كما توهم عادة المؤرخون . كان هناك أيضاً تواجد مهم لطوائف يهودية نشطة في أنحاء الرافدين ، منذ جلبهم من فلسطين على يد الكلدانيين . ومع انبثاق المسيحية في بلاد الشام في القرن الأول الميلادي ، بدأت بالتدريج تتسرب إلى العراق من القسم الشمالي (الرها ونصيبين)ثم نينوى وكرخاسلوخ (الاسم السرياني لكركوك الحالية) حتى ولاية بابل ومنها إلى ولاية ميسان في الجنوب (وكانت تشمل كذلك البصرة والأهواز) . وكانت هذه المسيحية مصحوبة بتيارات عرفانية غنوصية وهرمزية صوفية ، قادمة من الشام ومصر ، مع بعض التأثيرات الإغريقية . وبدأت تتشكل طوائف مسيحية عدة في شمال ووسط بلاد الرافدين ، بالإضافة إلى الصابئة في الجنوب الذين مزجوا المسيحية بالعرفانية مع أصول الدين البابلي .

ديانة عراقية ؟

في مثل تلك الظروف السائدة في العراق في القرن الثالث الميلادي نشأ الدين المانوي ،

حيث اشتق من اسم رجل بابلي أعلن النبوة يدعى (ماني) . جميع المصادر التاريخية فارسية وعربية وغربية تتفق على القصة التالية لسيرة هذا النبي : « ولد ماني عام ٢١٦ ميلادي في إحدى قرى ولاية بابل وكان دينه بابلي (وثني) ، وفي سن الرابعة رحل به أبوه إلى إحدى قرى ولاية ميسان في جنوب العراق . هناك نشأ (ماني) على الدين الصابئي . وفي سن الشباب أخذ (ماني) يتنقل في أنحاء الرافدين واستقر في بابل . أعلن (ماني) نبوته وتكوينه للدين (المانوي) الذي انتشر خلال أقل من قرن من الصين حتى أسبانيا وبلاد الغال . . .» (لمزيد من التفاصيل راجع الموسوعة الكونية الفرنسية - جزء ١١ - ص ٦٤٦) .

لكن مشكلة تحديد هوية هذا الدين وصانعة (ماني) ، تبدأ عند الحديث عن الشعب والحضارة اللذين ينتمي إليهما . بكل بساطة تم اعتباره إيرانياً فارسياً لأنه ظهر في بلاد الرافدين بينما كانت تابعة للأمبراطورية الايرانية . مثلما تم اعتبار المسيح وتراث المسيحية جزءاً من تاريخ روما ، لأن المسيحية نشأت في الشام في ظل السيطرة الرومانية !

جميع تفاصيل تاريخ المانوية تثبت بلا جدال عراقية هذا الدين وعلاقته المباشرة بما سبق وبما لحق من تاريخ العراق الفكري والديني حتى نهاية العصر العباسي . ويمكن تقديم المبررات التالية للبرهان علي هذه الحقيقة :

١ - ثمة تبرير عرقي فارسي طالما تمسك به المؤرخون الإيرانيون والعرب والأجانب قائم عل الشك بأن النبي (ماني) ربما يعود بأصوله من ناحية أمه أو أبيه الى الفرس وبالذات إلى العائلة الملكية الأخمينية . لكن جميع الشواهد التاريخية تثبت أن هذا النبي ينتمي عرقياً بصورة أكيدة الى سكان العراق . قد يمكن الافتراض أن أمه فارسية ، لكن بعض المصادر تذكر ان اسمها «مريم» . أما أبوه فلا يمكن أن يكون فارسياً ، وذلك لعدة أسباب : أن اسمه (فاتك) ، وهذا الاسم لا يمكن أن يكون فارسياً لأنه اسم سامي عراقي ، (من فعل فَتَكَ) ومستخدم حتى الآن في العراق . ثم إن اسم (ماني) هو أيضاً ليس اسماً فارسياً ، إنما هو اسم سامي كذلك ، لفظه العربي (أماني) وهو من (التمني) (راجع معجم الأسماء العربية - موسوعة السلطان قابوس) . واللقب الذي كان يعرف به هذا النبي هو (ماني حيا) أي (ماني الحي) ، ومنه أتى المصطلح اللاتيني لهذا الدين (Manicheisme) أي (ماني - حيا - سيم) .

٢ - إن الزرادشتية كانت الدين القومي لجميع الإيرانيين ، بينما عائلة (ماني) مثل باقي العراقيين كانت على الديانة البابلية أولاً عندما كانت تقطن بابل ، ثم بعد الاستقرار في

ميسان اعتنقت هذه العائلة الديانة الصابئية ، وهي طائفة منتشرة حتى الآن في جنوب العراق ـ بما فيه الأهواز ـ ، ثم إن جميع الباحثين يعترفون بأن علاقة المانوية بالزرادشتية ضئيلة جداً ، ولم تدخل بعض التسميات الإيرانية إلى المانوية إلا بعد انتشارها في إيران وترجمة كتب (ماني) السريانية باللغة البهلوية . علماً أن المانوية قد اقتبست الكثير من المسميات من جميع الشعوب التي وصلتها ، فمثلاً في آسيا والصين أطلق (ماني) على نفسه لقب (بوذا الحي) . وغدا واضحاً أن المانوية كانت متأثرة أساساً بالدين المسيحي ، وبالذات بالأفكار الثنوية للقديس السرياني (بن ديصان) الذي دعا إلى نوع من المسيحية الثنوية ، بالاضافة إلى المعتقدات البابلية والسامية السائدة . لقد استخدم (ماني) أساساً اسماء ملائكة اقتبسها من البيئة السريانية ، مثل جبرائيل ورفائيل وميخائيل وإسرائيل ، بالاضافة إلى يعقوب نبي العهد القديم . واعتبر (ماني) نفسه خاتم الأنبياء والروح القدس التي تحدث عنها المسيح .

إن (الثنوية) التي اعتقدت بها المانوية لم تكن إيرانية ، كما تصور خطأ الكثير من المؤرخين المسلمين ، بل هي أساس المعتقدات البابلية والسامية . يكفي معاينة أديان السومريين والساميين لإدراك أن هناك دائماً آلهة للخير والنور بأسماء متنوعة مثل (تموز وبعل وشمش وإيل ومردوخ وآشور) تقابل آلهة الشر مثل (نرجال وأريشكيجال وايرا وموت) . وثنائية الخير والشر هذه وجدت تعبيرها في الأديان السامية السماوية من خلال مفهوم الله رمز الخلق والخير والنور ، والشيطان رمز الشر والخطيئة والظلام . (راجع السواح ـ مغامرة العقل ـ ص ١٩٧) .

٣ ـ المؤرخون قاطبة يتفقون على أن (ماني) ولد وعاش في بابل وميسان ، وكانت لغته الأم ولغة كتبه وإنجيله المعروف هي اللغة السريانية ، وقد تُرجمت جميع كتبه فيما بعد باللغات الفارسية والتركية (الايغورية) واليونانية واللاتينية والقبطية . وبدأ بنشر دينه أساساً بين سكان الرافدين . يمكن الاستشهاد بماني نفسه وهو يحدد بدقة وبعبارة صريحة غير قابلة لسوء الفهم ، إنتمائه إلى أرض بابل وتمايز دينه عن باقي الأديان : «إن الحكمة والمناقب لم يزل يأتي بها رسل الله بين زمن وآخر ، فكان مجيئها في زمن على يد الرسول (بوذا) إلى بلاد الهند ، وفي زمن على يد (زرادشت) الى أرض فارس ، وفي زمن على يد (عيسى) إلى أرض المغرب(الشام) . ثم نزل هذا الوحي وجاءت النبوة في هذا الزمن الأخير على يديَّ أنا

(ماني) رسول إله الحق الى أرض بابل . . .» (راجع - إيران في عهد الساسانيين - ص ١٧٢) . ثم إن الأكثر من كل هذا ، إصرار (ماني) على جعل بابل مقر الكنيسة الأم ومركز المرجعية الدينية والحوزة العلمية لجميع الطوائف المانوية في العالم ، وبقي هذا التقديس الخاص لبابل لدى المانويين حتى نهايتهم بعد ألف عام .

احتقار الحياة

يمكن اعتبار المانوية أساس التصوف ، فهي دين متطرف في الزهد والتنسك وتقديس الموت واحتقار ماديات الحياة . قد تكون المانوية التي نشأت في العراق تعبيراً عن ردة فعل سلبية ومتشائمة إزاء الظروف القاسية التي عاشها العراقيون بسبب السيطرة الفارسية وفشل ثوراتهم ودمار الرافدين بعد تحول البلاد إلى ساحة للحروب الدائمة بين الأمبراطوريتين الفارسية والرومانية . ثم الشعور بالخيبة والحسرة على ضياع امجاد بابل القديمة وفقدان الأمل بأية قدرة على الخلاص إلا بالزهد وتجنب ملذات الحياة .

الفكرة الأساسية للمانوية يمكن إيرادها باختصار كالتالي : إن الله هو الخير والنور ، والشيطان هو الخطيئة والظلام . جميع الأشياء المادية من أرض ونبات وحيوان وأجساد هي جزء من قوى الخطيئة والظلام ، وجميع الأشياء الروحية من حلم وعقل وخيال هي جزء من قوى الخير والنور . إذن على الإنسان التواق إلى الخير والخلود في حدائق النور (الجنة) أن يحتقر الجسد وجميع ماديات الوجود ، بالامتناع عن : الجنس والخمر واللحم ، وتجنب جميع الخطايا . وقد يصل الأمر إلى حد احتقار الحياة ونبذ الجسد وتفضيل الموت ، من أجل تخليص الروح والنور من سجن الجسد والظلام . واعتبر (ماني) أن روح الإنسان المنيرة تتعذب على الجسد ، صليب الظلام ، مثلما تعذب (عيشو زاهي) (عيسى الزاهي) على صليبه .

إن الخطيئة ترتكب بثلاث وسائل : القلب (النية) والفم (الكلمة) واليد (الفعل) . لهذا فإن وصايا (ماني) كانت : «لا ترتكب الخطيئة ، لا تنجب ، لا تملك ، لا تزرع ولا تحصد ، لا تأكل لحماً ولا تشرب خمراً» . طبعاً مثل هذه الوصايا لا يستوجب تطبيقها من قبل جميع أتباع المانوية ، إنما فقط من قبل النخبة الدينية المنقسمة إلى أربع مراتب : ١٢ حواريون ، و ٧٢ شماسون ، ٣٦٠ عقلاء ، ثم الصديقون غير محدودي العدد . أما باقي المجتمع فيطلق عليهم (السماعون) الذين يلتزمون فقط بالصلاة أربع مرات يومياً ، والسجود ١٢ مرة كل صلاة ،

والصوم شهر كامل كل عام في نيسان ، ودفع العشر والزكاة وتقديم الغذاء للصديقين .

تعتمد المانوية على كتب (ماني) المليئة بالشروحات والحكايات والأساطير المعقدة والمفصلة جداً . الأسطورة المانوية عن تكوين الخليقة تشبه إلى حد بعيد الأسطورة السومرية ـ البابلية المعروفة «حينوما عاليش» (حينما عالياً ، أو حينما في الأعالي) ، لكن أسماء الآلهة السامية القديمة تستبدل بها أسماء سريانية ومسيحية محدثة . مذهب التثليث في المسيحية (الأب والأبن والروح القدس) يستبدل (ماني) به «العظيم الأول» و «أم الحياة» ، علماً أن هذا التثليث موجود في جميع الأديان البابلية والسامية ، ولكن بأسماء مختلفة (مثلا في قصة الخليقة البابلية هناك أبسو ـ الأب ، وممو ـ الابن ، وتعامة ـ الأم) (راجع السواح ـ مغامرة العقل) . والطريف أن فكرة (تناسخ الأرواح) التي اقتبسها (ماني) من البوذية ، حورها تماماً بما يتلاءم مع عقيدته الخاصة . ليس أي إنسان يموت تنتقل روحه تلقائيا إلى إنسان آخر ، إنما يعتمد ذلك على كونه خاطئا ام لا . لأن تكرار الحياة يعتبر نوعاً من العقاب . فالإنسان النقي المؤمن تذهب روحه مباشرة إلى حدائق النور جنان الله ، أما الإنسان الخاطىء فيعاقبه الله بانتقال روحه إلى إنسان آخر ليعيش حياة أخرى وأخرى حتى يصبح نقياً ومؤمناً ، فيتوقف التناسخ وتذهب روحه إلى جنة الخلود .

تاريخ ماني والمانوية

ولد (ماني) في ١٤ نيسان (أبريل) عام ٢١٦ ميلادية ، في قرية قرب (المدائن) التي كانت مركز ولاية بابل والعاصمة الثانية للأمبراطورية الإيرانية . ولهذا يطلق على هذا النبي لقب (ماني البابلي) ، ويقول عنه المؤرخون العرب والمسلمون : «نبي الله الذي أتى من بابل» (راجع فهرست ابن النديم) .

عندما كان (ماني) في سن الرابعة ، رحل به والده (فاتك) إلى قرية في ولاية ميسان جنوب العراق . ويبدو أن قرار الرحيل قد اتخذه الأب بعد أن تلقى ثلاث مرات نداءات إلهية بينما كان يتعبد في إحدى المعابد البابلية ، تدعوه إلى الرحيل إلى ميسان وكذلك تجنب الخمرة واللحم والجنس . في ميسان اعتنق (فاتك) دين الصابئة الذين يتكلمون لهجة آرامية قريبة إلى السريانية . وكان هذا الدين سائداً في جنوب العراق قبل هيمنة المسيحية ، ويسميه العرب كذلك (دين المغتسلة) بسبب تقديسهم لعملية التطهر بالماء . وهو دين مزج بين روحانيات الهرمزية (المصرية) والمسيحية (الشامية) مع رموز عبادة الكواكب البابلية ،

ويرتبط باسم النبي يحيى أو (يوحنا المعمدان) (لمزيد من المعلومات راجع الثقافة الجديدة ـ ٢٤٨ ـ ص ٢٥) .

بقي (ماني) صابئياً حتى سن الواحدة والعشرين ، بعدها بدأ تأثره مباشرة بالمسيحية وخصوصاً بالتجربة الحياتية للسيد المسيح وعذابات صلبه . وتذكر التقاليد المانوية أنه في سن الرابعة والعشرين ، في ٢٣ نيسان ٢٤٠م . تلقى (ماني) رسالة النبوة من الله بواسطة الملاك (توأم ـ توما) ، على أنه هو (الروح القدس) الذي بشر به النبي عيسى . حينها بدأ (ماني) يعلن أنه (نبي النور) و (المنير العظيم المبعوث من الله) ، نتيجة هذا تم طرده من الطائفة الصابئية .

رحل (ماني) مع أبيه وإثنين من أصحابه إلى بابل ، منها قام بأول رحلة عبر بلاد فارس ثم الى الهند وبعدها إلى بالوشستان ، حيث عاين ودرس الأديان السائدة من زرادشتية وبوذية وهندوسية . بعد عامين (٢٤٢م) عاد (ماني) إلى ميسان بحرا عبر الخليج . وتذكر المصادر التاريخية أن ثمة قبائل عربية قادمة من عمان كانت متنفذة حينذاك في ميسان تحت سيطرة الحكم الفارسي (راجع ايران في عهد الساسانيين ـ ص٧٥) . هناك شاءت الظروف ، ان يخوض (ماني) تجربة مشهودة مكنته من فرض تأثيره على حاكم ولاية ميسان الفارسي (مهر شام) وكسبه إلي جانب المانوية . وكان (مهر شام) هذا أيضاً شقيقاً للأمبراطور الأيراني (شاهبور) ، حيث توسط لدى أخيه ليسمح لـ (ماني) بنشر دينه دون مضايقة . ومن المعروف عن (ماني) أنه بالإضافة الى شخصيته النبوية ، فإنه كان طبيباً ونقاشاً ورساماً وكاتباً ومترجماً . وهو النبي الوحيد الذي قام بنفسه بكتابة إنجيله وباقي كتبه المعروفة التي تزيد على سبعة ، بينها كتاب مزين برسوم توضيحية ملونة ، يُعتقد أنها شكلت الأساس الأول لانبثاق فن النمنمة العراقي العربي ثم الفارسي والتركستاني (راجع الموسوعة الكونية ـ المصدر نفسه) .

بدأ (ماني) بتكوين كنيسته في بابل وأطلق عليها (كنيسة النور) ، وانتشرت الكنائس أولاً في بلاد الرافدين : ميسان والأهواز وبابل ونينوى وكركوك . لكن (ماني) لم يكتف بحدود الرافدين بل اعتبر نفسه (عيسى المخلص للانسانية جمعاء) ، وأنه (خاتم الأنبياء) ، ويقول في هذا الخصوص : «ندائي يتجه نحو الغرب وكذلك نحو الشرق ، وهو يُسمع بجميع اللغات وفي جميع المدن ، كنيستي تفوق الكنائس السابقة ، لأن تلك الكنائس قد اختيرت

لبلدان ومدن محددة ، بينما كنيستي أتت لجميع المدن ، وإنجيلي يبتغي جميع الأوطان . . .» (الموسوعة ـ المصدر نفسه) . لهذا بدأ «ماني» يبعث تلامذته (الحواريين) الاثنى عشر إلى جميع بقاع الأمبراطوريتين الفارسية والرومانية لنشر الدعوة الجديدة . فبعث أولاً الى الشام ومصر ، ثلاثة من حوارييه ، توما وهرمس وعدي . وخلال أقل من قرن انتشرت المانوية في مختلف بقاع الأرض ، من شواطىء المحيط الهادي والهند والصين والتبت وسيبيريا وتركستان وإيران ثم جميع الضفاف الشرقية للمتوسط حتى إيبيريا وإيطاليا وبلاد الغال . لقد وجدت آثار معابد وكتابات ورسوم هذا الدين في جميع هذه البقاع ، وأهم الوثائق وجدت في جنوب مصر (الفيوم) مكتوبة باللغة القبطية . يبدو أن المانوية كانت لها سهولة الانتشار خصوصاً بين الطوائف المسيحية بسبب علاقتها المباشرة معها . ومن أهم الذين تحدثوا عنها هو القديس (أوغسطين القرطاجي) الذي اعتنقها لعدة سنوات قبل أن يصبح فيلسوف المسيحية الأول .

في تاريخ غير محدد بصورة تامة ، بين (٢٧٤ ـ ٢٧٧) ميلادية ، تم صلب (ماني) على أحد أبواب مدينة بيت العابات (جند شابو) في الأهواز ، تم ذلك بقرار من الامبراطور الفارسي (برهام الأول) لأسباب سياسية طبعاً وبعد تحول (بابل) إلى مركز لدين عالمي واحتمال استعادتها من جديد لأمجادها السابقة ، وما يشكله هذا من خطر على النفوذ الايراني . كذلك خوف رجال الدين الزرادشتيين الذين نقموا على (ماني) بسبب تأثيره المتزايد . لقد عُذب (ماني) وصُلب وقطعت أطرافه ثم أحرقت جثته ونثر رماده . لكن المانويين ظلوا يعتقدون بصعوده إلى السماء مثل السيد المسيح ، ويعتبرون هذا اليوم مقدساً ، يصومون خلاله ثلاثين يوماً في شهر نيسان .

الضربات التالية تلقتها المانوية على يد الرومان . في عام ٤٤٥م أعلن البابا (ليون العظيم) قراره بتحريم نشاط المانوية . وفي عام ٥٢٧م قرر الأمبراطور (جوستان) الحكم بالاعدام على جميع أتباع المانوية . لكن الكثير من المورخين الأوروبيين يعتقدون أن المانوية ظلت حية في أوروبا بأشكال خفية متعددة ، خصوصاً بين الطوائف المسيحية السرية المؤمنة بالتصوف والروحانيات والطقوس السحرية والتي تعتمد في إيمانها على الأفكار الثنوية (Le dualisme) .

في القرن الخامس حدث أول انشقاق في الكنيسة المانوية ، حيث تم انفصال الطوائف المانوية في آسيا الوسطى (تركستان ومنغوليا) ، ورفضوا تبعيتهم لكنيسة (بابل) وكونوا

كنيستهم القومية . ثم اعقب ذلك انشقاق الكنيسة المانوية في بلاد فارس ، وذلك بتكوين فرع قومي مستقل عن بابل ، حمل اسم (المزدكية) ، نسبة الى مؤسسها (مزدك) الفارسي . يبدو أن هذه الطائفة ابتعدت عن المانوية بالأقتراب أكثر ناحية (الزرادشتية) ، مع ميول «ثورية واشتراكية» . ربما لهذا السبب خلط معظم المؤرخين المسلمين والعرب بين المانوية (العراقية) والمزدكية (الايرانية) ، علماً أن طائفة (المزدكية) ، أثناء نفوذها في الدولة الايرانية ، قامت باضطهادات ومذابح معروفة ضد المسيحية والمانوية في بلاد الرافدين ، مما أدى إلى هجرة الكثير من المسيحيين والمانويين العراقيين إلى بلاد تركستان (الصغد) وتكوين جاليات مانوية مسيحية نسطورية نشطت بنشر الثقافة السريانية البابلية .

إن الهروب المستمر للمانوية من العراق والمشرق ، وخصوصاً أثناء اضطهادات الفترة العباسية أدى إلى تزايدهم في أواسط اسيا التركية المنغولية . في عام ٧٤٥ كون الأتراك دولتهم (الأوغورية) على حدود الصين في منغوليا الشمالية . كان أحد ملوكهم يسمى (بوقي خان) اعتنق المانوية وجعلها الدين الرسمي للدولة . من خلالها وصلت المانوية إلى الصين فشيدت المعابد المانوية إلى جانب المعابد البوذية ، حتى وصلت إلى روسيا وسيبيريا . لكن نهاية الدولة التركية الأوغورية عام ٨١٧ على يد القرغيز أدى إلى نهاية المانوية في آسيا . ويعتقد أنها استمرت في تركستان الصينية حتى القرن الثالث عشر ، ومع اجتياح المغول بقيادة جنكيز خان تم القضاء التام على المانوية . لكن الأثر الكبير الذي تركه هذا الدين في شعوب اسيا يتمثل في تبنيهم للأبجدية المانوية (السريانية) في كتابتهم الأوغورية التركية ، بالإضافة إلى تأثيرات ثقافية ودينية لا تحصى .

الاسلام والمانوية

كانت القبائل السامية (العربية) النازحة قبل الاسلام ، تندمج طبيعياً مع أهل الرافدين وتتبنى الأديان السائدة ، مثل اليهودية والصابئية والمسيحية والمانوية . يذكر أن عمر بن عدي ملك الحيرة العربي كان من أنصار المانوية وحماتها المعروفين . يتحدث المؤرخ الإسلامي (ابن قتيبة) عن وجود المانوية في مكة قبل الاسلام : «وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة» . علماً أن تسمية (زنديق) قد شاعت في الفترة الإسلامية بمعنى(المانوي) . لقد اقتبس العرب هذه التسمية من الفرس ، الذين كانوا منذ قرون يطلقونها على المانوية بمعنى (المنحرفين عن الدين) ، وهناك من يعتقد أنها ربما كانت مشتقة من (صدّيق) السريانية

وتعني رجل الدين المانوي (للمزيد من التفاصيل عن المانوية والإسلام ، راجع ـ التاريخ الاسلامي ـ فاروق عمر ـ ص ١٩٣ ، ٢١٣) .

يبدو أن الفتح العربي لم يضعف المانوية ، بل على العكس منحها بعض الزخم ، بسبب كثرة اتباع المانوية في العراق بعد هجرة الأعداد الكبيرة منهم من الشاميين والمصريين إلى العراق بعد حكم الاعدام الذي كان قد أصدره الرومان بحقهم . ثم إن الإسلام في أول الأمر لم يكن موقفه واضحاً من المانوية ، وقد اعتبرها في البدء من أديان أهل الكتاب . في العصر الأموي تمتع أتباع المانوية ببعض الحرية ، خصوصاً في زمن الخليفة (الوليد الثاني ـ ٧٤٣ ـ ٧٤٤) . وتذكر المصادر العربية أنه بين ٧٥٤ ـ ٧٧٥م كان (إمام الكنيسة المانوية) في أفريقيا هو أبا هلال الديهوري . ومما ساعد على نشاط المانوية في العصر الأموي استخدام الكثير من أتباعها كتاباً في الدواين في العراق بدل الزرادشتيين ، وذلك بعد قرار تعريب الدواوين في ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي ، بعد أن كانت باللغة الفارسية . ويبدو أن الاستعانة بأتباع المانوية في الدواوين وسع المجال أمامهم وركز أهميتهم . (نموذج ساطع لسوء فهم المؤرخين العرب ، عندمايستغرب مؤرخ «قومي!» مثل عبد العزيز الدوري هذا التحول نحو المانوية في الدواوين الأموية ، لأنه لا يدرك أن الزرادشتيين فرس ولا يتقنون غير الفارسية ، أما أتباع المانوية فلأنهم عراقيون فكانوا يتقنون العربية القريبة من السريانية ، لغتهم الأصلية . ولهذا تم استخدامهم في عملية تعريب الدواوين) (راجع ـ الدوري ـ الجذور التاريخية للشعوبية ـ ص٢٢) .

رغم تزايد الاضطهاد ضد المانوية في الفترة العباسية بإسم مكافحة الزندقة والمثنوية والإلحاد والدهرية والمجون ، إلا أن أتباعها كانوا نشيطين خصوصاً في المجال الفكري ، وشكلوا الحلقات الثقافية التي يطلق عليها «إخوان الصدق» (لاحظ التشابه مع «اخوان الصفا») . ويصف الجاحظ نوعية كتبهم بأنها : «أجود ما تكون ورقاً يكتب عليه بالحبر الأسود البراق ويستجاد له الخط» . ويذكر المؤرخون المسلمون أسماء لا تحصى من المثقفين الذين اتهموا بالزندقة (المانوية) في هذه الفترة . (قد يمكن تشبيه تهمة المانوية والزندقة بتهمة الشيوعية والماركسية التي سادت العصر الحديث) . وقد شملت هذه التهمة كتاباً وشعراء مثل : صالح بن عبد القدوس ، بشار بن برد ، أبو نواس ، أبو العتاهية ، حماد الرواية ، عبد الله بن المقفع . . وغيرهم . وقد حكم بالموت على الكثير من هؤلاء المثقفين بسبب هذه التهمة .

وهذا النشاط المانوي دفع الكثير من المثقفين المسلمين إلى تأليف الكتب للرد عليها وتفنيدها، مثل: واصل بن عطاء، الجاحظ، أبو محمد بن الحكم، الجبائي، النوبختي، المسعودي، الرازي، الرقي.. وغيرهم (راجع فاروق عمر - المصدر نفسه).

يعتبر الخليفة العباسي (المهدي) (٧٧٥ - ٧٨٥)، أول من أعلن الحرب ضد المانوية وجميع التيارات الفكرية المعارضة باسم مكافحة الزندقة، حتى سمي (قصاب الزنادقة). وقد أنشأ من أجل ذلك (ديوان الزنادقة) بقيادة (عريف الزنادقة). وكان أتباع المانوية يجبرون على المثول أمام القاضي، ثم يبصق المتهم على صورة (ماني) ويذبح طائراً، ذلك لأن المانوية تحرم ذبح الحيوان. وفي حالة رفضه التوبة فإنه يحكم بالموت. وقد أوصى المهدي ولده الهادي طالباً منه الاستمرار في محاربة المانوية، قائلاً: «إني رأيت جدك العباس في المنام قلدني سيفين وأمرني بقتل أصحاب الاثنين». وفي أواخر العهد العباسي توسعت تهمة (الزندقة) حتى وصلت على يد الإمام الغزالي الى كل محاولة اجتهادية تخالف المذاهب السلفية وتنحرف عنها في التفسير (راجع فاروق عمر - المصدر نفسه). واستمر الاضطهاد وتعاظم مع الخليفة (المقتدر) (٩٠٨ - ٩٣٢)، وحسب (فهرست ابن النديم)، أنه في أواخر القرن العاشر الميلادي، قد هبط عدد رموز المانوية في بغداد من ٣٠٠ شخص إلى ٥ أشخاص فقط. بسبب اضطهاد العباسيين اضطر الكثير من أتباع المانوية إلى الهروب من العراق إلى خراسان وكردستان وتركستان (ربما يكون اليزيديون في شمال العراق من بقايا المانوية الذين هربوا من اضطهاد العباسيين).

خاتم الانبياء

من الخصال الكبيرة التي تميز بها الإسلام والمسلمون الأوائل هي القدرة على استيعاب معارف ومعتقدات الشعوب التي بدأ ينتشر بينها الاسلام. فمن المعروف أن الحضارة العربية الإسلامية بنت عظمتها من انفتاحها أولاً على تراث الشعوب التي أسلمت واستعربت، خصوصاً حضارات بلاد الرافدين والشام ومصر وشمال أفريقيا. ففي العراق مثلاً، بالإضافة إلى تراث المسيحية النسطورية والصابئية واليهودية، لعبت المانوية دوراً كبيراً في نقل الكثير من المعتقدات البابلية والعرفانية الصوفية إلى الحضارة العربية الإسلامية. يكفي ملاحظة التشابه الكبير بين الفلسفات الإشراقية والصوفية العربية الاسلامية وبين المانوية، ليس صدفة أن التصوف نشأ في حواضر العراق، البصرة والكوفة وبغداد، لأن الكثير من اتباع

المانوية الذين تحولوا إلي الإسلام نقلوا معهم معتقداتهم الإشراقية والصوفية البابلية ومزجوها بالإسلام . طبعاً هذا لا ينفي التأثيرات المباشرة للمسيحية والعرفانية الشامية المصرية ، بالإضافة إلى المجوسية الإيرانية والافكار اليونانية . ومن التشابهات الواضحة بين المانوية والإسلام ، أن (ماني) ادعى أنه النبي المخلص الذي بشر به المسيح وأنه (خاتم الأنبياء) . بالإضافة إلى تشابهات أخرى مثل تحريم الخمر ، والصيام ٣٠ يوماً ، والوضوء بالماء أو التراب ، والركوع أثناء الصلاة ، وتفاصيل وصف الجنة والنار ويوم القيامة والحساب وعبور الصراط المستقيم . كذلك وجوب مساهمة أتباع المانوية (السماعين) بدفع جزء من أموالهم (عشر) و (زكاة) لرجال الدين المانويين (الصديقين) .

ويمكن الافتراض أن المانوية قد لعبت دوراً مهماً في تكوين الكثير من الطوائف الصوفية والباطنية ، مثل الاسماعيلية والعلوية والدرزية . أما بالنسبة إلى تشابه المانوية مع المذهب الشيعي ، فإنها تبدو قوية بحكم انبثاق التشيع في أراض الرافدين حيث كانت المانوية نشيطة . إن الكثير من أتباع المانوية (وكذلك النسطوريين) دخلوا المذهب الشيعي بحكم اشتراكهم مع باقي العراقيين في معارضة الحكمين الأموي ثم العباسي . يمكن ملاحظة هذا التشابه في مسألة الأئمة الإثنى عشر (حواريي ماني كانو كذلك ١٢ ، مثل السيد المسيح) . بالإضافة إلى الميول العرفانية والإشراقية في المذهب الشيعي القريبة جداً من إشراقيات المانوية . ثم إن مفهوم «الاستشهاد» وتضحية (ماني) بحياته من أجل خلاص ملّته ، له تشابه كبير مع تبجيل الشيعة لذكرى استشهاد الإمام الحسين (ع) وتضحيته بحياته من أجل تقويم الإسلام . ويبدو أن طقوس الاحتفال بذكرى كربلاء وأيام عاشوراء تتشابه مع طقوس احتفال المانوية بذكرى استشهاد ماني وصلبه ، وهذه بدورها لا تبتعد كثيراً عن طقوس الاحتفال بصلب المسيح ، وقبلها لدى الساميين في العراق والشام بذكرى موت تموز (بعد) وعودته إلى حياة الخلود . ثم ان التشابه الأهم من ذلك بين الشيعة والمانوية ، إختيار (الحلة) ثم (النجف) التي هي جزء من أرض بابل التاريخية ، لتكون مركز الشيعة في العالم والمنطقة المقدسة ومقر الحوزة العلمية العليا كما اختار المانويون وقبلهم أهل الرافدين (بابل) لتكون المركز المقدس لديانة أسلافهم .

ملاحق معلوماتية

عن اصول شعوب المنطقة
وتاريخ التعريب

خارطة العالم العربي « الشرقاني »

الساميون ليسو عربا بل سكان المشرق الاصليين

يبدو ان كتابة تاريخ المنطقة خضعت الى حد متطرف للمعتقد السياسي «العروبي» . من الاكاذيب الكبرى التي هيمنت على الجميع بحيث الغت تماماً أي امكانية للشك والتساؤل ، هي الفكرة القائلة بأن «اصل الساميين من الجزيرة * العربية» . ليس المشكلة بمدى صحة هذه الفكرة بل المشكلة بالاعتقاد المطلق بأن هذه الفكرة «الفرضية» هي الوحيدة التي تداولها العلماء المختصون . لكن الحقيقة ان اي قارىء سريع لكتب العلماء المعروفين بهذا الشأن يندهش بأكتشاف بأن هناك عدة فرضيات متداولة بهذا الخصوص ولا زال الجدل والبحث جارياً ولم يتوقف :

«واذا فرضنا صحة الرأي القائل بأنه كان لجميع الامم السامية موطن واحد ومهد أصلي نشأت كلها فيه ثم تفرعت عنه وانتشرت في أنحاء المعمورة فأين كان هذا الموطن الأصلي ؟

الحق ان هذه مشكلة دقيقة جدا بذل فيها العلماء المستشرقون جهداً كبيرا ولكنهم لم يتفقوا على حل لها حتى الآن بل تشعبت فيها آراؤهم واختلفت أقوالهم اختلافاً عظيما .

فبعضهم يزعم أن المهد الأصلي للساميين انما هو أرض أرمينية بالقرب من حدود كردستان وبعضهم يقول أن هذه المنطقة هي المهد الاصلي للامم السامية والامم الآرية جميعاً ثم تفرعت منها جموع البشر في أرض الله الواسعة .

وللتوراة نظرية خاصة عن أقدم ناحية عمرها بنو نوح وهي أرض بابل وقد تكون هذه النظرية أقرب الى الحقيقة فقد أثبتت البحوث التاريخية أن أرض بابل هي المهد الاصلي للحضارة السامية .

وقد أيد العالم جويدي هذه النظرية في رسالة يقول فيها إن المهد الأصلي للامم السامية كان في نواحي جنوب العراق على نهر الفرات وقد سرد عدداً من الكلمات المألوفة في جميع اللغات السامية من العمران والحيوان والنبات وقال ان أول من استعملها هم اهل تلك المنطقة ثم أخذها عنهم جميع الساميين .

---

* نكرر القول ونؤكد لكي لا يُساء فهمنا ، بان رفضنا لفكرة قدوم الساميين من الجزيرة العربية ، لا يتنافى مع احترامنا واعتزازنا بشعوب الجزيرة العربية وبأنهم أشقاء لنا في التاريخ والجغرافيا والحضارة .

ولكن نولدكــه (Noeldeke) يعارضه في هذه النظرية معارضة شديدة ويقول إن من العبث أن نعتمد في اثبات حقيقة كهذه على جملة كلمات ليس ما يثبت لنا أن جميع الساميين أخذوها عن أهل العراق ثم يذهب في تأييد معارضته الى سرد بعض كلمات عن الحيوان والعمران كانت ولا شك عند جميع الامم السامية من أقدم الأزمنة مثل جبل وصبي وخيمة وشيخ واسود وضرب فهذه المعاني تختلف تسميتها فكل لغة سامية منها تسميها باسم يغاير الأسم الذي تطلقه عليه اللغة الأخرى مع أنها أجدر المعاني بأن يكون لها لفظ مشترك في كل اللغات السامية لأنها كانت موجودة عند الجميع حين كانوا أمة واحدة وحين تفرقوا أممّا شتى.

من كل هذا يتبين أن من العسير أن نجزم برأي في المهد الأصلي للامم السامية .

من كتاب «تاريخ اللغات السامية أ ـ ولفنسون ص 4 - 5 » .

* في السنوات الاخيرة بدأ الكثير من العلماء يميلون الى فرضية قدوم الساميين من شمال افريقيا ، بسبب تأكدهم من التشابه اللغوي والعرقي بين الساميين والحاميين (المصريون والبربر) . لكن مع هذا الميل الا ان العلماء يدركون ويعترفون ان بلداننا ظلت مقطونة منذ عشرات الآلاف من السنين قبل شيوع اللغة السامية وبالتالي فأن الناطقين بالسامية هم اولاً منحدرين من اسلافهم الأوائل السابقين للهيمنة اللغوية السامية . لكن اللغة السامية نفسها تكونت من امتزاج لغة القبائل «السامية» القادمة من شمال افريقيا مع لغة الشعوب الاصلية ، وهم السومريون الذين عرفوا في العراق كبناة اول حضارة مكتوبة ، مع افتراض وجودهم في كل المنطقة المشرقية من دون تمكنهم من كتابة لغتهم كما حدث في جنوب العراق هنا رأي بخصوص سكان فلسطين :

« الشكر لنصوص المملكة القديمة إلى الجنوب من منطقتنا وتلك الواردة من إيبلا (Ebla) في الشمال ، لأنها تبقي لدينا القليل من الشك بأن سكاناً ساميين غربيين قد استقروا في فلسطين وكل المشرق الجنوبي منذ أوائل العصر البرونزي في الأقل . تواصل الثقافة المادية وأنماط الاستيطان طوال الألف الثالث ، ذو أهمية خاصة ، ويوحي بأن أصول كل السكان ، لا بد وأن تعود ، كحد أدنى ، الى بدايات العصر البرونزي القديم الثاني ، وربما قبل ذلك ، إلى العصر النحاسي المتأخر .

والمؤكد أنه يصعب كثيراً أن نحدد بوضوح انقطاعاً في التواصل الثقافي لسكان فلسطين

ككل قبل الفجوات الظاهرة في السجلات الأركيولوجية اعتباراً من أواخر الألف الخامس والرابع (التاريخ المحدد هو ٤٥٠٠ ـ ٣٥٠٠ قبل الميلاد)، وحتى عندئذ، يبدو أن القول بأن غزوات قام بها سكان جدد تماماً قد تمت، مما أدى إلى اقتلاع مزارعي ورعاة العصر الحجري، ينطوي على شيء من التعسف، سيما وأن التفسيرات الأكثر محافظة متاحة لنا.

الدراسات الحديثة في مجال اللغويات المقارنة، مع تنامي معرفتنا بتاريخ التغيرات المناخية الرباعية، تقود إلى تعديلات هامة في تصورنا للتغيرات والتقلبات في سكان سوريا ـ فلسطين، الذي كان سائداً منذ ثلاثين سنة، لأن س. موسكاتي (S.Moscati) مثلاً، الذي أيد النظرية السائدة بأن الساميين السابقين شكلوا شعبا واحداً موطنه العربة، وقد انتقلوا عبر هجرات متتالية من الصحراء إلى محيطها مشكلين الحضارات السامية في وادي الرافدين وسوريا وفلسطين، عبّر عام ١٩٦٩ عن شكوك قوية بأن البنى العربية الشفوية قد اندثرت بالفعل، وأقر بأن هذه الملاحظة تضعف افتراضه بأن الساميين السابقين هم أقرب إلى العرب من الأكاديين أو الأوغاريتيين أو عرب الجنوب. نظريات أو. روسلر (O.Rossier) السابقة، التي تهاجم استقلال اللغات السامية، على أساس التشابه الملحوظ بين اللغات الأكادية والبربرية، لقيت تأييداً كبيراً خلال الستينات، وأهمه ما ورد في دراسة أي. م. دياكونوف (I.M.Diakonoff) التي عبدت طريق الدراسات المقارنة للغات السامية مع الفروع المسماة حامية من أسرة اللغات الأفرو ـ آسيوية، أي المصرية ـ القبطية، والبربرية ـ الليبية والكوشية والتشادية. هذا بدوره شجع عى دراسة اللغات السامية الأحدث تاريخاً في نطاق التاريخ الشامل للعائلة اللغوية الأفرو ـ آسيوية الأساس المعجمي اللازم لهذه الدراسات المقارنة وضع على أساس راسخ في دراسات بي. فرونزارولي (P.Fronzaroli) البالغة الأهمية أواخر الستينات، وقد ضمنها تاريخاً تفصيلياً للسمات اللغوية المشتركة. وحتى في دراسته الأولى، فقد ارتأى فرونزارولي (Fronzaroli)، أن موطن الساميين لم يكن الصحراء العربية، بل الأراضي الزراعية في سوريا ـ وفلسطين نفسها، وذلك بالاستناد إلى أركيولوجيا ما قبل التاريخ، وانطلاقاً من شبه القاموس الذي وضعه فرونزارولي، أيد تيلوك (Tyloch) ـ رغم عدم موافقته على نظرية فرونزارولي حول الأصول السورية ـ الفلسطينية ـ تصوره لأصل الساميين بأنهم شعب مستقر يعرف الزراعة جيدا. إحدى نقاط قوة هذا الاتجاه الجديد في اللغويات المقارنة هي تأثرها بالتاريخ وإفرازه بضرورة ربط النظرية اللغوية بالسجلات الأركيولوجية وفق أحكام التاريخ الأثنو ـ أركيولوجي.

على

وبسبب روابط هذا المنظور الجديد في اللغويات التاريخية مع الأركيولوجيا واللغات التاريخية المحددة في المقارنة ، فقد يمكن فهم الساميين السابقين (والأفرو ـ آسيويين السابقين أيضاً) كمفهوم تاريخي بدل أن يكون نظرياً مجرداً . بيرني (Burney) شدد على ضرورة الإقرار بوجود تداخل ، مع التأكيد على استقلال تطور الأصول والمظاهر اللغوية والثقافة المادية ، كما شدد فرونزارولي على وجوب اعتبار السامية السابقة لغة تاريخية ، فقد وجدت ، وتدعو الضرورة إلى اعتبارها سلسلة لغوية متميزة قبل انفصال الأكادية .

عام ١٩٨١ ، وبالاستناد لشبه القاموس الذي وضعه فرونزارولي ، حاول دياكونوف وضع الخطوط العريضة لأصول اللغات السامية المشتقة من اللغات الأفرو ـ آسيوية نتيجة هجرات من شمال إفريقيا بين الألف السادس والألف الرابع إثر جفاف الصحراء . ويحدد دياكونوف فترة الانحلال الأولى للهجات الأفرو ـ آسيوية إلى أسر لغوية بين الألف التاسع ـ السابع قبل انتشار الكثبان الرملية في شمال إفريقيا . أواسط الثمانينات ، اقترح بي . بيرنز (P.Behrens) تصحيحاً رئيسياً للهيكلة التي أعاد دياكونوف بناءها ، معترضاً علي تحديده لموطن اللغات الأفرو ـ آسيوية بأنه «الصحراء الخضراء» (Green Sahara) ، مقترحاً بدلاً منه إقليم كردفان ـ دارفور في السودان ، قبل ٦٠٠٠ قبل الميلاد ، عندما انتقلت اللغة البربرية إلى الصحراء قبل أن يعزل توسعها شمال إفريقيا عن اللغات البربرية السابقة إلي الجنوب الشرقي . تصحيح بيرنز لمقولة دياكونوف جذاب بصورة خاصة ، لأنه يحل مشكلة انعزال اللغات البربرية جنوب وشمال الصحراء ، ولكنه رغم ذلك ، يعتمد على صحة تصوره لتطور جفاف الصحراء ، ولا يبدو أنه يقدم تصوراً مناسباً لتطور اللغات الأفرو ـ آسيوية الأخرى في الشمال .

خلال المراحل الأولى من العصر الهلوسيني (Holocene) الذي تلا العصر الجليدي (حوالي ٩٠٠٠ ـ ٧٠٠٠ / ٦٥٠٠ ق . م .) ارتفعت مستويات مياه البحر بنسبة كبيرة ، وساد الأرض مناخ أكثر دفئاً وأغزر أمطاراً ، وطالت فصول الشتاء ، وازدادت الأمطار الموسمية الصيفية بشكل عام . وخلال الألف السابع ق .م . ، واصلت درجات الحرارة ارتفاعها ، ولكن المناخ أخذ يجف تدريجياً . أركيولوجياً ، هذا يتوافق مع الاستقرار الزراعي في العصر الحجري في شمال إفريقيا والعصر الحجري «ب» في فلسطين ، (أريحا) والأردن (البيضاء) حوالي ٦٠٠٠ ق .م . ، أو قبل ذلك بقليل تراجعت البحار وابتدأت في فترة جفاف شديد ، امتدت

حتى أوائل الألف الرابع وربما استمرت حتى ٣٥٠٠ ق .م . ، وقد وصل الجفاف أوجه حوالي ٤٠٠٠ ق .م . . هذا الجفاف ، أدى إلى جفاف الصحراء في شمال افريقيا تدريجياً وانتشرت الكثبان الرملية في المنطقة بكاملها ، وخاصة في الصحراء الليبية ، مما أدى إلى فصل وعزل اللهجات المصرية السابقة في الشرق ، عن البربرية في الغرب . وينبغي أن يكون التحول الثقافي للغات الأفرو ـ اسيوية قد حصل هذا التحول عبر الهجرات إلى مصر شرقاً ، ثم سوريا وفلسطين شمالاً . أما متى حصل هذا التحول بالضبط ، فغير معروف . انتقال السامين التدريجي إلى سوريا ـ فلسطين ، يمكن اعتباره قد بدأ في أي وقت خلال هذه الفترة واستمر إبانها ، رغم أن عبور الدلتا (التي كانت في ذلك الوقت بحيرات ومستنقعات) لا يبدو محتملاً خلال القرون الأولى من فترة الجفاف ، أو ملائماً للرعاة والفلاحين . وإذا أراد المرء أن يعتبر أن الانتقال قد بدأ مبكراً ، فالمسار عبر النيل وفي اتجاه وادي الحمامات معقول أكثر . أما التاريخ للاحق ، الأقرب إلى ٤٠٠٠ ق .م . ، فهو مناسب أكثر لإيضاح انعزال المصرية السابقة ، لأن انخفاض منسوب المياه في الدلتا وتقلص فيضانات النيل في ذروة الجفاف ، يجعل مساحات واسعة في الدلتا ووادي النيل صالحة للزراعة ، فيما أخذت مصر ، في الوقت نفسه ، تنعزل عن الغرب بسبب تضخم الكثبان الرملية في ليبيا (الوقت الأنسب هو ٤٠٠٠ ق .م .) ، ويحتمل أن يكون الجفاف المعاصر في النقب وسيناء وصحراء مصر الشرقية قد قطع الاتصالات مع المجموعات الأفرو ـ اسيوية في سوريا ـ فلسطين ، مما أتاح للغة المصرية أن تستقل عن السامية المتمركزة في هذه الفترة (٥٠٠٠ ـ ٤٠٠٠ ق .م .) في سوريا ـ فلسطين . كما يتوجب أن يكون قدتم في هذه الفترة أيضاً (فترة ذروة الجفاف ، أي حوالي ٤٠٠٠ ق .م .) انفصال السامية الغربية عن اللهجات السامية الشمالية التي انتقلت إلى وادي الرافدين ، مما جعلها تتصل بالسومرية خلال الألف الرابع . والمرحلة التالية القليلة الأمطار في سوريا ـ فلسطين والتي دامت من ٣٥٠٠ ـ حوالي ٢٣٥٠ ق .م . (فترة تطور الزراعة الكثيفة في العصر البرونزي القديم) ، أدت أيضاً ، في مجرى الاستقرار الكثيف في المنطقة ، إلى الانعزال اللغوي وتفرد اللهجات السامية المتمركزة في الشمال والتي نجدها في نصوص أواخر الألف الثالث والألف الثاني . هذا التغير اللغوي في سوريا ـ فلسطين ، أواخر العصر الحجري الحديث وأوائل العصر النحاسي ، يجب أن لا يعتبر غزواً كثيفاً أو اقتلاعاً للسكان المحليين . إبان العصر الحجري الحديث كان الخليط الإثني في فلسطين قد أصبح معقداً ، ولا معلومات لدينا عن أي تطورات هامة خلال فترة الانتقال إلى

العصر النحاسي . وأكثر من ذلك ، فإن وجود مستويات ثقافية مادية لدى السكان المحليين ، ووجود قرى ومدن ذات حجم كبير ، ونظام اجتماعي ، تفوق أي شيء يمكن توقعه في إفريقيا ، يجعل من الصعب أن نتصور سوريا ـ فلسطين عرضة لغزو قام به عدد ، لا بد أن يكون صغيرا ، من الفلاحين والرعاة الساميين الذين انتقلوا من شمال افريقيا إلى المنطقة ، خلال هذين الألفين من السنين . الأحرى ، هو أن السكان المحليين استمروا ، وأن التغير كان لغوياً وتدريجياً . وفي مجرى هذا التفاعل الثقافي ونتيجة للاستقرار والتكامل (ربما بعد انتشار الأكادية شرقاً في وادي الرافدين) ، أصبحت السامية الغربية السابقة لغة ثانية ـ ومع تكثف الاستقرار في العصر النحاسي الأخير والعصر البرونزي القديم ، تحولت إلى لهجات سائدة ، وربما بالتالي لغة وحيدة للسكان المحليين في سوريا ـ فلسطين ، قبل ظهور إيبلا بمدة طويلة .»

من كتاب «التاريخ القديم للشعب الاسرائيلي ـ توماس طومسن ـ ص 121 - 124 » .

* « واذا لم يكن من شك بأن عروقا مختلفة شاركت في تكوين سكان سورية فان وجود عرق غريب من «الطغاة في الارض في تلك الايام» ليس هنالك ما يؤيده . ولا بد ان قبور المغاور الضخمة المنتشرة انتشاراً واسعاً والتي يبلغ طول بعضها مئات الاقدام بالاضافة الى الاضرحة الاثرية المسماة دولمن (Dolmens) المبنية بحجارة كبرى غير مهذبة على أسس مستديرة متينة قد كان تأثيرها عظيما على القادمين الجدد مما ادى الى ظهور مثل هذه الاساطير . وقد انتقلت هذه الاساطير المتعلقة «ببني عناق من الجبابرة» وبالعمالقة الى الادب العربي والاسلامي . واسم المدينة الفلسطينية الواقعة في المنطقة التي اتى منها جليات وهي بيت جبرين (بالعبرية بيت جُبرين) معناه «موطن الجبابرة» .

وتكثر الدولمن حتى اليوم في شرقي الاردن ومرتفعات فلسطين وسورية وفي اسية الصغرى . ونبرهن اثار الادوات المعدنية على جدران بعض الكهوف الضخمة والحلقات النحاسية التي اكتشفت في احدى الدولمن في شرقي الاردن انها تعود الى العصر النحاسي الحجري . واكثر هذه القبور (الدولمن) بدائية توجد في ارض كنعان وترجع الى العصر الحجري الحديث اي ٥٠٠٠ ق .م . وتظهر المنشآت المصنوعة من الحجارة الضخمة غربي اوربا بعد ذلك بالف سنة او اكثر وقد اثار وجودها قصصاً خيالية مماثلة عن الجبابرة في عصور ما قبل التاريخ .

من كتاب «تاريخ سوريا ـ فيليب حتي ـ ج 2 ص 28 - 29 » .

العراقيون عرب .. ام العرب عراقيون ؟

لقد عودنا المؤرخون القوميون على تقبل فكرة ان سكان الجزيرة العربية «العرب» هم الاصل العرقي والثقافي للمشرق العربي «الشام والعراق» . لكن هناك العديد من الشواهد التاريخية التي تثبت العكس تماماً : أن الجزيرة العربية هي الفرع والمشرق هو الاصل . لأن المشرق هو الاقدم سكانياً وحضارياً وقد سبق تاريخ الجزيرة بعدة آلاف من السنين . فكيف يمكن ان يكون الاقدم فرعاً من الاحدث ، والاب فرعاً من الابن ؟ اننا ابداً لا نبتغي نفي علاقتنا السكانية والحضارية مع الجزيرة العربية ولكن يجب قول الحقيقة والاعتراف بأن سكان الجزيرة العربية وحضارتهم الفرع والمشرق هو الأصل :

« أما من الغرب ، حيث يقع هذا الامتداد الصحراوي الرهيب الذي يعد أوسع امتداد صحراوي في الأرض . . واخطر مصدر للبداوة واساليبها في التفكير والحياة ؛ فقد كان باستمرار يتهدد أرض العراق بالاجتياح البدوي العاصف بما يحمل معه من انماط سلوكية فجة ومُثل متخلفة للغزو والعدوان والفرهود . وكثيرا ما عصف هذا الاجتياح بالمنجز الحضاري والاجتماعي والعمراني لأرض الرافدين ، فعاد بها القهقرى الى مراحل أدنى انتهت اليه في سلم تطور المجتمع . ولعل زحف البداوة الذي أعقب سقوط بغداد على يد المغول . . واشتد قوة وترسخ جذراً واتسع أثراً إبان سيطرة الدولة العثمانية على العراق ، اوضح ما يمكن ان يقود اليه هذا الزحف من آثار سلبية ؛ إذ عاد العراق وأهله بعد ان بلغا الأوج في مراحل التطور المادي والروحي الذي شهدته المجتمعات القديمة ، الى حالة من التشتت القبلي والتخلف الروحي والفقر المادي ما عصف بديناميكية الحياة وقوى التطور وآليات الصيرورة الاجتماعية . . وجاء على كل مظاهر النماء والازدهار اللذين شهدتهما هذه الأرض ؛ حتى لقد اضحت بغداد ـ حاضرة الدنيا . . وسرة العمارة والتقدم في الارض ؛ لا تعدو ـ على ما شاهدها نيبور ـ قرية كبيرة تنوء بالتخلف والخواء المادي والروحي والفقر في أشد مظاهره وانكى آثاره ؛ وحتى وقف غوستاف لوبون يتساءل : أحقاً ان هذين النهرين هما بالذات اللذان روّيا اولئك المبدعين العظام الذين انبتتهم ارض سومر وأكد وبابل ، والذين سنوا للبشر طرائق الحياة المدنية . . وعلموهم من اسرار الوجود والحياة ما أضحى قدراً مشتركا مسلماً به بديهة في حياتهم اليومية . . واساساً لبناء الروح والذهن والعمل في اكثر الاصعدة غنى في التركيب وديناميكية في العطاء . . أليس هم ـ على سبيل المثال العابر ـ الذين حددوا

الاسبوع بسبعة أيام . . والشهر بأربعة أسابيع . . والسنة باثني عشر شهراً وحددوا الدائرة بـ (٣٦٠) درجة ، واليوم بأربع وعشرين ساعة والساعة بستين دقيقة . . وابتدعوا النظام العشري والستيني في الحساب والقياس الخ ، ما ضمته بدعهم وابداعاتهم في تنظيم سياقات العمل والحياة مما ليس لنا أن نستبدلها أو نستغني عنها في حياتنا اليوم ، وقد صرنا مما انتهى اليه عصرنا من كشوف ومنجزات ذهنية وتكنولوجية جبارة الى تدشين مرحلة غزو الفضاء الخارجي ؟؟!

قد يكون من المناسب بل الضروري ، ان نستدرك هنا . . فنقول : ان الصحراء هذه بالذات ، هي التي منحت العراق وأرضه ما شمخت به بغداد العباسيين ، واستطاعت ان تعيد لبابل دورها الحضاري المتميز في الارض . فكيف اذن ، نوفق بين هذه الحقيقة التي ليس لنا ان نعشو عنها ، وبين ما ذهبنا اليه من امر زحفها الذي لا يورث غير الخراب . . ولا يضم بين طياته غير الدمار الذي يعصف بكل شيء ؟؟!

ولتوضيح مرادنا بهذا الزحف . . وازالة ما يتلبسه من غلالات التناقض في القول . . والمفارقة الصارخة في الحكم نقول : اننا لم نرد بهذا الزحف غير زحف البداوة التي ارتبطت منذ البدء وترتبط بظاهرة الاعراب حيث كانت السمة الثابتة المميزة لهم من حيث هم ظاهرة اجتماعية وانماط متخلفة عادية في التفكير والسلوك ؛ وليس العرب الذين جاءوا بالاسلام . اذ ليس خافياً ان سكان هذه الصحراء كانوا نمطين من البشر : أعراب لا يشدهم الى بعضهم غير العدوان والغزو والسلب والنهب* ؛ ولا يرتبطون بمبدأ أو يبرون بقسم . . وهم يجمعون بين وحشية الذئب وقسوة القطة وغدر ابن آوى . بل ان القرآن الكريم لينص في وصفهم على مثل هذا الذي ذهبنا اليه . . مفرقاً بينهم وبين العرب الذين حرص على ان يكونوا جند الدعوة وحملة رسالتها . . فقال في محكمه : ﴿ قالت الاعراب آمنا . قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم ﴾ الآية ١٤ ؛ وقال : ﴿ يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾ ـ سورة الفتح ، الآية ١١ ؛ وقال : « الاعراب اشد كفراً ونفاقاً وأجدر الا يعلموا حدود ما انزل الله على رسوله ﴾ سورة التوبة ، الآية ٩٧ .

أما النمط الثاني من سكان هذا الامتداد الصحروي الرهيب . . فهم العرب الذين

* اننا لا نتفق مع هذا الوصف السلبي التعسفي للبدو . والحقيقة ان سلبيتهم تكمن في اختلافهم عن اهل الحضر ، وان اجتياحهم للمدن بسبب قحط الصحراء هو سبب هذه النظرة السلبية عنهم (سليم مطر) .

استوطنوا مراكز حضرية ـ مدينية هي اقرب في وضعها الحياتي وبنيتها الاجتماعية واساليبها في التفكير والعمل من مراكز الحضارة القديمة في الاقطار المحيطة بأرض الجزيرة العربية . . وداخل ارض الجزيرة ذاتها في اليمن وسواحلها الشرقية المطلة على الخليج العربي وخليج عمان . وهناك من يرى ان سكان هذه المراكز الحضرية ـ المدينية هم خليط من سكان العراق القديم والقبائل التي استهوتها التجارة فأقامت في هذه المراكز التي أقيمت على طول طريقي التجارة العالمية عبر الصحراء العربية الشرقي والغربي ، حيث يصل الأول سواحل الخليج العربي وخليج عمان بسواحل البحر الابيض المتوسط في غربي آسيا وشمال افريقيا ؛ ويصل الثاني اليمن وسواحل البحر الأحمر ببلاد الشام . ولعل اتخاذ آخر ملوك بابل من الكلدان ـ نبونيد ، من مدينة تيماء التي تقع شمال خيبر والمدينة المنورة بين حائل وتبوك في شمال أرض الجزيرة ، عاصمة ثانية له . . ومن الصحراء العربية وحران عمقاً استراتيجياً لبابل ، يبرر لهذا الرأي ما ذهب اليه بشأن سكان هذه المراكز الحضرية . بل ان هناك من يذهب أبعد . . فيرى ان البابليين الذين تسنى لهم النجاة من المقتلة التي أقامها داريوس دارا إثر احتلاله الثاني لبابل انتقاماً من ثورتها عليه وخلعها نير سلطانه ، هم الذين بنو حضارة الحجاز . . وعقدة حركة قوافلها على طريقي تجارتها الشرقي والغربي . . ومركزها الديني الذي لا يضاهى ـ مكة جرهم وقريش . لذلك كان هذا الثراء الذي تميزت به لغة قريش وحياتها المادية والروحية ، والذي تفجر بالقرآن وعياً وصياغات ما زالت تحتفظ بألق عجيب في النسيج الصوتي والدلالي الذي تفردت به ووقف منه العقل والخيال العربيان موقف المحاكي والتابع لا المماثل والنظير عبر مختلف عصور الابداع والعطاء في مختلف صنوف فن القول .

وربما جاءت الاسطورة الدينية التي تقول بأن ابراهيم الخليل ـ وهو كلداني من اور ، هو الذي بنى بمكة بيتها المقدس ، وكان من نسل ابنه اسماعيل من زوجته الجرهمية . . حيث كانت قبيلتها تسكن مكة وقريش وكل العرب المستعربة ـ أي المتحضرة من قبائل شمال شبه الجزيرة وشرقها من سكان المراكز الحضرية التي اشرنا اليها آنفاً ، لتؤكد هذا الرأي أو الفرض التأريخي وتكرسه واقعة تاريخية . . »

من كتاب «محاولة في فهم الشخصية ـ محمد مبارك ـ ص 21 - 24 » .

* ان اقدم حضارة في الجزيرة العربية هي الحضارة السبئية في اليمن . التي بدأت حوالي الف سنة قبل الميلاد . اي بعد اكثر من الفي سنة من حضارة العراق وسوريا . وقد

استغرب العلماء من انتقال اليمن فجأة من العصر الحجري الى عصر البناء والكتابة من دون اي تطور معقول ، وهذا يعني قدوم شعب متحضر الى اليمن :

«السبئيون في نظر الكثير من العلماء جاءوا إلى اليمن من الشمال . فالدكتور فرتزهومل يقول : ان الفترة السابقة لتاريخهم الحقيقي بدأت خارج اليمن ، ويرجع هذا الوطن الخارجي كان في الأصل في شمال بلاد العرب . ومثل هذا سبق ان أوصى به سترابر حين ربط بين الانباط والسبئيين لكونهم أول من سكن العربية السعيدة . وتمشياً مع هذا الرأي اقترح الاستاذ و .ف . البرايت تاريخاً لهجرتهم حوالي ١٢٠٠ ق .م ذاهباً في نفس الوقت إلى أن هجرتهم تلك تأتي بعد هجرة القبائل الأخرى (معين وحضرموت وقتبان) والتي حدثت في تقديره حوالي ١٥٠٠ ق . م .»

من كتاب «تاريخ اليمن ـ محمد بافقيه ـ ص 51 »

* ان هذا الشعور الموروث لدى العرب بأنهم من اصل «بابلي» قد عبر عن نفسه من خلال الاعتقاد بقدوم اسماعيل من «اور» وان ابراهيم هو الذي بنى الكعبة . وهذهِ حكاية معروفة من الامام علي :

« جاء في اللسان : قال محمد بن سيرين : سمعت عبيدة قال : سمعت عليّاً (رض) يقول : « من كان سائلاً عن نسبنا فإنّا نبط من كوثى» .

قال أبو المنصور : والقول هو الأول لقولهِ ﷺ : فإنها نبط من كوثى ، ولو أراد كوثى مكة لما قال نبط . وكوثى العراق هي سُرَّة السواد من محل النبط . وإنما أراد عليٌّ أن أبانا إبراهيم كان من نبط كوثى . ونحو ذلك قال ابن عباس : نحن معاشر قريش حيّ من النبط من أهل كوثى . والنبط من أهل العراق » .

وأنت تعلم أن مراد العرب بنبط العراق : البابليون الأقدمون . وعلى هذا يكون القرشيون بابلي الأصل فلما دخلوا بلاد العرب أدخلوا إليها لغتهم معهم» .

من كتاب « حصاد الفكر في اللغة العربية ـ لجنة باحثين ـ ص 285 - 286»

* ومن الشواهد التي تؤكد ارتباط الجزيرة العربية بالشمال (العراق وسوريا) ان اديان العرب «الجاهلية !» قدمت من الشمال ، كما يخبرنا الباحث المصري شوقي عبد الحكيم :

« واذا ما حاولنا تتبع المراحل التي قطعها تطور الآلهة والاساطير السومرية ، بعد ان توارثها الكلدانيون والبابليون والآشوريون ، أي الفرع السامي سكان الحضر في دلتا العراق ، ثم كيف انتقلت عبرهم الى القبائل العربية او السامية قد كشفت ان الآشوريين واليمنيين كانوا يحتفظون بأوثان الآلهة السومرية التي توارثها الكلدانيون من اسلافهم السومريين اللاساميين القدماء .

فلقد كانت بابل وآشور هما بمثابة المنبع الاكثر خصوبة وتحضيرا والذي فاض على ما يجاوره من تخوم وقبائل ، مثل القبائل العربية ، على طول شبه الجزيرة ، بل ومن نفس اور الكلدانيين بين النهرين خرجت ونزحت قبائل ابراهيم وآشور السامية الى الشام وفلسطين قبل انتهاء الالف الثالثة قبل الميلاد .

وكشفت الدراسات الاسطورية المقارنة عن أن هناك أساسا اسطوريا عقائديا بل لاهوتيا مشتركا لاغلب هذه الشعوب السامية منذ اكثر من الفي عام قبل الميلاد ، سواء فيما بين النهرين أو في مكة واليمن والشام وفلسطين . فاذا ما اخذنا مثلا بسيطاً : فالاله الكلداني البابلي بعل الذي من اسمه تسمت بعلبك في لبنان ، ظهر منذ بداية الاف الثالثة ق .م . عند البابليين باسم «بل» ، وعنهم أخذه الكنعانيون ولقبوه بالسيد ، اي «زوج» ، وجمعها بعليم والصيغة المؤنثة منه هي بعليت أو بعلاية .

وعرفت ديانة البعل ـ كاله ولقب ـ في سوريا وفلسطين منذ بداية الالف الثانية قبل الميلاد . ثم تطورت ديانته ودخلت في اللاهوت المحلي ، بعد ذلك الزمن ، فأصبح لكل مدينة بعلها أو ربها الحامي ، وتنوعت القابه ، فالالهة «ميلكارت» كانت بعل طيرة . بينما اصبحت عشتروت» هي البعلة الانثى في بيبلوس .

وينسب لعمر بن لحي الجرهمي ، انه اول من جاء بأصنام هذه الآلهة من الكلدانيين ـ العراقيين ـ والانباط ، ونصبها حول الكعبة .

وكان تمثال الاله «بعل» او «بيل» عند الكلدانيين والاراميين ، على هيئة ملك جليل جالس على عرشه ، وعلى هذا تعارف عليه العلماء عندما وجدوه في الكعبة ، وعرفوا على الفور انه اله دخيل مجلوب من الخارج . يقول الكلبي صاحب كتاب «الاصنام» : «كان فيما بلغني ، من عقيق أحمر ، على صورة الانسان ، مكسور اليد اليمنى ، ادركته قريش فجعلوا له يدا من الذهب » .

كما يرى البعض ان البعل هو الاصل الذي منه جاء الاله اشور في الميثولوجي الآشوري ، وكان يصور على هيئة نسر له رأسان وجناحان مقدسان ، في هيئة المحارب ، وتظهر عشتروت كثيرا كزوجته وشريكة حكمه ، كما يرى البعض ان عاشوراء (اول شهور السنة الاسلامية) أو آهورا الفارسية من بقايا شعائر الاله اشور ، الذي من اسمه تسمى الملوك الاشوريون .

فلقد كان للاله بعل او هبل . رب الارباب في الميثولوجي البابلي ، بنات ثلاث ، هنّ «ايرشكيجال» الهة العوالم السفلى او الجحيم ، واخوانها الانثيات «مامناتو» و «عشتر» أو «عشتروت» . وهنّ الآلهات الثلاث اللاتي عرفن بـ «بنات آلله الثلاث» .

فآلهة العوالم السفلى والموت والظلام ايرشكيجال عند السومريين ، والتي عنهم اخذها خلفاؤهم وورثتهم الساميون البابليون ، ولقبت باسم «اللات» المرة الأولى في احدى قصائد الفروسية البابلية ، وهي ملحمة الملك أزدوبار الذي يرى البعض أنه هو بعينه نمرود الجبار ، الذي ما تزال تتواتر حواديته على طول الشرق الادنى ، مع الخليل ابراهيم .

كما ان اللات عندما دخلت الميثولوجي السوري ، اصبحت قرينة الاله «حداد» ، اله المطر ، ولقبت بربة البيت عند الانباط ، كما تشير بهذا حفريات بعلبك . وباختصار فان اللات كالهة للشمس ، كما يرى «ولهوسن» ، دخيلة على العرب المكيين ، كما يرى ابن الكلبي «هي أحدث من مناة» . ويقال ان عمر بن لحي ، قد جاء بها من النبطيين ، وكانوا يعتبرونها الهة الشمس .

اما الاخت الثانية من بنات الله الثلاث ، فهي «العزى» ، وعرفت بدورها تحت هذا الأسم في الميثولوجيا البابلية ، وقيل ان معناها ملك او اله النار ، فالعزو هي النار في اللغة البابلية ، ومعناها في العبرية الشدة او القوة . وعندما نزل الساميون الاوائل فلسطين . وجدوا عديدا من الاماكن ـ غير السامية ـ المقدسة ، مثل الاشجار والجبال وآبار الماء ، فأطلقوا على كل منها اسم بعل ، وعن هذا الطريق عبد سكان كل مدينة بعلها المنفرد كاله محلي . وبتوالي العصور دخلت ديانة البعليم لدى كل شعوب الشرق الادنى القديمة ، فأصبح الها للسماء ، بل انه توحد بالسماء ، وانزال المطر ، وعرف ببعل شيم عند شعوب اسيا الغربية ، كما توحد مع حرارة الشمس التي منها ينبت النبت ويكثر الاخصاب ، كما ان من القابه التي عرف بها اله التنبؤ . ومن اسم بعل جاءت تسمية البطل القرطاجي هانيبال ـ وقرطاجنة

كانت من اقدم المستعمرات الفينيقية ، كما ان من اسمائه الاخرى بعل قبيلة جاد ، وبعل زيفون ، وبعل زيبوب أو الذباب . كما ان البعل توحد بالاله السومري الذي توارثه الساميون وهو الاله ميردوخ او مردوك ، والذي اصبح الوريث الشرعي لسلطان الاله الآشوري آشور ، الذي تضاعف نفوذه عقب اضمحلال اشور ، وكان يعرف باسم «بعلو» .

يقول «اورث» في كتابه «ديانة البعليم» ان بعل العبري هو بنفسه الاله «هبل» اله قبيلة قريش في مكة . . وقال : « وفي اعتقادي ان عبادة البعليم ليست بعبادة فلكية أو تنبوية في منبتها الاصلي ، ذلك لان علم النجوم لم يعرف في آسيا الغربية قبل عصر الآشوريين والكلدانيين» .

ويرى المستشرق نولدكه : «ان اللقب الالهي بعل - اي السيد او الزوج - كان معروفا لدى الساميين الشماليين ، وعنهم توراثه عرب شبه جزيرة سيناء ، فعرف عندهم باسم «بعلو» ووجِد في النقوش عقب اسماء الاعلام مثل «عبد البعلي» و «اوس البعلي» و «جرم البعلي» .

يقول ابن حزم ، ان في بعض كتب اليهود تفسيرا لتيه بني اسرائيل مع موسى في سيناء « حتى ماتوا كلهم ، انما كانت لأن فرعون كان قد بنى على طريق مصر الى الشام صنما سماه بعل صفون ، وجمله طلسما لكل من هرب من مصر ، يحيره ولا يقدر على النفاذ منه» .

ويرى نولدكه ان عرب شبه الجزيرة العربية ، اخذوه عن عرب شبه جزيرة سيناء وعنهم «عرفوه لفظا ومعنى» ، ووجد في التنزيل «اتدعون بعلا وتذرون احسن الخالقين» .

ويقال ان اول من استقدمه الى مكة هو عمر بن لحي الجرهمي ، فقد قدم بصنم يقال له «هبل» ، وكان هبل من اعظم اصنام قريش ، فنصبه على البئر في بطن الكعبة ، وأمر الناس بعبادته ، فكان الرجال اذا قدم من سفر بدا به على اهله بعد طوافه بالبيت ، وحلق رأسه عنده ، « وكان اسم البئر التي في بطن الكعبة «الاخسف» والعرب تسميها «الاخشف» ، كما يقول الازر في في اخبار مكة .

ويمكن القول بأن العزى عند العرب هي في منبتها الاصلي «اينانا» عند السومريين ، والتي اشتهرت باسمها الاكادي عشتروت عند البابليين ، واناثا - اي انثى - عند

الكنعانيين ، وايزيس في مصر ، وافروديت عند اليونان ، وفينوس عند الرومان ، وكوبيلا عند الحثيين .

يقول نولدكه : « ان الشاعر السوري اسحاق الانطاكي الذي كان يعيش في اوائل القرن الخامس الميلادي ذكر احتفاء العرب بعبادتهم العزى أو نجم الصباح او الزهرة ـ فينوس ـ ، كما يقال انهم كانوا يقدمون لها التضحيات ، فالمنذر ملك لحيرة قدم لها قربانا من الأسرى ، وقيل انه ـ أي المنذر ـ ذبح ابن حليفه المسيحي الملك الحارس ، قربانا لها » .

فكانت العزى الهة للجنس والاخصاب عند العرب ، كما كانت عند البابليين . ويعتبر الحمام والغزال من طيورها وحيواناتها المقدسة ، وهما نفس شعائرها عند البابليين والسوريين والنبطيين ، وكان العرب الجاهليون مغرمين بتشبيه النساء الجميلات بالغزال .

يقول الالوسي : « كانت المرأة من العرب اذا عسر عليها خاطب النكاح ، نثرت جانبا من شعرها ، وكحلت احدى عينيها ، وحجلت على احدى رجليها ، ويكون ذلك ليلا . وتقول : يا نكاح ابغي النكاح قبل الصباح» . اي انها تريد الزواج او المخالطة الجنسية قبل ظهور نجم الصباح او الزهرة . وتحفل المواويل والاغاني الشعبية ، بآلاف القطع الشعرية التي تتغنى الى اليوم بنجمة الصبح .

ويضيف سميت : ان عبادة الزهرة ـ او نجم الصباح – انتشرت في اليمن ، وخلال اقامة شعائر اعيادها كانت تقام الاحتفالات والافراح المختلطة ، او ما عرف عند معظم الشعوب والاقوام السامية ، بالغرس المختلط ، وما تزال بقاياه اسرية حتى وقت قريب ، خلال الاحتفالات بالموالد المحلية ، على طول مصر والعالم العربي ، وربما ما تزال ايضا تقويمات العرس المختلط سارية يجري التعامل بها .

يتضح من هذا ان منابع الميثولوجيا العربية تضرب بجذورها على مدى ٦ آلاف عام ، أي منذ السومريين غير الساميين ، الذين توارثهم العرب واليهود الساميون » .

من كتاب «موسوعة الفلكلور والاساطير العربية شوقي عبد الحكيم ص 31 - 37»

الرؤية «العروبية» لتاريخ الشعوب الشرقانية

هذا نموذج للرؤية «العروبية» للتاريخ . المؤرخ العراقي المعروف (احمد سوسة) بعد ان تحول من ديانته اليهودية واعتنق الاسلام ، راح يطبل ويزمر لـ «العروبة» وجعل من تاريخ المنطقة

كله ينطلق من الجزيرة العربية ويحمل اسم «العرب» حتى قبل ان يظهر العرب الى الوجود بعدة آلاف من السنين . في كتابه الشهير (حضارة العرب ومراحل تطورها) قام بعملية تعريب سطحية وساذجة لكل تاريخ المنطقة وخصوصاً التاريخ العراقي . هذا مقطع من كتابه :

«اول امبراطورية عربية تؤسس في وادي الرافدين ـ الدولة الاكدية (٢٣٥٠ ـ ٢١٥٩ ق .م .) :

الأكديون هم من أقدم القبائل العربية التي نزحت من جزيرة العرب واستوطنت في وادي الرافدين منذ أقدم العصور واستقروا في بداية الأمر على ضفة نهر الفرات الغربية في البقعة الممتدة بين دير الزور وهيت* ، وهي أقرب موئل خصيب من موطنهم باعتبارها مجاورة لبادية الشام ، ثم انحدروا جنوبا حتى اتصلوا ببلاد سومر ودام هذا الاحتكاك بين الأكديين والسومريين عدة قرون حتى تمكن الزعيم الأكدي سرجون الاول (٢٣٤٠ ـ ٢٢٨٤ ق .م .) من القضاء على المملكة السومرية وأسس أول امبراطورية عربية ، وهو يعتبر اول قائد عربي عرفه التاريخ ومؤسس اول مملكة عربية عظيمة في غربي آسيا شملت معظم أقسام الهلال الخصيب وبلاد عيلام وجزءا مهما من اسيا الصغرى الى البحر المتوسط»

من كتاب «حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور ـ احمد سوسة ـ ص 135»

تأثير حضارة بابل على العرب وغيرهم من الشعوب

« عمّن أخذ العرب تقسيم أيام الشهر الى أسابيع ؟ وما معنى الأسماء ؟

يبدو أن تقسيم الزمن إلى فترات معينة تحدرت إلى مختلف الحضارات في بلدان الشرق الأدنى القديم من البابليين . فإنهم بتقدم الحضارة ، شعروا بضرورة تقسيم الزمن الى مدات ، أو فترات معينة : ساعات وأيام وأسابيع وشهور وسنوات . وكان التقسيم الطبيعي الأول إلى نهار وليل ، والسنة إلى فصول متتابعة . وهذا التقسيم قائم على حركة الأرض حول محورها ، وحول الشمس . أما أكثر الشعوب التي كانت تقطن المناطق الصحراوية الجافة

* ان هذه المنطقة تقع على حدود سورية ، وهذا يؤكد ان الساميين قد قدموا من الشام وليس من الجزيرة العربية . وليس بالصدفة ان العراقيين قد اطلقوا على الساميين تسميات : اموريون وعرب ، والكلمتان تعنيان : اهل الغرب اي غرب العراق بلاد الشام (سليم مطر) .

الحارة فكانت ترى في القمر ، وتقلّب وجوهها ، أحسن ظاهرة طبيعية لتقسيم الزمن . القمر عند الرعاة أقرب الى قلوبهم ، وألصق بخيالهم من الشمس المحرقة . الليل الصحراوي رائع ، وجمال القمر فيه ساحر . والى جانب روعته وسحره فانه ، بالنسبة لظهوره هلالاً ، ثم بدراً ، ثم نقصاناً ، فمحاقاً ، ينقسم طبيعياً إلى قسمين متساويين : من ولادته إلى تمامه بدراً (١٤ يوماً) ، ومن ظهوره بدراً إلى محاقة (١٤ يوماً) وال ١٤ تنقسم إلى قسمين متساويين : ٧ + ٧ وهكذا كان الاسبوع . الأسبوع ٤ / ١ الشهر القمري .

وقد خطا البابليون خطوة أخرى إلى الأمام عندما قرنوا ٤ / ١ الشهر (أي الأسبوع) بالسيارات الخمس التي كانت بدورها تقرن بأسماء الآلهة الخمسة وهي :

ماردوخ (أو مردوخ) ، وكانوا يقرنون اسمه بالمشتري .

عشتار (أو عشتروت) . ونجمه الزُّهرة .

ننب (ni-nib) ، ونجمه زُحل .

نابو (أونبو) ، ونجمه عطارد .

نِرجال (ne-uru-gal ، ومعنى اسمه سيد المسكن العظيم) ، ونجمه المريخ ؛ ثم أضافوا يوما من أيام الأسبوع للقمر (Sin =) ، ويوماً آخر للشمس (shamash=) وبذلك أصبح عدد أيام الأسبوع عدد الآلهة السبعة العظيمة .

وكذلك الحال عند الشعوب الغربية التي لا نشك في أنها تأثرت بتقسيم الزمن البابلي . وها هي أسماء الأسبوع عندهم أسماء نجوم والهة » .

من كتاب «دراسات في التاريخ ـ انيس فريحة ـ ص 115-116»

عملية التعريب التي جرت بعد الفتح الاسلامي للعراق وسوريا الطبيعية (الشام).

« اما الوجه الثالث من هذا الفتح فهو الفتح اللغوي . كان الانتصار اللغوي أبطأ الانتصارات واخرها . ففي هذا الميدان اتخذت الشعوب المغلوبة في سورية وسواها اشد تدابير المقاومة . والظاهر انهم كانوا اكثر استعداداً للتخلي عن عهودهم السياسية بل والدينية ، منهم للتنازل عن استقلالهم اللغوي . لذلك استطاعت العربية الفصحى ان تحرز كسبها قبل

العامية ، فشرع الادباء السوريون في التأليف باللغة العربية تحت رعاية الخليفة ، قبل ان ينتحل الفلاحون السوريون اللسان الجديد . واقدم ما وصل الينا من المخطوطات العربية النصرانية المؤرخة ، مخطوطة الفها أبو قرة (ت ٨٢٠) ، ونسخت سنة ٨٧٧ في دير القديس بابا قرب القدس . وهي محفوظة اليوم في مكتبة المتحف البريطاني . اما المؤلف ، وهو من تلامذة القديس يوحنا الدمشقي ، فقد كان اسقف المذهب الملكاني في حرّان . ولا شك في ان اعتناق الاسلام قد سهل حركة الاستعراب وزاد في سرعة خطاه ، وأن التحول من لغة سامية الى اخرى لم يواجه مشكلات لغوية مستعصية .

وما ان استهل القرن الثالث عشر ، وآذن العصر العباسي بالزوال ، حتى كان النصر قد تم للعربية على اللغة المحلية ، وغدت هي اداة التفاهم في الحياة اليومية . انما بقيت هناك «جزر لغوية» لاقوام غير مسلمين ، نظير اليعاقبة والنساطرة والموارنة ؛ وقد كان في عهد الصليبيين كثير من مثل هذه «الجزر» . وعندما زار بنيامين التودلي جبل سينا حوالي سنة ١١٧٠ ، وجد على قمته معبداً سريانياً ، وعند سفحه قرية كان اهلها يتكلمون «اللغة الكلدانية» . وفي لبنان الماروني دافعت اللغة السريانية المحلية دفاعاً مريراً وطويلاً ، وصمدت في دفاعها تحتى القرن السابع عشر . ولا تزال السريانية اللغة المحكية في ثلاث قرى في لبنان الشرقي هي : معلولا وبخعة وجبعادين . وهي لا تزال لغة الطقس الكنسي لدى الموارنة ، وفي بعض الكنائس السريانية الاخرى . علي ان الموارنة يجرون بعض شعائرهم الكنسية بالكرشوني ايضاً ، وهذا الاسم يطلق على العربية المكتوبة بالحرف السرياني ، اما السريان الناطقون باليونانية فلم يظهر منهم مثل هذا التعلق بلغتهم الام ، وليس لدينا الا نص عربي واحد كتب بالحرف اليوناني . وهو نص من الكتاب المقدس (المزمور ٧٨ : ٢٠ - ٣١ ، ٥٦ - ٦١) يعود ، على ما يبدو ، الى القرن الثامن ، وقد عثر عليه في الجامع الاموي» .

من كتاب «تاريخ سوريا - ج2 - فيليب حتي - ص 171 »

* « واذ اخذ غير العرب في الاستعراب واعتناق الاسلام عمدوا الى الالتحاق ببعض القبائل العربية على صورة موالٍ وذابوا فيها تباعاً . ثم اخذ الخط الفاصل بين العرب وغير العرب ، وبين المسلمين القدماء والمسلمين المستجدين ، في الاضمحلال ؛ وسرعان ما غدا الجميع عرباً بلا تمييز . حتى كان عهد المماليك فعرف فيه سكان الحواضر «باولاد العرب» وهم يعرفون به الى اليوم تمييزاً لهم من الاعراب سكان البوادي . وقد انقرض السواد الاعظم

من اولئك الذين تكلموا السريانية في سوريا والعراق ، وكانوا يسمون بالانباط او العلوج تحقيراً لهم ، ثم زال اسم «آرام» الذي كان يطلق على سورية باللغة المحلية ، ليحل محله اسم جديد هو الشام ، ومعناه الشمال ، واليسار ، لانها تقع الى يسار الكعبة ، وذلك في مقابل اليمن التي تقع الى اليمين . وهكذا تمّ تعريب العالم الاسلامي برمته في غضون العصر العباسي ، ولاول مرة اخذ الشعور الواعي بالوحدة ، مقروناً بوحدة اللغة ووحدة الاعتقاد يستحوذ على النفوس .

على ان اللغة السريانية ما كانت لتزول دون ان تترك طابعها الدائم على اللغة العربية السورية اللبنانية . وهذا الطابع هو الفارق الاساسي الذي يميّز هذه اللهجة عن لهجات البلدان المجاورة . وهو واضح في التراكيب والمفردات والاصوات اللغوية . على ان المفردات في اللهجة الدارجة وعند المزارعين غنية بصورة خاصة بالالفاظ المستعارة من السريانية . وهذه اسماء الاشهر قد تحدرت من السريانية مباشرة وكانت السريانية قد تلقت اكثرها من اصل اكادي . هي ابتداءً من كانون الأول والثاني : كانون معناه الموقد ؛ شباط : الضارب او المهلك ؛ اذار : تغييم ؛ نيسان : العلم ، ايار : انتاج الحبوب ؛ حزيران : الحصاد ؛ تموز : وليد الماء العذب ؛ آب : العصب ؛ ايلول : التهليل ؛ تشرين : تكريس (الى اله الشمس) .

«المصدر السابق ـ 21-23»

* اما بالنسبة لحضور السريان في الدولة العباسية وعلاقتهم مع الطبقة العباسية الحاكمة فأن التاريخ يخبرنا بهذا المثال :

« وكانت زبيدة زوجة الرشيد وام الامين سنداً فعّالاً للمسيحيين في البلاط ومحسنة كبيرة الى الكنائس والاديرة . ويقول عنها ماري : « كانت زبيدة ام الامين تكرّم طيمثاوس كثيرا وتميل الى النصارى وتستخدمهم ، واخرجت توقيع الرشيد باعادة المستهدم من الدير وتوسيعه ، وعملت اعلام الشعانين وصلبان من ذهب وفضة ، وعاونت سرجيس مطران البصرة على بناء البيع وعضدت جبريل الطبيب في خطابه في ذلك» . وتختلف الروايات حول طلاقها ودور طيمثاوس في اعادتها الى وضعها الشرعي . مهما يكن من امر ، فانها احتفظت في قلبها باحترام عميق للبطريرك وعملت جهدها في مساعدته في شتى المجالات » .

من كتاب «تاريخ الكنيسة السريانية ـ البيرابونا – ج2 ـ ص24»

علمائنا الذين صنعوا المسيحية

هذه لمحة عن نموذجين من العلماء الكبار من الشعوب الشرقانية الذين لعبوا الدور الأول في صنع الديانة المسيحية وتطويرها . اخترنا هذين الأسمين لكي نبين ان الكثير والكثير من العلماء والفلاسفة الذين يحملون اسماءاً تبدو (يونانية) لأنها تنتهي بحرف الـ (س) على الطريقة اليونانية ، ما هم بالحقيقة الا من ابناء منطقتنا ولكنهم عاشوا في ظل السيطرة اليونانية الرومانية وتم احتسابهم على اوربا . يمكن مثلا مراجعة كتاب (جورج طرابيشي) (معجم الفلاسفة) لاكتشاف انه ما يقرب من نصف الفلاسفة اليونان كانوا من ابناء المنطقة الشرقانية «العربية» .

« الاريوسية :

وهي نسبة الى اريوس الذي ولد عام ٢٥٦ ، وتوفي عام ٣٣٦ ، كان ليبي الأصل تلقى العلم على يد لوقيانوس الأنطاكي ـ ثم ذهب الى مصر حيث رُسّم كاهناً وأخذ يبشر بآرائه التي كفرها ورفضها فيما بعد مجمع نيقيا .

بعد هذا المجمع والمطالبة بنفيه أمر الامبراطور بعودة اريوس وتبرئته عام ٣٣٠ ، وحين كان يستعد للرجوع الى القسطنطينية منتصراً ، اذا به يفاجأ بموت شنيع جعل أعداءه يذكرون ما ورد في الكتاب المقدس عن موت يهوذا الأسخريوطي «لقد مات من اندلاق أحشائه» .

آثاره : لم يبلغنا من كتاباته سوى منثورات من آثار ثلاثة تنسب اليه :

١ ـ بعض منثورات من كتابه «ثاليا» أي المائدة أو الوليمة .

٢ ـ رسالتان احداهما إلى صديقه أوزيبيوس النيقوميذي عام ٣٢١ ، والأخرى إلى اسقف الإسكندرية قبيل انعقاد مجمع نيقيا .

٣ ـ العقيدة التي وجهها إلى الإمبراطور قسطنطين عام ٣٣٠ ليبرر فيها موقفه في مجمع نيقيا .

الأبولناريّة :

وهي نسبة إلى تعاليم أبوليناريوس اللاذقاني الذي ولد عام ٣١٠ وتوفي عام ٣٩٠ مع أبوليناريوس الذي كان أسقف اللاذقية تحول الاهتمام من سر الثالوث إلى سر التجسد أو التأنس .

يميل أبوليناريوس في تعريفه للإنسان إلي النظرية الأفلاطونية القائمة على ان الإنسان مركب من أصول ثلاثة هي : الجسد ـ النفس الحيوانية ـ الروح أي النفس الناطقة . والكلمة ناب مناب الروح . فالمسيح لم يكن إلا طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية اذ ان الجسد بحد

ذاته ليس الطبيعة الإنسانية . ولم يكن لأفعال المسيح بعد ذلك إلا أصل واحد تردّ إليه فيتولاها . وهذا الأصل هو الطبيعة الإلهية بالذات» .

من كتاب «لاهوت التحرير - غسان دمشقية - ص112-144»

* * *

لمحة عن عملية التعريب التي جرت في سوريا الطبيعية (بلاد الشام)

« بلغ الجيش العربي الذي فتح سورية نحواً من ٢٥ الف جندي . فقد كان عدد الجنود من المسلمين العرب في عهد مروان الأول ، عشرين الفا ، كما في سجلات ديوان الجند في حمص وتوابعها . وكان عددهم في عهد الوليد الاول خمسة واربعين الفاً في دمشق وملحقاتها ، التي اشتملت على الساحل الفينيقي . وعلى هذا الاساس ، فان عدد المسلمين في سورية ، في القرن الاول بعد الفتح ، لا يحتمل ان يكون قد زاد على مئتي الف نفس ، من اصل مجموع السكان الذين كانوا يقدرون بثلاثة ملايين ونصف . اما لبنان ، فقد بقي معظم سكانه من الآراميين الذين تحدروا من اصل فينيقي ، وكان في جميع الامصار اقلية ضئيلة من البدو ، لكن هؤلاء استطاعوا ان يلعبوا دورهم الهام في العمل على توحيد الاكثرية المنتشرة في الاصقاع المتباعدة .

لقد كان من استقرار العرب في المدن ان غدت العربية في غضون ذلك الزمن لغة المدن . ثم ان تردد ابناء الريف الى المدن لبيع منتجاتهم او مزاولة اعمالهم ، دعاهم الى تعلم اللغة الجديدة ، دون ان يضطرهم الى التخلي عن لسانهم القديم . وكذلك اهل الفكر من السكان الاصليين ، فقد استنسبوا ان يتعلموا العربية من اجل ان يؤهلوا انفسهم للعمل في وظائف الدولة .

ان عدد الذين سارعوا الى اعتناق الاسلام من ابناء الارياف كان اقل ، بطبيعة الحال ، من اولئك الذين اقبلوا على اللغة الجديدة . ذلك ، في الدرجة الاولى ، لان الخلفاء الامويين ، باستثناء الخليفة الورع عمر الثاني ، لم يحبذوا هذا التحول ، لا سيما في الاوساط الزراعية . وعلى ذلك ، فان تساهل الامويين لم يكن محصوراً في الامور السياسية ، بل كان

عاماً في المنحى الديني والفكري ايضاً . ولئن كانت العاصمة والمدن الكبرى قد اتسمت ، لدى انصرام العهد الاموي ، بسمات المدن الاسلامية ، فان الاماكن الاخرى ، وعلى الاخص المناطق الجبلية ، قد حافظت على مظاهرها الاقليمية ، وابقت على طابعها الحضاري المحلي ، ولقد اخرجت سورية الاموية لاهوتياً من اعظم لاهوتي الكنيسة الشرقية ، واشهر واضعي التسابيح في شعائرها ، هو يوحنا الدمشقي ؛ وأعدّت للمسيحية من ابنائها خمسة من البابوات ، ارتفع منهم اثنان الى مصاف القديسين . اما لبنان ، فقد بقي مسيحياً في ايمانه ، وسريانياً في لسانه ، لقرون عديدة بعد الفتح . والواقع ان الذي انتهى امره بالفتح هو النزاع الحربي ، اما الخصام الديني والعرقي والاجتماعي ، وفوق ذلك كله اللغوي ، فكان ما يزال في اوله . »

من كتاب «تاريخ سوريا ـ فيليب حتي ـ ج2 ـ ص96»

* هنا مثال بسيط عن عملية التعريب التي مرت بها الاغلبية الساحقة من شعوب البلدان «الشرقانية» . ويبدو ان سكان المدن هم اول من اضطر إلى التعريب بسبب الاحتكاك المباشر مع الدولة العربية وجيوشها . وان المثقفين والمهنيين والكوادر التي تبحث عن اسباب العيش لدى الدولة العربية هم اول الناس الذي فضلوا الادعاء بالنسب العربي لتسهيل عملية تقبلهم في الدولة . هنا نموذج لشاعر سوري معروف :

« أبو تمام الطائي :

ولد حبيب أبو تمام ، على ما يرجح في قرية قرب دمشق ، على طريق طبرية نحو سنة ٧٠٩٦ م من أب أجمع المؤرخون على أنه نصراني اسمه تدّوس «وعندما انتحل الشاعر الاسلام ديناً ، عبر اسم أبيه فدعاه أوشا ، وانتسب الى قبيلة طيء العربية فعرف بالطائي»

وقد خصّص الأب شيخو فصلاً طويلاً (ص ٢٥٦ ـ ٢٦٠) للبحث عن حقيقة انتسابه للنصرانية . وبعد أن أورد عدة حجج ثبت رأيه في هذا الانتساب ، أضاف ما يلي : «على أن في ديوانه عدة أبيات تشعر بأنه يدين بالاسلام حيناً يحلف بالبيت الحرام ويقول انه حجّ إليه وحيناً اخر يذكر نبي العرب ودين الإسلام كأنهما نبيّه ودينه واذا ذكر الروم نبذهم بالشرك والكفر ويعظهم القرآن . وهذا كله لما يثبت اسلامه» (ص ٢٥٨)»

من كتاب « المسيحية والحضارة العربية ـ جورج قنواتي ـ ص 137»

* الصابئة

ولم يقتصر الفضل على النصارى من السريان وحدهم ، بل كان للوثنيين منهم كذلك فضل كبير على حياة العرب الفكرية . وهؤلاء السريان الوثنيون هم الصابئة او على الاصح هم منتحلو الصابئية . وقد كانوا يقيمون في مدينة حران . ولما كان هؤلاء من عبدة النجوم وكانوا ورثة العلوم البابلية ، فقد توفروا على الاهتمام بالفلك والعلوم المتصلة به من عهد عريق في القدم . اما في مايتصل بالاقبال على علوم اليونان فقد كان لهم من الرغبة فيها ما كان لمواطنيهم النصارى . وكان من ابرز علماء الفلك ثابت بن قرة (حوالي ٨٣٦ ـ ٩٠١) وإليه والى تلاميذه يعود الفضل في ترجمة معظم المؤلفات اليونانية في الفلك والرياضيات ، لا سيما مؤلفات بطليموس وارخميدس . هذا عدا تهذيب الترجمات السابقة ، نظير ما قام به ثابت بن قرة من تهذيب ترجمة حنين بن اسحق لاثار اقليدس . وقد تعهد هذا العمل بعد ثابت ابن له وحفيدان وابن لاحد احفاده ، وبنى كل منهم شهرة لنفسه في ذلك . وقد حمل احد الخلفاء سنان بن ثابت على اعتناق الاسلام ، وكذلك اسحق بن حنين فقد حمل على قبول الاسلام ديناً له .

وكان محمد بن جابر بن سنان البتاني (حوالي ٨٥٨ ـ ٩٢٩) مسلماً آخر من اصل صابئي ، وعالماً من مشاهير علماء الرقة . قام بابحاث مبتكرة ادت الى اصلاحات كثيرة في نظام افلوطين ، لا سيما في حساب فلك القمر وافلاك بعض الكواكب السيارة الاخرى . وقد جاءت ارصاده للخسوف والكسوف رائعة من حيث سعة مداها ومقدارها دقتها . ثم اثبت امكان وقوع الكسوف سنوياً وقرر بارقام ، ادق مما في الارصاد السابقة ، مقدار الانحراف في دائرة الفلك ، ومدى طول السنة الاستوائية وقد عين في احدى نظرياته المبتكرة الاحوال التي يستطاع فيها رؤية الهلال الجديد . واثره النفيس الباقي ، وهو «الزيج الصابئي» ترجم لاول مرة الى اللاتينية في اسبانيا وذلك في القرن الثاني عشر .

على انه من المحتمل ان يكون الاراميون والسريان المقيمون في بلاد بابل قد عملوا على نقل آثار رياضية وفلكية اخرى . ذلك ان الجبر مثلاً يظهر لتوه علماً مستكملاً في كتاب للرياضي الشهير الخوارزمي (ت ٨٥٠) . وقد كان لهذا العلم عند البابليين اسم خاص هو هذا الاسم عينه أي «غبرو» . لكن حلقات الاتصال المفترضة بين السريانية والبابلية في هذا الموضوع مفقودة تماماً .

من كتاب «تاريخ سوريا ـ ص17 - 180»

مثال عن تنوع الفئات اللغوية (الاعراق)
في السودان

« كانت قبائل شمال السودان ، حتى حصول السودان على الاستقلال في ١٩٥٦ ، هي وحدها التي اتصلت بالعرب الذين آل إليهم حكم البلاد ، وهذه القبائل هي : النوبيون والفور والبجة . أما أهالي الجنوب النيلي فلم يعرفوا سوى غزوات تجار العبيد ، ومثل تلك الظروف لا تساعد على انشاء دولة متعددة الأعراق .

والسودان بمثابة برج بابل من حيث تعدد لغاته ، فهناك على الأقل تسعة عشر مجموعة عرقية ، يتحدثون حوالي مائة لهجة . ولا يمثل العرب سوى ٤٠٪ من السكان ، ولكن يتكلم العربية ٥٢٪ من السكان ، مما يبين أن اللغة العربية تتقدم على حساب اللهجات الأخرى . ونظراً لأن العرب أكبر عرق في البلاد ، فقد استطاعوا أن يستولوا على أهم مراكز السلطة ، مستفيدين من الخلافات الشديدة التي تسود أهل الجنوب وكانت اتفاقيات اديس أبابا (١٩٧٢) قد وضعت حدا موقتا لأول انتفاضة يقوم بها أهل الجنوب ومنحتهم بعض الاستقلال الذاتي ، فلم تعد العربية لغة رسمية في الجنوب ، وأصبح لمديريات الجنوب الثلاث - بحر الغزال ، والمديرية الاستوائية ، ومديرية النيل الأعلى - مجلس نيابي ، أي برلمانها الخاص . هيأت هذه الاتفاقيات للسودان سلاماً موقتاً ، ثم عادت الحرب الى الجنوب عام ١٩٨٠ ، وقد يمتد التمرد إلى مديريتي البحر الأحمر وكردفان . وعلى هذا لم يعرف السودان بعد استقلاله سوى ثماني سنين من السلام .

وقد مر بالسودان ثلاثون عاماً من الحروب الأهلية ، التي مزقته وأشاعت المجاعة في بلد يملك أضخم الموارد الزراعية في المنطقة .

العناصر العرقية	السكان في ١٩٨٩(٥)	العناصر العرقية	السكان في ١٩٨٩(٥)
عرب	٩٥٠٠٠٠٠	نوبر	١١٠٠٠٠٠
فور	٣٢٠٠٠٠٠	زند	٥٠٠٠٠٠
دنكا	٣٠٠٠٠٠٠	نوبيون	٨٥٠٠٠٠
بجة	١٥٠٠٠٠٠	اعراق أخرى	٣١٥٠٠٠٠
نوبة	١٤٠٠٠٠٠	المجموع	٢٤٢٠٠٠٠٠

الفصل الخامس

تجديد الهوية الوطنية ـ الحالة العراقية

* المعارضة وتجديد البنية الفكرية
* الهوية العراقية الممزقة
* الشيعة والمشكلة الطائفية
* ملاحق معلوماتية عن إشكاليات الوضع العراقي وتنوع الفئات اللغوية والدينية والمذهبية
* قضية كردستان الكبرى وحقوق السريان
* ملاحق خاصة بقضية السريان

المعارضة العراقية والبناء الفكري الجديد*

«صرخت عشتار كامرأة في مخاض :

كيف انتهت الى طين تلك الأيام القديمة . .»

گلگامش

التاريخ يثبت أننا شعب ذو خيال مبدع خلاق ، ولعل قرون الحقبة المظلمة وأجيال التجارب الدامية عمقت فينا الخوف من التفكير والإبداع في رؤية الواقع . تعلمنا ان نستخدم خيالنا وحسنا النقدي المتمرد في مجالات الشعر والفن وتفاصيل الحياة الحسية والروحية ، إلا في الواقع السياسي ـ الاجتماعي . جردة سريعة لتاريخ الحركة السياسية والدولة العراقيةالحديثة ، منذ تكوينها عام ١٩٢١ حتى الآن ، يكشف عن شبه الغياب للبحث الفكري السياسي . يكفي القول أن جميع ما أبدعته الحركة السياسية ، حكومات وأحزاباً ، طيلة عقود انتاجها الفكري ، لم يعادل ما أنجزه باحث متخصص واحد (على سبيل المثال العمل الكبير الذي أنجزه الباحث الفلسطيني ـ الأمريكي حنا بطاطو ، عن تاريخ العراق السياسي ـ الاجتماعي الحديث) . بل إن هذه الحركة كانت قاصرة حتى عن الاهتمام بترجمة ما يكتبه الآخرون عنا ، وفي معظم الأحيان يتبرع أشقاؤنا الشاميون بالقيام بهذه المهمة .

طبعاً يمكن الحديث عن دور القمع والإبادة الوحشية المستمرة ضد المثقفين خصوصاً الذين يقتربون من حرمة الدولة وتوابعها الفكرية . ولهذا كان الابداع في الفن والأدب أقل خطراً من البحث الفكري والسياسي . يبدو أن ديمومة الحالة خلقت شروط تكرارها حتى لدى الذين يرفضونها أساساً . فجميع أطراف الحركة السياسية استطابت لحالة الكسل الفكري هذه ، ووجدت التعويض عن ذلك بترجمة و«تعريق ـ أي جعلها عراقية» الشعارات

* تتوجب الاشارة الى ان هذا القسم وكذلك الاقسام الاخرى الخاصة بالعراق قد نشرت على شكل مقالات في الصحف ، منذ عام 1992 ، ولهذا فان بعض المقترحات الواردة قد تم الأخذ بها من قبل المثقفين والسياسيين العراقيين في الخارج . لكن مع هذا فان اغلب المقترحات لا زالت تحتفظ بأهميتها وتستحق الحوار والتذكير .

والأهداف الكبرى مع بعض التلاوين والرتوش العراقية . ويتم إضفاء البعد الفلسفي العميق على هذه الشعارات عن طريق الاستشهاد بمصادر وتحليلات كبار المفكرين الخالدين والمبجلين من أجانب وعرب ومسلمين ، حسب الطلب .

في هذا المجال ، نحن متخلفون حتى مقارنة بأشقائنا وجيراننا . العجيب أنه حتى حزب البعث الذي يحكم العراق منذ عقود ويستحوذ تماماً على الدولة والمليارات والمؤسسات الإعلامية والآيديولوجية ، لم يستطع أبداً تكوين ولو نصف مفكر عراقي بعثي بمستوى المفكرين البعثيين القادمين من البلدان المشرقية! حتى المحاولات التلقائية الصغيرة كان يقمعها جسدياً أو يدفعها الى الصمت . جميع كبار المفكرين الذي اعتمدهم الحزب هم من أشقائنا الشاميين : منيف الرزاز أردني (لسوء الحظ لم ينج من الاعدام) ، الياس فرح لبناني ، ميشيل عفلق سوري . ولعل صدام حسين هو «المفكر» العراقي الوحيد الذي أنجبه حزب البعث وسمح لنفسه أن لا يصمت وأن يبقى طليقاً وحياً أيضاً!

الحركة السياسية العراقية بجميع أطرافها لم تخلق مفكريها . لهذا فإنها حتى الآن لم تنجح في خلق أي تيار فكري ـ سياسي أصيل ومزروع في الواقع العراقي . ونشكر الله أن هناك دائماً من الأشقاء والأصدقاء من يفكر نيابة عنا : بعثنا وعروبتنا صنعها لنا الشاميون ، واشتراكيتنا جلبناها معلبة من موسكو وبكين وهافانا ، وإسلامنا لا زال يصنعه لنا إخواننا الإيرانيون ، أما ديمقراطيتنا فها هو الغرب يهبها لنا معطرة ببارود وإذلال . . .!

المثل العراقي والعربي يقول : (لا يحك جلدك مثل ظفرك) . فالاقتباس والتعلم من الآخرين ، أشقاء وجيراناً ، وحتى أعداء ، أمر جيد ومقبول ، لكن خصوصية الواقع والأحداث تفترض الأصالة في الكشف والتحليل ، لا التقليد والتكرار . رؤانا خارج الزمان والمكان . برامجنا وشعاراتنا ثابتة لا تتغير سوى تواريخ إصدارها . بيان الحزب الفلاني الصادر في أعوام الخمسينات يصلح ، مع تغييرات طفيفة ، ان يصدر في أعوام التسعينات . كل جيل ينقل عن الآخر وكل حركة تنقل عن الأخرى . كسل فكري مع إصرار عجيب على غرور الابداع الزائف . رغم كل هذه الفواجع والكوارث في بلادنا ، ورغم كل المتغيرات الفكرية والسياسية في العالم ، ليس هناك غير ترجمة إخبارية لما يقال في الخارج . لا حوارات ولا مناظرات ولا مؤتمرات فكرية ولا نقد ولا إعادة نظر بأي من الطروحات العتيقة المقدسة .

مثال ساطع على هذه الحالة يكفي استطلاع كم من القضايا التي نتداولها منذ أجيال

في أحاديثنا ـ غير المعلنة ـ ، بينما هي ملغية تماماً من حواراتنا الرسمية وبيانات وتصريحات أحزابنا : قضية الكويت ـ مثلاً ، منذ فجر التاريخ وهي محل تداول جميع اتجاهات وانتماءات العراقيين . منذ طفولتنا وحتى الآن ونحن نستمع الى أهالينا يتحدثون عن تبعية الكويت للعراق ويتحسرون على ضياع هذا الجزء . جميع الحكومات العراقية ، ملكية وجمهورية حلمت بعودة الكويت للعراق . . . رغم كل هذا ، وبقدرة قادر ، ظلت هذ القضية أبداً غائبة عن تنظيرات وبرامج الأحزاب والحكومات . بل العجيب انه حتى نظام صدام والبعث لم يكتب أو يفكر أو يلفظ سطراً واحداً بشأن الكويت قبل أن يغزوها! يبدو أن الكفاح والحرب والموت لدينا أسهل بكثير من التنظير والكلام!

هناك أمثلة عديدة لمثل هذه القضايا المطروحة دائماً في نقاشاتنا الشخصية ، لكنها مغيبة تماماً عن تنظيراتنا وحواراتنا المعلنة والرسمية : قضية التمايز السياسي والطائفي بحق الشيعة والأغلبية الجنوبية . تفاصيل وإشكالات االفئات الدينية واللغوية ، وحقائق العلاقات بين العرب والأكراد والطروحات الانفصالية المعروفة والغير معلنة . الفترة الملكية والمشاريع التي يتقول بها الكثيرون . . وقضايا أخرى نتداولها جميعنا ولكننا نفضل وضعها تحت الطاولة لأن الحديث بها يثير الشجون . ثم (وهذا هو الأهم) أننا دائماً نميل الى الصمت والتستر ، كأشخاص مرضى كل منهم يخشى أن يكشف علته لجاره ، فيستحيل الصمت آفة تفتك بهم واحداً بعد الآخر .

حالتنا السياسية تجد تعبيرها الفاجع في حياتنا الاجتماعية ، من خلال علاقاتنا مع بعضنا البعض ، نحن العراقيين في المهجر . في جميع القارات وفي أية جالية عراقية تستمع دائماً لنفس المشكلة : الحزن والألم بسبب عدم القدرة على الالتقاء والحوار بين بعضنا العبض ، لأن اللقاء والحوار مهما كان اجتماعياً وصداقياً يؤدي في أغلب الأحيان الى الخراب والى العنف والدم حتى . كوارث الوطن وعذابات المهجر عمقت فينا عقدة الصمت . أي حوار مهما كان حيادياً وجمالياً كفيل بمس جراح الخيبات وإيقاظ وحش النكبات الذي يمسخ في لحظات كل جميل وانساني : الحوار يستحيل الى جدل ، والحكاية الى رد وإفحام ، والرأي الى مسامير صدئة ، والضحكة الى سهام مسمومة . . وفي النهاية تنمسخ جلسة الحب الى صورة مصغرة لحال الوطن : حقد وغيرة ونميمة وانفجار مرتقب! قمع الدولة من ناحية وفردانية قادة الحركات السياسية من ناحية أخرى ، وضعت المثقف أمام خيارين لا ثالث لهما : إما

تابع ومفسر ومزوق لإرادة السياسي ، وإما خصم مهمش ومبعد ومنبوذ اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً طبعاً .

رغم التشرد والعازة وإذلال المنفى فإن معظم المثقفين العراقيين لا زالوا يمتلكون إصراراً رائعاً على ديمومة الابداع وعشق الوطن . لكن ثمة صمت شاحب يكبر ويهيمن يوماً بعد يوم ، باستثناء أقلية من الذين ما زالوا في ساحة الحوار والنقد والمطالبة ، فإن الأغلبية الساحقة قد التجأوا الى الصمت الحزين اليائس . رغم تمردهم على ما آلت اليه حالتنا ، إلا أنهم ارتضوا الإدانة السلبية التي ترفض حتى الدخول بالموضوع ؛ إذ يعبر بعضهم عن خلاصة رأيه في الحالة ببضعة كلمات هي خلاصة الخلاصة :

« ـ الحالة تعبانة . . دعنا عن الموضوع .»

ومهما حاولت سوف لن تجد إلا التشكي والسأم من الذي جرى ويجري ، والغياب التام للحوار والتحليل الموضوعي ، وفقدان الأمل بأي مشروع حضاري في الأفق .

تجربة السنوات الأخيرة للمنفى أبرزت خاصية يتمتع بها المثقف العراقي موروثة منذ عهد سحيق : ذلك الشغف الشفاف بسمو الانسان والتاريخ ، لكنه شغف مخدوش بجرح لا يندمل من احساس أصيل بلاجدوى الحياة . وهذا هو سر الصراع الأزلي في أرواحنا المنفصمة . في انتصاراتنا وملذاتنا يسمو فينا الانسان والوجود ؛ وفي إحباطاتنا وخيباتنا تنزف أرواحنا بذكريات اللاجدوى وقدرية الفناء ، وترانا في هزائمنا نعلنها بعبثية لا ترحم كما أعلنتها من قبل سيدة الحانة لگلگامش :

«لقد قدرت الآلهة الفناء للانسان . .
واستأثرت بخلود الحياة
فاملأ بطنك بملذات الطعام
وابتهج ما شئت ليل نهار . .
فهذا هو نصيبنا من الدنيا!»

* * *

غياب التفكير والحوار عن حياتنا السياسية والاجتماعية صار داءً يتأصل فينا يوماً بعد يوم . بناء الديمقراطية في بلادنا لا يمكن أن يوكل الى شركات أجنبية متخصصة . الديمقراطية

يشيدها الديمقراطيون المؤمنون حقاً بالمشروع الديمقراطي . ولكن الحالة الروحية والفكرية والسياسية للأسف لا توحي بأننا نجحنا فعلاً بخلق فكر ديمقراطي عراقي أصيل مع نخبة مؤمنة وقادرة بتلقائية على الحوار والتبادل والانفتاح . هذه حقيقة قاسية ومرة ، وتزعج الجميع وخصوصاً رجالات حركاتنا السياسية .

غياب الحوار والتفكير الأصيل والواقعي جعلنا منذ عقود نتخبط في دوامات من التيه . جميع حركاتنا السياسية أنهكتها صراعات أسبابها لا تمت الى الواقع بصلة . ضيعتها العموميات والشعارات التي تتشابه حتى بمفرداتها : ثوراتنا الجمهورية والديمقراطية والقومية والاشتراكية ، لم تكن إلا إعلانات موت لهذه الشعارات : حروب اهلية ودولية خاسرة ، واصلاحات اجتماعية ممسوخة ، ومليارات ثرواتنا الوطنية استهلكتها التنمية الحربية والبوليسية وعبقرية القمع . جميع قضايانا ما زالت هي هي ، بل تفاقم تعقيدها : لم تكفنا إشكالات الانقسام الاجتماعي والسياسي والقومي والديني ، والآن يضاف الى القائمة انقسام جديد وخطير اسمه الانقسام الطائفي!

معارضة النظام الحالي في بلادنا ، لا تعني فقط معارضته سياسيا ، انما اساساً معارضته حضارياً وعقلياً . طرح بديل تاريخي حقيقي لمعضلة دولتنا ومجتمعها . اعادة النظر في جميع المحرمات والمقدسات التي تراكمت علي طريق تفكيرنا . ممارسة التعددية الفكرية والسياسية والحوار النقدي الصريح مع الذات ومع الآخرين ، قبل مطالبة الدولة بممارستها . يكفينا منذ اجيال ونحن نكافح الأنظمة السيئة بمشاريع سيئة ، ونطيح بظالم لنأتي بظالم آخر .

إن المطلوب منا جميعاً البدء بحوار حضاري وانساني يأخذ بنظر الاعتبار الغايات التالية :

١- من اجل الديمقراطية وخلق تيار فكري مستقل :

اذا كانت الاتجاهات السياسية وتنظيماتها أشبه بالأحجار التي يتكون منها البناء العقلي لأي شعب ، فان الذي يجمع صرح هذه الأحجار ويشدها الى بعض هو الفكر والثقافة المستقلة . الثقافة المستقلة هي البحيرة التي تطفو عليها وتمخر عبابها سفن الأحزاب . سر تشتتنا الروحي والسياسي يعود أساساً الى فشلنا في خلق فكر وثقافة عراقية مستقلة ومتخلصة من هيمنة الطروحات الملتزمة بالمعنى الحزبوي والضيق . واحدنا تعود أن يطرح رأيه ليصف في خانة الاتجاه والتنظيم الفلاني ، وإلا فإن تهمة العمالة للحكومة جاهزة حسب

القياس . الصمت لتجنب أوجاع الرأس أمر منصوح به دائماً . . . وهذا ما آلت اليه الحال .

وفي الجهة المعاكسة ، فإن ثمة حالة قد تنامت بين المثقفين المستقلين والمبتعدين عن الارتباط الحزبي ، هي نوع من الاحتقار والاستخفاف المتعالي بجميع الطروحات الملتزمة ، ليبلغ حد الحقد أو التعصب وبالتالي الوقوع في الحزبية المضادة . يصل الأمر الى حد اتهام جميع الأحزاب والاتجاهات بالخيانة والعمالة للقوى المحلية والأجنبية ؛ ليفهم من هذا ان صاحبنا وحده المسيح المنقذ والجميع ما هم إلا نسخ مكررة من يهوذا .

والحال فان المطلوب لا هذا ولا ذاك . الحوار والقبول بالتنوع والاختلاف هو المطلوب . ان من يدين الحركة السياسية ورجالاتها على كل هذه الأمور يجب أيضاً أن يمتلك ما يكفي من ضمير وصدق وتواضع ليحترم فيهم المخلصين والصادقين في ايمانهم والحالمين بالأفضل والأجمل والذين نذروا زهرة شبابهم في السجون والتشرد والحرمان الوحشي . من لا يؤمن بالشيوعية ، يمكنه أن يحترم فيها ذلك الحلم الجميل الذي منح أجيالاً كاملة عنفواناً رقراقًا وأملاً بالمستقبل . أما الملحد ، فانه يستطيع تقدير حاجة الانسان للإيمان بإله عادل جبار يمنحه القوة والأمان لمواجهة غدر الزمان . المستقل ، يمكنه أن يتفهم المنتمين والملتزمين لأنهم ربما أكثر حرصا منه على انقاذ الوطن . من يعشق المدينة ليس مضطراً أن يحتقر الريف ؛ وبانتظار نور الشمس ليمضي المرء في مسامرة القمر .

٢ - من اجل النقد الذاتي واعادة تقييم تاريخ الدولة والحركة السياسية العراقية :

ان تخلفنا في معرفة ماضينا سبب ونتيجة لتخلفنا في معرفة حاضرنا ، ثم فشلنا في وضع برنامج واقعي وممكن لانقاذنا من كوارثنا وتوجهنا نحو مستقبل أقل مأساوية . بكسل فكري قياسي نستمر باختصار تاريخ دولتنا وشعبنا عبر شعارات من الشتم أو المديح . حقبة طفولتنا نطلق عليها (العهد الملكي المباد) ، وحقبة مراهقتنا الجمهورية وطيشنا الثوري أغرقناها في طوفان الألقاب الرنانة . أضفينا على تجاربنا الخائبة ، مسحة وطنية هي مزيج من مأساوية التصوف الآسيوي ونرجسية البطولة الأوروبية : جميعنا ضحايا وجميعنا أبطال . أما كوارثنا ومشاريعنا الدامية فلا أحد مسؤول عنها ، لأننا كلنا مسؤولون عنها . حتى الآن لا زالات أحزابنا تدين المذابح التي عانت منها وتعتبرها ردة ونكسة ، أما المذابح التي قامت هي بها ، فتعتبرها انتصارات وكفاحاً ضد الحاقدين من الرجعيين أو الملحدين أو العملاء . . الخ . إن تغيير الحاضر لن يتم إلا بالايمان حقاً بتغييره . وهذا الايمان لن يكون ما دامت الروح ملوثة بأكاذيب الماضي والتستر على آثامه . الشعوب والجماعات مثل الأفراد ، . لن يكون الانسان

سوياً وطبيعياً في حاضره إلا بعد كشفه عن ماضيه وانفتاحه على ذاته من اجل تخطي الذكرى وانقشاع الرؤيا .

لنعترف على الأقل أن غبار الماضي لم يزل يحجب عنا رؤية الحاضر .

٣ - من اجل نبذ العنف وسيادة الحوار وقدسية الكفاح السلمي :

كل الشعوب تمر بحياتها في فترة يسودها العنف والدم . ولكن دور المثقفين كان دائماً رافضاً للعنف من أي كان . ولا تحل الكارثة في أي شعب إلا عندما يصبح العنف والسلاح مبدأ مقدساً يدافع عنه حتى الشعراء الذين يدمعون لمرأى الفراشات وطيور البطريق !

النظام لدينا أسطورة عن سلاطين أراودا امتلاك الخلود بتعاويذ القبور ونهش القلوب وارتداء الجلود والنوم على قرع الحروب . انه نظام اسطوري حقاً ، الى حد غدا له أمراً طبيعياً جداً بل وحتى شاعرياً وجميلاً أن يكتب على جدار جميع مدارس العراق ذلك الشعار البعثي الأقرب الى التعويذة الاسطورية العجائبية :

« وطن تشيده الجماجم والدم

تتهدم الدنيا ولا يتهدم . .!»

أمام ثقافة الجماجم هذه ، ماذا طرحنا نحن المعارضين والمعترضين على سلطة الخراب ، أي بديل ثقافي روحي . . .!؟ وكأن حالة العنف قد سحرتنا بأسطوريتها . عذابات التجربة وقسوة الأحداث ما كفت عن إسقاطنا في قدرية العنف ودائرته الجهنمية . قدسناه وشرعنا نصوغ له تعاويذنا المحدثة : الثورة ، العنف الثوري ، الكفاح المسلح ، حرب المدن ،حرب التحرير الشعبية ، الانتفاضة المسلحة ، الطريق الى السلطة يمر عبر فوهة البندقية ، الزحف المسلح من الريف الى المدينة ، أو العكس . . والخ . ثم أتانا الإسلاميون ليحيو لنا من جديد كلمة «الجهاد» ، ونتفوا عنها كل معانيها الروحية والكفاح بالمال والوقت والكلمة ، وأصروا على الحفاظ فقط على معنى الموت والقتال والاستشهاد والعمليات الانتحارية . لا زلنا الأوائل في التسابق نحو الموت . من كردستان نحن أول من تعاقد مع العصيان المسلح الدائم والأزلي ، من الجنوب انتفاضات الأهوار لا تكف تخبو وتشتعل ، مع الفلسطينيين ثم الإسلاميين فإن العراقيين أول من ساهم بالعمليات الانتحارية . . فضلاً عن تفتق العبقرية العراقية (الرسمية) عن مكتشفات صناعةالحروب والأسلحة الكيمياوية والنووية . . حتى صار الكون العرقي والمشرقي يرتج ليل نهار : بالروح بالدم نفديك يا هذا . . . بالروح بالدم . . .!!

كل هذا لم يكف ، بل الذي ينتظرنا سوف يجعلنا نتحسر عل ما نحن عليه الآن ، كل يبتغي تغيير النظام ، ثم وبعد؟ إنها مسألة لا تتطلب الكثير من التفكير : معاقبة ومحاكمة أتباع النظام الحالي ، أمر مفروغ منه ، أليس كذلك؟ كل معارض في ذهنه على الأقل ثلاثة أو اربعة سيطالب بسجنهم واعدامهم وفرم لحمهم بعد سقوط النظام ، بالاضافة الى قطف جميع الرؤوس التي أينعت في بساتين الحكم . وهكذا فان الثورة تبدأ بأكل أعدائها لتنتهي بأكل رجالها . كم من الآلاف المؤلفة الذين ستدخل السجون ، وكم من المشانق ستنصب ، ثم كم هم الذين سيهربون الى الخارج ليحلوا محلنا في دهاليز المنفى . والعوائل والأطفال الذين سيحرمون من معيليهم . . . كل هذا من اجل العدالة الثورية ، لكي نعود من جديد لتمثيل مسرحيةالخراب الدائم .

علينا منذ الآن ، اتخاذ موقف صريح وثابت ضد العنف ، واعلان العفو العام عن جميع أتباع النظام . ان الخوف من عقاب النظام القادم يجبر الكثيرين على الدفاع عن النظام الحالي ، لأن الخوف يصنع التضامن والقوة . الوعد بالعفو سيكسب الكثيرين الى صفوف المعارضة . والوعد بالعفو يجنب الوطن خطر الحرب الأهلية ، لأن الخوف من العقاب يدفع الى الهجوم . ولتكن مثال لنا تجربة التغيرات في أنظمة البلدان الاشتراكية السابقة ، فحتى الآن لم يحدث ان حاول أحد أن يحاكم ويعاقب أي مسؤول شيوعي سابق . . . وهذا يكفي .

* * *

يجب إعادة الاعتبار لدور المثقف العراقي في داخل حركة التغيير السايسي . ان حقب القمع والتشريد عمقت الى حد متطرف عملية الفصل بين الحالة الثقافية والحالة السياسية في العراق . اذا كان المثقف يمثل الجانب الروحي الابداعي الجمالي والتنظيري من عملية التغيير فان السياسي يمثل الجانب الواقعي والمباشر والتطبيقي من هذه العملية . وطبعاً هذا الفصل تعسفي وغير حقيقي لأن الروحي والواقعي ، التنظيري والتطبيقي ، متوحدان في الحياة ، لكن الفصل القسري يمكن ان يتم في الظرف التاريخية الاستثنائية حيث يصبح كل شيء في خدمة المالك الاداري ـ السياسي ، ويسقط الفكر في الضرورة اليومية ، وتستحيل الكلمة واللون واللحن والخيال بكليته ، الى مادة خام لانتاج مال وسلاح ومساحيق تجميل للطامحين والمتمسكين بالثراء والجاه والسلطة .

لينطلق الخيال ولتنعتق الروح ، ولتعد الحياة الى الحوار والتفكير والابداع . ولتعطى

الكلمة الى المثقفين في تقرير مصير الوطن . لتعقد المؤتمرات الفكرية ، ولتنشر اعترافات السياسيين ومذكراتهم ، ولتسجل الحوارات النقدية والتحليلية ، ولتصدر البيانات التي تعبر عن مواقف المثقفين . ليطالب المناضلون أحزابهم بفتح الحوارات واجراء مراجعات النقد الذاتي . ليخرج الى العلن الجدل المكتوم والنقد السري وجرد الآثام . لتكن شعاراتنا : كشف الماضي من اجل كشف الحاضر . الديمقراطية مع الذات قبل الديمقراطية مع الآخر . بالسلم والحوار والتسامح نكافح العنف والدمار والوحشية . استقلالية القرار العراقي وتعاون ايجابي مع الأشقاء والجيران . انها ليست مهمة السياسيين والحزبيين وحدهم ، بل هي خصوصاً مهمة المواطنين والمثقفين المستقلين ، فنانين وأدباء وحالمين بمستقبل أقل وحشية واكثر انسانية .

المعارضة ودور المثقفين

ان النقطة الأساسية التي تستحق الذكر في معرض الحديث عن الوضع الثقافي في العراق ، أن سلطة البعث التي تحكم منذ عام ١٩٦٨ تميزت عن جميع السلطات العراقية السابقة ، بأنها أدركت منذ البدء ضرورة الاستفادة من تجربة مايسمى بالأنظمة الاشتراكية : السيطرة المطلقة على المثقفين من خلال الاغراء والقمع . وقد جندت السلطة لهذه الغاية مليارات النفط وتقنيات الغرب وأجهزة القمع ومؤسسات الحزب والدولة لشن أكبر عملية«غسيل دماغ» وتجهيل في تاريخ العراق الحديث . حتى وصل الأمر بمثقف السلطة الى حد الهبوط الى ما هو أدنى من الانمساخ الثقافي ، الى حضيض الإخصاء الرجولي بالمعنى المباشر للكلمة بحيث صار من الطبيعي للمثقف (ومعه باقي الفئات التابعة) أن يعلن تغزله بالنظام كما تتغزل الجارية بسيدها !!

الذي يهمنا اذن ، ليس الحديث عن دور السلطة في هذا الخراب ، فهذا أمر أصبح من البديهيات ؛ إنما الذي يعنينا بالذات هو دور المثقفين والسياسيين المعارضين للنظام والطامحين الى الخلاص من هذا الخراب وإقامة البديل الوطني الحضاري .

إن المراجعة السريعة لنشاط المعارضة العراقية المقيمة في المهجر ، وماذا قدمته حتى الآن للحركة الثقافية العراقية المقيمة أيضاً في المهجر ، تكشف عن ديمومة هذه العلة رغم حرارة وصدق الطروحات البديلة .

ثمة سؤال واقعي ومباشر يفرض نفسه في هذا المجال : أين هي عشرات الملايين من

الدولارات التي قبضتها وتقبضها المعارضة كمساعدات من الدول الأخرى لدعم الكفاح ضد النظام . . ؟

حتى بالنسبة للفهم الحزبي الضيق ، فان الكفاح السياسي لا يمكن ان يستغني عن الكفاح الفكري والثقافي . فهل يكفي لتغيير نظام استبدادي كوارثي واقامة نظام ديمقراطي عقلاني ، تلك الصحف والنشريات الحزبية والبيانات الثورية ؟ أين هي تلك الأموال الطائلة التي يمتلكها السياسيون ، والتي لم تستثمر حتى باصدار كتاب واحد ؟ هل فكرت يوماً المعارضة العراقية أن تمنح جزءاً من هذه الملايين لتلك الإسهامات الثقافية الشجاعة التي تخدم القضية العراقية ما يفوق نشاط عدة أحزاب مجتمعة : مثل مجلات «الاغتراب الأدبي» و«الملف» في لندن ، و «الجمل» في ألمانيا ، و «المدى» في قبرص ، وغيرها العديد من الإسهامات الفردية والجماعية الجريئة في أنحاء المهجر العراقي ، التي تعاني الفقر والكساد . من حق المثقف العراقي أن يستغرب هذا الاستخفاف والتجاهل لكفاحه اليومي من اجل أن يظل شريفاً ومبدعاً بنفس الوقت . المثقف العراقي يقتطع من مصدر عيشه لينجز مشروعه الثقافي ، ولا يسمع من السياسيين سوى الخطب وبيانات الاتحاد والانشقاق والعمليات المسلحة .

نحن متخلفون في هذا المجال حتى مقارنة بأشقائنا الشاميين مثلاً . يكفي أن يجتمع بضعة سوريين ولبنانيين في بلد ما حتى تنبثق الصحف الكبرى والمجلات المتخصصة ودور النشر والمنتديات والتجمعات التي تشمل جميع الجاليات العربية! أما نحن ، فلا بلدنا بملياراته النفطية قادر على الاهتمام بهذا الأمر ، لأنه ظل دائماً مشغولاً بتجييش الجيوش وصناعة الكيمياويات والنوويات وخوض الحروب الخاسرة . وأما معارضتنا فهي الأخرى مشغولة بالزيارات المكوكية وعقد المؤتمرات الدولية وتكوين الميليشيات المسلحة :

- هل فكرت المعارضة العراقية مثلاً بتكوين «دار نشر» تهتم بنتاجات المثقفين العراقيين* ؟
- هل فكرت المعارضة العراقية بتكوين صندوق لدعم الكتاب والدارسين والباحثين العراقيين الذين يشحذون لقمة الخبز من اجل الجهاد اليومي في الكتابة والبحث والدراسة؟
- هل فكرت المعارضة بتكوين لجان من المترجمين والمفكرين والمختصين والباحثين في الشأن

* تتوجب الاشادة بتجربة «دار المدى للنشر» في دمشق التي يشرف عليها الشيوعيون العراقيون .

العراقي ، والاستفادة من ترجماتهم وكتبهم وبحوثهم في تطوير الفكر السياسي العراقي؟

- هل فكرت المعارضة باصدار مجلة سياسية فكرية منفتحة على جميع المثقفين العراقيين ، لتطوير الحوار والنقاش في المسألة العراقية ؟

طبعاً ، مع كل هذه التساؤلات ، يمكن الإشادة ببعض المحاولات المحدودة ، التي تحاول انجاز بعض هذه المهمات الكبيرة .

إذا كانت المعارضة العراقية تكافح من اجل البديل الوطني ، فإن من أول خصال جميع الحضارات الزاهرة في التاريخ ، هي الانفتاح والتنوع الثقافي والديني ، من خلال منح الحكماء والمثقفين المجال الواسع للمشاركة في تسيير الدولة والمجتمع : «الى جانب السياسيين من ملوك وإداريين وعسكر ، هناك دائماً الحكماء والمنجمين والرهبان والأطباء والشعراء والفنانين وغيرهم» . مثل هذه المشاركة الواسعة بين السياسيين والمثقفين تشهد عليها كذلك جميع الأنظمة الديمقراطية الحالية . وليس من الضروري للمعارضة انتظار السيطرة على الدولة للشروع بمثل هذه المشاركة ، بل يتوجب التهيئة لها منذ الآن ، من خلال الاعتراف بحرية المثقف وإشراكه المباشر في جميع القرارات السياسية . وتشجيع المثقفين (مادياً ومعنوياً) على التجمع وتكوين اللجان وعقد المؤتمرات الفكرية للإسهام بخلق بديل حضاري وثقافي للوضع الكارثي العراقي . لكي تثبت المعارضة العراقية حقيقة مشروعها الحضاري ، عليها منذ الآن الاعتراف العملي بدور متميز للمثقفين العراقيين .

أن يتم إشراك لجان المثقفين بصورة أساسية (نشدد هنا على كلمة أساسية) في جميع قيادات ومؤتمرات واجتماعات المعارضة . وهذا هو الشرط الأول لكي تتخلص المعارضة من ضعفها الثقافي والجماهيري ، ويكف الخطاب السياسي العراقي عن تبسيطيته وتعنته الحزبي .

المعارضة وقضية الديمقراطية

المتتبع لتاريخ العراق الحديث يرى أن مفهوم الديمقراطية كان شائعاً منذ تكوين الدولة العراقية عام ١٩٢١ . وكانت الدولة وجميع الأحزاب تستخدمه بالمعنى الليبرالي على المثال الانكليزي . وحتى التيارت المختلفة من محافظة حتى يسارية كانت بشكل أو آخر تحاول أن تحتذي بالتيارات السائدة في أوروبا الليبرالية . حتى الحزب الشيوعي العراقي ، ورغم حرمانه

الدائم من العلنية ، إلا أنه ظل متفقاً بالتمام مع طبيعة اللعبة البرلمانية ، فكان يطالب بحقه بالعلنية والمشاركة . بل إن هذا الحزب ، حتى عام ١٩٥٨ لم يصدر أية وثيقة تحث وتطالب بإسقاط النظام الملكي . كانت جميع الأحزاب تدعو الى تغيير الحكومة مع إصلاحات اجتماعية سياسية مختلفة لا تمس أبداً الطبيعة الملكية للنظام .

موت النظام الملكي بدأ بموت فيصل الأول (١٩٣٣) ، ويُعتقد أن الانكليز ساهموا بموته بسبب ميوله الوطنية ، ثم اغتيال ولده الملك غازي (١٩٣٩) بسبب ميوله «الألمانية» . أخذ الانكليز يدفعون النظام بالقوة نحو إقطاعيي الريف ويعزلونه عن الطبقة الوسطى المدينية : رأسماليين وضباطاً ومثقفين وموظفين واختصاصيين وغيرهم . لأن الميول الوطنية والراديكالية الاصلاحية لهذه الطبقة كانت تزعج الانكليز . ووصلت قمةالأزمة في النظام في أعوام الخمسينات عندما تفاقمت عزلته عن الطبقة الوسطى . وهذا الأمر طبعاً كان يدفع أكثر فأكثر بهذ الطبقة نحو التيارات الجذرية والتقرب من الطبقات الكادحة من عمال وفلاحين ، وتبني الدعوات الثورية القادمة من الخارج . ان جبهة الاتحاد الوطني من شيوعيين وبعثيين وقوميين (عرب وأكراد) وبقيادة الضباط الأحرار كانت تمثل القطيعة بين الطبقة الوسطى والنظام الملكي ، ووصل الأمر الى القيام بثورة تموز ١٩٥٨ ، التي كانت تقليداً للتجربة الناصرية .

مع نهاية الخمسينات بدأت تأثيرات التجربة الناصرية بالاضافة الى التجارب الثورية الأخرى في الصين وآسيا وأمريكا اللاتينية ، المدعومة من قبل المعسكر الاشتراكي والحركة الشيوعية والماركسية العالمية . إذ تم تبرير جميع الممارسات الدكتاتورية بطروحات نظرية تعتمد على مفهوم «دكتاتورية البروليتاريا» أو ما يسمى أحياناً بشكل مخفف : «الديموقراطية الشعبية» . وهذه التجارب الثورية والمعادية للامبريالية كانت تتفق على رفض الديمقراطية البرلمانية على أمل بناء ديمقراطية حقيقية لكل طبقات الشعب الكادح . وباسم هذا الشعار كانت تدعو وتمارس بدرجات ومسميات مختلفة نظام الحزب الواحد أو القائد . وأحياناً يكون هذا الحزب القائد محاطاً بأحزاب تابعة تحت ستار جبهة وطنية .

ثورة ١٤ تموز أحدثت قطيعة كاملة مع البنية السابقة للدولة والمجتمع ، وخصوصاً في قضية الديمقراطية . الأمر الذي يستحق الانتباه حقاً ، أن ثورة تموز كانت أشبه باعلان موت لجميع الأحزاب الرسمية والمجازة في العهد الملكي السابق ، حتى التي ناصرت الثورة مثل الحزب الوطني وحزب الاستقلال . وهذا يعني بالتالي موت جميع التيارات السابقة التي

كانت تدعو الى الديمقراطية البرلمانية . التيارات الجديدة التي هيمنت على الساحة السياسية كانت جميعها تعيش سابقاً بسرية ، وهي تتوزع بشكل عام الى التيار شيوعي ، ثم تيار قومي - بعثي ، وتيار ديني ضعيف ، بالاضافة الى الحركة الكردية بتياراتها القومية والماركسية . والغريب ان جميع هذه التيارات كانت تختلف في كل التفاصيل وتتصارع فيما بينها الى حد الموت ، إلا أنها في الموقف المتردد والحذر إزاء الديمقراطية كانت تتفق دائماً ، باسم معاداة الليبرالية والميول الرأسمالية الغربية !

نجاحات حركات التحرر واندحار الاستعمار ثم اندلاع الحرب الباردة وانقسام العالم الى معسكرين متصارعين وانتشار مبادىء التقدم والاصلاح الثوري ، كل هذا دفع بمفهوم الديمقراطية البرلمانية الى الانحدار الى أسفل قائمة الأهداف الوطنية . ارتفعت الى رأس القائمة أهداف التحرر من الاستعمار والتغيير الاجتماعي والتصنيع والاصلاح الزراعي وحقوق العمال ، بالاضافة الى هدف الوحدة والانبعاث القومي . لهذا فقد سادت الدعوة والتثقيف بالنموذج الثوري الرافض للتعددية و«الانحلال الليبرالي» : النموذج الناصري والسوفياتي والصيني ثم اليوغسلافي والكوبي . كل هذه التجارب ، كما نعرف ، بالنتيجة كانت تطبق نظام الحزب القائد والفكر الواحد . وهذه الحالة قد سادت وبدرجات متنوعة أغلبية البلدان العربية والعالم الثالث .

في نهاية عقد الثمانينات ، من جديد شرعت جميع التيارات السياسية بالاتفاق على هدف الديمقراطية البرلماينة ، بصورة شبيهة بالحالة التي كانت سائدة زمن الملكية . يبدو أن نهاية المعسكر السوفياتي وسقوط حلم الاشتراكية وفشل ثورات العالم الثالث قد أسقط أهداف التغيير الاجتماعي والاصلاح الثوري الى أسفل القائمة ورفع عالياً هدف الديمقراطية والتعددية البرلمانية ونظام السوق .

أمر طيب أن يسود الآن الحديث عن الديمقراطية جميع التيارات السياسية العراقية والعربية . لكننا كالمعتاد لم نستطع أن نبتدع الأساس الروحي والفكري لهذه المسألة . ليست مشكلة أننا نتغير حسب الموجة العالمية السائدة ، وليست مشكلة أن نكون أشبه بالتلاميذ الذي يقلدون أساتذتهم الكبار ، لكن المشكلة أن معظمنا ظلوا غير مجتهدين وحفظة دروس يكررونها دون أن يستوعبوا منها أية معاني تساعد على التطبيق المبدع والأصيل .

إننا حتى الآن نرفع هدف الديمقراطية كشعار ونطالب فعلاً بتطبيقه على الدولة والوطن ، لكننا في نفس الوقت نعيش ازدواجية قاسية في الايمان العميق والعملي به . يمكن اكتشاف هذه الازدواجية لدى أكثر المطالبين بالديمقراطية الذين يدعون الى حرية وشرعية وجود الأحزاب والتيارت الفكرية الأخرى ، بينما في تفاصيل القناعات وأثناء الحوار الشخصي والعميق مع هؤلاء «الديمقراطيين» نكتشف انهم معادون ومتألمون من وجود الأحزاب والتيارات الأخرى ، الاسلامي ، مثلاً ، قد يعلن منذ أول الحديث عن إيمانه بالديمقراطية ويؤكد دفاعه عن حرية وجود اليساريين والعلمانيين لكنه في التفاصيل يكشف تدريجاً عن وجهات نظره «الشخصية» من أن الشيوعيين والعلمانيين خونة وكفرة ويحق الحد والعقاب عليهم وأنهم ماديون لا أخلاق ولا ضمير ولا دين لهم وأنهم وأنهم ، حتى يكشف بالنهاية عن ازدواجية كوميدية عجيبة : الايمان بحرية الآخر ، وبنفس الوقت الايمان بشرعية تكفيره وتحريم أفكاره وحتى مقبولية إسكاته وتصفيته . وطبعاً ، فان صاحبنا الديمقراطي جداً هذا ، لا ينسى أن يضيف في خاتمة الحديث : «أنا ديمقراطي ومسألة العقاب والمنع نتركها للشعب . . .» !

نفس الحالة بالضبط نجدها عند اليساريين والشيوعيين . واحدهم قد يجابهك منذ البداية بايمانه الديمقراطي ، لكنه في التفاصيل يكشف عن اعتقاده بأن التيار الآخر ، القومي أو الاسلامي ، رجعي وبرجوازي ، ووجوده وقتي وتكتيكي ، وأن الفكر الأصح هو الاشتراكية ، والشعب الكادح سيكتشف يوماً من هي طليعته الحقيقية التي تقوده نحو المستقبل الاشتراكي ، وأن جميع التيارات والأحزاب وقتية وستفقد أهميتها ومصداقيتها مع الزمن ونمو الاشتراكية!

طبعاً هذا الموقف «السياسي» منبثق أساساً من موقف تربوي اجتماعي . يبدو أن قسوة التجارب والمجازر والحروب التشرد والقمع الدائم ، تزرع في روح وعقل الانسان خاصية رئيسية تستفحل الى حد الهيمنة المطلقة : التكتيك والمراوغة وفن إظهار غير الذي يعتقد به ، مجاملة وتجنباً للمتاعب وحسب موازين القوى . المبدأ السائد في الحوارات يتلخص كالتالي : لكي أحترم اختلافك عني ، اذن يجب عدم الحوار معك . الاختلاف يعني بالنسبة لنا وقف الحوار وتغيير الموضوع . لقد تم التعود على أن استمرار الجدل بين رأيين مختلفين يؤدي عادة الى الغضب وجرح المشاعر وربما الى القطيعة التامة . والمجال الوحيد للحوار ، هو بين طرفين متفقين بالرأي . وفي أحسن الأحوال عندما يتم الحوار بين رأيين مختلفين فانه لكي يبدأ ويستمر

فيجب اللجوء الى المجاملة والكذب والتملق . لأن الحوار السائد ، إما مديح ومجاملة ، وإلا فإنه خلاف وخصام وشجار خطير . إن عبارة «هذا رأيك وأحترمه . .» تستخدم دائماً لإنهاء الحديث وإلغاء الحوار . فالحوار فقط مع الذي نتفق معه ويتفق معنا !

النقد الوحيد المفضل ، إما خلف الظهر وغياب المتهم . إما هو النقد اللامباشر والمبطن أو ما يسمى بـ «لغة المسامير» . أي إشعار الآخر بالاختلاف معه دون التصريح المباشر ، إنما من خلال العبارات المبطنة والتهكمات ، ويصل الأمر الى حد اللجوء الى اختلاق أية حجة للانتقام وإيذاء وجرح كرامة الآخر دون التصريح له أبداً بأساس الخلاف الحقيقي . مثلاً ، الحزب الفلاني عندما يعمل جبهة مع الحزب الحكومي الفلاني فانه يجب أن يكيل له المديح والتملق الى أقصى الحدود لكي يوصل له في النهاية بعض النقد المبطن والمؤدب ، ولكنه بنفس الوقت (خلف الظهر) يثقف أنصاره ليل نهار بحتمية ذوبان الحزب الحاكم ونهايته مع احتدام الصراع الطبقي!

إن العجز عن استيعاب درس الديمقراطية يكمن في العجز عن استيعاب الذات واحترام الهوية والخصوصية الفكرية للأنا ثم الآخر . حتى الآن لم يستوعب معنى الدين ولا معنى الاشتراكية ولا معنى القومية ولا معنى الاستقلالية الحزبية . هل يستطيع اليساري العلمي أو الملحد أن يعتبر الدين حالة انسانية وروحية وجمالية ونفسية تمنح الانسان الاستقرار والاطمئنان الى قوة جبارة تحميه وتمنحه الثقة بنفسه وبالوجود؟ هل يستطيع المتدين أن يعتبر العلم والحداثة والأفكار غير المؤمنة تعبير عن ميل إنساني وتلبية لحاجة الشك والتساؤل عن ماهية الوجود ، والبحث عن أجوبة جديدة واكتشافات في الطبيعة والفكر قد تخدم بالنتيجة الفكر الديني نفسه؟ ألا يمكن للعلمي أن يعتبر صلاة المؤمن فعل فني للاتحاد مع الجميل المطلق . . كما يقوم المتدين باعتبار النتاج الابداعي والفني والأدبي والعلمي أشبه بصلاة ومناجاة مع الضمير الإلهي حتى وإن قام به إنسان غير مؤمن ؟

يلاحظ مثلاً ، أن الشخص غير المؤمن بالدين ، إما أن يقوم بالتستر والكتمان ، لكي يعبر عن احترامه لمشاعر المؤمن ؛ إما أنه يتطرف بابراز عدم إيمانه ، والتهكم من مقدسات الشعب وحتى تبرير الشتم والسخرية بحجة الشجاعة بالتعبير عن الرأي . الديمقراطية في هذه الحالة ، إما الكذب والسكوت ، إما التهجم والسخرية! ويظل نادراً ذلك الحوار الذي يأخذ ويعطي ، يتفق ويختلف ، دون ضعف ولا عنف .

السؤال السائد الذي يطرح لمعرفة وتقييم أي تيار أو شخص : هل هو صح أم خطأ . . رجعي أم تقدمي . . مؤمن أم ملحد . . قومي أم قطري؟ ونتناسى دائماً السؤال الأكثر جدوى : هل هذا التيار أو الشخص يعترف بحرية الآخر وحقه بالاختلاف . . ويعترف بحق الحوار والنقد والتمايز دون إلغاء وتكفير وتخوين . إن المشكلة كانت دائماً في الميل الى التطرف في المواقف والتمسك بالمطلق ورفض مبدأ الوسطية والنسبية . الذي يختلف عن ميلي هو سيء ، والذي يتفق مع ميلي هو جيد . المسألة الأساسية التي يتم تجاهلها حتى الآن ، ان كلمة «اختلاف» لا تعني بالضرورة «التفاضل» أي من هو الأحسن ومن هو الأسوأ بل هي في أغلب الأحيان تعني «التكامل» ، أي الفرق بين شيئين يكمل بعضهما البعض . كما لو نسأل أيهما أفضل ، التفاح أم البرتقال ، المدينة أم الريف ، الليل أم النهار ، الأحمر أم الأصفر ، المرأة أم الرجل . . فالنتيجة النهائية ، أن جميع هذه المتناقضات ضرورية للوجود ويكمل بعضها البعض . من حق أي إنسان أن يتذوق الفاكهة الفلانية ويمقت الفاكهة الأخرى ، ولكنه لا يمتلك أي حق باعتبار كل ما يختلف عن طعمه وميله سيئاً له ولجميع البشر .

الديمقراطية الحقة لا تقوم إلا على مبدأ النسبية ، يعني أن يقبل الآخر ليس بدافع تكتيكي ومن باب المجاملة والضرورة السياسية ، بل إني أقبله لاعتقادي بأن هذا الآخر الذي يختلف عن ميلي ، مفيد وضروري لي وللوطن وللحفاظ على توزان المجتمع ولدولة . وحياة الطبيعة تمنحنا أمثلة كثيرة حول مبدأ «تبادل المنفعة» . فكم من الحيوانات أو الحشرات لتي يتم إبادتها للاعتقاد بأنها ضارة ، ثم يتبين بعد ذلك ان اختفاءها تسبّب بتنام قوة وشراسة حيوانات وحشرات أخرى أكثر ضرراً !

إن أول شروط الديمقراطية ، هي النسبية في رؤية الوجود وضرورة الاعتقاد بأن الميل الآخر قد يكون هو الأصح ، وقد يثبت الزمن أنه أكثر مصداقية ، ثم أنه ما دام موجود ومقبول من بعض الناس ، لما لا يكون بالنهاية مفيداً لهم ولي . ولو يبادر أي شخص أو طرف ويسأل نفسه ، كم من المتغيرات الفكرية والسياسية مرت بتاريخه؟ وفي كل مرة كان يعتقد لفترة أنه هذا المعتقد هو الأصح والأمثل والأفضل بين الجميع ، ثم تدول الأمور ليكتشف عقم معتقداته السابقة ويلعن تضحياته ويأسف على الأذى الذي ألحقه بالمعارضين الذين قد يكون هو واحداً منهم الآن !

الديمقراطية تعني وجود حد معقول من الايمان أن الآخر له حق الوجود ليس بسبب

منفعي تكتيكي فقط ، بل لأنه فعلاً مفيد وايجابي للمجتمع ولي أنا ، فرداً وجماعة . لو شبهنا الدولة بالمستشفى الذي يعالج المجتمع ، فان طبيب الأسنان مهما كان متفوقاً ومتعصباً لمهنته لا يمكنه أبداً التخيل أن طب الأسنان وحده قادر على شفاء جميع المرضى . أطباء العيون لهم مرضاهم وأطباء القلب وأطباء العظام وجميع الاختصاصات لها ضرورتها وتكاملها مع بعضها البعض . من حق واحد أو مجموعة من الأطباء الكفاح من اجل قيادة المستشفى ، لكنهم أبداً سوف لن يتخيلوا يوماً أنهم قادرون على معالجة جميع المرضى والاستغناء عن باقي الاختصاصات الطبية .

هذا هو بالضبط الايمان الذي ينقص اعتقادنا الديمقراطي . أن جميع التيارات السياسية والفكرية لها أهميتها وفائدتها للمجتمع وهي تتكامل في تواجدها السياسي ـ الفكري ـ الاجتماعي :

- التيار الليبرالي ، مفيد وضروري للدفاع عن الميول التعددية ونظام السوق والقطاع الخاص وحرية التجارة وتنوع الاقتصاد والانفتاح على الحياة الغربية المعاصرة .
- التيار الاشتراكي (الماركسي واليساري عموماً) ، مفيد وضروري للدفاع عن الكادحين والمنتجين ونظام التعاونيات والقطاع العام والسيطرة على التجارة والاقتصاد ، ثم الانفتاح على العلوم والحداثة ورفض التبعية للسوق العالمية .
- التيار الديني : مفيد وضروري للدفاع عن جموع المؤمنين والمؤسسات الدينية وعن الضمير الديني والميراث الروحي للمجتمع ، وإعادة الثقة بالذات من خلال الإيمان الإلهي واعتماد عظمة الماضي الاسلامي للتعويض عن قسوة وجبروت وهيمنة الحاضر الثقافي الغربي .
- التيار القومي : الحقيقة أن التيار القومي يحتوي وبدرجات متنوعة حسب الحزب واختلاف الظروف على خصال جميع التيارت السابقة ، فهو قد يكون أكثر ليبرالية ، أو أكثر اشتراكية ، أو أكثر تديناً . على كل حال هو مفيد وضروري للمجتمع خصوصاً في الدفاع عن الشعور القومي والمطالبة بالحقوق التاريخية والثقافية والسياسية ، إعادة الثقة بالتاريخ القومي والتقارب بين أجزاء الأمة الواحدة .

جميع هذه التيارات هي مفيدة وضرورية للوطن بشرط واحد : أن كل تيار وحزب يعترف ويؤمن بضرورة وفائدة التيارات والأحزاب الأخرى . تواجد مختلف التيارات والأحزاب من

خلال اللعبة البرلمانية أشبه بتواجد النغمات والأصوات المتناقضة المتنوعة والتي تشكل بمجموعها سمفونية منسجمة واحدة . وهنا يكمن الدور الحاسم في الايمان العميق بضرورة التنوع والاختلاف من اجل تشييد هذه الديمقراطية . من حق القومي والبعثي والشيوعي والاسلامي أن يدعو كل لأفكاره ، بشرط عدم الدعوة الى قمع الآخرين . من حق الاسلامي أن يدعو الى الحجاب واطلاق الذقن وتأدية فروض الإسلام ، لكنه ليس من حقه أن يجعلها قانوناً يطبق بالقوة على الجميع .

الحرية لا يصنعها إلا الشعب الذي يؤمن حقاً بها ، والعبد لن يكون حراً ما دام يجهل حقه بالحرية . وهذا هو الدور المطلوب من جميع الأحزاب ورجال الدين والمثقفين .

المعارضة وقضية العنف الثوري

«نصبت مجموعة من مقاتلينا كميناً . . وتمكنت من قتل آمر الرتل و(٦٠) شخصاً من ضباط ومراتب قوات النظام . . نفذ مقاتلونا هجوماً بالصواريخ والأسلحة الخفيفة ، وأسفر الهجوم عن قتل وجرح أكثر من (٥٠) شخصاً من قوات النظام! هاجمت قوات النظام مؤخراً مئات العوائل العراقية من أبناء الأهوار . . قامت قوات النظام بإلقاء كميات كبيرة من السموم في الأهوار الجنوبية! . .»

مثل هذه العمليات التدميرية لم تمارس بين طرفين من شعبين أو وطنين مختلفين ، بل بين عراقيين من نفس الوطن والشعب والدين ، بل حتى من نفس المنطقة والطائفة والعشيرة الواحدة . . إنها حرب مدمرة تجري بين القوات العراقية ومقاتلي المعارضة العراقية ، وكبش الفداء في هذا القتال دائماً هم عراقيون من الفلاحين والمدنيين ، والثروات التي تستنزف والأملاك التي تحرق هي أيضاً عراقية .

الظروف التاريخية والطبيعية جعلت من العراق (وعموم الهلال الخصيب) معقلاً لأولى وأبرز الحضارات والأديان والقوانين والدول ، وأيضاً معقلاً للعنف والدم والخراب الأعظم . أسباب نعمتنا وازدهارنا هي ذاتها أسباب نقمتنا وخرابنا : موقع جغرو ـ سياسي عالمي ، وتنوع مناخي وعرقي وديني وثقافي ، والتوسط بين حضارات الشرق والغرب ، بالاضافة الى ازدواجية الرافدين من كرم وخصب ثم طوفانات غدارة وطواعين وغزوات . كل ذلك ظل يضخ في العراقيين توق أبدي الى السمو الحضاري ، وأيضاً الى العنف والدمار الذاتي . كانوا

أول من بنى وصنع وكتب وقرأ وأبدع الأفكار والعلوم والأديان . وكانوا أول من شيد السجون وقوانين القمع ووسائل التعذيب وأسس الجيوش وغزا الأوطان واستعبد الشعوب .

القرن العشرون أضاف لنا أسباباً جديدة للنعمة ، والنقمة طبعاً : النفط . . . مادة الحياة ودم الأرض وعصارة ميراث الأسلاف . . كان الشر أيضاً ، ما جلب لنا سوى جيوش الطامعين ومخابراتهم وتجار أسلحتهم وعلمائهم ليصنعوا لنا ملوكاً وجنرالات وجيوش مخابرات وثورات ، وأحزاباً مأساوية .

حتى اليهود ، أبناء تاريخنا المشرقي وثقافتنا وعرقنا ، بدل أن يكونوا نعمة من أجل نهضتنا ووسيطاً لعلاقة ايجابية مع الغرب ، صاروا (اسرائيل) نقمة ومصدر تخلفنا ومعقلاً عالمياً لخرابنا .

منذ تكوين الدولة العراقية (١٩٢١) ، لم تتضاعف كمية العنف فحسب ، بل إن شكل العنف تغير ووسائل التعبير عنه كذلك . في بدايات الدولة ومحدودية مؤسساتها القمعية كان العنف السائد هو ما يمكن تسميته بـ «العنف الأهلي» ، أي العنف الذي تمارسه مؤسسات قمعية لا تمثل الدولة : المؤسسات العشائرية والعائلية والدينية ، ثم تأتي بصورة أقل علنية مجموعات المتنفذين والعصابات والأشقياء . ويتخذ العنف شكلاً أوسع في تفاصيل الحياة اليومية بين الأفراد وداخل المجموعات العائلية والمدنية . إذ تسود العقوبة الجسدية في التربية والعلاقات بين الصغار والكبار ، بين النساء والرجال ، بين الأقوياء والضعفاء ، وفي حل الخصومات الشخصية والمعتقدية . كانت التعبيرات الأهلية عن العنف تتمثل بالحروب بين العشائر والغزوات وجرائم غسل العار والثأر العائلي والسرقات بالاضافة الى الجرائم اليومية بين الأفراد والمجموعات .

مع تنامي قوة الدولة اقتصادياً وعسكرياً كانت جرائم العنف الأهلي تقل لتحل محلها جرائم «العنف السياسي» التي تمارسها الدولة والجيش والأحزاب . بكل بساطة يمكن الافتراض أن نسبة ضحايا العنف الأهلي (العشائري ـ المدني) في أعوام العشرينات ربما تضاهي نسبة ضحايا العنف السياسي (الحكومي ـ العسكري ـ الحزبي) في أعوام الستينات! الذين كانوا يبررون العنف وإبادة النفس البشرية باسم قيم الثأر وغسل العار والكرامة والعصبية ، هم أنفسهم الذين راحو يبررون الموت باسم الدولة والمعتقد والشعب والثورة ، وفي كلتا الحالتين هنالك دائماً ثمة تبريرات عقلية وأخلاقية وسياسية لهذا العنف والدمار الذاتي .

بعد ثورة تموز ١٩٥٨ ، رغم إدانة الأحزاب لقسوة النظام الملكي وإرهابه الجماهير ، كانت أطراف الثورة تتغاضى أو تبدي التفهم ، وربما الإعجاب بالحشود الي ارتكبت جرائم تستنكف الضمائر من نسبها الى الشعب والجيش : قصفوا قصر العائلة المالكة وفتكوا بالنساء والأطفال والحاشية . ثم عربدوا في شوارع بغداد ليفترسوا بهمجية ، رجالات السلطة سحلاً وتقطيعاً وحرقاً . بينما كانت اذاعة الثورة ومنشورات الاحزاب تصرخ بالديموقراطية والحرية والسلام . بعد الثورة أباح الشيوعيون دماء القوميين والاسلاميين في الموصل وكركوك باسم مكافحة الرجعية وعملاء الاستعمار . الآخرون قاموا بنفس الشيء إذ أباحوا دماء الشيوعيين باسم مكافحة الالحاد والقطرية والشعوبية ، بل أصدروا الفتاوى الدينية بذلك . الجميع ينهشون باسم الشعب والوطن . عام ١٩٦٨ ركب البعثيون السلطة معبئين بخلاصة تجارب الدم السابقة .

يكفي القول أنه ليس ثمة أي بلد من بلدان المنطقة قدم من الضحايا مثلما قدم العراق في الثلاثين سنة الأخيرة ، حتى مقارنة بالحرب الأهلية اللبنانية وكفاح المقاومة الفلسطينية : أعداد لا تحصى من ضحايا الثورات الكردية منذ عام ٦١ حتى الآن ، أعداد لا تحصى في مذابح الموصل وكركوك (٥٩-٦٠) ، ثم مذابح الحرس القومي عام ١٩٦٣ ، ثم حملات التصفية والاعدام والكفاح المسلح في الجنوب وبغداد في أواخر الستينيات . ومع وصول البعثيين عام ١٩٦٨ وامتلاك مليارات النفط بعد تأميمه ، دخل العراق في ثورة حقيقية من تكنولوجيا القمع والدمار ، حقق فعلاً قفزة تاريخية في الاستحواذ على احدث ما اكتشفته اوروبا الغربية والاشتراكية من وسائل وخبرات السيطرة والمراقبة والقمع المتطور جداً . اضافة الى صرف معظم الميزانية في بناء المؤسسات المخابراتية والتجسسية والعسكرية لشن الحروب الداخلية والإبادة الجماعية . بل إن عبقرية السلطة تفتقت عن مكتشفات في هذا المجال فاقت حتى مكتشفات الغرب ، مثل استخدام مادة الثاليوم في استحداث سرطان الدم في جسم المعتقل .

ليس صدفة أن المجال العلمي الأول الذي برع فيه علماء العراق وبلغوا فه مستوى الدول الكبرى هو مجال الطاقة النووية والأسلحة الكيمياوية والصناعات العسكرية . السلطة الحاكمة نجحت حقاً في جعل صناعة العنف والحرب حالة ثقافية وعلمية وتكنولوجية ومؤسساتية يعتاش ويستفيد منها الآلاف المؤلفة من العسكر والمخابرات والموظفين والعمال والعلماء والطلاب ورجال الأعمال والشركات الأهلية والدولية .

ليتهم فعلاً استفادوا من هذه الحالة وحققوا الانتصارات التي يبتغونها . لكنهم لم يحققوا حتى الآن غير الهزائم والدمار للبلد والحروب اللامجدية ضد الأكراد والشيوعيين والقوميين وحتى ضد البعثيين أنفسهم بل ضد العشائر والمناطق التي ينتمي اليها رجالات النظام! ثم الحرب ضد ايران ، وصولاً الى «أم الكوارث» التي دمرت كل بنائهم الأسطوري .

فشل هذه السلطة يعود أولاً وأخيراً الى اعتقادها أن القوة والعظمة والانتصارات تتحقق بالعسكر والسلاح وحدهما ، متناسية أن عظمة أي وطن تكمن في عظمة المواطن نفسه . وانه على مر التاريخ ، الشعوب التي خاضت الحروب وانتصرت كانت تتمتع بصفة أساسية أولى : أن مستوى تطور الجيش متوازن مع مستوى تطور الوطن . وتتساوى في هذا تجارب الشعوب المتطورة وغير المتطورة . إن آيديولوجيا العنف تؤدي الى تضخم المؤسسات العسكرية والمخابراتية والقمعية حتى تشل باقي مكونات الدولة والوطن . وإن كان هذا المثال ينطبق على الدولة ، فانه كذلك ينطبق تماماً على الأحزاب والمنظمات التي تتضخم فيها الحالة العنفية بحيث ينمسخ التنظيم بأكمله الى جهاز عسكري تسوده روح العنف والبطولة حتى وإن انتفت الأسباب الموجبة لذلك .

بدائـــل العنف

إن الإقرار بشرعية الكفاح ضد النظام المستبد ، لا يعني بالضرورة الاقرار بشرعية الكفاح المسلح وحرب العصابات . صحيح انه أي كفاح ضد سلطة عنيفة ، مهما كان سلمياً ، يعرض القائمين به الى القمع والعنف . لكن المشكلة لا تكمن في الاضطرار للتعرض الى العنف ، بل تكمن في تقديس مبدأ العنف وصياغة آيديولوجيا وعقلية وأخلاقية تعتبر العنف أسلوباً ثورياً شاملاً والقتل وتدميرالذات فعلاً بطولياً! إن خطيئة الكفاح المسلح تتمثل في دفع ضحايا العنف الى ممارسة العنف وتقديم الضحايا والخسائر المجانية ، كمن يكافح النار بالحطب !

إن معاينة تجارب الكفاح المسلح في العراق وفي البلدان الأخرى ، تكشف عن السلبيات التالية :

١ - مهما بلغت خسائر الكفاح السلمي ، فهي أقل بمئات المرات من خسائر الكفاح المسلح . جميع النتائج الايجابية والانتصارات التي تتحقق عن طريق العنف المسلح ، يمكن تحقيقها نفسها وحتى أفضل منها ، بأسلوب الكفاح السلمي وبخسائر بشرية ومادية أقل بكثير .

منذ عشرات الأعوام والمعارضة الكردية مستمرة في تمرداتها وثوراتها المسلحة وحروبها ضد السلطة وضد بعضها البعض . حتى الآن لم يحقق هذا الكفاح الدامي غير المآسي وتدمير المنطقة وتشريد السكان من قبل الجيش . يكفي الاستشهاد بتجربة ثورة البرزاني الكبرى في السبعينات ، . انتهت هذه الثورة الى الصفر بمجرد أن وقع صدام والشاه اتفاقهما المعروف . الحركة الكردية كانت قادرة على الحصول على نتائج أفضل وبخسائر أرواح أقل بآلاف المرات لو أنها لجأت وابتدعت وطورت أسلوبها الخاص في الكفاح السلمي .

يكفي معاينة تجربة الشيوعيين في أعوام الثمانينات . آلاف الشبان والشابات من جميع أنحاء العراق تم توريطهم في كردستان . والجميع يعرف النتيجة ، اذ انتهت هذه التجربة بالخيبة والحسرات على آلاف الضحايا الذين راح معظمهم ضحية عمليات الانتقام التي مارستها بعض الأطراف الكردية .

إن مشكلة الحركات التي تتبع أسلوب العنف ، تكمن في تفاقم خضوعها لسيادة العقلية العنفية وانحسار الأساليب السلمية والفكرية الممكنة . حتى يصبح العنف والقتال هو الهدف الذي من خلاله يستمر وجود التنظيم . كم من الحركات المسلحة التي تضخمت فيها ميول العنف فكرياً وعسكرياً ، بحيث انتفت فيها القدرة على العيش بسلام حتى بعد الانتصار . والتجربة الأفغانية مثال قريب على ديمومة حالة العنف وسيادته حتى بعد نهاية العدو والسيطرة على الدولة . الحرب الحالية بين الأطراف الأفغانية الاسلامية فاقت بعنفها ووحشيتها حتى الحرب ضد الجيوش السوفيتية! أما التجربة الصومالية فهي لا تختلف كثيراً . لأنها قامت على العنف وعلى الميلشيات ، وانتهت الى حرب شعواء بين المعارضين الذين اسقطوا نظام سياد بري ، حتى استحال الصومال الى فتات من الدويلات القبائلية المتطاحنة . حتى الثورة الجزائرية بكل الهالة القدسية التي لا زالت تتمتع بها والاحترام الكبير الذي استحقه شهداءها المليون والنصف المليون ؛ وها نحن نكتشف مؤخراً وباعترافات القادة التاريخيين أنفسهم من ان هذه الثورة باسم قدسية العنف المسلح ارتكبت الكثير من الخطايا ضد المناضلين الحقيقيين وقدمت الآلاف المؤلفة من التضحيات المجانية وتم بعدها تبرير السلطة الدكتاتورية وصولاً الى الحرب الأهلية الحالية التي هي بصورة أو أخرى تتمة للعنف المتطرف الذي قامت عليه الثورة منذ البدء .

تجربة الحرب اللبنانية . . تجربة المقاومة الفلسطينية ، التي ما زالت أهوالها ودروسها طرية في الذاكرة !

إن الحركة السياسية العراقية والكردية وحتى الآن عاجزة عن القيام بوقفة جريئة ازاء تكرار فشل هذه الثورات وما سببته من دمار وخيبات للشعب الكردي وعموم الشعب العراقي . لازالت معظم الحركات العراقية تزايد بتقديسها للتجربة الكردية وتعلن تبنيها للكفاح المسلح من كردستان ، بل هذه الحالة دفعت الأطراف العراقية لمنافسة الحركات الكردية بخلق البؤر المسلحة في جميع أنحاء العراق وخصوصا في المناطق الجنوبية .

٢ - رغم بطولة منفذي العمليات المسلحة وتكبيدهم للنظام خسائر بشرية ومادية ، فإن هذه العمليات لا تضعف حقاً النظام ، بل على العكس تدفع أطرافه للتضامن وتبرير الاستبداد ، ثم تدفع سياسياً ونفسياً قوات النظام الى القسوة واليقظة الدائمة ، خوفاً من هجمات الثوار . تجارب الماضي والأحداث الأخيرة بينت أن العنف لم يقدم حركة المعارضة ضد النظام ولا حتى خطوة واحدة ، بل ما سبب غير خيبة آمال الشباب الحالم بالتغيير والحرية ، أما الشعب فإن إعجابه ببطولات العمليات المسلحة لا يمنحه الشجاعة بل الخوف والوجل بسبب حدة القمع التي تعقب كل عملية ، ضد الثوار وأقاربهم . ما هو الربح الجماهيري ، حينما تقوم مجموعات الثوار بقتل الجنود المجبرين على الخدمة ، ثم تأتي القوات الحكومية في اليوم التالي لتقصف وتعاقب المنطقة وسكانها جميعهم !

كم من الشعوب تحررت وكم من الأنظمة الاستبدادية تغيرت دون أي اضطرار لشن حرب عصابات . وإن كانت تجربة غاندي وتحرير الهند مثالاً معروفاً بهذا الخصوص ، فإن تجربة الثورة الايرانية نموذج قريب لنا زمنياً وفكرياً . دروس ومعاني هذه التجربة ، دحض مباشر لكل دعاوى تقديس العنف المسلح . الامام الخميني ظل لعشرات الأعوام يدفع للكفاح السلمي السري القائم على العمل الصبور الدؤوب لتكوين الخلايا الشعبية في جميع مدن وقرى إيران . حتى أثناء اندلاع الثورة ظل الخميني يصر على الكفاح الشعبي السلمي . فكانت الجماهير الايرانية تستقبل بنادق الجيش ودباباته بهتافات الاعتزاز بالأخوة بين الشعب والعسكر ، حتى انتصار الثورة .

أما تجربة «الانتفاضة» الفلسطينية فتستحق أن تكون نموذجاً ناجحاً للكفاح السلمي : سلاح الحجارة وصرخات الصبيان والتنظيم الشعبي منحت للكفاح السلمي والعصيان المدني شرعية لا تدحض .

٣ - أن شيوع روح العنف المسلح لدى الشعب ونخبه السياسية والمثقفة ، يؤدي الى

ديومة حالة الانمساخ الروحي التاريخي الذي يعاني منه الفرد العراقي . يكفي العراقيين هذا الانمساخ النفسي الدائم من جراء ديمومة القمع والحروب الداخلية والخارجية ، ثم تربية الدولة القائمة على أخلاق القوة والحرب . وصل الانمساخ الى حد ، أنه صار من أوليات التربية الوطنية إجبار الناس والتلاميذ على حضور مشاهد إعدام «الهاربين والخونة !» .

أمام هذا الواقع الممسوخ ، فان الحركة السياسية العراقية مطالبة بخلق العقلية البديلة المضادة لكل ميراث العنف والدمار . رفض الاستمرار بالخضوع الأبدي للمصير الدامي ، وعدم ترك مراكب المعارضة تسير مع رياح الموت . كأن قدر التاريخ يدفع للاستمرار باستبدال دمارنا بدمار آخر ، كسجين يمضي عمره في حفر أنفاق للحرية ، تقوده في كل مرة الى سجون جديدة!

يجب التوقف عن تقديس مبدأ الثورة المسلحة ، كمسألة بديهية لا تقبل الجدال ! حتى الذين لا يؤمنون حقاً بأسلوب العنف ، فانهم مضطرون عادة للصمت وعدم إدانة هذه الدعاوى التدميرية ، خوفاً من الاتهام بالتخاذل وضعف «الرجولة» ، ومساومة النظام !

إذا كان قدر التاريخ والجغرافية قد حتم على العراق هذا المصير الدامي ، فان ارادة الناس والنخبة هي عنصر حاسم في تشكيل ارادة هذا القدر . وهذا يعتمد على دور العقل في فهم قدر التاريخ والجغرافية ومسايرته ثم التغلب عليه . هنا يكمن دور النخب السياسية والثقافية والدينية في محاولة إدراك هذا الواقع العنفي وتحليله وإدانة مساوئه ، ثم وضع البديل السياسي والتربوي القادر على توجيه عنف الواقع نحو الفعل الايجابي والبناء الحضاري .

الشعب العراقي بحاجة أولاً واخيراً ، الى عقلية مناهضة تماماً لكل ثقافة القوة والعنف وتقديس الموت . عقلية الايمان بالحوار والاقناع و«الجهاد» الثقافي السياسي الصبور ضد مفاهيم الخنوع لمنطق الأشقياء والأقوياء .

ان الكفاح المسلح سوف يفاقم خراب الوطن ، ويمنح السلطة كل مبررات الديمومة لممارسة وحشيتها ، ويعرض مستقبل العراق الى خطر التفتت وحروب الميليشيات الأهلية التي ستفوق بهمجيتها ودمارها ما حصل في لبنان والصومال وافغانستان ويوغسلافيا ، بالاضافة الى ما هو حاصل الآن بين الاطراف الكردية المتنازعة في شمال العراق .

العراقيون في المهجر.. أي أمل ؟

ها هي الأعوام تمر وساحات المنفى العراقي تعيش معادلة عكسية غرائبية مخالفة للمنطق الحسابي المعهود : كلما مرت الأعوام وازدادت حشود العراقيين الهاربين من جحيم الوطن ، كلما ضعفت الهمة وتفرقت الصفوف وتبعثرت أحلام التغيير المنشود!!

هذه حقيقة يحسها المرء ويعاني من طنينها الذي يضج به الضمير مهما تفنن بالتبرير والنسيان . طبعاً لكل منا فرضياته عن أسباب هذه الحالة ، ويكاد أن يتفق الجميع على إدانة الشخصيات المعارضة المتنفذة . ولكن مشكلتنا ليست بإدانة فلان وفلان على أمل رفع العتب عن الذات ؛ المشكلة في السؤال الذي يصفعنا كل يوم : كيف الخروج من المأزق؟ الأعوام كشفت عن فشلنا بخلق أي قاسم سياسي وفكري مشترك بيننا : مؤتمراتنا التوحيدية أصبحت في مهب الريح وأحزابنا تعاني التمزق وسكرات الموت البطيء . . شمالنا الكردي قد تمت قراءة الفاتحة على روحه ، بينما الطالباني والبرزاني قد صار واحدهما أشبه بالطنطل العراقي الذي لا يكف عن الانمساخ والتحول . . الوضع في الوطن ظل على حاله وكأن الكرة الأرضية توقفت عن الدوران بالعراق من ثقل الرئيس القائد . لم ننجح حتى بإصدار صحيفة واحدة تلتقي فيها خواطرنا . ليس هناك أية هيئة أو مؤسسة حتى ولو ثقافية أو خيرية أو دينية يجتمع حولها العراقيون ويشعروا بتمثيلها لتنوعاتهم السياسية واللغوية والدينية والمذهبية .

الغريب ، أن هذا الوضع السياسي المتناحر والمشتت ليس تعبيراً مباشراً عن العلاقات الاجتماعية الانسانية السائدة بين الجاليات العراقية . لا زالت تجد العراقيين في المهجر ، كما في الوطن ، يقيمون علاقاتهم مع بعضهم البعض اعتماداً على أمزجة فردية لا تؤثر فيها كثيراً الفوارق اللغوية والفكرية والدينية والمذهبية . يبدو أن العراقيين تجمعهم الحياة الاجتماعية وتفرقهم السياسة . السياسة تدفع الى السطح بالحساسيات الطائفية واللغوية والدينية والعشائرية . إن مشكلة الانفصام لدى العراقي بين العمق الانساني الاجتماعي والتعبير الساسي مرتبط بتاريخ علاقته المتوترة مع القوى العليا المتمثلة بالدولة والطبيعة . منذ فجر التاريخ والعراقي يعييش حالة شك وخوف ازاء عظمة أرضه الخصبة ونهريه الكريمين ودولته الجبارة : مهما ازدهرت الحضارة وشمخ البنيان وهيمنت الدولة واستتب الأمن والسلام والاستقرار ، لا بد أن يحل يوم الكارثة ، إذ يثور النهران ويستيقظ وحش الطوفان ويسود الطاعون وتجتاح الوطن جحافل بدو الصحراء من الغرب ورعاة زاغاروس وهضاب آسيا من

الشرق والشمال . خلال بضعة أسابيع تستحيل حضارات مدن شامخة مثل اوروك وبابل ونينوى وبغداد الى هياكل خراب تصدح بين أرجائها مراثي الأمهات وقهقهات الغزاة . هذا هو تاريخ العراق ، خلال عقد واحد فقط عشنا تراجيديا الشموخ والسقوط مرتين ، في الثمانينات والتسعينات . لا زالت تتكرر هذه المأساة على مسرح العراق منذ سبعة آلاف عام وحتى الآن . هذا هو قدر التاريخ والجغرافيا ، إذ جعل أهل الرافدين ، توحدهم الأرض والحياة وتفرقهم السياسة والسماء .

لا نريد أن نسهب . باختصار نقول ، إن السياسة حتى الآن فشلت بتوحيدنا ولم تخلق لنا غير الخيبات والاندحارات . لا يعني أننا نطالب بالتخلي عن السياسة ، انه مطلب مستحيل ،لأن السياسة بالنسبة لأي مجتمع : شر لا بد منه . اننا نطالب فقط بتغيير أسلوب التعامل مع السياسة . لنبتدع أسلوبنا الخاص بنا . السياسة بالنسبة للعراقي أشبه بالحيوان المفترس ، كثيراً ما يتعرض بسببها الى جروح نفسية وبدنية لا شفاء منها . لماذا اذن لا نجد طريقة أفضل بالتعامل مع هذا الوحش . بدل الطريقة الانفعالية المعروفة بـ (الهوسة) : «يلله نهجم على السياسة ، اما نأكلها أو تأكلنا!» ، وكالعادة ينتهي الصراع بالمأساة : إما أن تتهاوى الروح مثخنة بجراح الخيبة والنسيان ، أو ينهار الجسد على يد دكتاتوري كاسر يظهر بين الرفاق ليفترس الأخضر واليابس .

اذن ، كيف السبيل لحل هذه الإشكالية . اننا لا ندعي امتلاك الفانوس السحري ليخرج لنا الجن القادر على تحقيق احلامنا . ندعو فقط للتساؤل والتفكير وتجاوز الاعتقاد بأن مشكلتنا تكمن في الأشخاص ، بل يجب قول الحقيقة ان مشكلتنا تكمن في الاسلوب قبل الأشخاص . . في طريقتنا التي تعودنا أن نتعامل بها مع السياسة .

لننظر الى التاريخ ، لنتمعن في تجارب الشعوب القديمة والمعاصرة ؛ ان الأوطان لا يقودها فقط الحزبيون والسياسيون ، بل هنالك أيضاً القادة الاجتماعيون وفاعلو الخير واصحاب القلم والفنانون ورجال الدين . الحزبيون جزء محدد من قيادة الوطن والمجتمع ، فلماذا تعودنا اذن أن نترك كل القيادة لهم : هم الذين يقودون المثقفين ويمولون الصحف والمجلات ويحددون برامج التجمعات الثقافية ، وهم الذين يسيطرون على الجمعيات الخيرية ويوجهون برامجها . المجال الديني ، كان آخر المعاقل المنسية من الحزبيين حتى السبعينات ، ثم اجتاحت الحركات الدينية هذا المعقل لتضمه الى ممتلكات الطبقة الحزبية . اننا أبداً لا ندعو للعداء للسياسة والسياسيين ، فكلنا بالنتيجة سياسيون وتهمنا السياسة . اننا فقط ندعو الى التخلي عن هذا

التقديس الأعمى لكل ما هو سياسي . الحد من جبروت ذلك الحزبي الذي يفرض هيمنته حتى في المنافي باسم البطولة والرجولة والدفاع عن الشعب والتمسك بالقضية العادلة ، والنتيجة انه يلتهم كل قضايا الناس وتصبح قضية الوطن أشبه بالجنة الموعودة التي باسمها تبرر التضيحة بخيرات الدنيا!كما تقول الحكمة المعروفة : «بدل أن تشكو من ظلام الكون ، فعلى الأقل اشعل شمعة . .» . لندرس تجاربنا السابقة ونستكشف حقيقة امكانياتنا وحدود مساحة تحركنا التي تسمح بها الظروف المحلية والدولية ، لكي نتمكن بالتالي من انارة الشموع بدل النواح على ظلام الوجود .

ولكي لا يبقى موضوعنا هذا ضمن التنظير ، نطرح مقترحنا العملي الذي نعتقد بأنه قد يشكل وسيلة لتجاوز عقدة السياسة هذه . . لنحاول مراوغتها وتدجينها بدلاً من خوض الصراع اللامجدي معها . اننا نقترح قبل كل شيء المبدأ التالي :

«ضرورة عكس الطريقة العتيقة التي تعودنا عليها منذ عقود وحتى الآن : بدلاً من اعتبار السياسة وتغيير الدولة هو الهدف القريب والبعيد وبالتالي يجب اخضاع كل النشاطات الاجتماعية والثقافية للساسة والقادة الحزبيين ؛ نقوم بعكس هذه القاعدة تماماً ، اذ نجعل من النشاط الاجتماعي والثقافي هو الهدف العملي واليومي اللامحدود بأية فترة زمنية . بدلاً من الجبهات الحزبية والمؤتمرات الدولية والمشاريع السياسية التوحيدية والتقسيمية ، يتم التركيز على خلق مشروع تنظيمي توحيدي كبير يقود النشاطات الاجتماعية والثقافية للجاليات العراقية في الخارج . بمعنى أوضح ، لنفكر بالأرض والحياة قبل السياسة والسماء .»

يكفي الاعتراف بأننا طيلة هذه السنوات لم نقدم للوضع العراقي غير الأحلام الخائبة . لنكن متواضعين ونقتنع بأننا مهما كان عددنا في الخارج ، لا نعتبر أنفسنا كل الشعب العراقي . هناك في العراق اكثر من عشرين مليون انسان ، ونحن مهما كان اخلاصنا وحماسنا لا يمكننا ابداً ان نحل محل هؤلاء العشرين مليون . لنكن واقعيين وضميريين ونفكر بقضية مئات الآلاف من العراقيين المشردين في أنحاء الأرض وبالذات في البلدان المجاورة للعراق ، والذين صارت مغامرات بحثهم عن مأوى أساطير تتناقلها وسائل الاعلام . بدلاً من كل هذ العرعرة والعنعنة والخنخنة عن قضية العراق وتحرير كردستان واسقاط صدام ، لنتساءل عن مصير عشرات الملايين من الدولارات التي استلمتها الحركات السياسية من دول العالم باسم قضية الشعب العراقي . لو تم استخدام ربع هذ المبالغ باقامة المشاريع الاجتماعية والثقافية والاستثمارية ، أما كان حالنا أفضل بكثير مما نحن عليه الآن ؟

النشاط الاجتماعي الثقافي قبل النشاط الحزبي السياسي

لتتركز الجهود على خلق «الهيئة العراقية العليا للنشاط الاجتماعي والثقافي» والتي ليس لها دخل مباشر بالسياسة . هذا لا يعني أبداً معارضة الراغبين بالنشاط السياسي والاستمرار بالكفاح ضد (صدام والامبريالية التكريتية!) . لهؤلاء المناضلين الحزبيين كل الحق والحرية ، ولكن بشرط أن لا يعيقوا نشاط الهيئة العراقية . هناك عدة ملايين من العراقيين في الخارج ، خلال سنوات قليلة انتشرت الجاليات العراقية كالكمأ بعد المطر ، من القطب الشمالي حتى القطب الجنوبي ولا زال الحبل على الجرار . بين هؤلاء الكثير من العلماء والاختصاصيين والكتاب والفنانين والعسكريين ورجال الدين والمتعلمين والحرفيين . وفيهم التجار ورجال الأعمال والأغنياء . فيهم كذلك آلاف مؤلفة من المسحوقين ، عوائل وأفراد ، مشردين في صحراء السعودية وفي ايران والأردن وسوريا وتركيا . لو تدركون أية طاقات هائلة يمكن ان تقدمها هذه الجاليات من اجل دعم بعضها البعض وخلق المشاريع الاجتماعية والثقافية والاستثمارية التي ستؤدي الى نتائج مادية ومعنوية للعراقيين في الخارج ثم في الداخل ، بصورة تجعلنا نتأسف فعلاً جهود الأعوام العجاف التي ضاعت على نشاطات حزبية وسياسية وعسكرية كانت مضرتها أكثر من نفعها .

على أساس المبدأ المذكور ، نقترح العمل على تأسيس المشروع الذي نسميه مؤقتاً «الهيئة العراقية العليا للنشاط الاجتماعي والثقافي» . ومن اجل تجنب ان يكون هذا المشروع مثل الكثير من المشاريع العراقية التي يتم تحقيقها بحماسة وتسرع وبطريقة «الهواة» الخالية من روح الاحتراف والتخطيط ، وبالتالي تنتهي أو تظل تمارس دورها بشكل رمزي . نقترح القيام بالخطوات التالية لاعداد وتحقيق المشروع :

أولاً : يتنادى للقاء اهل الخير من الشخصيات العراقية من جالية لندن ، بسبب عددها واهمية مركزها وتمثيلها لتنوعات الشعب العراقي . في هذا الاجتماع يتم اختيار نخبة من الشخصيات المعروفة بجديتها ونزاهتها وحماستها للنشاط الاجتماعي والثقافي ، ليكونوا (لجنة العقلاء) التي تشرف على المشروع . من المستحسن ان تعبر هذه اللجنة عن التنوع اللغوي والمناطقي والمذهبي والفكري للشعب العراقي ، بالاضافة الى مراعاة تمثيل المرأة بنسبة مقبولة . ومن الضروري جداً ومنذ البدء تجنب احتمالين متطرفين يمكن ان يقع بأحدهما اصحاب هذا المشروع : باسم الاستقلالية ورفض اهل الأحزاب

والساسة ، تسود الروح الانعزالية والنخبوية وبالتالي يتحول المشروع نفسه الى عامل انشقاق وتحزب . الاحتمال الثاني ، ان تحاول مجموعة حزبية نشيطة اخذ المبادرة والاستحواذ على المشروع . لتجنب هذين الخطرين ، يتوجب إشراك اكبر عدد ممكن من الاطراف السياسية والهيئات الثقافية والدينية والمهنية في الاجتماع التأسيسي ، وبنفس الوقت محاولة اختيار الاشخاص المعروفين باستقلاليتهم الحزبية ولكنهم قريبين ومقبولين في الوسط السياسي والاجتماعي . ومثل هؤلاء الأشخاص لا يندر وجودهم بين عراقي لندن . من الافضل ان تكون من بين الشخصيات ، شخصية عربية معروفة وكذلك شخصية انكليزية أو اوربية متعاطفة مع قضية الشعب العراقي . ان هذا الأمر يمنح أفقاً عربياً وعالمياً لهذا المشروع .

ثانياً : تقوم (لجنة العقلاء) المنتخبة هذه بعقد الاجتماعات والاتصالات للاشراف على تكوين لجنة من الكوادر الادارية الحسابية والاعلامية وتعيين مدير عام للمشروع . ويتم دفع رواتب شهرية لهؤلاء الموظفين من اموال التبرعات التي يستحصلها المشروع . اما (لجنة العقلاء) المنتخبة فانها لا تدخل في الأمور الادارية والتقنية للمشروع ، بل تبقى قيمتها معنوية واخلاقية للاشراف على حسن سير المشروع وتحقيق أهدافه . يكفي أن تجتمع مرة كل فترة زمنية للتداول والمراقبة .

ثالثاً : يقوم اداريو المشروع بتنظيم حملة اعلامية عبر وسائل الاعلام العراقية والعربية والأجنبية ومن خلال الهيئات المختلفة لدى جميع الجاليات العراقية والعربية في المهجر ، عبر بيان مكتوب من اجل التعريف بالمشروع . المهم ايضاً في البيان ان يجري في نهايته ذكر اسماء (لجنة العقلاء) التي تشرف على المشروع وتقديم نبذة مختصرة عن كل منهم ، بالاضافة الى ذكر اسماء الهيئات والاحزاب والجهات التي تزكي المشروع وتسانده . ان التعريف بالشخصيات المشرفة والهيئات المساندة ، امر مهم جدا لأنه يخلق الثقة لدى العراقيين والمتعاطفين معهم من العرب والأجانب ، ويؤكد جدية المشروع ويدفع للتبرع والإسناد . طبعاً المسألة الأساسية التي يتم تأكيدها في البيان هي حث العراقيين واصدقائهم للتبرع الشهري أو الفصلي ، حسب الامكانية والرغبة ، على «رقم حساب مصرفي» في لندن . ولكي يأخذ هذ النشاط بُعدا شعبيا عراقياً ويجلب الثقة التي يستحقها ، نقترح ان يقوم بعض اعضاء (لجنة العقلاء) بزيارات منتظمة

للجاليات العراقية في انحاء العالم للحوار معها وسماع مقترحاتها وحثها على ابتداع المبادرات والنشاطات لجمع التبرعات وارسالها على ر قم الحساب في لندن . وتقبل كذلك التبرعات من الأفراد والجهات العربية والاجنبية المتعاطفة مع الشعب العراقي ، ولكن بشرط ان هذه الهبات لا تفرض اي مطلب غير موجودة اساساً في برنامج الهيئة أو يتعارض مع مبادئها المعلنة .

كما أشرنا ، فان غاية المشروع هو تكوين صندوق مالي واستثماري تابع الى «الهيئة العراقية» للقيام بالنشاطات الاجتماعية والثقافية العراقية في جميع مناطق المهجر ، ويمكن ايراد بعض المجالات المعروفة التي يمكن للهيئة التركيز عليها :

1 - قبل كل شيء العمل على انقاذ ومساعدة الآلاف المؤلفة من العوائل العراقية والأشخاص المشردين في الأردن وايران وتركيا وسوريا ولبنان (قوافل الهجرة من جحيم الوطن مستمرة) ، وتكوين اللجان المالية لانقاذهم من مرارة الجوع والانتظار ، وكذلك تكوين اللجان القانونية والتقنية لمساعدتهم على السفر والعثور على بلدان للاقامة والاستقرار . ويمكن ان يمتد مستقبلاً هذا النشاط ليشمل العراقيين في داخل الوطن .

2 - تكوين بنية من المؤسسات الاجتماعية والتعاونية ، بالتنسيق مع المؤسسات الموجودة سابقاً والعمل على توحيد جهودها ودعمها مالياً وتقنياً . وتستهدف خطة العمل في هذ المجال تكوين شبكة من (المراكز الاجتماعية العراقية ـ المنتديات) في جميع مناطق الجاليات العراقية . تشرف على هذه المراكز لجان تقنية قادرة على القيام بعدة تشاطات منها التربوية والفنية والقانونية والترفيهية وغيرها . وتقوم ايضا هذه المراكز بنشاطات خاصة ومشتركة لتنظيم الاحتفالات الوطنية والدينية (بما فيها مناسبات مختلف الفئات اللغوية والدينية والمذهبية العراقية) من اجل التقارب بين مختلف تنوعات الشعب العراقي ، والتعريف بثقافة وخصوصيات هذه الفئات . وستكون هذه المراكز وسيلة ايضاً للقيام بنشاطات لدعم قضية الشعب العراقي وتنظيم النشاطات للتعريف بالعراق وتاريخه وحضارته وكذلك للتقارب مع الجاليات المشرقية والعربية وغيرها من الجاليات الصديقة .

3 - تعمل الهيئة على تكوين «مؤسسة الرافدين الثقافية» ، ليكن مركزها أيضا في لندن . تكون هذه المؤسسة أشبه بدار نشر للكتب العراقية والعربية ، فيها لجنة تشرف على ترجمة ونشر الكتب التي تتحدث عن ماضي وحاضر العراق . والاشراف على اصدار

صحيفة يومية شبيهة بالصحف العربية المعروفة مفتوحة لجميع الأقلام العراقية والعربية بمختلف تنوعاتها . واصدار مجلة دراسات وبحوث متخصصة بالشأن العراقي . والمهم ايضا انه يتوجب فسح المجال من اجل التعريف بالخصوصيات الثقافية للفئات العراقية المتنوعة : مسلمون شيعة وسنة ، اكراد ، تركمان ، سريان ، يزيدية ، افيلية ، صابئة ، ارمن ، يهود ، وغيرهم . اقامة الندوات وكتابة البحوث ونشر الكتب للتعريف بهذه الفئات اللغوية والدينية والمذهبية بهدف الاعتراف والتعارف المتبادل الذي سيخلق التقارب والتفاهم والشعور بالانتماء لهوية عراقية مشتركة .

هذه الخطوط العامة للمشروع ، انه مشروع عملي يقوده (التكنوقراط والكتاب والفنانون والحرفيون ورجال الدين ، بالاضافة الى الحزبيين) . ربما سيلاقي الصعوبات ، ولكننا على يقين بأن التراجيديا العراقية الحالية قد وصلت الى ذروتها ، وسوف لن تسمح الضمائر الحية بأن تصل الحالة حد الضياع الكلي . ان هذا المشروع يمكن ان يشكل مرحلة واقعية لمأزق الوجود العراقي في الخارج ، وخلق الأمل بأننا رغم الظلام الدامس قادرون على إشعال الشموع التي ستنير درب الذين سيزيلون الظلام عن شمس الوطن .

الهوية العراقية الممزقة
هل هذا عراق.. أم قارة أمريكا ! ؟

أي باحث في تاريخ العراق الحديث (منذ العشرينات وحتى الآن)، سيكتشف بصورة جلية أن العامل الأول في ديمومة التوتر والعنف في الوضع السياسي والاجتماعي يعود أولاً الى هشاشة الهوية الوطنية العراقية. صحيح أن من طبيعة العراقيين، مهما اختلفت انتماءاتهم الدينية والطائفية واللغوية، فإنهم يتعايشون يومياً بصورة تكاد أن تنعدم فيها العنصرية بشكلها الاجتماعي المعلن. من خصال تاريخ بلاد الرافدين (مقارنة بتاريخ الهند مثلاً) انعدام الحروب العنصرية والأهلية بين الناس وسهولة ذوبان الشعوب الجديدة في الشخصية الرافدية المشتركة. مثال الحرب الكردية دليل واضح على هذه الحالة، فإن هذ الحرب بقيت دائماً على الصعيد السياسي، أي بين الحكومة والأطرف الكردية، ولم تتطور أبداً الى حالة صراع أهلي بين العرب والأكراد رغم تعايشهم المشترك في كل أنحاء العراق من الشمال حتى الجنوب.

رغم هذه الخصال الايجابية في طبيعة الشعب العراقي إلا أن النخب السياسية العراقية لم تحاول أبداً تطوير هذه الخصال الى المستوى السياسي والتربوي الواعي بصورة كاملة لتفاصيل هذا التنوع في المجتمع العراقي. المشكلة أن الدولة والنخب والأحزاب لجأت الى أبسط الحلول وأكثرها سطحية من اجل تربية العراقيين بحقيقة هذا التنوع: أسلوب السكوت وتجنب أي تفاصيل لماهية الأديان والمذاهب والجماعات اللغوية التي يتكون منها المجتمع العراقي. كل هذا تحت شعار: «جميعنا عراقيون وكفى، ولا داعي لإثارة الحساسيات...»! وهذا التجاهل والتجهيل المستمر منذ أجيال وحتى الآن، انغرز عميقاً في العقلية العراقية بحيث غدا التطرق لمثل هذا الأمور من المحرمات التي يتم تداولها فقط بين أبناء الجماعة اللغوية أو المذهب أو الدين، وبالتالي صارت كل جماعة تشعر في داخلها بأجنبيتها عن الجماعات الأخرى وكذلك بأجنبيتها عن الهوية العراقية المشتركة. نتيجة هذا الوضع تعمقت «ازدواجية الهوية» في الفرد والجماعات العراقية: من ناحية تجد العراقيين يشتركون ويتآلفون في معظم عاداتهم وتفاصيل حياتهم الاجتماعية اليومية، ومن ناحية أخرى تراهم يتناقضون في مشاعرهم «الجماعية السياسية» وانتمائهم التاريخي الوطني المشترك. من

الغريب ان التربية المدرسية والحزبية العراقية تثقف العراقي بكل تفاصيل تاريخ أوربا والبروتستان والكاثوليك وكالفن ولوثر وتواريخ شعوب وطوائف العالم ، إلا أنها تتجنب عن سبق الإصرار أية معلومات مهما كانت حيادية عن تاريخ الطوائف والاديان والفئات اللغوية العراقية! والنتيجة ان المتعلم والسياسي العراقي يكاد ان يمتلك معلومات عن كل تواريخ جماعات اوربا والعالم الا الجماعات العراقية التي يعيش في كنفها ويتداول معها حياته اليومية! تأثير هذه التربية المشوهة خلق وعمق المعتقدات الموروثة والعتيقة لدى كل جماعة عن الجماعات الأخرى : مثلاً السني ، يجهل تماماً من هم الشيعة ، وكل الذي يعلمه ، مهما كان ضئيلاً ، فانه محمل بالشكوك الموروثة منذ الحقبة العثمانية عن «الميول الايرانية» للشيعة . والشيعي بدوره لا يفهم كثيراً عن «السنة» وكل الذي يعرفه لا يبتعد كثيراً عن قضية مقتل الحسين ودور السنة في دعم يزيد بن معاوية . المسلم عموماً لا يعرف من هم المسيحيين السريان و(الكلدان والآثوريين) ويخلطهم عادة بالأرمن ، وينظر الى المسيحيين عموماً وكأنهم جاليات أوربية مقيمة في العراق! وطبعاً المسيحي بدوره كثيراً ما يكون محملاً بفكرة سلبية عن «المسلم العربي البدوي» القادم من بادية «الحجاز» ، وأن هذا المسيحي هو الوارث الوحيد لحضارة الرافدين !

يمكننا هكذا الاستمرار في الكشف عن التجاهل والتجهيل السائد بين الجميع ازاء الجميع : الاكراد غرباء «هندوأوربيين» كما يُعتقد وليس لهم أية صلة بشعب العراق ولا تاريخ العراق وحضارته وارضه ، وكل بقعة قطنوا عليها من ارض العراق هي تلقائياً جزء من حلم «كردستان الكبرى» وتقرير المصير والكونفدريالية ، وهلم جراً! أما التركمان فهم أتراك مرتبطون بـ «الوطن الأم» تركيا!!! (سنتطرق لاحقاً بالتفصيل لمثال التركمان هذا) . أما «اليزيدية» فهم بالنسبة لآخرين غرباء يعبدون الشيطان وكفى . كذلك «الصابئة» فهم دين غامض وأصلهم مجهول !

هكذا أدى شعار الأحزاب والنخب والدولة بـ «أننا عراقيون وكفى» . الاعتقاد بسذاجة وسطحية بأن السكوت والتكتم عن التطرق لتنوعات المجتمع اللغوية والدينية والطائفية سيؤدي تلقائياً الى التوحد ، ، لكن الذي حصل هو العكس تماماً . ان هذا التجاهل والتنافر تفاقم في السنوات الأخيرة الى حد التعبير السافر عنه من خلال الانقسامات السياسية تبعاً للانتماء اللغوي والديني والطائفي ، وبصورة تدعو الى الرثاء والتشاؤم بالنسبة لمستقبل العراق

السياسي : الشيعة لهم أحزابهم الاسلامية ، والسنة لهم أحزابهم الاسلامية . الاكراد طبعاً كانوا الأوائل في تكوين أحزابهم القومية (ثم الاسلامية) التي ما فتأت تزداد حدة طروحاتها الانفصالية وصار واضحاً اعتقاد الكثير من هذه الحركات بأن انتماءهم للعراق تكتيكي ووقتي بانتظار تحقيق هدف «كردستان الكبرى» . السريان (الآثوريون أو الآشوريون) هم أيضا تنوعت حركاتهم واحزابهم . التركمان كذلك تراهم يمتلكون احزابهم التركمانية العلمانية والاسلامية الشيعية والسنية . ويمكن ان تستمر هذه الحالة بالتفاقم بحيث يمكن ان نتنبأ قريباً ، مع بعض الخيال التهكمي ، بانبثاق الاحزاب التالية : الحركة الديمقراطية «الدليمية» . . حزب «بو تميم» الاشتراكي . . منظمة «الخزاعل» الثورية . حركة «تلكيف» الاستقلالية . وهكذا دواليك بحيث يصبح لكل عشيرة ومنطقة حزب وحركة تمثل «جماهيرها» الخاصة !!

الحزب الوطني التركماني العراقي

نتناول طروحات هذا الحزب كمثال على حالة التشرذم السائدة في الوضع السياسي العراقي . نعتمد في تقديمنا على مقابلة نشرتها صحيفة «الوفاق» العراقية الصادرة في لندن (عدد ١٣٦ ـ ١٩٩٤) . وهي مقابلة أجراها منير البصري في أربيل مع «مناضل يونس» ممثل الحزب وعضو لجنته المركزية . ان تاريخ هذا الحزب وتكوينه يمكن تلخيصه كالتالي :

أن الحزب تكون عام ١٩٨٨ في امريكا ، ومقر قيادته في تركيا «انقرة» . وفي عام ١٩٩٠ فتح له مكتباً علنياً في «شقلاوة» في ظل السلطة الكردية . ثم فتح مكتباً في «اربيل ـ العراق» وأنشاء اذاعة باسم «صوت التركمان» وكذلك محطة تلفزيون وجريدة في اربيل بالاضافة الى جريدة الحزب التي تصدر في «انقرة» ! ، ولديه مكاتب في عواصم اوربا وامريكا .

أما اهداف الحزب ومواقفه فيمكن تلخيصها حسب النقاط التالية ، وقد اقتطعناها كما هي من المقابلة :

- احقاق الحقوق القومية للتركمان باعتبارهم العنصر الثالث من الناحية العرقية في العراق بعد العرب والأكراد . ويعني هذا أيضاً ذكر «القومية التركمانية» في الدستور العراقي مثلما ذكر العرب والاكراد .

- أن هذا الحزب هو الممثل الشرعي والوحيد للتركمان في العراق .

- أن الحزب لم يحدد المطالبة بالفدرالية ، ولكنه يطالب بمنح التركمان جميع الحقوق التي يمكن ان تحصل عليها القوميات الأخرى بما فيها الفدرالية .

- ان الحزب يعتبر «الوطن الأم» هو تركيا ، ويرتبط معها بعلاقات قومية خاصة .

وقبل الدخول في تحليل طبيعة هذه الأهداف ، نبدأ بالرد على النقطة الاخيرة التي تمثل حجر الزاوية بالنسبة لفكر هذا الحزب ، وتكشف عن مدى هشاشة الهوية العراقية التي تسمح بنشوء مثل هذ الطروحات المنافية لأبسط المبادىء الوطنية والانسانية :

تركيا هي «الوطن الأم» ويرتبط الحزب بها بعلاقات«قومية خاصة»!!

إنه من العار على حزب يدعي انه يمثل «جزءاً» من الشعب العراقي ، ان يعلن بصراحة سافرة ، ان «الوطن الام» هو تركيا ! اذن ما هو العراق بالنسبة لكم ، هل هو «الوطن الخالة» أم «الوطن العمة» . اذا كان بالنسبة للتركمان «تركيا» هي الوطن الام ، اذن بالنسبة لعرب العراق فإن «السعودية» هي الوطن الأم! باعتبار العرب أصلهم من الجزيرة العربية كما هو شائع ! ثم لِمَ لا يكون «وسط آسيا» هو الوطن الأم بالنسبة للأكراد باعتبار هذه المنطقة هي موطن الشعوب الآرية ! ويمكننا على هذا المنوال توزيع الجماعات العراقية : التركمان على تركيا ، والشيعة على ايران ، والسنة على سوريا ، والسريان على اوربا ، والصابئة على المجهول ، واليزيدية على الشيطان ، وهكذا دواليك بحيث يصبح العــراق أرضاً قاحلة بلا أم ولا أب ولا أبناء !

إن الحركات السياسية «العراقية» هذه تجاوزت أبسط حدود المنطق الوطني المعروف والسائد في جميع أوطان الأرض : «الوطن الأم» الذي تولد فيه أنت وأهلك وأبناؤك . يكفي أحياناً جيل واحد أو جيلان ، أو ثلاثة في أحسن الأحوال ، لأن تكون بقعة الأرض هذه هي الوطن الأم والأب وكل شيء . أما الأصول القديمة والعلاقات الثقافية واللغوية مع وطن آخر ، فانها يجب أن لا تتنافى وتتناقض مع الانتماء للوطن الأم الذي هو وطن الميلاد والتاريخ والعيش المشترك .

لنا على هذه الحالة تجربة شعوب أمريكا واستراليا كمثال حديث على تكون الأوطان والشعوب من مئات المجاميع والتنوعات اللغوية والدينية والمذهبية التي تجتمع في بقعة ارض

وتبني وطناً قائماً على العيش والتاريخ والمصالح المشتركة ، وبالتالي الثقافة والهوية الوطنية والحضارية المشتركة . اللبناني أو الياباني القاطن في الأرجنتين مهما تعاطف مع وطنه الأصلي وحافظ على ثقافته الأولى فانه يكفي جيل او جيلان أو ثلاثة لكي يندمج تماماً مع وطنه الجديد ويصبح هو «وطنه الأم» .

ولنا أيضا تجربة العراق «بلاد الرافدين» نفسه كمثال تاريخي معروف على الأوطان القديمة التي حافظت على ديمومتها الوطنية رغم ما لا يحصى من الجماعات المتنوعة اللغات والحضارات والأديان التي استوطنت فيه وامتزجت بشعبه وحضارته وصارت جزءاً منه : سومريون وساميون (أكديون وبابليون وآشوريون وكلدانيون وعرب) . قبائل آسيا من أسلاف الأكراد والتركمان والفرس (عيلاميون وغوتيون وكوشيون وحوريون وميديون وفرس) . اغريق ورومان وسلاف ، ثم افارقة وهنود وترك ومغول وأخيراً العثمانيون . بالاضافة الى ما لا يحصى من الجماعات والأفراد الذين استمروا حتى الآن بالاستيطان في العراق وآخرهم المصريون . اذا كان معظم سكان العراق الحالي هم من الناطقين بالعربية ، فان اي باحث في التاريخ يدرك ان عرب العراق ما هم بالحقيقة الا الجزء الاكبر من سكان الرافدين الأصليين الناطقين بالسريانية ثم تبنوا العروبة والاسلام وحملوا اسماء القبائل العربية الفاتحة بعد الفتح العربي الاسلامي . نفس الشيء ينطبق على التركمان والسريان واليزيدية والصابئة وكذلك معظم الاكراد القاطنين في المناطق العراقية ، كل هؤلاء ما هم الا اجزاء من سكان الرافدين الأصليين الذين حملوا لغات كردية وتركمانية وآرامية (سريانية ومندائية صابئية) ، حسب ظروف التاريخ وضرورات العيش والامتزاج مع القبائل الجديدة التي هيمنت على مناطق سكناهم .

لو تفحصنا تاريخ «تركمان» العراق ، فاننا سنكتشف بصورة لا تقبل الجدل ، بان هؤلاء «التركمان» شكلوا «جزءاً» حيوياً وفعالا من حضارة الرافدين وشعب الرافدين وحكومات الرافدين . ان العلاقات بين القبائل التركمانية القاطنة في وسط آسيا «طوران» وبلاد الرافدين تعود الى زمن سحيق . وهناك بعض المؤرخين ممن يؤكد ان اول استيطان للتركمان في الرافدين يعود الى الشعوب الآسيوية «المجهولة الأصل» التي توالت على غزو الرافدين والاستقرار به منذ الألف الرابع قبل الميلاد : غوتيون وكوشيون وحوريون وغيرهم . ولكن الوجود المؤكد للتركمان شمال الرافدين يعود الى القرن التاسع قبل الميلاد ، عندما بدأت

القبائل التركمانية «الياقوتية» بالنزوح والاستقرار بين دجلة والفرات . وكان سكان الرافدين وخصوصاً التجار والمبشرون على علاقة مستمرة بشعوب وسط آسيا . من المعروف مثلاً ان اول ابجدية تركمانية في التاريخ هي الابجدية «الاوغورية» التي كونها لهم المبشرون السريان «نسطوريون ومانويون» القادمون من الرافدين في القرن الخامس الميلادي (راجع الملحق عن التركمان) . وقد انتشرت الديانة المسيحية النسطورية وكذلك المانوية البابلية بين القبائل التركمانية في آسيا وظلت سائدة حتى بعد الاسلام ، وكانت سبباً لتعلق هذه القبائل ببلاد الرافدين لأنها تمثل لهم موطن الأديان المنتشرة بينهم . عام ٥٤ هجرية بدأ انتشار الاسلام على أيدي المحاربين القادمين من العراق بقيادة عبد الله بن زياد وخضوع التركمان للامبراطورية العربية ، ثم استقرار الكثير من هؤلاء المحاربين العراقيين وتزاوجهم مع التركمان . وكان هذا سبباً جديداً لانبثاق نزوحات جديدة للقبائل التركمانية نحو بلاد الرافدين . نحن نعرف دور هذه القبائل في تكوين الجيش العراقي أيام الخليفة المعتصم الذي كان من ام تركمانية ، وقد بنى مدينة سامراء لاستقرار الجيش التركماني فيها بالاضافة الى استقرار البعض في كركوك . ثم توالت هجرات التركمان «السلاجقة» الذين سيطروا على الخلافة في بغداد لعدة قرون . وبدأت هجرات تركمانية جديدة مع الغزو المغولي للعراق ولاحتواء الجيوش المغولية على الكثير من القبائل التركمانية . اما بالنسبة للحقبة العثمانية فانها لم تشهد نزوح اية مجاميع تركية للعراق ، بل ان الحضور التركي كان على شكل افراد وعوائل معظمها من اصول جورجية وسلافية والبانية تسيطر على ادارة الولايات العراقية . رغم تقرب التركمان العراقيين من الدولة العثمانية ، فانهم أبداً لم يعتبروا يوماً كعناصر تركية عثمانية بل ظلوا يعاملون كعراقيين «غرباء» عن الطبقة العثمانية الحاكمة ذات الأصول البلقانية والقفقاسية . والذي زاد من الشقة بين تركمان العراق والطبقة العثمانية ان الكثير من التركمان تبعوا المذاهب الشيعية والعلوية السائدة في العراق والمختلفة عن مذهب الدولة العثمانية .

أما بالنسبة لدور التركمان في تكوين الدولة العراقية الحديثة وديمومتها ، فاننا نلاحظ الدور البارز للعناصر التركمانية في جميع الادارات والوزارات العراقية في الفترتين الملكية والجمهورية . بل ان العناصر التركمانية كانت متميزة في قيادات الجيش العراقي . ثم ان التركمان خلال هذه القرون الطويلة من العيش المشترك مع باقي الجماعات العراقية اكتسبوا شخصية عراقية تميزهم عن جميع الأتراك في الأوطان الأخرى ، رغم حفاظهم على اللغة

التركمانية . ومعروفة حالات التزاوج والتمازج بين التركمان والعرب والأكراد ، وحتى مع السريان المسيحيين بحيث أن ابرز ملحمة شعرية تركمانية «سفيل يونان» كتبها كلداني من كركوك هو «سركيس عيواز» في اواخر القرن الماضي . بالاضافة الى مثال الكثير من القبائل العربية الممتزجة الى حد بعيد مع التركمان وكذلك الاكراد مثل بعض أقسام «البيات وربيعة والجبور» وغيرهم . ولنا بهذا الخصوص مثال رجل الدولة العراقي الشهير «نوري السعيد» ذو الأصول التركمانية العربية الكردية . يمكن الاستشهاد بما لا يحصى من الأمثلة عن الدور البارز للتركمان في جميع المجالات الاجتماعية والسياسية والثقافية في العراق ، وابرزها مثال «مصطفى جواد» التركماني الكركولي وفقيه اللغة العربية البارز .

اشكالية الانتماء القطري والانتماء القومي

يبدو ان مشكلة التكوين القومي للعراق تعود الى أساس تكوين الدولة العراقية عام ١٩٢١ من قبل الانگليز . فعندما احتل الانگليز العراق كانوا يمتلكون معلومات واسعة تاريخية وعملية عن اصل العراق ، ولهذا كان يطلقون على العراق في جميع وثائقهم «بلاد بين النهرين ـ MESOPOTAMIA» . وعلماء الآثار والتاريخ الانگليز ، منذ القرن الماضي ، هم اول من اكتشف حقيقة الديمومة الحضارية والتاريخية لبلاد الرافدين منذ فجر التاريخ . وكانوا يدركون ان بين دجلة والفرات استقرت ما لا يحصى من الشعوب واللغات والأديان والمذاهب التي كانت سرعان ما تتفاعل وتمتزج لتكون حضارة واحدة ودولة واحدة مهما تنوعت المسميات والمنافسات السياسية . لكن الطبقة الاستعمارية الانگليزية اضطرت لتجاوز جميع هذه الحقائق التي أكدها علماؤهم ، وخضعوا لنزعتهم الاستعمارية القائمة على مبدئهم المعروف : «فرق تسد» . نلاحظ رسوخ هذ النزعة التقسيمية في جميع الوثائق التي تداولها القادة العسكريون بخصوص تكوين الدولة العراقية . فهذا وزير المستعمرات «شرشل» يبرق عام ١٩٢١ الى المعتمد السامي في بلاد النهرين قائلاً : «ان المعيار لتقرير خط الحدود بين المناطق التي تديرونها وتديرها حكومة بلاد ما بين النهرين يجب ان تكون الحد السكاني للمناطق العربية الصرفة . . .» (راجع عزيز الحاج ـ القضية الكردية ـ 162) .

رغم محاولات النخبة الملكية العراقية لتجاوز هذه المشكلة من خلال اشراك العناصر غير العربية في قيادات الدولة العراقية ، إلا أنها فشلت في خلق هوية عراقية مشتركة تمثل مختلف الفئات العراقية ، وذلك لسببين :

- تداخل المشكلة القومية مع المشكلة الطائفية والدينية . لأن النخبة الملكية ورثت عن الدولة العثمانية مشكلة التكوين الطائفي «السني» للنخبة الحاكمة . فلم يكن هدف هذه النخبة توحيد مختلف العناصر العراقية على أساس التنوع اللغوي والاقليمي ، بل على أساس التعصب الطائفي . فكان التركماني والكردي والعربي مفضل في ادارة الدولة العراقية بسبب انتمائه «السني» وبالتالي الاستمرار بممارسة عزل العناصر الشيعية العربية والتركمانية والكردية «الأفيلية» ، كما كانت تفعل دائماً الدولة العثمانية . واستمرت هذه السياسة بشكل أكثر تطرفاً في الحكومات الجمهورية والبعثية خصوصاً .

- بروز تيار الحركات القومية العربية منذ الخمسينات ، ثم استيلائها على السلطة منذ الستينات وحتى الآن . مشكلة هذا التيار القومي العربي انه افتعل تعارضاً ساذجاً بين ما يسمى بـ «الانتماء القطري» و «الانتماء القومي» ، أي بين أن تكون «عراقياً» وان تكون «عربياً» . وعلى هذا الأساس فان الشرط الأول لقياس «مواطنية» أي عراقي هو «أصله العربي» ، وبالتالي تبرير سياسة «تعريب» المناطق الغير عربية في شمال العراق . هذه السياسة دفعت الكثير من العناصر غير العربية بالادعاء بالأصل العربي من اجل تبرير وتأكيد أصالتهم العراقية . ان هذه السياسة القومية التعصبية أشعرت الفئات العراقية غير العربية بعدم عراقيتها وغرابتها عن الهوية العراقية التاريخية .

لو أخذنا مثلاً حزب «البعث» الحاكم نفسه ، هل ننسى انه يسمى صراحة : «عربي» دون أي ذكر لاسم «العراق» ؟ وهو بأحسن الأحوال يمثل «أبناء القومية العربية» في العراق . معنى هذا ، انه من الطبيعي ان يحق للتركماني العراقي ان يكون حزبه القومي ، والسرياني كذلك ، واليزيدي ، والصابئي . وهذا بالضبط ما هو حاصل الآن . فكل فئة سكانية عراقية صار لها حزبها ، بل قل أحزابها وحركاتها وحتى يسارها ويمينها .

ان المشكلة لا تكمن في الاعتراف بـ «الانتماء العربي» للعراق بل المشكلة في تحجيم هذه الهوية الى «المعنى القومي والعرقي» الضيق والمتعصب المناقض والمنافي لمعنى «الهوية الوطنية» وبالتالي اختصار تاريخ وتكوين الشعب العراقي الى تاريخ القبائل العربية التي نزحت الى العراق و«عربت وأسلمت» سكان العراق الأصليين الناطقين بالسريانية . لقد تم تربية العراقي «العربي» على أنه منحدر بصورة لا تقبل الجدل من القبائل العربية التي نزحت بعد الفتح الاسلامي ، وبالتالي شعور العراقي العربي أنه غريب «سلالياً وبدنياً» عن تاريخ

أسلافه صانعي حضارات الرافدين السامية . وهذه التربية القومية دفعت الجماعات العراقية المختلفة للبحث أيضاً عن تواريخ وأصول مختلفة خارج بلاد الرافدين : الكردي وجد تأريخه الميدي الايراني . التركماني وجد تاريخه التركي العثماني . السرياني هو الوحيد من لجأ الى التاريخ الرافدي ، ولكنه جعل نفسه غريباً تماماً عن تاريخ الرافدين العربي الاسلامي .

إن رفض استخدام عبارة «قومية عربية» لا يعني أبداً معاداة العروبة ، بل بالعكس ان الدعوة الى هوية عراقية موحدة وشاملة لجميع مكونات الشعب العراقي ، تستهدف أساساً اشراك جميع العراقيين ، وليس عرب العراق وحدهم ، بهدف التقارب والتضامن والتوحد بين البلدان العربية . فان هدف وحدة العراق مع اي بلد عربي لن يتم دون شعور جميع العراقيين بوحدتهم الوطنية واشتراكهم في الهوية العراقية التي هي جزء من «هويات» متدرجة ومتنوعة : مشارقية (مع بلدان الشام) وعربية (مع العالم العربي) وشرق أوسطية (مع ايران وتركيا) . ان التركماني او الكردي او السرياني عندما يشعر بانتمائه الكامل الى العراق فانه سوف يشعر ايضاً بانتمائه الى العالم العربي ما دام العراق هو جزء من هذا العالم العربي ، كما يشعر مثلاً اي مواطن فرنسي مهما اختلفت طائفته او لغته بانه طبيعياً اوروبي ما دامت فرنسا جزءاً من العالم الاوربي .

يمكن الاستفادة في هذا المجال من تجربة «مصر» ونجاح النخبة المصرية في خلق «هوية مصرية» تعترف بديمومة الشعب المصري منذ الفراعنة والأقباط حتى التكوين العربي الاسلامي . أي محاولة المجانسة بين الأصالة المصرية من ناحية والانتماء العربي الاسلامي من ناحية ثانية . رغم النواقص التي لا زالت تعاني منها هذه التجربة . على هذا الأساس ان النخبة العراقية بحاجة الى تكوين «مفهوم جديد » لـ «الوطنية العراقية» يعتمد خصوصية «الهوية العراقية» القائمة على المبدأ التالي :

ان العراق الحالي ، هو الديمومة الطبيعية والتاريخية لبلاد الرافدين وحضارتها وتكوينها منذ فجر التاريخ وحتى الآن . وان شعب العراق الحالي بكل أديانه ومذاهبه وفئاته اللغوية هو النسل الطبيعي للجماعات التي قطنت وصنعت تاريخ الرافدين : سومريون وبابليون وآراميون واكراد وتركمان وعرب . بالاضافة الى جميع الفئات الصغيرة والكبيرة التي استقرت وامتزجت في تاريخ العراق مثل الاغريق والهنود والسلاف والقفقاس والأفارقة .

وهذا التحديد التاريخي لـ «الهوية الرافدية» المتميزة ، لا يمنع أبدا من الاعتراف بانتماء

العراق وجميع العراقيين الى «هويات أكبر» تتدرج بأهميتها حسب التالي :

- الهوية المشارقية : وهي تشمل مجموعة بلدان «منطقة المشرق» ، أي ما يسمى بالهلال الخصيب ، التي تجمع العراق وبلاد الشام (سوريا ولبنان والاردن وفلسطين) . حيث تشترك شعوب هذه المنطقة بالتاريخ والجغرافيا والمكونات الحضارية والسكانية منذ فجر الحضارة وحتى الآن . بل التشابه يشمل حتى التنوعات المذهبية والدينية واللغوية : عرب أكراد تركمان مسلمين مسيحيين ، شيعة سنة ، وغيرهم . ان الانتماء لـ «الهوية المشارقية» ليس نقيضاً للانتماء لـ «الهوية العربية» بل هو جزء متميز منها ، مثل «الهوية المغاربية» التي تجمع بلدان شمال افريقيا بخصوصياتها الجغرافية والتاريخية والثقافية . ان انتماء العراقيين بجميع تنوعاتهم الى «الهوية المشارقية» سوف يبدو مقبولاً بسبب عدم حمل هذه «الهوية» لمفاهيم ومسميات قومية عرقية محدودة ومناقضة للجماعات اللغوية والدينية الأخرى . ثم ان هذه «الهوية المشارقية» تعترف تلقائيا بالخصوصيات التاريخية والسياسية لشعوب بلدان المشرق ، مع الاعتراف بالقاسم المشترك بينها وهدف التقارب والتعاون ، وربما يكون نوعاً من الاتحاد الديمقراطي في المستقبل .

- « الهوية العربية» : ان انتماء العراق الى منطقة المشرق يفترض أيضاَ انتماءه للعالم العربي «الشرقاني» الكبير ، الذي ينقسم الى مناطق متمايزة : منطقة المغرب ، منطقة النيل (مصر والسودان) ، ومنطقة الجزيرة العربية ، ثم منطقة المشرق . ان الشعب العراقي يرتبط مع باقي شعوب العالم العربي بقواسم مشتركة في التاريخ والجغرافية واللغة والثقافة والجوار والمصالح . وهذه الهوية العربية لا تجمع فقط «عرب العراق» مع «عرب» البلدان العربية ، بل إنها تجمع كل العراقيين مع كل سكان البلدان العربية ، فهي تجمع السرياني أو الكردي العراقي مع البربري او القبطي . انها باختصار مثل «الهوية الاوربية» التي تجمع الأوروبيين مع احترام الخصوصيات الوطنية لكل بلد . انها ليست رابطة قومية عرقية ولا رابطة «امة واحدة» ، بل رابطة «جيو ـ سياسية» بحكم التاريخ والثقافة والجوار والمصالح المشتركة . يتوجب هنا التأكيد ان «الانتماء العراقي الحقيقي» يؤدي الى «الانتماء المشرقي» ومن ثم الى «الانتماء العربي» ، وليس العكس كما حاول أن يفرضه التيار القومي المتعصب .

- «الهوية الشرق أوسطية» ، ونقصد بها بالذات تركيا وايران . لأن التربية القومية التي سادت

العراق منذ اجيال ، زرعت في النفوس فكرة التناقض بين الانتماء القومي للعراق من ناحية ، واحترام الشعبين الجارين في تركيا وايران من ناحية ثانية . ان الفهم القومي المتعصب أشاع الاعتقاد ان «العروبة» تعني أولاً معاداة الشعوب المجاورة الغير عربية . مهما كانت الخلافات والإشكالات التاريخية والحدودية مع تركيا وايران فانهما تظلان جارتين تجمع العراق بهما ما لا يحصى من علاقات الجوار والتواريخ المشتركة والدين والثقافة والتمازج الروحي والسكاني . وهذه العوامل يمكن العناية بها ومنحها الزخم الايجابي وتطويرها من خلال العلاقات الثقافية والسياسية والاقتصادية والتقارب الأخوي .

دور المصطلحات في تمزيق الوحدة

إن العامل الآخر الذي لعب دوراً مهماً في إضعاف الهوية الوطنية يتمثل في التمزق «التنظيري» . إن الحركة السياسية العراقية (حكومة وأحزاب) حاولت أن تمسك المشكلة من ذيلها من خلال ترجمة التنظيرات والمصطلحات الأجنبية . منذ سنوات الأربعينات بدأت الحركات السياسية العراقية تلهث من اجل اقتباس كل ما أنتجته قريحة المفكرين الغربيين والسوفيات لاستخدامه وحشره على تنويعات المجتمع العراقي . المتفحص للأدبيات السياسية سيفاجأ بهذا السوق العجيب الذي تزدحم فيه المصطلحات الوطنية بصورة تفوق أي بلد آخر في العالم ، حتى مقارنة بالبلدان العربية المجاورة . إذ بدأت اللغة السياسية تفحمنا كل فترة بمصطلح جديد لوصف تنويعات المجتمع العراقي : «أمة ، شعب ، قومية ، أقلية طائفية ، أقلية عرقية ، أقلية دينية . . . » حتى وصلنا إلى نتيجة أن أي شخص غير عراقي عندما يطلع على هذه المصطلحات سيعتقد لا محالة ان العراق هو نموذج مصغر لقارة امريكا ، اذ تتواجد فيه ما لا يحصى من القوميات والشعوب والأقليات والعرقيات والطوائف والأديان !

ثم انه بسبب المشكلة الكردية راحت تسود اللغة السياسية العراقية مفردات ومصطلحات ومسميات لعبت ولا زالت تلعب دوراً سلبياً في تكوين وتوحيد الهوية الوطنية العراقية . صار من الطبيعي ان نسمع في الخطاب السياسي العراقي (حكومة ومعارضة) مفردات عجيبة غريبة ، من نوعية : (القومية العربية في العراق ـ القومية الكردية ، الأقليات القومية ، الأقليات العرقية ، الشعب العربي في العراق ، وغيرها) .

إن العقبة الأساسية التي تمنع من تكوين هوية وطنية عراقية شاملة لجميع الفئات العراقية هي المشكلة الكردية . لأن الطرح الخاطىء عن انقسام الشعب العراقي الى «قوميتين

رئيسيتين : عربية وكردية «مع أقليات دينية وعرقية مختلفة» هو طرح خاطىء من الأساس ، وهو أشبه بالخنجر في خاصرة الهوية العراقية الموحدة . لنوضح القول كما يلي :

إن تسمية العراقيين الناطقين بالعربية على انهم قومية عربية ، يعني أن جميع غير الناطقين بالعربية هم قوميات مختلفة ، وهذا بالتالي يعني ان هناك قومية تركمانية وقومية سريانية وقومية صابئية وقومية يزيدية وقومية فيلية ، وهكذا دواليك! ولو استمر الأمر على هذا الحال سوف لن يكون غريباً ان نسمع من يتكلم عن «القومية الشيعية!» و«القومية السنية!»

إن كلمة «قومية» خاطئة ومبهمة ، وهي ترجمة عربية سيئة لكلمتين لاتينيتين تم الخلط بينهما : (NATION) و (ETHNIE) . ان كلمة (NATION) ، تعني بالضبط الشعب الموحد ضمن وطن ودولة ، وربما تكون أدق ترجمة عربية لها هي كلمة (أمة) بمعناها الوطني المحدد ، فنقول مثلاً ، الأمة البريطانية والأمة الهندية والأمة الأمريكية ، رغم احتواء هذه الأمم على جماعات دينية ولغوية مختلفة ، إلا أنها تعتبر «أمة» ما دامت موحدة ضمن وطن ودولة واحدة . ولهذا فانه يقال الامة الفرنسية ولكن لا يقال الأمة الأوربية بل الأمم الاوربية لانها لا زالت لم تتحد فعلاً بدولة واحدة ، ولو حدث هذا الاتحاد الفعلي فانها ستصبح امة اوروبية . من الخطأ القول «امة عربية» ما دامت لم تتحد بدولة واحدة . ربما القول الأصح هو «العالم العربي» و «الشعوب العربية» للتعبير عن وجود بلدان مختلفة تجمع بينها روابط عديدة ومصالح وطموحات مشتركة . وقد يصح القول «أمة عراقية» ما دام الشعب العراقي بجميع تنوعاته مرتبط بوطن ودولة واحدة .

أما كلمة «ETHNIE» التي تترجم الى العربية ، تارة «قومية» وتارة «عرقية» وتارة «اثنية» ، فهي بالحقيقة اقرب الى معنى «شعب» . لكن المشكلة ان هذا المصطلح الاوربي قد ساد استخدامه منذ القرن الماضي من قبل العلماء الغربيين المختصين بالانثربولوجيا والاثنولوجيا أي كل ما يتعلق بما يسمى «الشعوب البدائية» أي الشعوب غير الأوربية والغربية . فتراهم يتحدثون عن الاثنيات في افريقيا وآسيا واستراليا وامريكا القديمة ، ولكن عندما يتحدثون عن اوروبا والغرب فانهم يقولون بكل بساطة «شعوب ، أو فئات لغوية «GROUPE LINGUISTIQUE» . مثلا في فرنسا هناك البروتون والالزاس والباسك والكورس الذين يتكلمون بلغات أصلية مختلفة مع استخدامهم الفرنسية كلغة أساسية .

لكن لا أحد في فرنسا يتحدث عن قومية أو اثنية أو عرقية ، بل يتم الحديث عن «فئة لغوية» ، وهم جزء من الأمة الفرنسية والعرق الفرنسي والقومية الفرنسية والشعب الفرنسي . لأنهم يدركون أنهم لو تحدثوا عن قومية أو أقلية عرقية ، فان هذا يعني أنه هناك أيضاً قومية باريسية وقومية مارسيلية وهلم جرا ، فكيف اذن سيحق الحديث عن شعب فرنسي واحد وامة فرنسية واحدة ! ونفس الكلام يمكن تكراره بالنسبة لمعظم البلدان الأوربية المتنوعة الطوائف والمجموعات اللغوية مثل انكلترا وبلجيكا واسبانيا وسويسرا .

أما نحن ، فان سياسيينا ومثقفينا ، لا أحد يدري كيف راحوا يتحدثون بشأن العراق عن قوميات وأقليات عرقية واحياناً عن شعوب ضمنها طبعاً «الشعب» العربي في العراق !!

ثم الأسوأ من هذا عبارة : «الأقليات الدينية والعرقية» . كلمة «أقلية» مهما كانت حسنة النية فانها تشعر الانسان الذي ينتمي اليها بشيء من المهانة والضعة . الأقلية المسيحية السريانية والأقلية التركمانية والأقلية الفلانية ، وكأن العراق بأجمعه استحال الى حزب لينيني حديدي متكون من «أكثرية» حاكمة وأقليات خاضعة . ومثل هذا يجر الى الحديث الذي لا ينتهي عن عدة أكثريات وعدة أقليات . سوف يحق القول مثلاً : أكثرية مسلمة وأقليات غير مسلمة . . أكثرية عربية وأقليات غير عربية ، أكثرية شيعية وأقليات غير شيعية . . الخ .

الحقيقة ان كلمتي أكثرية وأقلية قد يصح استخدامهما في سياق المقارنة وعند التحليل الأكاديمي الاجتماعي والتاريخي ومن اجل تبيان الفروق العددية لا أكثر ، ولكن من الخطأ الكبير استخدام واحدة من هاتين الكلمتين كصفة وتسمية ثابتة لمجموعة من السكان . المطلوب اذن أن يقال بكل بساطة «العرب» أو الناطقون بالعربية ، بدل «القومية العربية أو الأكثرية العربية» ، وأن يقال التركمان أو الناطقون بالتركمانية ، بدل «الأقلية التركمانية أو الأقلية القومية أو العرقية التركمانية» . وان يتم استخدام كلمة «الفئات اللغوية والدينية والطائفية» بدل هذه «الأقليات القومية والعرقية والدينية والطائفية» .

المهمات المطلوبة

ان الهوية المشتركة لا يمكن ان تتشكل الا بمعرفة الجميع للجميع ، ثم اعترافهم ببعضهم البعض . الوحدة التي تقوم على الجهل والتجاهل هي وحدة هشة وقابلة للتفسخ الى عدة وحدات متصارعة .

هنا يمكننا تسجيل بعض المقترحات القابلة للحوار والتطوير ، والتي يمكن ان تساعد على تجنب النتائج السلبية لممارسات وتنظيرات المراحل السابقة والحالية للوضع السياسي العراقي ، وتساعد على بناء «هوية وطنية عراقية» واضحة ومحددة .

بالنسبة للمشكلة الكردية فانه يجب الاعتراف انها استثناء خاص في الوضع العراقي . ولكن هذا الاستثناء يجب أبداً أن لا يكون قاعدة عامة تؤثر على مجمل الوضع العراقي . وهنا نستذكر مثال تصريحات عضو «الحزب التركماني» (المذكور أعلاه) حيث يطالب للتركمان بجميع الحقوق التي سيحصل عليها الاكراد . على هذا الاساس تم «تكريد» الوضع العراقي ودفع الفئات المختلفة لأن تطالب بالكونفدرالية وحق تقرير المصير والانفصال وهلم جرا .

من اجل بلورة موقف واضح ازاء المشكلة الكردية ، يتوجب اخذ بنظر الاعتبار الأمور التالية :

- يجب التفريق بين كردستان الحقيقة التي تمتلك حق الكونفدرالية وحق تقرير المصير (أي الشريط الجبلي الحدودي مع ايران والذي يشمل أجزاء من محافظات السليمانية واربيل ودهوك) ، وبين المناطق الكردية العراقية الرافدية الأصيلة التي يقطنها أكراد ولكنها أبداً لن تكون جزءاً من كردستان ، ونعني بهذا مدن اربيل وكركوك وخانقين وغيرها (راجع موضوعنا المفصل عن الاكراد) ، في ايران مثلاًرغم ان الأكراد يسكنون في عدة مناطق ، الا ان هناك محافظة واحدة اسمها «كردستان» .

- يجب الغاء الفقرة الواردة في الدستور العراقي : «ان الشعب العراقي يتكون من قوميتين رئيسيتين هما القومية العربية والقومية الكردية» لتحل محلها الفقرة التالية : «ان الشعب العراقي ، سليل تاريخ الرافدين ، هو شعب واحد موحد يتكون من عدة فئات لغوية ومذهبية ودينية ، مع الشعب الكردي القاطن في كردستان العراق . .» وهذا يعني تجنب «تكريد» الوضع العراقي وتقسيمه الى قوميات وشعوب أقليات ، ولكن بنفس الوقت الاعتراف بالأمر الواقع بأن أكراد كردستان لهم ميزاتهم الفئوية والتاريخية الخاصة ولهم وضعهم الاستثنائي الذي يجب أن لا يؤثر على عموم الشعب العراقي الموحد . بمعنى أوضح ان الاعتراف بوجود «شعب كردي» لا يعنى تلقائياً الاعتراف بوجود «قومية عربية أو شعب عربي» بل ان الشعب العراقي بجميع تنوعاته هو جزء من منطقة المشرق وكذلك العالم العربي الكبير .

- تبني جميع السياسيين والمثقفين مبدءاً عاماً ومقدساً يثبت في دستور الدولة والاحزاب يؤكد على منع تشكيل اي تنظيم سياسي يمثل ويدافع فقط عن مجموعة من السكان ، سواء دين أو طائفة أو مجموعة لغوية . ويفرض على أي تنظيم أن تكون دعوته واضحة لتمثيل جميع تنوعات الشعب دون اي اعلان واضح عن تمثيل جزء معين . أما الاستثناء الوحيد بالنسبة لهذا المبدأ فيخص الحركات الكردستانية ، فهذا أمر أقره الواقع واضطرت لقبوله جميع الحركات وحتى الحكومات الدكتاتورية منذ الأربعينات وحتى الآن . وهو يدل على اعتراف الجميع بحقيقة تمايز الشعب الكردستاني عن باقي الشعب العراقي . (يمكن الاعتماد على مثال الدستور الجزائري الجديد الصادر عام 1996 الذي أكد هذه المسألة بوضوح تام) .

أما بالنسبة لعموم الوضع العراقي ، فيمكن تسجيل النقاط التالية :

- تشكيل مجموعة من الباحثين من اجل اصدار كتاب موحد يتضمن مختصر تاريخ كل الفئات الدينية والطائفية واللغوية العراقية : عرب ، شيعة ، سنة ، سريان ، تركمان ، اكراد ، افيلية ، صابئة ، يزيدية ، شبك ، الخ . ثم اقرار كتاب خاص بهذه المسألة في جميع المراحل الدراسية في العراق . ويمكن التعمق بهذا المشروع باصدار درسات وبحوث ومجلة متخصصة بتاريخ الجماعات العراقية والمشرقية وتشجيع الحوار والتفاهم بينها . بالاضافة الى إشراك وسائل الاعلام ومناهج التثقيف الحزبي بالتطرق لتراث وتاريخ هذه الجماعات ودورها في صنع تاريخ الرافدين ومنطقة المشرق .
- أن يحق لجميع الفئات اللغوية والدينية والمذهبية بتكوين مؤسساتها ومنتدياتها الثقافية والاجتماعية والدينية الخاصة بها . مع التأكيد على تجنب ان تتحول هذه المؤسسات الدينية الثقافية الاجتماعية الى مؤسسات سياسية مغلقة على أبناء الجماعة .
- من حق الفئات اللغوية والطائفية العراقية المتنوعة وكذلك أبناء جميع محافظات العراق ، المطالبة بوجود افراد منهم في جميع أجهزة الدولة والحركات السياسية . أي أن يكون من حق السرياني أو التركماني أو الفيلي أو الصابئي أو اليزيدي أو الموصلي أو البصري أن يطالب بوجود افراد من جماعته او محافظته في مناصب الدولة العليا وكذلك في قيادات الأحزاب . ومثل هذه الامكانية تتم دون أية ضرورة لتكوين حزب خاص بالجماعة او المحافظة الفلانية ، بل من خلال جميع الاحزاب العراقية وكذلك المستقلين . بمعنى أوضح

ان قيادات الدولة والجيش والمجتمع يجب ان تمثل بصورة نسبية تقريبية جميع التنوعات الاقليمية واللغوية والمذهبية في العراق ، وهذا المبدأ مقدس وثابت في جميع الأنظمة الديمقراطية .

- من اجل ضمان نجاح المبادىء السابقة فان المبدأ الأساسي والأهم الذي يتوجب تبنيه هو التالي : «على جميع الحركات السياسية العراقية ، مهما كانت مبادؤها وبرامجها ، حتى الاسلامية منها ، ان تضم في قياداتها وقواعدها نسب تقريبية من أعضاء ينتمون الى جميع تنوعات الشعب العراقي» بمعنى أوضح أن يسود مبدأ اخلاقي يجعل من المعيب وأقرب الى الخيانة الوطنية أن يتكون حزب ما من قيادات تضم فقط فئة لغوية أو طائفية او اقليمية معينة . يتوجب على جميع الحركات العراقية ان تجعل من اول أهدافها ان تضم في قياداتها وقواعدها نسب معينة من افراد ينتمون الى جميع تنوعات الشعب العراقي . (مثال السلطة الحالية في العراق نموذج لسوء التمثيل العشائري الاقليمي الطائفي) . يمكننا هنا ان نستشهد بمثال حدث في لبنان ، حيث لجأت بعض الحركات الاسلامية الشيعية الى ضم أفراد من الطوائف المسيحية في صفوفها وجعلهم نوابها في البرلمان ، نذكر هذا كمثال لا أكثر مع إدراكنا لصعوبته ولنواقصه التفصيلية .

خلاصة القول ، أن حركات المعارضة العراقية سوف لن تنتصر في كفاحها من اجل بناء عراق جديد ما لم تتخل من طروحاتها العتيقة . لا تكفي أبداً الدعوة الى إسقاط النظام الدكتاتوري واقامة نظام ديمقراطي ، مع البقاء على نفس الأساليب القديمة باقتباس وترجمة التنظيرات الغربية والشرقية ومحاولة فرضها عنوة وبصورة سطحية وساذجة على الوضع العراقي ، مع العمل على تغطية هذا النقص بكيل الشتائم للنظام الدكتاتوري ، والحديث المسهب عن جرائمه وكوارثه . ان المهمة التاريخية المطلوبة الآن تتمثل بتكريس المعارضة العراقية لجميع إمكانياتها المادية والمعنوية من اجل تكوين المؤسسات المتخصصة بدراسة الوضع العراقي بجميع تفاصيله السياسية والتاريخية والاجتماعية ، من ثم اقتراح الحلول والبرامج المطلوبة لمشاكل المجتمع العراقي ومن اجل بناء عراق جديد ، وهذه أولا مهمة ثقافية فكرية ، ومن ثم سياسية .

الشيعة والمشكلة الطائفية في العراق

الجرح الطائفي في الهوية العراقية لا يكف عن النزيف جاعلاً من الوطن مبتغى لأحلام الطامحين الى التوسع والاستحواذ . يمكن تعزية النفس بظاهرة ايجابية أخذت تسود بين السياسيين والمثقفين العراقيين وتتلخص بالفكرة التالية : بما أنه ليس بالضرورة أن تكون كادحاً لكي تدافع عن حق الكادحين ، ولا أن تكون امرأة لكي تدافع عن حق النساء ، ولا أن تكون كردياً لكي تدافع عن الأكراد . . . فاذن ليس هناك ضرورة أن تكون شيعياً لكي تدين طائفية الدولة وتدافع عن حق الشيعة بالمشاركة العادلة بادارة الوطن . . . يكفي أن تكون عراقياً فحسب لكي يحق لك إدانة الظلم المسلط ضد أي طبقة أو فئة أو طائفة أو مجموعة أو فرد من الشعب . ويكاد أن يتفق الجميع على حقيقة احتكار الدولة من قبل طغمة تعتمد الطائفية والعشائرية والحزبية في إذلال الناس وقمعهم . وأن الحل الوحيد للتخلص من سرطان الطائفية هو الاعتماد على نظام التعددية ومشاركة جميع المواطنين بادارة الوطن ، كل حسب جدارته وليس حسب انتمائه الطائفي والعشائري والحزبي .

إن هذا الاجماع على الحل الديمقراطي للمشكلة الطائفية ايجابي وأساسي ، لكنه يظل ناقصاً إن لم يرافقه حوار عميق وشامل وجاد في كل تفاصيل المشكلة الطائفية . ان الأغلبية المتعلمة ، لا زالت حتى الآن تتعامل مع مسائل الدين والطائفة ، فقط من الناحية السياسية ودور الدولة في حل المشكلة ، وتتجنب عن عمد كل ما يخص الجانب الآخر من المشكلة ، أي أديان وطوائف الوطن نفسها . وهذا متأتي من طبيعة العقلية التي سادت النخب المتعلمة (في العراق والعالم العربي) منذ بدايات النهضة الحديثة : كل ما يخص الدين يجب تركه لرجال الدين ، والتعامل مع أية مشكلة تخص الدين بمنطق التجاهل والتعالي ، وفي أحسن الأحوال بمنطق الدبلوماسية وتجنب التفاصيل ، واعتبار كل من يقترب منها رجعياً وطائفيا ويتطرق لأمور «قد عفى عليها الزمن» !

للتخلص من سرطان الطائفية والتعصب الدين ، يجب التخلص أيضا من سرطان التعصب «العصراني» وتجاهل الدين والطوائف والتعالي على الأصالة والتراث الروحي . من اجل اصلاح المجتمع والوطن ، لا يكفي اصلاح الدولة والاحزاب ، بل يتوجب كذلك اصلاح الطوائف والاديان ، لأن الدول تتغير بينما الأديان دائمة . . واصلاح الدائم أهم من اصلاح

المتغير . وهنا يتحمل المسؤولية جميع المثقفين والسياسيين ورجال الدين من جميع الطوائف والأديان .

١ - شروط أولية للحوار في الطائفية

من اجل أن يكون الحوار في هذه المشكلة الحساسة والمثيرة ايجابياً ويبتغي العلاج والحل ، من الضروري الاخذ بنظر الاعتبار الأمورالتالية :

- ان هذه المشكلة مهما كانت معقدة فانها تبقى أبداً ضمن الثابت التاريخي الوطني بوحدة بلاد الرافدين وشعب العراق من نينوى حتى الخليج . وان الحديث عن مشكلة الشيعة لا يعني الشيعة ولا المتدينين وحدهم ، انما هي مشكلة تعني جميع العراقيين . من اجل تخليص الدولة العراقية من سرطانها «الحزبي ـ الطائفي ـ العشائري» الذي قاد جميع العراقيين الى كوارث وحروب ونكسات لم تسلم منها اية عائلة أو قبيلة او طائفة او منطقة ، ولا حتى الفئة الحاكمة . لذا فان الشرط الأول للحديث عن هذه المشكلة هو التسامح وتجنب الوقوع في التعصب ضد المذهب الفلاني أو معه ، وأن يبقى ثابت الوحدة الوطنية هو الدليل والغاية .

- ان تسمية (الطائفة الشيعية) التي يستخدمها الاعلام الغربي وغير الغربي بخبث مقصود تستوجب بعض التروي والتوضح ، لأنها تتضمن الكثير من التنوعات والتفاصيل . الشيعة ليسوا أقلية طائفية محددة سكانياً وثقافياً وجغرافياً . إذ يمكن القول بكل بساطة ان ما سمى بـ «الطائفة الشيعية» هم الشعب العراقي بأغلبيته الساحقة . فلو اعتبرنا كردستان حالة خاصة ، فان ما يسمى بالشيعة يشكلون ثلاثة أرباع الشعب العراقي . هناك تداخل عميق الجذور بين الشيعة والسنة في العراق . من الناحية الجغرافية يمكن رؤية الشيعة والسنة يتعايشون معاً في مناطق كثيرة ، على الأخص في العاصمة بغداد ثم البصرة وسامراء والموصل وكركوك . اما من الناحية القبائلية ، فان معظم القبائل العربية الكبرى في العراق ، كل واحدة منها منقسمة الى فرع شيعي وفرع سني حسب منطقة السكن ، مثل شمر والدليم والجبور وربيعة والزبيد (راجع بطاطو ـ الكتاب الأول ـ ص ٦١ ، ٦٢) .

حتى المجموعات اللغوية العراقية الأخرى مثل التركمان فان ما يقرب من نصفهم شيعة ، بالاضافة الى الأكراد الأفيلية الذين يتميزون عن أكراد كردستان كونهم شيعة ومنتمون للثقافة العربية وللعراق . لهذا فإن مشكلة الشيعة بالحقيقة ما هي إلا مشكلة الشعب العراقي

برمته ، ولولا التأثير العثماني التاريخي الموروث للدولة العراقية واصرارها على عدم اشراك العناصر «الشيعية» في الفئة الحاكمة ، لما لاحظ أحد أن هناك «طائفة شيعية» متميزة .

- ان التقصير الكبير الذي وقع فيه رجالات الدولة العراقية يكمن في تغافلهم عن عامل القوة الجبارة التي يفقدها العراق بسبب التهميش السياسي الوطني للشيعة ومراكزهم المقدسة . لننظر مثلاً الى العربية السعودية التي منحها التاريخ مدينة مكة وكعبتها الشريفة لتكون عامل قوة روحية وسياسية للدولة السعودية في العالم العربي والاسلامي وفي قلوب المسلمين . كذلك لنا مثل آخر هو ايطاليا ، التي منحها التاريخ مدينة الفاتيكان لتكتسب عبرها هيبة وتقديس جميع كاثوليك لعالم . أما بلدنا العراق فقد منحه التاريخ مدينة (النجف) وباقي العتبات المقدسة لتكون عامل قوة روحية وسياسية واقتصادية للعراق في العالم الاسلامي وفي قلوب الشيعة خصوصاً . مثل مكة والفاتيكان ، فان النجف هي العاصمة الفقهية والروحية لملايين الشيعة في آسيا وافريقيا والبلدان العربية . لكن الذي حدث في العراق هوالعكس تماماً : بدل أن تكون النجف والعتبات المقدسة عامل قوة وهيبة للعراق ، تم اعتبارها دائماً كعامل ضعف وخوف من نفوذ القوى الخارجية وخصوصاً ايران! لماذا هذا الاعتقاد الراسخ لدى رجالات دولتنا ان مراكز الشيعة هي مراكز للمعارضة الداخلية وللتغلغل الايراني؟ لماذا لا يكون الأمر على العكس تماماً ، وهذا هو المعقول والواقعي؟

أمر نادر في التاريخ ان تضطر دولة ما الى مهاجمة وتدمير مراكزها الوطنية المقدسة . أما في العراق ، خلال العقدين الأخيرين فقط (١٩٧٥ - ١٩٩٠) تمت مهاجمة النجف وباقي العتبات بالطائرات وقصفها بالمدافع كأي مواقع أجنبية معادية! أليس النجف وكربلاء وسامراء والكاظمية هي مناطق عراقية ويقطنها عراقيون؟ لو كانت الدولة العراقية تمتلك الحد الأدنى من الروح الوطنية والحنكة السياسية ، أما كان من المعقول ان تتحول هذه المناطق الى مراكز للتأثير على الشيعة في العالم وكسب الشعب الايراني الى سياسة العراق؟ كيف أتيح لايران منذ قرون وحتى الآن أن تتمكن من التأثير على سياسة العراق من خلال هذ المراكز ، لولا غباء الدولة العثمانية ، ثم الدولة العراقية التي ورثتها !

٢ - مظاهر الطائفية في الدولة العراقية

ان مشكلة تمثيل جميع تنوعات وفئات المجتمع في الدولة مشكلة سياسية تاريخية لم تحلها الانسانية بصورة تامة . لا زالت النظم الديمقراطية البرلمانية الغربية تعاني من سوء عدالة

تمثيل الكثير من تنوعات الشعب . يكفي النظر الى نسبة تمثيل النساء في الحكومات والاحزاب والبرلمانات والادارات ومالكي الثروات ، اذ لا تتعدى في أرقى النظم الديمقراطية ١٥٪ ، رغم ان المرأة هي نصف المجتمع! نفس الشيء بالنسبة لتمثيل الطبقات الكادحة وأبناء الريف والاحزاب المعارضة ، وحتى بالنسبة لبعض الأديان والطوائف . حتى الآن في امريكا فان الاغلبية الحاكمة ـ المالكة هي الأقلية الأنكِلوسكسونية البروتستانية ، يقابل هذا قلة نسبة المنتمين الى الفئات الأخرى من النساء والزنوج والكاثوليك والناطقين بالاسبانية ، رغم انهم يمثلون اغلبية المجتمع .

ضمن هذا السياق يمكننا الحديث عن الحالة العراقية رغم خصوصياتها المتطرفة في القمع والدموية وتوالي الكوارث . مقارنة بسيطة لتركيبة الدولة العراقية مع تركيبة المجتمع العراقي ، تكشف عن خلل رهيب بين التركيبتين لحد يكاد أن يتشابه مع وضعية دولة عنصرية مثل جنوب افريقيا ، من حيث تمثيل الأغلبية السوداء في الدولة!

المجتمع العراقي يحوي على نسبة من الشيعة تزيد على ٦٠٪ من مجموع السكان (عرب أولاً ثم اكراد أفيلية ونصف التركمان) ، وترتفع نسبتهم الى ٧٥٪ من سكان العراق من غير كردستان! معنى هذا ان نسبة السنة تقرب ٤٠٪ من سكان العراق (عرب واكراد ونصف التركمان) ، ولكن هذه النسبة قد لا تتجاوز ٢٠٪ من سكان العرق من غير كردستان!

تركيبة المجتمع هذه تتناقض تماماً مع تركيبة الدولة العراقية . يكفي ايراد بعض الأرقام المتوفرة عن فترة السبعينات ، للكشف عن هذا الخلل المدهش : مجلس قيادة الثورة المتكون من (١٥) عضواً ، جميعهم من العرب السنة ومن المناطق الشمالية الغربية ، ليس فيهم شيعي أو جنوبي واحد . أما القيادة القطرية لحزب البعث فتتكون من ١٦ عربي سني ، وكردي سني واحد ، وعربي مسيحي واحد ، وثالث عربي شيعي (راجع حنا بطاطو ـ الكتاب الثالث ـ ص ٤٠٢ ، ثم ص ٣٩٤) . وهذا التمايز الطائفي في تكوين الدولة له أيضا تأثيره الطائفي على الصعيد الطبقي : من بين واحد وثلاثين مقاولاً كبيراً يسيطرون على مشاريع الدولة ، هناك (٢) مقاول كردي و(١) تركماني ، و(٢٣) عربي سني ، و(٥) فقط من العرب الشيعة . (راجع عصام الخفاجي ـ الدولة والتطور ـ ص ٨٠) .

ويبدو أن هذه الحالة ليست من صنع النظام الحالي ، بل تم تكريسها وتعميقها بعد وراثتها من النظام الملكي ، إذ تدل الأرقام عن وضعية طائفية واضحة : خلال ما يقرب الأربعين عاماً

(١٩٢١ـ١٩٥٨) من بين (٥٧٥) منصب وزاري هناك فقط (١٥٩) للعرب الشيعة ، والباقي للعرب السنة وأقلية للأكراد والتركمان وغيرهم . ومن بين (٥٨) رئاسة وزراء ، هناك (٥) فقط للشيعة . (بطاطو ـ الكتاب الأول ـ ص ٦٩ ، ثم ص ٢١٩) .

اذن ، من خلال هذه الأرقام ومع شيء من التبسيطية ، يمكننا وصف الفئة الحاكمة في العراق ، آخذين بنظر الاعتبار تكوين ٨٠٪ من القادة والمستفيدين اقتصادياً وسياسياً من الدولة :

المجموعة اللغوية : عرب . . الطبقة والمهنة : عسكر واداريين ومالكين وحديثي النعمة . الانتماء الحزبي : بعث . الأصل الجغرافي والسكاني : سامراء ، تكريت ، الأنبار ، الموصل (منطقة شمال وغرب العراق) . الأصل الديني والمذهبي : مسلمين سنة .

إن هذا التقسيم عام ويمثل القسم الأعظم من رجالات الدولة من منصب مدير عام وضابط ومالك متوسط حتى قمة القيادة من أعضاء مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء والقيادة القطرية والقيادة العسكرية وكبار أصحاب الثروة . هذا لا ينفي وجود أقلية بين القياديين والمتنفذين ينتمون الى الفئات المبعدة عن الدولة والثروة : ثمة نساء ، وثمة غير بعثيين ، كادحين ، وجنوبيين ، وأكراد ، ومسيحيين وصابئة وغيرهم ، وهنالك طبعاً شيعة . لكن جميع هؤلاء ما هم إلا أفراد معدودين بالاضافة الى انهم لا يمثلون عملياً فئاتهم الأصلية .

يتوجب الاشارة الى أنه هناك فرق كبير بين الانتماء الطائفي السني للدولة ، وبين الناس المحسوبين على مذهب السنة . ليس بالضرورة أن جميع السنة هم تلقائياً من أنصار الدولة ومن المستفيدين منها . فهل يصح القول مثلاً ، ان الدولة الفلانية (في مصر أو الجزائر أو ايران) تمثل حقاً جميع المسلمين في بلدانها لكونها من نفس الطائفة السائدة . ولنفترض ان النظام الحالي في العراق كان بأغلبية قيادته من الشيعة ، هل يمكن التأكيد انه سيكون أكثر ديمقراطية وأفضل تعبيراً عن مصالح أغلبيةالشيعة ؟

إن العلاقة بين المجتمع والدولة ليست علاقة انتماء قومي وديني فقط ، بل تشتمل كذلك على علاقات مهمة أخرى ، مثل الانتماء السياسي والطبقي والاجتماعي والمهني والفكري . والدولة الأكثر ديمقراطية هي الدولة القادرة على التمثيل المتوازن للمجتمع في جميع تنوعاته الفئوية والدينية والجغرافية والحزبية والطبقية والمهنية والفكرية . اذن ، ان

عامل التمثيل الطائفي، رغم أهميته، ليس هو وحده الأساس لتقييم النظام، بل يتوجب أيضاً الأخذ بنظر الاعتبار عوامل التمثيل المتنوعة الأخرى.

ان سوء تمثيل الدولة لمختلف فئات المجتمع ما هو إلا عامل مساهم مع عوامل سوء التمثيل الأخرى. وسوء التمثيل الشامل هذا، هو الذي يدفع الدولة الى الانكماش والتعويض عن ضعفها بالاضطرار الى تكثيف القمع والاستبداد لكي تضمن هيمنتها الكاملة والشاملة.

على هذا الأساس، فان المواطن العراقي (السني) قد لا يعاني مباشرة من التمايز الطائفي، لكن هذا لا ينفي أنه يعاني مثل الجميع من التفرقة الطبقية والمهنية والحزبية والفكرية، ويشترك مع جميع العراقيين بالمعاناة من الاستبداد والقمع والحروب والكوارث الوطنية التي لا تتوقف.

٣ - الشيعة واصلاح الطائفة

بالنسبة للمشكلة الطائفية في العراق، فان الشيعة الذين يمثلون الأغلبية الساحقة من الشعب العراقي يتحملون مسؤولية أساسية في عملية الاصلاح الطائفي (طبعاً الدولة كذلك والطوائف الأخرى).

الكاتب العراقي حسن العلوي له رأي طريف يستحق التمعن والبحث رغم المبالغة الواضحة فيه. إذ يعتقد أن حرمان الشيعة من الدولة وضعفهم السياسي يعود الى طبيعة التشيع العراقي (والعربي عموماً)، وتأثيره على تربية الفرد وممارساته السياسية، لأن: «الطائفية الشيعية ذات طابع نظري تتحدث عن أفضلية الإمام علي في الخلافة وتؤكد على قضية النص والتعيين. فيما لا يعني الطائفي السني بشيء من ذلك. إنه لا يعيش في التاريخ كالطائفي الشيعي، ولا يتحدث عن حق عمر في الخلافة أو حق علي، وإنما يبحث عن حق قريبه في أن يحتل المركز المعين والوظيفة المعينة... أي أن الطائفية الشيعية معتقد والسنية فعل. والشيعية تعيش في التاريخ والسنية تعيش في الحاضر. ولهذا يلتصق الشيعي بالكتب ويلتصق السني بالحياة... الشيعة يتشاركون في البكاء والسنيون يتشاركون في السلطة... هذا يلطم وهذا يحكم» (راجع حسن العلوي ـ الشيعة والدولة القومية ـ ص ٢٦٦ ـ ٢٦٨).

رغم المبالغة الواضحة في رأي الكاتب، إلا أنه استطاع أن يضع يده على نقطة حساسة لفهم أسباب ضعف الشيعة في العراق والعالم العربي وعزلتهم عن المشاركة الفعالة في إدارة

الدولة . والحقيقة كما ذكرنا سابقا أن المشكلة لا تكمن في المذهب الشيعي ذاته ، بل في الظروف التاريخية التي حتمت عزلة الشيعة وبالتالي ضعفهم وتمسكهم بالماضي على حساب الحاضر . ان ظروف الصراع الدامي بين القوى الكبرى المجاورة أثرت بشكل حاسم على التشيع العراقي وعلى بنيته الفكرية والتنظيمية وأساليب تعبيره وممارساته الاجتماعية السياسية . منذ سنوات والجدل محتدم بين المعنيين بأمر الشيعة من متدينين وعلمانيين ، من أجل تخطي حالة الضعف الموروثة واصلاح الوضع السياسي والمذهبي . هنا نذكر المقترحات الرئيسية المتعلقة بعملية الإصلاح هذه :

أ - الاصلاح التنظيمي (لكل بلد حوزته ومرجعيته)

يتركز الآن الجدل حول اصلاح المرجعية العليا (القيادة الدينية ومقرهاالنجف في العراق) . يعتبر الامام الشهيد محمد باقر الصدر في العراق من أبرز دعاة التجديد والاصلاح في الفقه الاسلامي والمرجعية الشيعية . وله في هذا المجال دراسات جادة وأطروحة معروفة بـ «أطروحة المرجعية الموضوعية الصالحة» . . . وهذه الأطروحة تشكل الآن مطلباً أساسيا للكثير من الاحزاب الاسلامية ، ويعتبر البعض هذه الأطروحة بديلاً عن : «محاولات الترقيع وترميم الأوضاع البائسة للمرجعية التقليدية المتخلفة عن حركة الاسلام وروح العصر . .» (راجع بيان حزب الدعوة والحركة الاسلامية ـ ٧ نيسان ١٩٩٢) . وتكاد الآن جميع الأطراف المعنية بالشيعة تشترك في الجدل الحامي حول المرجعية ، وتتوالى البيانات والتوضيحات والادانات والتعليقات وبشأن هذه المسألة (راجع مثلاً بيان رابطة العلماء في العراق ـ ٥ ـ ١١ ـ ٩١ ، كذلك تعليق مؤسسة الخوئي ومجلة النور ـ عدد ٩ ـ ١٩٩٢) .

اشتدت هذه المعركة بعد وفاة المرجع الأعلى الإمام الخوئي في آب ١٩٩٢ . ويتمحور جدل الاصلاح أساساً حول : مشكلة الهوية القومية لهذه المرجعية ، ثم علاقتها بالأنظمة الحاكمة ، خصوصاً في ايران والعراق ، بالاضافة الى اصلاحات فقهية اسلامية وحياتية عديدة تتعلق باستنباط اسلوب جديد للتعامل مع خصوصية التواجد الشيعي في كل بلد . شيعة لبنان وعلماءهم شرعوا بتصدر معركة الاصلاح . ولمجلة الشراع المقربة من منظمة امل ولمسؤولها حسن صبرا دوراً بارزاً في الدعوة لعملية الاصلاح وخلق المرجعية العربية . آخر مبادرة قامت بها المجلة والتي بدأت تثير ضجة كبرى في الوسط الشيعي هي المقابلة التي أجرتها مع العلامة المجتهد الشيخ محمد تقي الفقيه الذي تحدث بكل صراحة «الظروف

الحرجة التي تمر بها الحوزات العلمية في النجف الأشرف وتشتتها ، وتعدد الاتجاهات في ايران بسبب تدخل الحاكمين في إدارة الحوزات وفي منح الألقاب الدينية الدالة على المرتبة بل وفي تعين مرجع التقليد . . .» . وذكرت المجلة أن القوات الايرانية قامت بمحاصرة ومضايقة ومنع أنصار المرجع الأعلى الامام الخوئي من اقامة مجالس التعزية بمناسبة وفاته . وعن عملية اختيار مرجع أعلى جديد . قالت المجلة بالحرف الواحد : «كأن الأمر لم يعد بيد كبار العلماء والمراجع والحوزات العلمية والعريقة والشهيرة بريادتها وعلمها وادارتها ، بل صار يطبخ في أروقة الأجهزة والدهاليز المختصة بالأمن بشكل ينذر بأوخم العواقب على الطائفة الاسلامية الشيعية التي كانت وما زالت وستبقى مثالاً حياً ونابضاً للاجتهاد والعلم .» (راجع الشراع ـ عدد ٥٤٥ ـ أيلول ـ ١٩٩٢) .

والمنافسة مستمرة بين الحكومتين في العراق وايران من اجل التأثير في اختيار المرجع الشيعي الأعلى . الحكومة العراقية تحاول أن تفرض (السيد محمد الصدر) كمرجع أعلى ، بينما ايران تحاول بدورها ان تفرض (السيد محمد علي اراكي) على أمل أن يكون من أنصار مبدأ ولاية الفقيه ويبايع السيد علي خامنئي باعتباره قائد الأمة .

ازاء حالة الصراع والتمزق في المرجعية ـ المؤسسة القيادية الروحية ، فان شيعة لبنان وعلمائهم يحاولون اتباع طريق ثالث مستقل عن تأثيرات الدول ومصالحها . ويضيف العلامة الشيخ الفقيه : «المستقبل لجبل عامل ، ومن قديم تكهنا بهذا قبل ثلاثين سنة ، بعدما رأينا النجف قد تزعزت نتيجة مكافحة الأنظمة الحاكمة لها . . .» .

ويبدو أن حالة التشتت والانقسام تصل الى ذروتها من خلال تأثيرها السلبي على المتدينين من الشيعة (خصوصاً في العراق) . عندما تسود بين هولاء فكرة رفض الاعتماد على أي مرجع شيعي ، وتقليد الامام الغائب (صاحب الزمان المهدي المنتظر) ، وهذا يعني العودة مباشرة الى النصوص القرآنية والإمامية دون استشارة أي فقيه ومرجع .

حول تاريخ المرجعية يقول العلامة تقي الفقيه : «المرجعية لم تكن واحدة حتى في زمن الأئمة عليهم السلام ، فقد كان الشيعة في عهد الباقرين عليهم السلام يرجعون الى العلماء الموجودين في بلادهم ، وفي أواخر عهد الأئمة اشتهرت قم والكوفة ، فكانوا يرجعون في الشرق الى علماء قم وفي البلاد العربية الى علماء الكوفة . . . ثم اشتركت معهما بغداد ومصر وذلك عهد انتشار الدويلات الشيعية كالفاطميين والبويهيين والحليين والحمدانيين

وغيرهم . . . وقبل عدة قرون اشتهر العلم في جبل عامل . . . ومنه استوردت ايران أعظم علماء الشيعة . . . وبقيت كذلك الى عهود قريبة ، حيث كان لكل البلاد مراجعها . . . ويقال ان اول من بدأ بتوحيد الرئاسة المرجعية هو الميرزا حسن الشيرازي الكبير في سامراء وذلك أثناء الحرب العالمية الأولى» .

من هذا الكلام ، نفهم طبيعة الاشكالية الحالية التي تعاني منها المرجعية الشيعية : التداخل بين القيمة الدينية للمرجعية والانتماء الوطني لهذه لمرجعية . ما زالت حتى الآن تثقل على الشيعة مشكلة التداخل والتعارض بين المنزلة العلمية للمجتهدين من ناحية ، وانتمائهم الجغرافي والوطني من ناحية اخرى . طبيعة الحوزات العلمية انها مختلطة الجنسيات ، فتجد مجتهداً ايرانياً مقيماً في النجف ولكن أتباعه ومقلديه معظمهم في أفغانستان ، ثم تجد مجتهد عراقي مقيم في قم بأيران ولكن أتباعه ومقلديه في لبنان . . هذا الأمر قد يبدو رائعاً وانسانياً ودليلاً حقيقياً على أن الاسلام فوق الأوطان وحدود الدول ، ولكن الواقع قاس والحدود جبارة وخصوصيات الشعوب تفرض نفسها . مثلاً ، هل من الممكن أن يكون رجالات الدولة في ايران من العراقيين أو اللبنانيين حتى لو كانوا من الشيعة . الدولة لا يقودها إلا أبناء وطنها . . آذن لماذا لا تكون المرجعية كذلك؟ الحوزات العلمية ومجتهدوها لهم سلطة روحية تفوق أية سلطة ، ومن اجل ذلك يتوجب الأخذ بعين الاعتبار الناحية الجغرافية ـ الوطنية لكل حوزة . أي بكل وضوح أن المطلوب هو التالي :

يجب أن يكون لشيعة كل بلد «حوزة وطنية» ومرجعية عليا واحدة خاصة بهم ، ومتكونة من مجتهدين ومجتهد أكبر من أبناء البلد نفسه ، ليكن لشيعة البحرين حوزتهم الوطنية ولشيعة العراق ولبنان والكويت وايران والسعودية وباكستان وافغانستان . ولكي يحافظ الشيعة في جميع الأوطان على علاقاتهم ومشاوراتهم يمكنهم كذك تكوين «حوزة مشتركة» ، أي أن تبعث كل «حوزة وطنية» ممثل عنها ليجتمعوا مع بعض للحوار والتعاون . ويكون مقر هذه «الحوزة المشتركة» بالتناوب بين جميع المدن الشيعية . ويمكن بالاضافة الى ذلك أن تتشكل حوزات مشتركة متنوعة ، مثلاً «حوزة مشتركة عربية» تجمع ممثليين عن حوزات الشيعة في البلدان العربية .

إن هذا التخصص سوف لا يخدم شيعة العراق والبلدان العربية وحدهم ، بل انه سيخدم كذلك ايران ، دولة وشعباً ، يخلصها من متاعب الانفصام بين المصالح الوطنية

ومصالح الشيعة في البلدان الأخرى . اذ أن التاريخ سجل لنا الكثير من الحوادث التي تبرز هذا التعارض ، على الأقل من الناحية التكتيكية الآنية ؛ كما يحدث الآن ، وكما حدث أثناء الكثير من الفترات . منها مثلاً ، أثناء الحرب العراقية الايرانية ومعاناة الامام الخوئي من الكثير من المصاعب من اجل المواءمة بين ظرف الشيعة العراقيين وقضية الحرب مع ايران . لقد اضطر هذا الإمام الى اعلان تناقضه مع الامام الخميني ومعارضته لمبدأ ولاية الفقيه وإدانة استمرارية الحرب .

ويمكن معاينة تجارب المذاهب الاسلامية الأخرى ، إذ يلاحظ أن هذه المذاهب تتمتع بخاصية الاندماج الفقهي ـ الاداري في الحالة الوطنية . والدليل على هذا ان هناك مفتي سني مع مؤسسات دينية خاصة بكل بلد . ويمكننا كذلك الاستشهاد بتجربة الكنائس المسيحية . فالأرثوذكس نجحوا في احترام الخصوصيات الوطنية وانقسموا الى كنائس كبرى روسية واغريقية وارمنية ومشرقية ونسطورية وقبطية ، وغيرها . أما البروتستان فقد أخضعوا تماماً نشاطهم للحالة الوطنية . ثم الكاثولك رغم مركزية كنيستهم فانهم في طور الاصلاح من اجل التلاؤم أكثر مع الخصوصية الوطنية ، ونذكر مثال الكنيسةا لكاثوليكية في فلسطين عندما فرضت أخيراً أن يكون بطريكها فلسطينياً عربياً .

ب - الاصلاح الفقهي (المذهب الاسلامي الخامس) :

يذكر علي الوردي ، عالم الاجتماع والمؤرخ العراقي : «ان الشريف المرتضى كان قد اتفق مع الخليفة العباسي القادر بالله على أن يأخذ من الشيعة مائة الف دينار ليجعل مذهبهم في عداد المذاهب السنية فترتفع التقية (التكتم والسرية) والمؤاخذة على الانتساب اليهم ، وقد كلف المرتضى الشيعة بأن يجمعوا نصف المبلغ ويدفع هو النصف الآخر من خاصة ماله فلم يوفقوا الى ذلك . . ثم بعد ذلك حاول الشاه الايراني التركماني نادر قلي . . . وكانت خطته أن يجعل من التشيع مذهبا فقهيا خامساً يضاف الى المذاهب الأربعة الموجودة عند أهل السنة ، وقد أطلق عليه اسم «المذهب الجعفري» نسبة الى الامام العلوي جعفر بن محمد الصادق . . . والظاهر انه وجد في الامام جعفر الرجل الذي يصلح أن يكون رمزاً للتقريب بين الشيعة وأهل السنة ، فقد كان هذا الإمام يعيش في نفس العصر الذي عاش فيه مالك وابو حنيفة ، وكان جعفر بالاضافة الى ذلك ينتمي الى علي بن أبي طالب من جهة أبيه ، والى أبي بكر من جهة أمه وجدته ، والمأثور عنه أنه كان يعلن للناس قائلاً : «ولدني أبو بكر

مرتين» وذلك لكي يردع الذين اعتادوا سب أبي بكر وصاحبه عمر» (راجع علي الوردي - لمحات اجتماعية - ج ١ - ص ١٢٠-١٢١) .

من المعروف ان الفقه الشيعي يتمتع بخاصية الاجتهاد في معالجة الأمور الدينية والدنيوية ، وهذه خاصية ايجابية تميزه عن المذاهب السنية الي غلقت باب الاجتهاد . لعل التقسيم الجغرافي - القومي لنظام الحوزة والمرجعية العليا سوف يساعد كثيراً على عملية الإصلاح الفقهي والسياسي في المذهب الشيعي .

العلامة الدكتور موسى الموسوي ، يقترح عدة إصلاحات فقهية في التشيع من اجل التقريب مع المذاهب السنية الأربعة . ومن هذه الأمور الأساسية التي يعتقد انها قد طرأت بعد قرون على التشيع وخصوصاً بتأثير تجارب الدول الشيعية التي قامت في ايران منذ القرن السادس عشر : «مسألة اعتقاد الشيعة بعدم شرعية الخلفاء الراشدين ، وتحليل مسبتهم . مسألة التقية والكتمان . مسألة ضرب القامات يوم عاشوراء . مسألة الشهادة الثالثة ، أي ذكر الإمام علي في الشهادة . مسألة إعتقاد البعض بتحريف القرآن . .» وأمور أخرى رئيسية وثانوية تستحق الجرأة في الحوار والبحث من اجل التقارب بين الشيعة وباقي المذاهب السنية . (راجع كتاب العلامة موسي الموسوي - الشيعة والتصحيح) .

٤ - الدولة والاصلاح الطائفي

بالنسبة لدور الدولة والحركة السياسية العراقية في عملية اصلاح الوضع الديني والمذهبي وتحقيق العدالة في المشاركة والتعايش الوطني ، فيمكن تسجيل الملاحظات التالية :

- كثر الحديث في الآونة الأخيرة عن تقاسم التمثيل الطائفي والقومي للقيادة السياسية العراقية المعارضة ثم الدولة المستقبلية ، بين : (شيعة وسنة وأكراد) . بخصوص وجود ممثلين رسميين للأكراد في جميع المؤسسات القيادية العراقية ، مسألة معقولة لا يمكن الاعتراض عليها ، وهي متداولة منذ قيام الدولة العراقية . وبعد قيام الجمهورية عام ١٩٥٨ صارت مسألة تمثيل الاكراد في الدولة فقرة قانونية مذكورة بالدستور . هذا الأمر يؤكد اتفاق جميع الأطراف العراقية السياسية والحكومية على أن وضع كردستان له خصوصية تميزه عن باقي الوضع العراقي .

لكن وضع العراق (من غير كردستان) يختلف تماماً في هذه الناحية . الشعب العراقي

لا ينقسم فقط الى سنة وشيعة ، هناك التركمان والمسيحيين والصابئة واليزيديين والاكراد الأفيلية . والخطر في مثل هذا الإقرار العلني لتقاسم الدولة ، هو تكرار الحالة اللبنانية التي أدت الى الحرب الأهلية . أي أن المواطن سوف لن يعامل على أساس عراقيته بل على أساس انتمائه الديني والمذهبي واللغوي . ومثل هذه الحالة تؤدي الى عكس المطلوب ، أي الى تعميق الهوة بين فئات الوطن ودفع الأفراد الى اعتبار أنفسهم كأعضاء في الطائفة والفئة اللغوية اكثر من كونهم اعضاء في الشعب الواحد .

هناك من يعترض بالقول على أن عدم الإقرار الدستوري والرسمي بهذا التقسيم سيؤدي كذلك الى استحواذ طائفة أو أقلية على مقاليد السلطة ، كما هو سائد الآن في العراق ودول أخرى . وهذا أيضا قول صحيح .

اذن ثمة حلين متناقضين بالنسبة لهذه الاشكالية : إما الإقرار الدستوري بالتقاسم التمثيلي بين جميع الطوائف والمجموعات اللغوية ، على الطريقة اللبنانية ، وإما ترك الأمور على ما هي عليه الآن اعتماداً على الحظ والصدفة وصراعات القوى ، التي ستفرض الطائفة والمجموعة المهيمنة ، كما هو سائد الآن! لكن ثمة حل ثالث ، هو الوسط تماماً بين الحلين ، وهو الحل المتبع في الكثير من الأنظمة الديمقراطية : ما يسمى باتفاق العرف والتقليد . أي الممارسات المتفق عليها من قبل الجميع دون اللجوء الى تسجيلها بدستور أو قانون ولا الاعلان عنها رسمياً وصراحة . انها ممارسات تفرضها الاخلاق والضمير والمصلحة الوطنية المشتركة .

الكثير من الدول الغربية ، انكلترا وفرنسا وألمانيا وسويسرا وإسبانيا ، تماثل العراق تقريباً في إشكالية تنوع وتمايز المجموعات السكانية : بين الكاثوليك والبروتستان ، ثم اليهود وكذلك المهاجرين بقومياتهم وأديانهم المتنوعة ، بين المناطق الفقيرة والمناطق الغنية ، بين الفئات اللغوية الوطنية المتعددة ، بين سكان الريف والمدينة ، بين النساء والرجال ، بين الأحزاب المختلفة . . الخ . ولتجاوز هذه الإشكالية اعتمدوا الاتفاق العرفي الأخلاقي في تجاوز هذه الفروقات وخصوصاً الفروقات المذهبية . مثلا ، الجميع متفقون عرفياً وأخلاقياً وليس علنياً ودستوريا ، على أن عضاء الحكومة وجميع قادة الدولة والجيش والنقابات والاحزاب يجب أن يشملوا جميع تنويعات المجتمع الدينية والجغرافية واللغوية والمهنية . في الحكومة الفرنسية مثلاً ، هناك دائماً ثمة وزير بروتستاني واحد أو اكثر وكذلك هناك يهودي ، رغم أنهم أقلية

ضئيلة . وهناك امرأة وزيرة أو أكثر . وهناك ماسوني أو اكثر ، وهناك وزراء من المناطق اللغوية الفرنسية المختلفة ، وبعضهم يمثلون مهن مختلفة ، وآخرون يمثلون التيارات الفكرية الاجتماعية المستقلة مثل الكنائس والنقابات ومؤسسات المجتمع والبيئة . كل هذا يتم بصورة تلقائية وصامتة ومتعارف عليها من قبل الجميع دون أية اشارة مباشرة للانتماء المذهبي والديني واللغوي لهذا المسؤول أو ذاك .

إن خلق مثل هذه الوضعية يعتمد أولا واخيراً على طبيعة الدولة الديمقراطية . لأن النظام الانتخابي المنبثق من القاعدة الشعبية والشامل لكل مناطق وارياف وفئات وطوائف الشعب ، يؤدي تلقائيا الى حصول الجميع على فرص شبه متساوية للصعود الى البرلمان والمساهمة في ادارة الدولة ومؤسسات المجتمع . هذا لا يعني أن هذه الأنظمة الليبرالية توصلت حقاً الى الدولة المثالية الشاملة للجميع وتخلصت فعلاً من مشكلة تمايزات المجتمع . المثال المعروف في هذا المجال ، هو مثال الدولة الامريكية المحتكرة تاريخياً من قبل الأقلية الانكَلوسكسونية البروتيستانية ، كذلك مثال سويسرا ، إذ ينقسم سكانها حالياً مناصفة الى بروتستان وكاثوليك ، لكن الدولة لا زالت في بعض المناصب ترث الهيمنة التاريخية للمذهب البروتستاني : ثمة مناصب حساسة معينة ، مثل وزير الدفاع وكبار مدراء المصارف ، لا زالت حكراً على البروتستان! ويمكن الحديث كذلك عن انعدام تمثيل الفئات المهاجرة في جميع الدول الغربية .

من هذا يمكن الاعتقاد ، أن الحل المعقول لإشكالية التمثيل المذهبي والاجتماعي في مؤسسات الدولة والمجتمع ، أن يتجنب الدستور العراقي فرض تسمية الأشخاص حسب انتمائهم لمذهبي واللغوي ، إنما يتم بشكل عام مراعاة أن تمثل الدولة جميع القطاعات بصورة عرفية وأخلاقية . ولضمان تطبيق مثل هذه العدالة يمكن مثلاً الاشارة في دستور الدولة ، وذلك في دساتيرالأحزاب والمنظمات الاجتماعية ، الى الفقرة التالية : «يتوجب على جميع مؤسسات الدولة والمجتمع القيادية والقاعدية ، أن تتجنب أي تمايز بين المواطنين حسب انتمائهم الديني والمذهبي والجغرافي واللغوي والسياسي ، مع المراعاة الممكنة لضرورة اشتراك جميع هذه القطاعات في ادارة المؤسسات ، تقريباً حسب النسبة المئوية . ويتم هذا عرفياً وشفهياً دون أية إشارة صريحة ومكتوبة للانتماء الديني والمذهبي واللغوي للمواطنين» .

- إن التمايز الممارس من قبل الدولة ضد الشيعة والمذاهب والأديان العراقية الأخرى ، ليس فقط تمايز في التمثيل السياسي ، بل كذلك في القوانين والحقوق وحرية ممارسة الشعائر . الحاصل في العراق ، أن الدولة تمثل في قوانينها وسياستها التربوية والاعلامية والحقوقية المذهب السني الحنفي فقط ، جاعلة من الشيعة الجعفرية (والمذاهب والأديان الأخرى) مذهباً ثانوياً وتابعاً وحتى أجنبياً ، ومحروماً من المساواة في الحقوق الرسمية والقانونية التي يتمتع بها المذهب الحنفي .

في جميع مؤسسات الدولة الاعلامية والتربوية والجامعية والفقهية والأوقاف فان المذهب الحنفي هو السائد والمتبع ، وكأنه المذهب الوحيد الذي يمثل العراقيين جميعهم . من المعقول مثلاً ان تمنع الدولة بعض الشيعة من ممارسة طقوس العنف وتجريح الجسد وتعذيب النفس ، فهذه مسألة يقرها الكثيرين من الشيعة ومطروحة للنقاش حتى في ايران . لكنه ليس من المعقول أبداً أن تمنع الدولة المؤمنين الشيعة من ممارسة شعائرهم التاريخية الغير مؤذية للذات أو للوطن ، مثل مجالس التعزية في أيام عاشوراء وقراءات ذكرى كربلاء . فمثل هذ الشعائر معقولة ولها مماثلات في جميع أديان العالم ، ولا تختلف كثيراً عن بعض الشعائر المسيحية الممارسة في الدول الأخرى . كان من المفروض على الدولة العراقية ، بدلاً من منع وقمع هذ المناسبات ، أن تتبناها وأن تشرك الطوائف الأخرى بها ، وأن تشجع المؤسسات الدينية والثقافية والفنية على تطويرها لجعلها مناسبات للتوعية الأخلاقية والاجتماعية والوحدة الوطنية .

- إذا كان الفهم السائد لمعنى العلمانية هو فصل الدين عن الدولة ، فاننا نفهم العلمانية بمعنى تمثيل الدولة لجميع لأديان والمذاهب والتياراي الفكرية والدفاع عن حرية ممارسة حقوقها . اي أن المسألة ليس بفصل الدين عن الدولة ، انما بجعل الدولة مركزاً توحيدياً لجميع المذاهب والأديان والأفكار الوطنية ، وان تكون دولة شاملة لجميع تنويعاتالمجتمع الفكرية والدينية واللغوية والسياسية .

ومن اجل تحقيق مثل هذا الهدف الوطني يتوجب على الدولة وجميع الاحزاب والمؤسسات الثقافية والدينية ، ان تساهم جميعها بتكوين (اللجنة الوطنية العليا للحوار بين المذاهب والأديان في العراق) ، وتتشكل من ممثلين لجميع الأديان والمذاهب العراقية : (سنة وشيعة وكاثوليك وارثوذكس وصابئة ويزيديين ، وغيرهم) . المهمة الأساسية لهذه اللجنة هي

إقامة الحوار الدائم بين ممثلي جميع المذاهب والأديان من اجل تعميق التقارب بينها وحل الإشكالات الفقهية والاجتماعية الوطنية ، وضمان حقوق الجميع بممارسة شعائرهم دون المساس بحقوق الآخرين . وتقوم هذه اللجنة بعقد المؤتمرات الفكرية واصدار النشريات ومجلة فكرية دينية للحوار . وتكون لهذه اللجنة قيمة استشارية ومعنوية بالتعاون مع البرلمان والحكومة بشأن السياسة والقوانين المتعلقة بالأديان والمذاهب العراقية . وكذلك تقوم هذه اللجنة بدور أساسي في الحوار مع الأديان والمذاهب في الدول الأخرى .

ومن أول شروط التربية الوطنية ودعم السلام الاجتماعي ، إقرار كتاب مدرسي في جميع المراحل الدراسية والجامعية ، موضوعه هو : (المذاهب والأديان في العراق) . حيث يتم من خلاله الحديث عن كل مذهب ودين عراقي بصورة موضوعية وحيادية ليفهم من خلاله كل عراقي طبيعة المذاهب والأديان العراقية . . مع مساهمة وسائل الاعلام الأخرى بالتوعية بمثل هذا الموضوع وتقديم البرامج المخصصة لاحتفالات وشعائر جميع الأديان والمذاهب . وللمثال على مدى تجاهل الدولة لهذه المسألة ، نذكر الممارسة العجيبة للتلفزيون العراقي ، إذ يتم في كل عام مع ذكرى ميلاد المسيح عليه السلام تقديم برنامج خاص بالمناسبة تشرف عليه الجاليات الأوربية . وكأن السيد المسيح نبي أوروبي ، والمسيحيون في العراق هم جالية أوروبية ! إن السياسة التربوية المطلوبة في هذا المجال ، تهدف الى تخليص العراقيين من سوء الفهم والنظرة المشوهة التي يحملها الجميع ضد بعضهم البعض . وإقرار سياسة تربوية تشجع احترام أتباع كل دين ومذهب للأديان المذاهب الأخرى ، وتشجيع الروح الوطنية المشتركة ، وإشعار الجميع بأنهم عراقيون مع حرية احتفاظهم بميزاتهم الدينية والمذهبية واللغوية والفكرية .

ملاحق معلوماتية

خاصة بإشكاليات الوضع العراقي
ومميزاته التاريخية

التقسيم الاداري الحالي للعراق

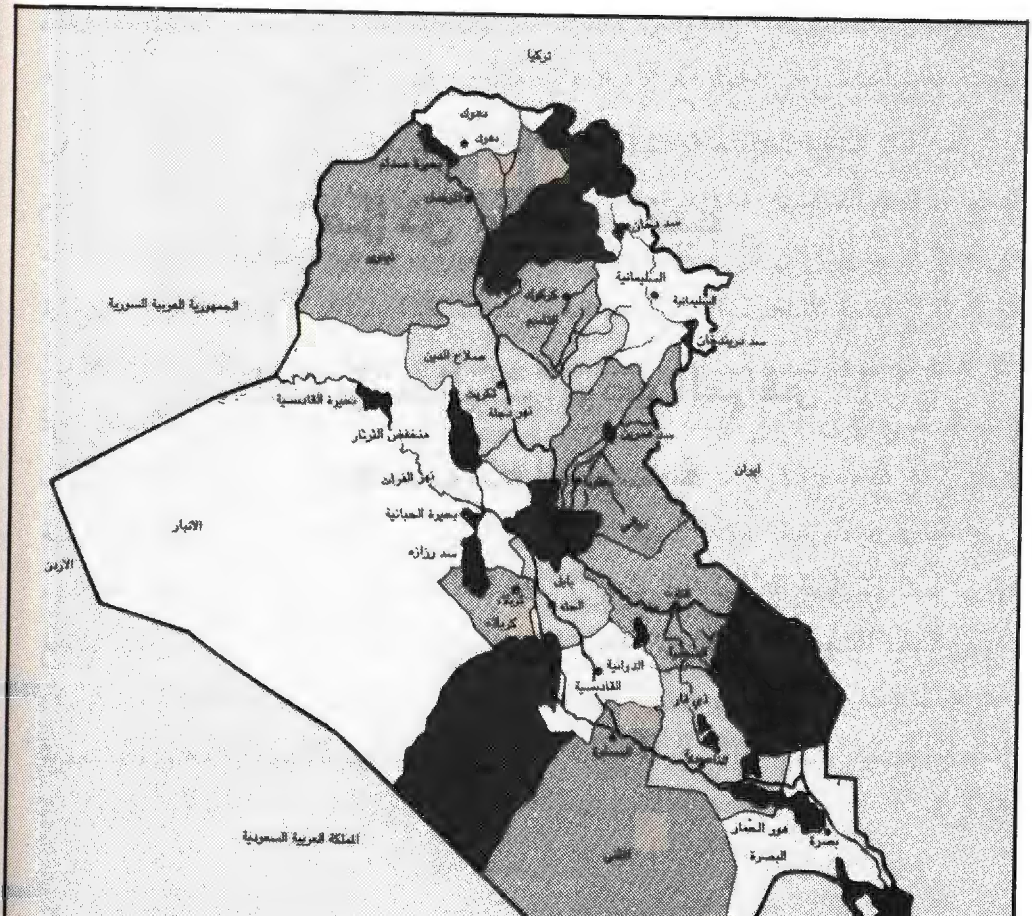

التأثير النسطوري السرياني في التشيع العراقي

إن أي تفحص ولو سريع للمصادر التاريخية (الاسلامية) تكشف لنا بصراحة ووضوح مدى قوة الإرث الآرامي (السرياني) للمراكز الحضرية العراقية والمراكز الدينية الاسلامية. لو تفحصنا مثلاً تاريخ «النجف» التي تعتبر حاضرة الشيعة الأولى في العراق ولشيعة العالم. وهي مقر المرجعية العليا والحوزة العلمية وفيها قبر الإمام علي بن أبي طالب، إن تاريخ النجف يكشف لنا قوة الأثر السرياني النسطوري في تكوين الفقه الشيعي حيث اعتنق السريان الدين الاسلامي ونقلوا معهم كل تراثهم المسيحي والبابلي الى المذهب الشيعي. وهذه الحقيقة التي جهد العروبيون والاسلاميون على إخفائها من اجل اتهام الشيعة بالتبعية لايران واعتبار ميراثهم منحدر من الميراث الفارسي. قبل إيراد الشواهد على عراقية الميراث الشيعي، ننوه الى المسألة التالية: إن مدن الحيرة والكوفة والنجف هي في منطقة واحدة وقد ورثت كل واحدة عن الأخرى سكانها وحضارتها. الحيرة كانت حاضرة المسيحية النسطورية والثقافة السريانية قبل الاسلام وحتى الفتح. ثم انتقل المركز الى الكوفة بعد الفتح حيث عسكر الجيش الاسلامي قرب الحيرة وتحول معسكرهم الى مركز حضري انتقل اليه اهل الحيرة المجاورة. وبعد دفن الإمام علي في النجف قرب الكوفة انتقل السكان ومركزهم الحضاري الى النجف حول قبر الإمام علي. هنا لمحة عن ميراث النجف السرياني المسيحي:

أولاً: الأديرة النسطورية السريانية في النجف، وكانت هذه الأديرة معروفة بجودة خمرتها وبها حانات شهيرة يأتيها الناس من بغداد والشام:

- دير حنة: «ودير حنة بالأكيراح الذي قيل فيه: يا دير حنة من ذات الأكيراح» هذا أيضاً بظاهر الكوفة والحيرة، لا أدري أهو هذا المذكور هنا أم غيره وقد ذكر شاهده في الأكيراح». وقد كان قال في الأكيراح: ... بالقرب منها ديران يقال لأحدهما (دير مر عبدا) وللآخر (دير حنة) وهو موضع بظاهر الكوفة كثير البساتين والرياض، وفيه يقول أبو نؤاس:

يا دير حنة من ذات الأكيراح	من يصح عنك فإني لست بالصاحي
يعتاده كل مجفو مفارقه	من الدهان عليه سحق أمساح
في فتية لم يدع منهم تخوفهم	وقوع ما حذروه غير أشباح
لا يدلفون الى ماء بباطية	إلا اغترافاً من الغدران بالراح

وحكى الربيع عن بعض أهل الحيرة قال : كان في دير حنة خمار يقال له مار عبدا موصوف بجودة الخمر ونظافة الآنية وملاحة الحانة .

- **دير الاسكون** ، قال ياقوت : «هو بالحيرة ـ راكب على النجف وفيه قلالي وهياكل وفيه رهبان يضيفون من ورد عليهم : وعليه سور عال حصين واليه تجتمع النصارى في أعيادهم وفي كل يوم جمعة بعد صلاة الجمعة فإذا كان يوم الشعانين أتوه من كل ناحية مع شماميسهم بصلبهم وأعلامهم فإذا استتموا فيه وفي القصر الأبيض والعلالي المدانيّة خرج أسقفهم بهم الى مكان يعرف بقبيبات الشعانين .

- **قبة الشنيق** ، قال الشابشتي : وهي من الأبنية القديمة بالحيرة ، على طريق الحاج وبإزائها قباب يقال لها السكور) ، جميعها للنصارى ، فيخرجون يوم عيدهم من السكورة الى القبة في أحسن زي عليهم الصلبان ، بأيديهم المجامر والشمامسة والقسان معهم يقدسون (على نغم واحد متفق من الألحان ، ويتبعهم خلق كثير من متطربي المسلمين وأهل البطالة الى أن يبلغوا قبة الشنيق فيتقربون ويتعمدون ثم يعودون بمثل تلك الحالة فهو منظر مليح ، ولبعض الشعراء فيه :

والنصارى مشددين الزنا ... نير عليهن كل حلي وثيق
يتمشين من قباب الشعانيـ ... ـن الى صحن قبة الشنيق
يا خليلي فلا تعنفني يـوم ... ترى اللهو فيه بالتحقيق

- **دير الحريق** ، قال ياقوت : «سمي بذلك لأنه أحرق في موضعه قوم ثم دفن فيه قوم من أهل من أحرقه هناك وعمل ديراً .»

من كتاب «موسوعة العتبات المقدسة» ـ جعفر الخليلي ـ قسم النجف ـ ج ١ ـ ص27-64» .

* * *

* **ومن معالم تأثيرات الميراث المسيحي ـ البابلي على أهل النجف ، إنهم منحوا بعداً أسطورياً لتاريخ مدينتهم . فهم يقولون :**

«في اخبار ابراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ خرج من بابل على حمار له ـ ومعه ابن اخيه لوط ـ يسوق غنماً ، ويحمل دلواً على عاتقه . حتى نزل «بانتيا» ـ وكان طولها اثني عشر فرسخاً ـ وكانوا يزلزلون في كل ليلة . فلما بات ابراهيم عندهم لم يزلزلوا . فقال لهم شيخ ـ بات عنده ابراهيم عليه السلام ـ والله ما دفع عنكم إلا بشيخ بات عندي . فإني رأيته كثير الصلاة . فجاؤوه وعرضوا عليه المقام عندهم ، وبذلوا له البذول ، فقال : إنما خرجت مهاجراً الى ربي ، وخرج حتى أتى (النجف) . فلما رآها ، رجع أدراجه ـ أي من حيث مضى ـ

فتباشروا وظنوا أنه رغب فيما بذلوا له ، فقال لهم : لمن تلك الأرض ـ يعني (النجف)؟ قالوا : هي لنا ، قال : فتبيعونها؟ قالوا : هي لك ـ فوالله ؛ ما تنبت شيئاً . فقال : لا أحبها إلا شراء . فدفع اليهم غنيمات كن معه بها . فقال : أكره أن آخذها بغير ثمن . فصنعوا ما صنع أهل بيت المقدس بصاحبهم ، وهبوا له أرضهم . فلما نزلت بها البركة رجعوا عليه . وذكر ابراهيم ـ عليه السلام ـ أنه يحشر من ولده من ذلك الموضع سبعون الف شهيد .» .

(المصدر السابق 68)

* * *

* والتاريخ يخبرنا كذلك أن مدارس النجف الشيعية ورثت مدارس المسيحية السريانية لغة ودماً وفكراً :

« وعلى هذا كان قيام أول مدرسة نجفية مرتبطاً بقيام اول دراسة للعلوم اللسانية والعقلية والروحية في النجف وتأريخ هذه المدرسة قديم جداً ، فكم من معاهد أدبية توارثت الحركة الفكرية معهداً بعد معهد مثل (عاقولا) الواقعة حول الكوفة أو هي الكوفة في الزمن القديم .

لقد كانت (عاقولا) مدرسة سريانية ، وبقيت الى عهد الرومان في العراق وقد انتقلت اليها دراسات يونانية ، ولما اندرست (عاقولا) نهضت الحيرة . فكانت واجهة كبرى للأدب ، ترى فيها الكثير من الأفكار المبثوثة بين العاصمة الحيرة وما حولها من الديارات ، وانتقل ما في الحيرة الى الكوفة ثم انتقل ما في الكوفة الى النجف .

وأول ما نزل عليّ عليه السلام في العراق نزل الكوفة ، ونزل مسجدها لا قصورها كما فعل غيره من الولاة ، وقد اتخذ مسجد الكوفة مصلى له ، ومعبداً ومدرسة يدرس ويخطب ويقضي فيه بين الناس ، وقد تخرج من هذه (المدرسة) المدرسة العلوية أو مدرسة الكوفة الكبرى أمثال (أبي الأسود الدؤلي) و(عبد الله بن عباس) حبر الأمة ، وقد قام بعد علي عليه السلام في التعهد بمدرسته أولاده وأحفاده حتى جاء دور الإمام الصادق وعلى قلة استيطان الإمام الصادق عليه السلام بالكوفة فقد تخرج عليه علماء كثيرون . وإذا عرفنا سعة العلوم الاسلامية في الكوفة وشهرتها بالفنون الأدبية اتضحت لنا قيمة مدرسة الكوفة التي انتقلت الى النجف وانتقل معها ما حملت الكوفة من الأفكار المتبلورة بالدراسات السريانية والعربية والروحية الاسلامية وهي وإن لم تكن مدارس على نمط هذا العصر من حيث البناء أو المكان فهي مدارس على نمط عصرها من حيث الاجتماع في المساجد أو الساحات أو الأسواق والاستماع والمناقشة والمقاهي الأدبية والقراءة والكتابة» .

(نفس المصدر السابق ـ الجزء 2 ـ ص 116-117» .

* يكفي أن نتذكر أن هذه المنطقة قدمت للحضارة الاسلامية أعظم النوابغ السريان ألا وهو المترجم والطبيب والعالم (حنين بن اسحاق العبادي) من أبناء الحيرة وكان نسطوري ولغته الأم هي السريانية مع إتقانه للعربية واليونانية . وقد ترجم الى العربية تسعة وثلاثين كتاباً . لكنه ترجم الى السريانية خمسة وتسعين كتاباً فلسفياً وعلمياً . «راجع مثلاً كتاب المسيحية والحضارة العربية ـ ص ١٠٣» .

وتحدثنا المصادر الاسلامية عن الأصول النسطورية العراقية لكثير من النوابغ والقادة العرب المسلمين الذين اعتنقوا الاسلام وساهموا بأدوار معروفة ، مثل (موسى بن نصير) فاتح المغرب والأندلس ، و(الحسن البصري) أول المفكرين والفقهاء في الاسلام ، ومثقفين كبار مثل محمد بن سيرين وغيرهم . ويبدو أن آباء هؤلاء كانوا صغاراً يدرسون الانجيل في (عين تمر) قرب كربلاء وقد أسرهم الجيش الاسلامي ونقلهم الى (مكة) ليكبروا ويعتنقوا الاسلام ويخلفوا أبناء من القادة والمفكرين :

« ولا تخلو كثرة من الروايات من ذكر بعض هذا السبي الذي سيكون له في تاريخ المسلمين نصيب ، ففي الثني أقام خالد ـ يسبي عيالات المقاتلة ومن أعانهم وكان في السبي حبيب أبو الحسن يعني أبا الحسن البصري ، وكان نصرانياً : وفي عين التمر اعتصموا بحصن هناك فضرب خالد أعناق أهل الحصن أجمعين ، وسبى كل من حوى حصنهم وغنم ما فيه ، ووجد في بيعتهم «أربعين غلاماً يتعلمون الانجيل» ـ عليهم باب مغلق فكسره عنهم وقال : ما أنتم؟ قالوا : رُهُنٌ . فقسمهم في أهل البلاد : منهم أبو زياد مولى ثقيف ، ومنهم نُصَيْر أبو موسى بن نصير ، ومنهم أبو عمرة جد عبد الله ابن عبد الأعلى الشاعر وسيرين أبو محمد بن سيرين ، وحُريث وعُلاثة ، فصار أبو عمرة لشرحبيل بن حسنة ، وحُريث لرجل من بني عباد ، وعلاثة للمعنى ، وحُمران لعثمان ، ومنهم عُمير وأبو قيس فثبت على نسبه من موالي أهل الشام القدماء ، وكان نُصير ينسب الى بني يشكر وأبو عمرة الى بني مُرّة . ومنهم ابن أخت النمر .

وقد نُقل هذا السبي الى الجزيرة وتوزعته الأسر العربية الكبيرة .»

من كتاب «**المجتمعات الاسلامية ـ شكري فيصل** ـ ص 82-83» .

نموذج احصائي لتنوع فئات الشعب العراقي

* هذا الجدول الاحصائي لعام 1947 هو الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه لتقدير النسب العددية لفئات الشعب العراقي . علماً أنه جدول تقريبي ويمكن الافتراض أن نسبة الشيعة الحقيقية تتجاوز الـ 60 ٪ من مجموع السكان . ثم انه في الفترة الحالية لا يوجد يهود منذ أعوام الخمسينات إلا بنسبة ضئيلة جداً . وفي أعوام الثمانينات تم طرد الذين يعتقد أنهم من أصول فارسية ، علماً بأنهم بأغلبيتهم الساحقة عراقيون منذ عدة أجيال ويجهلون حتى اللغة الفارسية :

التوزيع الجغرافي والاثني لشعب العراق عام ١٩٤٧ (تخمين أوّلي)

(بالآلاف)

الفئـــة	مديني	النسبة المئوية	ريفي	النسبة المئوية	المجموع	النسبة المئوية
مسلمون						
شيعي عربي	٦٧٣	٤١,٩	١٦٧١	٦٥,٥	٢٣٤٤	٥١,٤
سني عربي	٤٢٨	٢٦,٧	٤٧٢	١٦	٩٠٠	١٩,٧
سني كردي	١٧٦	١٠,٩	٦٦٤	٢٢,٤	٨٤٠	١٨,٤
شيعي فارسي	٤٩	٣,١	٣	٠,١	٥٢	١,٢
سني تركماني	٣٩	٢,٥	١١	٠,٣	٥٠	١,١
شيعي تركماني	١١	٠,٧	٣١	١,١	٤٢	٠,٩
شيعي كردي فيلي	١٤	٠,٩	١٦	٠,٥	٣٠	٠,٦
غير مسلمين						
مسيحي	٩٤	٥,٩	٥٥	١,٨	١٤٩	٣,١
يهودي	١١٣	٧	٤	٠,٢	١١٧	٢,٦
يزيدي وشبك	٢	٠,١	٣١	١	٣٣	٠,٨
صابئة	٥	٠,٣	٢	٠,١	٧	٠,٢
المجموع	١٦٠٤	١٠٠	٢٩٦٠	١٠٠	٤٥٦٤	١٠٠

من كتاب «المجتمع والدولة في المشرق العربي ـ غسان سلامة ـ ص 91» .

ملحق: مدرسة ساطع الحصري وسياسته الثقافية والشيعة العراقيون

«لم يتميز وضع الشيعة ـ على الأقل تحت حكم فيصل ـ فقط بالتمثيل الضعيف في وظائف الدولة الهامة، بل أيضاً بكونهم معرضين لنوع من «المكافحة الثقافية» التي يعد ساطع الحصري المحرض عليها.

ينتمي ساطع الحصري الى آخر رجال الفكر العثمانيين الذين ظلوا مرتبطين بوهم العثمانية حتي انهيار الامبراطورية عام ١٩١٨. لذلك فقد رفض كلا من القومية التركية والعربية بشدة. ولم يستطع أصدقاؤه العرب مثل عبد الكريم الخليل الذي نفذ فيه حكم الاعدام في دمشق عام ١٩١٦ أن يقنعه لهذا السبب بالتعاون مع المنظمات السياسية العربية وبالرغم من أن الحصري كان يعمل في مجال التربية والتعليم إلا أنه أبدى رأيه بعد ثورة ١٩٠٨ في كثير من المسائل السياسية الهامة، وخاصة في مسألة مستقبل الدولة العثمانية... وفي مقالته «Vatan Icin» الى الوطن، التي كتبها عام ١٩١٢ لتكون محاضرة يلقيها في دار الفنون في اسطنبول نادى الحصري بالوطنية العثمانية، وفي رأيه أنه يمكن الوصول الى الوطنية بتوحيد جميع الجماعات الدينية والعرقية بالدولة.

إن آراء الحصري التي لم يتراجع عنها حتى انهيار الدولة العثمانية لم تستند على الواقع السياسية ـ كما أنها أخطأت تقدير مدى القوة النامية للقوميين في الشعب داخل الدولة العثمانية وقد حاول كليفلاند تفسير آراء الحصري على أنها نتيجة لوضعه الشخصي: «لقد وهب هو وعائلته مستقبلهم لخدمة الدولة العثمانية فقد كان مسلماً لغته الأولى هي التركية العثمانية تلقى تعليمه بأحد أشهر المعاهد في الدولة معهد أنشىء لتربية النشىء والشباب العثماني. وكانت لدى الحصري رغبة مكتسبة في بقاء استمرار تواجد الحالة الراهنة من عدم القومية بوصفه عثماني، استئصال جذور العربية لغوياً وثقافياً.

وصل الحصري الى سوريا عام ١٩١٩ أي قبل تنصيب فيصل ملكاً على سوريا بقليل، وذلك ليتولى منصب وزير التعليم. وبذلك لم يترك الحصري مقر إقامته في استنبول ودائرته الثقافية التركية بل إنه غير أيضاً آراءه السياسية، وخواطره النظرية. ولم يعد الفرد والدولة هما نقطة انطلاقه في التفكير، بل القومية.

فقد اتخذ قرارات هامة أثناء تقلده منصب مدير شؤون التعليم اعتبرها الكتاب الشيعة معادية للشيعة وكانوا محقين في ذلك ، فقد منع تأسيس كلية للتربية في مدينة الحلة عام ١٩٢٨ بدعوى أن المدرسين الشيعة سوف يشكلون نسبة عالية في هيئة التدريس .

كما اتخذ قراراً هاماً آخر بحل الادارة التعليمية في منطقة الفرات الأوسط الشيعية ، وإلحاق الشؤون الدراسية لهذا الاقليم ببغداد . وقد كان من عواقب هذ الخطوات ان ظل عدد التلاميذ الشيعة منخفضاً مقارنة بعدد التلاميذ في مناطق السنة ، وبذلك لم تعمل الوزارة التعليمية تحت قيادة الحصري على موازنة التفرقة الذي خلقه العثمانيون في مجال التعليم بين السنة والشيعة .

ويلفت النظر أنه عبر في مذكراته التي نشرها عام ١٩٦٨ بعام واحد قبل وفاته . عن علاقته المعقدة بالشعب العراقي . كان ساطع أبعد ما يكون عن فهم وتقبل الأعراف التاريخية التي نشأت في بلاد الرافدين وخاصة العلاقات الوثيقة بين الجماعات الشيعية بها مع الشيعة الايرانيين ، لقد تحول الى مؤيد للعربية بالرغم من معلوماته الضعيفة بكل من الحضارة العربية واللغة العربية . ولم يكن اعتراض الشيعة على جهود الحصري لإنشاء نظام مدرسي دنيوي عربي قومي ، ولكن على سوء تقديره للدور القيادي للعلماء الشيعة ورفضه القاطع لأية علاقات خاصة للمجتمع الشيعي في ايران والعراق ، مما ترك لديهم انطباعاً بأنه يكره الشيعة بوجه خاص . وقد ضغط الحصري على موضع الجرح بتلميحاته حول تأثير الفرس على الشيعة العراقيين . حيث إنهم كانوا يفسرون أية إشارة تحمل اكثر من معنى حول هذا الموضوع بأنه هجوم على عروبتهم حتى أنهم كانوا يرجعون العلاقات الخاصة بين الشيعة في ايران والعراق الى أسباب دينية ويدافعون عنها لذلك السبب . لم يراع الحصري في هذه الناحية منذ البداية حساسية الشيعة العراقيين . وتجاهل الحصري تعدد العناصر في المجتمع العراقي ، وذلك في تصريحه المبدئي الذي أعلنه في مذكراته قبل وفوده الى العراق قائلاً : «سوف أعضد بكل الوسائل الشعور القومي الوطني ، كذلك الايمان بوحدة القومية العربية أثناء عملي بالعراق» . وقد كان الحصري يتمتع بسمعة مريبة بين صفوف الشيعة العراقيين . كذلك بين الأكراد العراقيين ، ولعه الشديد بفحص السيرة الذاتية للمدرسين الشيعة والبحث عن أصول فارسية لهم ، وذلك بوصفه مدير شؤون التعليم من ناحية أخرى كل هذا أدى الى عدم تمتعه باحترام كبير داخل صفوف الشيعة العراقيين . ومن المؤكد أن ساطع الحصري لم يكن لديه أية خلفيات دينية طائفية في موقفه تجاه الشيعة لأنه كان طوال حياته علمانياً صرفاً .

ولكن على ما يبدو أنه كان يعتقد أن الشيعة في العراق هوية وانتماء خاص ويجب التغلب عليها لصالح القومية العربية . وقد اتخذ بهذا الرأي موقفاً معادياً من التعددية الثقافية التي نشأت على مر التاريخ في العالم العربي واعتبرها فعلاً من أعمال القوى الأجنبية وقد أرجع المصري محمود عزمي وهو من معاصري الحصري في مقال بعنوان «جبهة من الشعوب العربية ، ضرورة خلقها وكيفية تأليفها» وهذا الموقف مسمياً إياه بالحصرية .

ويقول «نحن نعني بكلمة الحصرية الشعور الذي تولد لصالح العربية ويتطلب موقفاً عدائياً تجاه العناصر غير العربية سواء كانت هذه العناصر متواجدة داخل البيئة العربية أو خارجها . وتضعف هذه الحصرية التي رأيناها داخل العراق الكياني العراق نفسه منذ بدأت تحتقر الأكراد بنوع من الكره ، ولا ترغب في إقامة علاقات وثيقة مع الايرانيين أو مسلمين آخرين متاخمين لحدود السكان المتحدثين العربية . . وهذا من شأنه أن يخلق مشاكل للجبهة العربية» .

إذ قامت سياسة الحصري الثقافية وطريقة التفكير الحصرية ، التي استعارت أساساً الأفكار القومية الشعبية الألمانية كما أكد طيبي فقد قامت بتثبيت المذهبية السياسية في العراق وبررت أيديولوجياً سياسة السنة العرب حتى وقتنا الحاضر» .

عن كتاب «الطائفية السياسية في العالم العربي ـ فرهاد ابراهيم ـ ص 128-134» .

* * *

الدولة العراقية
بين التعصب القومي والتعصب الطائفي

رغم الادعاءات القومية التي سادت الدولة العراقية منذ تأسيسها إلا أن الميل الطائفي كان هو الأقوى وخصوصا في عملية اختيار كوادر الدولة والجيش ، فرغم العداء المعلن للأكراد فإنهم كانوا مفضلين على الشيعة «العرب» في مختلف المجالات المهمة وخصوصاً الجيش .

« شكل الوجود الكردي في القوات المسلحة العراقية حجماً لا بأس به ، فالسلطات العثمانية كانت تختار من بين متعلمي الأكراد عدداً من الضباط ، جرياً على عادتها في التعامل مع سكان العراق في التفرقة والتمييز الطائفي ، ولكون النسبة الكبرى من أكراد العراق من طائفة السنة ، فقد كانت لهم حصة في إدارة الحكم في العراق في العهد

العثماني تتناسب الى حد ما مع حجم وجودهم القومي السكاني ، حيث برز من بين الضباط الأكراد الذين خدموا في الجيش العثماني ، ثم انتقلوا الى الجيش العراقي في بداية تشكيله ، وساهموا في بناء نواته الأولى ، كما تسلم قسم منهم مسؤوليات رفيعة أخرى في الدولة وأصبح منهم وزراء ورؤساء وزراء خلال فترة الحكم الملكي ، ومن بين هؤلاء كل من جمال وجلال بابان ، نور الدين عبد الوهاب ، نور الدين محمود ، بهاء الدين نوري ، بكر صدقي ، وغيرهم العشرات ، وظل وجودهم واضحاً جداً خلال فترة الحكم الملكي الذي كان يعتمد الطائفية في انتقاء الضباط للعمل في الجيش ، وظل وجود الضباط الأكراد في القوات المسلحة يزيد عن وجود الشيعة فيها عن الضعف .

- بسبب كون القاعدة الرئيسية التي تتألف منها لحمة القوات المسلحة العراقية مؤلفة من ضباط الصف والجنود من الشيعة ، فإن هؤلاء ينقلون بصورة آلية العادات التي تتبعها جماهير الشيعة في المناسبات الخاصة بهم ، كالمراسم التي تجري كل عام في اليوم العاشر من شهر محرم ، بمناسبة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام ، وقد اعتادت جماهير الجنود وضباط الصف في القوات المسلحة أن تؤدي مراسم العزاء هذه بأسلوب ملائم ، يختلف بالطبع عمّا يتم اجراؤه من مراسم خارج ثكنات الجيش في المدن الشيعية ، لأن القوانين العسكرية وأعرافها لا تسمح بالقيام بتلك المراسم كما تجري خارج المعسكرات ، لذا فإنها كانت تقتصر بأن يتجمع عدد من ضباط الصف والجنود الشيعة في أغلب وحدات الجيش ، ليلة العاشر من محرم ، بحيث يقومون بإجراء مراسم التعزية واللطم على الصدور ، وهي حالة تعايشت معها الأنظمة التي سبقت نظام الحكم الحالي في العراق ، وبحدود تتفاوت من نظام حكم الى آخر تبعاً الى شدة تمييزه الطائفي ، أو لعدم إثارة الحساسية بين جماهير غفيرة داخل القوات المسلحة العراقية ، ولقد كانت حركة الشيعة وتيارهم الأساسي يظهر على هذا الشكل الذي لا يحمل بين طياته أي مظهر من مظاهر الخطر الذي يهدد أمن الدولة وجودها ، ويتكرر هذا العمل في ذكرى الأربعين لاستشهاد الإمام الحسين عليه السلام أيضا ، ولكن بصورة أكثر اتساعاً ، حيث يقوم بعض ضباط الصف والجنود الشيعة فيما بينهم بجمع مبلغ من المال يشترون به ما يُحتاج اليه من الذبائح والرز والسمن وغيره من أجل تقديم الطعام يوم الأربعين ، كما تجري العادة التي يحرص عليها الشيعة حرصاً عظيماً في هذه المناسبة .

عن كتاب «البناء المعنوي للقوات المسلحة العراقية ـ العقيد احمد الزيدي ـ ص193-211 » .

خيانة الوطن
بحجة مكافحة الشيعة

إن فشل الانتفاضة العراقية عام 1991 ، مثال على قوة العامل الطائفي الذي تم استخدامه بذكاء من قبل الدولة من أجل إفشال هذه الانتفاضة :

«والواقع أن الانتفاضة بدأت بالضبط حين وصلت تفاصيل المجزرة المروعة التي نفذها الطيران الأطلسي من ارتفاع آلاف الأمتار بحق عشرات الآلاف من شباب العراق حين راح يحرق ويدفن تلك الآلاف في الملاجىء والمخابىء الرملية المرتجلة ولعدة أسابيع وسط صمت مريب من جميع الأطراف بما فيها النظام الحاكم ، وقد اعترف الجنرالات الأمريكان فيما بعد بأن جرافاتهم أكملت تلك المذبحة التي لا سابقة لها في تاريخ الانسانية ودفنت من ظل حياً من الجنود العراقيين في خنادقهم . حينها فقط ومع تقدم القوات الأطلسية في العمق العراقي وبخاصة القوات الفرنسية على محور جبهة مدينة الناصرية ، هبت جماهير الناس ولما تفق بعد من دوار الفاجعة ، تتصدى للغزاة ، ولم يكن يومها سوى هتاف واحد يصم الأذان : الله أكبر يا عرب ذبحوا شبيبتنا» . واختلط الحابل بالنابل وهرعت الجماهير : رجالا ونساء وأطفالاً مسلحين وعزلاً ، جنوداً ناجين بجلودهم وميليشيات رسمية وأخرى شكلت على عجل وحين نجح المنتفضون في صد الفرنسيين غرب الناصرية وثبتوهم الى الأرض أصبحت المدينة ومن ثم المحافظة كلها خارج سيطرة النظام وتحت سيطرة الجماهير الشعبية فعلاً وقولا : وبعد ايام لم تتجاوز الثلاثة او الأربعة عمت الانتفاضة اقليم الجنوب والفرات الأوسط بكامله . اتضح للجميع وفي مقدمتهم الأمريكان بأن الوضع العام دخل منعطفاً جديداً وحاسماً يهدد بضياع المكاسب التي حققوها من خلال حرب الاغتيال التي شنوها بل وقد يؤدي ، في حال استمرار التطورات بذات الزخم ، الى قلب الطاولة على رؤوس الجميع واغراقهم في أوحال حرب أخرى ، يكون الشعب العراقي ، الذي طوح بقيوده للتو ، هو الطرف المقابل والحقيقي فيها ، وهذا ما يخشاه الغرب والنظام والمعارضة العراقية الطائفية خشيتهم من الطاعون . ثم توالت الأحداث التي غدت معروفة فيما بعد : تخلى مجرم الحرب جورج بوش عن خطته في التقدم نحو بغداد ، ثم أوعز الى جنرالاته بالسماح لقطعات الحرس الجمهوري بإكمال انسحابها ووافق مجرم الحرب الآخر شوارزكوف على السماح للحكومة المركزية المعزولة باستعمال السلاح الجوي ـ سلاح السمتيات ـ لضرب لانتفاضة ، بل وساهمت بعض

القطعات الأمريكية المتقدمة ومباشرة بتجريد المنتفضين من سلاحهم ثم جاءت الطامة الكبرى في الاجهاز على الانتفاضة بواسطة التمدد الحزبي الطائفي الذي عبر الحدود الايرانية بشاحنات محملة بصور الزعماء الطائفيين والآلاف من رجال المخابرات الايرانيين وبعض قطعات الميليشيا المدربة والمحولة جيداً ، وما ان ارتفع الهتاف الطائفي سيء الصيت «ماكو ولي إلاّ علي ونريد حاكم جعفري» حتى بدأت الانتفاضة بالتفسخ ولفظ أنفاسها بل وعاد آلاف الجنود والمراتب الذين ساهموا في الانتفاضة في أيامها الأولى الى صف الحكومة المركزية وصوبوا بنادقهم الى المنتفضين المشوشين والمرتبكين بفعل الرايات والهتافات الطائفية .

لقد جرت الأحداث وتداعت في آذار (مارس) المغدور ووفق المنطق الكلاسيكي لجدل الحرب والثورة : ينكسر الجيش النظامي أمام الغزاة . ينتفض الشعب ويأخذ زمام الأمور بكلتا يديه ويواجه الغزو . تبادر الحكومة المركزية الى عقد صفقة تحت شعار : اتركوا لي رأسي وخذوا كل شيء . يصطف الغزاة مع أشتات المركز ويعيدون ترتيب البيت وفق شروطهم وبأساليبهم الخاصة . يتم إغراق الشعب المنتفض بالدماء . تعود الدائرة الى المبتدأ . ان تفاصيل هذا السيناريو قد تختلف جزئياً في باريس الكومونة التي يحاصرها الجيش البروسي ، عنها في بكين أو بغداد أو . . . الخ ، لكن تلك الاختلافات الجزئية لا تطمس الخطوط العريضة لحركة تاريخ الأزمات الثورية في حياة الشعوب» .

من مقالة في جريدة القدس اللندنية ـ 26-2-1997» .

* * *

ديمومة المشكلة الطائفية في العراق

هذه المقاطع الأساسية من خطاب الملك الراحل فيصل الأول عن طبيعة الشعب العراقي . لاحظ أن الخطاب قد ألقي في عام 1933 ، ولكن فحوى الخطاب لا زال ينطبق على الوضع الحالي دون اختلافات كبيرة :

«العراق مملكة تحكمها حكومة عربية سنية مؤسسة على أنقاض الحكم العثماني . وهذه الحكومة تحكم قسماً كردياً أكثريته جاهلة ، بينه أشخاص ذوو مطامع شخصية يسوقونه للتخلي عنها بدعوى أنها ليست من عنصرهم . وأكثرية شيعية جاهلة منتسبة عنصرياً الى

نفس الحكومة ، إلا أن الاضطهادات التي كانت تلحقهم من جراء الحكم التركي الذي لم يمكنهم من الاشتراك في الحكم وعدم التمرن عليه والذي فتح خندقاً عميقاً بين الشعب العربي المنقسم الى هذين المذهبين . كل ذلك جعل مع الأسف هذه الأكثرية أو الأشخاص الذين لهم مطامع خاصة الدينيون منهم وطلاب الوظائف بدون استحقاق والذين لم يستفيدوا مادياً من الحكم الجديد يظهرون بأنهم لم يزالوا مضطهدين لكونهم شيعة . ويشوقون هذه الأكثرية للتخلي عن الحكم الذي يقولون بأنه سيء بحث ولا ننكر ما لهؤلاء من التأثير على الرأي البسيط الجاهل . أخذت بنظري هذه الكتل العظيمة من السكان بقطع النظر عن الأقليات الأخرى المسيحية التي يجب أن لا نهملها نظراً الى السياسة الدولية التي لم تزل تشجعها للمطالبات بحقوق غير هذه وتلك . وهناك كتل كثيرة غيرها من العشائر كردية وشيعية وسنية لا يريدون إلا التخلي عن كل شكل حكومي بالنظر لمنافعهم ومطامع شيوخهم التي تتدافع بوجود الحكومة .

تجاه هذه الكتل البشرية المختلفة المطامع والمشارب المملوءة بالدسائس ، حكومة مشكلة من شباب مندفعين أكثرهم متهم بأنهم سنيون أو غير متدينين . أو أنهم عرب . . فهم مع ذلك يرغبون في التقدم . ولا يريدون أن يعترفوا بما يتهمون به ، ولا بوجود تلك الفوارق وتلك المطامع بين الكتل التي يقودونها . يعتقدون بأنهم أقوى من هذا المجموع والدسائس التي تحرك هذا المجموع غير مبالين أيضاً بنظرة السخرية التي يلقيها عليهم جيرانهم الذين على علم بمبلغ قواهم .

أخشى أن أتهم بالمبالغة . ولكن من واجبي أن لا أدع شيئاً يخامرني ، خاصة لعلمي بأنه سوف لا يقرأ هذا إلا نفر قليل ممن يعلمون وجائبهم ومسؤولياتهم . ولا أرغب أن أبرر موقف الأكثرية الجاهلة من الشيعة وأنقل ما سمعته ألوف المرات وسمعه غيري من الذين يلقون في أذهان أولئك ـ المساكين البسطاء من الأقوال التي تهيجهم وتثير ضغائنهم . ان الضرائب على الشيعي ، والموت على الشيعي والمناصب للسني . ما الذي هو للشيعي؟ حتى أيامه الدينية لا اعتبار لها . ويضربون الأمثلة على ذلك ؛ مما لا لزوم لذكرها .

أقول هذا على سبيل المثال وذلك للاختلافات الكبرى بين الطوائف التي يثيرها المفسدون وهناك حسيات مشتركة بين أفراد الطوائف الاسلامية . ينقمون بمجموعهم على من لا يحترمها . وهناك غير هذا دسائس آشورية وكلدانية ويزيدية والتعصب للتفرقة بين هؤلاء الجهلاء توهن قوى الحكومة تجاه البسطاء . كما ان العقول البدوية والنفوذ العشائري الذي

للشيوخ وخوفهم من زواله بالنسبة لتوسع نفوذ الحكومة كل هذه الاختلافات وكل هذه المطامع والاحتراسات . تشتبك في هذا الصعيد وتصطدم وتعكر صفو البلاد وسكونها فإذا لم تعالج هذه العوامل بأجمعها وذلك بقوة مادية وحكيمة معاً ردحاً من الزمن ، حتى تستقر البلاد وتزول هذ الفوارق وتتكون الوطنية الصادقة وتحل محل العصب المذهبي والديني . هذه الوطنية سوف لا تكون إلا بجهود متمادية وبسوق مستمر من جانب الحكومة بنزاهة كاملة فالموقف خطر .

وفي هذا الصدد أقول وقلبي ملآن أسى أنه في اعتقادي لا يوجد شعب عراقي بعد بل توجد كتلات بشرية خالية من فكرة وطنية مشبعة بتقاليد وأباطل دينية لا تجمع بينهم جامعة . سماعون للسوء ميالون للفوضى مستعدون للانقضاض على أي حكومة كانت . فنحن نريد والحالة هذه أن نشكل من هذه الكتل شعباً نهذبه وندربه ونعلمه . ومن يعلم صعوبة تشكيل وتكوين شعب في مثل هذه الظروف يجب أن يعلم أيضاً عظم الجهود التي يجب صرفها لاتمام هذا التكوين وهذا التشكل .

هذا هو الشعب الذي أخذت مهمة تكوينه على عاتقي وهذا نظري فيه» .

بغداد ـ آذار ـ 1933

من كتاب «تاريخ الحركة الديمقراطية في العراق ـ عبد الغني الملاح ـ ص 32-34» .

ملاحظة : بعد أشهر قليلة من هذا الخطاب توفى الملك الراحل في سويسرا لأسباب صحية مفاجأة ويُعتقد انها مفتعلة من قِبل «اللوبي» الطائفي المتحالف مع بريطانيا .

* * *

كفاح الملك فيصل من أجل بناء هوية عراقية وموته المشكوك فيه

إن فشل النخبة العراقية المؤسس للدولة الحديثة (1921) بتكوين هوية عراقية وطنية موحدة لجميع فئات الشعب العراقي ، يعود الى تأثير الميراث العثماني الطائفي العنصري والتمسك السطحي والساذج بـ «العروبة» لتعويض الشعور بالأقلية والانعزال عن الأغلبية الساحقة من الشعب العراقي . رغم صدق نوايا الملك الراحل فيصل الأول وتحالفه مع الانكليز من اجل دعم مشروعه الوطني ، إلا أن موته المبكر أفشل هذا المشروع الذي مزقه أبناء النخبة «المتعثمنة» :

«مرحلة التحالف القومي العربي مع بريطانيا :

إن مسؤولية بناء الدولة بعد توحيد الولايات العثمانية الثلاث ـ بغداد ، الموصل ، البصرة ـ وقعت على كاهل الامير فيصل الذي تولى العرش عام 1921 بعد استفتاء شعبي عملت بريطانيا على ضمان نجاحه . واعتمد الأمير فيصل على رجال الرعيل القومي الأول من عراقيين وغيرهم من العرب أمثال ساطع الحصري ورستم حيدر في بناء العراق ـ الدولة . وقد وجد هؤلاء في تحالفهم مع بريطانيا ضرورة وطنية من اجل بناء الدولة الحديثة ، وحماية هذا الكيان الجديد والضعيف في آن واحد ، من التهديد الداخلي والخارجي . فقد كان فيصل في حالة خوف دائم من أطماع فرنسا في الموصل وعودة الاحتلال التركي في حالة انسحاب بريطانيا ، ولذا اعتبر معاهدة 1930 بين العراق وبريطانيا ضمانة العراق من اي اعتداء خارجي وكان من ثمار هذا التحالف رسم الحدود العراقية مع كل من تركيا وايران لصالح العراق ، وخاصة فيما يتعلق بالموصل (في وقت تخلت فرنسا عن الاسكندرون لصالح تركيا) ، وشط العرب الذي أصبح نهراً عراقياً ، كما أنهى الدعم البريطاني تهديد حركة الاخوان الوهابية للنجف والمناطق المجاورة .

أما على الصعيد الداخلي ، فلم يكن بمقدور العرش الجديد التصدي لمسؤولية الأمن في مجتمع قبلي يمتلك من السلاح أكثر مما تملكه الدولة ، لولا مساعدة بريطانيا .

وفي ظل استتباب السلم الأهلي والاقليمي بمساعدة بريطانيا ، نهض فيصل بمهمة بناء الدولة الحديثة ، فشهد العراق في غضون سنوات حكمه (توفي فيصل الأول عام 1933) وضع الأسس لحكم مدني قائم على مؤسسات مستقلة ومتوازنة ، فسن الدستور العراقي الأول لعام 1925 الذي يعتبر بحق أفضل ما شرع في تاريخ العراق ، كما أجرى أول انتخابات برلمانية لا تزال تعتبر لحد اليوم الأكثر نزاهة وتمثيلاً للشعب العراقي ، ووضع الأسس لسلطة قضائية مستقلة لا تزال قدوة ليومنا هذا ، كما وضع الأساس لسياسة تعليمية حديثة كانت الحاضنة لكفاءات عراقية لاحقة . كل ذلك قبل ان يصبح النفط مصدر ثراء . ان عراقية فيصل بلغت أوجها عندما قدم مصلحة العراق في مصالحته آل سعود ، رغم سقوط عرش والده في الحجاز على أيديهم .

المشروع الفيصلي : بناء الدولة القطرية بتأكيد الهوية العراقية

كان فيصل واعياً لفسيفسائية وتناقضات المجتمع العراقي ، فعمل جاهداً لصهره في توتقة مدنية واحدة وفي اعتماده «السدارة» كغطاء موحد للرأس ، والتي عرفت بالفيصلية نموذجاً

لهذا المسعى في مجتمع كان يرتدي رجله أكثر من اربعين شكلاً من اغطية الرأس .

وحاول النظام الفيصلي - وريث الحكم العثماني السني - كسب العناصر والشرائح الاجتماعية التي طالما كانت خارج دائرة الحكم ، بل في صراع معها مثل العشائر والمراكز الشيعية الدينية والأقليات الأخرى .

إن مسؤولية الحكم وفشل تجربته في الحكم القومي في سورية أقنعت فيصل الأول - الحجازي القومي التطلع - بضرورة بناء الدولة القطرية أولاً ، جاعلاًمن المواطنة العراقية وأولوية الانتماء للعراق أساساً لحكمه انطلاقاً من شعار العراق لكل العراقيين . فحرص فيصل «العربي» على مشاركة الأكراد ، كما فتح فيصل «السني» الأبواب لمشاركة الشيعة في الحكم رغم معاداة بعض رجال الدين الشيعة لنظامه ، وعمل على كسب ود العشائر العربية ومشاركتها في الحكم ، وحرص فيصل «المسلم» على مشاركة غير المسلمين من مسيحيين ويهود ، وكان تألمه كبيراً عندما سمع وهو خارج العراق بقمع حركة الآشوريين على يد الجيش العراقي .

ولكن بوفاة الملك فيصل الاول المبكرة عام 1933 تراجع مشروع بناء الدولة القطرية اعتماداً على هوية الانتماء للوطن ، ليتصدر الحكم فئة وصفها فيصل : «حكومة مشكلة من شبان مندفعين ، أكثرهم متهمون بأنهم سنيون أو غير متدينين ، أو أنهم عرب ، فهم مع ذلك يرغبون في التقدم ، ولا يريدون أن يعترفوا بما يتهمون به ، ولا بوجود تلك الفوارق ، وتلك المطامع بين الكتل التي يقودونها . يعتقدون بأنهم أقوى من هذا المجموع والدسائس التي تحرك هذه الجموع» .

إن هؤلاء الشبان الذين لا يريدون أن يعترفوا بما يتهمون به - ، تخلوا عن المشروع الفيصلي في بناء الهوية العراقية انطلاقاً من أولوية الانتماء للأرض المشتركة العراق ، لصالح الانتماء للعروبة والقومية العربية . هنا وقع العراق وبريطانيا ضحية استمرار تحالف الأخيرة مع الرعيل القومي العربي دون خلق تحالفات جديدة تعتمد مشاركة تلك المكونات الاجتماعية التي سعى فيصل الى دمجها بالنظام الجديد . واذا كانت بريطانيا مقصرة في هذا الخيار ، فان المكونات الاجتماعية الأخرى لم تفرز قيادات عراقية الولاء قادرة على التعاون مع بريطانيا ، بما دفع الأخيرة للاستمرار بتحالفها مع من وصفهم فيصل بالذين «لا يريدون أن يعترفوا بما يتهمون به» . وبذلك خسر العراق استمرار التعاون مع بريطانيا بما يحقق لنا ما حققته سنغافورة أو ماليزيا اليوم»

من مقالة في «جريدة القدس اللندنة - غسان العطية - 6-8-1996»

حضور الشيعة في الواقع العراقي

ان هذا الجدول يكشف عن ان الشيعة ليست فئة مهمشة واقعيا وليست (اعجمية) كما يتصور الكثيرون ، بل هي الشعب العراقي بكل تركيبته . وان عزلتهم من الدولة لا تعني عزلتهم من واقع العراق بمكوناته الطبقية والاقتصادية :

أكبر ملاك الاراضي في العراق سنة ١٩٥٨
أو المالكين لأكثر من ١٠٠٠٠٠ دونم من الأرض[أ]

الاسم	الشريحة أو الطبقة بغض النظر عن ملكية الأرض	العشيرة	الطائفة والأصل الإثني (العِرقي)	المساحة المملوكة بالدونم	اللواء
أحمد عجيل الياور	شيخ أعلى	شَمّر	سني عربي	٢٥٩٥٠٩	الموصل وبغداد
محمد الحبيب الأمير[ب]	شيخ أعلى	ربيعة	شيعي عربي	٢٠٦٤٧٣	الكوت
بلاسم محمد الياسين	شيخ	مياح[ج]	شيعي عربي	١٩٩٨٢٦	الكوت
علي الحبيب الأمير[د]	شيخ	ربيعة	شيعي عربي	١٩٦٠٢٠	الكوت
حسن الخيون القصاب	شيخ	السراي	شيعي عربي	١٤٦١٩٥	الكوت
نايف الجريان[د]	شيخ	البوسلطان	شيعي عربي	١٠٨٠٧٤	الحلة
عبد الهادي الچلبي	تاجر	—	شيعي عربي	١٠٤١٥٨	بغداد

من كتاب «العراق - ج١ - حنا بطاطو - ص70 »

(أ) هذا الجدول لا يشمل موحان الخير الله ، وهو شيعي عربي من لواء المنتفق وشيخ عشيرة الشويلات ، نظراً لأن ملكيته للعقارات الواقعة تحت سيطرته كانت ما زالت موضع نزاع قانوني في العام ١٩٥٨ . وكذلك فإن الجدول يستثني أيضاً المستأجرين الدائمين عملياً لمساحات كبيرة من أراضي الدولة في لواء العمارة . وحول هذه النقطة الأخيرة راجع الجدول ٦ ـ ١٣ .

(ب) والد زوجة الوصي على العرش وولي العهد الأمير عبد الإله ، وشقيق علي الحبيب الأمير الوارد اسمه أعلاه .

(ج) فرع من عشيرة ربيعة .

(د) توفي قبل ثورة ١٩٥٨ولكن أملاكه لم توزع على الورثة .

المصدر : تم الحصول على الأقام من سجلات وزاة الاصلاح الزراعي ، شباط / فبراير ١٩٦٤ .

التمثيل الطائفي للدولة العراقية

رغم الوجود الفعلي لـ «الشيعة» في الواقع العراقي ونسبتهم التي تتجاوز اكثر من نصف الشعب العراقي . الا انهم ظلوا اقلية مهمشة عن الدولة العراقية منذ العهد العثماني . واستمرت الحالة بصورة جلية بعد تكوين الدولة العراقية (1921) . هذهِ الجداول تعطي فكرة عن سياسة التهميش الدائمة التي مارستها الدولة العراقية منذ تأسيسها وحتى الآن :

المناصب الوزارية الشيعية
في العهد الملكي (١٩٢١ ـ ١٩٥٨)
باستثناء منصب رئاسة الوزراء

السنــــة	مجموع عدد المناصب	عدد مناصب الشيعة	النسبة المئوية
ـ ١٩٢١ ـ ١٩٣٢ (مرحلة «الانتداب»)	١١٣	٢٠	١٧٫٧
ـ ١٩٣٢ ـ ١٩٣٦	٥٧	٩	١٥٫٨
ـ ١٩٣٦ ـ ١٩٤١ (مرحلة الانقلابات العسكرية)	٦٥	١٨	٢٧٫٧
ـ ١٩٤١ ـ ١٩٤٦ (مرحلة «الاحتلال البريطاني الثاني»)	٨٩	٢٥	٢٨٫١
ـ ١٩٤٧ ـ ١٩٥٨	٢٥١	٨٧	٣٤٫٧
المجمـــوع	٥٧٥	١٥٩	٢٧٫٧

من كتاب «بطاطو ـ ج١ـ ص69»

حزب البعث وشيعة العراق

إجمالي المعلومات الحياتية المتعلقة بقيادة حزب البعث في القطر العراقي ١٩٥٢ ـ ١٩٧٠

الدين والطائفة والأصل العرقي								
	قيادات ١٩٥٢ ـ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٣				قيادات تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠			
	عدد الاعضاء	٪	عدد الافراد	٪	عدد الاعضاء [أ]	٪	عدد الافراد	٪
مسلمون								
شيعة عرب	٢٨	٥٣٫٨	١٢	٤٦٫٢	٣	٥٫٧	٣	١٤٫٢
سنة عرب	٢٠	٣٨٫٥	١٣	٥٠٫٠	٤٥	٨٤٫٩	١٦	٧٦٫٢
اكراد	٤	٧٫٧	١	٣٫٨	٤	٧٫٥	١	٤٫٨
تركمان	–	–	–	–	–	–	–	–
فرس	–	–	–	–	–	–	–	–
يهود	–	–	–	–	–	–	–	–
مسيحيون	–	–	–	–	١	١٫٩	١	٤٫٨
صابئة	–	–	–	–	–	–	–	–
يزيديون وشبك	–	–	–	–	–	–	–	–
المجموع	٥٢	١٠٠٫٠	٢٦	١٠٠٫٠	٥٣	١٠٠٫٠	٢١	١٠٠٫٠

من كتاب «بطاطو ـ ج ٣ ـ ص٣٩٤»

* هذا الجدول يكشف عن خطأ التهمة الموجهة الى الشيعة بأنعزالهم من التيار القومي . تاريخ حزب البعث في العراق يكشف عن أن الرعيل الأول من قادة وكوادر الحزب كانوا بمعظمهم من الشيعة . وحتى عام (1963) كانت قيادة البعث تتكون من (46٪) من الشيعة ، ولكن بعد عام (1963) وعود العسكر (السنة) الى قيادة البعث تمت تصفية الكوادر الشيعية (المدنية) جسدياً وسياسياً حتى هبطت نسبتهم عام (1970) الى اكثر من ثلاث مرات واصبحت (14٪) .

الأساس العرقي المذهبي لأعضاء مجلس قيادة الثورة ١٩٦٣ .

الجماعة	عدد الأعضاء	نسبتهم المئوية
الشيعة العرب	٥	٢٧٫٨٪
السنة العرب	١٢	٦٦٫٧٪
الأكراد	١	٥٫٥٪

من كتاب «الطائفية السياسية في العالم العربي - فرهاد ابراهيم - ص290 »

* * *

* ان العنصرية عندما تبدأ لا تعرف كيف تنتهي . تبدأ ضد الشيعة والاكراد بأسم (الوحدة الطائفية - القومية) ، ثم تهبط الى (الوحدة المناطقية) تهبط الى (الوحدة العائلية) ثم تهبط اكثر نحو (الوحدة الشخصية) كما هو حاصل الآن في النظام الحالي الجدول يكشف عن الميل المناطقي (العشائري) الذي هيمن على قيادة الدولة في العراق :

تمثلوا التكريتيين في الحكومة من ٦٩ - ١٩٩٢

عام التشكيل	العدد الكلي للأعضاء	عدد التكرتيين	النسبة المئوية
١٩٦٩	٥	٣	٦٠
١٩٧٠	١٥	٥	٣٣٫٣
١٩٧٧	٥	٢	٤٠
١٩٧٧ - ١٩٨٩	٢٢	٥	٢٢٫٧
١٩٧٩ - ١٩٨٢	١٦	٤	٢٥
١٩٨٢ - ١٩٨٦	٩	٢	٢٢٫٢
١٩٩١	٩	٢	٢٢٫٢

من كتاب «المصدر السابق - ص 340»

* رغم ان نسبة الشيعة في قيادات البعث عام (1963) كانت اكثر من (46 ٪) إلا ان مجلس قيادة الثورة عكس النسبة تماماً بسبب سيطر العسكر السنة على الحكومة :

الحزب الشيوعي العراقي و «القومية»
على الطريقة البعثية السوفيتية !

لقد تعود الناس في بلداننا على فكرة بأن الاحزاب الشيوعية في البلدان العربية كانت «قطرية ـ امية» معادية للقومية والوحدة العربية . لكن الوثائق التاريخية تكشف لنا بأن الشيوعيين مثل الاغلبية الساحقة من مثقفي المشرق (العراق والشام) ، قد شاركوا بحفلة التطبيل والتهريج للتيار العروبي الكاسح . بل ان الشيوعيين تجاوزوا القوميين بالتنظير والتفلسف المستوردة مفرداته من موسكو ، لهذه العروبة التي مزقت العراق الى قوميات واقليات واثنيات وشعوب وأمم لها «حق تقرير المصير» على الطريقة السوفياتية :

«موقفنا من القضية القومية في العراق

تقوية الأخوة والوحدة في النضال بين القوميتين العربية والكردية وسائر الاقليات القومية ضد النعرات الطائفية والشوفينية ولانهاء الحكم الاستعماري ، والرجعي في العراق . والاعتراف بحق تقرير المصير ، بما فيه حق الانفصال ، للشعب الكردي ، وضمان مساواة حقيقية الحقوق للجماعات القومية والجنسية الأخرى كالتركمان والأرمن والأثوريين .

من الميثاق الوطني
للحزب الشيوعي العراقي
(أقرته اللجنة المركزية للحزب)
أوائـــل آذار ١٩٥٣ »

وثائق

* * *

من ثائق الحزب الشيوعي العراق عام ١٩٥٦

العراقي

الحركة التحررية العربية
والمسألة القومية الكردية

ان حركة الانبعاث القومي حليف قوي للحركة القومية الكردية ولطموح الشعب الكردي الى التحرر والوحدة القومية . وفي العراق ، تتظافر هاتان الحركتان التقدميتان ضد الاستعمار وأحلافه ، وفي سبيل التحرر الوطني والقومي .

فحركة الجماهير العربية في العراق ، في الوقت الى تنتهج فيه سياسة عربية تحررية

ينبغي لها أن تؤازر وتشجع حركة الانبعاث القومي الكردي الرامية الى التحرر والوحدة . لأن الحركة القومية الكردية حليف لا غنى عنه لحركة التحرر العربي . فمن دون مساهمة جماهير الشعب الكردي في العراق في الكفاح ضد الاستعمار وحلف بغداد ومن أجل استقلال العراق وسيادته الوطنية ، لا يمكن أن يحقق العراق هدفه في اللحاق بركب العروبة المتحررة . وكذلك ليس أمام حركة الشعب الكردي من أجل التحرر القومي والوحدة سوى سبيل المشاركة الايجابية الفعالة في حركة الشعب العربي وسائر الأقليات القومية في العراق .

من تقرير اللجنة المركزية الذي ناقشه وصادق عليه المجلس الحزبي (الكونفرنس) الثاني للحزب الشيوعي العراقي أيلول ١٩٥٦ .

«خطتنا السياسية في سبيل التحرير الوطني والقومي الخ» .

من كتاب «القضية الكردية في العراق ـ التاريخ والآفاق ـ ص 162-163» .

* * *

نموذج رائد للعمل الوطني المستقل

من الشواهد التي يمكن ايرادها للتدليل على صحة المطالبة بـ «تحرير» النشاط الاجتماعي ـ الثقافي العراقي من هيمنة الاحزاب ، امامنا نموذج «ديوان الكوفة» في لندن ومؤسسة السيد محمد مكية الذي تخطى بجهدهِ الشخصي جميع اطراف المعارضة العراقية التي تبذر امكانياتها المادية والمعنوية في تجارب فاشلة بل مضرة للشعب العراقي هنا لمحة عن «ديوان الكوفة» ومؤسسه :

« على مدى العقد الماضي قدمت في ديوان الكوفة مئات المحاضرات والندوات والامسيات الفكرية والادبية والفنية ، كما اقيمت المعارض الفنية التشكيلية والفوتوغرافية والوثائقية ، لكتاب وفنانين عرب وغربيين مهتمين أو متخصصين بالثقافة العربية الاسلامية ، او الحضارات الشرقية عموماً .

هذه النشاطات هي موضوع معرض «يوميات ديوان الكوفة 1986 - 1995 ، الذي يقدم انطباعات عنها من خلال عرض وثائق وملصقات من المعارض الفنية عن كل عام من الأعوام العشرة ، وكذلك بواسطة عرض نشاطات الديوان الاخرى من خلال فيلم ڤيديو وعبر شاشة الكومبيوتر .

مؤسس الديوان وصاحبه هو المعماري العراقي المعروف الدكتور محمد مكية . وفي حديث له مع «الشرق الأوسط» بالمناسبة بدأ ممتنا لولده كنعان (صاحب « جمهوية الخوف» و «القسوة والصمت») لانه هو الذي كان قد اختار المكان الذي يقع في احدى مناطق مركز لندن واحد ابرز المواقع التي يرتادها العرب في العاصمة البريطانية ، «كنعان هو الذي اختار الموقع ، ورغبني في شراء المبنى ، فوافقت ، وتكلفت كافة التفاصيل ، ونظرا لاقامته المزدوجة بين بريطانيا والولايات المتحدة ، كنت راغبا في ايجاد مقر لاعمالي ، وفي نفس الوقت لفكرة الديوان التي كانت تشغلني . وهذا ما حدث» .

الديوان هو «جمعية علمية ثقافية» ، حسب صفته الرسمية او القانونية في لندن . مهمته ، كما يقول الدكتور مكية ، التعريف بالثقافة العربية والحضارة الاسلامية ، انطلاقا من «هوية عراقية» . حيث يستطيع العراقي المغترب ان يعرف نفسه ويعرف غيره . العراقيون كفاءاتهم تأخذ ، بسبب ظروف وعوامل كثيرة ، اتجاهات فردية . وما يجمعهم غالبا سوى الحنين او التعازي والفواتح او طرق العودة الى الوراء . الديوان فكرة لجمع الشمل عن طريق هوية ثقافية حضارية ، ومؤسسة تود ان تكون لائقة بهوية شكلت جزءا مهما وغنيا من وسط حضاري كوني . فكنوز العراق ، المادية والمعنية ، موجودة في كل مكان والديوان لا يحتكر هذه المهمة ، ولا يستطيع ذلك ايضا . انما هو بداية للغير . مبادرة يمكن او يجب ان تتطور وتلهب الغير» .

● **هل تعني ان النطاق الثقافي للديوان عراقي ؟**

- لا قلت المنطلق هو هوية عراقية . واعتقد ان اسم الديوان يدلك على ان مركز اهتمامه هو الثقافة العربية الاسلامية ، والعراق تاريخيا . كما هو معروف ، مركز عصر تدوين الثقافة العربية الاسلامية . كما ان الكوفة هي رحم الثقافة والحضارة الاسلامية قاطبة .

● **ألهذا حمل الديوان اسمها ؟**

- اجل . وهناك اسباب اخرى . ان الكوفة هي احدى قضايا عمري وهمومي الشخصية الكبيرة .

● مع انك بغدادي

- نعم ومن صبابيغ الآل في محلة المأمونية . كان بيتنا قد بني على دار الخلافة .

لم يتوقف الدكتور مكية عند «بغداديته» ، طويلا ، وبدأ ساهما لبعض الوقت . انه من مواليد عام 1916 ، وكان قد درس العمارة في جامعة كامبرج البريطانية .

وقد امتدت بصماته المعمارية الكبيرة من العراق الى دول عربية واسلامية اخرى كثيرة وكان احد الوجوه الثقافية والفنية اللامعة في جيل نهضة العراق الحديث .

فهو شاهد على تاريخ العراق الحديث وساهم في بنائه . وكل نقطة مهما صغرت تستثير فيه عشرات الصور والافكار ، وتفتح عليه دفقاً من المعلومات ، صروحاً من آمال وجد بعضه الطريق الى التحقق واجهض البعض الاخر ومن هذا البعض الاخير ما يتعلق بـ «الكوفة» ، وقد عاد اليه ليقول :

- الكوفة هي وريثة حضارات العراق القديم ، اترك الاوراق وانظر الى البيئة والجغرافيا بحواسك ستجد ان سواد العراق يبدأ انطلاقا منها بعد اليمن هناك في منتصف الصحراء مكة المكرمة والمدينة المنورة ثم امتداد صحراوي هائل يتوقف عند سواد الكوفة ، والوادي العجيب الذي يعتبر سواد البصرة مكملا له . وقد اعطتها الحضارة العربية الاسلامية ، او اعطت لهذه الحضارة . ، دفقا ضخما جعل منها «اثينا الشرق» كما قال البرت حوراني .

وعلى مدى التاريخ كانت مثل الواحات للغزلان ، تستقر فيها الهجرات من جانب الصحراء .

لكن الذي حدث مع تأمين العراق ان الهجرات ، الاتية هذه المرة من ارياف العراق ، اخذت وجهة العاصمة بغداد ، ففكرنا في بناء او تأسيس جامعة في الكوفة تحمل اسم المدينة ، هدفها اولا الحفاظ على هوية المدينة ، وثانيا بعث ثورة استيطان توقف الهجرة الى بغداد . لقد اردناها مدينة جامعية بروحية خاصة تعيد بناء الارض صناعيا وزراعيا ، وتصبح قبلة للمتخصصين والمهتمين بالحضارة العربية الاسلامية . بقية القصة معروفة . وقد نقلت شيئا من روحيتها عندما سميت الديوان باسم المدينة تعبيرا عن محبتها وعن مشروع جامعتها المجهض .

الدكتور مكية يتحدث عن مشروع «جامعة الكوفة» . وهو مشروع لانشاء جامعة اهلية مستقلة عن الحكومة واولى من نوعها في العراق . وكان عدد من كبار المثقفين والاكاديميين ، بينهم مكية ، قد تولى ذلك المشروع ، وبدأ تنفيذ الكثير من خطواته العملية في النصف

الثاني من الستينات . لكن الحكم الجديد عام 1968 منعه بعد شهور من قيامه ، لانه اعتبر «خطرا على المركزية» .

من جريدة «الشرق الاوسط -27 - 2 - 1997» .

* * *

لمحة عن تاريخ التركمان ولغتهم

يصنف العلماء اللغة (التركية) عموما الى لهجتين اساسيتين (الاوغوزية - والجغتائية) وتتكلم القبائل المنحدرة من فرع الاوغوز وهم التركمان ، اذريين ، اتراك بلان ، واتراك اناضول ... الخ) باللهجة الاوغوزية ، وتتكلم الفروع الاخرى (قزاق ، قرغيز ، اوزبك ، ايغور توغاي ، سالار التاي ... الخ) باللهجة الجغتائية . ويمكن لافراد كل مجموعة التفاهم في ما بينها الى حد ما رغم وجود اختلافات ناجمة من المفردات الداخلة فيها من اللغات المحلية والاختلاط بالاقوام الاخرى ، بينما يصعب التفاهم بين افراد المجموعتين .

ديانتـــــهم

يدين الاتراك اليوم بنسبة ساحقة بالديانة الاسلامية عدا المغول في منغوليا الحالية فيعتنقون البوذية والكونفشيوسية ، وهنالك اقلية من قبيلة قاقاوز في قفقاسية ، يدينون بالمسيحية ، وهناك بضع مئة من العوائل المسيحية (كاثوليك) في قلعة كركوك من التركمان ويقال انهم جاؤوا مع الجيش المغولي . وان مسلمي الترك خليط من كل المذاهب كالعرب تماماً . فيهم السنة والشيعة وفيهم من الغلاة العلوية والبكتاشية والكاكئية وغيرها . غير ان السنة الاحناف يشكلون الاكثرية الكبيرة . وعلى صعيد اخر تؤكد كل المصادر انهم دخلوا الاسلام عن قناعة لأنهم كانوا على دين الحق او التوحيد وخدموه خدمة جليلة . قاموا بالفتوحات ونشروا الدين الاسلامي الى اصقاع واسعة من العالم .

الموطن الاصلي

ان المواطن الاصلية للترك والتركمان (التراكمة) والمغول ، في آسيا الوسطى في منغوليا الحالية والتركستان ، تقع في اطراف صحراء قرة قوم . انتقلت جموع قبائلهم

شرقا ، وسكنت اولاً في بقاع ما وراء النهر حين مكثت فيها فترة من الزمن ، ثم ارتحلت الى خراسان ومرو . وأقامت في ماهان . ومن ثم نزحت قبائل منها الى الاناضول والعراق وبلدان الشرق الاوسط واسست فيها دولا وامارات ، فيما تشكلت من فروعها الجمهوريات التركية الاسلامية التي نالت استقلالها اثر تفكك الاتحاد السوفياتي وهي (التركمانستان والاذربيجان والقزاقستان واوزبكستان وقيرغيزسان وطاجكستان وتخجوان) .

استيطان العراق

دخل التركمان العراق بفترات زمنية وعهود مختلفة ابتداء من العهد الاموي وانتهاء بالعهد العثماني وهذه الفترات كالآتي :

في العهد الأموي : يرجع تاريخ هذه الفترة التي وطنت اقدام التركمان فيها ارض العراق الى العهد الاموي الى سنة ٥٤ هجرية اذ استقدم عبيد الله بن زياد الفين من التركمان استرعت انتباهه شجاعة جنود التركمان وحسن استعمالهم السلاح خلال حملته ضد الملكة قبج خاتون في بخارى واسكنهم في البصرة كما وشكل الحجاج بن يوسف الثقفي وحدة عسكرية منهم واسكنهم في الواسط (البدرة) .

في العهد العباسي لم ينقطع سيل الاستقدام للعسكرة والهجرة لاسباب اقتصادية والتحاقات بالعوائل ومن ذلك استقدام الخليفة المنصور بعد انشاء مدينة بغداد . اذ شكل من التركمان وحدات عسكرية كذلك شكل هارون الرشيد وحدات عسكرية منهم بغية تحقيق توازن مع الفرس في جيشه ، في حين اعتمد المعتصم كلياً عليهم وجلب اعداداً (٤٠ الف) منهم ، اسكنهم في سامراء بعد بنائها . كما كثر عددهم في ايام البويهيين ، ودخلوا ايضا مع الصفويين . ويمكن وصف هذه الفترة بانها فترة التعرف على البيئة واحوال المجتمع الاسلامي وحضارته عن قرب .

عصر الاحتلالات والاستيطان يعتبر هذا العصر ابان العهد السلجوقي من اهم عصور الاستيطان التركماني في العراق واشار الى ذلك مصطفى جواد وذكر ان دور السلاجقة كان اعظم الادوار أثراً في المجتمع العراقي دخلوه جموع احرار مسلحين فاتحين في ١٠٥٥م . انقذ طغرل بيك الخليفة القائم بامر الله من البويهيين . . . وتأسست هذه الفترة عدة امارات ودول تركمانية مستقلة نكتفي بذكر اسماء وتواريخ تأسيسها .

الامارات التركمانية التي تشكلت في مناطق مختلفة من العراق :

١ ـ امارة الاتابكية في الموصل (الزنكية) . نسبة الى عماد الدين الزنكي الذي اشتهر بالدهاء السياسي والعسكري استمرت (١٠٦) اعوام من ١١٢٧ ـ ١٢٣٣م .

٢ ـ الامارة التركمانية في اربيل : انشأها زين الدين علي كوجك من امراء السلاجقة في عام ١١٤٤م حكمت شهرزور وحكاري وسنجار وتكريت دامت (٦٥) عاماً .

٣ ـ امارة الايواقية (الاوائية) التركمانية في كركوك ضمت السليمانية وسهل شهرزور ومن ملوكها قبجاق ارسلان طاش ١٢١٧م خضعت لاتابكية الموصل في ما بعد .

الحكومات التركمانية في العراق اسس التركمان في هذه الفترة حكومات (دول مستقلة) في العراق :

١ ـ الدولة الجلايرية ٧٣٨ هـ ـ ٧٦٩ هـ . دامت (٣١) عاماً .

٢ ـ الدولة السلجوقية من ١١١٨م ١١٩٤م . دامت (٧٦) عاماً

٣ ـ الدولة البارانية وعرفت بـ (قرا قوينلو) مؤسس الدولة قرأ يوسف (١٤١١ ـ ١٤٧٠م) دامت (٥٩) عاما .

٤ ـ الدولة البايندارية (اق قوينلو) مؤسسها حسن الطويل من ١٤٧٠ ـ ١٥٠٨م . دامت (٤٠) عاماً .

مجموع الفترة التي تعاقبت هذه الدول في حكم العراق قبل العثمانيين (١٩٦) عاما . ويتضح ان التركمان سكنوا العراق وحكموا فيه قبل العثمانيين باكثر من قرنين من الزمن هذا عدا حكم بعض اجزائه كالموصل واربيل وكركوك بتشكيل اماراتهم فيها .

في العهد العثماني (١٥١٦ ـ ١٩١٨م) : انتهى دور التركمان بصفتهم حكاماً مباشرين في العراق بظهور العثمانيين على المسرح ، وتوليهم الحكم فيه . ولم يعد يظهر زعماء منافسون لهم من القبائل التركمانية التي تحولت غالبيتها الى مجتمع مدني وباتت جزءاً من مواز ئيك المجتمع العثماني المتعدد القوميات والطوائف في الحكم الاسلامي ، وقد استهوتهم منذ أيام حكوماتهم ، الحياة المدنية الحضارية التي اعتادوها بعد ان استقروا في المدن والقصبات وزاولوا الزراعة والصناعات اليدوية . وبحكم دخولهم في الاسلام واختلاطهم بالحضارتين العربية

الاسلامية والفارسية ازدهر الادب التركي ويظهر منهم الشعراء والأدباء والمتصوفة وصارت مدينة كركوك مركزاً مهما تزود الدولة العثمانية ومن بعدها الدولة العراقية في مراحلها الاولى ، بمعين لا ينضب من الموظفين المدنيين والعسكريين . لا يتسع المجال لذكر اعمال الأدباء والشعراء والمتصوفة ورجال الحكم من السياسيين والعسكريين ، وقد ذكرهم الاستاذ مير بصري في كتابه تحت الطبع الموسوم باعلام التركمان ، لذا نكتفي بذكر بعض الاسماء منهم ، الشاعر فضولي البغدادي البياتي ، وفضلي بن فضولي ، ونسمي البغدادي الحروفي ، وعهدي ومن تلاميذهم هجري دهده . وخضر لطفي ، ومحمد صادق وغيرهم كثيرون .»

من دراسة «جريدة الحياة ـ عزيز قادر ـ 13 - 6 - 1995»

* * *

مقاطع اخرى عن التركمان

«تركمان العراق هم حصيلة الهجرات القديمة من القبائل التركمانية . ولعل أقدم هذه الهجرات كانت هجرة القبائل الطورانية من الياقوتيين الذين هاجروا من شمال الصين وسلكوا الطريق الجنوبي (نان ـ لو) والدي يمتد من جبال تيان شان ـ كشغر ـ سغد ـ فرغانه ـ إيران ـ ميديا ـ قفقاسيا ـ بوسفور . وينتهي بالجزيرة وعندما وصل الياقوتيون إلى بلاد ميديا انتشروا على ضفتي دجلة والفرات وذلك سنة ٨٠٠ ق . م .

وفي سنة ٥٤ هجرية بدأت هجرة القبائل التركمانية إلى العراق بعد أن تغلب عليهم القائد عبد الله بن زياد . ثم تتابعت هجرات القبائل التركمانية من الشرق إلى الغرب .

يعتبر الأدب التركماني فرعا من الأدب التركي الضخم فقد كان (الأويغوريون) أوفر القبائل التركمانية حظاً من الثقافة حيث كان لهم خط معروف يكتبون به حتى أن جنكيز خان «أمر بأن يتعلم أطفال المغول الخط الأويغوري» وبعد أن قطع الأويوريون شوط بعيداً في تطوير أدبهم بواسطة الابجدية السامية ، التي انتقلت اليهم بواسطة المبشرين السريان منذ القرن الخامس الميلادي ،

أما الأدب التركماني في العراق فقد بقي تحت تأثير أدب الديوان رغم التحولات والتغييرات المهمة التي طرأت على الأدب التركي في تركيا وظهور شعراء كبار أمثال نامق كحال ، عبدالحق حامد ، رضا توفيق ، حسين رحمي ، خالدة ديب حتى بداية القرن العشرين . وكان خير من يمثله هو الشاعر المهجري دهده (١٨٧٧ ـ ١٩٥٢) أعظم شعراء

التركمان بعد فضولي البغدادي حيث يعتبر لسان التركمان بلهجة العصر ، كما وظهر شعراء كبار في كركوك وما حوله أمثال رسول حاوي المتوفي في ١٨٢٦ وخضر ثاقب (١٧٩٣ - ١٨١٨) ومحمد مهري (١٨٤٩ - ١٩١٨) الذي عاصر الشاعر الكردي الشيخ رضا الطالباني ، وطبيب أوغلي (١٨٣٦ - ١٩٠٦) وسركيس عيواز أوغلي (كلداني من محلة قلعة كركوك) الذي كتب ملحمته الشعرية (سفيل يونان) . وقد أعدم بتهمة الارتداد في ١٧٩٩ . وبرز عمر آغا ترجيل المتوفى سنة ١٩٥٥ ، وقد اعتبر من الشعراء الوطنيين فقد قاوم بأشعاره الاحتلال الإنكليزي والحكم الملكي الرجعي حتى نهاية حياته حيث سجن وشرد» .

من دراسة «مجلة الثقافة الجديدة ، محمد حبيب - آب 1992»

* * *

نبذة عن الصابئة (المندائية)

« من هم الصابئة؟ وأين كان موطنهم؟ وبم يدينون؟ هنا اشكاليات عديدة وحقيقية ليس من الهين التعامل معا ، ان لم نقل انها تكاد ان تكون عصية على الحل تماماً ان لم تسعفنا الاكتشافات الأثارية بشيء ومما يثير الاسف ان اغلب الباحثين الذين تناولوا الموضوع في بلداننا ، من السريان أو غيرهم ، لم يسهموا في دراسة هذه الاشكاليات دراسة موضوعية معمقة ، ولم يستفيدوا من كون الصابئة يعيشون بين ظهرانيهم وتربطهم واياهم قرابة اللغة ، واستمروا يكررون ذات التقييمات التي اطلقها بعض خصومهم من السريان قبل قرون .

الصابئة مجموعة صغيرة مسالمة من الناس ، تدين بدين خاص ، يعيش معظمها في العراق ، وبعضها يقطن في المدن الايرانية الواقعة على نهر كارون (الاحواز) . قبل بضعة عقود كان معظمهم يسكن مدن اقصى الجنوب في العراق : قلعة صالح وسوق الشيوخ والناصرية والعمارة والبصرة والقصبات والقرى القريبة منها . لكن اغلبهم نزح من بعد الى بغداد واستقر فيها . كانوا في السابق يمتهنون الحرف التي يحتاجها القرويون ، واضافوا لها في المدن صياغة الذهب والفضة المطعّمة بالميناء ، وبرعوا فيها كثيراً . لكن الحياة العصرية جذبتهم الي المهن الاخرى ، وانصرف شبابهم الى التحصيل العلمي الحديث بنشاط ملحوظ . وهم يتحدثون بالعربية في العراق ، ولا يتقن لغتهم الخاصة سوى الكهنة . أما في ايران فكثير منهم يتحدث بها الى جانب العربية والفارسية . لغتهم هي الارامية الشرقية

ولكن اصابها كثير من التحوير والاحلال بفعل المحيطين العربي والفارسي . ولها ابجدية خاصة تقترب في بعض حروفها من النبطية والتدمرية . لعبت هذه المجموعة دوراً ذا شأن في الحياة الروحية والثقافية للمنطقة وامتد هذا التأثير منذ ظهور المسيحية (وربما قبلها بقليل) حتى ظهور الاسلام ، لا سيما ايام ازدهار الحياة الفكرية والاجتماعية في بغداد في العهد العباسي الأول . وكان لهم دور خاص في نقل الفلسفة اليونانية الى العربية كما كان لهم دورهم الملحوظ في العلوم الرياضية والفلكية والطب والأدب ، وكان هذا سبباً في تقريب البلاط العباسي والبويهي لبعضهم . وقد اثار هذا الدور انتباه المفكرين والمؤرخين العرب . ولكن مع تدهور الحضارة العربية الاسلامية ، واثر احتلال المغول والعثمانيين ، ابتعدت الطائفة عن الحياة العامة ، وتعرضت الى الاضطهاد في بعض الاحيان ، لقد جذبت المجموعة انتباه الرحالة والباحثين الغربيين منذ منتصف القرن السادس عشر . ومنذ ذلك الحين تطورت الدراسات بشأنهم حتى وضعت حولهم مئات الكتب والابحاث . وتحول هذا الاهتمام الكبير الى ما عُرف بالحمى المندائية في بعض دوائر اللاهوت الغربي . وكان مبعث هذا الاهتمام الكبير اصرار بعض كبار باحثي اللاهوت في الغرب على ان انجيل يوحنا وبعض اعمال الرُسل المسيحيين قد تأثر بأدب المندائيين ، ولانها ايضاً الفرقة (الغنوصية) الوحيدة التي تعيش الى الآن فيما زالت المجموعات الغنوصية الاخرى منذ ألف عام تقريباً .

لقد اثير كثير من الجدل والتكهنات حول اصل هذه المجموعة ، وحول معتقداتها الدينية ، وثار جدل طويل لم ينته الى الآن حول الاسم أو الاسماء التي تسموا بها أواطلقت عليهم ودخلت في هذا الجدل عوامل مثيرة بفعل بعض الاكتشافات الاركيولوجية .

فقد دُعوا بالصابئة أو الصابة كما في بعض كتب التراث الاسلامي . وقيل في تفسير الكلمة انها من الفعل صبا بمعنى مال وزاغ «والشهر ستاني في الملل والنحل يفسر هذا الميل بالمروق عن الحق والزيغ بالزيغ عن نهج الانبياء فيما يذهب الدكتور جواد علي الى تفسير الميل بالخروج عن الوثنية الى التوحيد استناداً الى ان الجاهلية كانت تدعو كل من يخرج عن عبادة الهتها بهذا الاسم وارجعها الشهرستاني ايضاً الى العشق والهوى وهو يريد بهذا تعصبهم الى «الروحانيين» . ويرى العقاد انها محوّرة عن الفعل سبح للمماثلة هنا بين السباحة وتعميد الصابئة بالماء الجاري . أما الصابئة انفسهم فيرجعون الكلمة الى الآرامية . فصبا في لغتهم تعني الانغمار أو الانغماس في الماء نظراً الى انهم يمارسون التعميد في الماء ،

ومنها اشتقوا المصدر (مصبتّا) أي التعميد . ويدعوهم ابن النديم في فهرسته المغتسِلة تارة وبصابة البطائح تارة اخرى . وواضح هنا ان اسم المغتسلة قد جاءهم من التعميد بالماء الجاري . أما الطبري فيرى ان تسميتهم بالصابئة جاءت من نسبتهم الى «صابي» الذي تقول الاساطير انه احد ابناء ميتوشالح وهو جدّ نوح .

وقد ذكرهم القرآن الكريم في ثلاث من السور الى جانب اصحاب الكتاب من اليهود والنصارى .

وبقدر ما تسعفنا به المصادر التاريخية ، والنظر في كتبهم الدينية يمكن ان نشخص

فترتين قديمتين للاحياء الديني اقترنت بتعديلات مهمة اولاهما في القرن الثالث الميلادي والثانية بعد الفتح الاسلامي . ففي الأولى ، واجهوا انشقاقاً واسعاً قاده ماني ، مؤسس (المانوية) في عام ٢٤٠م ، بعد ان كان قد اعتنق هو وابوه دينهم وعاش بينهم في (الطيب) اكثر من عقدين من السنين ، وكما هو معروف ، فان المانوية امتدت كثيراً في المكان والزمان ، وكان لها وزنها الكبير بين الاديان الاساسية في القرون الوسطى . ويبدو ان كهنة المندائيين انصرفوا في هذه الفترة بهمة الى تدوين ما لم يدون من معتقداتهم واساطيرهم مدخلين عليها تعديلات تتطلبها المواجهة على جهتين . المسيحية والمانوية وفي الثانية ، اعني بعد الفتح الاسلامي ، واعتناق معظم الاقوام التي كانت تحيط بهم الدين الاسلامي ، انصرفوا الي تدوين كتبهم من جديد آخذين بالاعتبار التطورات الفكرية التي حملها الاسلام . تدل على ذلك كثرة من الاصطلاحات الاسلامية المستخدمة في كتبهم .

ان ما وصلنا من تراثهم الديني المدوّن ، وما نقلته كتب التراث العربي الاسلامي ، وما اورده عنهم المؤرخون السريان لم يُعر لهذا التطور الانتباه الضروري . نحن هنا امام حالة من القطع أو تكاد . والنُبذ التايخية القصيرة التي وردت في بعض كتبهم قد وضعت او ألحقت بعد فترة طويلة من الاحداث ذاتها .

ان الامام ابو حنيفة الذي عاش ما بين ٨٠ و ١٥٠ هـ (٦٩٦ ـ ٧٦٧م) وتوفي في زمن المنصور وصفهم بالموحدين وافتي بتحليل الزواج منهم ، ولم يُعب عليهم كونهم يعظمون الكواكب وإنما اعتبر ذلك من بقايا معتقداتهم السابقة . وبذلك يكون قد نظر الى معتقداتهم نظرة تاريخية ، وعلى نهجه سار تلميذه ابو يوسف قاضي القضاة في عهد الرشيد »

من دراسة «مجلة الثقافة الجديدة ـ سنان بن ثابت ـ آب 1992»

نبذة عن الكاكائية

رغم قلة عدد اتباع هذه الطائفة الا اننا اخترنا التعريف بها كمثال على اصالة طوائفنا وعلى التنوع الكبير الذي يميل اليه العقل العراقي والمشرقي :

« الكتابة عن التاريخ الاسلامي خصوصا فيها يتعلق بالطوائف والفرق ذات الطقوس السرية ، تبدو مغامرة محفوفة بالمخاطر ، فالخفايا والاشواك والجروح كثيرة ، على سفوح ذلك التاريخ واغواره واكثر منها ، ذلك التشابك ـ المقصود في معظمه ـ بين جذوره ، الذي وصل بالكثيرين الى حد الاختناق ، فاصبحت طرق التعبير عنه ـ حتى على مستوى الحوار ـ تنطلق ـ في الاغلب من عنف لا شعوري ، ومن جهة اخرى . . ذلك التكتم والغموض والابهام ، وحجم الاسرار حتى على مستوى الخطاب العادي ، ومستوى التسلسل التنظيمي الاجتماعي الذي احاط بتلك الطوائف والفرق . .

وبين هذا وذاك . . صارت التربة مهيأة لان تقبل الكثير من التقولات والتشنيعات التي صنعت ـ بالوعي واللاوعي ـ حواجز نفسية ، اخرت والى حد كبير ذلك التفاعل الاجتماعي ـ المطلوب لأي وحدة اجتماعية ـ القائم على حرية الرأي والعقيدة والتعبير ، في اطار من الاعتراف والاحترام المتبادلين ، والكاكائية واحدة من تلك الطوائف والفرق التي لم تسلم من سطوة ذلك القانون الذي بدا وكأنه يتحكم في مسار التاريخ الاسلامي .

الجـــذور . .

ما بين ايدينا لا يقطع بجذر محدد للكاكائية ، فهم مكتمون ، لا يصرحون الا بالقليل ، وافكارهم يحيط بها الابهام والغموض ، وبالتالي فان الكتابات القليلة المتوفرة عنهم ، لا ترقى الى مستوى تكوين فكرة / معرفة شمولية عنهم ، ولكن من الممكن ، استنادا الى ما هو متوفر ، القول انها طائفة اسلامية ، تعود باصولها الى الفرق الصوفية ذات المنحى الباطني ، ومنها جاءت طريقتهم في التكتم ، وخطابهم التأويلي ، في التعبير والغلو في الاعتقاد ، خصوصا من جهة الاسحاقية ونظام (الفتوة) الذي تطور كثيرا ايام الخليفة الناصر لدين الله العباسي ، ومنه جاءتهم المبادىء الاخلاقية والتسلسل التنظيمي الاجتماعي ـ مضافا اليه (الاخية) . . الطريقة التي عرفت في العراق وايران وتركيا ، وتنسب الى اخي . . وكل واحد منهم يدعو صاحبه . . أخي ـ استنادا الى الآية القرآنية الكريمة (انما المؤمنون اخوة) فجاءت لفظة (كاكائية) الكردية من كاكا . . بمعنى الاخ ، وبالشيعة من جهة الارتباط بالامام علي

(رضي الله عنه) والعلو في مكانته الى حد الاعتقاد بألوهيته عند البعض منهم ، وانتساب بعض امرائهم في كركوك الى الامام موسى الكاظم .

القبائل والعقيدة . .

الكاكائية في الاصل طريقة صوفية ، تحولت الى طائفة بانتماء مجموعة من القبائل المتصوفة اليها ، لهذا لا يمكن الحديث عن قبيلة واحدة ، تنتسب اليها الكاكائية ، وانما مجموعة قبائل تنتشر في العراق وايران ، منها مثلا «سيد كاكاي ، مام ، باوه ، جولكي . .

والرئاسة عندهم دينيا وعشائريا تخضع للفرع الابراهيمي ، نسبة الى شاه ابراهيم حفيد سلطان اسحاق البرزنجي ، وهم السادة الذين لهم السلطة الروحية المطلقة عند الكاكائية ، ولهم مكانة اجتماعية عشائرية كبيرة ، ويسمون حاليا بـ «الاغا» ورئيسهم الحالي السيد عدنان بن السيد عبد الفتاح ابن السيد خليل .

ربما من اصعب المشكلات هو البحث عن ما هية عقائد الطوائف ، التي حرصت كثيرا على التكتم عليها وعدم التصريح بها ، كأنها سر مغلق ، ولكن من القول مما يتواجد تحت ايدينا ، ان عقائدهم لا تختلف عن عقائد الغلاة في ضروبها ، والرؤية الصوفية الباطنية عندهم مكثفة متناقضة ، لا يمكن تصورها ظاهريا ، ويمكن تخليصها بما يلي . .

– الخلق والتكوين والحلول واطوار التجسد عندهم ـ تناسخ الارواح ـ . فكرة تقديس الاعداد . . اعتنق الكاكائية مذهب الغلاة في الاعداد ، ولا سيما عقيدتهم في الرقم ـ ٧ ـ فالمظاهر المتوارثة للالوهية سبعة تجسدات وجاء في خلاصة سرنجام ان دوران مدار العالم سبعة والملائكة الذين رافقوا السلطان اسحق كانوا سبعة ، والاسر الكاكائية التي شكلها اسحق هي سبع وغيرها : اليوم الآخر . . الجنة والنار . . عقيدة التناسخ والحلول متناقضة ، مع فكرة القول باليوم الآخر والجنة والنار ، لكن هناك اشارات واضحة في كتبهم المقدسة عن البعث والجنة والنار .

وهم لا يؤمنون بجمع القرآن ولا يأخذون بشيء من الحديث والخبر ، ويقول السيد اكرم زينل الصالحي انهم لا يتلون القرآن ولا يعتبرونه كتابا مقدسا لانه من نظم محمد ﷺ كما يدعون ولانه من جمع عثمان بن عفان (رض) . .

وجاء في ملخص سرنجام : ان مسلك اهل الحق الكاكائية اربعة اركان وهي النظافة ، الصدق والرضى والاحسان ونكران الذات . .

اسقاط التكاليف الشرعية

لا صَلاة لديهم اصلاً ، فهم اهل مناجاة ، عند بزوغ الشمس او غروبها ، وهم يؤمنون بالصيام . . لكن ضمن اعيادهم الخاصة . في يوم الاستقبال (11 ك 2 من كل سنة صيام يوم واحد) ، ويوم العيد صيام يوم واحد ، ورمضان ليس بفرض صيامه ، وليس لديهم حج ، لكنهم يزورون مشاهد بعض اكابرهم من اولاد السادة خصوصا في كربلاء . لا زكاة عند الكاكائية ، ولا تجد لها ذكرا في كتبهم المقدسة ، ولكنهم يجمعون مبالغ اشبه ما تكون بالتبرعات ، وتعطى الى (السيد) وهو يصرفها بالوجه الذي يراه .

عاداتهم وتقاليدهم

لديهم عادات وتقاليد تجمع بين البعدين الاجتماعي والديني ، يمكن الاشارة الى بعضها على سبيل المثال لا الحصر . .

- الزواج : الزواج عندهم مرعي ، غير تابع لمراسيم او احتفالات خاصة ، عقد بسيط على يد شيوخهم ويشترط فيه رضى الطرفين فقط ، لا رضى اولياء الامور ، ويتم يومي الاثنين والجمعة فقط ، وتعدد الزوجات عندهم ممنوع ، لكن المراعاة له في الوقت الحاضر خفت ، والطلاق ممنوع الا برضى الطرفين . .
- تسمية الاطفال : بعد ولادة الطفل بعدة ايام : يحضر (بير العائلة ـ السيد ـ ودليلهما مع ولي امر الطفل ، للقيام بمراسيم (مرسبودون) اي اخذ عهد الطاعة والاذعان ، وبعد اجراء المراسيم ، يقدم ولي امر الطفل الاسم المختار له ، ويقدمه الي السيد والذليل ، فيبدأ بقراءة دعاء التسمية (دعاوى ناونان) على الطفل .
- لا يقومون بقص شواربهم ، اما علامة للتفريق ، او ان موس الحلاقة . . لا تقوى لى قص شعر الامام على (رض) كما يعتقد البعض منهم .
- لهم لغة مستقلة يتفاهمون بها ، ولا يطلعون احد عليها .
- التكتم ومراعاة السرية التامة ، الذي اصبح من اركان عقيدتهم ، وضرب المثل ـ سره سر الكاكائي .
- حلف اليمين عندهم بالبقرة الصفراء (كازرد) وبـ (بير خاور) شيخ الشرق وبـ (علي) . .

والآن . .

الكاكائية الآن مسالمون بشكل عام ، وبدأوا منذ زمن ينفتحون على المجتمع ، ويخالطونه حتى عن طريق الزواج خارج اطار الطائفة ، ولا يمكن القول ان طائفتهم على وشك الانقراض ، استنادا الى بعض التهاون مع بعض عناصر النظام الفكري/ العقيدي الخاص بهم ، يمكن القول ، ان انفتاحهم هو من قبيل الموازنة بين تراثهم والحقائق التي طرحها العصر ، فكريا وعمليا وانسانيا . .

من دراسة «جريدة القدس ـ فاضل جواد 10 - 3 - 1997»

* * *

تاريخ الارمن في العراق

رغم قلة عدد الارمن حالياً في العراق (30) الف ، الا اننا وجدنا في تاريخ علاقتهم مع العراق نموذجاً للشعوب العديدة التي استوطنت الرافدين وذابت على مر الزمن وربما بقيت منها الجاليات الحديثة الاستيطان . بالنسبة للارمن ، تتوجب الاشارة الى ان بلاد ارمينيا التاريخية تقع على حدود العراق الشمالية (بحيرة وان ومحيطها) ولكن هذه المنطقة منذ اوائل هذا القرن تحولت الى مطقة (كردية ـ تركية) وبقيت ارمينيا الصغرى الحالية في القفقاس ، هذه جردة سريعة على التواجد التاريخي الارمني في العراق :

« إن بلاد ما بين النهرين ـ وهي التي نشأ العراق على امتدادها فيما بعد ـ . تُعدُّ إحدى البلاد المجاورة لأرمينيا من الجنوب ، والتي نزلت ميدان التاريخ معها منذ أزمنة موغلة في القدم . وحواشي المخطوطات الأرمنية ولاسيما تلك التي نسخت في انطاكية والرها وبغداد وحلب ، هي من أهم المصادر التي تمدّنا بأخبار الجاليات الأرمنية في بلاد ما بين النهرين .

العلاقات التاريخية بين أرمينيا وبلاد ما بين النهرين قديمة جداً ، فقد وردت في الكتابات المسمارية الأورارتية والآشورية أدلّة عدة على وجود علاقات مباشرة ، بين الشعوب في كلا البلدين ، وكانوا يحاربون بعضهم بعضاً أحياناً ويتحالفون أحياناً أخرى .

مع بدء الخلافة العربية سنة 637م حتى وقوع عاصمة العبّاسيين بغداد بيد السلاجقة سنة 1065م ، يذكر المؤرخون الأرمن أنّه وقعت حوادث تهجير من أرمينيا ، إحداها كانت إلى بغداد سنة 852م ويشهد عليها المؤرخ الأرمني موسيس كغانكوداتسي . ويُعتقد بأنه عدد

الأرمن في بغداد كان كبيراً أثناء إنشائها سنة 762م ، كما يشهد المؤرخ الأرمني توما آردزروني بأنّهم كانوا يتمتعون بمكانة مرموقة .

أن المؤرخين العرب ذكروا في مؤلفاتهم شخصيات أرمنية بارزة خدمت دولة الخلافة العربية أمثال أبو الحسن علي بن يحيى الأرمني .

وعندما حصلت مجاعات كبيرة في اسيا الصغرى ، في السنوات 1079 - 1080م هاجر الألوف من الأرمن واستقرّوا في بلاد ما بين النهرين وشمالي سورية .

لقد ألحقت غزوات السلاجقة الاتراك أضراراً بالغة في الجاليات الأرمنية ، وكانت غزوات المغول والتتار أكثر مأساوية من سابقاتها . وتُفيد المعلومات التاريخية أنّه في سنة 1222م كانت توجد جالية أرمنية كبيرة في البصرة وضواحيها .

في القرن السابع عشر وقعت ثلاث هجرات جماعية إلى العراق ، فنشطت الجالية الأرمنية في بغداد وكذلك في الموصل .

فالموجة الأولى كانت تضمّ الأرمن الذين ساقهم الشاه عباس سنة 1604 - 1605م إلى أصفهان ، إذ هاجرت جماعات منهم إلى العراق واستقرّت في المدن الجنوبية منه .

والموجة الثانية قدمت حوالي سنة 1616م من تركية هرباً من ظلم الجلاليين .

أما الموجة الثالثة فقد وقعت سنة 1638م عندما احتلّ الأتراك مدينة بغداد .

في الثمانينات من القرن السابع عشر للميلاد بدأت بغداد تُذكر في حواشي المخطوطات بالأرمنية وفي مؤلفات الرحالة الأرمن والأجانب على أنّها مركز تجاري كبير . ويُذكر أنهه في سنة 1604م كانت توجد في بغداد وضواحيها جالية أرمنية صغيرة . وتذكر المصادر الأرمنية أنّ بغداد في هذه الفترة كانت من أبرز مراكز نسخ المخطوطات الأرمنية في الشرق الأدنى .

في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر للميلاد قدمت موجة جديدة من المهاجرين الأرمن من مختلف المدن الإيرانية ، استقرّوا في البصرة ، وتتفق المصادر على أنّها كانت ثاني مدن العراق بعد بغداد . وفي هذه المرحلة كانت الجالية الأرمنية في العراق تضمّ كبار التّجار الذين كانوا يتاجرون بالأحجار الكريمة ، كما ذكر أنّ بعض التجّار الأرمن في البصرة كانوا يملكون سفناً تجارية تعمل في المحيط الهندي ، فضلاً عن الأطباء والمهندسين والحرفيين والمزارعين والعمال .

يُعدّ النصف الثاني من القرن الثامن عشر للميلاد أهم مرحلة من مراحل تاريخ الجالية الأرمنية في العراق ، ذلك لأنّ المدن العراقية الساحلية كانت قد غدت مراكز تجارية هامة في تلك الفترة .

ووفق المصادر الأرمنية ، فقد تلقّت الجالية الأرمنية ضربة قاضية من مرض الطاعون المنتشر في العراق في السنوات 1771 - 1772م ، فقد توفي في البصرة 55000 نسمة كان 40000 منهم من الأرمن . وفي سنة 1831م وعقب انتشار الطاعون مرة ثانية في بغداد فإنّه من أصل 130 عائلة أرمنية كانت تضمه 673 أرمنياً بقي 27 أرمنيّاً ، بعد أن هاجر بعضهم الآخر إلى مناطق أخرى .

لا توجد إحصائيات دقيقة عن عدد الأرمن في بغداد في القرن الثامن عشر للميلاد ، ويُعتقد أنه كانت تعيش في بغداد نحو 200 - 300 عائلة أرمنية ، ولا توجد معلومات مستفيضة عن حياة الأرمن هناك .

عقب الإضطهادات العثمانية للشعب العراقي في نهاية القرن التاسع عشر ، تعرضت الجالية الأرمنية بدورها إلى خسارات فادحة ، فهاجر بعض الأرمن إلى الهند وإيران وبعضهم الآخر إلى البلاد الأوروبية ، وتذكر بعض المصادر الأرمنية أنّه بقيت في العراق 150 عائلة أرمنية ، منها 90 عائلة في بغداد والباقي في البصرة والموصل .

وكان عدد الأرمن حتى بداية الحرب العالمية الأولى لا يتجاوز الألف : وفي أيام النكبة الكبرى سنة 1915م ، تمتّع أبناء الجالية الأرمنية في العراق بحماية الشعب العراقي . وكان والي بغداد ، سليمان باشا أحد أولئك الذين وقفوا ضد الإجراءات اللاإنسانية لحكومة الأتراك وضحّوا بوظائفهم في سبيل حرية الضمير .

في اذار سنة 1917م عندما احتلّ الانكليز بغداد هاجر نحو 25000 أرمني من المناطق الجنوبية ـ الشرقية لأرمينيا الغربية ومن منطقة أرمية في إيران إلى العراق .

وكانت الجالية في هذه الفترة تضمّ الأطباء والمهندسين والمزارعين والخياطين وصنّاع الأحذية والخبازين وأصحاب المتاجر والتجار والممرضين الخ .

– في المجال الثقافي . كان المركز الواقع في صحراء طوفين بالقرب من مدينة ماردين من أشهر مراكز نسخ المخطوطات الأرمنية في القرنين الرابع والخامس عشر للميلاد ، ثمّ مركزي

بغداد والبصرة في القرن الثامن عشر للميلاد . وبرز في بغداد الخطاط مرقس بينما لمع في البصرة الخطّاط آسدوادزادور طاويطان .

ومن المؤسف أنّه لم يصلنا من الآثار الثقافية لهذه الجالية التاريخية سوى الشيء اليسير . وأقدم صرح معماري هو كنيسة «السيدة العذراء» في بغداد ، ويُعتقد أنّها تأسست قبل 600 سنة ، ثمه أعيد ترميمها سنة 1840م . وكنيسة «السيدة العذراء» في البصرة التي تأسست / سنة / 1736م .

وأقدم مدرسة أرمينية هي مدرسة «جارانكافوراتس» في بغداد تأسست سنة 1852 ، ومدرسة «زابيليان» الخاصة للبنات والتي تأسست سنة 1901م ، كما تأسست مدرسة «ڤارطانانتس» في البصرة سنة 1910م . واليوم توجد خمس مدارس في المدن العراقية التي يعيش فيها الأرمن وهي بغداد والبصرة والموصل والكركوك .

وأقدم مطبعة تأسست في بغداد سنة 1874م بمبادرة الأخوة طاطيوسان ، وظهرت منها في الفترة الممتدّة ما بين السنوات 1890 - 1892م أوّل دورية أرمنية باسم «الباقة» .

وفي المجال الصناعي . كانت أكبر ظاهرة صناعية في العراق امتلاك مؤسسة «كلبنكيان» الأرمنية لاستثمار النفط أسهماً في استثمار البترول العراقي» .

من كتاب « الجاليات الارمنية في البلاد العربية ـ هوري عزازيان ـ ص 91 - 105» .

قضية كردستان الكبرى وحقوق السريان

ان قضيـة السريان مرتبطة الى حد كبير بالقضية الكردية بسبب التداخل الجغرافي والتاريخي بين مناطق تواجد السريان وتواجد الاكراد ، أي ذلك التداخل بين منطقة شمال الرافدين ومنطقة كردستان . هذا التداخل يفرض تحليل ومناقشة هاتين القضيتين بآن واحد . مع ادراكنا لصعوبة مثل هذه العملية .

من أجل أن لا نهضم حق هاتين المجموعتين المتمايزتين اللتين عانتا الاضطهاد والتشرد منذ القدم وحتى الآن ، يتوجب تفصيل بعض الجوانب التاريخية المتعلقة بهذه المسألة الحساسة .

من هم السريان

الحديث عن السريان يرتبط بالحديث عن تاريخ منطقة الهلال الخصيب التي تمتد من خليج البصرة حتى غزة عند حدود سيناء .

منذ الالف الأول قبل الميلاد بدأت تسود المنطقة لهجة سامية جديدة سميت بـ «الآرامية» نسبة الي قبائل شمال الرافدين القاطنة في المناطق المرتفعة . يُعتقد ان إسم «الآراميين» هذا مشتق من «اور رمثا» أي الارض المرتفعة . مثلما أطلق على سكان الصحراء وبادية الشام اسم «عرب» أي سكان «عربا أو غربا» وهي الصحراء التي تقع «غرب» الفرات ومنطقة «غروب» الشمس بالنسبة لسكان الرافدين .

مثلت اللغة الآرامية خلاصة جميع اللغات السامية السابقة من بابلية واشورية وكنعانية وغيرها ، لهذا فأنها تمكنت أن تسود «المشرق» وأصبحت لغة الثقافة الأولى ، وصار جميع سكان المنطقة يتسمون بالآراميين (مثلما فعلت اللغة العربية فيما بعد بتمثلها جميع اللغات والحضارات السامية السابقة وصار جميع الناطقين بها يتسمون عرباً) . لقد فرضت اللغة الآرامية ثقافتها وأبجديتها الكنعانية «الفينيقية» حتى على الامبراطوريات الايرانية والاغريقية التي بدأت تنبثق بعد القرن الخامس قبل الميلاد . ثم انها كانت لغة السيد المسيح والمسيحيين الأوائل ، علماً أن اللغة العبرية تعتبر بالحقيقة لهجة آرامية ـ كنعانية .

بعد القرن الأول الميلادي تحولت منطقة الرها ونصيبين في شمال الرافدين (خاضعة

حالياً لتركيا) الى مركز ثقافي وروحي لنشر المسيحية . يبدو أن لهجة هذه المنطقة الارامية تمكنت من فرض نفسها على اللغة الأم (مثلما تمكنت فيما بعد لهجة قريش أن تصبح هي اللغة العربية الفصحى بفضل القرآن والاسلام) . إذن تمكنت لهجة الرها ونصيبين هذه من فرض نفسها وصارت تعرف بـ «اللغة السريانية» . أن هذه التسمية اشتقت من «آشوريا» نسبة الى الدولة الآشورية التي كانت سائدة سابقاً في المنطقة . وعندما اتى الاغريق أطلقو على هذه اللغة تسمية «سريانيا» وكذلك أطلقو على جميع منطقة المشرق تسمية «سوريا» ، بما فيها القسم الشرقي منها الذي سمي أيضاً بـ «ميزوبوتاميا ـ بين النهرين أو الرافدين» علماً أن دولة الآشوريين قد سقطت عام ٦١٢ ق . م وكانت عاصمتهم نينوى (شمال الرافدين) ، وهم مزيج من القبائل السامية القاطنة منذ القدم في المنطقة ، وتسمو بالآشوريين نسبة الى مدينتهم المقدسة «آشور» مقر «إله الثور المجنح» رمز القوة والخصب ، وعاصمتهم «نينوى» وهي «الموصل» الحالية .

أن هذه اللغة السريانية قد حلت محل الآرامية وصارت اللغة الفصحى لجميع الكنائس المسيحية والمانوية البابلية في جميع منطقة المشرق من خليج البصرة حتى سيناء . بل أن هذه اللغة كانت أيضاً لغة القبائل العربية التي إعتنقت المسيحية وإستقرت في «الحيرة ـ أي الحارة» قرب الكوفة . وفي الحضر وبصرى وتدمر ، ثم أنها كانت لغة كنيسة نجران في جنوب الجزيرة العربية ، وكذلك إنتشرت في منطقة الخليج المعروفة بـ «البحرين» و «قطرايا» أي قطر الحالية . وتمكنت هذه اللغة أن تصبح لغة الثقافة الاولى في الامبراطورية الايرانية الساسانية ومنحت ابجديتها الى اللغة البهلوية الايرانية . أن الثقافة السريانية إنتشرت مع النسطورية والمانوية البابلية في الكثير من مناطق آسيا حتى حدود الصين ، ولا زالت حتى الآن بقايا الطائفة النسطورية في الهند ، ولا زال مسيحيو الصين محتفظين بوثائقهم الدينية السريانية . لقد إشتق التركمان كتابتهم الأولى «الأغورية» من السريانية بفضل المبشرين المسيحيين والمانويين ، ويعتقد أن السبب الأول لتعلق القبائل التركمانية و (المغولية) بالقدوم الى منطقة المشرق وأرض الرافدين يرجع الى علاقتهم القديمة وتأثرهم بالثقافة السريانية «النسطورية والمانوية» . وهذا أيضاً يفسر سهولة إنتشار الأسلام فيما بعد بين تلك الشعوب .

بعد الفتح العربي الاسلامي ، أخذ السكان السريان يتخلون بالتدريج عن مسيحيتهم ويعتنقون الاسلام ويمتزجون بالقبائل العربية الفاتحة ويحملون أسمائها ويتبنون لغتها ، خصوصاً أن القرابة العرقية بين العرب والسريان لعبت دوراً أساسياً في تسهيل هذه العملية .

وكانت عملية الاسلمة والتعريب تحدث اولا في المدن والحواضر بينما بقيت الكثير من ارياف العراق والشام على «نبطيتها» حتى العصر العثماني . وشكلت المناطق المرتفعة وشبه الجبلية مانعاً طبيعياً امام الاسلام والتعريب ، فتحولت هذه الموانع الى ملجأ للسريان والقبائل العربية المسيحية والشيعية والخارجية المتمردة على مراكز الخلافة في دمشق وبغداد : جبال لبنان والعلوية والدرزية وغيرها ، لكن اكثر المناطق التي تمكن فيها السريان من الحفاظ على مسيحيتهم ، هي منطقة «شمال الرافدين ـ أي الجزيرة» بسبب طبيعيتها شبه الجبلية ومحاذاتها للمناطق الجبيلة من كردستان وأرمينيا وطوروس «الأناضول» . رغم إنتشار العربية فأن السريانية بقيت نشيطة في المشرق حتى القرن الثالث عشر . وإزدهرت خصوصاً في العصر العباسي ، لكن شعلتها بدأت تنطفىء بعد الغزو المغولي للعراق والمشرق وسقوط بغداد ، ثم قضي عليها تقريباً في الفترة العثمانية ، رغم بقائها حية في بعض كنائس المشرق وكذلك في الكثير من مناطق الرافدين وبلدان الشام . بدأت نهضة جديدة للثقافة السريانية في اواخر القرن الماضي ، ومن معالمها صدور الصحف الناطقة بالسريانية والعربية ، وبواكيرها الاولى صحيفة «مرشد الآشوريين» وصدرت في الجزيرة عام ١٩٠٨ ، ثم صحيفة «كوكب الشرق» عام ١٩١٠ في ديار بكر للمناضل المعروف نعوم فائق . ولا زال الاهتمام بهذه اللغة ينمو ويجذب الكثير من المؤسسات الرسمية والعلمية العربية والاجنبية .

شمال الرافدين أو إقليم «الجزيرة»

لقد كانت «الجزيرة ـ شمال الرافدين» منذ القدم مقطونة بالقبائل السامية ومقراً للدولة الآشورية . خلال القرون الأولى للاسلام ظلت هذه المنطقة بغالبية سريانية وعربية ، قبل أن تصبح بغالبية كردية في القرون للمتأخرة .

ان تركيزنا على منطقة «الجزيرة» يبتغي تبيان حقيقة الانتماء التاريخي والطبيعي لهذه المنطقة ، ومضمون الطروحات القومية الكردية التي تعتبر معظم هذه المنطقة جزأ من «كردستان الكبرى» .

لقد قسم العرب منطقة «المشرق» الى ثلاثة أقاليم متداخلة ومتغيرة التبعية والحدودحسب الظروف : اقليم «الشام» ، ويضم عموماً جميع بلدان الشام الحالية ، أقليم «السواد» ، وهو الجزء الاسفل من الرافدين إبتداء من بغداد والأنبار حتى خليج البصرة . ثم أليم «الجزيرة» ويضم جميع شمال الرافدين من تكريت وسامراء جنوباً حتى حدود جبال

أرمينيا وطوروس شمالا . يبدو أن تسمية «الجزيرة» هي تعريب لكلمة «بين النهرين» لانها محاطة بدجلة والفرات . وكان يطلق عليه احياناً «اقليم آقور أو آثور» وهو اللفظ العربي لـ «آشور» حسب ياقوت الحموي .

أن إقليم الجزيرة هذا كان يضم ثلاثة مناطق ، سميت بحسب القبائل العربية التي فرضت سيطرتها على المنطقة منذ ما قبل الاسلام ، والكثير من هؤلاء العرب إعتنقوا المسيحية ونطقوا السريانية : ديار ربيعة في الجزء الجنوبي وتشتمل على شمال العراق الحالي من تكريت وسامراء والانبار حتى سنجار والموصل ، ديار مضر في الوسط وتشتمل على الرها والرقة ورأس العين ومركزها حران ، ثم ديار بكر التي تشتمل على ميافارقين وملطية وجزيرة إبن عمر ومركزها «آمد» ديار بكر .

ظلت منطقة الجزيرة عموماً مرتبطة بدمشق في زمن الامويين وكذلك زمن العباسيين ، وكانت مدينة الموصل هي عاصمة الجزيرة في أغلب الاوقات . وكانت هذه المنطقة مركزاً للثورات الشيعية والخارجية ضد الخلافة في دمشق وبغداد . وفي زمن اخر الخلفاء الأمويين مروان الثاني ، انتقلت عاصمة الخلافة من دمشق الى الجزيرة (مدينة حران المعروفة والتابعة لتركيا حالياً) . وكانت الجزيرة أيضاً ساحة للمنافسة بين القيسيين وبنو تغلب الذين أسسوا الدولة الحمدانية الشيعية في الموصل وحلب . ضلت هذه المنطقة ساحة للصراع بين الدول والامارات المتنافسة في المنطقة : عباسيين وفاطميين وبويهيين وسلاجقة واتابكة ومغول وتركمان وأكراد وإيرانيين وعثمانيين .

خلال العصر العثماني ، كان الجزء الجنوبي من الجزيرة «ديار ربيعة» الذي يشمل كل المحافظات الشمالية العراقية الحالية بأسم «ولاية الموصل» جزءاً من العراق المقسم الى ثلاثة ولايات : بغداد والموصل والبصرة .

بعد نهاية الحرب العالمية الاولى وسقوط الدولة العثمانية ، إنقسمت منطقة الجزيرة الى ثلاثة مناطق تابعة كل منها لدولة :

- الجزء الجنوبي ، أي ولاية الموصل (كل شمال العراق) وتبعت العراق .
- الجزء الوسط ، أي محافظات الحسكة والرقة واقسام من حلب ودير الزور ، وقد تبعت سوريا .

- الجزء الشمالي ، وهي مقاطعات ماردين وديار بكر والرها ، ولقد إقتطعتها فرنسا من سوريا ومنحتها الى تركيا بعد الحرب العالمية الاولى .

الاقوام الجبلية ومنطقة الجزيرة

ان منطقة الجزيرة هذه كانت منذ القدم عرضة لأنسياح القبائل القاطنة في المناطق الجبلية المجاورة : جبال زاغروس الكردية من الشرق وجبال أرمينيا وطوروس من الشمال . الحقيقة أن بلاد الرافدين بأجمعها كانت على مر التاريخ عرضة لانسياح القبائل القاطنة في المناطق الجبلية من الشرق والشمال . تاريخ سومر وبابل وآشور شهد مرات عديدة مثل هذه الحالات ، حيث سيطر سكان الجبال لعدة قرون متقطعة على الرافدين : عيلاميون ، غوتيون ، كوشيون ، حوريون ، حيثيون ، ومختلف الاقوام الايرانية ، بالاضافة الى الاقوام القادمة من تركستان في وسط آسيا ، يعتقد علماء التاريخ أن بعضاً من هذه الاقوام الجبلية هم من أشراف الاكراد الحاليين ، ربما الكوشيون الذين كونوا سلالة بابلية معروفة خلال أربعة قرون (١٥٧٠ ـ ١١٥٨ق م) . كذلك «الحوريون ـ الميتانيون» الذين سيطرو على شمال الرافدين لاكثر من قرن بين (١٣٠٠ ـ ١٢٠٠ ق . م) . ولكن في جميع هذه الحالات كان هؤلاء الجبليين من اسلاف الأكراد والايرانيين والتركمان وغيرهم ، رغم سيطرتهم السياسية ، فأنهم سرعان ماكانو يذوبون بسكان الرافدين والمشرق الاصليين ويتبنون اللغة والحضارة السامية السائدة . لقد استمرت هذه الاجتياحات (الجبلية والآسيوية) حتى بعد الاسلام والقرون الحديثة ، فكانت إنسياحات شعوب الهضبة الايرانية واكراد جبال زاغروس ثم اتراك ومغول اسيا الوسطى وصولا الى العثمانيين الذين سيطروا على المنطقة حتى الحرب العالمية الأولى .

أن منطقة الجزيرة «شمال الرافدين» ، قد تعرضت أكثر من الجزء الجنوبي لانسياح القبائل الجبلية ، يعود هذا الامر الى أن هذه المنطقة محاطة بالجبال من جانبين : من الشرق حيث جبال زاغاروس الكردية والآذربيجانية ، ومن الشمال حيث جبال أرمينيا وطوروس الأناضول . بالاضافة الى أن منابع دجلة والفرات والانهار التي تصب فيها تأتي من هذه الجبال ، وهذا الامر ساعد دوماً قبائل الرعاة الجبلية على الانحدار السهل نحو مراعي وادي الرافدين وأراضيه الخصبة . لقد أدرك العرب (الامويون والعباسيون) خطورة هذه المنطقة

الجبلية على أمن الرافدين ، لذلك جعلوها أقليما مستقلا ولكن تابعاً للعراق بأسم «اقليم الجبال» أولاً العراق الاعجمي» .

ان العنصر الكردي (كذلك اللور وبختيار) القاطن في هذه الجبال هو جغرافياً وحضارياً أقرب العناصر الجبلية لبلاد الرافدين ، لهذا فأن الاكراد واسلافهم شكلوا على مر التاريخ جزءاً فعالا من سكان الرافدين ، وأمتزجت دماء الاكراد وأسلافهم بدماء أهل الرافدين عبر آلاف الاعوام من الجوار والغزو والعيش المشترك . بعد الفتح العربي الاسلامي ودخول الاكراد في الاسلام وتبعيتهم السياسية للخلافة العربية في دمشق وبغداد ، فأن هذا الامتزاج العرقي والثقافي تنامت قوته وتوسعت مجالاته حتى صار من الصعب التفريق بين تاريخ الاكراد الحضاري وتكوينهم القومي عما هو عليه في بلاد الرافدين ، خصوصاً بالنسبة للمناطق الكردية المجاورة للرافدين ، وبالذات الجزئين الذين يشكلان حالياً ما يسمى بـ «كردستان العراق وكردستان تركيا» . بل يمكن الافتراض بناءاً على قراءة التاريخ ، أن جزءاً كبيراً من دماء أهل الرافدين الحاليين بما فيهم العرب والسريان ، تحمل نسبة كبيرة من الدماء الكردية ، ونفس الشيء ينطبق على الاكراد . (سنتطرق لهذه المسألة لاحقاً) .

أصل الاكراد

لقد إختلف المورخون حول أصل الاكراد وطرحت عدة نضريات وإفتراضات متنوعة : قبائل آرية نزحت الى الجبال من إيران منذ القدم وإختلطت بالقبائل الجبلية الاصلية ، قبائل سامية وسومرية رافدية نزحت الى الجبال وإختلطت بالقبائل الاصلية ثم خضعت للقبائل الآرية أو قبائل جبلية أصلية تبنت اللغة الآرية الايرانية .

الحقيقة المعقولة التي يمكن إستخلاصها من جميع هذه الفرضيات ، أن الاكراد هم أولا من القبائل الجبلية الاصلية وهم ينتمون الى العرق «الأرموندي أو القفقاسي» القاطن منذ القدم في المنطقة . لقد تعرضت هذه القبائل خلال حقب التاريخ لهجرة القبائل الآرية القادمة من الشرق حيث الهضبة الايرانية ، وكذلك القبائل السومرية والسامية النازحة من الغرب حيث وادي الرافدين . يبدو أن العنصر الآري (بسبب الطبيعة الجبلية) هو الذي تمكن أكثر من فرض لغته بحيث أعتبرت اللغة الكردية لغة آرية إيرانية ، ولكن هذه اللغة الكردية تحمل في طياتها الكثير الكثير من التأثيرات السومرية السامية العربية بما فيه الكتابة العربية

التي تبناها الاكراد (السورانيين) في العصر الحديث . أن البحوث التي إجراها علماء الاجناس على الأكراد اثبت هذه الحقيقة ، ولوحظ خصوصاً أن الاكراد في غرب زاغروس أي في المناطق المحاذية للرافدين قريبون عرقياً وثقافياً الى سكان شمال الرافدين (راجع الموسوعة الاسلامية . العراق ، كردستان) .

أن الاساطير المتداولة لدى الأكراد تعبر عن هذه الحقيقة . هناك مثلا الاسطورة التي ذكرها المؤرخ العراقي المسعودي من ان أصل الاكراد يعود الى القبائل الايرانية «الميدية» التي إلتجأت الى الجبال هرباً من اضطهاد الملك الايراني «الضحاك ! » . ثم هناك الاساطير الشعبية الكردية التي يتداولها خصوصاً أكراد العراق والجزيرة والتي تذكر أن جدهم أصله من «بني ربيعة أو بني مضر» وقد هرب بحبيبته الى الجبال ثم «كردها» أي تزوجها فأصبح أبناؤهم أكراداً ، علما أن فعل «كرد» وهمي ولا يوجد بالعربية ، لكن هناك من يعتقد أن تسمية «كرد» متأتية من السومرية بمعنى «جبلي» ! أن هذه الاسطورة تعبر عن ذكريات قديمة تعود الى القبائل السامية ثم العربية التي قطنت وذابت في الاكراد ، ومنهم قبائل ربيعة ومضر التي كانت تسيطر علي الجزيرة بجوار الاكراد . لا زالت حتى الآن حالة التمازج هذه واضحة في العراق ، لدى بعض القبائل العربية المجاورة للقبائل الكردية مثل بعض أقسام من بني ربيعة والقيسيين والجبور وتميم والبيات ، حيث تسود بينهم اللغتان العربية والكردية وأحياناً التركمانية كذلك بالاضافة الى الانتماء والتزاوج العرقي المشترك . وبالعكس هناك قبائل كردية معروفة تعتقد باصولها العربية القديمة مثل قبائل الجاف وبابان والحفيد والطلباني وغيرهم . ويذكر الرحالة الاوروبي (هاي) الذي زار المنطقة في أوائل هذا القرن : «يفخر كل زعيم كردي تقريباً بأنه ينحدر من أصل عربي ، ويحاول إرجاع نسبه الى النبي أو أحد صحابته» (عزيز الحاج ـ القضية الكردية ـ ص٨٤) وتبدو هذه الحالة بدرجة اكبر بين الأكراد «الأفيلية» في «خانقين وديالى» الممتزجين باللور والعرب . وهناك مثل آخر على التمازج السرياني العربي ـ الكردي يتمثل بطائفة اليزيدية كما سنرى لاحقاً . من النماذج التاريخية المعروفة التي تعبر عن هذا التمازج هو «صلاح الدين الايوبي» الذي تمكن بأصله العراقي الكردي أن يكون سلالة عربية كردية حكمت الشام ومصر ، هل هي صدفة أن أول صحيفة كردية بأسم «كردستان» قدصدرت في القاهرة عام ١٨٩٨ ؟

تاريخ ومساحة كردستان

بالنسبة للتاريخ السياسي للأكراد وتكوين «كردستان» . فأن المرة الأولى التي تم فيها استخدام مصطلح «كردستان» كان في زمن السلاجقة التركمان في العصر العباسي (١١٥٧م) . لقد كون السلاجقة مقاطعة بهذا الأسم مركزها «بهار» في شمال غربي همادان ومحاذية لأذربيجان . هذه المقاطعة كانت تمثل الجزء الشمالي من جبال زاغاروس ، أي عموم «منطقة شهرزور» التي كانت تشمل «مقاطعة كردستان» الايرانية الحالية كذلك محافظة «السليمانية» الحالية في العراق .

الذي يستحق الانتباه في تاريخ «كردستان» أن مساحتها الجغرافية كانت تتوسع مع مر القرون ، وهذا يدل على توسع الهجرة الكردية الى مناطق جديدة كانت مقطونة بشعوب اخرى : نحو الجنوب حيث مناطق بختيار واللور ، ثم نحو الشمال حيث بلاد الارمن واذربيجان ، ثم نحو الغرب حيث منطقة الجزيرة «شمال الرافدين » :

مثلا في (عام ١٣٤٩م) أي بعد قرنين من تكوين مقاطعة كردستان ، نرى مصطلح «كردستان» قد توسع حسب المؤرخ حمد الله مصطفى ليشمل كذلك مناطق جديدة في الشمال والجنوب وفي عام (١٥٩٦م) نرى المؤرخ شرف الدين في كتابه «شرف نامة» يتوسع في تعريف بلاد الأكراد نحو الجنوب ليشمل كذلك كل «مقاطعة لورستان» أي إقليم الجبال بأجمعه بعد أن كان نصفه منذ أربعة قرون بعد ذلك يأتي المؤرخ التركي «الشلبي» (عام ١٦٨٢) يتوسع بدوره بمساحة «كردستان» نحو الشمال لتشمل الجزء الأكبر من ارمينيا السابقة (ولايات أرضروم ووان وحكاري) ، وكذلك يتوسع بـ «كردستان» الى الغرب نحو «منطقة الجزيرة» الرافدية لتشمل ديار بكر والعمادية والموصل وأربيل وكركوك ، ثم الى الشمال الغربي لأذربيجان الغربية ! (راجع الموسوعة الاسلامية بالفرنسية والانكليزية . قسم الاكراد) .

عوامل التوسع الكردي

كيف يمكن أن يفسر هذا التوسع في مساحة «كردستان» ؟ خلال بضعة قرون تضاعفت عدة مرات مجالات سكنى الأكراد الى مناطق لم تكن كردية خلال حقب التاريخ السابقة ومقطونة بشعوب أخرى مثل اللور وبختيار والأرمن والسريان والعرب !

أن الأجابة على هذا التساؤل تستوجب العودة الى التاريخ ، بالذات الى الفترة التي أعقبت الفتح العربي الاسلامي وتكوين الامبراطوريات والدول الأسلامية . أية قراءة لتاريخ هذه الدول العربية والايرانية والتركية التي نشأت بعد الاسلام تكشف بشكل جلي عن وجود العنصر الكردي في جميع الحروب والمنافسات والتغيرات السياسية والعرقية التي جرت منذ القرن السابع وحتى الآن . يمكن تعداد العوامل الرئيسية التي ساعدت على التوسع الجغرافي ـ السكاني الكردي خلال قرون الأسلام :

ـ العامل الجيو – سياسي : حيث يقطن الاكراد تاريخياً في مناطق جبلية تشكل الجزء الشمالي من جبال زاغاروس وتشرف هذه المناطق خوصاً على سهول وادي الرافدين ، والمناطق المنخفضة في أذربيجان وأرمينيا . ثم أن منطقة كردستان الجبلية محاطة ببلدان شكلت اكبر المراكز الحضارية العالمية المتنافسة منذ القدم : وادي الرافدين من الغرب ، وهضبة إيران من الشرق ، وهضبة الاناضول وأرمينيا من الشمال . موقع الاكراد هذا منحهم ميزة لعب دور وسطي بين هذه المناطق الحضارية الكبرى ، بما يحتويه هذا الدور من منافع ومضار . ولا زالت هذه الحالة تفرض نفسها على الاكراد حتى الآن ، وفيها يكمن سر ضعف وتشتت القوى الكردية ، ولكن أيضاً فيها يكمن سر أهمية الاكراد وتكوينهم القومي !

ـ عامل البداوة : أن الكثير من الاكراد وحتى القرن الحالي كانو قبائل رعاة ورحل يتنقلون بين الجبال والوديان ، حيث يصعدون الى الجبال صيفاً ويهبطون شتاءاً في الوديان والسهول الدافئة بحثاً عن الكلأ . ان عملية «تكريد» المناطق غير الكردية بواسطة هذه القبائل ظلت شائعة حتى القرن الحالي . مثلا ، من القبائل التي تم توطينها في أوائل هذا القرن هم الجاف والهركية والبولي والخيلاني . يورد المؤرخ الكردي قاسملو مذكرة أرسلتها الحكومات الاوربية الى تركيا عام ١٨٨٠ : «لما كان الأكراد الرحل الذين يعيشون في الجبال والذين يهبطون الى الوديان التي يقطنها المسيحيون لا لغرض الا لأشاعة الفوضى ، ينبغي ان لا يدخلوا في الاحصاءات التي تحدد من هم غالبية سكان المنطقة» (الحاج ـ ص ١٠) .

ـ العامل الديني والمذهبي : ان العاملين السابقين لم يكتملا ألا بوجود العامل الديني المذهبي الذي لعب دوراً حاسماً في منح الاكراد القوة السياسية والمعتقدية لكي يفرضو وجودهم القومي المتميز في المنطقة . يبدو أن الأكراد قد إعتنقوا الاسلام بسهولة من القرن

الأول الهجري وصارو جزءاً فعالا ومحارباً من الامبراطويات والدول والأمارات الاسلامية التي توالت على المنطقة .

من «حسن حظ» الأكراد أن بعض الشعوب المجاورة لهم ضلت على مسيحيتها ولم تعتنق الاسلام ، مثل الارمن في بلاد أرمينيا والسريان في شمال الرافدين ، وهذا الامر منح الاكراد التبرير السياسي والديني لكي يتوسعوا سكانياً وجغرافياً في هذه المناطق .

ثم ان الاجتياح الآسيوي (التركي المغولي) قد لعب دوراً حاسماً في عملية التوسع الكردي . يبدو أن الاسلام كان عاملاً أساسياً لأيقاض شعوب آسيا الوسطى ودفعها للتحرك والانسياح التاريخي نحو المنطقة الاسلامية والعربية حيث إجتاحت إيران والرافدين والشام حتى مصر : قبائل السلاجقة والتركمان والمغول ، وأخيراً العثمانيون الذين إجتاحوا الاناضول وشرق أوربا وكل المنطقة العربية .

أن تحالفاً دينياً ومذهبيا قام بين هذه القبائل التركستانية والقبائل الكردية . خلال بضعة قرون تحولت كل اذربيجان الفارسية ومعظم أرمينيا والاناضول الاغريقية وشمال الرافدين العربي السرياني الى مناطق تركية وكردية وأصبح سكانها الاصليين أقليات ضعيفة حتى ذابت وإنقرضت تماماً في القرن العشرين .

بالنسبة لمنطقة «الجزيرة» ، بالاضافة الى الدافع الديني لدى الاكراد (ضد السريان المسيحيين) . هناك أيضاً العامل الطائفي الذي لعب دوراً حاسماً لصالح التوسع الكردي : أن جميع القبائل التركية السلجوقية ثم المغولية التي إجتاحت المنطقة تبنت المذاهب السنية ، بما أن القبائل الكردية كانت كذلك على المذهب السني ، وهذا الامر خلق تحالفاً بين الطرفين لمكافحة المذاهب الشيعية والخارجية التي كانت شائعة بين القبائل العربية في شمال الرافدين . ثم تعمق التحالف مع قيام الدولة العثمانية التي تبنت المذهب السني «الحنفي» مقابل منافستها الدولة الايرانية الصفوية التي تبنت المذهب الشيعي الجعفري ، حيث لعب الاكراد دوراً مهماً في السيطرة على المد الشيعي والخارجي في منطقة الجزيرة وباقي بلاد الرافدين . وهذا الأمر دفع العثمانيين أيضاً الى تشجيع التوسع الكردي «السني» ، ثم السماح إبتداءاً من عام ١٥١٥ مع السلطان سليم الاول بأقامة إمارات كردية شبه مستقلة على الحدود (ايران (شهرزور والسليمانية) وفي منطقة الجزيرة (ديار بكر) ، لنشر الأسلام «السني» ومكافحة الطوائف الأخرى من شيعة وخارجية ويزيدية ومسيحية ، ومن أشهر هذه الأمارات

الأمارة البابانية التي ساعد العثمانيون على إقامتها عند الحدود مع إيران أي في منطقة السليمانية .

صحيح ان الدولة العثمانية نجحت خلال قرون ان تفرض المذهب السني على ولاية الموصل بحكم طبيعة الموصل الجغرافية والمدينية المنفتحة وكذلك تأثير العلاقة التاريخية مع شمال سوريا . لكن العثمانيين فشلوا بفرض هذا المذهب على القسم الشمالي من الرافدين (ديار بكر وماردين وغيرها . أي مايسمى بكردستان تركيا) بسبب طبيعة المنطقة شبه الجبلية التي تسمح بالانطواء والحفاظ على المعتقد . ان سكان هذه المنطقة الذين كانو من اهل الرافدين المعتنقين للمذاهب العلوية والخارجية اضطروا للأنتماء الكردي والتركي بحكم واقع الامتزاج مع القبائل الكردية والتركية المهيمنة ، لكنهم رغم ذلك تمكنوا من الحفاظ على إنتمائهم المذهبي العلوي الذي ظل يميزهم عن مذهب الأكراد والأتراك الذين هيمنوا عليهم . علماً ان في هذه المناطق لا زالت هناك جماعات كثيرة من العرب والسريان التي تتناقص يوماً بعد يوم بحكم الهجرة وعمليات التكريد والتتريك المستمرة . يمكن على هذا الاساس تفسير التحالف الجاري بين بعض الأطراف الكردية العراقية (السنية) مع تركيا (السنية) والطرفان ضد حزب العمال الكردستاني التركي ، وهو حزب بمعضمه علوي قيادة وقواعداً ، بما فيه مؤسسة عبد الله اوجلان !

ويمكن ملاحظة دور العامل الطائفي في المسألة الكردية حتى القرون المتأخرة : لقد عقدت معاهدة «أرضروم ـ ١٨٤٧» بين الدولتين العثمانية والايرانية ، إذ تنازل بمقتضاها العثمانيون عن مطالبتهم بمنطقة «المحمرة وعبدان» العربية العراقية «الشيعية» الى إيران ، لقاء تنازل ايران عن مطابتها بمنطقة «شهرزو» الكردية «السنية» . وتكرر الأمر في عهد الملك فيصل عندما تغاضى عن ضم إيران لأمارة المحمرة «الاحواز» عام ١٩٢٥لقاء قيام الانكليز بقمع ثورة الحفيد وضم منطقة «السليمانية» الى العراق ، ثم تكررت الحالة في اتفاقية الجزائر عام ١٩٧٥ إذ وافق صدام على التنازل عن مطالبته بعربستان «الاحواز» بالاضافة الى نصف شط العرب لقاء سحب إيران دعمها للثورة الكردية .

ان العناصر الكردية لعبت دوراً متميزاً في ادارة الولايات العراقية زمن العثمانيين . يمكن لأي مطلع على أسماء رجالات الادارة في هذه الفترة أن يكتشف ما لا يحصى من العناصر المعروفة بأصلها الكردي ، ومن هؤلاءالكثيرون الذين إنتموا للهوية العراقية الرافدية ولعبو دوراً

متميزاً في تشجيع الميول الاستقلالية عن الدولة العثمانية . على سبيل المثال يذكر دور العائلة الحيدرية وعائلة بابان وعائلة الزند التي أنجبت مفتي بغداد في القرن التاسع عشر ثم عائلة الزهاوي المعروفة التي أنجبت أيضاً مفتي بغداد وولده الشاعر جميل صدقي الزهاوي الذي كان من دعاة الاستقلالية العراقية . وإستمر الدور الكردي المتميز كذلك بعد قيام الدولة العراقية عام ١٩٢١ حيث شاركت العناصر الكردية في جميع الوزارات والادارات والقيادات العسكرية العراقية طيلة هذه الفترة وحتى الآن : صدقي والقزاز وبابان والطلباني وأمين والجاف ووهبي ، ومئات غيرهم . ويمكن ملاحظة نفس الحالة تقريباً في تاريخ سوريا العثماني والفرنسي وملاحظة الاسماء الكردية التي لعبت أدواراً قيادية في الدولة والمجتمع .

يمكن القول ، أن العناصر الكردية (السنية) كانت ولا زالت مفضلة في أجهزة الدولة العراقية مقارنة بالعناصر العربية الشيعية . أن الاحصائيات ومراجعة أسماء رجالات الادارة في العراق منذ العهد الملكي وحتى الآن تثبت هذه الحقيقة ./ (راجع مثلا : تاريخ الوزارات العراقية . واعلام الكرد – مير بصري ـ دار الريس) .

«تكريد» السريان وشمال الرافدين

ان بقاء سريان منطقة الجزيرة على مسيحيتهم جعلهم عرضة سهلة لاكتساحات القبائل التركية والكردية المنحدرة من آسيا ومن الجبال المجاورة . ثم ان العامل المهم الذي شجع على التوسع التركي والكردي في منطقة الجزيرة هو ضعف العنصر السامي ـ العربي في القرون الأخيرة . بعد الاجتياح المغولي ـ التركي للمنطقة وسقوط بغداد والخلافة العباسية وفقدان العرب للقيادة السياسية فأن القبائل العربية البدوية والعناصر العربية المستقرة قد فقدت عنفوانها التاريخي التوسعي السابق . ثم أن نشوء المدن والحواضر والمراكز العسكرية العثمانية في العراق والشام قد لعبت دوراً في عزل منطقة الجزيرة عن بادية الشام وجزيرة العرب وإيقاف الموجات القبائلية العربية . هذا الامر أدى الى ضعف المجاميع السريانية والعربية المستقرة في الجزيرة . ثم الى غلبة المجاميع الكردية والتركية ، وبالتالي «تكريد» و «تتريك» الكثير من المجاميع العربية والسريانية المستقرة سابقا .

قبل الحديث عن المذابح وعمليات الاضطهاد التي قام بها «الأغاوات ـ الشيوخ» الاكراد ضد السريان ، يجب التأكيد قبل شيء أن هذه المذابح لم يقم بها الشعب الكردي الذي يشهد له التاريخ بدور كبير في حماية المسيحيين والتجاور معهم وحتى إستقبالهم وحمايتهم

في مناطق كردية مثل جبال حكاري وشهرزور وغيرها . أن هذه المذابح قام بها الشيوخ الاكراد المدفوعون من قبل السلطات العسكرية العثمانية ولأسباب سياسية وتعصبية بحجة تعامل المسيحيين الارمن والسريان مع الدولة الروسية والعملاء الانكليز . بل أنه حتى البعثات التبشيرية المسيحية الغربية كانت تلعب دوراً برفع بعض الأغوات الأكراد لأضطهاد النساطرة واليزيديين لأجبارهم على إعتناق الكاثوليكية . ويمكن كذلك ذكر دور الحركة الصهيونية والقوى الغربية التي جهدت على تشجيع عملية التفتت القومي والطائفي للمنطقة من أجل التمهيد للمشاريع الاستعمارية والصهيونية المعروفة .

لقد إعتمدت الدولة العثمانية كثيراً على المحاربين والأغوات الاكراد من اجل حماية شرق الأناضول ومنطقة الجزيرة من الخطرين الايراني والروسي ، لقد كون السلطان عبد الحميد في اواخر القرن التاسع عشر فرق حربية شبيهة بفرق القوزاق الروسية ، وتتكون هذه الفرق العثمانية اساساً من الاكراد وسميت بالفرق «الحميدية» . لقد قامت هذه الفرق ومعها الاغوات بدور كبير في طرد السريان من مناطقهم في الجزيرة (كذلك الارمن في ارمينيا) وارتكاب مذابح كثيرة معروفة ضدهم وإجبارهم على الرحيل او التحول الى مسلمين اكراد لقد عانى سريان شمال الرافدين من سبع مذابح كبرى خلال العصر العثماني وحتى الحرب العالمية الأولى . مثلا ، بين عامي ١٨٤٣ ـ ١٨٤٧ قام الامير الكردي بدر خان بأبادة ما يقرب ١٠ آلاف من سريان منطقة حكاري الكردية . والباقون اضطروا للهرب أو إعتناق الاسلام . زمن السلطان عبد الحميد ١٨٩٥ جرت مذابح ضد الارمن وكذلك السريان كلفتهم ما يقرب ٥ الاف قتيل في ماردين والرها وتشريد آلاف العوائل . في عام ١٨٠٩ بدفع من حركة تركيا الفتاة جرت مذابح ضد السريان في ادنا (شمال سوريا) كلفت أكثر من ٨٠٠ قتيل والاف المشردين . أما أعنف المذابح وأقساها فهي مذبحة (١٩١٤ ـ ١٩١٩) التي ذهب ضحيتها اكثر من (٣٠٠) الف سرياني وتشريد اكثر من (١٠٠) الف من مناطقهم ، حسب الوثيقة التي وجهتها اللجنة الوطنية الآشورية لعصبة الامم المتحدة عام ١٩١٩ ، وشملت هذه المذابح أيضاً ما يقرب المليون أرمني . بين عامي ٢٤ ـ ١٩٢٦ تم طرد جميع سريان طور عابدين وماردين الى سوريا والعراق .

يمكن ايراد مثل واحد على مدى قوة عملية «التكريد» التي حصلت في المنطقة : مدينة «ديار بكر ، شمال الجزيرة» التي تعتبر ضمن كردستان تركيا وهي مدينة كردية خالصة

حالياً . كانت حتى أواخر القرن الماضي تتكون من (٣٥) ألف نسمة منهم (٤١٣٠) كردياً فقط اكثر من (١٣) الف سريانياً . (حسب دائرة المعارف الاسلامية) . علما أن هذه المذابح وعمليات «التكريد» ظلت مستمرة حتى من قبل الحكومات العراقية التي شجعت على تهجير الكثير من سكان القرى والمناطق السريانية الى الموصل وبغداد والخارج . ولا زالت حتى الآن تمارس عملية «التكريد» هذه في شمال العراق مع السلطة الكردية الحالية ، وكذلك إعتداءات حزب العمال الكردستاني على بقايا السريان في «الجزيرة» جنوب تركيا .

مناطق أكراد الرافدين

أن هذه الوقائع وتاريخ منطقة شمال الرافدين تؤكد أن أكراد العراق وعموم منطقة الجزيرة ، رغم تمايزهم اللغوي ، فأنهم بكل يقين ممتزجين عرقياً وحضارياً بأحفاد حضارات الرافدين : ان مراجعة تاريخ المناطق العراقية التي تقطنها حالياً غالبية كردية تكشف أن هؤلاء الأكراد ما هم إلا من نسل تلك القبائل والجاميع السامية السريانية العربية التي إمتزجت وتزاوجت وذابت بالعنصر الكردي الغالب خلال حقب التاريخ البعيد والقريب .
هنا تاريخ بعض المناطق التي تكشف عن هذه الحالة :

منطقة كركوك

منذ القدم كانت هذه المنطقة جزءاً من بلاد الرافدين . أقدم ذكر ورد لها بأسم «أربخا» في التقويم الجغرافي الشهير عن ممتلكات الملك سرجون الأكدي (٢٥٣٠ ـ ٢٤٧٣ق . م) . هناك من يعتقد ان أسم «كركوك» اتى من السومري بمعنى العمل العظيم (كار ـ عمل ، كرك ـ عظيم) .

يبدأ تاريخ مدينة كركوك مع إنبثاق «النار الازلية» عام ٥٥٠ ق . م في العهد الكلداني من المعروف ان هذه النار ، التي لا زالت حتى يومنا هذا في «بابار كركر» . تتشكل من الغازات النفطية المنبعثة من باطن الأرض . منذ ذلك التاريخ بنيت المدينة تقديساً لهذه النار ، وقريباً من الماء والكلأ المنتشر في المنطقة . وتحولت الى مركز لعبادة الأله «حدد» السامي .

بعد إحتلال الاسكندر المقدوني للرافدين عام ٣٣١ ق . م تحولت المنطقة الى مركز

لنشاط القائد الاغريقي سلوقوس الذي بنى فيها منطقة عسكرية سميت «كرخ سلوقايا » أي قلعة السلوقيين ومنها ربما أتى اسم «كركوك» .

في العصر الايراني الساساني ، تحولت كركوك الى مركز رئيسي للمسيحية النسطورية السريانية التي إنتشرت في بلاد الرافدين قادمة من سوريا . وأطلق على أسقفية كركوك أسم «بيت جرماي» . وقام الاباطرة الساسانيmk بعدة مذابح شهيرة ضد النساطرة واشرسها في القرن الرابع الميلادي ، راح ضحيتها عدة آلاف من السكان . في القرن السادس تمكن «يزيدن» أحد القادة السريان ان يكون اميراً على المدينة حتى سميت بأسمه «كرخايزدن» . في كركوك بنيت واحدة من أقدم الكنائس في التاريخ عام ٤٧٠ م ، وظلت هذه الكنيسة حتى فجرها الاتراك بعد انسحابهم عام ١٩١٨ . ويعتقد أن جامع النبي دانيال المعروف في المنطقة قد أقيم محل كنيسة نسطورية قديمة ظلت قائمة حتى عام ١٧٠٠م .

بعد تكوين ولاية الموصل عام ١٨٧٩ تبعت كركوك هذه الولاية . عام ١٩١٨؛ فصلت عن كركوك ٣ اقضية لتكوين لواء اربيل . أما بالنسبة للتركمان القاطنين في المنطقة فهم من بقايا عدة مجاميع بدأت تستقر منذ القرن الثامن قبل الميلاد وأستمر مع السلاجقة والاتابكة والعثمانيين ، وقد امتزجوا بالسكان السريان والعرب وحملوا ميراثهم الحضاري رغم تمايزهم اللغوي .

يبلغ عدد سكان كركوك حالياً النصف مليون تقريباً بنسب عددية شبه متقاربة من الاكراد والتركمان مع نسبة اكبر من العرب تزداد مع الاعوام بحكم سياسة التعريب التي إتبعتها الحكومات العراقية بالاضافة الى بضعة آلاف من السريان الكلدان والنساطرة .

مدينة اربيل

تقع أربيل في السهول الزراعية بين الزابين الاعلى والأسفل اللذان يصبان في نهر دجلة . تعتبر من أقدم المدن الحية في العالم . عثر في طرفها الجنوبي على تجمعات سكنية تعود الى العهد الآشوري . قلعة أربيل المعروفة تمثل الجزء التاريخي من المدينة وتقوم على سبعة تجمعات سكنية مدثورة منذ العهد السومري . يرد أسم أربيل في المنحوتات السومرية بأسم «أوربيلم» ، وفي الوثائق البابلية والاشورية «أربعيلو» أي الآلهات الاربعة . كانت أربيل العاصمة الدينية للدولة الاشورية ، وقد أنشأ الملك الاشوري «سنحاريب ـ ٧٠٥ ـ ٦٨١ ق .م» أول مشروع مائي ، لا زالت آثاره واضحة حتى الآن ، ضمنها لوحة حجرية صغيرة تضم

كتابات آشورية يذكر فيها سنحاريب أنه أنجز المشروع من أجل إيصال الماء الى مدينة الآلهة عشتار . أشتهرت «أربيل» بمعركة «كومل» التي جرت بين الأغريق بقيادة الاسكندر المقدوني والايرانيين بقيادة داريوش عام ٣٣١ ق .م والتي انتهت بسيطرة الاغريق التامة على بلاد الرافدين وعموم المنطقة . منذ القرن الاول الميلادي بدأت المسيحية تنتشر في الرافدين وتمركزت في أربيل التي تحولت الى مقر لاسقفية نسطورية مثل كركوك . وفي زمن الساسانيين تعرض المسيحيون فيها الى مذابح معروفة ، حتى أن حاكمها الفارسي «قرداخ» قد تم إعدامه عام ٣٥٨م بسبب تخليه عن المجوسية واعتناقه المسيحية .

مسجد قلعة أربيل كان في الأصل معبداً لتقديس الآلهة «عشتار» ، ثم تحول الى معبد لتقديس النيران بعد سيطرة الايرانيين على الرافدين ، ثم تحول الى كنيسة سريانية في القرن الثالث الميلادي ، وأخيراً تحول الى مسجد بعد دخول الجيش الاسلامي عام ١٦ هجرية .

المؤرخون العرب يذكرون أربيل على أنها مركز أقليم حلوان التابع للعراق . إشتهرت أيضاً بآخر معركة جرت بين الجيش العباسي والجيش الاموي وإنتهت بمقتل الخليفة الأموي مروان بن محمد . لعبت هذه المدينة دوراً رئيسياً في زمن الدولة الأتابكية الكردية التركمانية ، التي سيطرت على معظم منطقة الجزيرة بين تكريت وسنجار وحران .

حتى العصر المغولي كان السريان المسيحيون هم الغالبية في المدينة رغم سيطرة الأمراء الأكراد والتركمان . في ظل المغول عام ١٢٦١ تمكن أحد السريان «تاج الدين المكتاس» أن يصبح حاكماً على المدينة ، وساعد على نشر المسيحية اليعقوبية وبناء كنيسة واسقفية خاصة بها . في عام ١٢٩٤ قام المغول بعمليات إضطهاد ومذابح ضد السريان وهدموا ثلاثة كنائس . وفي عام ١٣٠٩ قام المغول بمذابح جديدة ضد السريان وهدموا وحرقوا معظم كنائسهم . منذ ذلك الوقت فقد السريان حضورهم في أربيل وتحولت الى مدينة كردية مع بعض الاقليات السريانية والتركمانية . بقيت أربيل في زمن العثمانيين جزءاً من كركوك وتابعة لبغداد ، في عام ١٨٩٢ كان عدد سكان المدينة لا يتجاوز ٣٢٠٠ بينهم ٤٥٧ يهودي . أما الآن فان عدد سكان محافظة أربيل يقرب النصف مليون اغلبهم من الاكراد مع نسب مهمة من السريان والتركمان .

منطقة سنجار واليزيدية :

ان الحديث عن سنجار يعني الحديث عن «اليزيديين» المحسوبين على الاكراد . . أن

يُحتسب «اليزيديون» على الاكراد أمر ليس مهماً ماداموا يقطنون في منطقة عراقية وعاشوا تاريخ الرافدين وورثوا حضارة هذه البلاد من خلال دينهم الذي يعتبر دينا رافدياً خالصاً مع تأثيرات «كردية عراقية» واضحة .

عدد اليزيديين يبلغ اكثر من مئة الف في العراق ، ٨٥٪ منهم يقطنون في جبل «سنجار» في وسط منطقة الجزيرة غرب الموصل ، والباقون في قريتي «الشيخان» و «باعذرى» شرق الموصل . بعض اليزيدية موجودون أيضاً في سوريا وفي أرمينيا . معظم المؤرخين والباحثين إعتبروهم من الأكراد ، لكن بالحقيقة هم «عراقيون» بكل معنى الكلمة . بصورة أدق أنهم يمثلون أفضل نموذج للجماعات العراقية السريانية التي تم تكريدها في القرون الاخيرة بحكم السيطرة الكردية على المنطقة والتزاوج القبائلي والثقافي الذي تم مع الجماعات الكردية النازحة . يشبهون في وضعهم هذا بعض القبائل العربية ـ الكردية الموجودة في العراق ، مثل بعض افخاذ الجبور وربيعة والبيات وغيرهم . انهم يحملون الثقافتين والانتمائين العربي ـ الكردي بآن واحد . يتكلم اليزيديون العربية والكردية ويرتدون الازياء الرجالية العربية السريانية والازياء النسائية الكردية . لهم كتابان مقدسان أحدهما بالعربي «كتاب الجلوة» يعود الى المتصوف الشامي «عدي بن مسافر» وكتاب حديث يُعتقد انه مكتوب بالكردي «مصحف رش» أي «الكتاب الأسود» . يعتقدون بأن أسمهم «اليزيدية» يعود الى «يزيد بن معاوية الخليفة الاموي» الذي تم تقديسه بعد سقوط الدولة الأموية كرد فعل على تقديس «علي» من قبل «العلوية» والشيعة المجاورون لهم . ثم أنهم يقدسون فقيه عربي عراقي معروف هو «الحسن البصري» . أن سلالة جميع شيوخ اليزيدية يجب أن يكونوا منحدرين من هذين الأمامين «عدي بن مسافر والحسن البصري» .

من دلائل أصالتهم السريانية ، مثلا إنهم في سنجار يقدسون دير «مار عدي» أحد حواري السيد المسيح ، ويحتفظون فيه بأقدم مكتبة كلدانية مكتوبة على رق الغزال بأعتبارها مكتبتهم المقدسة .

من ناحية تكوينهم الديني ، فأن المؤرخين والفقهاء لم يحسموا قضية إنتماء اليزيدية للاسلام ام لا . لقد أسيء فهم الفكرة السائدة عنهم بأنهم يعبدون الشيطان : أنهم يهابون «الملاك طاووس» رمز قوة الشر (الشيطان) لا حباً به ولكن تجنباً لشره . يشبهون معظم الطوائف «الغالية» التي حاولت أن تغطي معتقداتها السامية الأصلية بتلاوين مسيحية وأسلامية ، مثلما فعلت العلوية والدرزية والاسماعيلية والشبكية وغيرهم . أن اليزيديةتمثل

خلاصة الدين البابلي القديم القائم على تقديس الكواكب السبعة المعروفة ، والذي تأثر واضطر لتقبل المعتقدات السامية الجديدة التي إنبثقت في المنطقة بعد سقوط بابل : المسيحية ثم المانوية البابلية ثم الاسلام . أي أن اليزيدية هم من بقايا الجاميع السامية السريانية التي فرض عليها التاريخ ، للحفاظ على دينها الاصلي ، أن تتقبل بعضاً من معتقدات الاديان الجديدة . بل ان ديناميكية اليزيدية إضطرت كذلك لتقبل ثقافات الاقوام الجديدة التي فرضت نفسها على المنطقة ، أي ثقافة العنصر العربي أولا ثم ثقافة العنصر الكردي الذي هيمن في القرون الأخيرة .

تاريخ اليزيدية عموماً مجهول ولم يتم الاهتمام به الا في القرن السابق ، وهذا يعود أساساً الى تكتم اليزيدية ومحاولة إبتعادهم عن اثارة الطوائف الاسلامية والمسيحية المحيطة بهم . رغم هذا فأنهم تعرضوا لحقبات من الاضطهاد والمذابح المعروفة خصوصاً في زمن الدولة العثمانية . في القرن التاسع عشر قام العثمانيون بإبادة يزديي جزيرة إبن عمر في منطقة الجزيرة وكذلك تم ذبح الآلاف في جبل سنجار لأجبارهم على التخلي عن دينهم . في عام ١٨٤٧ حاولت الحكومة العثمانية إجبارهم على الخدمة العسكرية بإعتبارهم طائفة إسلامية ، وبعد مذابح كثيرة إضطر الكثير منهم للجوء للكنائس وإعلان مسيحيتهم للتخلص من الاضطهاد . وتكررت المذابح كذلك في عام ١٨٧٢ لنفس السبب . حاولت البعثات التبشيرية الاوربية كسبهم الى المسيحية دون أن تحقق نجاحاً ملحوظاً . يبدوا أنهم قد لعبو دوراً مميزا بالتحالف مع السريان في ضم الموصل الى العراق في عام ١٩٢٥ .

رغم ديمومة اللغة الكردية (مع العربية) في بعض نواحي اليزيدية فأن هناك شعوراً متنامياً لديهم بأصولهم السريانية الرافدية . في عام ١٩١٩ اشتركوا مع الاشوريين بوفد موحد بقيادة الجنرال أغا بطرس في مؤتمر السلام في باريس للمطالبة بحقوقهم . لقد نشرت صحيفة الشرق الاوسط في ٢٤ ـ ٢ ـ ١٩٩٣ برقية شيخ اليزيدية الأمير معاوية يقول فيها : «أنه ليس لمسعود البرزاني ولا جلال الطالباني ـ القادة الأكراد ـ الحق بالأدعاء بأنهما يمثلان اليزيديين والآشوريين» . ثم نشرت مجلة «حويودو ـ الوحدة» السريانية (عدد ٤٣ ـ ١٩٩٤) بياناً للأمير معاوية يتحدث فيه عن : «نبتة أجدادنا أيام الأمبراطورية الآشورية . . . . أننا فهمنا تاريخنا بأننا والآشوريين من أصل واحد . . . » .

ان من يطلع على تاريخ اليزيدية يكتشف ان هذه الطائفة تمثل خلاصة رائعة لتاريخ منطقة شمال الرافدين (منطقة الجزيرة) . يمكن اعتبار اليزيدية أشبه بقصر تاريخي مظهره

اسلامي مزين بنقوش عربية وعبارات كردية . لكن لو أزلنا هذه الاصباغ الخارجية عن الجدار لأكتشفنا تحتها طبقة من نقوش مسيحية بأيقونات ملونة وصلبان منحوتة . ولو تعمقنا أكثر بالحفريات لأكتشفنا طبقة ثالثة من جداريات آشورية ورسومات آلهة النهرين وكتابات مسمارية . ولو تعمقنا في الحفريات سنصل الى اعماق تاريخ المنطقة وجذورها البدائية المنسية . الحقيقة أن جميع طوائف وأديان العراق وسوريا تتشابه في هذه الطبقات الآثارية المخفية ، لكن اليزيدية من بين الكل هي اقل الطوائف التي نجحت بأخفاء طبقاتها التاريخية ، بحيث تبدو وكأنها موزاييك رائع للتراث الديني والاقوامي لبلاد النهرين .

يمكن ملاحظة هذا التنوع العجيب في اليزيدية من خلال الامور التالية :

- إعتقادهم بأنهم من نسل آدم فقط وليس من نسل حواء ، وإنهم أتو بعد الطوفان .
- إعتقادهم بالكواكب السبعة المقدسة لدى الساميين ، لكنهم غيرو اسماء الآلهة البابلية بأسماء الملائكة السريانية المسيحية : يودائيل وإسرافيل وميكائيل وجبرائيل وشمنائيل ونورائيل ، أما زعيم الملائكة الاكثر قدسية فهو عزرائيل «الملك الطاووس» ، الذي تصوره البعض على أنه «الشيطان» . ويمثل هؤلاء الملائكة سبعة شيوخ مقدسين مثل الشيخ عدي والشيخ حسن وأبو بكر .
- يحتلفون بأول أربعاء من شهر نيسان بهبوط الملاك «طاووس» الى الأرض ، مثلما كان يحتفل أهل النهرين في بابل وآشور بشهر نيسان اول أشهر السنة حسب التقويم البابلي ، لأنه شهر الربيع والخصب والميلاد والبداية . وهو عيد الاله (تموز) ، ويبدو جلياً أن هناك تشابهاً بين اسمي (طاووس وتموز) . نفس هذا الشهر أيضاً كان يحتفل المانويون البابليون بيوم صلب «ماني البابلي» وخلوده في الابدية ، وكذلك هو عيد الفصح وعودة المسيح للحياة .
- إنهم إقتبسوا من المانوية مسألة تناسخ الأرواح وإنتقال البشر بين حيوات عدة .
- إنهم يشتركون مع المسيحيين في الكثير من المناسبات والاعياد مثل عيد الفصح والقيامة وكذلك التعميد بالماء وقطع الخبز ، ثم زيارة الكنائس والحج لمزار الشيخ عدي المقدس أيضاً لدى المسيحيين في العراق .
- أنهم يشتركون مع المسلمين بالصيام والختان وتقديس القران وبعض رجالات الدين .
- إنهم يحتفلون بعيد «القربان» أي عيد الاضحى حيث ضحى النبي إبراهيم بولده

إسماعيل .

- إنهم يعتمدون التقويم الشمسي الشرقي الذي كان يعتمده من قبلهم اهـــل النهرين في بابل وآشور .
- انهم يمتلكون تنظيماً دينياً هرمياً مثل نظام الكنيسة المسيحية والمانوية وكذلك الشيعة الجعفرية . بالاضافة الى تقديسهم احفاد عدي والحسن البصري مثلما يقدس الشيعة احفاد الأمامين علي والحسين .

قضية كردستان الكبرى

جميع الذين تتطرقو الى القضية الكردية حتى من الكتاب والسياسيين العراقيين والعرب تعاملو مع هذه القضية بمنطق الدفاع عن شعب مظلوم ومجزأ له الحق في تقرير مصيره وبناء أمته . ليس هناك أي إعتراض على هذا المنطق ، بل ينبغي التأكيد هنا على الدعوة للتضامن مع قضية هذا الشعب الجار والشقيق التاريخي للشعب العراقي وشعوب منطقة المشرق . ولكن في زخم هذا التضامن قد تم التغاضي عن حقوق عدة شعوب متميزة مقيمة في هذه الأرض منذ فجر التاريخ وتعرضت لمذابح وإضطهادات لا تقل بل تزيد عما تعرض له الشعب الكردي ، أي الأرمن في أرمينيا ، ثم السريان في شمال الرافدين الذين تعرضوا لعمليات تصفية بدنية وقومية خلال القرون الاخيرة . بالاضافة الى الشعوب الاخرى التي تم «تكريد» الكثير من مناطقها في إيران مثل اللور وبختيار وأذربيجان .

قبل الحديث عن الطموحات القومية الكردية «المتطرفة» ، فأنه من الواجب «الضميري» التذكير اولا بمعاناة الأكراد والحروب والمذابح التي شنت ضدهم من قبل الحكومات المسيطرة .

بالنسبة للعراق مثلا ، فأنه من أكبر الاخطاء «التعصبية» التي مارستها الحكومات والنخب السياسية العراقية تتمثل بالفكرة التالية : أن الوطن العراقي هو جزء من الوطن العربي ، وان الشعب العراقي هو جزء من «الشعب» العربي ، إذن فأن العراق يشترط وجود العنصر العربي ، وأية منطقة ليست فيها أغلبية عربية هي بالضرورة ليست عراقية بشكل تام!! وعلى أساس هذا المفهوم «القومي المتعصب» قامت الحكومات العراقية بتطبيق سياسية «تغريب» الأكراد ومحاربتهم في وطنيتهم العراقية ومحاولة «تعريب» مناطقهم أو تهجيرهم

وجلب السكان العرب محلهم . وهذا الموقف القومي الضيق أدى كذلك الى إهمال قضية السريان وعدم إدراك حقهم التاريخي بمناطقهم والاعتراف بدورهم في تشكيل «الهوية الرافدية» التاريخية ، بل أن الحكومات العراقية ساهمت بقصد وبغير قصد في تهجير الكثير من السريان من قراهم ومدنهم في الموصل واربيل ودهوك نحو بغداد أو خارج العراق ، ثم بالتالي تشجيع عملية «تكريد» هذه المناطق . في هذا الفهم القومي الضيق يكمن سر المشكلة الكردية ثم السريانية . الانكى من هذا ان هذا الفهم القومي الضيق أرتبط كذلك بالشعور الديني والطائفي «السني» . أن المفارقة التي ظلت تعيشها الدولة العراقية أنها من ناحية تعادي الأكراد قومياً ، ولكنها بنفس الوقت تتحالف معهم طائفياً أمام «خطر» الاغلبية الشيعية العربية ، وتفعل العكس كذلك مع «الشيعة» . هذه هي معضلة «الهوية الوطنية العراقية» بأكملها والسبب الأول في الازمة الدائمة للدولة العراقية منذ تكوينها عام ١٩٢١ وحتى الآن . بصورة مختصرة : أنه غياب الدولة الممثلة لهوية عراقية رافدية واضحة وأصلية تصهر في داخلها جميع التنوعات الدينية والطائفية واللغوية . هذا الفهم «الوطني الرافدي» هو وحدة الكفيل بجعل الانتماء الى «الهوية المشرقية» ثم «الهوية العربية» أمراً طبيعياً وإيجابياً . نفس الوضعية طبعاً تعاني منها أيضاً بلدان الشام وبالذات سوريا رغم اختلاف حدة المشكلة .

هذا التمزق في الهوية العراقية (كذالك الشامية) ، برر للحركات الكردية أن تتطرف أيضاً بحساسيتها القومية وتتمادى بطموحاتها عن «كردستان الكبرى» . مشكلة الحركات الكردية أنها إعتبرت حدود كردستان تشمل جميع المناطق التي يسكنها حالياً أكراد ، أي إنها إعتمدت فقط على الحق السكاني «الديموغرافي» متناسية دور الحق التاريخي - الجغرافي في تحديد الأنتماء الوطني لأية بقعة أرض .

من اول الأمور التي تم تناسيها ان جزءا كبيراً من الاراضي التي يقطنها الاكراد حالياً في منطقة الجزيرة في العراق وسوريا وتركيا ، هي منذ فجر التاريخ وحتى وقت قريب كانت أراض تقطنها شعوب غير كردية ، وبالذات السريان الذين لا زال أحفادهم يعيشون مشردين حتى الآن ، وهم مثل الأكراد يتشوقون الى الكرامة الوطنية وحلم الاستقرار في بلاد تعترف بحقوقهم الانسانية والثقافية والسياسية . أن خارطة «كردستان الكبرى» التي تطالب بها الحركات الكردية تضم الكثير من المناطق التي هي تاريخياً وحتى بدايات القرن الحالي

مقطونة بأغلبية سريانية وعربية ، تشكل حضارياً وتاريخياً وعرقياً القسم الشمالي من بلاد الرافدين بجزئية العراقي والسوري بالأضافة الى الجزء الذي إقتطعته تركيا .

بالنسبة لكردستان العراق مثلا ، فأن الحركات الكردية لم تكتف ولا زالت تصر على المطالبة ببعض المناطق التي لم تدخل في منطقة الحكم الذاتي الكردية ، وهي مناطق كركوك وسنجار وخانقين ، بل هم في الحقيقة يطالبون بكل شمال العراق من خانقين وتكريت حتى سنجار . الغريب أن الحركات الكردية تعتمد في مطالبتها هذه على حقيقة أن العراق في زمن العثمانيين كان مقسم الى ثلاثة ولايات : ولاية البصرة في الجنوب ، ولاية بغداد في الوسط ، ولاية الموصل في الشمال ، وجميع هذه الولايات يحكمها والي بغداد . بما أن منطقة كردستان العراق (السليمانية والمناطق الجبلية من أربيل ودهوك) كانت تابعة الى ولاية الموصل ، أذن هذه الولاية بأجمعها صارت هي كردستان ، أي كل الجـــزء الشمالي من العراق !

المشكلة لا تكمن في الاعتراف بحق الاكراد بالسكن في أي جزء من أرض العراق ، وهذا حق وطني وأنساني مشروع ، بل المشكلة أساسا تتمثل في الطموحات الاستقلالية ومبدأ «حق تقرير المصير للشعب الكردي» الذي تبنته معظم الحركات السياسية العراقية والكردية . أن حق «تقرير المصير» لا يمنح عادة على أساس الوجود السكاني« الديمغرافي » أنما على أساس «الحق الجغرافي التاريخي» . بمعنى اوضح أن تقرير المصير لا يمنح فقط للسكان المتميزين ثقافياً أو دينياً ، لأن هذا يعني أنه يجب أن يمنح كذلك الى كل الجماعات العراقية المتميزة دينياً أو لغوياً : التركمان والسريان والصابئة واليزيديين ، ولم لا كذلك الشيعة والسنة ! !

أن «حق تقرير المصير» لا يعتمد فقط على التمايز الديني واللغوي ، إنما يعتمد قبل كل شيء على التمايز التاريخي الجغرافي ، ينبغي أولا وقبل كل شيء تحديد ما هية حدود «كردستان» المتميزة تاريخياً وجغرافياً عن جغرافية وتاريخ بلاد الرافدين .

أن منطقة الحكم الذاتي الكردية تتكون من ثلاثة محافظات : السليمانية وأربيل ودهوك . ليس هناك اعتراض على جعل هذه المحافظات جزءاً من كردستان ، ما دامت كردستان هذه جزءاً من العراق ، لكن عندما يتحدث الاكراد عن تقرير المصير ويساجلون بحلم الاستقلال والانفصال وتكوين كردستان الكبرى ، فأن هناك إعتراض مهم يفرض نفسه :

أن منطقة الحكم الذاتي الحالية تضم مناطق «كردية» عراقية هي جزء من جغرافيا وتاريخ العراق منذ القدم ولا يمكن أن تمتلك أي حق بالانفصال وتقرير المصير . بصورة أوضح ، أنه فقط المناطق الجبلية الكردية الطبيعية والتاريخية هي جزء من كردستان ولها الحق بتقرير المصير والانفصال ، أما المناطق العراقية الاصلية والتي يقطنها أكراد هي ليست جزءاً من كردستان وبالتالي هي مثل جميع المناطق العراقية الاصلية ولا تمتلك أي حق بتقرير المصير والانفصال عن الوطن الاصلي . لو أردنا حقاً الاعتراف بوجود«كردستان» مضمومة الى العراق فأنها بالحقيقة في أقصى الأحوال تشمل «معظم» منطقة الحكم الذاتي الحالية ، نقول معظمها وليس كلها . أي بصورة أوضح أن «كردستان التاريخية» التي تمتلك حق تقرير المصير هي المناطق والمدن الجبلية في الشريط المكون من السلاسل الجبلية للسليمانية وأربيل ودهوك وهي عموم «منطقة شهرزور» التاريخية المقسمة حالياً بين العراق وإيران . أما مناطق دربنديخان ومدينة اربيل ومخمور وزاخو ، فأنها مناطق عراقية أصلية وجزء جغرافي وتاريخي من بلاد الرافدين وليس لها أية علاقة بكردستان الاصلية .

هذا الموقف لا يعني أبداً معادات حقوق الاكراد ، بل هو بالحقيقة توضيح وتمييز بين حق «كردستان» وحق «الاكراد» . أن الحركات الكردية هي نفسها صاحبة هذه الفكرة : الكردستاني هو الانسان القاطن في كردستان ، ربما يكون كردياً أو سريانياً أو تركمانياً أو يزيدياً أو حتى عربياً . كردستان وطن جميع أبنائها بمختلف تنوعاتهم الدينية واللغوية . هذا يعني أنه ليس جميع الكردستانيين هم أكراد ، ولا جميع الأكراد هم كردستانيين . الكردي القاطن في الموصل أو خانقين أو البصرة هو عراقي مثل أي عراقي وله الحق بالتمتع بجميع ميزاته الثقافية الخاصة به مثل جميع أبناء الفئات الدينية واللغوية العراقية .

هذه المسألة تقود الى نتيجة مهمة جداً :

أن هناك فرقاً كبيراً بين المناطق الكردستانية والمناطق الكردية . أي هناك فرق مثلا بين مدينة السليمانية التي هي جزء من جغرافيا وتاريخ كردستان ، ومدينة خانقين أو كركوك وأربيل التي يقطنها اكراد ولكنها جزء من جغرافية العراق وتاريخ الرافدين . أن المعيار الذي طالما طالبت به الحركات الكردستانية هو نسبة السكان الأكراد القاطنين في المنطقة ، هو معيار خاطىء وغير مقبول وطنياً ودولياً . لأن الإنتماء الوطني لمنطقة ما لا تحدده فقط نسبة السكان إنما أساساً الانتماء التاريخي والجغرافي . نضرب أمثلة عديدة على هذه الحالة :

- الناظر الى أية خارطة عالمية عن إنتشار الاجناس واللغات يلاحظ أن معظم الساحل الشرقي الايراني للخليج تقطنه قبائل عربية وتسوده اللغة العربية من حدود العراق الجنوبية حتى بلوشستان وحدود باكستان ، بل أن القبائل العربية تشكل جزءا مهماً من التكوين العرقي لسكان بلوشستان الايرانية . ولكن مع هذا لم يفكر أحد من العراقيين أو العرب بأعتبار الساحل الايراني جزءاً من العراق أو البلاد العربية ، وأقصى ما تم في هذ المجال ان دولة البحرين تمنح بعض التسهيلات بالاقامة لسكان بلوشستان من أصل عربي .
- رغم الاتفاق على أن إيران دولة فارسية فأن الناطقين بالفارسية كلغة أم لا يبلغون حتى ٥٠٪ ، وهناك جزء كبير من الشعب الايراني ينطق بلغات تركستانية وخصوصاً في أذربيجان (مقارنة بحالة العراق ، فأنه أكثر من ٧٥٪ يتكلمون العربية كلغة أم) ! لكن جميع هذه الشعوب تعتبر إيرانية وتنطق بالفارسية في حياتها اليومية على إعتبار أن القبائل التركمانية والاذربيجانية نزحت الى إيران بين القرن العاشر والسابع عشر ، وبالتالي أصبحت جزءاً من الامة الايرانية . بل أن جميع الدول التي حكمت إيران وأعادت مجد الحضارة الفارسية خلال عدة قرون أقامتها عناصر تركستانية : السامانيون والطاهريون والصفويون والقاجاريون ، ولم يتزعم الفرس السلطة إلا في القرن الحالي مع «رضا شاه» .
- أن هناك الكثير من مناطق الجمهوريات السوفياتية السابقة مثل كازاخستان وطاجكستان ، تقطنها أغلبية روسية ، ولكن أحداً لم يفكر أن يجري إستفتاءاً للمطالبة بالأنضمام الى روسيا ، لأن هذه المناطق هي جزء من تاريخ وجغرافيا هذه الاوطان رغم التغيرات السكانية التي جرت عليها .
- لنفترض مثلا أن فرنسا إستمرت باستعمارها للجزائر وعموم المغرب ، لكان من اليقين أن تصبح بعض مدن فرنسا مثل «مرسيليا» بأغلبية مغاربية ، فهل من المعقول أن يفكر أحد بإجراء إستفتاء بضم هذه المناطق الى بلدان المغرب ! .

من كل هذا يمكن استخلاص النتائج التالية :

- أن الأكراد الذين يقطنون في مناطق عراقية أصلية هم مواطنون عراقيون مثل جميع أبناء العراق ولهم جميع الحقوق بما فيها حق المشاركة بقيادة الدولة العراقية وجميع الاجهزة

الأدارية وكذالك حق الاحتفاظ بخصوصيتهم الثقافية واللغوية . ليس من حق القوميين والانفصاليين الادعاء بعدم عراقية هؤلاء الاكراد وإجبارهم على الأنتماء لشعار كردستان الكبرى .

- أن هؤلاء الاكراد العراقيين يشتركون مع باقي الفئات العراقية بالانتماء الى «الهوية العراقية الرافدية « ثم «الهوية المشرقية» . لأنهم رغم تمايزهم اللغوي ، الا انهم تاريخياً وجغرافياً هم ورثة الحضارة الرافدية والمشرقية السامية بكل تنوعاتها الثقافية والدينية والعرقية . بمعنى أوضح أن الميراث «الايراني والميدي» الذي ينتمي اليه ابناء كردستان الاصلية . هو ميراث ثانوي وغير وطني بالنسبة للأكراد العراقيين .
- بالنسبة لكردستان الحقيقية المضمومة للعراق (المناطق الجبلية للسليمانية وأربيل ودهوك) فأنه من مصلحة الشعب العراقي دعم كل الميول الفيدرالية وحتى الانفصالية لهذا الجزء لانه سيجنب العراق حمل دموي ثقيل ويحل المشكلة الكردية المسببة للخراب الدائم لشعب كردستان ولشعب العراق .

الوضع الراهن للسريان

أن تحديد الموقف بوضوح ازاء القضية الكردية يتطلب كذلك الفهم الواضح للمسألة السريانية . أن الحركات السياسية المدافعة عن حقوق الجماعات السريانية تعاني من مشكلة تبدو ثانوية ولكنها في الممارسة معقدة وتثير بعض الاشكالات والحساسيات بين مختلف الاتجاهات السياسية والفكرية ، ونعني بهذا مشكلة التسمية الموحدة . المطلع على ادبيات هذه الحركات يكتشف مدى عمق هذه المشكلة ، فالبعض يقول «السريان» والبعض الاخر يقول «آشوريون» وآخرون يقولون «اثوريون» وهناك من يقول «الكلدان» ، ثم يحاول البعض الأكثر واقعية إستخدام تسمية «الكلدو ـ آثوريون» والحقيقة أن هذه التسميات المختلفة تأتية من أسباب تاريخية أخذت شكل الانقسام الطائفي . منذ القرن الخامس الميلادي أثر مجمع أفسس المسيحي سنة ٤٣١م إنقسم سكان المشرق المسيحيين السريان الى طائفتين :

- أتباع كنيسة الشرق «الرافدين» ومقرهم في «طيسفون ـ سلمان باك» أي كنيسة بابل ، وسميوا بالنساطرة نسبة الى القديس نسطور السرياني .
- أتباع كنيسة الغرب «سوريا» وهم الارثوذكس وتسمو بـ «اليعاقبة» نسبة الى «يعقوب البرادعي» السرياني ، ومقرهم في إنطاكيا وإنتشر مذهبهم في عموم سوريا وكذلك في

مصر أي الكنيسة القبطية .

بالاضافة الى الكنيسة «الملكية» وكذلك الكنيسة «المارونية» .

وهذه الكنائس عموماً أنتشرت كذلك بين القبائل العربية ، وأمتزج خلالها السريان بالعرب ، وتبنت بمعظمها اللغة العربية في طقوسها الدينية .

ظلت المنافسة خصوصاً بين الطائفتين النسطورية واليعاقبية طيلة قرون ، ثم أضيفت لها تعقيدات جديدة بعد القرن الخامس عشر مع نشاطات البعثات التبشيرية الغربية حيث تحول الكثير من النساطرة الى «كاثوليك» وتسمو بـ «الكنيسة الكلدانية» وبعضهم حمل إسم «الكنيسة السريانية» . أما الذين بقو على نسطوريتهم فاطلق عليهم «الآثوريين» .

إذن فأن التسميات التاريخية القديمة حملت معنىً طائفياً جعل من الصعب تجاوزها نحو تسمية موحدة بسبب العقبة الطائفية . هناك ميل قوي لدى بعض النخب والحركات السياسية لأستعمال تسمية «آشوريون» ، لكن هذه التسمية تتعارض مع تسمية «كلدان وسريان» . رغم هذه الفروق في التسميات والفروق بين الطوائف فأن هناك عنصراً أساسياً يوحد كل هذه الجماعات : أنهم رغم تبنيهم للعربية في الكثير من نشاطاتهم ، فأنهم جميعاً يعتبرون اللغة السريانية لغة كنسية مقدسة ويتحدثون بلهجات مختلفة بقربها وبعدها عن السريانية الفصحى . وهذا الانتماء الى الثقافة السريانية يخلق لدى الكثير من النُخب والجماعات شعوراً بالأنتماء المشترك لتاريخ بلاد الرافدين وسوريا ، أي الانتماء لعموم بلاد المشرق وحضاراتها السومرية البابلية الآشورية الكنعانية والارامية . خلاصة القول ان إطلاق تسمية «السريان»* تبدو الاكثر معقولية رغم نواقصها ، أن هؤلاء السريان بجميع تنوعات مسمياتهم يشكلون جزءاً متميزاً من الشعبين العراقي والسوري ، بل يصح القول أن «السريان» هم أسلاف شعوب «منطقة المشرق» مثلم الأقباط هم أسلاف الشعب المصري ، والبربر هم أسلاف شعوب المغرب والنوبيون هم أسلاف الشعب السوداني ، وكل هذه الانتماءات المتنوعة تجتمع في الانتماء الى عالم عربي كبير وثقافة وتاريخ شرقاني مشترك .

نتيجة الاوضاع السياسية المعقدة وعمليات الاضطهاد القومي والديني التي تعرض لها سريان منطقة الجزيرة فأن الكثير منهم هجروا قراهم ومدنهم بحثاً عن مناطق آمنة . وحسب

---

* هناك من يقترح تسمية (آرام) لأنها تسمية تاريخية لغوية خارج التقسيم المذهبي ، بالحقيقة أننا نميل اكثر الى تسمية (آرام) أكثر من تسمية (سريان) . لكن الأمر لا زال يستحق النقاش .

الاحصائيات المتوفرة فأن السريان بجميع طوائفهم وتسمياتهم الكلدانية والآثورية وغيرها ، يتوزعون حالياً حسب التالي :

- العراق : مليون ونصف المليون ، نصفهم من بغداد والباقون في الموصل وأربيل ودهوك وكركوك والبصرة .
- سوريا : ربع مليون ، أغلبهم في منطقة الجزيرة وحلب بالاضافة الى دمشق .
- لبنان : عشرين ألف أغلبهم في بيروت .
- تركيا : عشرة آلاف أغلبهم في إسطنبول .
- أكثر من مليون منتشرين في جميع بقالع العالم ، أوربا الغربية والقارة الأمريكية وأستراليا وإيران وروسيا .

طبعا هذه الأرقام تقريبية لأنها تعود لاعوام الثمانينات ، مع التغيرات المستمرة المتعلقة بالهجرة وتنقل الجاليات وزيادة السكان .

أن معظم السريان في سوريا والعراق تمكنوا من الاندماج في الحياة الاجتماعية والسياسية في البلدين ولعبوا دوراً بارزاً في النشاطات السياسية والثقافية لهذين البلدين ووصل بعضهم الى مراكز قيادية ومميزة . في السنوات الاخيرة برزت بعض المراكز السياسية والثقافية والدينية الخاصة بالسريان ، وخصوصاً بين الآثوريين «النساطرة» الذين تعرضوا أكثر من غيرهم للمذابح والتشريد من مناطقهم الاصلية ، ومن أبرز هذه الحركات :

- نوادي «بيت النهرين» وهي منتديات اجتماعية ثقافية منتشرة بين جميع الجاليات الآثورية (والسريانية) في العالم . وتشرف كذلك على نشر المجلات والكتب باللغة السريانية والعربية .
- الكنائس المتنوعة الخاصة بالطوائف السريانية المختلفة ، والمنتشرة أيضاً بين الجاليات المهاجرة . وعموماً تتبع هذه الكنائس مراكزها في سوريا والعراق .
- الحركات السياسية المطالبة بحقوق السريان ، مثل المنظمة الآثورية الديمقراطية التي تأسست عام ١٩٥٧ . والحركة الديمقراطية الآشورية التي تأسست عام ١٩٧٩ وفازت بالمقاعد الخمسة المخصصة لطوائف السريان في إنتخابات كردستان عام ١٩٩٢ .

آفاق التعامل مع حقوق السريان

أن «مسألة حقوق السريان» التي طالما تم تجاهلها من قبل شعوب المنطقة وحركاتها السياسية ، تقع أولا وقبل كل شيء على عاتق الشعبين العراقي والسوري بحكم إنتماء السريان التاريخي والسياسي لهذين الشعبين . بالاضافة الى أن هذه القضية تتطلب تفهماً من قبل الحركات القومية الكردية وبعضاً من روح التضامن مع شعب شقيق وجار للشعب الكردي .

أن الحركات والنخب في العراق وسوريا يمكنها أن تتبنى المبادىء التالية في التعامل مع حقوق السريان :

١ ـ الاعتراف بأن السريان بجميع طوائفهم الارثوذكسية والنسطورية والكاثوليكية والبروتستانتية هم أشقاء وأسلاف للشعبين العراقي والسوري ، رغم أنهم جزء متميز دينياً ولغوياً من هذين الشعبين . وهذا يتطلب جهداً خاصاً من أجل كتابة جديدة للتاريخ الرسمي والمدرسي والتربية الوطنية .

٢ ـ أن يتم إعتبار اللغة السريانية لغة ثانية وتاريخية في جميع مدارس بلدان المشرق على إعتبارها الأساس الثقافي والحضاري الذي إنبثقت منه اللغة العربية ،وهذا يشبه تماماً تدريس اللغة اللاتينية في مدارس أوربا على إعتبارها الاساس التاريخي والحضاري للغات الأوربية . (راجع القسم الخاص باللغة العربية واصولها ، في هذا الكتاب) .

٣ ـ إعتبار مناطق شمال الرافدين «الجزيرة» التي إقتطعتها تركيا (ماردين وديار بكر والرها) بالاضافة الى لواء الاسكندرونة السوري ، هي جزء جغرافي وتاريخي من العراق وسوريا ، وأن السريان والعرب القاطنون في هذه المناطق هم سكان عراقيون وسوريون . يعني هذا أن يتم التثقيف وإشعار الحركات الكردية والحكومة التركية بهذا الموقف . وبالتالي الدفاع عن الحقوق الثقافية والتاريخية لهؤلاء الاشقاء . وهذا الموقف يشمل أيضاً السريان القاطنين في مناطق غير رافدية أي تابعة تاريخياً لكردستان العراق وإيران وتركيا (مثلا في السليمانية والعمادية وأورميا وحكاري) ، وهذا الموقف لا يعني أبداً التدخل بالشؤون الداخلية لهذه البلدان . إنما نوعاً من التضامن مثلما تتعامل جميع الشعوب مع جالياتها المقيمة في أوطان أخرى .

٤ ـ ان يتم التعامل مع الجاليات السريانية (حتى من ذوي الجنسيات غير العراقية والسورية) المقيمة في المهجر الاوربي والامريكي والاسترالي على إعتبارها جاليات عراقية سورية، وأن يتم منح الجنسية لجميع الراغبين، ومنحهم حق المشاركة والتعبير والاقامة في العراق وسوريا مثل جميع المهاجرين من البلدين. (لقد قامت الحكومة السورية بخطوات إيجابية في هذا المجال وخصوصاً ناحية الاتصال بهذه الجاليات ودعوتها لزيارة سوريا)،

٥ ـ ان منح الجنسية وحق العودة لسريان البلدان الاخرى لا يعني أبدا ان يتم الامر على حساب السكان الذين توطنو في هذه المناطق السريانية التاريخية ، ونعني بهذا خصوصاً المناطق والقرى التي يقطن فيها حاليا أكراد في العراق وسوريا . بمعنى أوضح أن «حق العودة» لا يعني أبداً «حق الطرد» على الطريقة الصهيونية العنصرية والمعادية للانسانية .

هذه بعض من المبادىء التي يمكن أن يتعمق حولها الحوار بين جميع المهتمين بحقوق السريان وقضية خلق «هوية تاريخية أصلية» تحترم جميع الخصوصيات والتنوعات الدينية والمذهبية واللغوية لبلدان «منطقة المشرق» .

ملاحق معلوماتية

خاصة بقضية السريان

« ولايــــة الموصـــل »

في المصادر النسطورية السريانية

هذه خريطة منطقة (حدياب) أي (نينوى) التي تشتمل كل شمال العراق الحالي (عدا السليمانية) بالاضافة الى مناطق طور عابدين وغيرها ن المناطق التابعة حالياً لتركيا علماً بأن هذه التسميات في الخارطة هي التسميات الآرامية التي كانت شائعة قبل الفتح الاسلامي ولازالت معظم هذه التسميات موجودة في هذه المنطقة ، والحقيقة ان الكثير من مناطق العراق لا زالت محتفظة بتسمياتها الآرامية والبابلية الاصلية ، مثل : بغداد ، بعقوبة ، الكوفة ، النجف ، كربلاء ميسان ، البصرة ، وكذلك دجلة والفرات ، والمئات من اسماء المناطق والقرى في العراق والشام .

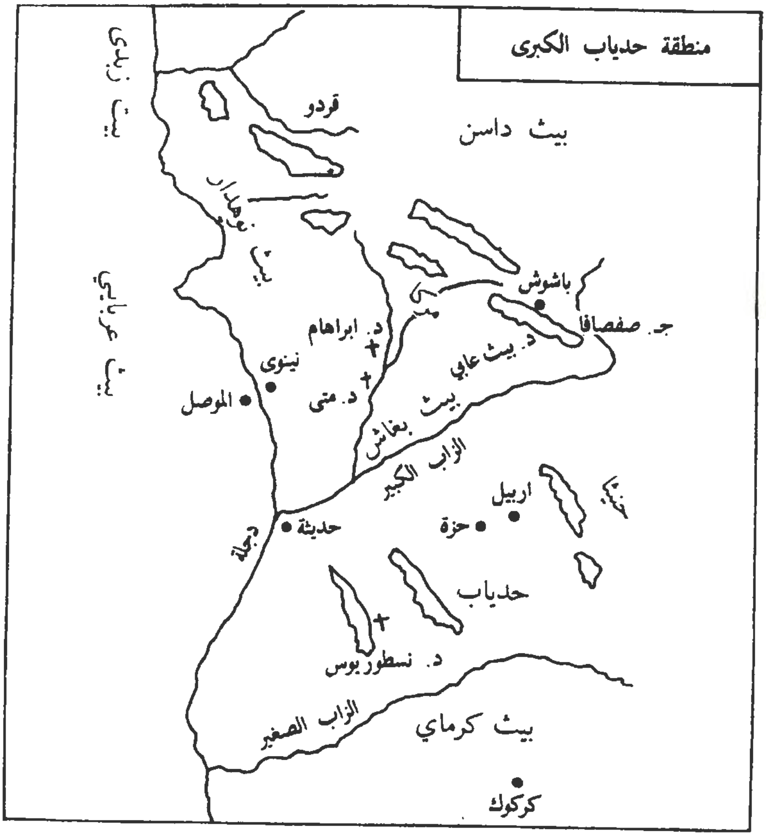

من كتاب «تاريخ الكنيسة السريانية ـ الاب البير ـ ابونا ـ ج2 ـ ص114»

«كردستان الكبرى»
والنظرة العرقية القومية التوسعية

هذه خارطة «كردستان الكبرى» التي تدعي بها الاحزاب الكردية . ويلاحظ ان تصوير هذه الخارطة اعتمد على المبدأ العرقي ـ السكاني القومي على الطريقة الجرمانية : «اينما يوجد من يتكلم جرماني فتلك المنطقة جزءاً من المانيا الكبرى» . وعلى هذا الاساس فأن القوميين الاتراك يحلمون ان تشمل حدود تركيا المنطقة الواقعة من حدود الصين حتى يوغسلافيا ، أي اينما وُجد من يتكلم التركستاني !! وعلى هذا الأساس ايضاً تبنى «العروبيون» فكرة «الوطن العربي الكبير» الذي ظل يتوسع على مر السنين بحثاً عن اي منطقة تتكلم اي لغة قريبة من العربي . فأدخلت الى الجامعة العربية بلدان افريقية تجهل العربي مثل (جيبوتي والصومال) لأن لغاتها فيهاً اصول عربية ! وجرت محاولات ليبية لضم (مالطا) التي تتحدث لغة من أصل فينقي وعربي .

علما بأن هذه الخارطة لـ «كردستان الكبرى» تحتقر تماما الحقوق التاريخية لشعوب مضطهدة عديدة : الارمن والسريان في تركيا والعراق . وكذلك الآذربيجان واللور في ايران :

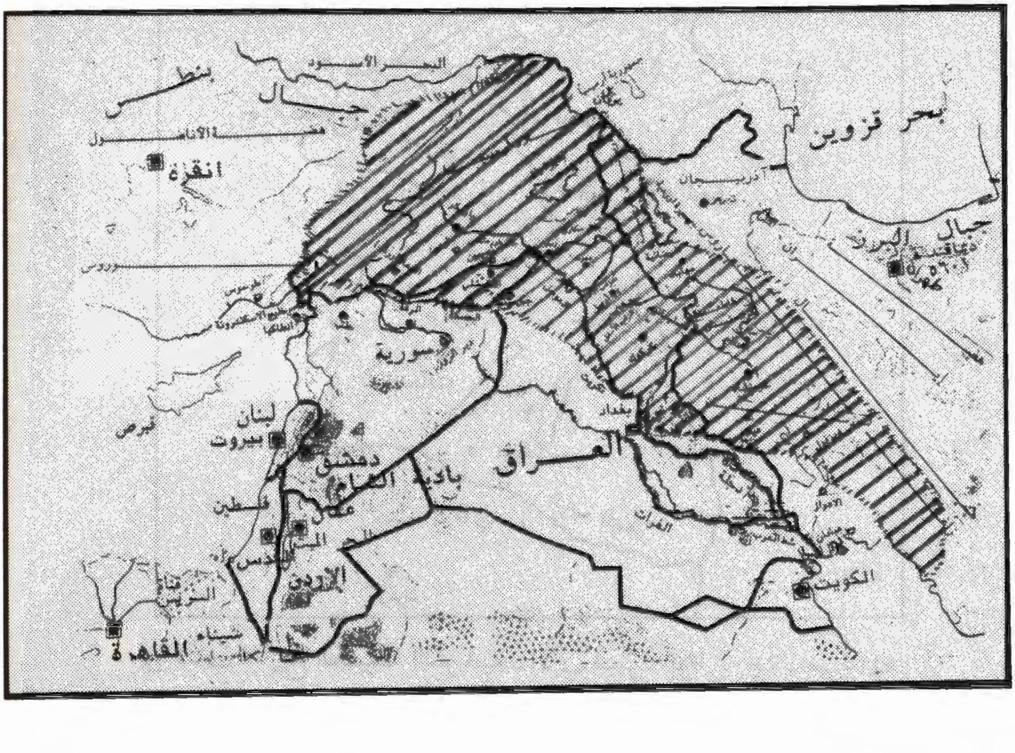

لاحظ ان خارطة «كردستان الكبرى» تدعي بكل شمال العراق بالاضافة الى اجزاء من الوسط مثل خانقين وديالى ، أما سوريا فأن كل شمالها بالاضافة منطقة الاسكندرونة السورية المحتلة من قبل تركيا . والطريف ان الخارطة هذه ذات احلام استراتيجية كبرى وعالمية من حيث انها تشمل منابع النفط الاساسية في العراق وكذلك في ايران وتركيا . ثم انها الخارطة الوحيدة التي تمتد من الخليج في الجنوب حتى البحر المتوسط في الشمال !!

الزعيم السياسي (الكردي) الايراني ـ عبد الرحمن قاسملو رغم ادعائه بالاعتدال فأنه اتفق مع مفهوم «كردستان الكبرى» وحددها بالضبط كما هي مرسومة في الخارطة المرفقة :

« ويقول البحاثة الكردي قاسملو ان الحدود التقريبية لكردستان يمكن رسمها كالآتي :

« يبدأ خط مستقيم عند قمة ارارات (ارمينيا) في الشمال الشرقي ، ينحدر جنوبا الى الجزء الجنوبي من زاغروس ويشتكوه (في غرب إيران) ، ومن تلك المنطقة ترسم خطاً مستقيما نحو الغرب الى الموصل في العراق ، ومن ثم خطا مستقيما نحو الغرب يمتد من الموصل الى المنطقة الكردية من لواء الاسكندرونة ، ومن تلك النقطة يمتد نحو الشمال الشرقي حتى ارضروم في تركيا ، ثم من ارضروم يمتد الخط نحو الشرق الى قمة ارارات » .

والمساحة الكلية للاراضي الواقعة ضمن هذه الحدود هي ٤٠٩٦٥٠ كيلو متراً مربعاً ومن هذه المساحة توجد ١٩٤,٤٠٠ كم٢ في تركيا و ١٢٤,٩٥٠ كم٢ في ايران و ٧٢٫٠٠٠ كم٢ في العراق و ١٨,٠٠٠ في سوريا . ويقدر قاسملو طول كردستان اذا قيست من الشمال الى الجنوب ١٠٠٠ كم أما معدل العرض فهو ٢٠٠ كم في الجزء الجنوبي ثم يتزايد شمالا حتى يبلغ ٧٥٠ كم .

ويلاحظ هنا أن هناك تقديرات اخرى ، وان الارقام والتقديرات اعلاه ليست موضع اتفاق . وسيرى القارىء التضارب والاختلافات في تقدير المنطقة الكردية العراقية مثلا ، فبعض الاوساط الكردية تدخل ضمنها كل محافظة كركوك ومدنا ووحدات ادارية في أجزاء أخرى من العراق لمجرد أن فيها نسبة عالية من السكان الاكراد ، وهذه تقديرات نرى ان بعضها ظاهر الاصطناع والمغالاة لأسباب سياسية » .

من كتاب «القضية الكردية في العشرينات ـ عزيز الحاج ـ ص 227 - 228»

حول تعريب وتكريد وتتريك سكان العراق الاصليين

على مر التاريخ ، كل شعوب الارض ظلت تتعرض لاجتياحات الجماعات المحاربة من الرعاة والبدو ، الذين يفرضون انفسهم بقوة السلاح على الجماعات الاصلية المستوطنة ، ويشكلون الطبقة المالكة والحاكمة . وحسب الظروف قد تفرض هذه الطبقة ثقافتها ولغتها ودينها على المستوطنين الاصليين ، او بالعكس تتبنى لغتهم وثقافتهم . والعراق من اكثر بلدان الارض الذي ظل يتعرض لاجتياحات الجماعات الجبلية الآسيوية من الشرق والجماعات البدوية من الغرب ، وبحكم موقعة الجغرافي المتوسط وانفتاح حدوده وارضه السهلية وخصوبة نهريه ظل العراق طيلة تاريخه عرضة لهذه الطبقات الجديدة ، التي كانت عموماً تذوب بثقافة الرافدين وتصبح جزءاً من سكانه وحضارته الراسخة الاصلية . حتى زمن قريب يلاحظ وجود هذا التمايز «العرقي» بين الفئات المالكة المحاربة والجموع المستوطنة الاصلية . هذا المقطع يعطي مثالاً عن شمال العراق :

«كان ملاك الأراضي تركماناً ، يملكون الكثير من الأراضي الزراعية في منطقة المالحة ، على امتداد الزاب الصغير ، وفي الضواحي الغربية لكركوك ، ولكن العرب هم الذين كانوا يعنون بأراضيهم المزروعة وأغنامهم . وفي الموصل كان أسياد الأرض من كبار العرب المسلمين بشكل رئيسي ، بينما كان عدد غير قليل من فلاحيهم في القرى المحيطة من الآراميين المسيحيين .

وحتى في المناطق الكردية التي يفترض فيها الانسجام الإثني (العرقي) ، كان الفلاحون غير العشائريين ، الذين يسمون «رعية» أو «مساكين» ، يبدون من أصل عرقي مختلف عن الأغوات الملاّك ووكلائهم ومحاربيهم العشائريين ، وفي الواقع كان يمكن تمييز هؤلاء الفلاحين بسهولة ، بملامحهم ولهجتهم الخاصة ، عن المزارعين العشائريين الأحدث استيطاناً وعن أفراد العشائر الأخرى وأغواتهم الذين كانوا يمارسون ، بشكل عرضي وفي بعض المناطق على الأقل ، سلطات حقّ تقرير الحياة والموت بالنسبة للمساكين ، وبكل ما في الكلمة من معنى . وقد ذكر سي .ج . ريتش ، مندوب شركة الهند الشرقية المقيم في بغداد ، في العام ١٨٢٠ ، أن بعض الخبراء أكّد له أن فلاحي كردستان في أيامه كانوا «عرقاً متميزاً تماماً» عن الأكراد العشائريين ، مما جعله يتساءل إن لم يكونوا هم السكان الأصليين لهذه المناطق ، وعما إذا لم يكونوا قد أخضعوا ذات يوم من قبل عشائر رحّل جبلية » .

من كتاب «العراق ـ ج1 ـ حنا بطاطو ـ ص67» .

السريان وتكالب القوى المعادية

منذ القرن الماضي تكالبت على السريان ثلاثة قوى : القوات التركية العثمانية والأغوات (الشيوخ) الاكراد والمبشرون الاوربيون الكاثوليك ، رغم التناقض الكبير بين هذه القوى الا ان مصالحها المختلفة اجتمعت على اضطهاد السريان : الاتراك العثمانيون لأنهم اتهموا المسيحيون السريان ومعهم الارمن بالتحالف مع روسيا والمطالبة بحقوق قومية استقلالية . الاغوات الاكراد لأنهم كانوا مرتزقة لدى العثمانيين وقد طمعوا بالاستيلاء على قرى السريان واراضيهم التي تحولت بمعظمها الى مناطق كردية - تركية مثل ديار بكر وماردين وحران (اورفا) ، بالاضافة الى المناطق الارمنية حول بُحيرة (وان) . اما المبشرون الاوربيون فأنهم تأملوا من اضطهاد السريان اجبارهم على التخلي عن النسطورية واليعقوبية والقبول بأعتناق الكاثوليكية وقد نجحوا فعلاً بذلك بحيث تحول معظم نساطرة شمال الرافدين الى كاثوليك هنا لمحة عن هذا الاضطهاد :

« لقد امتد نضال الآشوريين التابعين للكنيسة النسطورية ضد المبشرين الكاثوليك من القرن السابع عشر وحتى القرن التاسع عشر ، نتيجة لذلك اضطر البطريرك الاشوري النسطوري الملاحق من قبل الكاثوليك للخروج إلى جبال هاكاري ولذلك اختيرت قرية قوجانس (المكان المقدس) في ولاية هاكاري مقراً رئيسياً للبطريرك النسطوري .

وكان المبشرون الكاثوليك قد رشوا الباشوات الأتراك والشيوخ الأكراد والبّوهم على الآشوريين ليبيدوا الكنوز الثقافية في الكنائس والمدارس والأديرة لدى الاشوريين ، إذ ان هدف المبشرين كان يتلخص في اجبار الاشوريين على التخلي عن ثقافتهم العريقة والبدء بتاريخ جديد يبدأ من يوم توقيع الاتحاد مع روما .

لقد اباد المبشرون الروميون الكاثوليك الكنوز الثقافية الآشورية بأيدي الاشوريين ذاتهم وتشهد المعطيات التالية المنتشرة بين اهالي الموصل على ذلك ، فهم يؤكدون «بأن المؤمنين المتعصبين الجدد (النساطرة الذين اعتنقوا الكاثوليكية) ، نقلوا المكتبة الواسعة في هذه المدينة والحاوية على عدة آلاف من الكتب إلى ضفاف دجلة وبأمر من الرهبان اللاتين تم رميها في النهر» .

من كتاب «الآشوريون والمسألة الاشورية - ق . ب . ماتييف - ص5»

* « كانت الحكومات الاوربية تدعم ارسالياتها التبشيرية بالضغط على السريان الشرقيين والغربيين لقبول مذاهبها وكانت تلجأ في كثير من الأحيان إلى استخدام بعض زعماء السكان المحليين من بيكاوات الأتراك والاكراد والأيرانيين للضغط علي السريان واضطهادهم باسم الدين حتى يلجأوا إلى هذه الأرساليات هروباً من الاضطهاد والموت فتتلقفهم هذه الارساليات وتفرض عليهم الحماية بشرط الانتماء إلى مذهبها الديني . وأن الحكومة العثمانية كانت تستغل دوماً وحدة الدين فيما بينها وبين رعاياها المسلمين الأتراك والأكراد لاضطهاد وقتل السريان بحجة محاربة الكفر والالحاد والحصول علي الثواب في الجنة وكان طرح مثل هذه الأفكار يلقى اذاناً صاغية من بعض الجماهير المسلمة الفقيرة وذلك بسبب التخلف والجهل والفقر الذي كان مطبقاً بحق على هذه الجماهير أيضاً وهي في الأغلب كانت مغلوبة على أمرها وتسير وفق ارادة البيكاوات والزعماء الأكراد والأتراك ، وقد كانت أغلب هذه الزعامات تسير في فلك الحكومات العثمانية وكانت ضد شعوبها أيضاً وان أبشع أساليب وطرق الاستغلال هي التي اتبعتها الحكومة العثمانية مع بعض الزعامات الكردية في الحرب العالمية الأولى وهذه بدورها استغلت جهل شعوبها في محاولة ابادة السريان والأرمن فكان من نتيجة ذلك استشهاد ٣٠٠ الف اشوري ومليون أرمني ما بين عامي ١٩١٤ ـ ١٩١٩ ميلادية ، فكانت تباد قوافل بعشرات الآلاف من الأطفال والشيوخ والنساء دون رحمة » .

من مجلة «دراسات اشتراكية ـ عزيز آي ـ ص20 - 21»

* «زرت كنيسة القرية الصغيرة . على الجدران شاهدت بعض الصور للقديسين والعذراء بألوان بشعة مع كتابة لاتينية تحتها لا تناسب هذا المكان ، سألتهم هل يعرفون ماذا تعني هذه الصور ؟

ـ لا ـ أجابوني ، بعد موت كاهننا قدم الينا المطران يوسف الكاثوليكي ، وهو الذي علّقها وطلب منا أن نركع أمامها ، أما نحن فنزعناها من على جدران كنيستنا ، وكان جواب محمود آغا ، شيخ الاكراد الميزوريين ، أن جمع مخاتيرنا وأمر بضربهم حتى كسرت العصى على أقدامهم ، وبعدها ضربونا نحن أيضاً . ولهذا تركنا هذه الصور كما علقها الكاثوليكي ، وبما ان الاكراد قد باعوا أنفسهم لقاء منعهم لأي كاهن نسطوري من الاقتراب للقرية ، لهذا نحن مجبرون أن نسمع وعظ المطران الكاثوليكي الذي من فترة لأخرى يأتي الى القرية تحت حماية الاكراد المسلحين . . .

ولكن بدرخان كشف المكان ، إلا أنه عجز عن احتلاله بالقوة . ولهذا أحاط كل المنافذ برجاله منتظراً ساعة الاستسلام . مؤونة الآشوريين لم تكفهم سوى لثلاثة ايام . بسرعة نفذت المياه والمواد الغذائية بسبب الحرّ الجهنمي . وضعيتهم بدت بدون مخرج ، ولهذا قرروا اعلان الاستسلام تحت شروط وضمانات ، تعهد بدرخان التمسُّك بها ، مقسماً بالقرآن : «لن يصاب أي تياري بأذى بعد تسليمه سلاحه وما عنده للاكراد» . ثقة التياريين بهذه الوعود جعلتهم أن يسمحوا للاكراد العبور عن طريق المنافذ الجبلية . بعد حصول الاكراد على سلاح الأسرى الآشوريين ، مباشرة وجهوا أفواه البنادق الى العزل المنهكين ، دون أن يرحموا فرداً منهم . طبقات من أشلاء القتلى الآشوريين غطت سفوح الجبل . وعندما أنهكهم الرمي ، راحوا يقذفون من بقي حياً من فوق الصخور الشاهقة الى نهر الزاب الأكبر . من الف آشوري اعتصم بهذا الجبل لم ينج ـ كما قيل لي ـ سوى انسان واحد . .

ذكرني جسر «ليزان» بقصة سمعتها عن بطولة عشر فتيات آشوريات من قرية «سيرسبيتة» التيارية . عند عودة الاكراد بعد المذبحة الفظيعة للآشوريين ، قادوا امامهم تلك الفتيات عبر هذا الجسر الضيق . فور وصولهنّ ، سوية ألقين أنفسهنْ الى النهر وغرقن معاً . فضّلن الموت عن العبودية » . .

من كتاب «البحث عن نينوى ـ هنري لا يارد ـ ص19 - 34 - 35»

* * *

حقوق السريان والدولة العراقية

اصدرت الحكومة العراقية عدة قرارات بخصوص الاعتراف بالحقوق الثقافية للفئات العراقية المختلفة . ولكن كالعادة فأن هذهِ القرارات تم الالتفاف عليها وعدم تطبيقها . من هذهِ القرارات ذلك المتعلق بحقوق السريان الثقافية الصادر عام (1972) وقد نص على :

« ـ اعتبار اللغة السريانية لغة التعليم في كافة المدارس الابتدائية التي غالبية تلاميذها من الناطقين بالسريانية مع اعتبار تعليم اللغة العربية إلزامياً في هذه المدارس .

– تدريس اللغة السريانية في المدارس المتوسطة والثانوية التي غالبية تلامذيها من الناطقين بهذه اللغة ، مع اعتبار العربية لغة التعليم في هذه المدارس .

– تدريس السريانية في جامعة بغداد كإحدى اللغات القديمة .

- استحداث برامج خاصة باللغة السريانية في الاذاعة العراقية ومحطتي تلفزيون كركوك ونينوى .
- اصدار مجلة شهرية باللغة السريانية من قبل وزارة الاعلام .
- انشاء جمعية للأدباء والكتاب الناطقين بالسريانية ، وضمان تمثيلهم في الاتحادات والجمعيات الأدبية والثقافية العراقية .
- مساعدة المؤلفين والكتاب والمترجمين الناطقين بالسريانية مادياً ومعنوياً بطبع ونشر إنتاجهم الثقافي والأدبي .
- تمكين المواطنين الناطقين بالسريانية من فتح النوادي الثقافية والفنية ، وتشكيل الفرق الفنية والمسرحية لإحياء وتطوير التراث والفنون الشعبية .

ورغم الشروع بتنفيذ بنود هذا التشريع ، لكنه كغيره من التشريعات ، كان يتعثر ، ويتعرض في التطبيق الى مقاومة بعض أوساط عناصر الاجهزة الحكومية ، ويصطدم بمشاعر الحذر المتراكمة في المجتمع العراقي ، ولا سيما كردستان ، تجاه الأثوريين بالذات . وقد واصلت الدوائر الغربية ، والأمريكية بالذات ، نشاطها التخريبي بين أوساط الأقلية السريانية ، وتأسست في الغرب منظمات وجمعيات لتشجيع المواطنين العراقيين الناطقين بالسريانية على الهجرة لأمريكا وأوربا ، وتقديم المساعدات المادية اللازمة لهم » .

من كتاب « القضية الكردية في العراق - عزيز الحاج - ص176 »

* * *

امير اليزيدية يتحدث عن طائفته

هذه مقاطع من مقالة كتبها (الامير انور معاوية اسماعيل الاموي) امير الطائفة اليزيدية في العراق وعموم المنطقة . في هذه المقالة تعرف على بعض الامور الاساسية في اليزيدية التي تؤكد العمق التاريخي لهذه الطائفة وعلاقتها الاصلية بميراث بلاد النهرين بمختلف تنوعاته :

« لقد اثيرت اسئلة كثيرة وظهرت افكار عديدة في اذهان الكثير من الباحثين سواء الشرقيين منهم او الغربيين وخاصة فيما يتعلق باحوال الديانة اليزيدية وتفسير اسم «طاووس ملك» . فقد ذكر البعض منهم بأن الديانة اليزيدية هي عبادة الشيطان او ابليس ، وحاولوا

ربط الطاووس برمز الشيطان وهذا قول لا اساس له من الصحة وخاطىء وكل ادعاء على الطائفة اليزيدية باعتبارهم عبدة الشيطان او الابليس هو مجرد كذب وافتراء .

ان اسم «طاووس ملك» عند ابناء الديانة اليزيدية هو احدى اسماء جبرائيل . أي ابناء الطائفة اليزيدية يسمون جبرائيل باسم «طاووس ملك» ويأتي «طاووس ملك» في المرتبة الثانية من الأهمية بعد رب العالمين ، فاليزيدية تعبد الله وحده ، وهذا واضح وجلي في التراتيل الدينية ، حيث يقول الشيخ عدي (رض) : « لا تُجدى ماهيته في مقال ، ولا تخطر كيفيته ببال ، ، عن الامثلة والاشكال صفاته قديمة كذاته » . ان هذه النظرة التوحيدية في الديانة اليزيدية ، تنفي ما يذكره خصومها من عبادتها للشيطان ، وكذلك نذكر دائما في الابيات الدينية «الله هو الواحد الذي لا شريك له . ولا خليل له هو الواحد القهار» .

والطاووس رمز مقدس عند ابناء الطائفة اليزيدية ، مثلما الصليب رمز السيد المسيح المقدس عند المسيحيين .

والطاووس تمثال يشبه طير الطاووس ، مصنوع من البرونز ويرجع قدمه لتاريخ ابراهيم الخليل عليه السلام .

وهذا الرمز قديم لدى اليزيدية وكذلك هو صورة اثرية خالدة من زمن البابليين والآشوريين ومن الآثار المهمة التي بشكل اجنحة تعتليها صورة شخص يمسك بيده حلقة والرجل ينظر باتجاه الشرق (شمس) ، والطاووس يتخذه لزيارة اليزيدية . وقد خصص لكل منطقة طاووس يزورهم بمرافقة رجال الدين للتبرك فيها . وهذا من اهم المقدسات اليزيدية . .

وكذلك يسمى رمز الطاووس بالسنجق وعددها سبعة حاليا ، لجمع الزكاة في المناطق التالية ، سوريا ، وتركيا ، وايران وروسيا (القفقاس) اما في العراق فهي :

- العراق ، سنجق منطقة جبل سنجار «طاووس شنكار» .
- العراق ، سنجق منطقة شيخان «طاووس شيخا» .
- العراق ، سنجق دائم يبقى في خزينة الرحمان ، ويسمى «طاووس عنزل اي ازلي» .

وهكذا يتضح ان اليزيدية لا علاقة لها بالشيطان او ابليس وليس لها صلة بالفكر اللاهوتي او الفلسفي الزرادشتي .

وهنا يأتي السؤال المهم ، لماذا يغضب اليزيدي حينما يذكر له اسم الشيطان ويرد ذكر اللعنة ؟

ان اليزيدي في تاريخه الديني الطويل مر بظروف كان من الصعب عليه التفاهم مع الاقوام المجاورة فيما يتعلق بما يقصدونه بالشيطان واسباب اطلاق هذه التسمية عليه . وذلك لأن من يجد اليزيدي وهو يقوم بتكريم او تقديم فرائضه الدينية للسنجق (تمثال يرمز الى رئيس ملائكة عند اليزيديين) . ويسوء الأمر اكثر حين يتحول هذا التعبير (الشيطان) الى لجاجة لا تطاق . فاليزيدي في موطنه عزيز لا يتحمل الإهانة ، فأن غادر موطنه لحاجة مهمة (هذا ما كان يحدث حتى منتصف القرن التاسع عشر) ثم دخل المدينة في محيط مشحون بالتعصب الديني ، جاءته اللعنات وجاء التشنيع على الشيطان جملة . وهذه الحالة تجعله يثور في اية ظروف واية احوال حين يسمع بعد ذلك اسم الشيطان او اللعنة تقال له عن قصد ، فهو يعلم او يفهم ذلك بالغلط ان المقصود من الشيطان اهانة طاووس ملك (جبرائيل) . وسوء التفاهم هذا جعل من اليزيدي لا يفهم ماذا يقصد به من يقول له ذلك . واشتدت الحالة هذه خاصة بعد حمل الامبراطورية العثمانية حملات ابادة ضد اليزيديين متهمة اياهم بـ «عبدة الشيطان » . وابتدأت الغزوات بالقتل والنهب . وهذا الأمر جعل اليزيدي يفهم هذه العبارة كتهمة له . ولكن الأمر مختلف اليوم بالنسبة لأبناء الطائفة واصدقائهم .

لليزيدي تمثال يرمز الى طاووس ملك (جبرائيل) يقيم له التكريم كل سنة فيظن الغريب ان شاهدها بأن اليزيدي يعبد الصنم ، غير ان اليزيدي يكرم ذلك التمثال الذي يرمز الى شخصية سماوية فلا يكرمه الا من اجل من يرمز اليه » .

من «مجلة حويودو ـ شباط ـ 1996 ـ ص39»

* * *

نقاش صحفي عن العرب والسريان

يبدو ان موضوع (السريان) والتأكيد على اصالتهم التاريخية وانهم لعبوا الدور الاساسي في التمهيد للحضارة العربية الاسلامية ، مثل هذا الطرح ازعج ولا زال يُزعج الكثير من (القوميين العروبيين) الذين تعودوا ان ينظروا الى تاريخ منطقتنا من منظار (عروبي قح) ونفي تماماً لاصالة شعوبنا واعتبار التاريخ السابق لفتح الاسلامي هو تاريخ غريب لأنه غير عربي .

هنا نقدم الرد الذي نشره الكاتب في جريدة القدس (6 - 7 - 1995) على اعتراضات

باحثة (قومية) ازعجتها طروحات الكاتب عن الدور الاساسي للسريان في تاريخ بلدان المشرق :

« مرة اخرى عن السريان والهوية الوطنية

* نشرت صحيفة «القدس العربي» في ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٩٥ رداً من الباحثة العراقية المقيمة في اليونان السيدة سعاد الشيباني ، على مقالتنا «عن حقوق السريان» بقسميها الأول والثاني ، والمنشورة في ٢٥ و ٢٧ ايار (مايو) ١٩٩٥ .

ان مقالي هذا «عن السريان» رغم قصره فهو حصيلة اعوام من المتابعة والقراءة والحوار وتسجيل الملاحظات وحفظ الوثائق المتعلقة بتاريخ السريان قبل الاسلام وبعد الاسلام ثم في الفترتين العثمانية والحديثة . اكتشفت ان تاريخ السريان «او الآراميين» قد تم شطبه تماما من تاريخنا العراقي والمشرقي ، لاسباب دينية وعروبية ، يطول الحديث عنها . وقد ادى هذا القصور الى تناسي وضع اشقائنا السريان في القرون العثمانية الاخيرة ، وخصوصا المذابح والتشريد الذي تعرضوا له من قبل العسكر الاتراك والاغوات الاكراد ، اننا نقول دون اية مبالغة ، ان معاناة السريان تضاهي تقريبا معاناة الشعب الفلسطيني من ناحية طردهم من قراهم ومدنهم والغاء هويتهم واعتبار أراضيهم جزءا من تركيا ومشروع كردستان الكبرى .

اما بالنسبة للنقطة التي ركزت عليها الباحثة بل كانت هي الموضوع الأساسي للرد وشكلت محوره منذ البداية حتى النهاية : اعتراض الباحثة على قولنا بان العرب قد اطلقوا على السريان تسمية «نبط او انباط» بعد الفتح العربي للعراق والشام . وقد اسهبت الباحثة باستخدام الاستشهادات والمصادر والشروح لكي تثبت بان النبط كانوا عربا وليسوا سريانا .

مع كل اعتزازي بالجهد العلمي الذي بذلته الباحثة ، فاني اقول لها بكل بساطة ، للأسف ان جهدها لم يكن ضروريا ابدا لانها تحدثت عن مسألة لم اتطرق اليها . والسبب يعود الى «جهل» الباحثة بالحقيقة التالية : ان تسمية «نبط» قد تم استخدامها في التاريخ خلال فترتين متتاليتين وبمعنيين مختلفين : فترة ما قبل الفتح العربي الاسلامي ، ثم فترة ما بعد الفتح العربي الاسلامي .

وانا تحدثت في مقالي عن الفترة الثانية ، بينما الباحثة تحدثت عن الفترة الاولى . واستخدام تسمية «نبط» قد اختلفت بين الفترتين ، وهذا امر معروف لدى اي مهتم بتاريخ المشرق العربي! لكن الباحثة للأسف لم تدرك هذه البديهية رغم تخصصها . وكما رغبت

بذلك، ولكي نبرهن لها على اننا لا نعتمد في تحليلنا على «المشاعر والاحاسيس» كما اتهمتنا في ردها، بل على المصادر الموثوقة والمعروفة جداً:

قبل الحديث عن «النبط» في هاتين الفترتين، يتوجب علينا توضيح حقيقة معنى تسمية «نبط او انباط». السيدة الباحثة تعتقد بأن هذه التسمية اتت من «ثبوت بن اسماعيل» المذكور في التوراة. مثل هذا التفسير «الاسطوري» يذكر بأولئك الذين يرجعون تسمية «عرب» الى «يعرب» جد العرب الاسطوري، يقول ابن منظور في (لسان العرب): «النبط انما سميوا نبطا لاستنباطهم ما يخرج من الارض، وفي حديث لا تنبطوا في المدائن اي لا تتشبهوا بالنبط في سكانها واتخاذ العقار والملك ...» ج ٧ ص ٤١١.

اذن هذه التسمية، ليس لها علاقة بنسل او قومية، بل صفة اجتماعية اطلقت على الناس المستقرين في الريف والمدينة الذين يستنبطون او يستنبتون الارض والخيرات، اي ان «النبط» رديف «الحضر»، وقد استخدمت هذه التسمية، الصفة في الفترتين التاليتين:

١ - الفترة التي سبقت الفتح العربي الاسلامي، وقد اطلقت تسمية «نبط» على الجماعات البدوية «العربية» التي استقرت في جنوب سورية وفلسطين بالذات في منطقة البتراء في الاردن الحالية.

لقد جاهدت السيدة الباحثة من اجل اثبات عروبة هؤلاء الانباط، ودحض «التهمة الخطيرة جدا» بأن لهم علاقة مع سكان المشرق الاراميين، ثم تأثير الحضارة والثقافة واللغة الآرامية السريانية على عرب قبل الاسلام. لنترك اذن احد المصادر الموثوقة بتحدث عن المسألة. هذا مقطع من كتاب عالم اللغات السامية (أ - ولفنسون) والمكنى بـ (بوذؤيب) في كتابه المعروف (تاريخ اللغات السامية. دار القلم - بيروت) والذي وضعه مباشرة باللغة العربية. يقول العالم عن انباط هذه الفترة:

«لا شك ان هناك عناصر نبطية ارامية اصلية كما ان هناك عناصر نبطية عربية. ويظهر ان ارهاط النبط الفاتحين كانوا من الآراميين ثم بعد استقرارهم في طور سيناء «يقصد الاردن» اختلطوا بالعرب فظهرت هناك طبقتان: واحدة آرامية اصيلة واخرى عربية كثرت عناصرها الى ان تغلبت بالتدرج على العناصر الآرامية ومحتها محوا تاما وبقيت لغة الحضارة هي اللغة الآرامية التي كانت في ذلك العصور لغة العمران عند جميع امم الشرق الادنى ... ويجب ان لا يغيب عن بالنا ان وجود اللغة الآرامية والكتابة الآرامية عند النبط الذين كانوا قد

اتصلوا اتصالا مباشرا بالعرب قد اثر تأثيرا لا يستهان به على الحضارة العربية الجاهلية وعلى تكوين المادة اللغوية العربية في شمال الجزيرة العربية من ناحية التمدن والعمران كما يتضح ذلك من الخط النبطي وتأثيره على الخط العربي الاسلامي . . .» ص١٣٥ ـ ١٣٧ .

اعتقد ان في هذا ما يكفي للرد باختصار على المحور الاساسي في رد الباحثة . والآن لنتحدث عن الفترة الثانية التي غابت عن بال الباحثة رغم انها كانت هي المقصودة في مقالنا عن السريان :

٢ ـ الفترة التي اعقبت الفتح العربي الاسلامي ، وقد اطلق العرب على سكان المشرق المسيحيين الناطقين بالسريانية (الآرمية) ، تسمية «نبط» بالاضافة الى تسميات مختلفة ، منها الكلدان والآراميون ، والنساطرة ، والنصارى ، وغيرها من التسميات نورد المقطع التالي من كتاب (تاريخ العراق الاقتصادي ـ الدكتور عبد العزيز الدوري ـ دار المشرق ـ بيروت) ، يقول المؤرخ :

« ويستعمل لفظ (النبط) للاشارة الى الفلاحين الذين يتكلمون الآرامية في العراق . . . ولقد اوضح ابن الكلبي ان العرب كانوا يطلقون لفظ (النبط) على سكان العراق الذين لم يكونوا رعاة ولا جنودا ويسمى المسعودي فلاحي العراق (النبط) و (السريان) ، ويصيب المسعودي حين يعتبر النبط سكان العراق القدماء . . . ولقد قامت الطبقة المتوسطة من الآراميين بدور مهم في الحركة الثقافية في العراق واخرجت عددا من الاطباء الكبار ، والفلكيين والعلماء والمترجمين . . .» ص٣١ ـ ٣٢ .

نضيف كذلك مقطعا اخر لنفس المؤرخ ، من كتابه (الجذور التاريخية للشعوبية ـ دار الطليعة . بيروت) :

«وفي هذا النطاق نستطيع ادخال الاشارات الى عصبية النبط ويقصد بهم الساميون سكان العراق القدماء ، «ومنهم ملوك بابل» وهم يذكرون ما كان لهم من عز وما صاروا اليه .

وقد وجد بين المتكلمين من قال انهم افضل من العرب ، وقد سبق ان اشرنا الى كتاب لافلاحة النبطية لابن وحشية ، والذي اراد مؤلفه أن يظهر طول باعهم في الحضارة والعمران ، وقد وردت بعض الاحاديث والاخبار في فضلهم» ص٩٠ .

ان رد السيدة الباحثة نموذج للنظرة «العروبية» السائدة في التعامل مع تاريخ البلدان العربية ، اي تلك النظرة القائمة على اساس المفهوم «العرقي» للتاريخ وليس على اساس

المفهوم «الوطني الارضي» . بمعنى اوضح ، اننا تعودنا ان نعتبر تاريخنا هو تاريخ العرب كقبائل وكعرق لاننا نحن «العرب» النسل البدني لتلك القبائل العربية ، وتاريخنا يبدأ بها . اما الشعوب السابقة فهي تكاد ان تكون اجنبية بالنسبة لنا ، بدنياً وعرقياً وتاريخياً . هكذا علمنا دعاة القومية ، متناسين بذلك ان تاريخ أي شعب هو تاريخ ارض الوطن بما حملته من شعوب وحضارات بمختلف عروقها ولغاتها واديانها . والسيدة الباحثة جهدت طيلة ردها للبرهنة على ان الانباط كانو عربا ، وان العرب توطنوا فلسطين وان وجود الانباط يثبت عروبة فلسطين ، طيب يا سيدتي ، وهل «عروبة فلسطين» تعتمد فقط على وجود الانباط . . اين اذن تضعين الكنعانيين والفلستين والعبرانيين والآراميين الذين سبقوا الانباط في فلسطين بالاف السنين وكانوا جزءا من ارض فلسطين وتاريخها وشعبها ؟ ان مشكلة هذا المنطق العروبي الضيق انه يخدم المنطق الصهيوني دون ان يدري . ان هذا المنطق العرقي هو اساس خراب القضية ، ان المنطق الصحيح هو الذي يعترف بأن شعب فلسطين الحالي بمسلميه ومسيحييه بالاضافة الى اليهود والارمن والشركس وغيرهم ، هو سليل طبيعي وحقيقي لكل الجماعات الصغيرة والكبيرة التي قطنت ارض فلسطين وصنعت تاريخها ، منذ العصور المجهولة » .

من مقالة في جريدة القدس اللندنية ـ سليم مطر - 6 - 7 - 1995»

خاتمـــــة

إقتراحات تكميلية لبناء هوية وطنية

الحالة العراقية

اثناء الأحاديث التي تجري في وسط العراقيين عن اشكاليات الهوية الوطنية ، تتردد الكثير من الآراء عن ضرورة اعادة النظر في كل التاريخ العراقي و «العربي» الشائع وإجراء اصلاحات وتغييرات في بعض النواحي المادية والمعنوية المتعلقة بالهوية الوطنية . نحاول هنا ان نسجل بعض هذه المقترحات الأساسية المتداولة في الوسط العراقي :

١ ـ اضفاء البُعد التاريخي لتسمية «العراق» :

لقد لاحظ العراقيون في المهجر ان الاغلبية الساحقة من الغربيين وحتى العرب ، لا يربطون بين إسم (الرافدين ـ ميزوبوتاميا) وإسم (العراق) ، بل ان الاغلبية الساحقة من العراقيين لا تعرف بأن تسمية (بلاد النهرين) معروفة في العالم الخارجي بترجمتها اليونانية (ميزوبوتاميا ـ MESOPOTAMIA) . بل ان المطلع على الوثائق السياسية والاثرية التي ظلت مستخدمة من قبل الاوربيين وبالذات الأنكليز حتى سنوات العشرينات كلها تستخدم تسمية (MESOPOTAMIA) ، ولم يتم فرض تسمية (IRAK) عالمياً إلا من قبل الحكومة العراقية بعد تكوينها .

نتيجة هذا الاهمال بأيضاح العلاقة بين الإسمين ، فأن الكثير من الناس في اوربا والعالم يحدثونك عن سومر وبابل وآشور وگلگامش ونبوخذر نصر وسميراميس ، وعندما تسألهم من اين هذه الأسماء ، يقولون انها من بلاد (ميزوبوتاميا) ، وعندما تسألهم اين تقع هذه البلاد ، تزوغ عيونهم في الخيال بحثاً عن الجواب ، فيقول بعضهم أنها في اليونان على اعتبار الاسم يونانياً ، وآخرون يعتقدون في الهند ، اما الاكثر معرفة فيقولون انها في الشرق الاوسط ، لكنهم لا يعرفون اين تقع بالضبط ! كلنا نعرف اهمية هذه المسألة بالنسبة للسمعة التاريخية والسياحية والحضارية للعراق ، وانعكاس تأثير هذا الجهل على الأفراد والفئات العراقية ومدى ثقتها بانتمائها للعراق ولهويته التاريخية .

الحقيقة ان الحل بسيط جداً ، ويعتمد فقط على قرار حكومي بسيط ، ولا يتطلب اية تكاليف ولا مؤتمرات ولا حملات اعلامية وسياحية . وهذا الحل شائع لدى الكثير من بلدان

العالم ، ولنا مثال قريب ، هو المثال المصري . من المعروف ان (مصر) هو الاسم المستعمل بالعربي (والعبري) وليس له جذور بعيدة في تاريخ مصر ، وهو مثل إسم (العراق) قد شاع بعد الفتح العربي . اما في الخارج (غير العربي) فهناك أسم آخر مستخدم رسمياً هو (ايجبت ـ EGYPTE) . وهذا الاسم اطلقه اليونان والرومان على بلاد النيل اشتقاقاً من تسمية مصرية قديمة تحور الى تسمية (قبط) . لو تخيلنا مثلا ان الحكومة المصرية اصرت على استخدام تسمية (مصر) وكتبتها بالحروف اللاتينية هكذا (MISR) ليصبح اسمها رسمياً وإعلامياً في الخارج ، بأعتبار (ايجبت) ليس عربياً ، لكان حصل لمصر من التجاهل المعلوماتي والتاريخي ما هو حاصل للعراق الآن .

ان الكثير من بلدان العالم لها اسماء وطنية خاصة بها ، أما في الخارج فأنها معروفة بأسم آخر او حتى بأسماء مختلفة حسب البلدان . مثلا (هولاندا) ، وتعني (البلاد المنخفضة) ولهذا فأن الالمان والفرنسيون والانكليز ، كل منهم ترجم هذه التسمية الى لغته واصبح يطلقها رسمياً على (هولندا) . مثال اخر (النمسا) وهي تسمية يطلقها العرب والاتراك عليها ، اما اسمها الوطني (اوستريا) وبالفرنسي (اوتريش) . (المانيا) هي التسمية المستخدمة من قبل الشعوب اللاتينية ، اما اسمها الوطني فهو (دويج لاند) . هناك عشرات الامثلة العالمية على هذا الحال ومنها الصين وروسيا .

بناءاً على هذه الامثلة ، نقترح التالي : أن يبقى اسم (العراق) الاسم الرسمي المستخدم في اللغة العربية ، مع اضافة (بصورة ثانوية) (بلاد الرافدين او النهرين) في المطبوعات الاعلامية والسياحية والمدرسية . اما على صعيد بلدان العالم (غير العربي) ، فيتم الغاء التسمية الشائعة حالياً (IRAK) ، وتحل محلها التسمية التاريخية المعروفة (ميزوبوتاميا ـ MESOPOTAMIA) ويتم التعامل مع هذا الاسم من قبل السفارات في الخارج وفي جميع المطبوعات الرسمية غير العربية . ويمكن الاستفادة كثيراً من التجربة المصرية في هذا المجال .

٢ ـ بناء عاصمة ثانية بأسم (بابل الجديدة) :

منذ البدأ نقول ان هذا المقترح ليس هناك تيقن تام من صلاحيته ، ولكنه يُطرح للنقاش والبحث : أن تبقى (بغداد) العاصمة الاقتصادية الثقافية للعراق وأكبر مدنه ، وتصبح (بابل الجديدة ـ New Babylon) العاصمة الادارية السياسية .

قبل ان نشرح مبررات الفكرة ، نقول ان هذا المشروع ليس غريباً ، بل أمر معروف

ومعمول به في الكثير من البلدان ، إذ توجد (عاصمة كبرى ثقافية وسكانية واقتصادية) بالاضافة الى (عاصمة إدارية حديثة وصغرى) أقل ازدحاماً ومشاكلا ، من اجل جعل الحكومة وقيادة الدولة بمنأى عن صعوبات العاصمة وسلبيات المدينة الكبيرة المكتظة بالسكان ، مثلا هناك : هولندا فيها امستردام ثم لاهاي . امريكا فيها نيويورك ثم واشنطن . المغرب فيه الدار البيضاء ثم الرباط ، باكستان فيها كراچي ثم اسلام أباد . . ويمكن ان نستمر بذكر بلدان عديدة اخرى .

اما حيثيات المشروع فتقول ان تغيير (العاصمة الادارية) من (بغداد) الى منطقة بابل (الحلة) ، ربما يخدم العراق بنواح كثيرة :

ـ ان هذه العاصمة الجديدة هي تعبير عن بدأ عصر حضاري وطني جديد (بعد تغيير النظام الحالي طبعاً) يرتبط مباشرة بتاريخ العراق الاصيل وعاصمته الحضارية الأولى ذات الشهرة الأسطورية والدينية والحضارية .

ـ أن بناء عاصمة جديدة يساعد على بناء دولة عراقية جديدة ، خارج مدينة بغداد المثقلة بكوارث التاريخ وجراح ذكرياته منذ حرائق المغول وتشويهات العثمانيين ، وصولا الى انتكاسات مشاريعنا وخيبات ثوراتنا في العصر الحديث . ثم ان بغداد اصبحت كأي مدينة من مدن العالم الثالث المحتشدة بالملايين من البشر تعاني من سوء التخطيط والاحياء الفقيرة وازدحام السير وتوتر الحياة الاجتماعية والسياسة . وكل هذا يؤثر على عناصر الدولة ويعيق عمل اجهزتها الادارية ويجعل الحكومة والبرلمان والادارات تعيش بجو خانق متوتر ينعكس مباشرة على استقرار الدولة ويمنع انسجام اجهزتها وافرادها .

ـ أن موقع بغداد غير مؤمون عسكرياً ، وكلنا نتذكر المخاوف التي سادت اثناء الحرب مع ايران ، من ان بغداد معرضة للأحتلال الايراني ، بسبب قربها من الحدود مع ايران التي تشرف عسكرياً على بغداد من خلال جبال زاگاروس الحدودية . اما منطقة بابل فأنها تقع على الفرات وبعيدة كثيراً عن ايران . بالنسبة للمخاطر التي يمكن ان تهدد بابل فأنها كانت على مر التاريخ تتمثل بالقبائل البدوية القادمة من بادية الشام والتي طالما سببت الأذى للمنطقة ، وفي زمننا هذا ما عاد الحديث ممكناً عن خطر القبائل البدوية ، لأنها عمليا قد انقرضت .

أن إقتراح بناء عاصمة جديدة يحتاج الى نقاشات كثيرة تدعم بدراسات جغرافية وبيئية واقتصادية وسياسية ، من أجل التأكد من مدى صلاحية مثل هذا المشروع .

٣ ـ تغيير علم الدولة والشعار الوطني :

منذ اعوام الستينات فرض على العراق (علم) بنجوم ترمز الى الوحدة العربية . وكلنا نعرف ان هذا التبجح بالوحدة العربية ، لا يعكس الحقيقة في الواقع والتطبيق . لأن هؤلاء العروبيون رغم تضحيتهم بالوحدة الوطنية الداخلية بأسم العروبة والقومية الا انه في الواقع العملي ، هم أكثر من آذى الوحدة العربية ومزق التضامن والتقارب بين الشعوب العربية ، بحيث انه من النادر في تاريخ بلدان العالم المعاصر أن تبقى الحدود مغلقة بين بلدين مثل (سوريا والعراق) منذ عشرات السنين . يقال أن الوان هذا العالم العروبي مستمدة من قصيدة حماسية تتحدث عن أمجاد العرب وخصالهم في الحروب ، ولا احد يدري ان كانت فعلا تلك الخصال هي التي يحلم بها المواطن ويحتاجها العراق الجديد :

بيض صنائعنا ، سود وقائعنا   خضر مرابعنا ، حمر مواضينا

اما بالنسبة للشعار الوطني فهو (الصقر العربي) وهو رمز مكرر وبدائي جداً وليس فيه غير معنى العنف وإفتراس الحيوانات المسالمة . أن وجود هذا الصقر يشبه رئيس الدولة او رجل الامن بعينيه الشرستين المقتحمتين وانفه السيفي الجارح .

اننا بحاجة الى (علم وشعار) فيهما رموز وطنية اصيلة بمعان انسانية تدعو للمحبة والسلام وليس للحروب والمفاخر الزائفة . حتى الالوان يجب ان تؤخذ بنظر الاعتبار ، لأن تأثير الالوان على الانسان معروف ، لهذا فأن الوان الرموز الوطنية يجب أن لا تراعي فقط الناحية الجمالية بل تأثير هذه الرموز والوانها على نفسية الانسان ونوعية المشاعر التي يمكن أن تثيرها : هدوء او عنف ، صفاء او قلق ، انفتاح ام انكماش . لأنه من المعروف أن (العلم والشعار) هي اكثر الاشياء التي يشاهدها المواطن كل حياته منذ الطفولة وينطبع تأثيرها يومياً في اعماقه .

إننا نسجل هنا صورتين تمثلان شعارين عراقيين من الآثار العراقية المعروفة ، اولهما (الشمس البابلية) قد يصلح ان يوضع في العلم العراقي ، علماً بأن هذا الرمز العراقي الاصيل قد تم استخدامه كشعار للعراق بعد (١٤ تموز ١٩٥٨) لكن القوميين قد الغوه فيما بعد . الرسم الثاني هو (كأس النهرين) ، أنه عمل فني رائع وفيه من الحداثة بحيث ان اكبر

الفنانين يمكن ان يتوهم حداثته ولا يصدق انه معمول منذ ما يقرب ثلاثة الاف عام . ثم ان هذا الشعار ليس فقط رمزاً بقيمة فنية جمالية عالية ، بل الاعظم من هذا أنه رمز عراقي بكل معنى الكلمة من حيث انه يصور نهري دجلة والفرات يفوران من كأس الوطن ويصبان في كفين متعاضدين بلونين مختلفين يمكن ان يرمزان لثنائية العراق في كل شيء : ثنائية دجلة والفرات ، وثنائية الموقع (بين هضاب آسيا شرقا وامتدادات البحر المتوسط غرباً) ، وثنائية التكوين السكاني والحضاري والديني والمذهبي (الآسيوي - السامي) (الكردي - العربي) (السني - الشيعي) ، وحتى نفسية الفرد العراقي ثنائية الى حد كبير في حدة جوانبها الايجابية والسلبية .

كأس الرافدين الفوارة

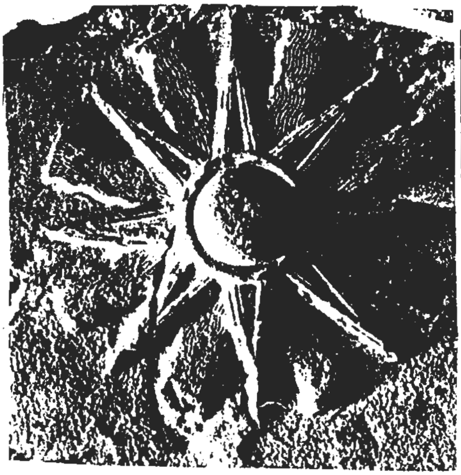

الشمس العراقية من الحقبة الاكدية
وكذلك في بابل وآشور

٤ - الاتفاق على اعياد وطنية تاريخية

الذي يجلب الانتباه في الوضع العراقي ، هو غياب اية مناسبة سنوية يشعر العراقيون بالارتباط بها مهما كانت ميولهم وفئاتهم اللغوية والدينية والمذهبية . حتى الآن لدينا مناسبة (١٤ تموز) وقد اضاف اليها البعثيون تموزين (١٧ و ٣٠) . وفي كل الاحوال فأن هذه الايام التموزية الثلاثة لا تمثل ابدا مناسبة وطنية حقيقية يجتمع عليها كل العراقيين . هناك يوم الجيش ويوم الشجرة ويوم الشرطة ويوم العمال . . الخ ، وهذه مناسبات لا نعتقد أنها تمس حقا مشاعر الانسان العراقي . أما الاعياد الدينية فهي عمومية وتشمل كل المسلمين في العالم ، وليس فيها خصوصية وطنية .

اننا بحاجة الى مناسبات تاريخية لها معان حضارية ورمزية معروفة وثابتة . لو اخذنا مثلا مناسبة تاريخية ظل العراقيين القدماء يحتفلون بها لمدة ثلاثة آلاف عام : عيد بداية السنة العراقية الجديدة ابتداءاً من اول نيسان لعدة ايام . لأن العراقيين كانوا يعتبرون نيسان (نيسانو بالاكدي بمعنى الدليل والعلامة ، ومنها نيشان بالعربي بنفس المعنى) اول اشهر السنة الجديدة ولأنه اول فصل الربيع والاعلان عن ولادة الحياة ورمز الخصب . ولا زال نظام السنة العراقية موجوداً في (عِلم الابراج) الذي اوجده البابليون حيث (الحمل) اول الابراج في نهاية آذار . وكان شهر نيسان العراقي يبدأ في أول بدر يعقب المنقلب الربيعي في (٢١ اذار الحالي) .

لقد ظل العراقيون يحتفلون بهذا العيد في سومر وفي بابل وفي نينوى لعدة آلاف من السنين حتى سقوط بابل على يد الفرس (539 ق .م) وبداية ضياع الحضارة العراقية . يبدو ان الايرانيين ، حتى قبل احتلال العراق ، ظلوا يقتبسون الحضارة العراقية من كتابة ولغة وفنون وعلوم وافكار دينية . من جملة هذه الامور التي اقتبسها الايرانيون التقويم البابلي وتقسيم السنة ، وبالذات (عيد السنة العراقية) . اطلق الايرانيون على هذا العيد العراقي (نيروز - اليوم الجديد) ، ويشير الى هذه الحقيقة جميع من كتبوا عن تاريخ ايران ، ومنهم المؤرخ الشهير (آرثر كريستنسن)[1] .

بالنسبة لعيد الربيع العراقي فأنه كان يسمى لدى السومريين (زاكموك) وباللغة السامية يسمى (آكيتو) وتلفظ بالعربي (حجتو) ولا زال في السرياني كلمة (حج) تعني العيد . نسجل هنا المقطع التالي الذي يصف طبيعة هذا العيد :

الربيع العراقي ـ عيد السنة الجديدة وأول الربيع

«يسمى السومريون العيد باسم «زكموك Zagmuk» أي (رأس السنة) وسماه البابليون باسم «أكيتو» أي (عيد رأس السنة) وكذا كان اسمه لدى الآشوريون .

وما دام الأمر يتصل بإحياء الطبيعة فإن دور موت «تموز» وبعثه من أهم الأدوار إلى جانب الاحتفال باحياء انتصار مردوخ على تعامة ، وخلق الكون والإنسان وغير ذلك من العبادات العامة والطقوس الدينية الرسمية والشعبية .

وبالنظر لأهمية هذه الرسوم في عقائد العراقيين القدماء نذكر بشيء من التفصيل بعض طقوسه الهامة . ففي الأيام الأربعة الاولى من العيد ، تجري التطهيرات الدينية في معبد مردوخ «إيساكلا» في كل صباح قبل شروق الشمس حيث يدخل الكاهن الأعلى بعد التطهير فيصلي لمردوخ وللآلهة الأخرى ، وبعد ذلك يقوم الكهنة الآخرون بالأعمال الطقسية المقررة . وفي مساء اليوم الرابع تتلى اسطورة الخليقة «حينما في العلى» في المعبد ، لأن رأس السنة الجديدة كان بمثابة خلق جديد .

ولم يقتصر مغزى هذا العيد على الالتقاء السعيد لكافة الناس فحسب ، بل أن الأحداث التي تجري هنا ، لها في رأي البابليين الأهمية الحاسمة لوجود الدولة ، وإذا صادف أن الاحتفال لم يتم بهذا العيد بسبب الحرب أو احتلال العدو للبلاد أو غياب الملك ، فإن ذلك يعتبر كارثة قومية . إن إحتفالات هذا العيد تجري في كافة أنحاء البلاد ، إلا أن أهم الاحتفالات تجري في مدينة بابل بالذات . تبدأ إحتفالات رأس السنة من ١ إلى ١١ نيسان أي في وقت تكون فيه الطبيعة في ذروة جمالها وحيث الحياة الجديدة تدب في كل شيء بعد أن يزول برد الشتاء القارص .

وفي المساء تحكى امام تمثال مردوخ ملحمة تكوين الخليقة وربما تقدم بعض الحركات التمثيلية . وبعد الصلوات والقرابين الاعتيادية في اليوم الخامس كان الكهنة المعوذون ينظفون المعبد . وكان أحد الطباخين يذبح شاة يقوم أحد الكهنة بمسح جدران المعبد بدمها وبهذه العملية تنقل الذنوب إلى الشاة التي ترمى في النهر «ككبش الذنوب» .

كان الملك يلعب في الاحتفالات الدينية اللاحقة دوراً مهماً حيث يدور في أرجاء المعبد ويلقى كافة شارات حكمه أمام الاله . ثم يقدم تقريراً عن أعماله في السنة المنصرمة ، ويعترف بذنوبه وعليه أن يعلن براءته عن وقوع بعض الأحداث التعسة والمصائب ، وبعد

ذلك يتلقى الملك صفعة على وجهه من رئيس الكهنة مع جرّ الأذنين منبهاً إياه بتأدية كل الواجبات الدينية على اكمل وجه . وبعد ذلك يسمح له بحمل شاراته الملكية . وفي المساء كان الملك ورئيس الكهنة يضحيان معاً بثور أبيض . وفي اليوم السادس يتم إستقبال الاله نبو القادم من بورسبا في شارع الموكب . وكانت الدمى المزوّقة المعدة للاستقبال تحرق بعد إجراء بعض المراسيم الدينية معها .

وأما العيد الحقيقي للشعب فإنه يبدأ في اليوم العاشر ، حيث يلمس الملك يد الاله مردوخ ويرجوه النهوض . وبهذا المشهد يتم الاقرار بشرعية الملك في حكمه . والآن ينطلق مردوخ مع حاشيته ، وكان تمثاله يوضع في سفينة (ماكوا) ، ويحتمل أنه يترك المدينة متوجهاً إلى الشمال . وهناك ، خارج أسوار بابل يتواجد ، (بيت اكيتو) أي «دار عيد رأس السنة » ، حيث تقام مراسيم دينية أخرى . وربما تقام هناك إستعراضات درامية لبعض الأساطير . وكان مردوخ يلعب فيها الدور الرئيس .

كانت المواكب المحملة بتماثيل الآلهة تعود إلى بابل عبر الطرق البرية ولهذا الغرض أمر نبوخذ نصر ببناء شارع الموكب العظيم الذي يمتد بين دار العيد إلي باب عشتار .

وكانت عربات المواكب الكبيرة المزوقة تحمل التماثيل وتسير عبر الشارع ذي الـ ٣٠٠م طولاً والذي زخرف جانباه على أرضية زرقاء بأسود ضخمة وحيوانات مقدسة للالهة عشتار ، وكان عرض الشارع ١٦م غطي في منتصفه ببلاطات من حجر الكلس وأما الحواشي من الجانبين فببلاطات من أحجار عرفت بالأبيض والأحمر وكانت العربات تسير بهدوء تتبعها مجموعة كبيرة بالموسيقى والرقص وتعلو الهتافات والتهاليل في كل مكان . وكان الموكب يتوجه من بوابة عشتار على طول الأسوار العالية للقصر حتى منطقة معبد مردوخ .

ومن الاحداث الهامة التي تجري خلال أعياد رأس السنة ، الزواج المقدس بين مردوخ وزوجته ساريانيتوم ويحتمل أن ذلك يعرض من قبل الملك ورئيسة الكهنة حتى يتم ضمان الخصوبة والثروة في البلاد في السنة الجديدة ، وترجع أصول هذا التقليد إلى العهد السومري أيضاً ، وفي أعياد رأس السنة ينبغي أن تزول الفوارق الاجتماعية . وكان المالكون يخدمون عبيدهم . ويجلس في مكان الملك رجل آخر عليه أن يكفر عن ذنوب الملك وأخطائه خلال العام المنصرم من حكمه . ومع عودة الآلهة إلى معابدهم وسَفَر نبو إلى بورسبا كان العيد العظيم يبلغ نهايته .

يقينا ، كانت هذه الأعياد تشكل للكهنة سوقاً رابحة إذ أن المعتقدين الوافدين من جميع أرجاء البلاد يبحثون عن أماكن الاقامة بالقرب من المعبد ، ويرغبون أيضاً في مختلف أنواع

الشراء تعويضاً عما لم يتسن لهم تحقيقه طيلة أيام السنة . وهكذا تزدهر تجارة الكهنة بالتماثيل المقدسة ورموز العيد كالموائد والأسرة والكراسي وعربة مردوخ التي صنعت كلها من الطين . وبمقدور كل واحد ان يجلب معه هذه الهدايا الصغيرة الى البيت كتذكار لهذا العيد العظيم . أما التجار فيعرضون بضائعهم أيضاً حول المعبد جاذبين الناس للشراء . ويحتمل أنه كانت ثمة نساء للمتعة ، يقدمن أنفسهن للرجال ، تكريماً للآلهة عشتار ، وهكذا لم يكن لهذا العيد أهمية رسمية للملك والكهنة فحسب ، بل يشارك فيه كافة أبناء الشعب .

من كتاب «حضارة مصر والعراق ـ دلو ـ ص393»

كذلك كتاب « رحلة الى بابل ـ كلينكل ـ ص155 - 158» .

يبدو أن هذا العيد انتقل الى سوريا مع انتقال معظم الميراث السومري الى الساميين ، ومنها عبادة تموز بأسم (أدون ـ السيد) أو (أدونيس) حسب اللفظ باليوناني ، مع عشتار . ولا زال تأثير هذا العيد واضحاً في الفصح اليهودي ، أما في الفصح المسيحي فالتأثير اوضح . فعلاوة على إتباع نفس الطريقة العراقية باختيار اول بدر بعد يوم المنقلب الربيعي في ٢١ آذار ، فأن المسيحية كذلك إعتبرت هذا اليوم قيامة السيد المسيح وعودته للحياة بعد صلبه ، وهذا يشبه تماماً احتفال العراقيين بقيامة تموز من (موته الشتوي في العوالم السفلى) وعودته الى الحياة جالباً معه الخصب والربيع(٢) .

وفي زمن العباسيين تم اعتبار عيد الربيع عيداً رسمياً ، ولكن بأسمه الفارسي المعروف (نيروز) . والحقيقة ان تسمية (نيروز) لم تكن تعني ان هذا الاحتفال كان ايرانياً ، بل ان هذه التسمية قد شاعت خلال قرون السيطرة الفارسية السابقة على العراق بمعنى (إحتفال ربيعي) ، بدليل انه في زمن العباسيين كانوا يطلقون على هذه المناسبة احياناً تسمية (الربيع الشامي) ، وفي مصر أطلقوا على عيد الربيع المصري تسمية (نيروز القبطي)(٣) .

ان عيد السنة العراقية الجديدة ظل عميقا في التقاليد الشعبيةفي ارياف العراق ومدنه السريان يحتفلون بالسنة الجديدة في اول نيسان ، واليزيدية يحتفلون كذلك في هذا العيد في ١٧ نيسان ، ويسموه عيد (الملاك طاووس) وهو نفسه (الاله تموز) . اما بالنسبة للمسلمين ، فرغم جميع الاشكاليات الدينية ونظام السنة الهجرية (القمرية) الذي دخل على المناسبات الموروثة وخربط مواعيدها المرتبطة بفصول السنة الشمسية ، نقول رغم هذا فأن هؤلاء العراقيين حافظوا على هذا العيد وحسب نظام السنة البابلية الاصلي الذي يبتدأ في (٢١ اذار) . نورد هنا مقطعاً يصف هذا العيد في ارياف محافظة ميسان :

* « دورة السنة : -

في هذه المناسبة التي تصادف ٢١ اذار يشتري الناس الخس والشموع على عدد افراد العائلة ويضعون الرز المطبوخ واللبن والأس والسمسم والسكر والحناء في (صينية) كبيرة ويطلقون على هذه المواد (جوه السلّه) وتجتمع العائلة حولها وتنتظر هدوء الجو وسكونه وصفاءه من الغيوم بحيث (العود لا يحرك العود) واذا ما حدث هذا فان العام الجديد قد حلّ وانقضى عام . بعد ذلك تأكل العائلة ما في (الصينية) . اما في اليوم التالي فيخرج الناس الى البساتين عصراً للنزهة ومعهم الاطعمة وفي المساء يعودون الى بيوتهم وتكون الاحتفالات قد انتهت ويعتقد الناس أن السنة تدور على اشياء يتشاءمون من بعضها ويتفاءلون من البعض الآخر مثلاً تدور على خنزير او كلب او قرد او اسد . . . الخ » .

من كتاب « التراث الشعبي في ميسان ـ كريم الكعبي ـ ص125 »

من كل هذا نقول ، أن عيد السنة العراقية الجديد (الربيع العراقي) هو من افضل المناسبات التاريخية الخاصة بالعراق والتي تستحق ان يعاد الاحتفال بها مع اضفاء الطابع التاريخي عليها والاتفاق على تأدية بعض الطقوس الرمزية التي كان معمولا بها ايام بابل ونينوى مع انشطة فنية وثقافية وإحتفالية مستمدة من هذا الميراث . بل يمكن ان يمنح هذا العيد بُعداً وطنياً شاملاًمن خلال اشراك جميع الفئات العراقية وإظهار مميزاتها التراثية وإصالتها التاريخية في هذا الوطن . يتوجب التنبيه ان اعادة الاحتفال بهذا العيد يجب ان لا تكون بالتنافس مع (عيد نيروز) بل على العكس ، ان هذا العيد العراقي سيكون سبباً ليجمعنا مع اشقائنا الاكراد وجيراننا الايرانيين . ليطلق عليه الآخرون اسم (نيروز) ونحن اسم (الربيع العراقي) ، فليس التسمية هي المهم بل الشعور بأن هذا العيد جزءا من ميراثك الحضاري . ثم ان هذا العيد يمكن ان يعاد الاحتفال به أيضاً في بلدان الشام ليكون ايضاً سبباً جامعاً مع اشقائنا الشاميين .

ـ يمكن ان نضيف مناسبة اخرى تستحق الابراز والاحتفال ، على الاقل على الصعيد الرسمي والرمزي والاعلامي : ذكرى تأسيس اول دولة عراقية موحدة في التاريخ ، على يد اول ملك عراقي تمكن من توحيد الدويلات والامارات العراقية المتناثرة على ضفاف الرافدين من الجنوب حتى الشمال ، أنه الملك العظيم (سرگون الاكدي) ، هذا مقطع تعريفي بهذه الملك وانجازاته التاريخية الريادية :

سرگون* الملك العادل

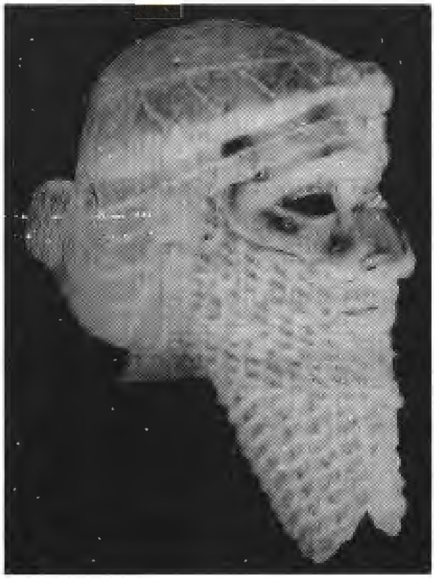

« يعُد سرگون أهم شخصية تاريخية في بلاد الرافدين بين نهاية العصر السومري القديم وحمورابي أي خلال خمسة قرون . وقد استطاع أن يطبع تاريخ بلاد الرافدين بطابعة لزمن طويل بوصفه نموذجاً للعاهل الفذ والقائد الفاتح الظافر ، وأضحت شخصيته موضوعاً لقصص ملحمية ولأساطير غريبة تداولتها الأجيال ، ولا بد أنها تعكس جزءاً من الحقيقة على الأقل قبل أن تتضخم بأفواه الرواة والقصاصين وبأقلام الكتّاب والنسّاخين . فقد تحدث الإخباريون عن طفولته العجيبة جيلاً بعد جيل وتناقلوا الروايات عن احاطة العناية الإلاهية به وعن تربيته في احضان القداسة . وتذكرنا هذه المرويات في بعض ملامحها بطفولة النبي موسى الذي يفترض أنه جاء بعد سرگون بما يقرب من ألف عام . فلقد ولد سرگون لأب مجهول ولأم كاهنة في قرية على ضفاف الفرات ، وقد أرادت أمُّه أن تتخلص منه فوضعته في سلّة من القصب المجدول وتركته في مجرى الماء . فتلقّفه بستاني يعمل في مزرعة لنخيل وأخذه وربّاه وعلّمه حرفته . وبدأ نجم الفتى الناشىء بالصعود بعد طفولة شاقة غامضة . فبرعاية آلهة عشتار دخل قصر ملك كيش ، أور ـ زبابا UR-Zababa ، الذي اختاره ساقياً في قصره ، ثم تدرج في وظائفه حتى أضحى وهو شاب من رجال القصر المرموقين . وعندما وجد الشاب سرگون الفرصة مواتية انفصل عن سيده وأسس لنفسه مقرا على مقربة من كيش في أغاديه = أكد Akkadu .

بدأ سرگون منذ نحو (ـ ٣٣٧٠) كفاحه من اجل إقامة كيان مستقل خاص به وتحت

---

* سرگون : تعني (الملك العادل او القانوني) وهي تتكون من كلمتين : (شرعو) وتلفظ (شارو) اي المُشرِّع وهو الملك بالسامية العراقية ، ثم كلمة (قينو) وتعني (قانون) او الحق والعدالة ، إذن (سرگون) بأصلها هي (شرعو قينو) (الملك العادل) .

زعامته وانتصر بعد حروب طويلة ومتواصلة على «ملك البلاد» لوجال زاجيزي ، وظفر بخصمه وفرض سيادته على سومر كلها بعد أن كان قد طوى تحت جناحه وسط بلاد الرافدين . ولم يجد صعوبة كبرى في إخضاع عيلام ، ثم صعد الفرات واستولى على ماري ودخل مناطق سورية الشمالية (حلب) حتى جبال طوروس . وتذكر الأساطير الأكدية أن سركون دخل الأناضول ووصل إلى موقع يدعى بوروش خاندا لنجدة جالية عراقية من التجار كانت قد استقرت هناك . ولم تقف في طريق تحركاته نحو الغرب (غربي الفرات) سوى مملكة إبلا (تل مرديخ الآن) التي كانت أهم قوة دولية منافسة لأكّد في تلك المرحلة من الألف الثالث ق . م في المنطقة» .

من كتاب « دول وحضارات ـ فرزات ومرعي ـ ص108»

* * *

ان تأكيدنا على الفترة العراقية السابقة للفتح الاسلامي يجب ان لا تنسينا ابداً عظمة الانجازات العراقية خلال ستة قرون من الدولة الاموية والدولة العباسية في بغداد . يجب ان يشعر العراقي ان (بغداد العباسية) لم تكن مدينة اسطورية بعيدة ، في مصر او الاندلس او في الحجاز ، بل هي نفسها بغداد الحالية في العراق ، وأن انجازاتها الحضارية هي من صنع اسلافه فعلا ، وان هارون الرشيد وأبو نواس والف ليلة وليلة والمتنبي وابن حيان والتوحيدي والكندي وإبن خلكان وحنين بن اسحاق وغيرهم وغيرهم ، كلهم عراقيون قبل ان يكونوا عرباً فقط ، كما عودنا الفهم العروبي للتاريخ . من هذا نقول انه يمكن الاتفاق علي مناسبة معينة تتعلق بهذه الفترة ، فلتكن مثلاً سنة الانتهاء من بناء بغداد واتخاذها عاصمة للدولة العباسية (٧٦٦م) ، ويمكن تقدير يوم افتتاح هذه المدينة ليكون يوماً سنوياً للأحتفال بأسم (عيد المدينة العراقية) ويشمل جميع المدن العراقية ، إذ يكون مناسبة للتذكير بتاريخ كل مدينة عراقية والكشف عن تراثها وأعلامها وتعمير المراكز الاثرية فيها .

ان هذه الاقتراحات المتعلقة بالهوية العراقية ، يمكن ان تكون مثالا للتعامل مع مسألة الهوية بالنسبة لجميع البلدان العربية (الشرقانية) . ان الفكرة الاساسية التي يتوجب ان نؤكد عليها ، اننا ابداً لا ندعوا الى بناء هوية وطنية على أساس التعارض والمنافسة مع شعوب البلدان الشقيقة والمجاورة . فمن السذاجة ان تتم الدعوة الى احترام خصوصية كل بلد عربي لتبرير العداء والاحتقار للبلدان الاخرى كما عودنا دعاة الخصوصية (القطرية) من فرعونيين

وفنقيين وبربر وغيرهم . اننا على العكس ندعوا الى الانفتاح نحو مواريث وثقافات جميع الشعوب ، المجاورة مثل ايران وتركيا ، وكذلك الشعوب الشقيقة التي يجمعنا بها الحاضر والماضي والمستقبل . بهذه المناسبة يمكننا مثلا ان ندعو الى الاتفاق على مناسبات تاريخية تحتفل بها جميع الشعوب (الشرقانية) ، منها مثلا ذكرى كفاح (حنا بعل ـ هانيبال) الرمز التاريخي الذي تتجاوز أهميته بلاده قرطاجة (تونس) ، لأن كفاحه البطولي وانتحاره المأساوي ما هو الا رمز عظيم لكفاح الشعوب (الشرقانية) ضد الاجتياح الاوربي (الروماني) الذي فرض سيطرته على المنطقة لعدة قرون ، بعد مقتل (هانيبال) . وعلى هذا المنوال يمكننا العثور على رموز ومناسبات عديدة تجمعنا ، من التاريخ السابق للأسلام والتاريخ الاسلامي .

نكرر بهذه الخاتمة ، اننا مع وحدة البلدان الشرقانية ، ولكن ليس على الطريقة (القومية العروبية) التي احتقرت الخصوصيات وضحّت بالوحدة الوطنية بأسم وحدة انفعالية (عابرة للقارات) لم تثمر غير الخيبات والمؤامرات والاجتياحات وغلق الحدود والحروب الدولية(مثال حرب الكويت) . اننا ندعوا لوحدة ، على الطريقة الأوربية ، خارج الفهم (العرقي العروبي) . . وحدة نافعة لجميع الفئات اللغوية والدينية والمذهبية في العالم الشرقاني (العربي) . . وحدة واقعية بعيدة عن الخطابات العروبية الرنانة والحدود المصطنعة والقاعدة الثورية التوسعية ، بل تعني بكل بساطة : الحدود المفتوحة لتنقل الاشخاص والبضائع ، والمشاريع الانمائية المشتركة ، وخطوط السكك الحديدية الممتدة بين جميع البلدان ، وحرية تنقل المطبوعات والمنتجات الثقافية . . انها بكل بساطة وحدة انسانية عامة ليس لها اي دخل بالعروبة الثورية ، بل يستفيد منها ويدافع عنها البربري والقبطي والنوبي والشركسي والارمني والكردي والتركماني والمسيحي والمسلم . . وحدة الجميع من أجل مصلحة الجميع .

المصادر الاساسية للخاتمة

1 ـ كريستنس ، آرثر ـ ايران في عهد الساسانيين ـ ص22 - 23- 162 » ـ دار النهضة ـ بيروت .

2 ـ فريحة ، انيس ـ دراسات في التاريخ ـ ص 43 و 26 - 61 ـ منشورات جروس ـ طرابلس ـ 1991 .

3 ـ الخازن ، وليم ـ الحضارة العباسية ـ ص 156 - 157 دار المشرق ـ بيروت 1986 كذلك ـ عبد الباقي ، احمد ـ معالم الحضارة العربية ـ ص 91 - 92 ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ 1991 .

انتهى